تفسير القاسمي

المسمى

محاسن التأويل

تأليف

الإمام العلامة محمد جمال الدين القاسمي

المتوفى سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م

ضبطه وصححه وخرّج آياته وأحاديثه

محمد باسل عيون السود

المحتوى

من أول سورة الأعراف - إلى آخر سورة التوبة

الجزء الخامس

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

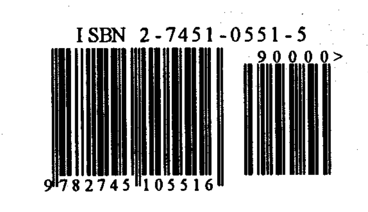
الطبعة الثانيـة
٢٠٠٣ م . ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

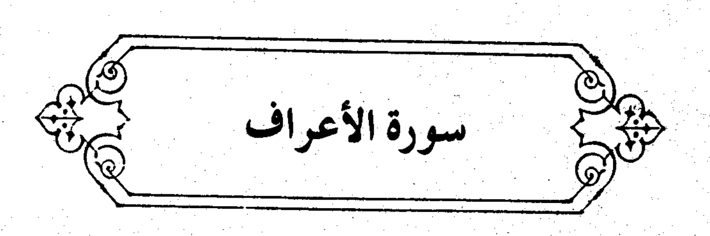
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-0551-5


http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة الأعراف

أخرج أبو الشيخ ابن حبان عن قتادة، قال: الأعراف مكية، إلا آية ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ وقال: من هنا إلى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ﴾ مدني.

وآياتها مائتان وست آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

الٓمٓصٓ (١)

﴿الٓمٓصٓ﴾

تقدّم الكلام في أول سورة البقرة، على حروف فواتح السور، والمذاهب فيها.

القول في تأويل قوله تعالى.

كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)

﴿كِتَابٌ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ فلاَ يَكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي: لا يكن فيك ضيق صدر من تبليغه، مخافة أن يكذبوك، أو أن تقصر في القيام بحقه. فإنه ﷺ كان يخاف قومه، وتكذيبهم له، وإعراضهم عنه، وأذاهم. فكان يضيق صدره من الأداء، ولا ينبسط له، فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم.

قال الناصر: ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ ما يُوحَى إِلَيْكَ وضَآئِقٌ به صَدْرُكَ أن يَقُولُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْه كَنزٌ أَوْ جآءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود:١٢] الآية ﴿لِتُنذِرَ بهِ﴾ أي: بالكتاب المنزل، المشركين ليؤمنوا ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي عظة لهم. وتخصيص الذكرى بالمؤمنين للإيذان باختصاص الإنذار بالمشركين. وتقديم الإنذار لأنه أهم بحسب المقام.

القول في تأويل قوله تعالى.

ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣)

قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ خطاب منه تعالى لكافة المكلفين بالأمر باتباع ما أنزل، وهو القرآن، والمراد بـ ﴿ما أُنزِلَ﴾: القرآن والسنة. وقوفاً مع عمومه، لقوله سبحانه: ﴿وما يَنطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى﴾ [النجم:٣-٤].

تنبيه:

قال السيوطي في (الإكليل): استدل به بعضهم على أن المباح مأمور به، لأنه من جملة ما أنزل الله، وقد أمرنا الله باتباعه - انتهى-.

وأقول: هذا غلوّ في الاستنباط، وتعمق بارد. ويرحم الله القائل: إذا اشتد البياض صار بَرَصاً.

﴿ولا تَتَّبِعواْ مِن دُونِهِ أوْلِياءَ﴾ أي لا تتبعوا أولياء غيره تعالى، من الجن والإنس. فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع ﴿قَليلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي ما تتعظون إلا قليلاً، حيث لا تتأثرون ولا تعملون بموجبه، وتتركون دينه تعالى، وتتبعون غيره. ثم حذرهم تعالى بأسه، إن لم يتبعوا المنزل إليهم، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾

﴿وكَم مِّن قَرْيَةٍ أهلَكْناها﴾ أي أردنا إهلاكها بسبب مخالفة المنزل إليهم ﴿فَجآءَها بأْسُنا﴾ أي: فجاء أهلها عذابنا ﴿بَيَاتاً﴾ أي بائتين. كقوم لوط. والبيتوتة: الدخول في الليل، أي ليلاً قبل أن يصبحوا ﴿أوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أي قائلين نصف النهار، كقوم شعيب. والمعنى: فجاءها بأسنا غفلة، وهم غير متوقعين له. ليلاً وهم نائمون، أو نهاراً وهم قائلون وقت الظهيرة. وكل ذلك وقت الغفلة. والمقصود أنه جاءهم العذاب على حين غفلة منهم، من غير تقدم أمارة تدلهم على وقت نزول العذاب، وفيه وعيد وتخويف للكفار. كأنه قيل لهم: لا تغتروا بأسباب الأمن والراحة، فإن عذاب الله إذا نزل، نزل دفعة واحدة. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿أفَأمِنَ أهْلُ القُرى أن يأْتِيَهُمْ بأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ أو أمِنَ أهْلُ القُرى أن يأْتِيَهُمْ بأْسُنا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨]؟ ثم تأثر تعالى عذابهم الدنيوي ببيان عذابهم الأخروي، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾

﴿فَلَنَسْئَلنَّ الّذينَ أُرْسِلَ إلَيْهِمْ﴾ أي: المرسل إليهم وهم الأمم، يسألهم عما

أجابوا عنه رسلهم كما قال: ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ماذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، ﴿وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: عما أجيبوا به، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ماذا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩]. والمراد بالسؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ أي: على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم ﴿بِعِلْمٍ﴾ أي: عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة ﴿وَما كُنَّا غائِبِينَ﴾ أي: عنهم وعما وجد منهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أي: وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها، يوم يسأل الله الأمم ورسلهم، العدل. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ﴾ أي: حسناته في الميزان ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الناجون من السخط والعذاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ﴾ أي: حسناته في الميزان ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ بالعقوبة ﴿بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ﴾ أي: يكفرون.

تنبيهات:

الأول: قال السيوطي في (الإكليل): في هذه الآية ذكر الميزان، ويجب الإيمان به. انتهى.

وقال الإمام الغزالي في (المضنون): تعلّق النفس بالبدن كالحجاب لها عن حقائق الأمور. وبالموت ينكشف الغطاء، كما قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنا عَنكَ غِطاءَكَ﴾ [ق:٢٢]، ومما يكشف له تأثير أعماله مما يقربه إلى الله تعالى ويبعده، وهي مقادير تلك الآثار، وإن بعضها أشد تأثيراً من البعض، ولا يمتنع في قدرة الله تعالى أن يجري سبباً يعرف الخلق في لحظة واحدة مقادير الأعمال، بالإضافة إلى تأثيراتها في التقريب والإبعاد. فحدّ الميزان ما يتميز به الزيادة من النقصان، ومثاله في العالم

المحسوس مختلف، فمنه الميزان المعروف، ومنه القبان للأثقال، والاصطرلاب لحركات الفلك والأوقات، والمسطرة للمقادير والخطوط، والعروض لمقادير حركات الأصوات. فالميزان الحقيقيّ، إذا مثله الله عز وجل للحواس، مثله بما شاء من هذه الأمثلة أو غيرها. فحقيقة الميزان وحده موجود في جميع ذلك، وهو ما يعرف به الزيادة من النقصان. وصورته تكون مقدرة للحس عند التشكيل، وللخيال عند التمثيل، والله تعالى أعلم بما يقدره من صنوف التشكيلات. والتصديقُ بجميع ذلك واجب. انتهى.

الثاني: الذي يوضع في الميزان يوم القيامة. قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً.

قال البغوي: يروى هذا عن ابن عباس، كما جاء في (الصحيح) [1] «أنَّ الْبَقَرَةَ وءَال عِمْرَانَ يأْتِيانِ يَوْمَ الْقِيامَةِ كأنَّهُما غَمامَتانِ أوْ غَيابَتانِ، أوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍّ».

ومن ذلك في (الصحيح) [2] قصة القرآن، وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرتُ ليلك، وأظمأتُ نهارك. وفي حديث البراء[3] في قصة سؤال القبر: فيأتي المؤمنَ شابٌّ حسن اللون، طيّب الريح، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح. وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق.

فالأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرضية، تبرز على هذا القول في النشأة الآخرة بصور جوهرية، مناسبة لها في الحسن والقبح. فالذنوب والمعاصي تتجسم هناك، وتتصور بصورة النار، وعلى ذلك حمل قوله تعالى: ﴿وإِنَّ جَهَنَّم لَمُحيطَةٌ بِالْكَافِرينَ﴾ [العنكبوت:٥٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامَى ظُلْماً

---

(١) الحديث رواه مسلم في: صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ٢٥٢ ونصه: عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «اقرءوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه. اقرءوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غَيَايَتَان. أو كأنهما فِرْقان من طير صوافّ. تحاجّان عن أصحابهما. اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة. ولا يستطيعها البَطَلة».

(٢) أخرجه ابن ماجة في: الأدب، ٥٢ – باب ثواب القرآن، حديث ٣٧٨١ ونصه: عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ «يجيء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب، فيقول: أنا الذي أسهرتُ ليلك وأظمأت نهارك».

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤ / ٢٨٧ .

إِنَّما يأْكُلونَ في بُطُونِهِم نَاراً﴾ [النساء: ١٠]. الآية – وكذا قوله ﷺ [١] «في حق من يشرب من إناء الذهب والفضة: إنما يجرجر في بطنه نار جهنم». ولا بعد في ذلك. ألا يرى أن العِلْمَ يظهر في عالم المثال على صورة اللبن.

وقيل: صحائف الأعمال هي التي توزن، ويؤيده حديث البطاقة. فقد أخرج أحمد [٢] والترمذي وصححه، وابن ماجة والحاكم والبيهقي وابن مردويه عن عبد الله بن عمر وقال: قال رسول الله ﷺ: «يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة. فينشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجلّ منها مدّ البصر، فيقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا، يا رب! فيقول: أفلك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل، فيقول: لا. يا رب فيقول: بلى. إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم. فيُخرَجِ له بطاقة فيها (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) فيقول: يا رب! ما هذه البطاقة مع هذه السجلاّت؟ فيقال: إنك لا تظلم. فتوضع السجلات في كِفة، والبطاقة في كِفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة».

وقيل: يوزن صاحب العمل، كما في الحديث[٣]: يؤتى يوم القيامة بالرجل

---

(١) أخرجه البخاري في: الأشربة، ٢٨ – باب آنية الفضة، حديث ٢٢٣٣ ونصه: عن أم سلمة، زوج النبيّ أن رسول الله ﷺ قال «الذي يشرب في إناء الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم».

(٢) أخرجه في المسند ٢/ ٢١٣، والحديث رقم ٦٩٩٤ ونصه: قال رسول الله ﷺ «إن الله عز وجل يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً. كل سجلّ مدّ البصر. ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظَلَمَتْكَ كَتَبَتي الحافظون؟ قال: لا، يا رب. فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيُبْهت الرجل. فيقول: لا، يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة. لا ظلم اليوم عليك.
فتُخرج له بطاقة فيها (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله) فيقول: أحضروه فيقول: يارب! ما هذه البطاقة مع هذه السجلاتّ؟ فيقال: إنك لا تُظْلَم. قال فتوضع السجلات في كِفَّة. قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقُلُ شيء باسم الله الرحمن الرحيم.
وأخرجه الترمذيّ في: الإيمان، ١٧ – باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، حدثنا سويد بن نصر.
وأخرجه ابن ماجة في: الزهد، ٣٥ – باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، حديث ٤٣٠٠.

(٣) أخرجه البخاريّ في: التفسير، ١٨ – سورة الكهف، ٧ – باب ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بآيات رَبِّهِمْ ولِقَائِه﴾، حديث رقم ٢٠٢٣ ونصه: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة».

السمين، فلا يزن عند الله جناح بعوضة. ثم قرأ ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً﴾ [الكهف:١٠٥].

وفي مناقب عبد الله بن مسعود، أن النبي ﷺ قال: «أتعجبون من دقة ساقيه؟ والذي نفسي بيده! لهما في الميزان أثقل من أُحُدٍ»[١].

قال الحافظ ابن كثير: وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار، بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، وتارة يوزن محلها، وتارة يوزن فاعلها. والله أعلم - انتهى.

قال أبو السعود: وقيل: الوزن عبارة عن القضاء السوي، والحكم العادل. وبه قال مجاهد والأعمش والضحاك، واختاره كثير من المتأخرين، بناء على أن استعمال لفظ الوزن في هذا المعنى شائع في اللغة والعرف بطريق الكناية. قالوا: إن الميزان إنما يراد به التوصل إلى معرفة مقادير الشيء. ومقادير أعمال العباد لا يمكن إظهارها بذلك، لأنها أعراض قد فنيت. وعلى تقدير بقائها، لا تقبل الوزن- انتهى- وأصله للرازي.

قال في (العناية): فمنهم من أوّل الوزن بأنه بمعنى القضاء والحكم العدل، أو مقابلتها بجزائها. من قولهم: وازنه، إذا عادله. وهو إما كناية أو استعارة. بتشبيه ذلك بالوزن المتصف بالخفة والثقل، بمعنى الكثرة والقلة. والمشهور من مذهب أهل السنة أنه حقيقة بمعناه المعروف انتهى.

فإن جمهور الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل.

قال في (فتح البيان): وأما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فلم يأتوا في استبعادهم بشيء من الشرع يرجع إليه. بل غاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية، وليس في ذلك حجة لأحد. فهذا إذا لم تقبله عقولهم، فقد قبلته عقول قوم هي أقوى من عقولهم: من الصحابة والتابعين وتابعيهم، حتى جاءت البدع كالليل المظلم، وقال كلٌّ ما شاء، وتركوا الشرع خلف ظهورهم. وليتهم جاءوا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ٤٢٠ والحديث رقم ٣٩٩١ ونصه: عن زرّ بن حبيش عن ابن مسعود أنه كان يجتني سواكاً من الأراك. وكان دقيق الساقين. فجعلت الريح تَكفؤه، فضحك القوم منه. فقال رسول الله ﷺ «مم تضحكون»؟ قالوا: يا نبيّ الله، من دقة ساقيه. فقال «والذي نفسي بيده! لهما أثقل في الميزان من أُحُد».

بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها، ويتحد قبولهم لها. بل كل فريق يدعي على العقل ما يطابق هواه، ويوافق ما يذهب إليه هو ومن تابعه، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم. يعرف هذا كل منصف. ومن أنكره فليصفّ فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتمذهب، فإنه إن فعل ذلك أسفر الصبح لعينيه. وقد ورد ذكر الوزن والميزان في مواضع من القرآن كقوله: ﴿ونَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيوْم الْقِيامة فلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ [الأنبياء:٤٧] . وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذينَ خَسروا أنْفُسهُمْ في جَهنّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢–١٠٣]. وقوله ﴿إنَّ اللّه لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠] وقوله: ﴿وأمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٨–٩].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً مذكورة في كتب السنة المطهرة. وما في الكتاب والسنة يغني عن غيرهما. فلا يلتفت إلى تأويل أحد أو تحريفه، مع قوله تعالى وقول رسوله الصادق المصدوق، والصباح يغني عن المصباح– انتهى.

وخلاصته، أن الأصل في الإطلاق الحقيقة، ولا يعدل عنها إلى المجاز إلا إذا تعذرت، ولا تعذر ههنا.

الثالث: إن قلت: أليس الله عز وجل يعلم مقادير أعمال العباد؟ فما الحكمة في وزنها؟ قلت :فيه حكم:

منها– إظهار العدل، وإن الله عز وجل لا يظلم عباده.

ومنها– امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقبى.

ومنها– تعريف العباد ما لهم من خير وشر وحسنة وسيئة.

ومنها– إظهار علامة السعادة والشقاوة.

ونظيره، أنه تعالى أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ ثم في صحائف الحفظة الموكلين ببني آدم، من غير جواز النسيان عليه سبحانه وتعالى. كذا في (اللباب).

وقال أبو السعود: إن قيل: إن المكلف يوم القيامة إما مؤمن بأنه تعالى حكيم منزه عن الجور، فيكفيه حكمه تعالى بكيفات الأعمال وكمياتها. وإما منكر له فلا يسلم حينئذ أن رجحان بعض الأعمال على بعض لخصوصيات راجعة إلى ذوات

تلك الأعمال، بل يسنده إلى إظهار الله تعالى إياه على ذلك الوجه، فما الفائدة في الوزن؟

أجيب بأنه ينكشف الحال يومئذ، وتظهر جميع الأشياء بحقائقها على ما هي عليه، وبأوصافها وأحوالها في أنفسها من الحسن والقبح، وغير ذلك. وتنخلع عن الصور المستعارة التي بها ظهرت في الدنيا، فلا يبقى لأحد ممن يشاهدها شبهة في أنها هي التي كانت في الدنيا بعينها، وأن كل واحد منها قد ظهر في هذه النشأة بصورته الحقيقية المستتبعة لصفاته، ولا يخطر بباله خلاف ذلك- انتهى.

وقد سبقه إلى نحوه الرازي.

ولما أمر تعالى أهل مكة باتباع ما أنزل إليهم، ونهاهم عن اتباع غيره، وبيّن لهم وخامة عاقبته بالإهلاك في الدنيا، والعذاب في الآخرة- ذكرهم فنون نعمه ترغيباً في اتباع أمره ونهيه، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ**﴾ أي جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً. أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿**وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعَايِشَ**﴾ جمع معيشة، وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها. أو ما يتوصل به إلى ذلك من المتاجر والمزارع والصنائع ﴿**قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ**﴾ الكلام فيه كالذي في قوله ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وقد مرّ قريباً. والتذييل مسوق لبيان سوء حال المخاطبين وتحذيرهم، أي ما مننا عليكم بذلك إلا لتشكروا بمتابعة ما أنزلنا إليكم، وترك متابعة من دوننا، فتحصلوا معايش السعادات الأبدية. ثم بيّن تعالى نعمته على آدم التي سرت إلى بنيه، وبيّن لهم عداوة إبليس وما انطوى عليه من الحسد لأبيهم، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾

﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْملائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُواْ إلاَّ إبْلِيسَ لَمْ**

يَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ هذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَاءٍ مَّسْنُونٍ فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩] وفي تصدير هذه الآية بالقسم وحرف التحقيق، كالتي قبلها، إعلام بكمال العناية بمضمونها.

قال أبو السعود: وإنما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين، مع أن المراد بهما خلق آدم عليه السلام وتصويره حتماً، توفية لمقام الامتنان حقه، وتأكيداً لوجوب الشكر عليهم، بالرمز إلى أن لهم حظاً من خلقه عليه السلام وتصويره، لما أنهما ليسا من الخصائص المقصورة عليه، بل من الأمور السارية إلى ذريته جميعاً، إذ الكل مخلوق في ضمن خلقه على نمطه، ومصنوع على شاكلته، فكأنهم الذي تعلق به خلقه وتصويره. أي: خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور، ثم صورناه أبدع تصوير، وأحسن تقويم، سار إليكم جميعاً- انتهى-.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿قال﴾ سبحانه وتعالى **﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾** أي أن تسجد كما وقع في سورة ﴿ص﴾. و(لا) مزيدة للتنبيه على أن الموبّخ عليه ترك السجود. ولتوكيد لمعنى الفعل الذي دخلت عليه وتحقيقه، كما في قوله تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد:٢٩]، كأنه قيل: ليتحقق علم أهل الكتاب، وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك. وتوقف بعض المحققين في وجه إفادة (لا) النافية تأكيدَ ثبوت الفعل مع إيهام نفيه، واستظهر الشهاب أنها لا تؤكده مطلقاً، بل إذا صحبت نفياً مقدماً أو مؤخراً صريحاً أو غير صريح، كما في ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ولا الضَّالِّينَ﴾ وكما هنا، فإنها تؤكد تعلق المنع به -انتهى-.

وقيل (ما منعك) محمول على (ما حملك وما دعاك) مجازاً أو تضميناً. وقال الراغب: المنع ضد العطية، وقد يقال في الحماية. والمعنى ما حماك عن عدم السجود. ولا يخفى أن السؤال عن المانع من السجود، مع علمه به، للتوبيخ ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وتحقيره أصل آدم عليه السلام. كما أوضحه قوله تعالى: **﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾** قال ابن كثير. هذا من العذر الذي هو أكبر من الذنب – انتهى –.

وإنما قال هذا، ولم يقل (منعني كذا) مطابقة للسؤال. لأن في هذه الجملة

التي جاء بها مستأنفة، ما يدل على المانع، وهو اعتقاده أنه أفضل منه، والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول، مع ما في طيّها من إنكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله. فالجملة متضمنة للجواب بقياس استدلاليّ، وهي من الأسلوب الأحمق كما في قصة نمروذ. وقد علل ما ادعاه من الخيرية والفضل بزعمه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين، لأنها جوهر نورانيّ، وهو ظلمانيّ، ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿ما مَنَعَكَ أن تَسْجُدَ لما خَلَقْتُ بيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] أي: بغير واسطة، وباعتبار الصورة. كما نبه عليه بقوله ﴿وَنَفَخْتُ فيهِ مِن رُّوحي﴾ [الحجر:٢٩] وباعتبار الغاية وهو ملاك الأمر، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له لما بين لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة في الأرض، وأن له خواصّ ليست لغيره. وبالجملة فالشيء كما يشرف بمادته، يشرف بفاعله وغايته وصورته، والثلاثة في آدم عليه السلام دونه، فاستبان غلطه.

وفي (اللباب) أن عدو الله إبليس جهل وجه الحق، وأخطأ طريق الصواب، لأن من المعلوم أن من جوهر النار الخفة والطيش والارتفاع والاضطراب. وهذا الذي حمله، مع سابقة شقائه، على الاستكبار عن السجود لآدم عليه السلام، والاستخفاف بأمر ربه، فأورده ذلك العطب والهلاك. ومن جوهر الطين الرزانة والأناة والصبر والحلم والحياء والتثبت، وهذا كان الداعي لآدم عليه السلام، مع سابقة سعادته، إلى التوبة من خطيئته، ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت [1]: «قال رسول الله ﷺ: خلقت الملائكة من نور، وخلق الجانّ من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». رواه مسلم.

تنبيه:

روى ابن جرير بإسناد صحيح عن الحسن في قوله تعالى ﴿خَلَقْتَني من نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ قال: قاس إبليس وهو أول من قاس. وأخرج أيضا بإسناد صحيح عن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس. ولذا احتج بهذه الآية من ذهب إلى عدم جواز تخصيص النص بالقياس، وإلا لما استوجب إبليس هذا الذم الشديد.

(١) أخرجه مسلم في: الزهد والرقاق، حديث ٦٠.

قال الرازي: بيان الملازمة أن قوله تعالى للملائكة ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ خطاب عامّ يتناول جميع الملائكة، ثم إن إبليس أخرج نفسه من هذا العموم بالقياس، وهو أنه مخلوق من النار، والنار أشرف من الطين، ومن كان أصله أشرف فهو أشرف، والأشرف لا يجوز أن يؤمر بخدمة الأدنى، والدليل عليه أن هذا الحكم ثابت في جميع النظائر، ولا معنى للقياس إلا ذلك. وقد ثبت أن إبليس لما خصص العموم بهذا القياس استحق الذم، وما ذاك إلا لعدم جوازه. وأيضاً ففي الآية دلالة على ذلك من وجه آخر: وذلك لأن إبليس لما ذكر هذا القياس قال تعالى: ﴿فاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أن تَتَكَبَّرَ فيها﴾ فوصفه تعالى بكونه متكبراً، بعد أن حكى عنه ذلك القياس الذي يوجب تخصيص النص وهذا يقتضي أن من حاول تخصيص عموم النص بالقياس تكبَّر على الله. ودلت هذه الآية على أن التكبر عليه تعالى يوجب العقاب الشديد، والإخراج من زمرة الأولياء. ثبت أن تخصيص النص بالقياس لا يجوز، وهذا هو المراد مما نقله الواحديّ في (البسيط) عن ابن عباس أنه قال: كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس، فعصى ربه وقاس، وأول من قاس إبليس فكفر بقياسه، فمن قاس الدين بشيء من رأيه، قرنه الله مع إبليس- هذا ما نقله الواحديّ في (البسيط) عن ابن عباس، وأفاده الرازي.

وقد روي عن السلف آثار كثيرة في ذم القياس، منها ما تقدم عن الحسن وابن سيرين وابن عباس. وعن مسروق قال: لا أقيس شيئا بشيء، فتزلّ قدمي بعد ثبوتها. وعن الشعبيّ: إياكم والقياس، وإنكم إن أخذتم به أحللتم الحرام، وحرمتم الحلال، ولأنْ أتغنى غنية، أحب إليّ من أن أقول في شيء برأيي. وقد ذكر الحافظ ابن عبد البرّ رحمه الله من هذا المعنى آثاراً وافرة في (جامع بيان العلم وفضله) وقال: احتج من نفى القياس بهذه الآثار ومثلها. وقالوا في حديث معاذ: إن معناه أن يجتهد رأيه على الكتاب والسنة. وتكلم داود في إسناد حديث معاذ وردّه ودفعه من أجل أنه عن أصحاب معاذ، ولم يُسَمَّوْا. قال الحافظ ابن عبد البر: وحديث معاذ صحيح مشهور، رواه الأئمة العدول، وهو أصل في الاجتهاد والقياس على الأصول. ثم قال: وسائر الفقهاء وقالوا في هذه الآثار وما كان مثلها في ذم القياس: إنه القياس على غير أصل، أو القياس الذي يردّ به أصل، والقول في دين الله بالظن. الا ترى إلى قول من قال منهم: أول من قاس إبليس؟ لأن إبليس ردّ أصل العلم بالرأي الفاسد، والقياس لا يجوز عند أحد ممن قال به إلا في رد الفروع إلى أصولها، لا في رد الأصول بالرأي والظن. وإذا صحّ النص من الكتاب والأثر، بطل القياس ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ

إذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ...﴾ [الأحزاب:٣٦] الآية- وأيّ أصل أقوى من أمر الله تعالى لإبليس بالسجود، وهو العالم بما خُلق منه آدم، وما خُلق منه إبليس، ثم أمره بالسجود له فأبى واستكبر لعلة ليست بمانعة من أن يأمره الله بما يشاء، فهذا ومثله لا يحلّ ولا يجوز. وأما القياس على الأصول، والحكم للشيء بحكم نظيره، فهذا ما لا يختلف فيه أحد من السلف، بل كل من رُوِي عنه ذم القياس قد وجد له القياس الصحيح منصوصاً. لا يدفع هذا إلا جاهل أو متجاهل، مخالف للسلف في الأحكام.

وقال مسروق الوراق:

كنَّا من الدين قبل اليوم في سعةٍ حتى ابْتُلِينا بأصحاب المقاييسِ
قاموا من السوق إذ قلَّت مكاسبهُم فاستعملوا الرأي عند الفقْرِ والبُوسِ
أما العُرَيْب فقوم لا عطاء لهم وفي الموالي علاماتُ المفاليِس

فلقيه أبو حنيفة فقال: هجوتنا. نحن نرضيك. فبعث إليه بدراهم فقال:

إذا ما أهل مصرٍ بادهُونا بآبدةٍ من الفُتْيا لطيفهْ
أتيناهم بمقياسٍ صحيح صَلِيبٍ من طراز أبي حنيفهْ
إذا سَمِعَ الفقيهُ بِهِ وَعَاهُ وأثبته بِحِبْرٍ في صحيفهْ

قال ابن عبدالبر: اتصلت هذه الأبيات ببعض أهل الحديث والنظر من أهل ذلك الزمن، فقال:

إذا ذُو الرأيِ خاصَمَ عن قياسٍ وجاء ببدعة منه سخيفهْ
أتيناهم بقولِ الله فِيها وآثـارٍ مبرَّزة شريفهْ

هكذا حكاه ابن عبد البر في (جامع فضل العلم). وله فيه في (باب ما جاء في ذم القول في دين الله بالرأي والقياس على غير أصل) مقالات سابغة جديرة بالمراجعة.

ومما ذكر فيه: أن أهل الحديث أفرطوا في أبي حنيفة، وتجاوزوا الحدّ. قال: والسبب الموجب لذلك، عندهم، إدخاله الرأي والقياس على الآثار، واعتبارهما. وأكثرُ أهل العلم يقولون: إذا صح الأثر بطل النظر. وكان ردّه لما ردّ من أخبار الآحاد بتأويل محتمل، وكثير منه قد تقدمه إليه غيره، وتابعه عليه مثله ممن قال بالرأي:

وجُلُّ ما يوجد له من ذلك ما كان منه اتباعاً لأهل بلده، كإبراهيم النخَعيّ وأصحاب ابن مسعود. إلا أنه أغرق هو وأصحابه في تنزيل النوازل، والجواب فيها برأيهم واستحسانهم. فأتى منهم في ذلك خلافٌ كبير للسلف. ثم قال: وما أعلم أحداً من أهل العلم إلا وله تأويل في آية، أو مذهب في سنة، ردّ من أجل ذلك المذهب سنة أخرى بتأويل سائغ، أو ادعاء نسخ. إلا أن لأبي حنيفة من ذلك كثيراً، وهو يوجد لغيره قليل. وعن الليث بن سعد أنه قال: أحصيت على مالك بن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة لسنة النبي ﷺ، مما قال مالك فيها برأيه. قال: وقد كتبت إليه أعظه في ذلك. هذا كلام ابن عبد البر ملخصاً.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض فتاويه: أنه روى عن عليّ وزيد أنهما إحتجا بقياس، فمن إدعى إجماعهم - أي الصحابة- على ترك العمل بالرأي والقياس، مطلقاً فقد غلط، ومن إدعى أنه من المسائل ما لم يتكلم فيها أحد منهم إلا بالرأي والقياس، فقد غلط، بل كان كل منهم يتكلم بحسب ما عنده من العلم، فمن رأى دلالة الكتاب ذكرها، ومن رأى دلالة الميزان ذكرها - انتهى -.

وقال ابن تيمية رحمه الله في فتوى أخرى: والصحابة كانوا يحتجون في عامة مسائلهم بالنصوص كما هو مشهور عنهم، وكانوا يجتهدون رأيهم ويتكلمون بالرأي، ويحتجون بالقياس الصحيح أيضاً. والقياس الصحيح نوعان:

أحدهما: أن يعلم أنه لا فارق بين الفرع والأصل إلا فرقاً غير مؤثر في الشرع، كما ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح(١) أنه سئل عن فارة وقعت في سمن، فقال: ألقوها وما حولها، وكلوا سمنكم. وقد أجمع المسلمون على أن هذا الحكم ليس مختصاً بتلك الفارة وذلك السمن، فلهذا قال جماهير العلماء: إنه أيّ نجاسة وقعت في دهن من الأدهان كالفارة التي تقع في الزيت، وكالهرّ الذي يقع في السمن، فحكمها حكم تلك الفارة التي وقعت في السمن. ومن قال من أهل الظاهر: إن هذا الحكم لا يكون إلا في فارة وقعت في سمن، فقد أخطأ، فإن النبي ﷺ لم يخص الحكم بتلك الصورة، لكن لما استُفتى عنها أفتى فيها، والاستفتاء إذا وقع عن قضية معينة أو عن نوع، فأجاب المفتى عن ذلك، خصه لكونه سئل عنه، لا لإختصاصه

---

(١) أخرجه البخاري في: الذبائح والصيد، ٣٤ - باب إذا وقعت الفارة في السمن الجامد أو الذائب، حديث ١٧٥ ونصه: عن ابن عباس عن ميمونة رضي الله عنهم قالت: سئل رسول الله ﷺ عن فارة سقطت في سمن؟ فقال «القوها وما حولها، وكلوه».

بالحكم. ومثل هذا أنه سئل عن رجل[١] أحرم بالعمرة وعليه جبة مضمَّخة بخلوق فقال: انزع عنك الجبة الخلوق، واصنع في عمرتك ما كنت تصنع في حجك. فأجابه عن الجبة، ولو كان عليه قميص أو نحوه، كان الحكم كذلك بالإجماع.

والنوع الثاني من القياس: أن ينص على حكم لمعنى من المعاني، ويكون ذلك المعنى موجوداً في غيره، فإذا قام دليل من الأدلة على أن الحكم متعلق بالمعنى المشترك بين الأصل والفرع سوّى بينهما، وكان هذا قياساً صحيحاً. فهذان النوعان كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان، يستعملونهما، وهما من باب فهم مراد الشارع. فإن الاستدلال بكلام الشارع يتوقف على أن يعرف ثبوت اللفظ عنه، وعلى أن يعرف مراده باللفظ. وإذا عرفنا مراده، فإن علمنا أنه حكم للمعنى المشترك، لا لمعنى يخص الأصل، أثبتنا الحكم حيث وجد المعنى المشترك. وإن علمنا أنه قصد تخصيص الحكم بمورد النص، منعنا القياس. كما أنا علمنا أن الحج خص به الكعبة، وأن الصيام الفرض خص به شهر رمضان، وأن الاستقبال خص به جهة الكعبة، وأن المفروض من الصلوات خص به الخمس، ونحو ذلك، فإنه يمتنع هنا أن نقيس على المنصوص غيره. وإذا عين الشارع مكاناً أو زماناً للعبادة، كتعيين الكعبة وشهر رمضان، أو عين بعض الأقوال والأفعال، كتعيين القراءة في الصلاة، والركوع والسجود، بل وتعيين التكبير وأمّ القرآن، فإلحاق غير المنصوص به يشبه حال أهل اليمن الذين أسقطوا تعيين الأشهر الحرم، وقالوا: المقصود أربعة أشهر من السنة، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧]. وقياس الحلال بالنص على الحرام بالنص، من جنس قياس الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا

---

(١) أخرجه البخاري في: فضائل القرآن، ٢ - باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب، حديث ٨١٥ ونصه: عن صفوان بن يعلى بن أميّة، أن يعلى كان يقول: ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي! فلما كان النبيّ ﷺ بالجعرانة، وعليه ثوب قد أظلّ عليه، ومعه ناس من أصحابه، إذ جاءه رجل متضمخ بطيب. فقال: يا رسول الله، كيف ترى في رجل أحرم في جبة بعد ما تضمخ بطيب؟ فنظر النبيّ ﷺ ساعة. فجاءه الوحي. فأشار عمر إلى يعلى أن: تَعَالَ. فجاء يعلى فأدخل رأسه فإذا هو محمرّ الوجه يغطّ كذلك ساعة. ثم سُرّي عنه فقال «أين الذي يسألني عن العمرة آنفاً»؟ فالتمس الرجل فجيء به إلى النبيّ ﷺ. فقال «أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات، وأما الجبة فانزعها، ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجك».

وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة:٢٧٥]. وكذلك قياس[1] المشركين الذين قاسوا الميتة بالمذكّى وقالوا أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله؟ قال تعالى ﴿وإنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إلى أوْليائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وإنْ أطَعْتُمُوهُمْ إنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١]. فهذه الأقيسة الفاسدة، وكل قياس دل النص على فساده فهو فاسد، وكل من ألحق منصوصاً بمنصوص يخالف حكمه، فقياسه فاسد. وكل من سوّى بين شيئين أو فرق بين شيئين بغير الأوصاف المعتبرة في حكم الله ورسوله فقياسه فاسد. لكن من القياس ما يعلم صحته، ومنه ما يعلم فساده، ومنه ما لم يتبين أمره. فمن أبطل القياس مطلقاً فقوله باطل. ومن استدل بالقياس المخالف للشرع فقوله باطل.

ومن استدل بقياس لم يقم الدليل على صحته، فقد استدل بما لا يعلم صحته، بمنزلة من استدل برواية رجل مجهول لا يعلم عدالته، فالحجج الأثرية والنظرية تنقسم إلى ما يعلم صحته، وإلى ما يعلم فساده، وإلى ما هو موقوف حتى يقوم الدليل على أحدها. ولفظ النص يراد به تارة ألفاظ الكتاب والسنة، سواء كان اللفظ دلالته قطعية أو ظاهرة، وهذا هو المراد من قول من قال: النصوص تتناول أفعال المكلفين. ويراد بالنص ما دلالته قطعية لا تحتمل النقيض، كقوله ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة:١٩٦]. و﴿اللَّهُ الَّذِي أنزلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ والْمِيزانَ﴾ [الشورى: ١٧]، فالكتاب هو النص، والميزان هو العدل، والقياس الصحيح من باب العدل، فإنه تسوية بين المتماثلين، وتفريق بين المختلفين. ودلالة القياس الصحيح توافق دلالة النص، فكل قياس خالف دلالة النص فهو قياس فاسد. ولا يوجد نص يخالف قياساً صحيحاً، كما لا يوجد معقول صريح يخالف المنقول الصحيح، ومن كان متبحراً في الأدلة الشرعية، أمكنه أن يستدل على غالب الأحكام بالنصوص وبالأقيسة، فثبت أن كل واحد من النص والقياس دل على هذا الحكم كما ذكرناه من الأمثلة، فإن القياس يدل على تحريم كل مسكر، كما يدل النص على ذلك، فإن الله حرم الخمر لأنها توقع بيننا العداوة والبغضاء، وتصدنا عن ذكر الله وعن الصلاة، كما دل القرآن على هذا المعنى. وهذا المعنى موجود في جميع الأشربة المسكرة، لا فرق في ذلك بين

---

(١) أخرجه النسائيّ في: الضحايا، ٤٠ - باب تأويل قول الله عز وجل: ﴿ولا تأكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، ونصه: عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿ولا تأكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، قال: خاصمهم المشركون فقالوا: ما ذَبَحَ اللهُ فلا تأكلوه. وما ذبحتم أنتم أكلتموه.

شراب وشراب، فالفرق بين الأنواع المشتركة من الجنس تفريق بين المتماثلين، وخروج عن موجب القياس الصحيح، كما هو خروج عن موجب النصوص. وهم معترفون بأن قولهم خلاف القياس، لكن يقولون: معنا آثار توافق، اتبعناها، ويقولون: إن اسم الخمر لم يتناول كل مسكر. وغلطوا في فهم النص، وإن كانوا مجتهدين مثابين على اجتهادهم. ومعرفة عموم الأسماء الموجودة في النص وخصوصها، من معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وقد قال تعالى: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنزَلَ اللهُ على رسُولِهِ﴾ [التوبة:٩٧] والكلام في ترجيح نفاة القياس ومثبتيه يطول استقصاؤه ولا يحتمل المقام بسطه أكثر من هذا – والله أعلم – انتهى كلامه رحمه الله.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾

﴿قَالَ﴾ تعالى لإبليس ﴿فاهْبِطْ منها﴾ أي: بسبب عصيانك لأمري وخروجك عن طاعتي. وأكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الجنة، والإضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها. قال ابن كثير: ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التي هو فيها من الملكوت الأعلى– انتهى – وعليه اقتصر المهايمي حيث قال: فاهبط منها أي: من رتبة الملكية إلى رتبة العناصر ﴿فما يَكُونُ لَكَ أن تَتَكَبَّرَ فيها﴾ أي: فما يصح ولا يستقيم، فإنها مكان المطيعين الخاشعين ﴿فَاخْرُجْ﴾ تأكيد للأمر بالهبوط، متفرّع على علته ﴿إنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي: من الأذلاء وأهل الهوان على الله تعالى وعلى أوليائه.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾

﴿قَالَ أنظِرْنِي﴾ أي: أمهلني ولا تُمتني ﴿إلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: آدم وذريته من القبور.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

﴿قَالَ﴾ أي: الله له ﴿إنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ﴾ أي من المؤجلين إلى نفخة الصور

الثانية. قال ابن كثير: أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع. ولا معقب لحكمه.

وقال الإمام أبو سعد المحسن بن كرامة الجشميّ اليمانيّ في تفسيره (التهذيب): ومتى قيل: ما وجه سؤاله مع أنه مطرود وملعون؟ فجوابنا علمه بإحسانه تعالى إلى خلقه من أطاع ومن عصى، فلم يمنعه من السؤال ما ارتكب من المعصية. ومتى قيل: هل خاطبه بهذا؟ قلنا: يحتمل ذاك، ويحتمل أنه أمر ملكاً فخاطبه به. ومتى قيل: هل يجوز إجابة دعاء الكافر؟ قلنا: فيه خلاف.

الأول: قيل لا، لأنه إكرام وتعظيم - عن أبي عليّ - ولذلك يقال: فلان مستجاب الدعوة، وإنظاره لا على سبيل إجابة دعائه، لأنه ملعون ولأنه لم يسأل على وجه الخضوع.

الثاني: يجوز إجابة دعائه استصلاحاً له، لأنه تفضّلٌ- عن أبي بكر أحمد بن عليّ- وليس بالوجه. ومتى قيل: إذا أُنظِر هل يكون إغراء بالمعصية؟ قلنا: لا، لأنه لم يعلم ما الوقت المعلوم، فلا يكون إغراءً مع تجويزه هجوم الموت عليه، ولأنه تعالى لما أعلمه أنه يدخله النار، ولعنه - علم أنه لا يختار الإيمان أبداً. ومتى قيل: ما فائدة إنظاره؟ قلنا: لطف له، لأنه يمكنه من استدراك أمره. وهل يضل به أحد؟ قال أبو عليّ، لا، لقوله تعالى: ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ [الصافات:١٦٢]، ﴿إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:١٦٣]. ولأنه لو ضل به، لكان بقاؤه مفسدة، فكان الله تعالى لا يُنظره. فأما أبو هاشم فيجوّز أن يضل به أحد، ويكون بمنزلة زيادة الشهوة، ويجوز أن يكون لطفاً من وجوه: أحدها أن المكلف مع وسوسته إذا امتنع من القبيح، كان ثوابه أكثر، ولأنه تعالى عرفنا عداوته، والعاقل يجتهد في أن يغيظ عدوّه ويغمّه، وذلك إنما يكون بطاعة ربه، ومن أطاعه فمن قِبَل نفسه أتى، لا من قبل ربه. انتهى كلام الجشمي، وهو جارٍ على أصول المعتزلة.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾

﴿قَالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي﴾ أي أضللتني عن الهدى، أو حكمت بغوايتي. والباء للقسم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [ص:٨٢]. أي: فاقسم بإغوائك إياي. وقيل: هي بمعنى لام التعليل، أي: لأجل إغوائك إياي ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ أي:

لآدم وبنيه ترصداً بهم، كما يقعد القطاع للطريق على السابلة ﴿صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: طريقك السويّ، وهو طريق الحق، ومعناه لا أفتر عن إفسادهم. وانتصابه على الظرفية أو على نزع الجارّ.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ (١٧)

﴿ثُمَّ لأتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أيْدِيهِمْ ومِنْ خَلْفِهِمْ وعَنْ أيْمانِهِمْ وعَن شمائِلِهِمْ﴾

أي من جميع الجهات الأربع. مثّل قصده إياهم بالتسويل والإضلال من أي وجه يمكنه، بإتيان العدوّ من الجهات الأربع التي يعتاد هجومه منها. ولذلك لم يذكر الفوق والتحت ﴿ولا تَجِدُ أكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ﴾ أي مستعملين لقواهم وجوارحهم، وما أنعم الله به عليهم في طريق الطاعة والتقرب إلى الله. وإنما قال ذلك لما رآه من الأمارات على طريق الظن، كقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فاتَّبَعُوهُ إلاَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]. روى الإمام أحمد[١] عن سبرة بن الفاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتُسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟ قال: فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطِوَل. قال: فعصاه فهاجر. قال: ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له: هو جهاد النفس والمَال. فتقاتل فتُقتل فتُنكح المرأة ويُقسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد. فقال رسول الله ﷺ: فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقاً على الله عز وجل أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقاً على اللّه أن يدخله الجنة».

وقال الحافظ: ورد في الحديث استعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، فروى الإمام أحمد[٢] وأبو داود[٣] والنسائي[٤] وابن ماجة[٥] وابن حبان

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/ ٤٨٣ .

(٢) أخرجه في المسند ٢/ ٢٥، والحديث رقم ٤٧٨٥ .

(٣) أخرجه أبو داود في: الأدب، ١٠١ – باب ما يقول إذا أصبح، حديث ٥٠٧٤ .

(٤) أخرج النسائيّ قوله (اللهم إني أعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي) في: الاستعاذة، ٦٠ – باب الاستعاذة من الخسف.

(٥) أخرجه ابن ماجة في: الدعاء، ١٤ – باب ما يدعو به الرجُل إذا أصبح وإذا أمسى، حديث رقم ٣٨٧١ .

والحاكم عن عبد الله بن عُمَر قال: «لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي اللهم! إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم! احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي». ورواه البزار عن ابن عباس

فائدة:

قال الجشمي: تدل الآية أنه سأل الإنظار، وأنه تعالى أنظره، وقد بينا ما قيل فيه. وتدل على شدة عداوته لبني آدم وحرصه على إضلالهم. وتدل على أن أكثر بني آدم غير شاكرين. وتدل على أن الإضلال فعل إبليس، والقبول عنه فعلهم، لذلك أضافه إليهم، وذمَّهم عليه، ولو كان خلقاً له لما صح ذلك.- انتهى - والكلام في أمثالها معروف.

ثم أكد تعالى على إبليس اللعنة والطرد والإبعاد عن محل الملأ الأعلى، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

﴿قَالَ اخْرُجْ منها مَذْءُوماً﴾ بالهمزة في القراءة المشهورة، من (ذَأَمَهُ) إذا حقره وذمه، وقرئ (مَذُوماً) بذال مضمومة وواو ساكنة، وهي تحتمل أن تكون مخففة من المهموز بنقل حركة الهمزة إلى الساكن ثم حذفها، وأن تكون من المعتلّ، وكان قياسه (مذيم) كمبيع. إلا أنه أبدلت الواو من الياء، على حدّ قولهم (مكول) في مكيل، و (مشوب) في مشيب. ﴿مَّدْحوراً﴾ مقصيّاً مطروداً ﴿لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ اللام فيه، لتوطئة القسم. وجوابهُ ﴿لأَملأَنَّ جهَنَّمَ مِنكُمْ أجْمَعِينَ﴾ أي: لَمن أطاعك من الجن والإنس، لأملأن جهنم من كفاركم، كقوله تعالى: ﴿قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فإِنَّ جَهَنَّمَ جزآؤُكُم جَزاءً مَّوْفُوراً﴾ [الإسراء:٦٣].

قال الجشميّ: وإنما قال ذلك لأنه لا يكون في جهنم إلا إبليس وحزبه من الشياطين، وكفار الإنس وفسَّاقهم، الذين انقادوا له وتركوا أمر اللّه لأمره، فجمعهم في الخطاب. ومتى قيل: لم ضيّق جهنم ووسع الجنة؟ قلنا: لأن جهنم حبس، والجنة دار ملك. ومتى قيل: فما الفائدة في قوله ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ﴾ قلنا: لطفاً ليكون

المكلف تبعاً للأنبياء دون الشياطين، ولطفاً لإبليس وحزبه، لأنه غاية في الزجر والنهي.

تنبيه:

قال الجشمي: تدل الآية على الوعيد لمن تبع إبليس، وأنه يملأ جهنم منهم، ولا بدّ فيه من شرط، وهو أن لا يتوب، أو لا يكون معه طاعة أعظم. وتدل على إذلال إبليس وطرده ولعنه بسبب عصيانه، تحذيراً عن مثل حاله.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿**وَيا آدمُ**﴾ أي: وقلنا يا آدم ﴿**اسْكُنْ أنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**﴾ أي جنة الخلد، أو جنة في الأرض.

قال الجشمي: وقد تقدم ذكر هذه القصة، والفائدة في إعادتها أن القرآن نزل في بضع وعشرين سنة، والعوارض تعرض، والوفود تقدم، فكانت القصة تعاد، ليسمع من لم يسمع، استصلاحاً ولطفاً. لأن في إعادة قصة واحدة، في مواضع بألفاظ مختلفة، كل واحد منها في نهاية الحسن، من إعجاز القرآن. ﴿**فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ**﴾ أي من كل مكان ﴿**شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هَذِهِ الشَّجَرةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ أي فتصير من الذين ظلموا أنفسهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾

﴿**فَوَسْوَس لَهُما الشَّيْطانُ**﴾ أي: إبليس بأكل الشجرة مخيلاً لهما النفع ﴿**لِيُبْدي لَهُما**﴾ أي: يظهر لهما ﴿**ما وُرِيَ**﴾ أي: ستر ﴿**عَنْهُما مِن سَوْءَاتِهِما**﴾ أي: عوراتهما، واللام في ﴿**لِيُبْدِي**﴾ إما للعاقبة، لأنه لم يعلم صدوره منهما، أي: فكان عاقبة وسوسته أن أظهر سوآتهما، أو للتعليل والغرض، وهو الأصل فيها، بناء على حدسه أو علمه بطريقٍ ما.

تنبيه:

في الآية دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور، وأنه مستهجن في الطباع ولذلك سميت سوأة، لأنه يسوء صاحبها.

قال الحاكم: وقد استدل قوم بالآية على وجوب ستر العورة، وأنه كان في شريعة آدم عليه السلام. قال القاضي: لا دليل في الآية على الوجوب، لأنه ليس فيها إلا أنهما فعلا ذلك. قال الأصم: في الآية دليل على أنهما كرها التعريّ، وإن لم يكن لهما ثالث، ففي ذلك دليل على قبح التعرّي، وإن لم يكن مع المتعري أحد، إلا لحاجة.

﴿ **وَقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إلاَّ أن تَكُونا** ﴾ أي: إلاَّ كراهة أن تكونا ﴿ **مَلَكَيْنِ أوْ تَكُونا من الْخالِدِينَ** ﴾ أي: من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين. وقد استدل بهذا من رأى تفضيل الملائكة على الأنبياء، لارتكابهما ذلك طمعاً في نيل ما ذكر. وأجاب، من لم ير هذا، باحتمال أن تكون هذه الواقعة قبل نبوة آدم. ولئن كانت بعدها، فلعل آدم رغب في الملكية للقوة والشدة والقدرة، أو لخلقة الذات، بأن يصير جوهراً نورانيّاً - أشار له الرازي -

وقال الناصر: لا يلزم من اعتقاد إبليس لذلك ووسوسته بأن الملائكة أفضل، أن يكون الأمر كذلك في علمه تعالى. ألا ترى إبليس قد أخبر أن الله تعالى منعهما من الشجرة حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين، وهو في ذلك كاذب مبطل فلا دليل فيه إذاً، وليس في الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لإبليس على ذلك، ولا تصديقه فيه، بل ختمت الآية بما يدل على أنه كَذَب لهما وغرّهما، إذ قال الله تعالى: ﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ فلعل تفضيل الملائكة على النبوة من جملة غروره - انتهى -.

قال السيوطي في (الإكليل): وأنا أقول: لا أزال أتعجب ممن أخذ يستدل من هذه الآية. والكلام الذي فيها، حكاه الله تعالى عن قول إبليس في معرض المناداة عليه بالكذب والغرور والزور والتدليس. وإنما يستدل من كلامه تعالى، أو من كلام حكاه عن بعض أنبيائه. وإن لم يكن ذلك، فكلام حكاه راضياً به مقرّاً له - انتهى.

على أنه قرئ (مَلِكين) بكسر الام، كان يقرؤها كذلك ابن عباس ويحيى بن أبي كثير. قال الواحديّ إنما أتاهما إبليس من جهة الملك. ويدل على هذا قوله تعالى ﴿ هَلْ أدُلُّكَ على شَجَرَةِ الْخُلْدِ ومُلْكٍ لاَ يَبْلى ﴾ [طه: ١٢٠] - انتهى -.

والقراءة الشاذة قد تكون تفسيراً للمتواترة، كما لا يخفى، وبه يندفع ما للرازي هنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾

﴿**وَقَاسَمهُمَا**﴾ أي أقسم لهما ﴿**إِنّي لَكما لَمِنَ النَّاصِحينَ**﴾ أي: في هذا الأمر. قال ابن كثير: أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما. وقد يخدع المؤمن بالله - انتهى -.

وعن قتادة: إنما يخدع المؤمن بالله. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة، أعتقه، فكان عبيده يفعلون ذلك طلباً للعتق، فقيل له: إنهم يخدعونك! فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

﴿**فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ**﴾ أي: أطمعهما. وأصله: الرجل العطشان يدلّي في البئر ليروى من مائها، فلا يجد فيها ماءً، فيكون مدلّياً فيها بغرور، فوضعت التدلية موضع الإطماع فيما لا يجدي نفعاً. وفيه إشعار بأنه أهبطهما بذلك من درجة عالية، إلى رتبة سافلة. فإن التدلية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى إسفل. وقيل: معنى دلاهما جرأهما بغروره، والأصل فيه (دللهما)، والدلّ والدالة الجرأة كما قال:

أظُنّ الحلمَ دلَّ عليَّ قومي وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الْحَلِيمُ

فأبدل أحد حرفي التضعيف ياءً:

﴿**فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرةَ بَدَتْ لَهُما سَوْءاتُهما**﴾ أي: أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية فتهافت عنهما اللباس، فظهرت لهما عوراتهما. قال السيوطي في (الإكليل): استدل به بعضهم على أن من ذاق الخمر عصى - انتهى - وهذا وقوف مع ظاهر ما ههنا، فإن الذوق وجود الطعم بالفم، وظاهر أنه قد يعبر به عن الأكل اليسير، وهو المراد هنا، لأنه وقع في آية أخرى مصرحاً بالأكل فيها ﴿**وطَفِقا يَخْصِفانَ**﴾ أي: أخذا يرقعان

ويلزقان ورقة فوق ورقة ﴿عَلَيْهِما مِن وَرَقِ الْجَنَّة﴾ أي: ليستترا به.

قال الجشمي: تدل على أن ستر العورة كان من شريعة آدم عليه السلام. وقد استدل قوم بالآية على وجوب الستر. قال القاضي: وليس في الآية ما يوجب الوجوب، إذا ليس فيها أكثر من أنهما فعلا ذلك. قال الأصم: وتدل على أن الستر من خلُق آدم وحواء، وأنهما كرها العريّ وإن لم يكن لهما ثالث، ففي ذلك دليل على قبح التعريّ إلا عند الحاجة.

﴿ونَادَاهُما ربُّهُما﴾ أي يذكرهما النهي السابق والأمر والتجنب عن الشيطان ﴿أَلَمْ أنهكُما عَن تِلْكُما الشَّجَرةِ﴾ أي: عن الأكل منها ﴿وأَقُل لَّكُمَا إنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾

﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنا أنفُسنا﴾ أي أضررناها بالمعصية ﴿وإن لَّمْ تَغْفِر لَنا﴾ أي ما سلف ﴿وتَرْحَمْنا﴾ أي بالتوبة وقبولها ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي لنصيرن ممن خسر جميع ما حصل له من الكمالات. قال الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿رَبَّنا ظَلَمْنا...﴾ الآية- هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه.

لطيفة:

قال الجشمي: يقال إن آدم عليه السلام سعد بخمسة أشياء: اعترف بالذنب، وندم عليه، ولام نفسه، وسارع إلى التوبة، ولم يقنط من الرحمة، و شقى إبليس بخمسة أشياء: لم يقر بالذنب، ولم يندم، ولم يلم نفسه بل أضاف إلى ربه فلم يتب، وقنط من الرحمة.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾

﴿قالَ اهبِطُوا﴾ أي من الجنة إلى ما عداها. وقال أبو مسلم: معناه اذهبوا. وهو خطاب لآدم وحواء وإبليس. قال ابن كثير: والعمدة في العداوة آدم وإبليس، ولهذا قال في سورة طه: ﴿قالَ اهْبِطا مِنْهما جَمِيعاً...﴾ [طه:١٢٣] الآية – وحواء تبع لآدم، والحية إن كان ذكرها صحيحاً فهي تبع لإبليس. وقد ذكر المفسرون الأماكن

التي هبط فيها كل منهم. ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها، ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة، تعود على المكلفين، في أمر دينهم أو دنياهم، لذكرها الله تعالى في كتابه، أو رسوله ﷺ - انتهى - ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي استقرار أو موضع استقرار. ﴿وَمَتَاعٌ﴾ أي تمتع ومعيشة ﴿إِلَى حِينٍ﴾ أي: إلى تقضّي آجالكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

﴿قَالَ فِيهَا﴾ أي الأرض ﴿تَحْيَوْنَ﴾ تعيشون ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي: يوم القيامة للجزاء، كقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٥]، ثم ذكرهم سبحانه بنعمته في تبوئة الدار والمستقر في الأرض، وكسوتهم لباساً يسترون به سوءاتهم، بعدما نزع عنهما لباس الجنة، وذلك لما هم بعد الإهباط، من الحاجة إلى اللباس والمعاش. فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

﴿يا بَنِي آدمَ قَدْ أنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِباساً﴾ يعني ما يلبس من الثياب وغيره.

قال الزمخشري: جعل ما في الأرض منزلاً من السماء، لأنه قضى ثمة وكتب، أي قضى وقسم لكم، وقضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء، حيث كتب في اللوح المحفوظ.

وقال أبو البقاء: لما كان الريش واللباس ينبتان بالمطر، والمطر ينزل، جعل ما هو المسبب بمنزلة السبب - انتهى -.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في فتوى له في معنى النزول: لا حاجة إلى إخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة، فإن اللباس ينزل من ظهور الأنعام، فامتن سبحانه بما ينتفعون به من الأنعام في اللباس والأثاث، وهذا - والله أعلم - معنى إنزاله، فإنه ينزله من ظهور الأنعام، وهو كسوة الأنعام من الأصواف والأوبار والأشعار، وينتفع به بنو آدم في اللباس والرياش، فقد أنزلها عليهم، وأكثر أهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب، فهي لدفع الحر والبرد، وأعظم مما يصنع من القطن والكتان.

﴿يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾ أي يستر عوراتكم التي قصد إبليس إبداءها من أبويكم حتى اضطرا إلى خصف الأوراق، وأنتم مستغنون عن ذلك ﴿وَرِيشاً﴾ عطفه إما من عطف الصفات، فوصف اللباس بشيئين: مواراة السوأة، والزينة. فالريش بمعنى الزينة، لأنه زينة الطير فاستعير منه، وأما من عطف الشيء على غيره. أي أنزلنا لباسين: لباس مواراة ولباس زينة، فيكون مما حذف فيه الموصوف، أي لباساً ريشاً أي ذا ريش، والريش مشترك بين الاسم والمصدر. وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس، وحكاه البخاري[١] عنه: الريش المال. وحكاه غير واحد من السلف. قال الإمام ابن تيمية: وبعض المفسرين أطلق عليه لفظ المال، والمراد به مال مخصوص. قال ابن زيد: جمالاً. وقرئ: رياشاً. قال ابن السكيت: الرياش هو الأثاث من المتاع، ما كان من لباس أو حشو من فراش أو دثار، والريش: المتاع والأموال، وقد يكون في الثياب دون الأموال. وإنه لحسن الريش، أي: الثياب – انتهى –.

ويقال: راش فلان، أي جمع الريش، وهو المال والأثاث. وراش الصديق أطعمه وسقاه وكساه، وأصله من الريش كأن الفقير المملق لا نهوض له، كالمقصوص منه الجناح وكل من أوليته خيراً، فقد رشته– كذا في تاج العروس –.

فائدة:

روى الإمام أحمد[٢] عن أبي أمامة عن عمر بن الخطاب قال: «قال رسول الله ﷺ: من استجدّ ثوباً فلبسه، فقال حين يبلغ ترقوته: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي، وأتجمل به في حياتي. ثم عمد إلى الثوب الذي أخلق فتصدق به، كان في ذمه الله تعالى وفي جوار الله، وفي كنف الله حيّاً وميتاً». ورواه الترمذي[٣] وابن ماجة[٤]. وروى الإمام أحمد[٥] عن أبي مطر أنه رأى عليّاً رضي الله عنه أتى

---

(١) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، ١ – باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته ونصه: قال ابن عباس: ﴿لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾: إلا عليها حافظ. كَبَدٍ: في شدة خلق. وَرِياشاً. (وريشاً): المال. وفي: التفسير، ٧ – سورة الأعراف. ونصه: قال ابن عباس: ورياشاً، المال.

(٢) أخرجه في المسند ١ / ٤٤، والحديث رقم ٣٠٥.

(٣) أخرجه الترمذي في: اللباس، ٢٩ – باب ما يقول إذا لبس ثوباً جديداً ونصه: عن أبي سعيد قال: كان رسول الله ﷺ، إذا استجدّ ثوباً سماه باسمه (عمامة أو قميصاً أو رداء) ثم يقول «اللهم! لك الحمد. أنت كسوتنيه. أسألك خيره وخير ما صنع له. وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له».
قال: وفي الباب عن عمر وابن عمر.

(٤) أخرجه ابن ماجة في: اللباس، ٢ – باب ما يقول الرجل إذا لبس ثوباً جديداً، حديث رقم ٣٥٥٧ ونصه كنص المسند.

(٥) أخرجه في المسند ١ / ١٥٧، والحديث رقم ١٣٥٤.

غلاما حَدَثاً، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم، ولبسه إلى ما بين الرسغين إلى الكعبين، يقول ولَبسَهُ: الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأواري به عورتي. فقيل: هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن نبيّ الله ﷺ؟ قال: هذا شيء سمعته من رسول الله ﷺ عند الكسوة: الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأواري به عورتي.

ولما بيّن تعالى ساتر الظاهر وزينته، أشار إلى ساتر عيوب الباطن وزينته بقوله: ﴿وَلِباسُ التَّقْوَى﴾ أي: خشية الله، أو الإيمان، أو السمت الحسن، والكل متقارب، ورفعة بالابتداء، خبرهُ جملةُ ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أو خيرٌ، وذلك صفته، كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير.

قال المهايمي: لأن الظاهر محل نظر الخلق، والباطن محل نظر الحق والعيوب الباطنة أفحش من العورات الظاهرة. وقال القاشانيّ: لباس التقوى صفة الورع والحذر من صفة النفس، ذلك خير لأنه من جملة أركان الشرائع، لأنه أصل الدين وأساسه، كالحمية في العلاج - انتهى -.

قال أبو علي الفارسي: معنى الآية: ولباس التقوى خير لصاحبه إذا أخذ به، وأقرب له إلى الله تعالى، مما خلق من اللباس والرياش الذي يتجمل به. قال: وأضيف اللباس إلى التقوى، كما أضيف إلى الجوع في قوله: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل:١١٢]. - انتهى -.

أي: فهو استعارة مكنية وتخييلية بأن يتوهم للتقوى حالة شبيهة باللباس، تشتمل على جميع بدنه، بحسب الورع والخشية من اللّه، اشتمال اللباس على اللابس، أو من قبيل (لُجَيْنِ الماء). وقرأ نافع وابن عامر والكسائي ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾ بالنصب، عطفاً على ﴿لباساً﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ أي إنزال اللباس ﴿مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على فضله ورحمته على عباده ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: نعمته عليهم فيعرفون عظمتها فيشكرونها.

قال الزمخشري: وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدوّ السوآت، وخصف الأوراق عليها، إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العري، وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى.

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على عظيم نعمه تعالى بهذه النعم التي عدّها. وذهب علي بن موسى القمي إلى أنها تدل على وجوب ستر العورة. وقال آخرون : لا تدل، وليس في الظاهر إلا الإنعام به من حيث نفي الحر والبرد وستر العورة والتجمل به، فأما أنه واجب، فبعيد. ولو ثبت وجوبه عليه، احتجنا إلى وجوبه في شريعتنا إلى دليل مستأنف. وقد ثبت في هذه الشريعة وجوبه بالخبر المستفيض والإجماع، فلا حاجة إلى الرجوع إلى شريعة أخرى. وتدل على أنه تعالى كما أنعم بنعم الدنيا، أنعم بنعم الدين، فإن الأقرب أن لباس التقوى العلم والعمل الصالح، فكأنه ضم إلى نعم الدنيا نعم الدين التي بها يحصل الفوز بالثواب، فتحصل نعمة الدارين.

القول في تأويل قوله تعالى :

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

﴿**يَا بَنِي ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**﴾ أي لا يخدعنكم عن دخول الجنة، بنزع لباس الشريعة والتقوى عنكم، فيخرجكم من نظر الله بالرحمة إليكم ﴿**كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ**﴾ نعتٌ لمصدر محذوف، أي لا يفتننكم فتنةً مثل إخراج أبويكم ﴿**يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا**﴾ أي الظاهر بسبب نزع لباس التقوى ﴿**لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا**﴾ أي الظاهرة الدالة على السوأة الباطنة. وجملة (ينزع) حال من (أبويكم) أو من فاعل (أخرج)، أي : أخرجهما نازعاً لباسهما، بأن كان سبباً في أن نزع عنهما؛ وصيغة المضارع لاستحضار الصورة.

تنبيهان :

الأول – قال السيوطي في (الإكليل) : استدل بهذه الآية أيضاً على وجوب ستر العورة، واستدل بالآيتين من قال : إن العورة هي السوأتان خاصة – انتهى – .

الثاني– قال الإمام الرازي: اعلم أن المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام حصول العبرة لمن يسمعها، فكأنه تعالى لما ذكر قصة آدم ، وبين فيها شدة عداوة الشيطان لآدم وأولاده، أتبعها بان حذر أولاده من قبول وسوسة الشيطان، فقال: ﴿**يَا بَنِى ءَادم...**﴾ الآية – وذلك لأن الشيطان لما بلغ أثر كيده ، ولطف

وسوسته، وشدة اهتمامه، إلى أن قَدَرَ على إلقاء آدم في الزلة الموجبة لإخراجه من الجنة - فبأن يقدر على أمثال هذه المضار في حق بني آدم أولى. فبهذا الطريق حذر تعالى بني آدم بالاحتراز عن وسوسته.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ أي: جنوده من الشياطين ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ أي من مكان لا ترونهم فيه. والجملة استئناف لتعليل النهي، وتأكيد التحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدوّ المداجي، يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون. عن مالك بن دينار: إن عدواً يراك ولا تراه، لشديد المؤنة، إلا من عصم الله.

تنبيه:

قال السيوطي في (الإكليل): قال ابن الفرس: استدل بها بعضهم على أن الجن لا يرون وأن من قال إنهم يُرَوْنَ فهو كافر - انتهى - ومراده بالبعض، المعتزلة، ولذا قال الزمخشري: فيه دليل بيّن أن الجن لا يرون ولا يظهرون للإنس، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم، وأن زعْم من يدعي رؤيتهم زور ومخرقة - انتهى -

وقال الجشميّ: تدل على بطلان قول العامة إن الشيطان يتصور لنا ونراه. ثم قال: ومتى قيل: أليس يُرَون زمن الأنبياء، ويرى المعاين الملَك؟ فجوابنا: أنه يزداد قوة الشعاع، أو تتكاثف أبدانهم، فيكون معجزة للنبي - انتهى -.

وأجاب أهل السنة كما في (العناية): بأنه قد ثبتت رؤيتهم، بالأحاديث الصحيحة المشهورة، وهي لا تعارض ما في الآية. لأن المنفي فيها رؤيتهم إذا لم يتمثلوا لنا.

وقال في فتح البيان: وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشيطان غير ممكنة، وليس في الآية ما يدل على ذلك، وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه وليس فيها أنا لا نراه أبداً، فإن انتفاء الرؤية منّا له، وفي وقت رؤيته لنا، لا يستلزم انتفاءها مطلقاً. والحق جواز رؤيتهم كما هو ظاهر الأحاديث الصحيحة، وتكون الآية مخصوصة بها، فيكونون مرئيين في بعض الأحيان لبعض الناس دون بعض - انتهى -.

وقد أوضح الغزالي رحمه الله رؤيا الجن والشياطين برؤيا الملائكة حيث قال في (الركن الثاني): الملائكة والجن والشياطين جواهر قائمة بأنفسها مختلفة

بالحقائق إختلافاً يكون بين الأنواع. ثم قال: ويمكن أن تشاهد هذه الجواهر - أعني جواهر الملائكة- وإن كانت غير محسوسة. وهذه المشاهدة على ضربين: إما على سبيل التمثيل، كقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ [مريم:١٧]. وكما كان النبيّ عليه الصلاة والسلام(١)، يرى جبريل في صورة دَحْيَةَ الكلبي.

والقسم الثاني أن يكون لبعض الملائكة بدن مخصوص، كما أن نفوسنا غير محسوسة ولها بدن محسوس هو محل تصرفها وعالمها الخاص بها، فكذلك بعض الملائكة، وربما كان هذا البدن المحسوس موقوفاً على إشراق نور النبوة، كما أن محسوسات عالمنا هذا موقوفة عند الإدراك على إشراق نور الشمس، وكذا في الجن والشياطين - انتهى -.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ قال الزجاج: يعني سلطناهم عليهم، يزيدون في غيهم - انتهى - والجملة تعليل آخر للنهي، وفيه تحذير أبلغ من الأول.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

﴿وإذَا فَعَلُوا فاحِشَةً﴾ أي: ما تناهى قبحه من الذنوب، كالشرك وكشف العورة في الطواف ﴿قَالُوا وَجَدْنا عَلَيْها ءَابَآءَنَا واللهُ أمَرَنا بِها﴾ أي؟ إذا فعلوها إعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها، فاقتدوا بهم، وبأن الله أمرهم بأن يفعلوها، حيث أقرنا عليها،

---

(١) أخرجه في المسند ٢/ ١٠٧، والحديث رقم ٥٨٥٦ و ٥٨٥٧ ونصهما: عن يحيى بن يعمر. قلت لابن عمر: إن عندنا رجالاً يزعمون أن الأمر بأيديهم، فإن شاءوا عملوا وإن شاءوا لم يعملوا؟ فقال: أخبرهم أني منهم بريء. وأنهم مني براء. ثم قال: جاء جبريل ﷺ إلى النبيّ ﷺ فقال: يا محمد! ما الإسلام؟ فقال «تعبد الله لا تشرك به شيئاً. وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت» قال: فإذا فعلتُ ذلك فأنا مسلم؟ قال «نعم» قال: صدقتَ. فما الإحسان؟ قال: «تخشى الله تعالى كأنك تراه، فإلاَّ تكن تراه فإنه يراك» قال: فإذا فعلتُ ذلك فأنا محسن؟ قال «نعم» قال: صدقتَ. قال: فما الإيمان؟ قال «تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث من بعد الموت والجنة والنار والقدر كله» قال: فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن؟ قال «نعم» قال: صدقت.
وعن ابن عمر عن النبيّ ﷺ، مثله. قال: وكان جبريل عليه السلام يأتي النبيّ ﷺ في صورة دَحْيَةَ.

إذ لو كرهها لنقلنا عنها، وهما باطلان، لأن أحدهما تقليد للجهال، والتقليد ليس بطريق للعلم، والثاني افتراء على ذي الجلال.

قال الشهاب: في قوله تعالى: ﴿واللّهُ أمَرنا﴾: مضاف مقدر، أي أمر آباءنا، فلا يقال الظاهر أمرهم بها، والعدول عن الظاهر إشارة إلى إدعاء أنَّ أمر آباءهم أمرٌ لهم.

﴿قُلْ إنَّ اللَهَ لا يأْمُرُ بِالْفَحَشاءِ﴾ أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك، لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال والحث على مكارم الخصال ﴿أتَقُولُونَ على اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ إنكار لإضافتهم الأمر بالفحشاء إليه سبحانه، يتضمن النهي عن الافتراء عليه تعالى، وفيه شهادة على أن مبنى قولهم على الجهل المفرط. قال الشهاب: ولا دليل في الآية لمن نفى القياس، بناء على أن ما يثبت به مظنون لا معلوم، لأنه مخصوص في عمومها بإجماع الصحابة ومن يعتد به، أو بدليل آخر.

تنبيه:

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراةً، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فتضع المرأة على قُبُلها النِّسعة أو الشيء وتقول:

اليومَ يبدو بعضهُ أو كلُّهُ وما بدا منه فلا أُحِلُّهُ

فأنزل اللّه ﴿وإذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ الآية – قال ابن كثير: كانت العرب، ما عدا قريشاً، لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها.

وكانت قريش – وهم الحمس – يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسيّ ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه، فلا يتملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً، ولا أعاره أحمسيّ ثوباً، طاف عرياناً، وربما كانت امرأة، فتطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئاً ليسترة بعض الستر، فتقول: اليوم يبدو... – البيت – وأكثر ما كان النساء يطفن بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر تعالى عليهم ذلك.

وذكر السيوطي في (الإكليل) عن ابن عباس أيضاً، أنه نزلت في طوافهم بالبيت عراة، رواه أبو الشيخ وغيره. قال: ففيها وجوب ستر العورة في الطواف.

تنبيهان:

الأول: ذهب المعتزلة إلى أن الإرادة مدلول الأمر، ولازمة له، والفحشاء- أعني الشرور والمعاصي- غير مأمور بها بنص الآية. فلا تكون مرادة له تعالى.

وأجاب أهل السنة بأن الأمر قد ينفك عن الإرادة، بمعنى أنه يوجد بدون الإرادة، فلا تكون الإرادة تابعة له وجوداً، ومما يوضح أن الشيء قد يؤمر به ولا يكون مراداً، أن السيد إذا أراد أن يظهر على الحاضرين عصيان عبده، يأمره بالشيء ولا يريده منه. ومنها أن الأمر أمران: أمر تكوينيّ يحصل به وجود الأشياء، وهو خطاب (كن) وهو تابع للإرادة، ويعم جميع الكائنات. فالطاعات والمعاصي كلها مأمورة ومرادة بهذا الأمر، ولا يتعلق بهذا الأمر الطاعة والعصيان والثواب والعقاب. لأنه يتعلق بالأشياء حال العدم.

وأمر تشريعيّ تدوينيّ: أي شرعه الله لعباده، وكلفهم به، مما دون في كتب الشريعة وبُيِّن، وهذا الأمر يتعلق به الطاعة والعصيان والثواب والعقاب والرضا والسخط. والكفرُ والمعاصي ليست مأمورةً بهذا الأمر. والمعتزلة لم يفرقوا بين الأمرين، وقالوا: إن الكفر والمعاصي لو كانت مراده تعالى، لكانت مأموراً بها، وإتيانُ المأمور به طاعة، فيكون الكافر والفاسق مطيعيْن، فإنهما مأمور بهما بالأمر الأول، وليس مأموراً بهما بالأمر الثاني، حتى يكون إتيانهما طاعةً.

قال السيلكوتيّ: ولا يخفى عليك أن تقسيم الأمر إلى أمرين، إنما يستقيم إذا كان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] على ظاهره، كما ذهب إليه البعض. وأما إذا كان عبارة عن الإيجاد من غير أن يتعلق بها خطاب، كما ذهب إليه الأشعريّ ومن تبعه، فلا. انتهى - والمسألة مبسوطة في محالها المعروفة.

الثاني: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ جواب عن شبهتهم الثانية. ولم يذكر جواباً عن الأولى. قال الإمام: لإنها إشارة إلى محض التقليد. وقد تقرر في المعقول أنه طريقة فاسدة، لأن التقليد حاصل في الأديان المتناقضة. فلو كان التقليد حقّاً، لزم القول بحقية الأديان المتناقضة. فلما كان فساده ظاهراً، لم يذكره تعالى.

الثالث: قال في (فتح البيان): في هذه الآية الشريفة أعظم زاجر، وأبلغ واعظ، للمقلدة الذين يتبعون آباءهم في المذاهب المخالفة للحق، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر، لا بأهل الحق، فإنهم القائلون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى

آثارِهم مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]، والقائلون: ﴿وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا واللّهُ أمَرنا بِها﴾. والمقلد، لولا اغتراره بكونه وجد آباءه على ذلك المذهب، مع اعتقاده بأنه الذي أمر الله به، وأنه الحق – لم يبق عليه. وهذه الخصلة هي التي بقى بها اليهوديّ على يهوديته، والنصراني على نصرانيته، والمبتدع على بدعته. فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم في اليهودية والنصرانية والبدعة، وأحسنوا الظن بهم بأن ما هم عليه هو الحق الذي أمر الله به، ولم ينظروا لأنفسهم ولا طلبوا الحق كما يجب، ولا بحثوا عن الله كما ينبغي. وهذا هو التقليد البحت، والقصور الخالص. ثم قال: وإن من أعجب الغفلة وأعظم الذهول عن الحق، اختيار المقلدة لآراء الرجال، مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله بين ظهرانيهم، ووجود من يأخذونهما عنه بين أيديهم، ووجود آلة الفهم لديهم، وملكة العقل عندهم – انتهى-.

ولما نفى ما تقولّوه عليه، وأخبر أنه لا يأمر بالفحشاء، بيَّن ما أمر به بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾

﴿قُلْ أمرَ ربِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل. وللسلف فيه هنا وجوه: ما ظهر في العقول كونه حسناً، أو التوحيد، أو كلمة الإخلاص. وعن أبي مسلم: جميع الطاعات. قال الحاكم: وهو الوجه: ولا يخفى أن الجميع مما يشمله (القسط) فلا منافاة. ﴿وأقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ معطوف على الأمر الذي ينحلّ إليه المصدر مع (أن). أي: بأن أقسطوا وأقيموا، والمصدر ينحل إلى الماضي والمضارع والأمر، كما نقله المُعَرب. أو معطوف على ﴿أمَرَ ربِّي﴾ أي: قل أقيموا. قال الجرجانيّ: الأمر معطوف على الخبر، لأن المقصود لفظه، أو لأنه إنشاء معنى. انتهى- و(الوجوه) مجاز عن الذوات. ومسجد إما مصدر، والوقت مقدر قبله، و(عند) بمعنى (في). أي: أقيموا ذواتكم في كل وقت سجود، وذلك بمنعها عن الإلتفات إلى الغير فيه، وبمراعاة موافقة الأمر مع صدق النية، أو باستقبال القبلة فيه. وإما اسم زمان أو مكان بالمعنى اللغوي، أي في كل وقت سجود أو مكانه. والسجود على هذه الأوجه مجاز عن الصلاة، أو المسجد هو المصطلح عليه. والمعنى: في أيّ

مسجد حضرتكم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم. والأمر على هذا الوجه للندب. قيل: وهو لا يناسب المقام. وإما على ما قبله، فهو للوجوب.

وهذه الوجود مستفادة مما روي عن السلف. قال في (اللباب): معنى الآية في قول مجاهد والسدّيّ: وجهوا وجوهكم حيثما كنتم في الصلاة إلى الكعبة. وقال الضحاك: المعنى إذا حضرت الصلاة وأنتم عند المسجد فصلّوا فيه، ولا يقولن أحدكم: أصلي في مسجدي، أو مسجد قومي. وقيل معناه اجعلوا سجودكم لله خالصاً.

﴿وادْعُوهُ﴾ أي: اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: الطاعة بتخصيصها له، لأنه استحق عبادتكم بإبدائه إياكم، ولا يسعكم تركها، إذ إليه عودكم بالآخرة، فإنه ﴿كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي: كما أنشأكم ابتداء، يعيدكم إليه أحياء، فيجازيكم على أعمالكم، فاخلصوا له العبادة. وإنما شبه الإعادة بالابتداء، تقريراً لإمكانها والقدرة عليها.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

﴿فَرِيقاً هَدَى﴾ بأن وفقهم للإيمان ﴿وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ﴾ وهم الكافرون ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ﴾ أي: أنصاراً وأرباباً ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ حيث أطاعوهم فيما أمروهم به من الكفر والمعاصي ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: أنهم على هداية وحق فيما اعتقدوا.

تنبيهان:

الأول: قال ابن جرير: قوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ من أبين الدلالة على خطأ قول من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها، أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عناداً منه لربه فيها. لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل، وهو يحسب أنه مهتد، وفريق الهدى - فرقٌ. وقد فرّق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية - انتهى -.

وحاصله، كما قال القاضي: إن الآية دلت على أن الكافر المخطئ والمعاند سواء في استحقاق الذم. قال القاضي: وللفارق أن يحمله على المقصر في النظر،

أي: يحمل الضمير في ﴿اتَّخَذُوا﴾ على الكافر المقصر في النظر. وأما الذين اجتهدوا وبذلوا الوسع فمعذورون، كما هو مذهب البعض - كذا في (العناية).

الثاني: قال الرازي: هذه الآية تدل على أن مجرد الظن والحسبان لا يكفي في صحة الدين، بل لا بد فيه من الجزم والقطع واليقين، لأنه تعالى عاب الكفار بأنهم يحسبون كوْنهم مهتدين. ولولا أن هذا الحسبان مذموم، لما ذمهم بذلك. انتهى.

قال المهايمي: ومما حسبوا فيه أنهم مهتدون بمتابعة الشيطان، تركهم التزين والتلذذ مع العبادة، فطافوا عراة. وتركهم اللحم والدسم مع الإحرام، فقال عز وجل:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

﴿يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ أي: من اللباس ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: بيت بني للعبادة، على أنه اسم مكان، أو مصدر بمعنى السجود، مراداً به الصلاة والعبادة. فإن العبادة أولى أوقات التزين ﴿وَكُلُوا واشْرَبُوا﴾ أيام الحج تقوّياً على العبادة ﴿ولا تُسْرِفُوا﴾ أي: إسرافاً يوجب الانهماك في الشهوات ويشغل عن العبادة، أو لا تحرموا الطيبات من الرزق واللحم والدسم ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ﴾ المعتدين.

تنبيهات:

الأول - كنا أسلفنا في مقدمة هذا التفسير، أن من فوائد معرفة سبب النزول الوقوف على المعنى، وإزالة الإشكال. وهذه الآية إنما أجملنا تفسيرها بما ذكرنا، لأنها نزلت في ذلك.

فقد روى مسلم[1] عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عُرْيانة، فتقول: من يعيرني تِطْوَافاً؟ تجعله على فرجها وتقول:

اليومَ يبدو بَعْضُهُ أوْ كُلُّهُ وما بَدا مِنْهُ فلا أُحِلُّهُ

فنزلت هذه الآية ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ...﴾ الآية. ونزلت ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ...﴾ الآية.

---

(١) أخرجه مسلم في: التفسير، حديث ٢٥.

وعند ابن جرير عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون عراة، الرجال بالنهار، والنساء بالليل، وكانت المرأة تقول:

اليومَ يبدُو بعضُهُ أو كلُّهُ فما بدا منه فلاَ أُحِلُّهُ

فنزلت ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾. قال في (اللباب): وفي رواية أخرى عنه: فأمرهم الله تعالى أن يلبسوا ثيابهم ولا يتعرّوا. وروى العوفيّ عن ابن عباس أيضاً في الآية قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة، فأمرهم الله بالزينة، والزينة اللباس، وهو ما يواري السوأة، وما سوى ذلك من جيد البزّ والمتاع، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد. وأخرج أبو الشيخ عن طاوس قال: أُمروا بلبس الثياب، وأخرج من وجه آخر عنه قال: الشملة من الزينة. وقال مجاهد: كان حيٌّ من أهل اليمن إذا قدم احدهم حاجّاً أو معتمراً يقول: لا ينبغي لي أن أطوف في ثوب قد عصيت فيه، فيقول: من يعيرني مئزراً؟ فإن قدر عليه وإلاّ طاف عرياناً. فأنزل اللّه تعالى فيه ما تسمعون: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ...﴾ الآية.

وقال الزهري: إن العرب كنت تطوف بالبيت عراة إلا الحمس- وهم قريش وأحلافهم - فمن جاء من غير الحمس، وضع ثيابه، وطاف في ثوب أحمسيّ، ويرى أنه لا يحل له أن يلبس ثيابه. فإن لم يجد من يعيره من الحمس فإنه يلقي ثيابه، ويطوف عرياناً. وإن طاف في ثياب نفسه ألقاها، إذا قضى طوافه وحرّمها، أي جعلها حراماً عليه، فلذلك قال تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. والمراد من الزينة الثياب التي تستر العورة. قال مجاهد: ما يواري عوراتكم، ولو عباءة - انتهى- قال ابن كثير: هكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير وقتادة والسدّى، والضحاك ومالك عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها: أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة - انتهى - فظهر أن المراد بالزينة ما يستر العورة لأنه اللازم المأمور به الذي بيّنه سببُ النزول، دون لباس التجمل المتبادر منه، لأن المستفاد من ﴿خُذُواْ﴾ هو وجوب الأخذ، ولباس التجمل مسنون - قاله الشهاب - وأقول دلّت الآية بما أفاده سبب نزولها على أن الزينة لا تختص، لغةً، بالجيّد من اللباس كما توهم. وبين ذلك العوفي عن ابن عباس فيما نقلناه.

وفي (التهذيب): الزينة اسم جامع لكل شيء يتزين به. ومثله في (الصحاح) و (القاموس) وعبارته: الزينة ما يتزين به.

وقال الحراني: الزينة تحسين الشيء بغيره من لبسة أو حلية أو هيئة.

وقال الراغب: الزينة الحقيقية ما لا يشين الإنسان في شيء من أحواله، ولا في الدنيا ولا في الآخرة - انتهى-.

وقد نقل الرازي إجماع المفسرين على أن المراد بـ (الزينة) لبس الثياب التي تستر العورة.

قال: والزينة لا تحصل إلا بالستر التام للعورات. قال: وأيضاً إنه تعالى قال في الآية المتقدمة ﴿قَد أنزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْءاتِكُمْ وَرِيشاً﴾ فبين أن اللباس الذي يواري السوأة من قبيل الرياش والزينة. ثم إنه تعالى أمر بأخذ الزينة في هذه الآية. فوجب أن يكون المراد من هذه الزينة هو الذي تقدم ذكره في تلك الآية. وأيضاً فقوله ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ أمر، والأمر للوجوب، فثبت أن أخذ الزينة واجب، وكل ما سوى اللبس فغير واجب، فوجب حمل الزينة على اللبس عملاً بالنص بقدر الإمكان، ولا يقال: إن قوله ﴿وَكُلُوا واشْرَبُواْ﴾ أمر إباحة، فيكون المعطوف عليه كذلك، لأنه لا يلزم من ترك الظاهر في المعطوف، تركه في المعطوف عليه.

هذا، وقد روى الحافظ ابن مردويه من حديث سعيد بن بشير والأوزاعي عن قتاده عن أنس مرفوعاً: أنها نزلت في الصلاة في النعال. وكذا أخرجه أبو الشيخ عنه، وعن أبي هريرة مثله. قال ابن كثير: وفي صحته نظر - والله أعلم - قلت: لانظر، لأن ذلك مما تشمله الزينة، وقد أسلفنا في المقدمة أن قولهم: (نزلت في كذا) لا يقصد به أن حكم الآية مخصوص به، بل مخصوصة بنوعه، فتعم ما أشبهه، فَتَذكَّرْ. والأحاديث في مشروعية الصلاة في النعل كثيرة جداً، منها: عن أبي مسلمة[١] سعيد بن يزيد، قال: سألت أنساً: أكان النبيّ ﷺ يصلي في نعليه؟ قال: نعم (متفق عليه). قال العراقيّ في (شرح الترمذي): وممن كان يفعل ذلك - يعني لبس النعل في الصلاة - عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وعويمر بن ساعدة وأنس بن مالك وسلمة بن الأكوع وأوس الثقفي، ومن التابعين: سعيد بن المسيب والقاسم وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله وعطاء بن يسار وعطاء ابن أبي رباح ومجاهد وطاوس وشريح القاضي وأبو مجلز وأبو عمر الشيباني والأسود بن يزيد وإبراهيم النخعيّ وإبراهيم التيميّ وعليّ بن الحسين وابنه أبو جعفر. انتهى.

وقد أخرج أبو داود[٢] من حديث أبي سعيد الخدري أنه قال: قال ﷺ: «إذا

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الصلاة، ١٤ - باب الصلاة في النعال حديث رقم ٢٥٦.

(٢) أخرجه أبو داود في: الصلاة، ٨٨ - باب الصلاة في النعل، حديث ٦٥٠ ونصه: عن أبي سعيد الخدريّ قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه، إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره. =

جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر فإن رأى في نعليه قذراً أو أذىً فليمسحه وليصلّ فيهما». وحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: رأيت رسول الله ﷺ يصلي حافياً ومنتعلاً. أخرجه أبو داود(١) وابن ماجة(٢).

الثاني: دلت الآية على وجوب الستر عند الطواف، لأنه سبب النزول،قالوا: واللفظ شامل للصلاة لأنها مفعولة في المسجد.

الثالث: حاول بعضهم استنباط التجمل عند الصلاة منها حيث قال: لما دلت على وجوب أخذ الزينة بستر العورة في الصلاة، فُهِم منها، في الجملة، حسن التزين بلبس ما فيه حسن وجمال فيها. قال الكيا الهراسي: ظاهر الآية الأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد للفضل الذي يتعلق به تعظيماً للمسجد والفعل الواقع فيه. مثل الاعتكاف والصلاة والطواف. وقال ابن الفرس: استدل مالك بالآية على كراهية الصلاة في مساجد القبائل بغير أردية. واستدل بها قوم من السلف على أنه لا يجوز للمرأة أن تصلي بغير قلادة أو قرطين. كذا في (الإكليل). والأخير من الغلوّ في النزع. وقال ابن كثير: ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة، يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد. والطيب لأنه من الزينة. والسواك لأنه من تمام ذلك. ومن أفضل اللباس البياض لما روى الإمام أحمد (٣) وأبو داود (٤) والترمذي(٥) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم. وإن من خير أكحالكم الإثمد، يجلو البصر وينبت الشعر» ولأحمد(٦) وأهل السنن، عن سمُرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالثياب البيض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم».

= فلما رأى ذلك القومُ ألقَوْا نعالهم.
فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال «ما حملكم على إلقائكم نعالكم»؟ قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا. فقال رسول الله ﷺ «إن جبريل ﷺ، أتاني فأخبرني أن فيهما قذراً» وقال «إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر. فإن رأى في نعليه قَذَراً أو أذىً، فليمسحه وليصلّ فيهما».

(١) أخرجه أبو داود في: الصلاة، ٨٨ – باب الصلاة في النعل، حديث ٦٥٣.

(٢) أخرجه ابن ماجة في: إقامة الصلاة والسنة فيها، ٦٦ – باب الصلاة في النعال، حديث ١٠٣٨.

(٣) أخرجه في المسند ١ / ٢٤٧، والحديث رقم ٢٢١٩.

(٤) أخرجه أبو داود في: الطب، ١٤ – باب في الأمر بالكحل، حديث ٣٨٧٨.

(٥) أخرجه الترمذي في: الجنائز، ١٨ – باب ما يستحب من الأكفان.

(٦) أخرجه في المسند ٥ / ١٣.

وروى الطبراني بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين: أن تميماً الداري اشترى رداء بألف، وكان يصلي فيه.

الرابع: وجه تأثر الأمر بأخذ الزينة، بالأمر بالأكل والشرب في قوله تعالى ﴿وَكُلُوا واشْرَبُواْ﴾ ما رواه الكلبي أن بني عامر كانوا لا يأكلون في أيام حجهم إلا قوتاً، ولا يأكلون دسماً، يعظمون بذلك حجهم. فقال المسلمون نحن أحق أن نفعل ذلك يا رسول الله. فأنزل الله عز وجل ﴿وَكُلُوا واشْرَبُواْ﴾. وقال السدّي: كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرّمون عليهم الودك ما أقاموا في الموسم. فقال الله تعالى لهم: ﴿وَكُلُواْ واشْرَبُواْ﴾... الآية.

الخامس: فسر الإسراف بمجاوزة الحد فيما أحلّ، وذلك بتحريمه، وقال الجشمي اليمني في تفسيره (التهذيب): تدل الآية على المنع من الإسراف. وذلك على وجهين:

أولهما: إنفاق في معصية كالفخَار واللعب والزنى والخمر ونحوها. وثانيهما: أن يتعدى الحدود وذلك مختلف بحال اليسار والإعسار. لأن من له قدر يسير، لو أنفقه في ضيافة أو طيب أو ثياب خز، وهو وعياله يحتاجون إليه، فهو سرف محرم. ومثله في الموسرين لا يقبح ولا يكون سرفاً وتدل على أن الأشياء على الإباحة. والعقل يدل على ذلك. لأنه تعالى خلقه لمنافعهم. والسمع ورد مؤكداً. ولذلك قال: ﴿مَنْ حَرَّمَ﴾ مطالباً بدليل سمعي.

وقد روى الإمام أحمد [١] عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده». وأخرج النسائي [٢] وابن ماجة [٣] نحوه.

وقال البخاري [٤]: قال ابن عباس: كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك اثنتان: سرف أو مخيلة. ورواه ابن جرير عنه أيضاً بلفظ: أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سَرَفاً أو مخيلة. قال الشهاب: هذا (أي ما قاله ابن عباس) لا ينافي ما ذكره

---

(١) أخرجه في المسند ٢/ ١٨١، الحديث رقم ٦٦٩٥.
(٢) أخرجه النسائيّ في: الزكاة، ٦٦ – باب الاختيال في الصدقة.
(٣) أخرجه ابن ماجة في: اللباس، ٢٣ – باب البس ما شئت، ما أخطاك سرف أو مخيلة، حديث رقم ٣٦٠٥.
(٤) أخرجه البخاري في: اللباس، ١ – باب قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾.

الثعالبيّ وغيره من الأدباء، أن ينبغي للإنسان أن يأكل ما يشتهي، ويلبس ما يشتهيه الناس، كما قيل:

نصيحة نصيحة قالت بها الأكياسُ

كل ما اشتهيت والبســـ ـنَّ ما اشتهته الناسُ

فإنه لِترْك ما لم يعتد بين الناس، وهذا لإباحة كل ما اعتادوه. و (المخيلة: الكبر). و(ما) دوامية زمانية. و(أخطأتك) من قولهم: أخطأ فلان كذا، إذا عدمه. وفي الأساس: من المجاز لن يخطئك ما كُتب لك، وأخطأ المطر الأرض: لم يصبها، وتَخَاطَأَتْهُ النبلُ: تجاوزته وتَخَطَّأَتْهُ. انتهى.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ وعيد وتهديد لمن أسرف في هذه الأشياء. لأن من لم يحبه الله لم يرض عنه.

السادس– تناقل المفسرون وغيرهم ما قيل إن قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا واشْرَبُوا﴾ الآية – جَمَع الطب كله. وأصله ما حكاه الزمخشري والكرماني في عجائبه، أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان. فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه. قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وكُلُواْ واشْرَبُوا ولا تُسرِفواْ﴾، فقال النصراني: ولا يؤثر من رسولكم شيء في الطب! فقال: قد جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة. قال: وما هي؟ قال قوله: المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وأعط كل بدن ما عودته. فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيّكم لجالينوس طبّاً.

قال في (العناية): وترك بعضهم تمام القصة، لأن في ثبوت هذا الحديث كلاماً للمحدثين. وفي شعب الإيمان للبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول لله ﷺ: «المعدة حوض البدن، والعروق إليها واردة، فإذا صحت المعدة، صدرت العروق بالصحة، وإذا فسدت المعدة، صدرت العروق بالسقم». – انتهى–.

أقول: إن صحت هذه الحكاية، فصواب جواب النصرانيّ في سؤاله الثاني بالتفنيد والفرْية، فإن رسول الله ﷺ أُثر عنه من بدائع الطب وأصناف العلاج ما لم يؤثر عن نبيّ قط. وللمحدّثين، في عهد السلف، منه قسم كبير في جوامعهم ومسانيدهم. وأما أعلام المتأخرين فقد اضطرهم وفرة ما روي في ذلك إلى تدوينه في

أسفار مطولة ومختصرة بعنوان (الطب النبوي). وقد بيَّن الإمام ابن القيّم: عليه الرحمة، اشتمال التنزيل العزيز على أصول الطب، والسنة المطهرة على بدائعه، في كتابه (زاد المعاد)، بياناً يدهش الألباب، وفوق كل ذي علم عليم. قال، عليه الرضوان، في كتابه (زاد المعاد، في هدي خير العباد):

فصـــل

قد أتينا على جمل من هديه ﷺ في المغازي والسير والبعوث والسرايا والرسائل والكتب التي كتب بها إلى الملوك ونوابهم، ونحن نتبع ذلك بذكر فصول نافعة في هديه في الطب الذي تطبب به، ووصفه لغيره، ونبين ما فيه من الحكمة التي يعجز أكثر عقول الأطباء عن الوصول إليها، وأن نسبة طبهم إليها كنسبة طب العجائز إلى طبهم، فنحن نقول وبالله المستعان:

المرض نوعان: مرض القلوب، ومرض الأبدان. وهما مذكوران في القرآن. ومرض القلب نوعان: مرض شبهة وشك، ومرض شهوة وغيّ، وكلاهما في القرآن. قال تعالى في مرض الشبهة: ﴿ في قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً﴾ [البقرة:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَّرَضٌ والْكَافِرُونَ ماذا أرادَ اللّهُ بِهذا مَثَلاً﴾ [المدثر:٣١]. وقال تعالى في حق من دعي إلى تحكيم القرآن والسنة فأبى وأعرض: ﴿وإذا دُعُوا إلى اللّه وَرَسُوله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إذا فَرِيقٌ مِّنْهُمُ مُّعْرِضُونَ وإن يَكُنْ لَّهُمُ الْحَقُّ يأْتُوا إلَيْهُ مُذْعنينَ أفي قُلُوبِهِم مَّرضٌ أمِ ارْتَابُوا أمْ يخافُونَ أن يَحيفَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور:٤٨-٥٠]. فهذا مرض الشبهات والشكوك.

وأما مرض الشهوات فقال تعالى: ﴿يَا نساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كأحَد مِّنَ النِّساء، إن اتَّقَيْتُنَّ فلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً﴾ [الأحزاب:٣٢]. فهذا مرض شهوة الزنى - والله أعلم.

وأما مرض الأبدن فقال تعالى: ﴿لَيْسَ على الأعْمى حَرَجٌ ولا على الأعْرَجِ حَرَجٌ ولا على الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور:٦١]. وذكر مرض البدن في الحج والصوم والوضوء لسرّ بديع، يبين ذلك عظمة القرآن والاستغناء به، لمن فهمه وعقله، عن سواه. وذلك أن قواعد طب الأبدان ثلاثة: حفظ الصحة، والحمْية عن المؤذي، واستفراغ الموادّ الفاسدة. فذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة في هذه المواضع الثلاثة. فقال في آية

الصوم: ﴿فَمَن كانَ منكُمْ مَّرِيضاً أوْ على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أيَّامٍ أُخر﴾ [البقرة:١٨٤]. فأباح الفطر للمريض لعذر المرض، والمسافر، طلباً لحفظ صحته وقوته، لئلا يذهبه الصوم في السفر، لاجتماع شدة الحركة وما يوجبه من التحليل وعدم الغذاء الذي يخلف ما تَحَلَّل، فتخور القوة وتضعف، فأباح للمسافر الفطر حفظاً لصحته وقوته عما يضعفها. وقال في آية الحج: ﴿فَمَن كانَ منكُم مَّرِيضاً أوْ بهِ أذىً مِّن رأسه فَفِدْيَةٌ مِّن صيامٍ أو صَدَقَةٍ أو نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦]. فأباح للمريض، ومن به أذى من رأسه، من قمل أو حكة أو غيرهما، أن يحلق رأسه في الإحرام استفراغاً لمادة الأبخرة الرديئة التي أوجبت له الأذى في رأسه باحتقانها تحت الشعر، وإذا حلق رأسه تفتحت المسامات فخرجت تلك الأبخرة منها. فهذا الاستفراغ يقاس عليه استفراغ يؤذي انحباسه. والأشياء التي يؤذي انحباسها ومدافعتها عشرة: الدم إذا هاج، والمني إذا سبغ، والبول والغائط والريح والقيء والعطاس والنوم والجوع والعطش. وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدواء بحبسه. وقد نبه سبحانه باستفراغ أدناها وهو البخار المحتقن في الرأس، على استفراغ ما هو أصعب منه، كما هي طريقة القرآن، التنبية بالأدنى على الأعلى.

وأما الحمْية، فقال في آية الوضوء: ﴿وإن كُنتمُ مَّرْضى أو على سَفَرٍ أوْ جاءَ أحَدٌ مِّنكُم مِّن الغائِط أو لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾ [النساء: ٤٣]، فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حِميةٌ له أن يصيب جسده ما يؤذيه. وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذٍ له، من داخل أو خارج. فقد أرشد سبحانه عباده إلى أصول الطب، ومجامع قواعده.

ونحن نذكر هدي رسول الله ﷺ في ذلك، ونبين أن هديه فيه أكمل هدي.

فأما طب القلوب ، فمسلّم إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم، وعلى أيديهم. فإن صلاح القلوب أن تكون عارفة بربها وفاطرها، وبأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن تكون مؤثرة لمرضاته ولمحابّه، متجنبة لمناهيه ومساخطه.

ولا صحة لها ولا حياة لها البتة إلا بذلك، ولا سبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل. وما يظن من حصول صحة القلب بدون اتباعهم، فغلط ممن يظن ذلك. وإنما ذلك حياة نفسه البهيمية الشهوانية وصحتها وقوتها. وحياة قلبه وصحته وقوته عن ذلك بمعزل. ومن لم يميز بين هذا وبين هذا، فليبك على حياة قلبه، فإنه من

الأموات. وعلى نوره، فإنه منغمس في بحار الظلمات – انتهى–:

وقد قرر رحمه الله هذا المقام بأسلوب آخر في كتاب (طريق الهجرتين) نورده أيضاً لبداعة أسلوبه. قال عليه الرحمة:

ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعي بفساد يعرض له، يفسد به إدركه وحركته الطبيعية، فإما أن يذهب إدراكه بالكلية كالعمى والصمم والشلل، وإما أن ينقص إدراكه لضعف في آلات الإدراك مع استقامة إدراكه، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه، كما يدرك الحلو مرّاً، والخبيث طيباً، والطّيب خبيثاً. وأما فساد حركته الطبيعية، فمثل أن تضعف قوته الهاضمة أو الماسكة أو الدافعة أو الجاذبة. فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حدّ الموت والهلاك، بل فيه نوع قوة على الإدراك والحركة، وسبب هذا الخروج عن الاعتدال، إما فساد في الكمية أو في الكيفية فالأول إما نقص في المادة فيحتاج إلى زيادتها، وإما زيادة فيها فيحتاج إلى نقصانها. والثاني إما بزيادة الحرارة أو البرودة أو الرطوبة أو اليبوسة أو نقصانها عن القدر الطبيعي، فيداوى بمقتضى ذلك. ومدار الصحة على حفظ القوة والحمية عن المؤذي، واستفراغ الموادّ الفاسدة، ونظرُ الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة. وقد تضمنها الكتاب العزيز، وأرشد إليها من أنزله شفاء ورحمة. فأما حفظ القوة فإنه سبحانه أمر المسافر والمريض أن يفطرا في رمضان، ويقضي المسافر إذا قدم، والمريض إذا برأ، حفظاً لقوتهما عليهما. فإن الصوم يزيد المريض ضعفاً، والمسافر محتاج إلى توفير قوته عليه لمشقة السفر، فالصوم يضعفها. فأما الحمية عن المؤذي، فإنه سبحانه حمى المريض عن استعمال الماء البارد في الوضوء والغسل إذا كان يضره، وأمره بالعدول إلى التيمم، حمية له عن ورود المؤذِي عليه من ظاهر بدنه، فكيف بالمؤذي له في باطنه؟ وأما استفراغ المادة الفاسدة، فإنه سبحانه أباح للمُحرِم الذي به أذىً من رأسه أن يحلقه، فيستفرغ الحلق الأبخرة المؤذية له، وهذا من أسهل أنوع الاستفراغ وأخفّها، فنبّه به على ما هو أحوج إليه منه.

وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا فقال: والله! لو سافرت إلى الغرب في معرفة هذه الفائدة، لكان سفراً قليلاً أو كما قال – انتهى.

ثم ردّ تعالى على من حرّم شيئاً من المآكل والمشارب والملابس، من تلقاء نفسه من غير شرع من الله، تأكيداً لما سبق، بقوله سبحانه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾

﴿**قُلْ**﴾ أي لهؤلاء المشركين الذين يحرّمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم ﴿**مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ**﴾ أي من الثياب وسائر ما يتجمّل به ﴿**الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ**﴾ من النبات كالقطن والكتان، والحيوان كالحرير والصوف، والمعادن كالدروع. هكذا عمم المفسرون هنا، ووجهه أن تخصيصه يغني عنه ما مرّ ﴿**وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ أي المستلذات من المآكل والمشارب.

قال المهايمي: يعني إن زعموا أن التزين والتلذذ ينافيان التذلل الذي هو العبادة، فيحرمان معها، فأعلمهم أنه قد أخرجها لعباده الذين خلقهم لعبادته ليتزينوا بها حال العبادة، فعل عبيد الملوك إذا حضروا خدمتهم، ولا ينافي ذلك تذللهم لهم، وكذلك الطيبات التي خلقها لتطييب قلوب عباده ليشكروه، والشكر عبادة، فلا ينافي التلذذُ العبادة، بل قد يكون داعية إليها. انتهى.

تنبيهات

الأول – فسرت (الطيبات) بـ (الحلال)، وفسرت بـ (اللحم والدسَم) الذي كانوا يحرمونه أيام الحج كما تقدم، وفسرت بـ (البحائر والسوائب) كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحلالاً﴾ [يونس:٥٩] وظاهرٌ أن لفظ الآية أعم من ذلك، وإن كان يدخل فيه ما ذكر دخولاً أوليّاً، لأنها إنما وردت نعياً عليهم فيه، والعبرة بعموم اللفظ.

قال الرازي: لفظ (الزينة) يتناول جميع أنواع التزين، ومنه تنظيف البدن، ومنه المركوب، ومنه أنواع الحلي (يعني للنساء). ثم قال: ويدخل تحت (الطيبات) كل ما يستلذ ويشتهى من أنواع المأكولات والمشروبات، ويدخل تحته التمتع بالنساء والطيب وقد رد النبي ﷺ على عثمان بن مظعون، ما هم به من الاختصاء والتبتل.

الثاني – دلت الآية على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة، لأن الاستفهام في ﴿مَنْ﴾ لإنكار تحريمها على وجه بليغ، لأن إنكار الفاعل يوجب إنكار الفعل لعدمه بدونه.

الثالث – في الآية رد على من تورّع من أكل المستلذات ولبس الملابس الرقيقة، لأنه لا زهد في ترك الطيب منها، ولهذا جاءت الآية معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرم ذلك على نفسه، أو حرّمه على غيره. وما أحسن ما قال ابن جرير الطبري: لقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف، على لباس القطن والكتان، مع وجود السبيل إليه من حله، ومَنْ أكَل البقول والعدس، واختاره على خبز البُرّ، ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض الشهوة – انتهى–.

الرابع – قال ابن الفرس: واستدل بالآية من أجاز لبس الحرير والخزّ للرجال. وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سنان بن سلمة أنه كان يلبس الخزّ، فقال له الناس: مثلك يلبس هذا؟ فقال لهم: من ذا الذي يحرم زينة الله التي أخرج لعباده؟ ولكن أخرج عن طاوس أنه قرأ هذه الآية وقال: لم يأمرهم بالحرير ولا الديباج، ولكنه كانوا إذا طاف أحدهم وعليه ثيابه ضرب وانتزعت عنه. كذا في (الإكليل).

أقول: عدم شمول الآية للحرير غنيّ عن البيان، لأن ما خصه الدليل لا يتناوله العامّ. والأحاديث في تحريم الحرير لا تحصى كثرةً، فاستنباط حلّه منها مردود على زاعمه.

﴿قُلْ هِيَ﴾ أي زينة الله والطيبات، مخلوقة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالأصالة، والكفرةُ وإن شاركوهم فيها فتبع ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: لا يشاركهم فيها غيرهم، لأن الله حرم الجنة على الكافرين. وانتصابها على الحالية، وقرئ بالرفع، أي على أنه خبر بعد خبر.

لطيفة:

قال المهايمي: إنما خلقت للمؤمنين ليعلموا بها لذّات الآخرة، فيرغبوا فيها مزيد رغبة، لكن شاركهم الكفرة فيها لئلا يكون هذا الفرق ملجئاً لهم إلى الإيمان. فإذا ذهب هذا المعنى، تصير خالصة لهم يوم القيامة، فلو حرمت على المؤمنين لكانت مخلوقة للكافرين، وهو خلاف مقتضى الحكمة. وإن خلقت للمؤمنين فأولى أوقات الانتفاع بها وقت جريانهم على مقتضى الإيمان، وهو العبادة والتقوى،ولكن من غير انهماك في الشهوات.

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي الحكمة في خلق الأشياء، واستعمال الأشياء على نهج ينفع ولا يضر. فإن زعموا أنه يُخاف من التزين والتلذذ الوقوع في

الكبر، والانهماك في الشهوات، فيحرمان على أهل العبادة.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿قُلْ﴾ إنهما من المنافع الخالصة في أنفسهما. والإفضاء احتمال غير محقق. فإذا أفضى، فالحرام هو المفضَى إليه بالذات لأنه ﴿إنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ﴾ أي: ما تفاحش قبحه من الذنوب، أي تزايد (وهي الكبائر) وهي ما يتعلق بالفروج ﴿ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ﴾ أي: ما جاهر به بعضهم بعضاً، وما ستره بعضهم عن بعض، وما ظهر من أفعال الجوارح، وما بطن من أفعال القلوب ﴿والإِثْمَ﴾ أي: ما يوجب الإثم، وهو عامّ لكل ذنب، وذكره للتعميم بعد التخصيص. ويقال: إن الإثم هو الخمر، قال الشاعر:

نهانا رسول الله أن نقرَبَ الزنى ... وَأن نشرب الإثم الذي يُوجب الوِزْرَا

وأنشد الأخفش:

شربتُ الإثم حتى ضلَّ عقلي ... كذاك الإثم تذهبُ بالعقولِ

وهو منقول عن ابن عباس والحسن. وذكره أهل اللغة كالأصمعيّ وغيره. قال الحسن: ويصدقه قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢١٩]. وقال ابن الأنباري: لم تسمّ العرب الخمر إثماً في جاهلية ولا إسلام، والشعر المذكور موضوع. وردّ بأنه مجاز،لأنه سببه. وقال أبو حيان: هذا التفسير غير صحيح هنا، لأن السورة مكية، ولم تحرم الخمر إلا بالمدينة بعد أُحُد، وقد سبقه إلى هذا غيره. وأيضاً، الحصر يحتاج إلى دليل. كذا في (العناية) ﴿والْبَغْيَ﴾ أي: الاستطالة على الناس وظلمهم. إنما أفرده بالذكر، مع دخوله فيما قبله، للمبالغة في الزجر عنه. وذلك لأن تخصيصه بالذكر يقتضي أنه تَمَيَّزَ من بينها حتى عدّ نوعاً مستقلاً ﴿بغَيرِ الْحَقِّ﴾ متعلق بـ(البغي)، مؤكد له معنى. وقيل: البغي قد يخرج عن كونه ظلماً إذا كان بسبب جائز في الشرع، كالقصاص، إلا أنه مثله لا يسمى بغياً حقيقة، بل مشاكلة ﴿وَ﴾ قد حرّم ﴿أنْ تُشرِكُوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُطاناً﴾ أي: برهاناً أي: ما لم يقم عليه حجة. قال الزمخشري: فيه تهكم، لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأن يشرك به غيره. وفي (العناية): إنما جاء التهكم من حيث إنه يوهم أنه لو كان عليه سلطان

لم يكن محرّماً، دلالة على تقليدهم في الغي. والمعنى على نفي الإنزال والسلطان معاً على الوجه الأبلغ- أنتهى- قال الرازيّ: وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بالتقليد باطل. وتبعه القاضي فقال: في الآية تنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل عليه برهان ﴿وَ﴾ قد حرّم عليكم ﴿أن تَقُولُوا على الله ما لا تَعْلَمُونَ﴾ أي: تتقوّلوا عليه، وتفتروا الكذب في التحليل والتحريم، أو في الشرك.

تنبيه:

قال الجشمي: تدل الآية على تحريم جميع الذنوب، لأن قوله (الْفَوَاحِشَ والإِثْمَ) يشتمل على الصغير والكبير، والأفعال القبيحة، والعقود المخالفة للشرع، والأقاويل الفاسدة، والاعتقادات الباطلة. ودخل في قوله ﴿ما ظَهَرَ مِنْها وما بَطَنَ﴾ أفعال الجوارح، وأفعال القلوب والخيانات، والمكر، والخديعة، ودخل تحت قوله ﴿وَالْبَغْيَ﴾ كل ظلم يتعدى على الغير، فيدخل فيه ما يفعله البغاة والخوارج، والأمراء إذا انتصروا بغير حق. ودخل تحت قوله ﴿وأن تُشْرِكُوا﴾ تحريم كل شرك وعبادة لغير الله. ودخل تحت قوله ﴿وأن تَقُولُواْ﴾ كل بدعة وضلالة وفتوى بغير حق، وشهادة زور ونحوه. فالآية جامعة في المحرمات، كما أن ما قبلها جامعة في المباحات. وفيه تعليم للآداب، ديناً ودنيا، وتدل على بطلان التقليد، لأنه أوجب اتباع الحجة، لقوله ﴿ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾، والسلطان الحجة. وتدل على أن لكل أحد وقت حياة، ووقت موت، لا يجوز فيه التقديم والتأخير، فيبطل قول من يقول: المقتول مات قبل أجله. انتهى.

ثم أوعد تعالى أهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عنده سبحانه، كما نزل بالأمم، فقال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: مدة أو وقت لنزول العذاب بهم ﴿فإذا جاءَ أجَلُهُمْ﴾ أي: ميقاتهم المقدر لهم ﴿لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يتركون بعد الأجل شيئاً قليلاً من الزمان، ولا يهلكون قبله كذلك. والساعة مثل في غاية القلة من الزمان.

لطائف

١- وقع هذا التركيب في موضع من التنزيل، وفيه بحث مشهور: وهو أنه لما

كان الظاهر عطف (لا يستقدمون) على (لا يستأخرون) كما أعربه الحوفيّ وغيره، أُورِدَ عليه أنه فاسد، لأن (إذا) إنما يترتب عليها الأمور المستقبلة لا الماضية، والاستقدام حينئذ بالنسبة إلى مَحلّ الأجل متقدم عليه، فكيف يترتب عليه ما تقدمه؟ ويصير باب الإخبار بالضروري الذي لا فائدة فيه، كقولك: إذا قمت فيما يأتي، لم يتقدم قيامك فيما مضى. وأجيب بأن المراد بالمجيء الدنوّ، بحيث يمكن التقدم في الجملة، كمجيء اليوم الذي ضرب لهلاكهم ساعة فيه. وقيل: إن جملة ﴿لا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ مستأنفة. وقيل: إنها معطوفة على الشرط وجوابه، أو على القيد والمقيّد. أو أن مجموع (لا يستأخرون ولا يستقدمون) كناية عن أنهم لا يستطيعون تغييره. والتحقيق أنه عطف على ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾ لكن لا لبيان انتفاء التقدم، مع إمكانه في نفسه كالتأخر، كما يتوهم، بل للمبالغة في انتفاء التأخر. يعني أن التأخر مساوٍ للتقدم في الاستحالة، ولذا نظمه معه في سلك، كما في قوله سبحانه ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨] فإن من مات كافراً مع ظهور أن لا توبة له رأساً، قد نظم في عدم القبول، في سلك من سوّفها إلى حضور الموت. إيذاناً بتساوي وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة.

٢ – تقديم بيان انتفاء الاستئخار، لما أن المقصود بالذات بيان عدم خلاصهم من العذاب. وأما (ما) في قوله تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر:٥] من سبق (السبق) في الذكر، فلما أن المراد هناك بيان سر تأخير إهلاكهم مع استحقاقهم له، حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:٤٣]. فالأهم هناك بيان انتفاء السبق.

٣ – صيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك، مع طلبهم له، أفاده أبو السعود.

ثم أنذر تعالى بني آدم بأنه سيبعث إليهم رسلاً يهدونهم، وبشّر وأنذر بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾

﴿يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يأتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتي﴾ شرط ذكره بحرف

الشك، للتنبيه على أن إتيان الرسل أمر جائز غير واجب. وضمت إليها (ما) لتأكيد معنى الشرط، ولذلك أكد فعلها بالنون الثقيلة أو الخفيفة. والمراد ببني آدم جميع الأمم، وهو حكاية لما وقع مع كل قوم. وليس المراد بالرسل نبينا ﷺ وببني آدم أمته، كما قيل، فإنه خلاف الظاهر- كذا في (القاضي وحواشيه)- وجواب الشرط قوله تعالى ﴿ **فَمَنِ اتَّقَى** ﴾ أي التكذيب ﴿ **وأصْلَح** ﴾ أي عمله ﴿ **فلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** ﴾ من العذاب ﴿ **ولا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ في الآخرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ **والَّذينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا واسْتَكْبَروا** ﴾ أي تكبروا ﴿ **عَنْها** ﴾ فلم يؤمنوا بها ﴿ **أُولَئكَ أصْحابُ النَّارِ هُمْ فيها خَالِدونَ** ﴾.

تنبيه:

قال الجشمي: تدل الآية على وجوب اتباع الرسل، وقبول ما يؤدون. وتدل على أن الصلاح في الرسل أن تكون من جملة من بعث إليهم، لأنهم يكونون بطريقته أعرف، ومن النفار عنه أبعد، وإلى السكون إليه أقرب، وتدل على أن الغرض بالرسول ما يؤدي من الأدلة، فلذلك قلنا لا يجوز أن يكون رسولاً إلا ومعه ما يؤديه: وتدل على أن الجنة تنال بشيئين: بالأعمال الصالحة، واتقاء المعاصي، فبطل قول المرجئة. وتدل على أن المؤمن في الآخرة لا يخاف ولا يحزن، خلاف ما يقوله الأحسدية (كذا) والحشوية - هكذا قاله أكثر أصحابنا -.

وقال أبو بكر أحمد بن عليّ: قوله ﴿ **فلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** ﴾ كقول الطبيب للمريض (لا بأس عليك) يعني أن أمره يؤول إلى العافية. وليس هذا بالوجه لأنه نَفَى الخوف والحزن مطلقاً. وتدل على الوعيد للمكذبين، كما تدل على الوعيد للمطيعين، ترغيباً وترهيباً. وتدل على أن التقوى والصلاح والتكذيب فعل العبد، فبطل قولهم في المخلوق والاستطاعة. انتهى كلامه رحمه الله.

ثم ذكر تعالى وعيد المكذبين الذين تقدم ذكرهم، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧)

﴿ **فَمَنْ أظلَمُ ممَّن افترى على الله كَذباً أوْ كَذَّب بآياته** ﴾ أي ممن تقوّل على الله كذباً بالتحليل والتحريم، أو بنسبة الولد والشريك، أو كذب بآياته المنزلة ﴿ **أولَئك ينالُهمْ نصيبُهُم مِّنَ الْكِتابَ** ﴾ أي يصيبهم حظهم مما كتب لهم من الرزق والعمر وغير ذلك. أي مع ظلمهم وافترائهم وتكذيبهم، لا يُحرَمون ما قدر لهم من العمر والزرق إلى انقضاء آجالهم. وفي الآية وجوه أخر، هذا أظهرُها وأقواها في المعنى، وتتمة الآية تدل عليه، وحينئذ تتلاقى مع نظائرها، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إنَّ الَّذينَ يَفْتَرُونَ على اللّه الْكَذبَ لا يُفْلحُونَ مَتاعٌ في الدُّنْيا ثُمَّ إلَيْنا مَرْجعُهُمْ ثُمَّ نُذيقُهُمُ الْعذابَ الشَّديدَ بِم اكَانُوْا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس:٦٩-٧٠].

وقوله تعالى: ﴿ ومَن كَفَر فلا يَحزُنك كُفرُهُ إلَيْنا مَرْجعُهُمْ فَنُنبّئُهُم بما عَملُوا إنَّ اللّهَ عَليمٌ بذات الصُّدُور نُمَتّعُهُمْ قَليلاً.. ﴾ [لقمان:٢٣-٢٤] الآية - ﴿ **حتَّى إذا جاءَتهم رُسُلُنا يتوفَّونَهُمْ** ﴾ أي: ملائكة الموت تقبض أرواحهم ﴿ **قَالُوا أيْنما كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله** ﴾ أي: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها ليكونوا لكم شفعاء، فلا نراهم يخلّصونكم مما تحقق عليكم من هذه الشدائد. وفائدة السؤال وجهان: توبيخ وتبكيت لهم يزيدهم غماً إلى غم، ولطف بالمكلف لأنه إذا تصور ذلك صرفه عن التكذيب. و(ما) وقعت موصولة بـ (أين) في خط المصحف العثمانيّ، ومقتضى الاصطلاح الفصل لأنها موصولة ﴿ **قَالُوا ضَلُّوا عنَّا** ﴾ أي: غابوا عنا فلم يخلّصونا من شيء ﴿ **وَشَهدُوا على أنفسهِمْ أنَّهُم كانُوا كَافرِينَ** ﴾ أي: عابدين لما لا يستحق العبادة. اعترفوا بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه، وأنهم لم يحمدوه في العاقبة.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨)

﴿ **قَالَ** ﴾ أي الله، سبحانه، لهم في الآخرة ﴿ **ادخُلُوا في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ** ﴾ أي في

جملة أمم قد مضت ﴿مِن قَبْلِكُمْ مِّن الجنِّ والإنسِ﴾ يعني كفار الأمم الماضية من النوعين ﴿في النَّارِ﴾ متعلق بـ ﴿ادخلوا﴾ ﴿كُلَّما دَخلَتْ أُمَّةٌ﴾ أي في النار ﴿لَعنَتْ أختَها﴾ أي التي قبلها لضلالها بها، كما قال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقيامَة يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ...﴾ [العنكبوت:٢٥] الآية - ﴿إذا ادَّارَكُواْ فِيها جَمِيعاً﴾ أي تداركوا، بمعنى تلاحقوا واجتمعوا في النار ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ وهم الأتباع ﴿لأُولاهُمْ﴾ أي: لأجل أولاهم، إذ الخطاب مع الله سبحانه، لا معهم. قال ابن كثير : أي قالت أخراهم دخولاً وهم الأتباع، لأولادهم وهم المتبَعون، لأنهم أشد جرماً من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة، لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿رَبَّنا هؤلاء أَضَلُّونا﴾ أي سنّوا لنا الضلال، ودعوا إليه، فاقتدينا بهم ﴿فآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ﴾ أي مضاعفاً لأنه ضلوا وأضلوا ﴿قَال﴾ أي تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي عذاب مضاعف. أما القادة والرؤساء فبالضلال والإضلال. وأما الأتباع والسفلة، فبالضلال وتقليد أهل الضلال، مع وجود الهادين بالبراهين القاطعة ﴿ولَكِنَ لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ أي ما لكم، أو ما لكل فرقة. وقرئ بالياء. وعليها، فهو تذييل لم يقصد إدراجه في الجواب.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

﴿وقَالَتَ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِن فَضْلٍ﴾ أي لا فضل لكم علينا في ترك الكفر والضلال حتى يكون عذابنا مضاعفاً دونكم، فقد ضللتم كما ضللنا، فنحن وإياكم متساوون في الضلال واستحقاق العذاب. وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من قول القادة، أو من قول الله تعالى للفريقين، وهو أظهر.

تنبيه:

قال الجشمي: تدل الآية على أن الكفار والضلال والمبتدعة، وإن تناصروا وتعاونوا على ضلالتهم، وتوادّوا في الدنيا، فإنهم في الآخرة يتلاعنون ويتقاطعون ويسألون العذاب لمن أضلهم. وتدل على فساد التقليد، والاغترار بقول علماء السوء. وتدل على أن الداعي إلى الضلال مضلّ. وتدل على أن إضلال غيره إياه ليس بعذر له. وتدل على أن اشتراكهم في العذاب لا يوجب لهم راحة، بخلاف الاشتراك

في محن الدنيا. وتدل على أن ذلك الإضلال فعلهم، فيبطل قول المجبرة في المخلوق، والهدى والضلال.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ (٤٠)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنا واسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أبْوابُ السَّماءِ﴾ أي لا تفتح لأعمالهم، ولا لدعائهم، ولا لشيء مما يريدون به طاعة الله. أي لا يقبل ذلك منهم، لأنه ليس صالحاً ولا طيّباً. وقد قال سبحانه: **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، والْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾** [فاطر:١٠]، قال ابن عباس: أي لا يرفع لهم منها عمل صالح، ولا دعاء – رواه جماعة عنه. وقاله مجاهد وابن جبير. أو المعنى: لا تنزل عليهم البركة والرحمة، ولا يغاثون، لأنه أجرى العادة بإنزال الرحمة من السماء، كما في قوله: **﴿فَفَتَحْنا أبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهمرٍ﴾** [القمر:١١]، أو المعنى: لا يؤذن لهم في صعود السماء ولا يطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة، على ما روي أن الجنة في السماء. أو المعنى لا تفتح لأرواحهم، إذا ماتوا، أبواب السماء، كما تفتح لأرواح المؤمنين– رواه الضحاك عن ابن عباس– ورواه ابن جرير عن البراء، أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يصعد بها إلى السماء، فيصعدون بها، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون فلان! (بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا) حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون له، فلا يفتح له. ثم قرأ رسول الله ﷺ **﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أبْوابُ السَّماء﴾**.. الآية – قال ابن كثير: هكذا رواه. وهو قطعة من حديث طويل، رواه الإمام أحمد[1] مطولاً وأبو داود والنسائي وابن ماجة من طرق.

---

(١) اخرجه في المسند بالصفحتين ٤/ ٢٨٧ و ٢٨٨ ونصه: عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع النبيّ ﷺ في جنازة رجل من الأنصار. فانتهينا إلى القبر ولمّا يلحد. فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير. وفي يده عود ينكت في الأرض فرفع رأسه فقال «**استعيذوا بالله من عذاب القبر**» مرتين أو ثلاثاً ثم قال «**إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس. معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر. ثم يجيء ملك الموت، عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه. فيقول: أيتها النفس الطيبة! اخرجي إلى مغفرة من الله** =

تنبيهات:

الأول – قال الشهاب كون السماء لها أبواب، وأنها تفتح للدعاء الصالح، وللأعمال الصاعدة أو للأرواح – وارد في النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، فلا حاجة إلى تأويل. انتهى.

= ورضوان. قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها. فإذا أخذها، لم يَدَعُوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها. فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط. ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على الأرض. قال فيصعدون بها. فلا يمرون (يعني بها) على ملائكة من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان (بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا) حتى ينتهوا بها الى السماء الدنيا. فيستفتحون له فيفتح لهم. فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة. فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في علّيين، واعيدوه إلى الأرض. فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى.
قال فتعاد روحه في جسده فيأتيه مَلَكان فُيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت.
فينادي مناد من السماء: إن صدق عبدي. فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة.
قال فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مدّ بصره.
قال ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعده. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب! أقم الساعةَ حتى أرجع إلى أهلي ومالي.
قال، وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح. فيجلسون منه مدّ البصر. ثم يجيء مَلَكُ الموت حتى يجلس عن رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة! اخرجي إلى سخط من الله وغضب.
قال فتفرق في جسده. فينتزعها كما ينتزع السّفود من الصوف المبلول. فيأخذها. فإذا أخذها لم يَدَعُوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح. ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها. فلا يمرون بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان(بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا) حتى ينتهى بها إلى السماء الدينا. فيستفتح له فلا يفتح له».
ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أبْوابُ السَّماءِ ولا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ في سَمِّ الْخِياطِ﴾. فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجّين، في الأرض السفلى. فتطرح روحه طرحاً. ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِالله فكأنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أوْ تَهْوِي به الرِّيحُ في مكانٍ سَحيقٍ﴾. «فتعاد روحه في جسده. ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه. لا أدري. فيقولان له ما دينك؟ فيقول: هاه هاه. لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي =

وهذا على قاعدة أهل الظاهر في مثل ذلك ، إلا أن الإطلاق لا ينحصر في الحقيقة. والتنزيل الكريم، إنما ورد على مناحٍ للعرب معروفة في لسانهم – والله أعلم.

الثاني – التضعيف في (تفتح) لتكثير المفعول، لا الفعل لعدم مناسبة المقام.

الثالث – قرئ بالتخفيف في (تفتح) وبالتخفيف، والياء. وقرئ على البناء للفاعل، ونصب الأبواب، على أن الفعل للآيات مجازاً، وبالياء على أنه لله تعالى.

﴿ولا يَدْخُلُونَ الْجَنَّة حتَّى يَلِجَ﴾ أي يدخل ﴿الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي ثقب الإبرة، وهو غير ممكن، فكذا دخولهم.

لطائف:

الأول – قرأ الجمهور (الجمل) بفتح الجيم والميم، وفسروه: بأنه الجمل المعروف وهو البعير قال الفراء: الجمل زوج الناقة. وقال شمر: البكر والبكر بمنزلة الغلام والجارية، والجمل والناقة بمنزلة الرجل والمرأة. وقرئ في الشواذ (الجُمَّل) كسكَّر وصُرَد وقُفْل وعُنُق وجَبْل بمعنى حبل السفينة الغليظ الذي يقال له (القَلْس).

وقال أبو البقاء: يقرأ في الشاذ بسكون الميم، والأحسن أن يكون لغة، لأن تخفيف المفتوح ضعيف، ويقرأ بضم الجيم وفتح الميم وتشديدها، وهو الحبل الغليظ، وهو جمع مثل صُوَّم وقُوَّم، ويقرأ بضم الجيم والميم مع التخفيف وهو جمع مثل أسَد وأُسُد، ويقرأ كذلك إلا أن الميم ساكنة، وذلك على تخفيف المضموم – انتهى –.

وذكر الكواشي أن القراءات المذكورة كلها لغات في البعير ما عدا «جُمَّلاً» كسكّر وقفل، ونوقش في ذلك – انتهى –.

= بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه. لا ادري. فينادي منادٍ من السماء: أن كذب. فافرشوا له من النار. وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرّها وسمومها. ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه. ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك. هذا يومك الذي كنتَ توعد. فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب! لا تُقم الساعةَ».

وأخرجه أبو داود في: السنّة، ٢٤ – باب في المسالة في القبر وعذاب القبر، حديث ٤٧٥٣.

وقراءته (كسكّر) على معنى الحبل المذكور، رواها مجاهد وعكرمة عن ابن عباس، واختارها سعيد بن جبير.

قال الزمخشري: وعن ابن عباس رضي الله عنه، أن الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمل، أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة، والبعير لا يناسبه، إلا أن قراءة العامة أوقع، لأن سمّ الإبرة مثل في ضيق المسلك، يقال: أضيق من خَرْتِ الإبرة.

وقالوا للدليل الماهر (خرِّيت) للابتداء به في المضايق المشبهة بأخْرات الإبر، والجملُ مثل في عظم الجرم، قال:

* جسم الجمال وأحلام العصافير *

إن الرجال ليسوا بجزَر تراد منهم الأجسام، فقيل: لايدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان، الذي لا يلج إلا في باب واسع، في ثقب الإبرة.

وعن ابن مسعود: أنه سئل عن الجمل؟ فقال: زوج الناقة، استجهالاً للسائل، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلّفٌ – انتهى.

وحاصله أن الجمل لما كان مثلاً في عظم الجسم، لأنه أكثر الحيوانات جسماً عند العرب، وخرق الإبرة مثلاً في الضيق، ظهر التناسب. على أن في إيثار الجمل، وهو مما ليس من شأنه الولوج في سم الإبرة، مبالغة في استبعاد دخولهم الجنة.

الثانية – (السَّم): الثقب الضيق. قال أبو البقاء: بفتح السين وضمها، لغتان – انتهى وصح بالتثليث فيه، وفي القاتل المعروف، صاحبُ القاموس وغيره، إلا أنهم قالوا: المشهور في الثقب الفتح كما في التنزيل. والأفصح في القاتل الضم.

قال العلامة الفاسي: قال الزبيديّ: لم أر من تعرض لكسرهما، وكأنها عامية.

قلت: قال الزمخشري: وقرئ ﴿فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ بالحركات الثلاث، وكفى به مرجعاً.

الثالثة – (الخِياط) ككتاب ومنبر، ما خيط به الثوب، والإبرة – كذا في القاموس – قال الزمخشري: وقرأ عبد الله (في سم المخيط). قال الشهاب: بكسر الميم وفتحها، كما ذكره المُعْرِب، وهي قراءة شاذة.

الرابعة – قال السيوطيّ في (الإكليل): في قوله تعالى ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ...﴾ الخ. جواز فرض المحال، والتعليق عليه كما يقع كثيراً للفقهاء – انتهى –.

والتعليق على المحال معروف في كلام العرب، كقوله:

إذا شابَ الغراب أتيتُ أهلي وصا ر القارُ كاللَّبَنِ الحَليب

وقوله تعالى: ﴿وكَذلكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجزِي الْمُجْرِمينَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّم مِهادٌ﴾ أي: فرش من تحتهم ﴿ومِن فَوْقِهِمْ غَواشٍ﴾ أي أغطية، إذا أحاطت بهم الخطيئة ﴿وكَذَلكَ نَجْزِي الظَّالِمينَ﴾ أي بالكفر، وإنما عبر عنهم بالمجرمين تارة، وبالظالمين أخرى، إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات، اتصفوا بكل واحد من ذينك الوصفين القبيحين. وذكر الجرم مع الحرمان من دخول الجنة، والظلم مع التعذيب بالنار الذي هو أشد من الحرمان المذكور- تنبيهاً على أنه أعظم الجرائم. ثم تأثر تعالى وعيده بوعده، على سنته في تنزيله الكريم، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾

﴿والَّذين آمَنُوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها أُولَئكَ أصْحابُ الْجَنَّة هُمْ فِيها خَالِدونَ﴾ قال أبو البقاء: والذين آمنوا مبتدأ، وفي الخبر وجهان:

أحدهما - ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها﴾، والتقدير (منهم)، فحذف العائد، كما حذف في قوله: ﴿ولَمنَ صَبَرَ وَغَفَرَ إنَّ ذَلكَ لمنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣].

والثاني - أن الخبر ﴿أُولَئكَ أصْحابُ الْجَنَّة﴾ و ﴿لا نُكَلِّفُ﴾ معترض بينهما - انتهى - وعلى الثاني اقتصر غير واحد من المحققين. قالوا: وسر الاعتراض، الترغيبُ في اكتساب ما يؤدي إلى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله، وتيسير تحصيله. والذي حسّنه سبق العمل الصالح قبله. أي وإذ علم أن مبنى التكليف على الوسع، زادت الرغبة في ذلك الاكتساب، لحصوله بما فيه يسر لا عسر.

لطيفة:

الوسع: ما يقدر عليه الإنسان بسهولة ويستمرّ. قال الرازي، أخذاً من قول معاذ في الآية (يسرها لا عسرها) قال: وأما أقصى الطاقة فيسمى جهداً لا وسعاً، وغلط

من ظن أن الوسع بذل المجهود.

قلت: في القاموس: الوسع (مثلثة) الجدة والطاقة كالسعة. وفيه: الجهد الطاقة (ويضم) والمشقة - انتهى-.

قال ابن الأثير: الجهد (بالفتح) المشقة، وقيل: المبالغة والغاية، وبالضم الوسع والطاعة وقيل: وهما لغتان في الوسع والطاعة، فأما في المشقة والغاية، فالفتح لا غير - انتهى - وبه يعلم أن ما جرى عليه الرازي قول للغويين، ليس وفاقاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

﴿**ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ**﴾ أي: نخرج من قلوبهم أسباب الحقد والحسد والعداوة، أو نطهرّها منها، حتى لا يكون بينهم إلا التوادّ والتعاطف. وصيغة الماضي للإيذان بتحققه وتقرره وتقرره ﴿**تجري من تحتهم الأنهارُ وقالوا الحمدُ لله الذي هدانا لهذا**﴾ أي لما جزاؤه هذا، أي: لأسباب هذا العلوّ، بإرسال الرسل والتوفيق للعمل ﴿**وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا اللهُ**﴾ أي ما كنا لنرشد لذلك العلم الذي هذا ثوابه، لولا أن وفقنا الله بدلائله وألطافه وعنايته ﴿**لقد جاءت رسلُ ربّنا بالحقّ**﴾ أي: فاهتدينا بإرشادهم قال الزمخشري: يقولون ذلك، أي ﴿**الحمدُ لله**﴾... الخ سروراً واغتباطاً بما نالوا، وتلذّذاً بالتكلم به، لا تقرّباً ولا تعبداً، كما ترى من رزق خيراً في الدنيا يتكلم بنحو ذلك، ولا يتمالك أن لا يقوله، للفرح والتوبة ﴿**ونودوا أن تلكمُ الجنّةُ أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾ أي: أعطيتموها بسبب أعمالكم في الدنيا. فالميراث مجاز عن الإعطاء، تجوّز به عنه إشارة إلى أن السبب فيه ليس موجباً، وإن كان سبباً بحسب الظاهر، كما أن الإرث ملك بدون كسب، وإن كان النسب مثلاً سبباً له.. وعلى ماتقرر، فلا يقال إنه معارض لما ثبت في الصحيحين[1] من قوله ﷺ: «واعلموا أن

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، ١٨ - باب االقصد والمداومة على العمل، حديث ٢٤٢٧ ونصه: عن عائشة عن النبيّ ﷺ قال «سدّدوا وقاربوا وابشروا، فإنه لا يُدخل أحداً الجنةَ عَمَلُهُ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة».
وأخرجه مسلم في: صفات المنافقين وأحكامهم، حديث ٧٨.

أحدكم لن يدخله عمله الجنة! قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»، ولا يحتاج إلى الجواب عنه، ولا أن يقال الباء للعوض لا للسبب. وهذا تنجيز للوعد بإثابة المطيع، لا بالاستحقاق والاستيجاب، بل هو بمحض فضله تعالى، كالإرث - كذا في العناية -.

روى الإمام مسلم[1] عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنةَ نادى منادٍ إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإنّ لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً». فذلك قوله عز وجل ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾... الآية.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أي إذا استقروا في منازلهم ﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾ توبيخاً وتحسيراً لهم ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ حيث نلنا هذه المراتب العالية ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ من تنزيلكم إلى أسفل سافلين، لاستكباركم على الآيات والرسل ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ أي وجدناه حقاً ﴿فَأَذَّنَ﴾ أي نادى ﴿مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الفريقين ليسمعهم، زيادة في شماتة أحد الفريقين وندامة الآخر ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يمنعون أنفسهم وغيرهم عن دينه القويم الذي بيّنه على ألسنة رسله لمعرفته وعمارة الدارين ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يبغون لها زيغاً وميلاً عما هي عليه، حتى لايتبعها أحد ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أي وهم بلقاء الله في الدار الآخرة جاحدون لا يؤمنون به، فلهذا لايبالون، فيأتون المنكر من

---

(١) أخرجه مسلم في: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث ٢٢ ونصه: عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، عن النبيّ ﷺ قال «ينادي منادٍ: إن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً. وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً. وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً. وإن لكم أن تنعَموا فلا تبأسوا أبداً».

القول والعمل، لأنهم لا يرجون حساباً عليه ولا عقاباً، فهم شر الناس .

القول في تأويل قوله تعالى:

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦)

﴿وَبَيْنَهُما حِجَابٌ﴾ أي: بين الفريقين سور وستر، أو بين الجنة والنار، ليمنع ووصل أثر إحداهما إلى الأخرى. وقد سمي هذا الحجاب سوراً في آية ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَّهُ بابٌ باطنهُ، فِيهِ الرَّحْمَةُ وظَاهِرُهُ من قِبَلِه الْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣]، وقوله تعالى: ﴿وعلى الأَعْرافِ رِجَالٌ﴾ أي على أعراف الحجاب وشرفاته وأعاليه، وهو السور المضروب بينهما، جمع عَرْف، مستعار من عرف الفرس، وعرف الديك. وكل ما ارتفع من الأرض عرف، فإنه بظهوره أعرف مما انخفض.

وقد حكى المفسرون أقوالاً كثيرة في رجال الأعراف، عن التابعين وغيرهم، أنهم فضلاء المؤمنين، أو هم الشهداء، أو الأنبياء، أو قوم أوذوا في سبيل الله، فاطلعوا على أعدائهم ليشمتوا بهم، فعرفوهم بسيماهم، وسلّموا على أهل الجنة. واللفظ، لإبهامه، يحتمل ذلك؛ لأن السياق يدل على سمّو قدرهم، لا سيما بجعل منازلهم الأعراف، وهي الأعالي، والشرف، كما تقدم ومن ذكر كلهم جديرون بذلك - والله أعلم -.

﴿يَعْرِفُونَ كُلاً﴾ أي من أهل الجنة والنار ﴿بِسِيماهُمْ﴾ أي بعلامتهم التي أعلمهم الله بها، كبياض الوجه وسواده.

فائدة:

السيما مقصورة وممدودة، والسيمة والسيمياء بكسرهن العلامة. قال القاضي: السيمى فِعْلى مِنْ (سام إبله) إذا أرسلها في المرعى معلمة. أو من (وسم) على القلب (كالجاه) من (الوجه). انتهى. وعلى الثاني اقتصر ابن دريد ﴿وَنادَواْ﴾ أي رجالُ الأعراف ﴿أصْحابَ الْجنَّة﴾ أي حين رأوهم من أعرافهم، وقد عرفوهم من سيماهم أنهم أهل الجنة ﴿أن سلامٌ عَلَيْكُم﴾ بطريق الدعاء والتحية، أو بطريق الإخبار بنجاتهم من المكاره. والوجه الأول هو المأثور عن ابن عباس رضي الله عنه فيما رواه عنه العوفي. قال رضي الله عنه: أنزلهم الله بتلك المنزلة ليعرفوا مَن في الجنة والنار، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين، وهم

في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام ﴿لَمْ يَدْخُلُوها وهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ الضميران في الجمليتن لأصحاب الأعراف، والأولى حال من الواو، والثانية حال من فاعل ﴿يَدْخُلوها﴾، أي نادَوْهم وهم لم يدخلوا الجنة بَعْدُ، حال كونهم طامعين في دخولها ، مترقبين.

قال الجشمي رحمه الله: قيل: إذاكان أصحاب الأعراف أفاضل المؤمنين، فلِم تأخر دخولهم؟ قلنا: هم تعجلوا اللذة بالشماتة من الأعداء، وإن تأخر دخولهم ، لظهور فضلهم، وجلالة طريقهم إلى منازلهم .

ولا يبعد عندي أن يكون جملة ﴿لَمْ يَدْخُلوها وهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ حالاً من ﴿أصحاب الجنة﴾ أي نادوهم بالسلام وهم في الموقف على طمع دخول الجنة يبشرونهم بالأمان والفوز من العذاب، إشارة إلى سبق أهل الأعراف على غيرهم في دخول الجنة، وعلوّ منازلهم على سواهم – والله أعلم –.

وذهب أبو مجلز إلى أن الضميرين لأصحاب الجنة، أي: نادى أهلُ الأعراف أصحابَ الجنة بالسلام، حال كون أصحاب الجنة لم يدخلوها وهم يطمعون في دخولها. وهو وجه جيّد. فالجملة الأولى حال من المفعول وهو (أصحاب الجنة) والثانية حال من فاعل (يدخلوها).

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وإذا صُرِفَت أبْصَارَهُمْ﴾ أي: أبصار أهل الأعراف أو أهل الجنة.

قال الجشمي: وإنما قال ﴿صُرِفَتْ﴾ لأن نظرهم إلى أهل النار نظر عداوة. فلا ينظرون إلا أن تصرف وجوههم إليهم. فأما أهل الجنة فوجوههم إليهم سروراً بهم، فلا يحتاج إلى تكلف. وقيل: لأنهم مع أهل الجنة بُعَداء من أهل النار، فيحتاجون إلى صرف أبصارهم تلقاء أصحاب النار. ثم قال الجشمي: تدل الآية على وجوب الاجتناب من الظلمة في الدنيا، كيلا يكون معهم في الآخرة – انتهى–.

﴿تلْقاءَ أصْحَاب النَّارِ﴾ أي: إلى جهتهم ﴿قَالُوا﴾ من شدة خوفهم تعوّذاً بالله ﴿ربَّنا لا تَجْعَلَنا مَعَ القَوْمِ الظَّالِمينَ﴾ أي: في النار. وقال أبو السعود: في وصفهم بالظلم – دون ما هم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال الذي هو الموجب للدعاء – إشعار بأن المحذور عندهم ليس نفس العذاب فقط، بل مايوجبه ويؤدي إليه من الظلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾

﴿ونادى أصْحابُ الأعْرافِ رِجالاً﴾ يعني من عظماء أهل الضلالة ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ﴾ أي: التي تدل على أعيانهم، وإن تغيرت صورهم ﴿قَالُوا ما أَغْنَى عنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي: كثرتكم أو جمعكم للأموال التي تدفع بها الآفات ﴿وما كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الحق، أو على الخلق. وقرئ ﴿تَسْتَكْثِرُونَ﴾ من الكثرة، أي: من الأتباع الذين يستعان بهم في دفع الملمات.

قال ابن القيّم: يعني ما نفعكم جمعكم وعشيرتكم وتجرؤكم على الحق ولا إستكباركم.

وهذا إما نفي وإما استفهام وتوبيخ، وهو أبلغ وأفحم. ثم نظروا إلى الجنة فرأوا من الضعفاء الذين كان الكفار يسترذلونهم في الدنيا، ويزعمون أن الله لا يختصهم دونهم في الدنيا، فيقول لهم أهل الأعراف.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

﴿أهَؤُلآءِ﴾ الضعفاء من المؤمنين ﴿الَّذِينَ أقْسَمْتُمْ لا ينالُهُمُ اللهُ بِرحْمَةٍ﴾ برفع درجاتهم في الآخرة، فهاهم في الجنة يتمتعون ويتنعمون، وفي رياضها يُحْبَرونَ. وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ ولا أنتُمْ تحزَنُونَ﴾ أي: لا خوف عليكم من العذاب النازل بالكفار، ولا تحزنون كحزن الكفار على فوات النعيم، وهذا إما من قول أصحاب الأعراف، يتآمرون بينهم بدخول الجنة بعد تبكيت أهل النار، فيقول بعضهم لبعض: ادخلوا الجنة، وإما من كلام أهل الأعراف للمؤمنين، أي يقولون لهم: أدخلوا الجنة، أو من تتمة مخاطبة أهل الأعراف للرجال، كأنه قيل لهم: أنظروا إلى هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته، كيف نالوها، حيث قيل من قِبَلِه تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّة﴾. وعلى كلٍّ فالجملة مبنية على قول محذوف إيجازاً، للعلم به.

لطيفة:

بيّن الزمخشري سرّ حبسهم على الأعراف، ثم إدخالهم الجنة أبدع بيان، فقال رحمه الله: يقال لأصحاب الأعراف: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف، وينظروا إلى الفريقين، ويعرفوهم بسيماهم، ويقولوا ما يقولون. وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدم والتأخر على حسبها، وأن أحداً لا يسبق عند الله إلا بسبْقه في العمل، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم، وليتصوروا أن كل أحد يُعرف ذلك اليوم بسيماه التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر، فيرتدع المسيء عن إساءته، ويزيد المحسن في إحسانه، وليعلم أن العصاة يوبخهم كل أحد، حتى أقصر الناس عملاً – انتهى–.

ثم بيّن تعالى ذلّة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم، بعد التكبر عليهم، وبعد ما أقسموا لا ينالهم الله برحمة، وأنهم لا يجابون إلى ذلك، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾

﴿ونَادَى أصْحابُ النَّارِ أصْحابَ الْجَنَّةِ أن أفِيضُوا علَيْناَ منَ الْماءِ﴾ أي: الذي رحمكم الله به ليسكن حرارة النار والعطش. قال الجشميّ: وذكروا لفظ (الإفاضة) لأن أهل الجنة أعلى مكاناً. **﴿أوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾** أي: من الأطعمة والفواكه **﴿قَالُوا إنَّ اللَهَ حَرَّمَهُما على الْكافِرِينَ﴾** أي: منعهما عنهم، لأنه أنعم عليهم في الدنيا، فلم يشكروه، فمنعهم نعمه في الآخرة. فالتحريم تحريم منع، لا تجريم تعبد. ثم وصف الكافرين بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهواً ولَعِباً﴾ أي: مما زينه لهم الشيطان. واللهو: كل ما

صدّ عن الحق. واللعب: كل أمر باطل. أي: ليس دينهم في الحقيقة إلا ذلك، إذ هو دأبهم وديدنهم ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيا﴾ بزخارفها العاجلة، فلم يعملوا ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ أي: نتركهم ترك المنسيّ، فلا نرحمهم بما نرحم به من عمل للآخرة ﴿كَما نَسُواْ لِقاء يَوْمِهِمْ هَذا﴾ أي: كما فعلوا بلقائه، فعل الناسين، فلم يُخطروه ببالهم، ولم يهتموا به.

لطيفة:

قال الشهاب: ﴿نَنسَاهُمْ﴾ تمثيل. شبه معاملته تعالى مع هؤلاء بالمعاملة مع من لا يعتدّ به، ويلتفت إليه، فينسى. لأن النسيان لا يجوز على الله تعالى، أي لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء، كما قال: ﴿فِي كِتابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي ولا يَنسى﴾ [طه:٥٢] والنسيان يستعمل بمعنى الترك كثير في لسان العرب. ويصح هنا أيضاً، فيكون استعارة تحقيقية، أو مجازاً مرسلاً، وكذا نسيانهم لقاء الله أيضاً، لأنهم لم يكونوا ذاكري الله حتى ينسوه، فشبه عدم إخطارهم لقاء الله والقيامة ببالهم، وقلة مبالاتهم - بحال من عرف شيئاً، ثم نسيه. وليست الكاف للتشبيه، بل للتعليل، ولا مانع من التشبيه أيضاً - انتهى-.

وقال تعالى: ﴿وَما كَانُوا بِآيَاتِنا يَجْحَدُونَ﴾ أي وكما كانوا منكرين أنها من عند الله تعالى. روى الترمذي [١] عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيقول الله: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً، وسخرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وتَرْبَع، فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ قال فيقول: لا! فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني».

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم [٢]: «فيلقى العبد ربه، فيقول: أي فلْ! ألم

(١) أخرجه الترمذي في: القيامة، ٦ - باب منه، حدثنا سويد بن نصر.

(٢) أخرجه مسلم في: الزهد والرقاق، حديث ١٦ ونصه: عن أبي هريرة قال: قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال «هل تضارّون في رؤية الشمس في الظهيرة، ليست في سحابة»؟ قالوا: لا. قال «فهل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر، ليس في سحابة»؟ قالوا: لا. قال «فو الذي نفسي بيده! لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما. قال فيلقى العبد، فيقول: أيْ فُلْ! ألم أكرمك وأسوّدك، وأزوجك، وأسّخر لك الخيل والإبل. وأذَرْكَ ترأس وتربَع؟ فيقول: بلى. قال أظننت أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثاني فيقول: أيْ فلْ! ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسّخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. أيّ ربِّ! فيقول: أفظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى =

أكرمك وأسوّدك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأتركك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى يا رب! فيقول: أظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: إني أنساك كما نسيتني!»

ولما أخبر تعالى عن خسارتهم في الآخرة ذكر أنه أزاح عللهم في الدنيا بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)

﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بكتاب فَصَّلْنَاهُ**﴾ أي بينا فيه الاعتقادات والأحكام والأمور الأخروية تفصيلاً مبيّناً ﴿**عَلَى عِلْمٍ**﴾ أي عالمين كيف نفصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه، حتى جاء محكماً قيّماً غير ذي عوج، وهذا كقوله تعالى: ﴿أنزَلَه بعلْمه﴾ [النساء:١٦٦]. ﴿**هُدىً**﴾ أي دلالة ترشدهم إلى الحق، وتنجيهم من الضلالة ﴿**ورَحْمَةً**﴾ أي ينجيهم من العذاب لما فيه من الدلائل ورفع الشبه ﴿**لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ لأنهم المغتنمون لفوائده.

القول في تأويل قوله تعالى:

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)

﴿**هَلْ ينظُرونَ إلاَّ تأْوِيلَهُ**﴾ أي ما ينتظرون إلا ما يؤول إليه أمره، من تبيّن صدقه، بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد. قال الشهاب: (فالنظر) هنا بمعنى (الانتظار) لا بمعنى الرؤية. والتأويل بمعنى العاقبة، وما يقع في الخارج، وهو أصل معناه، ويطلق على التفسير أيضاً. والمعنى: أنهم قبل وقوع ما هو محقق، كالمنتظرين له، لأن كل آت قريب، فهم على شرف ملاقاة ما وعدوا به. فلا يقال: كيف ينتظرونه مع

= الثالث فيقول له مثل ذلك. فيقول: يا ربِّ! آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت. ويثني بخيرٍ ما استطاع. فيقول: ههنا إذاً. قال ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك. ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد عليّ؟ فيختم على فيه. ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي. فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله. وذلك ليُعْذِرَ من نفسه.
وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه».

جحدهم؟ فإنهم وإن جحدوه، إلا أنهم بمنزلة المنتظرين وفي حكمهم، من حيث إن تلك الأحوال تأتيهم لا محاله ﴿يَوْمَ يأتي تأويلُهُ﴾ يعني يوم القيامة، لأنه يوم الجزاء، وما تؤول إليه أمورهم ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي تركوه ترك المنسي، حين كان ينفعهم الذكر، فلم يؤمنوا به عند معاينة العذاب ﴿قَدْ جاءتْ رُسُلُ ربّنا بالْحَقِّ﴾ أي بما هو واقع من الاعتقادات والوعد والوعيد ﴿فَهل لَنا مِن شُفَعاءَ فَيشْفَعُواْ لَنا﴾ في إزالة العذاب ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى مكان العمل ﴿فنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ من الجحود واللهو واللعب وأعمال الدنيا. قال عز وجل ﴿قَدْ خَسِرُوا أنفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمالهم في الكفر ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ذهب عنهم ما كانوا يفترون من أن معبوديهم شفعاؤهم عند الله، وعلموا أنهم كانوا في دعواهم كاذبين.

ولما قدم سبحانه ذكر الكفار وعبادتهم غيره، سبحانه، أحتج عليهم، مبيناً بأفعاله انه لا معبود سواه بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

﴿إنَّ ربَّكُمُ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ في سِتَّة أيَّامٍ﴾ أي إن سيدكم ومالككم ومدبركم الذي يجب أن تعبدوه أيها الناس، الذي أنشأ أعيان السموات والأرض في مقدار ستة أيام.

وفي هذه الآية مسائل:

الأولى: قال الشهاب: اليوم في اللغة مطلق الوقت، فإن أريد هذا، فالمعنى في ستة أوقات، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ [الأنفال:١٦]. وإن أريد المتعارف، وهو زمان طلوع الشمس إلى غروبها، فالمعنى في مقدار ستة أيام، لأن اليوم إنما كان بعد خلق الشمس والسموات، فيقدر فيه مضاف - انتهى-.

وفي شرح القاموس: إن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها، أو من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، وإن الثاني تعريف شرعيّ عند الأكثر. ونقل عن الفاسي شارحه: أن اليوم عند المنجمين من الطلوع إلى الطلوع، أو من الغروب إلى الغروب.

ثم قال الزبيدي: ويستعمل بمعنى مطلق الزمان، نقله عن ابن هشام، وحكاه عن سيبويه في قولهم: (أنا، اليوم، افعل كذا) فإنهم لايريدون يوماً بعينه، ولكنهم يريدون الوقت الحاضر. قال: وبه فسروا قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣] ثم قال: وقد يراد باليوم الوقت مطلقاً، ومنه والحديث [١] : تلك أيام الهرج. أي وقته ولا يختص بالنهار دون الليل - انتهى- .

وإرادة الوقت مطلقاً منه، عين إرادة مطلق الزمان قبله، كما يتبادر. والظاهر أن إطلاقه على المتعارف والوقت مطلقاً، لغوي فيهما - كما نقله شارح القاموس- خلافاً لظاهر كلام الشهاب السابق، فتثبتْ هذا.

الثانية - قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه خلق العالم، سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم عليه السلام. واختلفوا في هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام، كما هو المتبادر إلى الأذهان، أو كل يوم كألف سنة، كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل؟ ويروى من رواية الضحاك عن ابن عباس.

فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق، لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد[٢] في مسنده عن أبي هريرة قال: «أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر يوم الجمعة، آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل» - فقد رواه مسلم[٣] بن الحجاج في (صحيحه) والنسائي، من غير وجه. وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال: في ستة أيام، ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار، ليس مرفوعاً - والله أعلم - انتهى.

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الفتن، ٥ - باب ظهور الفتن، حديث رقم ٢٥٤٨ ونصه: عن أبي وائل، عن عبد الله (وأحسبه رفعه) قال: بين يدي الساعة أيام الهَرْج. يزول العلم ويظهر فيها الجهل.

(٢) أخرجه في المسند ٢/ ٣٢٧ .

(٣) أخرجه مسلم في: صفات المنافقين وأحكامهم، حديث ٢٧.

وقد بسطت الكلام فيه في شرحي على (الأربعين العجلونية)

الثالثة – قال القاضي: في خلق الأشياء مدرّجاً، مع القدرة على إيجادها دفعة – دليل للاختيار، أي لأنه لو كان بالإيجاب، لصدر دفعة واحدة. وفيه حث على التأني في الأمور.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوى على الْعَرْشِ﴾ اعلم أن الاستواء ورد على معان اشترك لفظه فيها، فجاء بمعنى الاستقرار ومنه: ﴿اسْتَوتْ على الْجُوديِّ﴾ [هود:٤٤]، وبمعنى القصد ومنه: ﴿ثُمَّ اسْتَوى إلى السَّماء﴾ [البقرة:٢٩]، وكل من فرغ من أمر وقصد لغيره فقد استوى له وإليه قال الفرّاء: تقول العرب: استوى إليّ يخاصمني، أي أقبل عليّ، ويأتي بمعنى الاستيلاء قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق

وقال آخر:

فلما عَلَوْنا واستوينا عليهم تركناهم صَرْعَى لنسْرٍ وكَاسِرِ

ويأتي بمعنى العلوّ، ومنه آية: ﴿فَإذَا اسْتَوَيْتَ أنتَ ومَنْ مَعَكَ عَلَى الفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨]: ومنه هذه الآية

قال البخاري في آخر (صحيحه)، في كتاب الردّ على الجهمية، في باب قوله تعالى: ﴿وكانَ عَرْشُهُ علىَ الْماءِ﴾ [هود:٧]، قال مجاهد: استوى، علا على العرش – انتهى–.

وفي كتاب (العلوّ) للحافظ الذهبي قال إسحاق بن راهويه: سمعت غير واحد من المفسرين يقول: ﴿الرَّحْمَنُ علَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾ [طه:٥]، أي ارتفع. ونقل ابن جرير عن الربيع بن أنس أنه بمعنى ارتفع. وقال: إنه في كل مواضعه بمعنى علا وارتفع، وأقول: لا حجة إلى الإستكثار من ذلك، فإن الاستواء غير مجهول، وإن كان الكيف مجهولاً.

روى الإمام أحمد بن حنبل في كتابه (الرد على الجهمية) عن شريح بن النعمان، عن عبد الله بن نافع قال: قال مالك بن أنس: الله في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو منه شيء.

وروى البيهقي عن ابن وهب قال: كنت عند مالك، فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله! ﴿الرَّحْمَنُ على الْعَرْشِ اسْتَوى﴾ كيف استوى؟ فاطرق مالك، وأخذته

الرُّحَضاءُ، ثم رفع رأسه فقال: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى ﴾ كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف. و (كيف) عنه مرفوع. وأنت صاحب بدعة. وفي رواية قال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

قال الحافظ الذهبي في كتاب (العلوّ) – بعدما ساق هذا – ما نصه:

وهو قول أهل السنة قاطبة، أن كيفية الاستواء لا نعقلها بل نجهلها، وأن استواءه معلوم، كما أخبر في كتابه، وأنه كما يليق به، لا نتعمق ولا نتحذلق، ولا نخوض في لوازم ذلك نفياً ولا إثباتاً، بل نسكت ونقف، كما وقف السلف، ونعلم أنه لو كان له تأويل، لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون، ولما وسعهم إقراره وإمراره، والسكوت عنه. ونعلم يقيناً مع ذلك أن الله جل جلاله، لا مثل له في صفاته، ولا في استوائه، ولا في نزوله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

ثم قال الذهبي: قال الإمام العلم، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري صاحب التصانيف الشهيرة، في كتابه (مختلف الحديث): نحن نقول في قول الله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجوَى ثَلاثَةٍ إلاَّ هُو رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة:٧]، أنه معهم، يعلم ما هم عليه، كما تقول للرجل وجَّهته إلى بلد شاسع: احذر التقصير فإني معك، يريد أنه لا يخفى عليَّ تقصيرك. وكيف يسوغ لأحد أن يقول: إن الله سبحانه بكل مكان، على الحلول فيه، مع قوله: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:٥] ومع قوله: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر:١٠]، كيف يصعد إليه شيء هو معه، وكيف تعرج الملائكة والروح إليه وهي معه؟ قال: ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرتهم، وما ركبت عليه ذواتهم، من معرفة الخالق، لعلموا أن الله عز وجل هو العلي وهو الأعلى، وأن الأيدي ترفع بالدعاء إليه، والأمم كلها عجميّها وعربيّها يقول: إن اللّه في السماء، ما تُرِكَتْ على فِطَرِها – انتهى–.

ثم قال الذهبي أيضاً: عن يزيد بن هارون شيخ الإسلام، أنه قيل له: مَن الجهمية؟ قال: من زعم أن ﴿ الرَّحْمَنُ علَى الْعَرشِ اسْتَوَى ﴾ على خلاف ما يقرّ في قلوب العامة، فهو جهمي.

قال الذهبي والعامة، مراده بهم، جمهور الأمة وأهل العلم، والذي وقر في قلوبهم من الآية، وهو ما دل عليه الخطاب، مع يقينهم بأن المستوِي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١]، هذا هو الذي وقر في فطرهم السليمة، وأذهانهم الصحيحة. ولو كان له معنى وراء ذلك، لتفوّهوا به، ولما أهملوه. ولو تأول أحدٌ منهم الاستواء،

لتوفرت الهمم على نقله، ولو نقل لاشتهر. فإن كان في بعض جهلة الأغبياء من يفهم من (الاستواء) ما يوجب نقصاً أو قياساً للشاهد على الغائب، وللمخلوق على الخالق - فهذا نادر. فمن نطق بذلك زُجر وعُلّم، وما أظن أحداً من العامة يقرّ في نفسه ذلك - والله أعلم - انتهى.

وقال الشيخ الإمام العارف قدوة العارفين، الشيخ عبد القادر الجيلانيّ قدس الله روحه في كتابه (تحفة المتقين وسبيل العارفين) في باب اختلاف المذاهب في صفات الله عزَّ وجلَّ، وفي ذكر اختلاف الناس في الوقف عند قوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [آل عمران:٧]: قال إسحاق: في العلم. إلى أن قال: والله تعالى بذاته على العرش، علمه محيط بكل مكان والوقف عند أهل الحق على قوله ﴿ إِلاَّ اللَّهُ ﴾. وقد روي ذلك عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ. وهذا الوقف حسن لمن اعتقد أن الله بذاته على العرش، ويعلم ما في السموات والأرض. إلى أن قال: ووقف جماعة من منكري استواء الرب عزَّ وجلَّ على قوله ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ وابتدأوا بقوله ﴿ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ يريدون بذلك نفي الاستواء الذي وصف به نفسه، وهذا خطأ منهم، لأن الله تعالى استوى على العرش بذاته.

وقال في كتابه (الغنية): أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الاختصار، فهو أن تعرف وتتيقن أن الله واحد أحد. إلى أن قال: لا يخلو من علمه مكان، ولا يجوز وصفه بانه في كل مكان، بل يقال إنه في السماء على العرش، كما قال جل ثناؤه ﴿ الرَّحْمَنُ على الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه: ٥]، وقوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ ﴾ [الفرقان:٥٩]، وقال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر:١٠]، والنبيّ ﷺ[1] حكم بإسلام الأمَة لما قال لها: أين الله؟ فأشارت إلى السماء. وقال النبي ﷺ[2]: (في حديث أبي هريرة رضي الله

(١) أخرجه مسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، حديث ٣٣ . عن معاوية بن الحكم السلمي. ونصه هذه القصة، قال: وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قِبَلَ أُحُد والجوانية (موضع في شمال المدينة) فاطلعتُ ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها. وانا رجل من بني آدم. آسف كما يأسفون. لكني صككتها صكة. فاتيت رسول الله ﷺ. فعظَّمَ ذلك عليّ. قلت: يا رسول الله! أفلا أعتقها؟ قال «ائتني بها» فاتيته بها. فقال لها «أين الله»؟ قالت: في السماء. قال «من أنا» قالت: أنت رسول الله. قال «أعتقها فإنها مؤمنة».

(٢) اخرجه البخاري في: التوحيد، ٥٥ - باب قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾، حديث ١٥٠٩.

عنه): لما خلق الله الخلق، كتب كتاباً على نفسه، وهو عنده فوق العرش، إن رحمتي غلبت غضبي. وفي لفظ آخر: لما قضى الله سبحانه الخلق، كتب على نفسه في كتاب، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي. وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش، لا على معنى القعود والمماسة، كما قالت المجسمة والكرامية، ولا على معنى العلوّ والرفعة، كما قالت الأشعرية، ولا على الاستيلاء والغلبة، كما قالت المعتزلة، لأن الشرع لم يرد بذلك، ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث، ذلك، بل المنقول عنهم حمله على الإطلاق. وقد روي عن أم سلمة زوج النبيّ ﷺ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾ [طه:٥]: «الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به واجب، والجحود به كفر». وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبي ﷺ في (صحيحه)، وكذلك في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال أحمد بن حنبل رحمه الله قبل موته بقريب: أخبار الصفات تُمَرُّ كما جاءت، بلا تشبيه ولا تعطيل. وقال أيضاً (في رواية بعضهم): لست بصاحب كلام، ولا أرى الكلام في شيء من هذه الأماكن، في كتاب الله عز وجل، أو حديث عن النبيّ ﷺ، أو عن أصحابه رضي الله عنهم، أو عن التابعين. فأما غير ذلك، فإن الكلام فيه غير محمود، فلا يقال في صفات الرب عز وجل (كيف)؟ و(لِمَ)؟ لا يقول ذلك إلا شكّاك. وقال أحمد رضي الله عنه (في رواية عنه، في موضع آخر): نحن نؤمن بأن الله عزَّ وجلَّ على العرش كيف شاء، وكما شاء، بلا حدّ ولا صفة يبلغها واصف ويحدها حاد، لما روي عن سعيد بن المسيّب، عن كعب الأحبار، قال، قال الله تعالى في (التوراة): أنا الله فوق عبادي، وعرشي فوق جميع خلقي، وأنا على عرشي، عليه أدبر عبادي، ولا يخفى عليّ شيء من عبادي. وكونه عزَّ وجلَّ على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبيّ أرسل، بلا كيف، ولأن الله تعالى - فيما لم يزل - موصوف بالعلوّ والقدرة والاستيلاء والغلبة على جميع خلقه، من العرش وغيره. فلا يحمل الاستواء على ذلك. فالاستواء من صفات الذات، بعد ما أخبرنا به، ونص عليه وأكده في سبع آيات من كتابه، والسنة المأثورة به، وهو صفة لازمة له، ولائقة به، كاليد والوجه والعين والسمع والبصر والحياة والقدرة، وكونه خالقاً ورازقاً ومحيياً ومميتاً، موصوف بها، ولا نخرج من الكتاب والسنة، نقرأ الآية والخبر، ونؤمن بما فيهما، ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عزَّ وجلَّ، كما قال سفيان بن عيينة رحمه الله: كما وصف الله تعالى نفسه في كتابه، فتفسيره قراءته.

لا تفسير له غيرها، ولم نتكلف غير ذلك، فإنه غيب لا مجال للعقل في إدراكه، ونسأل الله تعالى العفو والعافية، ونعوذ به من أن نقول فيه وفي صفاته ما لم يخبرنا به هو أو رسوله عليه السلام - انتهى كلام الجيلاني قدس سره -.

وروى أبو إسماعيل الأنصاري في (ذم الكلام وأهله) عن أبي زرعة الرازي، أنه سئل عن تفسير ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ فغضب وقال: تفسيره كما تقرأ، هو على عرشه، وعلمه في كل مكان، من قال غير هذا فعليه لعنة الله.

وأسند عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: سألت أبي وأبا زرعة عن مذهب أهل السنة في أصول الدين، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقدان من ذلك؟ فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار، حجازاً وعراقاً، ومصراً وشاماً ويمناً . فكان من مذهبهم أن الله تبارك وتعالى على عرشه، بائنٌ من خلقه، كما وصف نفسه، بلا كيف، أحاط بكل شيء علماً.

تنبيهات:

الأول - في بطلان تأويل (استوى): بـ (استولى):

قال الإمام عبد العزيز بن يحيى الكناني، صاحب الشافعي رحمهما الله تعالى، في كتاب (الرد على الجهمية): زعمت الجهمية أن معنى استوى (استولى) من قول العرب: استوى فلان على مصر، يريدون استولى عليها. قال: فيقال له: هل يكون خلقٌ من خلق الله أتت عليه مدة ليس بمستول عليه؟ فإذا قال لا، قيل له: فمن زعم ذلك فهو كافر، فيقال له: يلزمك أن تقول: إن العرش أتت عليه مدة ليس الله بمستول عليه، وذلك لأنه أخبر أنه سبحانه خلق العرش قبل خلق السموات والأرض، ثم استولى عليه بعد خلقهن، فيلزمك أن تقول: المدة التي كان العرش قبل خلق السموات والأرض ليس الله بمستولٍ عليه فيها. ثم ذكر كلاماً طويلاً في تقرير العلوّ والاحتجاج عليه.

وقال ابن عرفة في كتاب (الرد على الجهمية): حدثنا داود بن عليّ قال: كنا عند ابن الأعرابي، فأتاه رجل فقال: ما معنى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾؟ قال: هو على عرشه كما أخبر. فقال: يا أبا عبد الله! إنما معناه استولى. فقال: اسكت. لا يقال: استولى على الشيء حتى يكون له فيه مضادّ، فأيهما غلب،

قيل: استولى. والله تعالى لا مضادّ له، وهو على عرشه كما أخبر. ثم قال: الاستيلاء بعد المغالبة، كما قال النابغة:

إلا لمثلك أو مَنْ أنت سابِقُهُ سَبْقَ الجوادِ إذا استولى على الأمَدِ

وروى الخطيب البغدادي عن محمد بن أحمد بن النضر قال: كان ابن الأعرابي جارنا، وكان ليله أحسن ليل، وذكر لنا أن ابن أبي دؤاد سأله: أتعرف في اللغة استوى بمعنى استولى؟ فقال لا أعرفه! وفي رواية. أرادني ابن أبي دؤاد أن أطلب له في بعض لغات العرب ومعانيها ﴿الرَّحْمَنُ علَى الْعَرشِ اسْتَوى﴾ استوى بمعنى استولى، فقلت له: والله ما يكون هذا، ولا وجدته. وابن الأعرابي أبو عبد الله كان لغوي زمانه – كما قال الذهبي–.

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري في كتابه الذي سماه (الإبانة في أصول الديانة)، وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنفه، وعليه يعتمدون في الذب عنه، عند من يطعن عليه، فقال:

فصل

في إبانة قول أهل الحق والسنة

فإن قال قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون. قيل له: قولنا الذي نقول به التمسك بكتاب ربنا، وسنة نبينا، وما روي عن الصحابة والتابعين، وائمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول أبو عبدالله أحمد بن حنبل، نضرالله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته، قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين.

ثم قال في (باب الاستواء على العرش): إن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: نقول: إن الله مستو على عرشه، كما قال ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾ وقد قال الله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ والْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقال ﴿يُدَبِّرُ الأمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلى الأرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، وقال حكاية عن فرعون ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأسْبابَ أَسْبابَ السَّمَواتِ فأطَّلِعَ إلى إِلَهِ مُوسَى وإِنِّي لأظُنُّهُ كَاذِباً﴾

[غافر:٣٦-٣٧]. كذَّب موسى في قوله: إن الله فوق السموات. وقال ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾ [الملك:١٦] فالسموات فوقها العرش، فلما كان العرش فوق السموات قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾، لأنه مستو على العرش الذي هو فوق السموات، وكل ما علا فهو سماء، والعرش أعلى السموات، وليس إذا قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾، يعني جميع السماء، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السموات. الا ترى أن الله ذكر السموات فقال ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً﴾ [نوح:١٦]، فلم يرد أن القمر يملؤهن، وأنه فيهن جميعاً. ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم، إذا دعوا، نحو السماء، لأن الله على العرش الذي هو فوق السموات، فلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش، كما لا يحطّونها، إذا دعوا، إلى الأرض.

ثم قال:

فصـــل

وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية: إن معنى قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ أنه استولى وملك وقهر، وأن الله عز وجل في كل مكان، وجحدوا أن يكون الله على عرشه، كما قال أهل الحق. وذهبوا في الاستواء إلى (القدرة)، فلو كان هذا كما ذكروه، كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة، لأن الله قادر على كل شيء، فالله قادر على الأرض، وعلى الحشوش، وعلى كل مافي العالم. فلوكان الله مستوياً على العرش بمعنى (الاستيلاء)، وهو عزَّ وجلَّ مستولٍ على الأشياء كلها، لكان مستوياً على العرش، وعلى الأرض، وعلى السماء، وعلى الحشوش والأقذار لأنه قادر على الأشياء، مستولٍ عليها، وإذا كان قادراً على الأشياء كلها، ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول إن الله مستوٍ على الحشوش والأخلية، لم يجز أن يكون الاستواء على العرش (الاستيلاء)، الذي هو عامّ في الأشياء كلها، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص العرش دون الأشياء كلها. وذكر دلالات من القرآن والحديث والإجماع والعقل - انتهى-.

قلت: وكلام أبي الحسن الأشعري الأخير مأخوذ من كتاب ردّ الإمام أحمد على الجهمية، حيث قال في كتابه المذكور:

ومما أنكرت الجهمية الضُلاَّل أن يكون الله سبحانه على العرش، فقلنا: لِمَ

أنكرتم ذلك؟ إن الله سبحانه على العرش، وقد قال سبحانه ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، الرَّحْمَنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ [الفرقان:٥٩]، قالوا: هو تحت الأرضين السابعة كما هو على العرش، فهو على العرش، وفي السموات، وفي الأرض، وفي كل مكان، لا يخلو منه مكان، ولا يكون في مكان دون مكان. وتلوا آيات من القرآن ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣]، فقلنا: قد عرف المسلمون أماكن كثيرة، وليس فيها من عظمة الله شيء، فقالوا: أي مكان؟ فقلنا: أحشاؤكم وأجواف الخنازير والحشوش والأماكن القذرة ليس فيها من عظمة الرب سبحانه شيء، وقد أخبرنا أنه في السماء، فقال سبحانه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ...﴾ [الملك:١٦] الآية، وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠]، وقال ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ﴾ [الأنبياء:١٩]، وقال: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، وقال: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨]، وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]، وقال: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، وقال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨] - فهذا أخبر الله أنه في السماء، ووجدنا كل شيء أسفل مذموماً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٥]. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت:٢٩]، وقلنا لهم: أليس تعلمون أن إبليس كان مكانه، والشياطين مكانهم؟ فلم يكن الله ليجتمع هو وإبليس، ولكن إنما معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣] يقول: هو إله مَن في السموات، وإله مَن في الأرض، وهو على العرش! وقد أحاط بعلمه ما دون العرش، لا يخلو من علم الله مكان، ولا يكون علم الله في مكان دون مكان، وذلك قوله: ﴿لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق:١٢].

قال: ومن الاعتبار في ذلك: لو أن رجلاً كان في يده قدح من قوارير صافٍ، وفيه شيء، كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح، فالله سبحانه - وله المثل الأعلى- قد أحاط بجميع خلقه، من غير أن يكون في شيء من خلقه. وخصلة أخرى: لو أن رجلاً بنى داراً بجميع مرافقها، ثم أغلق بابها وخرج منها، كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيتاً في داره، وكم سعة كل بيت، من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار. فالله سبحانه - وله المثل الأعلى - قد أحاط

بجميع ما خلق، وقد علم كيف هو، وما هو، من غير أن يكون في شيء مما خلق.

قال أحمد رضي الله عنه: ومما تأول الجهمية من قول الله سبحانه: ﴿ما يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثلاثَةٍ إلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ولا خَمْسَةٍ إلاَّ هُو سادِسُهُمْ...) إلى أن قال: ﴿... إِنَّ اللَّه بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قالوا: إن الله عز وجل معنا وفينا. فقلنا: لِمَ قطعتم الخبر من أوله؟ إن الله يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّموات وَما فِي الأَرْضِ ما يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثلاثةٍ إلاَّ هُوَ رَابِعُهمْ﴾ يعني أن الله بعلمه رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم بعلمه فيهم، يفتح الخبر بعلمه، ويختمه بعلمه - انتهى-.

ثم قال الإمام أحمد في آخر كتابه المذكور: وقلنا للجَهْمية: زعمتم أن الله في كل مكان، لا يخلو منه مكان، فقلنا لهم: أخبرونا عن قول الله جل ثناؤه: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف:١٤٣]. لِمَ تجلى، إذا كان فيه بزعمكم؟ ولو كان فيه، كما تزعمون، لم يكن يتجلى لشيء. لكن الله تعالى على العرش، وتجلى لشيء لم يكن فيه، ورأى الجبل شيئاً لم يكن يراه قط قبل ذلك.

وقلنا للجهمية: الله نور؟ فقالوا: نور كله. فقلنا: قال الله عز وجل: ﴿وأشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهاَ﴾ [الزمر:٦٩]. فقد أخبر جل ثناؤه أن له نوراً، قلنا: أخبرونا، حين زعمتم أن الله في كل مكان، وهو نور، فلم لا يضيء البيت المظلم من النور الذي هو فيه إذا زعمتم أن الله في كل مكان؟ وما بال السراج إذا أدخل البيت المظلم يضيء؟ فعند ذلك تبين كذبهم على الله. فرحم الله من عقل عن الله، ورجع عن القول الذي يخالف الكتاب والسنة، وقال بقول العلماء، وهو قول المهاجرين والأنصار، وتَرَكَ دين الشيطان ، ودين جهم وشيعته - انتهى-.

وقال الإمام الحافظ ابن عبد البر في كتاب (التمهيد) في شرح حديث[1] (ينزل ربنا كل ليلة...) الحديث - ما نصه: هذا الحديث ثابت من جهة النقل، صحيح الإسناد، لا يختلف أهل الحديث في صحته، وفيه دليل على أن الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري في: الدعوات، ١٤ - باب الدعاء نصف الليل، حديث رقم ٦٢٩ ونصه: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر. يقول: من يدعوني فاستجيب له، من يسالني فاعطيه، ومن يستغفرني فاغفرَ له؟»

وأخرجه مسلم في: صلاة المسافرين وقصرها، حديث ١٦٨.

في السماء، على العرش من فوق سبع سموات، كما قالت الجماعة. وهو حجتهم على المعتزلة والجهمية في قولهم: (إن الله في كل مكان، وليس على العرش) والدليل على صحة ما قاله أهل الحق في ذلك قوله تعالى: ﴿الرَّحْمنُ عَلى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، ثم ساق عدة آيات في ذلك - وقال: هذه الآيات كلها واضحات في إبطال قول المعتزلة. وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء، وقولهم في تأويل ﴿اسْتَوى﴾ استولى، فلا معنى له، لأنه غير ظاهر في اللغة. ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة، والله تعالى لا يغالبه أحد، وهو الواحد الصمد. ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا تعالى، إلا على ذلك، وإنما يوجه كلام الله عزَّ وجلَّ على الأشهر والأظهر من وجوهه، ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم. ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع، ما ثبت شيء من العبادات. وجلَّ اللهُ أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب من معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين. والاستواء معلوم في اللغة مفهوم، وهو العلوّ والارتفاع على الشيء، والاستقرار والتمكن فيه. قال أبو عبيدة في قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، قال: علا، قال: تقول العرب: استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت. وقال غيره: استوى أي استقر، واحتج بقوله تعالى: ﴿ولَمَّا بَلَغَ أشُدَّهُ، واسْتَوى﴾ [القصص:١٤]، انتهى شبابه واستقر، فلم يكن في شبابه مزيد.

قال ابن عبد البر: الاستواء: الاستقرار في العلوّ، وبهذا خاطبنا الله تعالى في كتابه فقال: ﴿لِتَسْتَوُواْ عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إذا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٣]، وقال تعالى: ﴿واسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود:٤٤]، وقال تعالى: ﴿فإذَا اسْتَوَيْتَ أنتَ وَمَن مَّعكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨]، وقال الشاعر:

فأوردتُهمُ ماءً بفيفاءَ قَفْرَةٍ وقد حلَّق النجم اليمانيُّ فاستوى

وهذا لا يجوز أن يتأوَّل فيه أحد (استولى)، لأن النجم لا يستولي. وقد ذكر النضر بن شميل - وكان ثقة مأموناً جليلاً في علم الديانة واللغة - قال: حدثني الخليل- وحسبك بالخليل- قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابي، وكان من أعلم ما رأيت، فإذا هو على سطح، فسلمنا، فرد علينا السلام، وقال: (استووا) فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال، فقال لنا أعرابيّ إلى جانبه: إنه أمركم أن تَرَقَّعوا، فقال الخليل: هو من قول الله ﴿ثُمَّ اسْتَوى إلى السَّماءِ﴾ [البقرة:٢٩]، فصعدنا إليه. قال: وأما من نزع منهم

بحديث يرويه عبد الله بن داود الواسطي عن إبراهيم بن عبد الصمد عن عبد الوهاب ابن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] قال: استولى على جميع بريته، فلا يخلو منه مكان - فالجواب: أن هذا حديث منكر على ابن عباس رضي الله عنهما، ونَقَلَتُهُ مجهولة وضعفاء، فأما عبد الله بن داود الواسطي وعبد الوهاب بن مجاهد فضعيفان. وإبراهيم بن عبد الصمد مجهول لا يعرف. وهم لا يقبلون أخبار الآحاد، فكيف يسوغ لهم الاحتجاج بمثل هذا الحديث، لو عقلوا وانصفوا؟ أما سمعوا الله سبحانه حيث يقول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبابَ أَسْبابَ السَّموات فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسَى وإِنّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ [غافر:٣٦-٣٧]؟ فدل على أن موسى عليه الصلاة والسلام كان يقول: إلهي في السماء وفرعون يظنه كاذباً. قال الشاعر:

فسبحان من لا يَقْدِرُ الخلقُ قدرَهُ ومن هو فوق العرش فَرْدٌ مُوَحَّدُ

مليكٌ على عرش السماء مُهَيْمِنٌ لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الوجوهُ وَتَسْجُدُ

وهذا الشعر لأميّة بن أبي الصَّلت. وفيه يقول في وصف الملائكة:

وَسَاجِدُهُمْ لا يرفع الدهرَ رأسَهُ يعظِّمُ رَبّاً فوقه وَيُمَجِّدُ

قال: فإن احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذي فِي السَّماءِ إِلهٌ وفِي الأَرْضِ إِلهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]، وبقوله تعالى: ﴿وهُوَ اللّهُ فِي السَّموات وفِي الأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣]، وبقوله تعالى: ﴿ما يَكُونُ مِن نَّجْوى ثلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ولا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة:٧]، وزعموا أن الله سبحانه في كل مكان بنفسه وذاته - تبارك وتعالى جدّه - قيل: لا خلاف بيننا وبينكم وبين سائر الأمة أنه ليس في الأرض دون السماء بذاته، فوجب حمل هذه الآيات على المعنى الصحيح المجمع عليه، وذلك أنه في السماء إله معبود من أهل السماء،وفي الأرض إله معبود من أهل الأرض، وكذا قال أهل العلم بالتفسير. وظاهر هذا التنزيل يشهد أنه على العرش، فالاختلاف في ذلك ساقط، وأسعد الناس به من ساعده الظاهر. وأما قوله في الآية الأخرى: ﴿وفِي الأَرْضِ إِلهٌ﴾ فالإجماع والاتفاق قد بيّن أن المراد أنه معبود من أهل الأرض. فتدبر هذا فإنه قاطع.

ومن الحجة أيضاً في أنه عز وجل على العرش فوق السموات السبع، أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم، إذا كَرَبَهُمْ أمر، أو نزلت بهم شدة، رفعوا

وجوههم إلى السماء، ونصبوا أيديهم رافعين مشيرين بها إلى السماء، يستغيثون الله ربهم تبارك وتعالى، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته. لأنه اضطراري لم يخالفهم عليه أحد، ولا أنكره عليهم مسلم، وقد قال ﷺ للأمة التي أراد مولاها عتقها[١]، إن كانت مؤمنة. فاختبرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن قال لها: أين الله ؟ فأشارت إلى السماء. ثم قال لها: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال: أعتقها فإنها مؤمنة. فاكتفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها برفع رأسها إلى السماء، واستغنى بذلك عما سواه.

قال: وأما احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿ما يَكُونُ مِن نَّجْوى ثلاثَةٍ إلاَّ هُوَ رابِعُهُمْ﴾ فلا حجة لهم في ظاهر هذه الآية، لأن علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل في القرآن قالوا تأويل هذه الآية: هو على العرش، وعلمه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله. وذكر سنيد عن مقاتل بن حيان عن الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى: ﴿ما يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثلاثَةٍ إلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ قال: هو على عرشه، وعلمه معهم أينما كانوا. قال: وبلغني عن سفيان الثوري مثله. قال سنيد: حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن زرّ بن حبيش عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: الله فوق العرش، وعلمه في كل مكان، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم. ثم ساق من طريق يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماء إلى الأخرى خمسمائة عام، وما بين السماء السابعة إلى الكرسي مسيرة خمسمائة عام، وما بين الكرسي إلى الماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش على الماء، والله على العرش، ويعلم أعمالكم. وذكر هذا الكلام أو قريباً منه في كتاب (الاستذكار).

وقال شيخ الإسلام تقيّ الدين بن تيمية رحمه الله تعالى في (الرسالة المدنية): إذا وصف الله نفسه بصفة أو وصفه بها رسوله ﷺ، أو وصفه بها المؤمنون

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: في المساجد ومواضع الصلاة، حديث ٣٣ وهو قطعة من حديث طويل ونصها: عن معاوية بن الحكَم السُلَميّ قال: وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قِبَل أُحُد والجوانيّة (موضع في شمال المدينة) فاطلعتُ ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها. وأنا رجل من بني آدم. آسف كما ياسفون. لكني صككتها صكة. فاتيت رسول الله ﷺ فعظَّم ذلك عليّ. قلت: يا رسول الله! افلا أعتقها؟ قال «ائتني بها» فاتيته بها فقال لها «أين الله»؟ قالت: في السماء. قال «من أنا»! قالت انا رسول الله. قال «أعتقها فإنها مؤمنة».

الذين اتفق المسلمون على هدايتهم ودرايتهم - فصرفُها عن ظاهرها اللائق بجلاله سبحانه، وحقيقتها المفهومة منها، إلى باطن يخالف الظاهر، ومجاز يخالف الحقيقة، لا بد فيه من أربعة أشياء:

أحدها: أن ذلك اللفظ مستعمل بالمعنى المجازي، لأن الكتاب والسنة وكلام السلف جاءوا باللسان العربي، ولا يجوز أن يراد منه خلاف لسان العرب، أو خلاف الألسنة كلها، فلا بد أن يكون ذلك المعنى المجازي مما يراد به اللفظ، وإلا فيمكن كل مُبْطِل أن يفسر أي لفظ بأي معنى ناسخ له، وإن لم يكن له أصل في اللغة.

الثاني: أن يكون معه دليل يوجب صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه، وإلا فإذا كان يستعمل في معنى بطريق الحقيقة، وفي معنى بطريق المجاز، لم يجز حمله على المجازي بغير دليل يوجب الصرف بإجماع العقلاء، ثم ادعى وجوب صرفه عن الحقيقة فلا بدّ من دليل قاطع عقلي أو سمعي يوجب الصرف. وإن ادعى ظهور صرفه عن الحقيقة - فلا بد من دليل مرجح للحمل على المجاز.

الثالث: أنه لا بد من أن يسلم ذلك الدليل الصارف عن معارض. وإلا فإذا قام دليل قرآني أو إيماني يبيّن أن الحقيقة مرادة، امتنع تركها. ثم إن كان هذا الدليل لم يلتفت إلى نقيضه وإن كان ظاهراً فلا بد من الترجيح.

الرابع: أن الرسول ﷺ إذا تكلم بكلام وأراد به خلاف ظاهره، وضد حقيقته فلا بد أن يبين للأمة أنه لم يرد حقيقته وإنما أراد مجازه، سواء عيّنه أو لم يعيّنه، لا سيما في الخطاب العلميّ الذي أريد منهم فيه الاعتقاد والعلم، دون عمل الجوارح، فإنه سبحانه جعل القرآن نوراً وهدىً وبياناً للناس وشفاءً لما في الصدور، وأرسل الرسول ليبيّن للناس ما نُزِّل إليهم، وليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، و﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ [النساء:١٦٥]. ثم هذا الرسول الأمي العربي بعث بأفصح اللغات، وأبين الألسنة والعبارات. ثم الأمّة الذين أخذوا عنه كانوا أعمق الناس علماً، وأنصحهم للأمة، وأبينهم للسنة، فلا يجوز أن يتكلم هو وهؤلاء بكلام يريدون به خلاف ظاهره، إلا وقد نصب دليلاً يمنع من حمله على ظاهره، إما بأن يكون عقلياً ظاهراً مثل قوله: ﴿وأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٢٣] فإن كل أحد يعلم بعقله أن المراد (أوتيت من جنس ما يؤتاه مثلها). وكذلك قوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٠٢] يعلم المستمع أن المراد أن الخالق لا يدخل في هذا العموم. أو سمعياً ظاهراً مثل الدلالات في الكتاب والسنة التي تصرف بعضها الظواهر.

ولا يجوز أن يحيلهم على دليل خفّي لا يستنبطه إلا أفراد الناس، سواء كان سمعيّاً أو عقليّاً، لأنه إذا تكلم بالكلام الذي يفهم منه معنى، وأعاده مرات كثيرة، وخاطب به الخلق كلهم، وفيهم الذكي والبليد، والفقيه وغير الفقيه، وقد أوجب عليهم أن يتدبروا ذلك الخطاب، ويعقلوه ويتفكروا فيه، ويعتقدوا موجبه، ثم أوجب أن لا يقصدوا بهذا الخطاب شيئاً من ظاهره، لأن هناك دليلاً خفيّاً يستنبطه أفراد الناس يدل على أنه لم يرد ظاهره - كان تدليساً أو تلبيساً، وكان نقيض البيان، وضد الهدى، وهو بالألغاز والأحاجيّ أشبه منه بالهدى والبيان. فكيف إذا كانت دلالة ذلك الخطاب على ظاهره، أقوى بدرجات كثيرة من دلالة ذلك الدليل الخفي على أن الظاهر غير مراد، كيف إذا كان ذلك الخفي شبهة ليس لها حقيقة؟ - انتهى-.

الثاني- يتوهم كثير أن القول بالعلوّ والاستواء يلزم منهما القول بالتجسيم، وقد رمى بذلك كثير من المحدّثين، وممن رماهم بذلك الجلال الدواني في شرح العقائد العضدية حيث قال - عفا الله عنه -: وأكثر المجسمة هم الظاهريون المتبعون لظاهر الكتاب والسنة، وأكثرهم المحدّثون. ولابن تيمية أبي العباس وأصحابه ميل عظيم إلى إثبات الجهة، ومبالغة في القدح في نفيها. ورأيت في بعض تصانيفه أنه لا فرق عند بديهة العقل بين أن يقال: هو معدوم، أو يقال: طلبته في جميع الأمكنة فلم أجده، ونسب النافين إلى التعطيل. هذا مع علوّ كعبه في العلوم العقلية والنقلية، كما يشهد به من تتبع تصانيفه.

ومحصل كلام بعضهم في بعض المواضع، أن الشرع ورد بتخصيصه تعالى بجهة (الفوق)، كما خصص الكعبة بكونها بيت الله تعالى، ولذلك يتوجه إليها في الدعاء. ولا يخفى أنه ليس في هذا القدر غائلة أصلاً، لكن بعض أصحاب الحديث من المتأخرين لم يرض بهذا القول، وأنكر كون (الفوق) قبلة الدعاء، بل قال: قبلة الدعاء هو نفسه، كما أن نفس الكعبة قبلة الصلاة، وقد صرح بكونه جهة الله تعالى حقيقة من غير تجوّز انتهى كلام الدواني-.

وتعقبه غير واحد:

منهم: الشيخ إبراهيم الكوراني في حاشيته عليه المسماة (بمجلى المعاني) قال: إن ابن تيمية ليس قائلاً بالتجسيم، فقد صرح بأن الله تعالى ليس جسماً، في رسالة تكلم فيها على حديث النزول. وقال في رسالة أخرى: من قال إن الله تعالى مثل بدن الإنسان، أو إن الله يماثل شيئاً من المخلوقات فهو مفترٍ على الله سبحانه.

بل هو على مذهب السلف قائل بأن الله تعالى فوق العرش حقيقة، مع نفي اللوازم، ونقل عليه إجماع السلف، صرح به في الرسالة القدرية – انتهى–.

ومنهم: وليّ الله الدهلوي قدس سره، قال في كتابه (حجة الله البالغة): واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث، وسموهم مجسمة ومشبهة، وقالوا: هم المتسترون بالبلكفة، وقد وضح عليّ وضوحاً بيّناً أن استطالتهم هذه ليست بشيء، وأنهم مخطئون في مقالتهم رواية ودراية، وخاطئون في طعنهم أئمة الهدى – انتهى–.

ومنهم: الشهاب الألوسي المفسر، فإنه كتب على كلام الدواني ما نصه: حاشا لله تعالى أن يكون – يعني ابن تيمية – من المجسمة، بل هو أبرأ الناس منهم. نعم يقول بالفوقية، وذلك مذهب السلف، وهو بمعزل عن التجسيم. وجلال الدين وأضرابه أجهل الناس بالأحاديث، وكلام السلف الصالح، كما لا يخفى على العارف المنصف. نقله عنه ابنه في (محاكمة الأحمدين).

وأقول. إن كل من رمى مثل هذا الإمام بالتجسيم فقد افترى وما درى، إلا أن عذره أنه لم ينقب عن غرر كلامه في فتاويه التي أوضح فيها الحق، وأنار بها مذهب السلف قاطبة. وهاك شذرة من درره. قال رحمه الله في بعض فتاويه:

والأصل في هذا الباب أن كل ما ثبت في كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ وجب التصديق به، مثل علوّ الرب، واستوائه على عرشه، ونحو ذلك. وأما الألفاظ المبتدعة في النفي والإثبات، مثل قول القائل: هو في جهة، أو ليس في جهة، وهو متحيز، أو ليس بمتحيّز، ونحو ذلك من الألفاظ التي تنازع فيها الناس، وليس مع أحدهم نص، لا عن الرسول ﷺ، ولا عن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان، ولا أئمة المسلمين – هؤلاء لم يقل أحد منهم إن الله تعالى في جهة، ولا قال ليس هو في جهة، ولا قال هو متحيز، ولا قال ليس بمتحيز، بل ولا قال هو جسم أو جوهر، ولا قال ليس بجسم ولا بجوهر. فهذه الألفاظ ليست منصوصة في الكتاب ولا السنة ولا الإجماع، والناطقون بها قد يريدون معنى صحيحاً. فإن يريدوا معنى صحيحاً يوافق الكتاب والسنة كان ذلك مقبولاً منهم. وإن أرادوا معنى فاسداً يخالف الكتاب والسنة كان ذلك المعنى مردوداً عليهم. فإذا قال القائل: إن الله تعالى في جهة، قيل: ما تريد بذلك؟ أتريد بذلك أنه سبحانه في جهة موجودة.تحصره وتحيط به، مثل أن يكون في جوف السموات، أم تريد بالجهة أمراً عدميّاً، وهو

مافوق العالم شيء من المخلوقات. فإن أردت الجهة الوجودية، وجعلت الله تعالى محصوراً في المخلوقات، فهذا باطل، وإن أردت بالجهة العدمية، وأردت الله تعالى وحده فوق المخلوقات، بائن عنها، فهذا حق، وليس في ذلك أن شيئاً من المخلوقات حَصَرهُ، ولا أحاط به، ولا علا عليه، بل هو العالي عليها، المحيط بها، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ والسَّمَواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧]، الآية - وقد ثبت في الصحيح [١] عن النبي ﷺ «أن الله عز وجل يقبض الأرض يوم القيامة، ويطوي السموات بيمينه، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض»؟ وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما السموات السبع، والأرضون السبع، وما فيهن، وما بينهن، في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم. وفي حديث آخر أنه يرميها كما يرمي الصبيان الكرة. فمن يكون جميع المخلوقات بالنسبة إلى قبضته تعالى، إلى هذا الحقر والصغار، كيف تحيط به وتحصره؟ ومن قال إن الله تعالى ليس في جهة، قيل له: ما تريد بذلك؟ فإن أراد بذلك أنه ليس فوق السموات ربٌّ يعبد، ولا على عرشٍ إله، ونبينا محمد ﷺ لم يعرج به إلى الله تعالى، والأيدي لا ترفع إلى الله تعالى في الدعاء، ولا تتوجه القلوب إليه - فهذا فرعوني معطل، جاحد لرب العالمين. وإن كان يعتقد أنه مقرٌّ به فهو جاهل متناقض في كلامه. ومن هنا دخل أهل الحلول والاتحاد وقالوا: إن الله تعالى بذاته في كل مكان، وإن وجود المخلوقات هو وجود الخالق. وإن قال: مرادي بقولي (ليس في جهة) أنه لا تحيط به المخلوقات فقد أصاب في هذا المعنى. وكذلك من قال إن الله تعالى متحيز أو قال ليس بمتحيز: إن أراد بقوله (متحيز) أن المخلوقات تحوزه وتحيط به فقد أخطأ، وإن أراد به منحاز عن المخلوقات، بائن عنها، عال عليها، فقد أصاب. ومن قال: (ليس بمتحيز)، إن أراد المخلوقات لا تحوزه فقد أصاب، وإن أراد ليس ببائن عنها، بل هو لا داخل فيها، ولا خارج عنها، فقد أخطأ. والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف: أهل الحلول والاتحاد، وأهل النفي والجحود، وأهل الإيمان والتوحيد والسنة.

---

(١) أخرجه البخاري في: الرقاق، ٤٤ - باب يقبض الله الأرض حديث ٢٠٣٩ ونصه: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه. ثم يقول. أنا الملك. أين ملوك الأرض؟».

وأخرجه مسلم في: صفات المنافقين وأحكامهم، حديث ٢٣.

فأهل الحلول يقولون: إنه بذاته في كل مكان، وقد يقولون بالاتحاد والوحدة، فيقولون: وجود المخلوقات وجود الخالق.

وأما أهل النفي والجحود فيقولون: لا هو داخل العالم، ولا خارج، ولا مباين له، وهذا قول متكلمة الجهمية المعطلة، كما أن الأول قول عباد الجهمية. فمتكلمة الجهمية لا يعبدون شيئاً، ومتعبّدة الجهمية يعبدون كل شيء، وكلامهم يرجع إلى التعطيل والجحود، الذي هو قول فرعون. وقد علم أن الله تعالى كان قبل أن يخلق السموات والأرض، ثم خلقهما، فإما أن يكون دخل فيهما، وهذا حلول باطل، وإما أن يكونا دخلا فيه، وهو أبطل وأبطل، وإما أن يكون الله سبحانه بائناً عنهما، لم يدخل فيهما، ولم يدخلا فيه، وهذا قول أهل الحق والتوحيد والسنة.

ولأهل الجحود والتعطيل في هذا الباب شبهات يعارضون بها كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ وما أجمع عليه سلف الأمة وائمتها، وما فطر الله تعالى عليه عباده، وما دلت عليه الدلائل العقلية الصحيحة، فإن هذه الأدلة كها متفقة على أن الله تعالى فوق مخلوقاته، عال عليها، قد فطر الله تعالى على ذلك العجائز والأعراب والصبيان في الكتاب، كما فطرهم على الإقرار بالخالق تعالى. وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح[1]: كل مولود يولد على الفطرة، فأبوه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وهذا معنى قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: عليك بدين الأعراب والصبيان في الكتّاب، عليك بما فطرهم الله تعالى عليه، فإن الله سبحانه فطر عباده على الحق، والرسل بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتحويل الفطرة وتغييرها. وأما أعداء الرسل كالجهمية الفرعونية ونحوهم، فيريدون أن يغيرو فطرة الله تعالى، ودينه عزّ وجلّ، ويوردون على الناس شبهات بكلمات مشتبهات، لا

---

(١) أخرجه البخاري في: الجنائز، ٧٩ - باب إذا أسلم الصبيّ فمات هل يصلّى عليه، حديث ٧١٦ ونصه: أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما من مولود إلا يولد على الفطرة. فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه. كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء. هل تحسون فيها من جدعاء»؟.

ثم يقول أبا هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾.

وأخرجه مسلم في: القدر، حديث رقم ٢٢.

يفهم كثير من الناس مقصودهم بها، ولا يحسن أن يجيبهم. وقد بسط الكلام عليهم في غير هذا الموضع. وأصلُ ضلالهم تكلمهم بكلمات مجملة لا أصل لها في كتاب الله تعالى، ولا سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ولا قالها أحد من أئمة المسلمين. كلفظ: المتحيز والجسم والجهة ونحو ذلك. فمن كان عارفاً بحال شبهاتهم بيّنها، ومن لم يكن عارفاً بذلك فليعرض عن كلامهم، ولا يقبل إلا ما جاء به الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿ وإذا رأيْتَ الَّذينَ يَخُوضُونَ فِي ءَاياتنا فأعْرَضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ في حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [الأنعام:٦٨]. ومن تكلم في الله تعالى وأسمائه وصفاته بما يخالف الكتاب والسنة، فهو من الخائضين في آيات الله تعالى بالباطل، وكثير من هؤلاء ينسب إلى أئمة المسلمين ما لم يقولوه. وكثير منهم قرؤوا كتباً من كتب الكلام، فيها شبهات أضلتهم، ولم يهتدوا لجوابهم، فإنهم يجدون في تلك الكتب أنه لو كان الله تعالى فوق الخلق للزم التجسيم والتحيز والجهة، وهم لا يعرفون حقائق هذه الألفاظ، ولا ما أراد بها أصحابها، فإن ذكر لفظ (الجسم) في أسماء الله تعالى وصفاته، بدعة لم ينطق بها كتاب ولا سنة، ولا قالها أحد من سلف الأمة وأئمتها، ولم يقل أحد منهم إن الله تعالى جسم ولا أن الله تعالى ليس بجسم، ولا أن الله تعالى جوهر، ولا أن الله تعالى ليس بجوهر. ولفظ الجسم لفظ مجمل، فمعناه في اللغة هو البدن. ومن قال إن الله تعالى مثل بدن الإنسان فهو مفتر على الله عز وجل، بل من قال إن الله تعالى يماثل شيئاً من مخلوقاته فهو مفتر على الله ضال، ومن قال إن الله تعالى ليس بجسم، وأراد بذلك أنه لا يماثل شيئاً من المخلوقات، فالمعنى صحيح، وإن كان اللفظ بدعة. وأما من قال إن الله تعالى ليس بجسم، وأراد بذلك أنه لا يُرى في الآخرة، وأنه لم يتكلم بالقرآن العربي، بل القرآن العربي مخلوق، أو هو تصنيف جبريل عليه السلام، أو نحو ذلك، فهو مفتر على الله تعالى فيما نفاه عنه. وهذا أصل ضلال الجهمية من المعتزلة، ومن وافقهم على مذهبهم، فإنهم يظهرون للناس التنزيه، وحقيقةُ كلامهم التعطيل، فيقولون: نحن لا نجسّم، بل نقول: الله ليس بجسم، ومرادهم بذلك نفي حقيقة أسمائه وصفاته.

إلى أن قال: فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال، منزه عن كل نقص وعيب، ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فيثبتون ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات، وينزهونه عما نزه عنه نفسه من مماثلة المخلوقات، إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل. قال عز شانه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ

وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد على الممثلة. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد على المعطلة – انتهى ملخصاً –.

قال رضي الله عنه (في جواب على سؤال رفع إليه نصه: الاستواء هل هو حقيقة أو مجاز؟): ما نصه ملخصاً:

القول في الاستواء والنزول كالقول في سائر الصفات التي وصف بها نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، فإن الله تعالى سمى نفسه بأسماء، ووصف نفسه بصفات، فالقول في بعض هذه الصفات، كالقول في بعض. ومذهب سلف الأمة وائمتها انْ نَصِفَ الله تعالى بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، فلا يجوز نفي صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه، ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين. ومعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز إطلاق النفي على ما أثبته الله تعالى لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات، بل هذا جحد للخالق، وتمثيل له بالمعدومات. وقد قال ابن عبد البر: أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز، لأنهم لا ينفون شيئاً من ذلك، ولا يجدون فيه صفة محصورة. وأما أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والخوارج، فينكرونها ولا يحملونها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقرّ بها مشبه، وهم عند من أقرّ بها، نافون للمعبود، لا مثبتون. والحق فيما قاله القائلون، مما نطق به الكتاب والسنة، وهم أئمة الجماعة. هذا الذي حكاه ابن عبد البر.

ومن انكر أن يكون شيء من هذه الأسماء والصفات حقيقة، فإنما انكر، لجهله لمسمى الحقيقة، أو لكفره وتعطيله لما يستحقه رب العالمين. وذلك أنه قد يظن أن إطلاق ذلك يقتضي أن يكون المخلوق مماثلاً للخالق، فيقال له: هذا باطل، فإن الله موجود حقيقة، والعبد موجود حقيقة، وله تعالى ذات حقيقة، والعبد له ذات حقيقة، وليس ذاته تعالى كذات المخلوقات، وكذلك له علم وسمع وبصر حقيقة، وللعبد سمع وبصر وعلم حقيقة، وليس علمه وسمعه وبصره مثل علم العبد وسمعه وبصره. ولله كلام حقيقة، وليس كلام الخالق مثل كلام المخلوقين. والله استوى على عرشه حقيقة، وللعبد استواء على الفُلْك حقيقة، وليس استواء الخالق كاستواء المخلوق. فإن الله لا يفتقر إلى شيء، ولا يحتاج إلى شيء، بل هو الغني عن كل شيء، والله تعالى يحمل العرش وحملته، بقدرته و﴿يُمسِكُ السَّموات والأرْضَ

أن تَزُولاَ ﴾ [فاطر : ٤١]. فمن ظن أن معنى قول الأئمة (الله مستوٍ على عرشه حقيقة) يقتضي أن يكون استواؤه مثل استواء العبد على الفُلْك والأنعام، لزمه أن يكون قولهم: إن الله له علم حقيقة وسمع وبصر حقيقة وكلام حقيقة، يقتضي أن يكون علمه وسمعه وبصره وكلامه مثل علم المخلوقين وسمعهم وبصرهم وكلامهم، فمن ظن أن الحقيقة إنما تتناول صفة العبد المخلوقة دون صفة الخالق، كان في غاية الجهل، فإن صفة الله أكمل وأتم وأحق بهذه الأسماء الحسنى، فلا نسبة بين صفة العبد وصفة الرب، كما لا نسبة بين ذاته وذاته. فكيف يكون العبد مستحقاً للأسماء الحسنى حقيقة، والرب لا يستحق ذلك إلا مجازاً؟ ومعلوم أن كل كمال حصل للمخلوق فهو من الخالق سبحانه وتعالى، فله المثل الأعلى. فكل كمال حصل للمخلوق، فالخالق أحق به، وكل نقص ينزه عنه مخلوق، فالحق أحق أن ينزه عنه، ولهذا كان لله المثل الأعلى، فإنه لا يقاس بخلقه، ولا يمثل بهم، ولا تضرب به الأمثال، فلا يشترك هو والمخلوق بمثل ولا في قياس. ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات الصفات للّه تبارك وتعالى، بل صفات الكمال لازمة لذاته، يمتنع ثبوت ذاته بدون صفات الكمال اللازمة له، بل يمتنع تحقق ذات من الذات عريّةً عن جميع الصفات، وهذا كله مبسوط في غير هذا الموضع. فإذا قال: وجود الله، وذات الله، وعلم الله، وقدرة الله، وسمع الله، وبصر الله، وكلام الله، ورحمة الله، وغضب الله، واستواء الله، ونزول الله ومحبة الله، ونحو ذلك، كانت هذه الأسماء كلها حقيقة لله تعالى من غير أن يدخل فيها شيء من المخلوقات، ومن غير أن يماثله فيها شيء من المخلوقات. وإذا قال: وجود العبد وذاته وماهيته وعلمه وقدرته وسمعه وبصره وكلامه واستواؤه ونزوله، كان هذا حقيقة للعبد مختصة به، من غير أن تماثل صفاته صفات الله تعالى. بل أبلغ من ذلك، أن الله أخبر أن في الجنة من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح والمساكن ما ذكره في كتابه. كما ذكر أن فيها لبناً وعسلاً وخمراً ولحماً وحريراً وذهباً وفضة وحوراً وقصوراً وغير ذلك. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء. فتلك الحقائق التي في الجنة ليست مماثلة لهذه الحقائق التي في الدنيا، وإن كانت مشابهة لها من بعض الوجوه، والاسم يتناولهما حقيقة، ومعلوم أن الخالق أبعد عن مشابهة المخلوق، والمخلوق عن مشابهة الخالق. فكيف يجوز أن يظن أن فيما أثبته الله تعالى من أسمائه وصفاته مماثلاً لمخلوقاته، وأن يقال ليس ذلك بحقيقة! وهل يكون أحق بهذا الأسماء الحسنى والصفات العليا من رب السموات والأرض، مع أن

مباينتهما للمخلوقات أعظم من مباينة كل مخلوق لكل مخلوق؟ والجاهل يضل بأن يقول: العرب إنما وضعوا لفظ (الاستواء) لاستواء الإنسان على السرير أو الفُلْك، أو استواء السفينة على الجوديّ، ولنحو ذلك من استواء بعض المخلوقات. فهو كما يقول القائل: إنما وضعوا لفظ السمع والبصر والكلام لما يكون محله حدقة وأجفاناً، وأصمخة وآذاناً، وشفتين ولساناً، وإنما وضعوا لفظ العلم والرحمة والإرادة لما يكون محله مضغة لحم وفؤاء، وهذا كله جهل منه. فإن العرب إنما وضعت للإنسان ما أضافت إليه، فإذا قالت سمع العبد وبصره وكلامه وعلمه وإرادته ورحمته مما يختص به، يتناول ذلك خصائص العبد. وإذا قيل سَمْعَ اللّه وبصره وكلامه وعلمه وإرادته ورحمته، كان هذا متناولاً لما يختص به الرب، لا يدخل في ذلك شيء من خصائص المخلوقين. وكذلك إذا قيل استواء الرب، فهذا الاستواء المضاف إلى الله كالعلم والسمع والبصر المضاف إلى الله. لا يجوز أن يتناول ذلك شيئاً من خصائص المخلوقين وهؤلاء الجهال يمثلون في ابتداء فهمهم صفات الخالق بصفات المخلوق، ثم ينفون ذلك ويعطلونه، فلا يفهمون من ذلك إلا ما يختص بالمخلوق، وينفون مضمون ذلك، فيكونون قد جحدوا ما يستحقه الرب من خصائصه وصفاته، وألحدوا في أسماء الله تعالى وآياته، وخرجوا عن القياس العقلي، والنص الشرعي، فلا يبقى بأيديهم لا معقول صريح، ولا منقول صحيح. ثم لا بد لهم من إثبات بعض ما يثبته أهل الإثبات من الأسماء والصفات: فإذا أثبتوا البعض، ونفوا البعض، قيل لهم: ما الفرق بين ما أثبتموه وما نفيتموه؟ ولم كان هذا حقيقة، ولم يكن هذا حقيقة؟ لم يكن لهم جواب أصلاً، وظهر بذلك جهلهم وضلالهم شرعاً وعقلاً. ونظائر هذا كثيرة، فمن ظن أن أسماء الله تعالى وأسماء صفاته، إذا كانت حقيقة لزم أن يكون مماثلاً للمخلوقين، وأن تكون صفاته مماثلة لصفاتهم، كان من أجهل الناس، وكان أول كلامه سفسطة، وآخره زندقة لأنه يقتضي نفي جميع أسماء الله وصفاته، وهذا هو غاية الزندقة والإلحاد. وإن فرق بين صفة وصفة، مع تساويهما في أسباب الحقيقة والمجاز، كان متناقضاً في قوله، متهافتاً في مذهبه مشابهاً لمن آمن ببعض الكتاب، وكفر ببعض.

وإذا تأمل اللبيب الفاضل هذه الأمور، تبين له أن مذهب السلف والأئمة في غاية الاستقامة والسداد والصحة والاطّراد، وأنه مقتضى المعقول الصريح، والمنقول الصحيح، وأن من خالفه، كان مع تناقض قوله المختلف الذي يؤفك عنه من أفك خارجاً عن موجب العقل والسمع، مخالفاً للفطرة والشرع، والله يتم نعمته علينا وعلى سائر إخواننا المسلمين المؤمنين، ويجمع لنا ولهم خير الدنيا والآخرة – انتهى-.

فائدة:

في منشأ هذا التعطيل

وبيّن رضي الله عنه، في فتوى أخرى له في الصفات، مورد هذا التعطيل. حيث قال رضي الله عنه:

ثم أصل هذه المقالة إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين، وضلاّل الصابئين، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة - أعني أن الله ليس على العرش حقيقة وإنما ﴿استوى﴾ استولى ونحو ذلك- أول ما ظهرت هذه المقالة من جعد بن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفون وأظهرها. فتنسب مقالة الجهمية إليه، والجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان وأخذها أبان من طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم، وأخذها طالوت من لبيد بن أعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ. وكان الجعد هذا - فيما قيل - من أهل حرّان، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة، والفلاسفة، بقايا أهل دين النمروذ الكنعانيين، الذين صنف بعض المتأخرين في سحرهم وكانوا يعبدون الكواكب، ويبنون لها الهياكل، ومذهبهم في الرب أنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية، أو مركبة منهما، وهم الذين بُعث إبراهيم الخليل ﷺ إليهم، فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة الفلاسفة، وأخذها الجهم أيضاً - فيما ذكره الإمام أحمد وغيره - من السمنية بعض فلاسفة الهند، وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسّيات، فهذه أسانيد الجهم ترجع إلى اليهود والصائبين والمشركين. والفلاسفة الضالون هم إما من الصابئين، وإما من المشركين. ثم لما عرّبت الكتب الرومية في حدود المئة الثانية، زاد البلاء مع ما ألقى الشيطان في قلوب الضلال، ابتداء من جنس ما ألقاه في قلوب أشباههم. ولما كان في حدود المئة الثانية، انتشرت هذه المقالة التي كان السلف يسمونها مقالة الجهمية، بسبب بشر ابن غياث المريسي وطبقته، وكلام الأئمة - مثل مالك رضي الله عنه وسفيان بن عيينة وأبي يوسف والشافعيّ وأحمد وإسحاق والفضيل بن عياض وبشر الحافي وغيرهم - في بشر المريسي هذا كثيرٌ في ذمه وتضليله. وهذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدي الناس، مثل أكثر التأويلات التي ذكرها أبو بكر بن فورك في كتاب (التأويلات) وذكرها أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي في كتابه الذي سماه (تأسيس التقديس) ويوجد كثير منها في كلام خلق غير هؤلاء، مثل أبي علي الجبائي وعبد الجبار بن أحمد الهمدانيّ وأبي الحسين البصري وابن عقيل وأبي حامد

الغزالي وغيرهم، وهي بعينها التأويلات التي ذكرها بشر المريسي في كتابه. وإن كان قد يوجد في كلام هؤلاء رد التأويل وإبطاله أيضاً، ولهم كلام حسن في أشياء، فإنما بَيَّنَتْ أن عين تأويلاتهم هي عين تأويلات المريسي. وعلمنا ذلك بكتاب (الرد) الذي صنفه عثمان بن سعيد الدارمي أحد الأئمة المشاهير في زمن البخاري، صنف كتاباً سماه (نقض عثمان بن سعيد، على الكاذب العنيد، فيما افترى على الله في التوحيد) حكى فيه هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسي، بكلام يقتضي أن المريسي أقعد بها، وأعلم بالمعقول والمنقول من هؤلاء المتأخرين الذين اتصلت إليهم من جهته، ثم ردها عثمان بن سعيد بكلامٍ، إذا طالعه العاقل الذكيّ، علم حقيقة ما كان عليه السلف فتبين له ظهور الحجة لطريقهم، وضعف حجة من خالفهم. ثم إذا رأى الأئمة - أئمة الهدى - قد أجمعوا على ذم المريسية، وأكثرهم كفّروهم، أو ضللوهم، وعلم أن هذا القول الساري في هؤلاء المتأخرين، هو مذهب المريسي- تبين له الهدى لمن يريد الله هدايته، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم قال رضي الله عنه:

ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، فيعطلون أسماءه الحسنى، وصفاته العليا، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويلحدون في أسماء الله وآياته. وكل واحد من فريقي التعطيل والتمثيل، فهو جامع بين التعطيل والتمثيل، أما المعطلون، فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق. ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل، مثلوا أولاً، وعطلوا آخراً، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله سبحانه وتعالى. فإنه إذا قال القائل: لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أو مساوياً، وكل ذلك محال، ونحو ذلك من الكلام، فإنه لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت لأي جسم كان، على أي جسم كان، وهذا اللازم تابع لهذا المفهوم، أما استواء يليق بجلال الله، ويختص به، فلايلزمه شيء من اللوازم الثلاثة، كما يلزم سائر الأجسام. وصار هذا مثل قول الممثل: إذا كان للعالم صانع، فإما أن يكون جوهراً أو عرضاً، إذ لا يعقل موجود إلا هذان. أو قوله: إذا كان مستوياً على العرش، فهو مماثل لاستواء الإنسان على السرير أو الفُلْك، إذ لا يعلم الاستواء إلا هكذا. فإن كليهما مثّل، وكلاهما عطّل

حقيقة ما وصف الله به نفسه، وامتاز الأول بتعطيل كل مسمى للاستواء الحقيقي، وامتاز الثاني بإثبات (استواءٍ) هو من خصائص المخلوقين، والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط، من أن الله مستو على عرشه استواءً يليق بجلاله ويختص به، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، ونحو ذلك، ولا يجوز أن نثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي لعلم المخلوقين وقُدَرهم، فكذلك هو سبحانه فوق العرش، ولا نثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق ولوازمها.

واعلم أنه ليس في العقل الصحيح، ولا في النقل الصريح، ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلاً، لكن هذا الموضع لا يتسع للجواب عن الشبهات الواردة عن الحق، فمن كان في قلبه شبهة وأحبّ حلها، فذلك سهل يسير – انتهى كلامه –.

ومن أحاط عقله بهذه الغرر، علم براءة ساحة السلف مما رموا به من التجسيم. وفي هذه النفائس من الفوائد ما يشفع لدى الواقف بطوله.

الثالث: يطلق العرش على معانٍ: السرير، ومنه آية ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل:٢٣]، والملك، يقال: ثل عرشهم. وسقف البيت، ومنه آية: ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ [البقرة:٢٥٩]، وحديث (كالقنديل المعلق بالعرش). أو البناء، ومنه ﴿ وما كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٧]، أي يبنون. ومنه: العريش، وهو ما يستظل به. والعرش المضاف إلى الله تعالى لا يحدّ.

قال في القاموس: العرش، عرش الله تعالى، ولا يحدّ – انتهى–.

وقال الراغب: عرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة، ولذا لم يصح في صفته حديث، وكل ما روي في ذلك فليس من مرويات الصحاح.

قال البيهقي في كتاب (الأسماء والصفات): وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم مجسم، خلقه الله تعالى، وأمر ملائكته بحمله، وتعبّدهم بتعظيمه والطواف به، كما خلق في الأرض بيتاً، وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة، وفي أكثر الآيات دلالة على صحة ما ذهبوا إليه، وفي الأخبار والآثار الواردة في معناه دليل على صحة ذلك – انتهى–.

وقال الحافظ الذهبي في كتاب (العلوّ): اعلم أن الله عزَّ وجلَّ، قد أخبرنا، وهو أصدق القائلين، بأن عرش بلقيس عرش عظيم، فقال: ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل:٢٣]

ثم ختم الآية بقوله: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ربُّ الْعَرشِ الْعَظِيمِ ﴾ [النمل:٢٦]، فكان عرشها عظيماً بالنسبة إليها، وما نحيط الآن علماً بتفاصيل عرشها ولا بمقداره ولا بماهيته. ثم قال: فما الظن بما أعد الله تعالى من السُّرُرِ والقصور في الجنة لعباده، فما الظن بالعرش العظيم الذي اتخذه العلي العظيم لنفسه في ارتفاعه وسعته وقوائمه وماهيته وحملته الحافِّين من حوله، وحسنه ورونقه وقيمته؟ اسمع وتعقل ما يقال، والجأ إلى الإيمان بالغيب، فليس الخبر كالمعاينة، فالقرآن مشحون، بذكر العرش، وكذلك الآثار، بما يمتنع أن يكون المراد به (الملك). فدع المكابرة والمراءَ، فإن المراءَ في القرآن كفر. آمنا بالله وأشهد بأنّا مسلمون. لا إله إلا الله الحليم الكريم. لا إله إلا اللّه رب العرش العظيم. لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم. الحمد لله رب العالمين. انتهى كلام الذهبيّ رحمه الله تعالى-.

الرابع - سئل الشيخ تقيّ الدين بن تيمية، عليه الرحمة والرضوان، عن العرش: هل هو كري أم لا، فإذا كان كرياً والله من ورائه محيط به بائن عنه،فما فائدة توجه العبد إلى الله سبحانه حين الدعاء والعبادة، فيقصد العلوّ دون غيره، إذ لا فرق حينئذ بين قصد جهة العلوّ وغيرها من الجهات التي تحيط بالداعي، ومع هذا نجد في قلوبنا قصداً يطلب العلوّ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة. فأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا وقد فطرنا عليها.

فأجاب رحمه الله بقوله:

إنّ لقائل أن يقول: لم يثبت بدليل يعتمد عليه أن العرش فلك من الأفلاك المستديرة الكرّية، وإنما ذكره طائفة من المتأخرين الذين نظروا في علم الهيئة، فرأوا أن الأفلاك تسعة، وأن التاسع، وهو الأطلس، محيط بها، وهو الذي يحركها الحركة الشرقية، وإن كان لكل فلك حركة تخصه، ثم سمعوا في أخبار الأنبياء ذكر عرش الله سبحانه وكرسيّه والسموت السبع، فقالوا (بطريق الظن): إن العرش هو الفلك التاسع، لاعتقادهم أنه ليس وراء ذلك شيء، إما مطلقاً وإما أنه ليس وراءه مخلوق. ثم إن منهم من رأى أنه هو الذي يحرك الأفلاك كلها، فجعلوه مبدأ الحوادث، وربما سماه بعضهم الروح أو النفس. وجعله بعضهم هو اللوح المحفوظ، وبعض الناس ادعى أنه علم ذلك بطريق الكشف، وذلك غير صحيح، بل أخذه من هؤلاء المتفلسفة، كما فعل أصحاب (رسائل إخوان الصفاء). والأخبار تدل على أن العرش مباين لغيره من المخلوقات، وأنه قبل السموات والأرض. فقد ثبت في صحيح

البخاري[١] أنه ﷺ قال: « كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض، وأن له قوائم » - كما في حديث[٢] أبي سعيد: فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش. وقد استدل من قال إنه مقبب، بما رواه أبو داود[٣] من قوله عليه الصلاة والسلام (وإن الله تعالى على عرشه، وإن عرشه على سمواته، وسمواته فوق أرضه هكذا- وقال بأصابعه مثل القبة) -. وهذا لا يدل على أنه فلك من الأفلاك، ولا مستدير مثل ذلك ، لكن لفظ (القبة) يستلزم استدارة من العلوّ، لا من جميع الجوانب، إلا بدليل منفصل. ولفظ (الفلك) يستدل به على الاستدارة مطلقاً، كما قال ابن عباس في ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ ﴾ [الأنبياء:٣٣]: في فلكة مثل فلكة المغزل وأما لفظ (القبة) فإنه لا يتعرض لهذا المعنى، لا بنفي ولا إثبات، لكن يدل على الاستدارة من العلوّ.

واعلم أن العرش، وسواء كان هذا الفلك التاسع، أو جسماً محيطاً به، أو كان فوقه من جهة وجه الأرض، محيط به، أو قيل فيه غير ذلك، فيجب أن يعلم أن العالم العلويّ والسفليّ بالنسبة إلى الخالق تعالى في غاية الصغر، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتُ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧].

وفي الصحيحين[٤] عن النبي ﷺ أنه قال: « يقبض الله تبارك وتعالى الأرض

---

(١) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، ١ - باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾، حديث ١٥٠٦ عن عمران بن حصين.

(٢) أخرجه البخاري في: الأنبياء، ٢٥ - باب قوله تعالى: ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ ،حديث رقم ١١٩٣، ونصه: عن أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ ﷺ قال « الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش. فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور ».

(٣) أخرجه أبو داود في: السنّة، ١٨ - باب في الجهمية، حديث رقم ٤٧٢٦، ونصه: عن جبير بن مطعم قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله! جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك. قال رسول الله ﷺ « ويحك! أتدري ما تقول »؟ وسبّح رسول الله ﷺ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: « ويحك! إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه. شان الله أعظم من ذلك. ويحك! أتدري ما الله؟ إن عرشه على سمواته لهكذا » وقال بأصابعه مثل القبة عليه « وإنه ليئطُّ أطيط الرحْل بالراكب ».

(٤) أخرجه البخاري في: التفسير، ٣٩ - سورة الزمر، ٢ - باب ﴿ وما قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾، حديث رقم ٢٠٣٩ عن أبي هريرة.
وأخرجه مسلم في: صفات المنافقين وأحكامهم، حديث ٢٣.

يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك. أين ملوك الأرض؟» وفي الصحيحين[١] عن عبد الله بن عمر، عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك. أين الجبارون، أين المتكبرون؟» ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك. أين الجبارون، أين المتكبرون؟» وفي لفظ[٢]: ويتميل رسول الله ﷺ على يمينه وعلى شماله، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفله شيء.

وفي رواية أخرى قال: قرأ على المنبر ﴿والأرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقيامة﴾... الآية - قال: مطويّة في كفه، يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة، ففي هذه الأحاديث وغيرها، المتفق على صحتها، ما يبيّن أن السماوات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمته عز وجل، أصغر من أن تكون، مع قبضه لها، إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا، حتى يدحوها كما تدحى الكرة.

ثم قال في الجواب: فما وصف الله تعالى من نفسه وأسمائه على لسان رسوله ﷺ سميناه كما سماه، ولم نتكلف علم ما سواه، فلا نجحد ما وصف، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف. وإذ كان كذلك، فهو قادر على أن يقبضها ويدحوها كالكرة. في ذلك من الإحاطة بها ما لا يخفى، وإن شاء لم يفعل.. وبكل حال فهو مباين لها، ليس بمجانب لها. ومن المعلوم أن الواحد منا - ولله المثل الأعلى - إذا كان عنده خردلة، إن شاء قبضها، فأحاطت بها قبضته، وإن شاء لم يقبضها، بل جعلها تحته، فهو في الحالين مباين لها، وسواء قدر أن العرش هو محيط بالمخلوقات، كإحاطة الكرة بما فيها أم قيل إنه فوقها وليس محيطاً بها كوجه الأرض الذي نحن عليها بالنسبة إلى جوفها، وكالقبة بالنسبة إلى ما تحتها، أو غير ذلك - فعلى التقدير يكون العرش فوق المخلوقات، والخالق سبحانه فوقه، والعبد في توجهه إليه عزّ وجلّ، يقصد العلوّ، دون التحت.

وتمام هذا البحث بأن يقال: لا يخلو إما أن يكون العرش كرياً كالأفلاك،

---

(١) أخرجه البخاري في: التوحيد، ١٩ - باب قوله تعالى: ﴿لِماَ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، حديث رقم ٢٦٠٠.

وأخرجه مسلم في: صفات المنافقين وأحكامهم، حديث ٢٤ و ٢٥. وهذا لفظ مسلم.

(٢) نصه في مسلم: حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفله شيء منه، حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله؟

وليس فيه (ويتميل رسول الله ﷺ على يمينه وعلى شماله).

ويكون محيطاً بها، وإما أن يكون فوقها، وليس بكري. فإن كان الأول، فمن المعلوم - باتفاق من يعلم هذا- أن الأفلاك مستديرة كرية، وأن الجهة العليا هي جهة المحيط، وهو المحدود، وأن الجهة السفلى هي المركز، وليس للأفلاك إلا جهتان: العلوّ والسفل فقط. وأما الجهات الست فهي للحيوان، فإن له ست جوانب: يؤم جهة فتكون أمامه، ويخلف أخرى فتكون خلفه، وجهة تحاذي شماله، وجهة تحاذي يمينه، وجهة تحاذي رأسه، وجهة تحاذي رجليه. وليس لهذه الجهات في نفسها صفة لازمة، بل هي بحسب النسبة والإضافة، فيكون يمين هذا ما يكون يسار هذا، ويكون فوق هذا ما يكون تحت هذا، لكن جهة العلو والسفل للأفلاك لا تتغير، فالمحيط هو للعلّو، والمركز هو السفل، مع أن وجه الأرض التي وضعها الله تعالى للأنام، وأرساها بالجبال، هو الذي عليه الناس والبهائم وغيرهما. فأما الناحية الأخرى منها فالبحر محيط بها، وليس هناك شيء من الآدميين وما يتبعهم. ولو قدر أن هناك أحداً، لكان على ظهر الأرض، ولم يكن مَن في هذه الجهة تحت مَن في هذه الجهة، ولا مَن في هذه تحت مَن في هذه. كما أن الأفلاك محيطة بالمركز، وليس أحد جانبي الفلك تحت الآخر، ولا القطب الشماليّ تحت الجنوبيّ، ولا بالعكس، وإن كان الشماليّ هو الظاهر لنا بحسب بعد الناس عن خط الاستواء، فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلاً، كان ارتفاع القطب عنده ثلاثين درجة، وهو الذي يسمى عرض البلد. فكما أن جوانب الأرض المحيطة بها، وجوانب الفلك المستدير ليس بعضها فوق بعض ولا تحته، فكذلك من يكون على الأرض لا يقال إنه تحت أولئك، وإنما هذا خيال يتخيله الإنسان، وهو (تحتٌ) إضافي. كما لو كانت نملة تمشي تحت سقف، فالسقف فوقها، وإن كانت رجلاها تحاذيانه، وكذلك من عُلق منكوساً، فإنه تحت السماء، وإن كانت رجلاه تلي السماء وكذلك قد يتوهم الإنسان إذا كان في أحد جانبي الأرض أو الفلك، أن الجانب الآخر تحته. وهذا أمر لا يتنازع فيه اثنان ممن يقول إن الأفلاك مستديرة. وهذا كما أنه قول أهل الهيئة والحساب، فهو الذي عليه علماء المسلمين، كما ذكره أبو الحسين المناوي وأبو محمد بن حزم وأبو الفرج بن الجوزي وغيرهم. وهو المأخوذ من قول ابن عباس وغيره. ومن ظن أن من يكون في الفلك من ناحية يكون تحته مَن في الفلك من الناحية الأخرى في نفس الأمر، فهو متوهم عندهم. فإذا كان الأمر كذلك، فإذا قدر أن العرش مستدير محيط بالمخلوقات كان هو أعلاها وسقفها وهو فوقها مطلقاً، فلا يتوجه إليه وإلى ما فوقه الإنسان إلا من العلوّ. ومن توجه إلى الفلك الثامن أو التاسع مثلاً من غير جهة العلوّ،

كان جاهلاً باتفاق العقلاء، فكيف بالتوجه إلى العرش أو إلى ما فوقه ! وغاية ما يقدر أن يكون كريّ الشكل، والله تعالى محيط بالمخلوقات كلها إحاطة تليق بجلاله، فإن السماوات السبع والأرض في يده أصغر من الحمصة في يد أحدنا. وأما قول القائل: إذا كان كرياً، والله من ورائه محيط بائن عنه، فما الفائدة في التوجه إلى العلوّ دون التحت، ومع هذا نجد في قلوبنا قصد العلوّ؟ فيقال: هذا إنما ورد لتوهم أن نصف الفلك يكون تحت الأرض، وتحت ما على وجه الأرض، من الآدميين والبهائم، وهذا غلط. فلو كان الفلك تحت الأرض من جهة، لكان تحتها من كل جهة، فكان يلزم أن يكون الفلك تحت الأرض مطلقاً، وهذا قلب للحقائق إذ الفلك هو فوق الأرض مطلقاً، وأهل الهيئة يقولون: لو أن الأرض مخروقة إلى ناحية أرجلنا، وألقي في الخرق شيءٌ ثقيل كالحجر ونحوه، لكان ينتهي إلى المركز، حتى لو ألقي من تلك الناحية حجر آخر، لالتقيا جميعاً في المركز، الذي هو النقطة المتوسطة في كرة الأرض. ولو قدر أن إنسانين التقيا في المركز بدل الحجر، لالتقت رجلاهما، ولم يكن أحدهما تحت الآخر، بل كلاهما فوق المركز، وكلاهما تحت الفلك. وإذا كان مطلوب أحد ما فوق الفلك لم يطلبه إلا من الجهة العليا، لأن مطلوبه من تلك الجهة أقرب، لأنه لو قدر أن رجلاً أو ملكاً يصعد إلى السماء، كان صعوده مما يلي رأسه، ولا يقول عاقل إنه يخرق الأرض ثم يصعد من تلك الناحية، أو يذهب يميناً أو شمالاً ثم يصعد. ولو أن رجلاً أراد مخاطبة القمر، فإنه لا يخاطبه إلا من الجهة العليا، مع أنه قد يشرق ويغرب، فكيف بما هو فوق كل شيء لا يافل ولا يغيب سبحانه وتعالى. وكما أن حركة الحجر تطلب مركزها بأقصر طريق، وهو الخط المستقيم، فالطلب الإرادي الذي يقوم بقلوب العباد، كيف يعدل عن الصراط المستقيم؟.

مطلب في حديث الإدلاء

إلى أن قال:

وحدث الإدلاء، الذي رواه أبو هريرة وأبو ذر، قد رواه الترمذي وغيره[1] من

---

(١) رواه الترمذي في: التفسير، ٥٧ – سوررة الحديد، ونصه: عن قتادة، حدثنا الحسن عن أبي هريرة قال: بينما نبيّ الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب. فقال نبي الله ﷺ «هل تدرون ما هذا»؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال «هذا العنان، هذه روايا الأرض، يسوقه الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه» قال «هل تدرون ما فوقكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال «فإنها الرقيع، سقف محفوظ وموج مكفوف» ثم قال «هل تدرون كم بينكم وبينها»؟ قالوا: الله =

حديث الحسن عن أبي هريرة، وهو منقطع، فإن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، ولكن يقويه حديث أبي ذر المرفوع. فإن كان ثابتاً، فمعناه موافق لهذا. فإن قوله ﷺ : لو أدلى أحدكم بحبل لهبط على الله، إنما هو تقدير مفروض، أي لو وقع الإدلاء الوقع عليه، لكن لا يمكن أن يدلي أحد على الله عز وجل شيئاً، لأنه عال بالذات، وإذا أُهْبط شيء إلى جهة الأرض وقف في المركز. والمقصود بيان إحاطة الخالق سبحانه، كما بيّن أنه يقبض السموات، ويطوي الأرض، ونحو ذلك مما فيه بيان إحاطته تعالى، ولهذا قرأ في تمام الحديث:

﴿ هَوَ الأوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والْباطِنُ وَهُوَ بَكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ ﴾ [الحديد:٣] وهذا كله على تقدير صحته، فإن الترمذي لما رواه قال: وفسره بعض أهل العلم بأنه هبط على علم الله. وبعضُ الحلولية والاتحادية يظن أن فيه ما يدل على زعمه الباطل من أنه سبحانه حالٌّ بذاته في كل مكان، أو أن وجوده وجود الأمكنة ونحو ذلك. وكذلك تأويله بالعلم غير مستقيم، بل على تقدير ثبوته، فالمراد به الإحاطة، ونحن لا نتكلم إلا بما نعلم، وما لم نعلمه أمسكنا عنه. وقد فطر الله تعالى الناس على التوجه في الدعاء إلى جهة العلوّ، وقال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها ﴾ [الروم:٣٠]. فجاءت الشريعة بالعبادة والدعاء بما يوافق الفطرة. وقد ثبت في الصحيحين[1] أنه ﷺ قال: «إذ قام أحدكم إلى الصلاة فلا

= ورسوله أعلم قال «بينكم وبينها مسير خمسمائة سنة» ثم قال «هل تدرون ما فوق ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال «فإن فوق ذلك سماءين، ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة» حتى عدّد سبع سموات، ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض. ثم قال «هل تدرون ما فوق ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال «فإن فوقَ ذلك العرش. وبينه وبين السماء بُعْدَ مثل ما بين السماءين» ثم قال «هل تدرون ما الذي تحتكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فإنها الأرض» ثم قال تدرون ما الذي تحت ذلك»؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال «فإن تحتها الأرض الأخرى، بينهما مسيرة خمسمائة سنة» حتى عدّد سبع أرضين، بين كل ارضين مسيرة خمسمائة سنة. ثم قال «والذي نفس محمد بيده! لو أنكم دليتم رجلاً بحبل إلى الأرض السفلى، لهبط على الله».

ثم قرأ: ﴿ هُوَ الأوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والبَاطِنُ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

(قال أبو عيسى): هذا حديث غريب من هذا الوجه.

قال: ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعليّ بن زيد قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة (أقول) في سماع الحسن من أبي هريرة، انظر تعليق السيد أحمد محمد شاكر على الحديث رقم ٧١٣٨ من مسند أحمد.

(١) أخرجه البخاري في: الصلاة، ٣٣- باب حك البزاق باليد من المسجد، حديث ١٨٠ عن أنس. و٣٦- باب ليبزق عن يساره أو تحت قدمه اليسرى، حديث ٢٧٢ عن أبي سعيد الخدري.

يبصق قبل وجهه، فإن الله تعالى قبل وجهه، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملَكاً، وليبصق عن يساره أو تحت رجله». وفي رواية: إنه أذن أن يبصق في ثوبه. وفي حديث[١] أبي رزين المشهور: لما أخبر ﷺ أنه ما من أحد إلا سيخلو به ربه، فقال له أبو رزين: كيف يسعنا يا رسول الله وهو واحد ونحن جمع؟ فقال: سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله تعالى: هذا القمر آية من آيات الله تعالى، كلكم يراه مخلياً به، فالله أكبر. وفي الصحيحين[٢]: لينتهينّ أقوام عن رفع أبصارهم في الصلاة، أو لا ترجع إليهم أبصارهم. واتفق العلماء على أن رفع المصلي بصره إلى السماء منهي عنه. وروى محمد بن سيرين أن النبي ﷺ كان يرفع بصره في الصلاة إلى السماء، حتى نزل: ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢]، فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده. فهذا مما جاءت به الشريعة تكميلاً للفطرة، لأن الداعي المأمور بالذل، لا يناسب حاله أن ينظر إلى ناحية من يدعوه. خلافاً للجهمية الذين لا يفرقون بين العرش وقعر البحر، وقد قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ [البقرة: ١٤٤] الآية - ثم بين تأويل (الحجرُ الأسود يمين الله في الأرض فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله تعالى وقبل يمينه) وقال: قد ظنوا أن هذا وأمثاله محتاج إلى التأويل، وهذا وهم، لأنه لو كان هذا اللفظ ثابتاً عن النبي ﷺ فإنه صريح في أن الحجرَ ليس هو من صفاته تعالى، وتقييده بالأرض يدل على أنه ليس هو يدَه على الإطلاق، فلا تكون اليد حقيقة. وقوله: (فكأنما صافح الله تعالى) الخ صريح في أن المصافح ليس مصافحاً له تعالى، لأن المشبَّه ليس هو المشبه به.

إلى أن قال: فهذا كله بتقدير كرّية العرش، وأما إذا قدر أنه ليس بكري الشكل، بل هو فوق العالم من الجهة التي هي وجه الأرض، وأنه فوق الأفلاك الكريّة، كما أن وجه الأرض الموضوع للأنام، فوق نصف الأرض الكريّ، أو غير ذلك من المقادير التي يقدر فيها أن العرش فوق ما سواه - فعلى كل تقدير لا يتوجه إلى الله تعالى إلا

---

(١) أخرجه أبو داود في: السنة، ١٩ - باب في الرؤية، حديث ٤٧٣١.
وأخرجه ابن ماجة في المقدمة، ١٣ - باب فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم ١٨٠ ونصه: عن أبي رزين قال: قلت: يا رسول الله! أنرى الله يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال «يا أبا رزين! أليس كلكم يرى القمر مُخْلياً به»؟ قال قلت: بلى قال «فالله أعظم، وذلك آية في خلقه». وكذا في أبي داود.

(٢) أخرجه البخاري في: الأذان، ٩٢ - باب رفع البصر إلى السماء في الصلاة، حديث رقم ٥٤٧ عن أنس. وليس في مسلم.

إلى العلوّ، مع كونه على عرشه مبايناً لخلقه. وعلى ما ذكرناه لا يلزم شيء من المحذور والتناقض. وهذا يزيل كل شبهة تنشأ من إعتقاد فاسد، وهو أن يظن أن العرش إذا كان كريّاً، والله تعالى فوقه كما تقتضيه ذاته، سبحانه عن مشابهة المخلوقين - وجب (فيما عند الزاعم) أن يكون سبحانه كرياً، ثم يعتقد أنه إذا كان كريّاً فيصح التوجه إلى ما هو كري كالفلك التاسع من جميع الجهات، وهذا خطأ، فإن القول بأن العرش كري لا يجوز أن يظن أنه مشابه للأفلاك في أشكالها وأقدارها أو في صفاتها، بل قد تبين أن سبحانه أعظم وأكبر من أن تكون المخلوقات عنده أصغر من الحمصة في يد أحدنا. فإذا كانت الحمصة مثلاً في يد الإنسان أو تحته أو نحو ذلك، هل يتصور عاقل، إذا استشعر علوّ الإنسان على ذلك وإحاطته، بأن يكون الإنسان كالفلك؟ فالله تعالى- وله المثل الأعلى- أعظم من أن يظن به ذلك. وإنما يظنه الذين لم يقدروا الله ﴿حَقَّ قَدْرِهِ والأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ والسَّمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. وإذا لم يكن كريّاً. فالأمر ظاهر مما تقدم، وبهذا يظهر الجواب عن السؤال من وجوه متعددة، والله تعالى أعلم.

وإنما أشبعنا الكلام، في هذا المقام، لأنه من أصول العقائد الدينية، ومهمات المسائل التوحيدية، وقد كثر فيه تعارك الآراء، وتصادم الأهواء، ولم يأت جمهور المتكلمين المؤولين بشيء يعلق بقلب الأذكياء، بل اجتهدوا في إيراد التمحلات التي تأباها فطرة الله أشد الإباء، فبقيت نفوس أنصار السنة المحققين، مائلة إلى مذهب السلف الصالحين، فإن الأئمة منهم، كان عقدهم ما بيناه فلا تكن من الممترين، والحمد لله رب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾ أي يغطيه به، يعني أنه تعالى يأتي بالليل على النهار، فيغطيه ويلبسه، حتى يذهب بنوره، ويصير الجو مظلماً، بعد ما كان مضيئاً. قال الشهاب: وجوز جعل الليل والنهار مغشى على الاستعارة، بأن يجعل غشيان مكان النهار وإظلامه بمنزلة غشيانه للنهار نفسه، فكأنه لفّ عليه لفّ الغشاء، أو شبه تغييب كل منهما، بطريانه عليه، بستر اللباس للابسه - انتهى-.

ولم يذكر العكس للعلم به، أو لأن اللفظ يحتملهما، ولذلك قرئ ﴿يَغْشى اللَّيْلَ النَّهارُ﴾ بنصب الليل، ورفع النهار ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ أي يعقبه سريعاً، كالطالب له، لا يفصل بينهما شيء. قال الرازيّ: وإنما وصف سبحانه هذه الحركة بالسرعة،

لأن تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم، وتلك الحركة أشد الحركات سرعة، وأكملها شدة، حتى إن الباحثين عن أحوال الموجودات قالوا: الإنسان إذا كان في العَدْوِ الشديد الكامل، فإلى أن يرفع رجله ويضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل، وإذا كان الأمر كذلك، كانت تلك الحركة في غاية الشدة والسرعة، فلهذا السبب قال تعالى: ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ أي مذللات لما يراد منها من طلوع وغروب وسير ورجوع بقضائه وتصريفه. قال الشهاب: وسماه (أمراً) على التشبيه، إذ جَعَلَ هذه الأشياء لكونها تابعة لتدبيره وتصريفه كما يشاء كأنهن مأمورات منقادة لأمره. ويصح حمله على ظاهره - انتهى-.

أي وهو الكلام، فيكون تعالى أمر هذه الأجرام بالسير الدائم، والحركة المستمرة إلى انقضاء الدنيا، وخراب هذا العالم. وقد قرئ ﴿وَالشَّمْسَ﴾ وما بعده بالنصب عطفاً على ﴿السموات﴾ ونصب ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ على الحال. وقرأها ابن عامر كلها بالرفع على الابتداء، والخبر ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ أي هو الذي خلق الأشياء كلها، وهو الذي صرفها على حسن إرادته، وفسر الأمر بالقضاء والحكم.

تنبيهان:

الأول: استخرج سفيان بن عيينة، من هذا المعنى، أن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق، فقال: إن الله تعالى فرق بين الخلق والأمر، فمن جمع بينهما فقد كفر. يعني أن من جعل الأمر الذي هو كلامه تعالى من جملة ما خلقه فقد كفر، لأن المخلوق لا يقوم بمخلوق مثله. كذا في (اللباب). قال في (الإكليل): استدل به ابن عيينة على أن القرآن غير مخلوق، أخرجه ابن أبي حاتم. لأن (الأمر) هو الكلام، وقد عطفه على (الخلق) فاقتضى أن يكون غيره، لأن العطف يقتضي المغايرة، وسبقه إلى هذا الاستنباط محمد بن كعب القرظي. انتهى

الثاني: قال في اللباب: في الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله عزَّ وجلَّ، أي للحصر المستفاد من تقديم الظرف. ففيه رد على من يقول إن للشمس والقمر والكواكب تأثيرات في هذا العالم.

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي تقدس وتنزه وتعالى وتعاظم. قال في (التاج): سئل أبو العباس عن تفسير ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ فقال: ارتفع - انتهى-.

ولما ذكر تعالى الدلائل على كمال القدرة والحكمة، ليفردوه بالألوهية، أمرهم بأن يدعوه وحده متذللين مخلصين فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾

﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ نصب على الحال، أي: ذوي تضرع وخفية، والتضرع (تَفعّل) من (الضراعة) وهو الذل. والخفية (بضم الخاء وكسرها) مصدر خَفِيَ كرضي بمعنى اختفى، أي استتر وتوارى. وإنما طلب الدعاء مع تينك الحالتين لأن المقصود من الدعاء أن يشاهد العبد حاجته وعجزه وفقره لربه ذي القدرة الباهرة، والرحمة الواسعة. وإذا حصل له ذلك، فلا بد من صونه عن الرياء، وذلك بالاختفاء، وتوصلاً للإخلاص.

فوائد:

في هذه الآية مشروعية الدعاء، بشرطَيْه المذكورين:

قال السيوطي في (الإكليل): ومن التضرع رفع الأيدي في الدعاء، فيستحب. وقد أخرج البزار عن أنس: رفع رسول الله ﷺ يديه بعرفة يدعو، فقال أصحاب النبيّ ﷺ: هذا الابتهال. ثم خاضت الناقة، ففتح إحدى يدية فأخذها وهو رافع الأخرى — انتهى — .

وفي الصحيحين[1] عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس! اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً. إن الذي تدعون سميع قريب»... الحديث.

وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال: إن كان الرجل، لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل، لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل، ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّوْر وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر،

(١) أخرجه البخاري في: الجهاد، ١٣ - باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، حديث رقم ١٤٢٣ ونصه: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ. فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هلّلنا وكبّرْنا ارتفعت أصواتنا. فقال النبيّ ﷺ «أيها الناس! اربعوا على أنفسكم. فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً. إنه معكم. إنه سميع قريب. تبارك اسمه وتعالى جدّه».
وأخرجه مسلم في: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٤٤.

فيكون علانية أبداً. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم. وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾. وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيّاً﴾ [مريم:٣].

وقال ابن جريج: يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة.

وقال الناصر في (الانتصاف): وحسبك في تعين الإسرار في الدعاء اقترانه بالتضرع في الآية، فالإخلال بالضراعة إلى الله في الدعاء، وإن دعاءً لا تضرّع فيه ولا خشوع، لقليل الجدوى. فكذلك دعاء لا خفية ولاوقار يصحبه. وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ والصياح في الدعاء، خصوصاً في الجوامع، حتى يعظم اللغط ويشتدّ، وتستكّ المسامع وتستدّ، ويهتز الداعي بالناس، ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين: رفع الصوت في الدعاء،وفي المسجد، وربما حصلت للعوامّ حينئذ رقة لا تحصل مع خفض الصوت، ورعاية سمت الوقار، وسلوك السنة الثابتة بالآثار. وما هي إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء والأطفال، ليست خارجة عن صميم الفؤاد، لأنها لو كانت من أصل، لكانت عند اتباع السنة في الدعاء. وفي خفض الصوت به، أوفر وأوفى وأزكى. فما أكثر التباس الباطل بالحق، على عقول كثيرة من الخلق. اللهم! أرنا الحقّ حقّاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه – انتهى–.

وقد روى الحافظ أبو الشيخ في (الثواب) عن أنس مرفوعاً: دعوة في السرّ تعدل سبعين دعوة في العلانية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: لا يحب دعاء المجاوزين لما أُمروا به في كل شيء، ويدخل فيه الاعتداء بترك الأمرين المذكورين، وهما التضرع والإخفاء دخولاً أوليّاً.

قال السيوطي في (الإكليل): في الآية كراهية الاعتداء في الدعاء. وفسره زيد ابن أسلم بالجهر، وأبو مجلز بسؤال منازل الأنبياء، وسعيد بن جبير بالدعاء على المؤمن بالسر. أخرج ذلك ابن أبي حاتم. ولا يخفى أن هذا جميعه مما يشمله الاعتداء.

وقد روى الإمام أحمد[١] وأبو داود أن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها، ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها. فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً، وتعوذّت بالله من شرّ كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه سيكون قوم يعتدُون في الدعاء (وفي لفظ: يعتدون في الطهور والدعاء)، وقرأ هذه الآية: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ...﴾ الآية – وإن بحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل.

وروى الإمام أحمد[٢] وأبو داود أن عبد الله بن مغفّل سمع ابنه يقول: اللهم! إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بنيّ! سل الله الجنة، وعُذْ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

﴿ولا تُفْسِدُوا فِي الأرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها﴾ قال أبو مسلم: أي لا تفسدوها بعد إصلاح الله إياها، بأن خلقها على أحسن نظام، وبعث الرسل، وبيّن الطريق، وأبطل الكفر.

وقال أبو حيّان: هذا نهي عن إيقاع الفساد في الأرض، وإدخال ماهيته في الوجود بجميع أنواعه، من إفساد النفوس والأموال والأنساب والعقول والأديان. ومعنى **﴿بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾**: بعد أن أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق، ومصالح المكلفين. انتهى.

﴿وادْعُوهُ خَوْفاً وطَمَعاً﴾ أي: ذوي خوف من وبيل العقاب، نظراً إلى قصور

---

(١) أخرجه في المسند ١/ ١٧٢، والحديث رقم ١٤٨٣.
واخرجه أبو داود في: الوتر، ٢٣ – باب الدعاء، حديث رقم ١٤٨٠.

(٢) أخرجه في المسند ص ٨٧ ج٤.
أخرجه أبو داود في: الطهارة، ٤٥ – باب الإسراف في الماء، حديث رقم ٩٦.

أعمالكم، وطمع فيما عنده من جزيل الثواب، نظراً إلى سعة رحمته، ووفور فضله وإحسانه ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره، ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ...﴾ [الأعراف:١٥٦] الآية.

لطائف:

الأولى – قال في (اللباب): إن قلت: قال في أول الآية ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ وقال هنا ﴿وادْعُوهُ﴾، وهذا هو عطف الشيء على نفسه، فما فائدة ذلك؟

قلت: الفائدة فيه أن المراد بقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: ليكن الدعاء مقروناً بالتضرع والإخبات، وقوله ﴿وادْعُوهُ خَوْفاً وطَمَعاً﴾ أن فائدة الدعاء أحد هذين الأمرين، فكانت الآية الأولى في بيان شرط صحة الدعاء، والآية الثانية في بيان فائدة الدعاء. وقيل: معناه كونوا جامعين في أنفسكم بين الخوف والرجاء في أعمالكم كلها، ولا تطمعوا أنكم وفيتم حق الله في العبادة والدعاء، وإن اجتهدتم فيهما.

الثانية – في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ..﴾ الآية – ترجيح للطمع على الخوف، لأن المؤمن بين الرجاء والخوف، ولكنه إذا رأى سعة رحمته وسبقها، غلب الرجاء عليه. وفيه أيضاً تنبيه على ما يتوسل به إلى الإجابة، وهوالإحسان في القول والعمل. قال مطر الوراق: استنجزوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين.

الثالثة: تذكير (قريب)، لأن (الرحمة) بمعنى الرحم، أو لأنه صفة لمحذوف، أي أمر قريب، أو على تشبيه بـ(فعيل)، الذي هو بمعنى (مفعول) أو الذي هو مصدر كالنقيض والصهيل، أو للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره، فإنه يقال: فلانة قريبة مني لا غير، وفي المكان وغيره يجوز الوجهان. أو لاكتسابه التذكير من المضاف إليه، كما أن المضاف يكتسب التأنيث من المضاف إليه. وقد أوصلوا توجيه تذكيره إلى خمسة عشر وجهاً.

ولما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قدير– نبه تعالى على أنه الرزّاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

﴿ وهُوَ الَّذي يُرْسِلُ الرياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَته ﴾ أي قدام رحمته التي هي المطر، فإن الصبا تثير السحاب، والشمال تجمعه والجنوب تدرّه، والدبور تفرقه. وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ من بَعْد ما قَنطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ [الشورى :٢٨]، وقوله سبحانه: ﴿ ومِنْ آياته أن يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّرات ﴾ [الروم: ٤٦]. قال الثعالبي: المبشرات التي تأتي بالسحاب والغيث.

تنبيه:

قال أبو البقاء: يقرأ ﴿ نُشُراً ﴾ بالنون والشين مضمومتين، وهو جمع، وفي واحده وجهان أحدهما ﴿ نَشُور ﴾ مثل صبور وصبر. فعلى هذا يجوز أن يكون (فعول) بمعنى (فاعل)، أي: ينشر الأرض. ويجوز أن يكون بمعنى (مفعول) كركوب بمعنى مركوب، أي: منشورة بعد الطي، أو مُنْشَرَة أي مُحيْاة، من قولك أنشر الله الميت فهو مُنْشَر، ويجوز أن يكون جمع ناشر، مثل بازل وبُزُل. ويقرأ بضم النون وإسكان الشين على تخفيف المضموم. ويقرأ نَشْراً بفتح النون وإسكان الشين، وهو مصدر نَشَرَ بعد الطي، أو من قولك أنشر الله الميت فنشر أي عاش. ونصبه على الحال، أي ناشرة، أو ذات نشر، كما تقول: جاء ركضاً أي راكضاً.

ويقرأ: بُشُراً بالباء وضمتين، وهو جمع بشير، مثل قليب وقُلُب. ويقرأ كذلك إلا أنه بسكون الشين على التخفيف. ويقرأ بشرى مثل حُبْلَى، أي: ذات بشارة ويقرأ بَشْر بفتح الباء وسكون الشين، وهو مصدر بَشَرْته - أي بالتخفيف - إذا بشّرته - انتهى-.

﴿ حتّى إذا أقَلَّتْ ﴾ أي حملت ﴿ سَحَاباً ثِقَالاً ﴾ أي من كثرة ما فيها من الماء ﴿ سُقْناهُ ﴾ أي السحاب. قال الشهاب: السحاب اسم جنس جمعي، يفرق بينه وبين واحده بالتاء، كتمر وتمرة. وهو يذكر ويؤنث ويفرد وصفه، ويجمع. وأهل اللغة تسميه جمعاً، فلذا روعي فيه الوجهان، في وصفه وضميره - انتهى -. أي أرسلناه

مع أن طبعه الهبوط ﴿لِبَلدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي: لأجله ولمنفعته، أو لإحيائه أو لسقيه. و(ميت) قرئ مشدداً ومخففاً ﴿فأنزَلْنا به الْماءَ﴾ أي الضمير. والضمير في (به) للبلد ﴿فأخْرَجْنا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَراتِ﴾ أي المختلفة الأنواع، مع أن ماءها واحد. والمراد (بكل الثمرات) المعتادة في كل بلد تخرج به على الوجه الذي أجرى الله العادة بها ودبرها. والضمير في (به) للماء أو للبلد. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإخـراج ﴿نُخرِجُ الْمَوْتَى﴾ أي نحييها بعد صيرورتها رميماً يوم القيامة، ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء، فتمطر الأرض أربعين يوماً، فتنبت منه الأجساد في قبورها، كما ينبت الحب في الأرض ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي إنما وصفنا ما وصفنا من هذا التمثيل لكي تتذكروا، من أحوال الثمرات التي أعيدت إلى حالها بعد تلفها، أحوالَ الآخرة، فتعلموا أن من قدر على ذلك، قدر على هذا بلا ريب.

تنبيه:

من أحكام الآية كما قال الجشمي: أنها تدل على عظم نعمه تعالى علينا بالمطر، وتدل على الحجاج في إحياء الموتى بإحياء الأرض بالنبات، وتدل على أنه أراد من الجميع التذكر. وتدل على أنه أجرى العادة بإخراج النبات بالماء. وإلا فهو قادر على إخراجه من غير ماء. فأجرى العادة على وجوه دبرها عليها على ما نشاهده، لضرب من المصلحة ديناً ودنيا.

ومنها إذا رأى الأرض الطيبة تزرع دون الأرض السبخة، وأنها قطع متجاورات، علم فساد التقليد، وأنه يجب أن يتفحص عن الحق حتى يعتقده. ومنها أنه إذا زرع وعلم وجوب حفظه من المبطلات، علم وجوب حفظ الأعمال الصالحة من المحبطات.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

﴿ والْبَلَدُ الطَّيِّبُ ﴾ أي: الأرض الكريمة التربة ﴿يَخْرُجُ نَباتُهُ بإذْنِ رَبِّه ﴾ أي يخرج نباته وافياً حسناً غزير النفع بمشيئته وتيسيره ﴿والَّذي خَبُثَ﴾ أي كالحرّة، وهي الأرض ذات الحجارة السود. وكالسبخة (بكسر الباء) وهي الأرض ذات الملح ﴿لا يَخْرُجُ﴾ أي: نباته ﴿إلاَّ نَكِداً﴾ أي: قليلاً، عديم النفع. يقال: عطاء نكد، أي قليل

لا خير فيه، وكذا رجل نكد. قال:

فاعطِ ما أعطيتَـه طيِّباً لا خيرَ في المَنْكُودِ والنَّاكِدِ

وقال:

لا تُنْجِزِ الوَعْدَ إن وَعَدْتَ. وإن أعطيتَ، أعطيتَ تافهاً نَكِدا

تنبيه:

قال ابن عباس في الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

وقال قتادة: المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله، وانتفع به. كالأرض الطيبة أصابها الغيث، فانبتت، والكافر بخلاف ذلك. وهذا كما في الصحيحين[1] عن أبي موسى قال: «قال رسول الله ﷺ: مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضاً، فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فُقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فَعَلِمَ وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يَقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به».

لطيفة:

قال أبو البقاء: يقرأ ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ﴾ بفتح الياء وضم الراء ورفع النبات. ويقرأ كذلك إلا انه بضم الياء، على ما لم يسم فاعله. ويقرأ بضم الياء وكسر الراء ونصب النبات أي: فيخرج اللهُ أو الماء. ثم قال: ويقرأ ﴿نَكِداً﴾ بفتح النون وكسر الكاف، وهو حال، ويقرأ بفتحهما على انه مصدر أي: ذا نكد. ويقرأ بفتح النون وسكون الكاف وهو مصدر أيضاً، وهو لغة ويقرأ يُخرج بضم الياء وكسر الراء، ونكداً مفعوله.

﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ أي: نبين وجوه الحجج ونرددها ونكررها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ يعني كما ضربنا هذا المثل، كذلك نبين الآيات الدالة على التوحيد والإيمان آية بعد آية، وحجة بعد حجة، لقوم يشكرون الله تعالى على إنعامه عليهم بالهداية، وأنْ جَنَّبهم سبيل الضلالة. وإنما خص الشاكرين بالذكر لأنهم هم الذينانتفعوا بسماع القرآن.

---

(١) اخرجه البخاري في: العلم، ٢٠ – باب فضل من عَلِمَ وعلَّم، حديث ٦٨
واخرجه مسلم في: الفضائل، حديث ١٥.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إلى قَوْمِهِ﴾ اعلم أن الله تعالى، لما ذكر في أول السورة قصة آدم، وما اتصل بها من آثار قدرته، وغرائب صنعته الدالة على توحيده وربوبيته، وأقام الحجة الدامغة على صحة البعث بعد الموت - أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وما جرى لهم مع أممهم. قال الرازي: وفيه فوائد:

أحدها: التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبينات، ليس من خواص قوم النبي ﷺ، بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة،والمصيبة إذا عمت خفت، فكان ذكر قصصهم، وحكاية إصرارهم وعنادهم، يفيد تسلية للنبي ﷺ، وتخفيف ذلك على قلبه.

ثانيها: أنه تعالى يحكي في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن في الدنيا، والخسارة في الآخرة، وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة في الدنيا، والسعادة في الآخرة، وذلك يقوي قلوب المحقين، ويكسر قلوب المبطلين.

وثالثها: التنبيه على أنه تعالى، وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين، ولكنه لا يهملهم، بل ينتقم منها على أكمل الوجوه

ورابعها: بيان هذه القصص دالة على نبوة محمد ﷺ، لأنه كان أمياً، وما طالع كتاباً، ولا تلمذ أستاذاً. فإذا ذكرهذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ، دلّ ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله تعالى.

ونوح عليه السلام هو آبن لامَك بن مَتُوشَالَحَ بن أخنوخَ بن يارِدَ بن مَهْلَئِيل بن قَيْنانَ بن أنُوشَ بن شيث بن آدم عليه السلام. هكذا نسبه ابن إسحاق وغير واحد من الأئمة، وأصله من التوراة.

ومعنى (أرسلنا) بعثنا، وهو أول نبيّ بعثه الله بعد إدريس. كذا في (اللباب). وإدريس هو أخنوخ - فيما يزعمون، قاله ابن كثير- : قال محمد بن إسحاق: ولم يلق نبيّ من قومه من الأذى مثل نوح، إلا نبيّ قتل. وقال يزيد الرقاشي: إنما سمي نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه - انتهى. وفيه نظر. لأنه إنما يصح ما ذكره، لو كان (نوح) لقباً مع وجود اسم له غيره، واللفظ عربيّاً، لمناسبة الاشتقاق. أما وهو اسمه

الوضعي، واللفظ غير عربي، فلا. وفي كتاب (تأويل الأسماء الواقعة في الكتب السالفة) أن نوحاً معناه راحة أو سلوان، فتثبَّتْ.

وكان، قبل بعثة نوح عليه السلام، قوم عرفوا الله وعبدوه خصوصاً في عائلة شيث عليه السلام، ثم فسد نسل شيث أيضاً، واختلطوا مع الأشرار، وامتلأت الأرض من جرائمهم، وزاغوا عن الصراط المستقيم، وصاروا يعبدون الأوثان والأصنام، فأرسل الله تعالى إليهم نوحاً عليه السلام، ليدلهم على طريق الرشاد.

قال ابن كثير: قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: كان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجد، وصوروا صور أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين: وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً. فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه — وله الحمد والمنة — رسوله نوحاً فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَقَالَ يا قَوْمِ﴾ أي: الذين حقهم أن يشاركوني في كمالاتي ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِّنْ إلهٍ﴾ أي: مستحق للعبادة في الوجود ﴿غَيْرُهُ﴾ قرئ بالحركات الثلاث، فالرفع صفة لإله، باعتبار محله الذي هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية، وبالجر على اللفظ، وبالنصب على الاستثناء، وحكم (غير) حكم الاسم الواقع بعد (إلا)، أي: ما لكم من إله إلا إياه ﴿إنِّي أخافُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إن تركتم عبادته أو عبدتم غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به، أو يوم نزول العذاب عليهم، وهو الطوفان. ووصف اليوم بـ (العظم) لبيان عظم ما يقع فيه، وتكميل الإنذار.

قال الزمخشري: فإن قلت: فما موقع الجملتين بعد قوله ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ قلت: الأولى — بيان لوجه اختصاصه بالعبادة، والثانية — بيانٌ للداعي إلى عبادته، لأنه هو المحذور عقابه، دون ما كانوا يعبدونه من دون الله.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾

﴿قَالَ الْمَلأُ من قَوْمِه﴾ أي: الأشراف، أو الجماعة، أو ذوو الشارة والتجمع ﴿إنّا لَنراكَ﴾ أي: بامرك بعبادة الله، وترك عبادة غيره وتخويف العذاب على ترك عبادة الله، وعلى عبادة غيره ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: في ذهاب عن طريق الحق والصواب،

لكونه خلاف ما وجدنا عليه آباءنا. قال ابن كثير: وهكذا حال الفجار، إنما يرون الأبرار في ضلالة، كقوله ﴿ وإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُواْ إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ ﴾ [المطففين: ٣٢]. ﴿ وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونا إِلَيْهِ وإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف: ١١] إلى غير ذلك من الآيات.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾

﴿ **قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بي ضَلالةٌ ولَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العالمينَ** ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

﴿ **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي** ﴾ أي: ما أوحي إليّ في الأوقات المتطاولة، أو في المعاني المختلفة، من الأوامر والنواهي، والمواعظ والزواجر، والبشائر والنذائر. ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جدّه، إدريس، فهذا نكتة جمع (الرسالات)، وإلا فرسالة كل نبيّ واحدة، وهي مصدر، والأصل فيه أن لا يجمع، فجمع لِما ذُكِرَ ﴿ **وأنصَحُ لَكُمْ** ﴾ وأقصد صلاحكم بإخلاص ﴿ **وأعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ** ﴾ أي: من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا من طريق الوحي، أشياء لا علم لكم بها، أو أعلم من قدرته الباهرة، وشدة بطشه على أعدائه، وأن بأسه لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين ما لا تعلمونه. قال ابن كثير: وهذا شأن الرسول أن يكون مبلّغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله، لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم[1] أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة، وهم أوفر ما كانوا وأكثر

(١) أخرجه مسلم في: الحج، حديث ١٤٧ ونصه: فخطب الناس وقال «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية، تحت قدميّ موضوع. ودماء الجاهلية موضوعة. وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث. كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل. وربا الجاهلية موضوع. وأول ربا أضع ربانا. ربا العباس بن عبد المطلب. فإنه موضوع كله. فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله. واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه. فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرّح. ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به. كتاب الله. وأنتم تُسألون عني. فما أنتم قائلون؟».
قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحت فقال بإصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس «اللهم! اشهد. اللهم! اشهد» ثلاث مرات...

جميعاً: أيها الناس! إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحتَ. فجعل يرفع إصبعه إلى السماء، وينكسها عليهم ويقول: اللهم اشهد، اللهم اشهد.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿**أوَ عَجِبْتُمْ أن جاءكُمْ ذِكْرٌ**﴾ أي: موعظة ﴿**مِّن رَّبِّكُمْ على رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ**﴾ أي: من العذاب إن لم تؤمنوا ﴿**ولِتَتَّقُوا**﴾ أي: وليوجد منكم التقوى، وهي الخشية بسبب الإنذار ﴿**ولَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ أي: ولترحموا بالتقوى إن وُجِدَتْ منكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿**فَكَذَّبُوهُ**﴾ أي أصروا على تكذيبه مع طول مدة إقامته فيهم ولم يؤمن معه منهم إلا قليل ﴿**فأنجيْناهُ والَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وأغْرَقْنا الَّذِينَ كَذَّبوا بآياتِنا إنَّهُمْ كانوا قَوْماً عَمِينَ**﴾ أي عن الحق، فلم يستبصروا الحق ولم يستنيروا بنور الوحي الذي هو كالشمس، ولا بظهور الآيات، ولا بآية الطوفان المغرق لهم، بعد إنذاره به، على تكذيبهم والعمى ذهاب بصر العينين، وبصر القلب. يقال: عَمِي فهو أعمى وعَمٍ. كما في القاموس.

وكان من أمر نوح عليه السلام، أن قومه، لما أعرضوا عن الإيمان، وتمادوا على العصيان، وعبدة الأوثان، وطال عليه أمرهم، شكاهم إلى الله تعالى، فأوحى الله إليه أنه ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾ [هود:٣٦]، وهم ناس قليل، فحينئذ دعا عليهم فقال: ﴿وَقالَ نُوحٌ رَّبٌّ لا تَذَرْ على الأرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح:٢٦]. فأوحى الله إليه أن يصنع السفينة، وصار قومه يسخرون منه، ويقولون: يا نوح! قد صرت نجاراً بعد النبوة! فقال: ﴿إن تَسْخَرُوا مِنَّا فإنَّا نَسْخَرُ منكُمْ كما تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ من يأْتيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ ويَحِلُّ عَلَيهِ عَذابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود:٣٨-٣٩]. فلما فرغ من صنع السفينة، أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات، حتى لا ينقطع نسلها. وحشرها إليه من كل جهة. ولما رأى فوران

التنور، وكان هو العلامة بينه وبين الله تعالى في ابتداء الطوفان، ركب الفلك هو ومن آمن معه، وحمل من كلٍّ زوجين اثنين. وأمر الله تعالى السماء أن تمطر. والأرض أن تتفجر عيوناً، وارتفع الماء في هذا الطوفان فوق رؤوس الجبال، فهلك جميع ما على الأرض من جنس الحيوان، ولم يبق حيّاً غير أهل السفينة.

وفي التوراة: أن الأمطار هطلت أربعين يوماً وليلة دون انقطاع، حتى غمرت المياه وجهَ الأرض، وَعَلَتْ خمسة عشر ذراعاً فوق الجبال الشامخة، وهلك بالطوفان كل جسم حي. ثم أرسل الله ريحاً عاصفة، فانقطعت الأمطار ونقصت المياة شيئاً فشيئاً، وقضى نوح سنة كاملة داخل الفلك. وحين خروجه منه بنى مذبحاً للقرابين، شكراً للّه تعالى، وتناسلت الناس من أولاد نوح الثلاثة: سامٍ وحامٍ ويافث. وتوطن سام بلاد آسية، وأقام حام بنواحي إفريقية، وسكن يافث الديار الأوروبية – والله أعلم

تنبيه:

قال الجشمي: في الآيات فوائد. منها: أن نوحاً دعاهم أولاً إلى التوحيد. والرسولُ وإن حمل الشرائع، فلا طريق له إلى بيان الشرائع إلا بعد العلم بالتوحيد. ولأنهم لا ينتفعون بذلك إلا بعد اعتقاد التوحيد، فلذلك بدأ به. وجميع الرسل بدءوا بالتوحيد ثم بالشرائع. ولذلك كان أكثر حجاج نبينا عليه السلام، بمكة، في التوحيد – انتهى – .

وقال ابن كثير: بين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم الكافرين، كقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر:٥١]. الآية – وهذه سنة الله في عباده، في الدنيا والآخرة، أن العاقبة للمتقين، والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح بالغرق، ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين. قال مالك عن زيد بن أسلم: كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز.

قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في قصة

نوح. أي وأرسلنا إلى عادٍ، وهي قبيلة كانت تعبد الأصنام، وكانت ذات بسطة وقوة، قهروا الناس بفضل القوة.

قال الشهاب: (عاد) اسم أبيهم سميت به القبيلة أو الحيّ فيجوز صرفه وعدمه، كثمود – كما ذكره سيبويه –.

قال الليث: وعاد الأولى، وهم عاد بن عاديا بن سام بن نوح الذين أهلكهم الله.

قال زهير:

* وَأَهْلَكَ لُقْمَانَ بْنَ عادٍ وَعَادِياً *

وأما عاد الأخيرة، فهو بنو تميم، ينزلون رمال عالج.

وفي كتاب الأنساب: عاد هو ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح، كان يعبد القمر، ويقال إنه رأى من صلبه وأولاد أولاده أربعة آلاف، وأنه نكح ألف جارية، وكانت بلادهم إرم المذكورة في القرآن، وهي من عُمان إلى حضرموت. ومن أولاده شدّاد بن عاد صاحب المدينة المذكورة – كذا في تاج العروس–.

وقال ابن عرفة: قوم عاد كانت منازلهم في الرمال وهي الأحقاف.

وقال ابن إسحاق: الأحقاف رمل فيما بين عُمان إلى حضرموت.

وقوله تعالى: ﴿أَخَاهُمْ هُوداً﴾ أي أخاهم في النسب، لأنه منهم، في قول النسابين. وقيل: الناس كلهم إخوة في النسب، لأنهم ولد آدم وحواء. فالمراد صاحبهم، وواحد في جملتهم، كما يقال: يا أخا العرب، للواحد منهم. وإنما أرسل منهم، لأنهم أفهم لقوله من قول غيره، وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وشرف أصله، وأرغب في اقتفائه.

قال الشهاب: اشتهر أن هوداً عربي، وظاهر كلام سيبويه أنه أعجمي، ويشهد له ما قيل: إن أول العرب يعرب – انتهى –.

وهود هو – على ما قال ابن إسحاق – ابن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح. ويقال غير ذلك – والله أعلم –.

وروى ابن إسحاق بن عامر بن واثلة، قال: سمعت علياً يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مَدَرَةٌ حمراء، ذا أراكٍ وسدرٍ كثير، بناحية

كذا وكذا، من أرض حضرموت، هل رأيته. قال: نعم، يا أمير المؤمنين! والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه! قال: لا، ولكني قد حُدِّثت عنه. فقال الحضرمي. وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبر هود عليه السلام - ورواه ابن جرير- . قال ابن كثير: وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، فإن هوداً عليه السلام دفن هناك. وقال: إنهم كانوا يأوون إلى العُمُد في البر، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمادِ الَّتي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها في الْبِلادِ ﴾ [الفجر: ٦-٨]. وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿ فأمَّا عَادٌ فاستَكْبَرُوا في الأرْضِ بغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً، أو لَمْ يَرَواْ أنَّ اللَّه الَّذي خَلَقَهُمْ هَو أشَدُّ مِنْهُم قُوَّةً، وكانُوا بآياتنا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت: ١٥]. ولذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده، لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه، كما قال تعالى ﴿ قالَ ﴾ أي: هود ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ أي: الذين حقهم أن يكونوا مثلي ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي: وحدَه ﴿ ما لَكُمْ مِّنْ إلهٍ غَيْرُهُ أفلاَ تَتَّقُونَ ﴾ أي: تخافون عذابه.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إنَّا لَنراكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ أي: في خفة حلم، وسخافة عقل، حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر، وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز، أرادوا أنه متمكن فيها، غير منفكّ عنها ﴿ وإنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أي: في إدعائك الرسالة، إذا أستبعدوا أن يرسل الله أحداً من أهل الأرض إليهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾

﴿ قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بي سَفَاهَةٌ ولَكِنّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعالَمِينَ ﴾ أي: إليكم، لإصلاح أمر نشأتيكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبّي وأنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أمينٌ ﴾ أي: ناصح لكم فيما آمركم به من

عبادته تعالى وحده، وأمين على تبليغ الرسالة، لا أكذب فيه.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

﴿**أوَ عَجِبْتُمْ أن جاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ**﴾ أي: أيامَ الله ولقاءه، أي: لا تعجبوا واحمدوا الله على ذلكم، ﴿**واذْكُرُوا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ**﴾ أي خلفتموهم في مساكنهم، أو في الأرض بأن جعلكم ملوكاً بعدهم، فإن شدّاد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض من رمل عالج إلى شحْر عُمَان – كذا قالوا – ﴿**وزادكُمْ فِي الْخَلْقِ بصْطَةً**﴾ أي قامة وقوة ﴿**فاذْكُروا آلآء اللّهِ**﴾ أي: في استخلافكم، وبسطة أجرامكم، وما سواهما من عطاياه، لتخصصوه بالعبادة ﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون**﴾ أي تفوزون بالفلاح.

تنبيهان:

الأول قال الزمخشري: في إجابة الأنبياء عليهم السلام، مَنْ نَسَبَهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء، وتارك المقابلة بما قالوا لهم، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم – أدب حسن، وخلق عظيم. وحكايةُ الله عز وجل ذلك، تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم، على ما يكون منهم – انتهى–.

وزاد القاضي: إن في ذلك كمال النصح والشفقة، وهضم النفس، وحسن المجادلة قال: وهكذا ينبغي لكل ناصح – انتهى–.

الثاني– لا يعتمد على ما يذكره بعض المؤرخين المولعين بنقل الغرائب، بدون وضعها على محك النظر والنقد، من المبالغة في طول قوم عاد، وضخامة أجسامهم، وأن أطولهم كان مائة ذراع، وأقصرهم كان ستين ذراعاً، فإن ذلك لم يقم عليه دليل عقلي ولا نقلي، وهو وهْم. وأما قوله جل شأنه مخاطباً لقوم عاد ﴿**وَزادَكُمْ في الْخَلْقِ بَصْطَةً**﴾ فإنه لا يدل على ما أرادوا، وإنما يدل على عظم أجسامهم وقوتهم وشدتها. وهذا من الأمور المعتادة. فإن الأمم ليست متساوية في ضخامة الجسم وطوله وقوته، بل تتفاوت لكن تفاوتاً قريباً. ومما يدل على أن أجسام من سلف

كأجسامنا، لا تتفاوت عنها تفاوتاً كبيراً، مساكنُ ثمود قوم صالح الباقية، وآثارهم البادية. ومثله، بل أعرق منه في الوهم، ما ينقلونه في وصف عوج بن عنق الجبار ملك بيسان، من أنه كان يحتجز بالسحاب ويشرب منه من طوله، ويتناول الحوت من قرار البحر، فيشويه بعين الشمس، يرفعه إليها. والحال أن الشمس كوكب لا مزاج له من حر أو برد، وإنما حرارتها من انعكاس شعاعها، بمقابلة سطح الأرض والهواء، فشدة حرارتها في الأرض، وتتناقص الحرارة فيما علا عنها بمقدار الارتفاع.

وقد أنكر العلامة ابن خلدون جميع ذلك في (مقدمة تاريخه)، وأبان أن الذي أدخل الوهم على الناس في طول الأقدمين هو ما يشاهدونه من بعض آثارهم الجسمية، ومصانعهم العظيمة، كأهرام مصر وإيوان كسرى، فيتخيلون لأصحابها أجساماً تناسب ذلك. والحال أن عظم هذه المصانع والآثار في أمة من الأمم ناشئ عن عظم ذواتها، وإساع ممالكها، وقوة شوكتها، ونماء ثروتها، واستعانتها بالماهرين في فنِّ جرّ الأثقال، فإنه يقوم بحمل ما تعجز القوى البشرية عن عشر معشاره. وأنكر أيضاً ما ينقلون من قصة جنة عاد، وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب، وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة، وأنها بنيت في مدة ثلاثمائة سنة في صحارى عدن. بناها شداد بن عاد حيث سمع وصف الجنة. وأنها لما تم بناؤها، أرسل الله على أهلها صيحة، فهلكوا كلهم، وأن اسمها (إرم ذات العماد) وأنها المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر:٦-٨] ويزعمون أنه لم تزل باقية في بلاد اليمن، وإنما حجبت عن الأبصار. وحيث إن ذلك لم يُرو عن الصادق الأمين فلا نعول عليه، ولا نلتفت إليه. وأغلب المولعين بنقل مثل هذه الغرائب المصنعة، هم المؤرخون الذين يعتمدون على أخبار بني إسرائيل، ويقلدونهم من غير برهان ودليل، والله الهادي إلى سواء السبيل - كذا أفاده بعض المحققين -.

ثم أخبر تعالى عن تمرد عاد وطغيانهم وإنكارهم على هود عليه السلام، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾

﴿ قالوا أجِئتنا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ ﴾ أي لنخصه بالعبادة ﴿ وَنذَر ما كانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنا

فأتنا بما تَعِدُنا ﴾ أي من العذاب المدلول عليه بقوله تعالى : (أفلا تَتَقُون) ﴿ **إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ أي في الإخبار بنزول العذاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾

﴿ **قالَ قَدْ وقعَ عليكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ** ﴾ أي عذاب. والرجس والرجز بمعنى، حتى قيل إن أحدهما مبدل من الآخر، كالأسد والأزد. وأصل معناه الاضطراب. يقال: رجست السماء: رعدت شديداً وتمخضت، وهم في مرجوسة من أمرهم، أي في اختلاط والتباس، ثم شاع في العذاب لإضطراب من حلّ به. وادعى بعضهم أن الرجس بمعنى العذاب مجاز، قال: لأنه حقيقة في الشيء القذر، فاستعير لجزائهم. وظاهر اللغة أنه حقيقة. ووجه التعبير بالمضي عما سيقع، تنزيل المتوقع كالواقع كما في ﴿ أتَى أمْرُ اللَّهِ ﴾ [النحل:١] ﴿ **وغَضَبٌ** ﴾ أي سخط لإشراككم معه من هو في غاية النقص، في أعلى كمالاته التي هي الإلهية ﴿ **أتُجَادِلُونَنِي في أسْماءٍ سَمَّيْتُوها أنتمْ وآباؤُكُمْ** ﴾ أي في أشياء ما هي إلا أسماء و ليس تحتها مسميات، لأنكم تسمونها آلهة، ومعنى الإلهية فيها معدوم ومُحالٌ وجوده. وهذا كقوله تعالى: ﴿ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [العنكبوت:٤٢] كذا في الكشاف -.

قال الشهاب: جعل الأسماء عبارة عن الأصنام الباطلة، كما يقال لما لا يليق: ما هو إلا مجرد اسم. فالمعنى: أتجادلونني في مسميات لها أسماء لا تليق بها، فتوجه الذم للتسمية، الخالية عن المعنى. والضمير حينئذ راجع لـ(أسماء) وهي المفعول الأول للتسمية، والثاني آلهة، ولو عكس لزم الاستخدام - انتهى -.

وقوله تعالى: ﴿ **ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِن سُلْطَانٍ** ﴾ أي حجة ودليل على هذه التسمية، لأن المستحق للمعبودية بالذات ليس إلا من أوجد الكل، وإنها لو استحقت لكان ذلك بجعله تعالى، إما بإنزال آية أو نصب حجة وكلاهما مستحيل، فتحقق بطلان ما هم عليه.

قال الجشمي: دلت الآية على فساد التقليد، حين ذمهم بسلوك طريقة آبائهم. وتدل على أن المعارف مكتسبة، وتدل على بطلان كل مذهب لا دليل عليه. ويدل

قوله ﴿أتُجَادِلُونَنِي﴾ على أن المبطل مذموم في جداله، والواجب عليه النظر ليعرف الحق. انتهى.

وقال القاضي: بين تعالى أن منتهى حجتهم وسندهم، أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقيق المسمى، وإسنادَ الإطلاق إلى من لايؤبه بقوله، إظهاراً لغاية جهالتهم، وفرط غباوتهم.

﴿فانتَظِرُوا﴾ أي: نزول العذاب الذي طلبتموه بقولكم ﴿فأتنا بما تَعدُنَا﴾، لأنه وضح الحق، وأنتم مصرّون على العناد ﴿إني مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنتظِرِينَ﴾ أي: لما يحل بكم.

قال المهايمي: جاء منتظرهم بحيث لا ينجو منه، بمجرى العادة، أحد، وجعل من قبيل الريح التي تتقدم الأمطار، لكفرهم برياح الإرسال.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿فأنجَيْناهُ والَّذين مَعَهُ﴾ أي: من آمن به، على خرق العادة ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ ليدل على رحمتنا عليهم في الآخرة ﴿وَقَطَعْنا دَابِرَ الَّذينَ كَذَّبُوا بآياتنا﴾ أي استأصلناهم. قال الشهاب: قطع الدابر، كناية عن الاستئصال إلى إهلاك الجميع، لأن المعتاد في الآفة إذا أصابت الآخر أن تمرّ على غيره، والشيء إذا امتد أصله أخذ برمته. والدابر بمعنى الآخر ﴿وما كَانُوا مُؤْمِنينَ﴾ عطف على ﴿كَذَّبُواْ﴾ داخل معه في حكم الصلة.

قال الزمخشري: فإن قلت: ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله: ﴿وَما كَانُواْ مُؤْمِنينَ﴾ مع إثبات التكذيب بآيات الله؟ قلت: هو تعريض بمن آمن منهم، كمرثد ابن سعد، ومن نجا مع هود عليه السلام، كأنه قال: وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم، ولم يكونوا مثل من آمن منهم، ليؤذن أن الهلاك خص المكذبين، ونجى الله المؤمنين. انتهى -.

قال الطيبي: يعني إذا سمع المؤمن أن الهلاك اختص بالمكذبين، وعلم أن سبب النجاة هو الإيمان لا غير، تزيد رغبته فيه، ويعظم قدره عنده - انتهى -.

قال ابن كثير: قد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن،

بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ﴿ما تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وأمَّا عَادٌ فأُهْلِكُوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتيَةٍ سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وثمانيةَ أيَّامٍ حُسُوماً فَترَى القَوْمَ فيها صَرْعَى كأنَّهُمْ أعْجازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨] لما تمردوا وعتوا، أهلكهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم، فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه، فتثلغ رأسه حتى تُبِينَهُ من جثته.

وقال محمد بن إسحاق: كانت منازل عاد وجماعتهم، حين بعث الله فيهم هوداً، الأحقاف قال: و (الأحقاف) الرملُ، فيما بين عُمان إلى حضرموت، فاليمن كله.

وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض كلها. وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله. وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله: صنم يقال له (صُدَاء) وصنم يقال له (صَمُود) وصنم يقال له (الهباء): فبعث الله إليهم هوداً، وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلهاً غيره، وأن يكفّوا عن ظلم الناس. لم يأمرهم فيما يذكر، والله أعلم، بغير ذلك. فأبوا عليه وكذبوه. وقالوا: ﴿مَنْ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

واتبعه منهم ناس، وهم يسير مكتتمون بإيمانهم. وكان ممن آمن به وصدقه رجل من عاد يقال له (مرثد بن سعد بن عفير) وكان يكتم إيمانه. فلما عتوا على الله تبارك وتعالى وكذبوا نبيهم، وأكثروا في الأرض الفساد، وتجبّروا وبنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع، كلمهم هود فقال: ﴿أتَبْنُونَ بكُلِّ رِيعٍ آيةً تَعْبَثُونَ وتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وإذا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فاتَّقُوا اللَّهَ وأطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١].

﴿قَالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا ببَيِّنَةٍ وما نَحْنُ بتارِكي ءَالِهَتِنا عَن قَوْلِكَ وما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنينَ إن نَّقُولُ إلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٣-٥٥] أي: ما هذا الذي جئتنا به إلا جنون أصابك به بعضُ آلهتنا هذه التي تعيب. ﴿قالَ إنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ واشْهَدُوا أنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنظِرُونَ﴾ إلى قوله ﴿صِراطٍ مُّسْتَقيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

فلما فعلوا ذلك، أمسك الله عنهم المطر من السماء ثلاث سنين، فيما يزعمون - حتى جهدهم ذلك.

وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد، فطلبوا إلى الله الفرج منه، كانت طلبتهم إلى الله عند بيته الحرام بمكة، مسلمهم ومشركهم، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى مختلفةٌ أديانهم، وكلهم معظِّم لمكة، يعرف حرمتها ومكانها من الله.

قال ابن إسحاق: وكان البيت في ذلك الزمان معروفاً مكانه، والحرم قائم فيما يذكرون، وأهل مكة يومئذ العماليق - وإنما سموا (العماليق) لأن أباهم (عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح) - وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة، فيما يزعمون، رجلاً يقال له معاوية بن بكر، وكان أبوه حيّاً في ذلك الزمان، ولكنه كان قد كبر، وكان ابنه يرأس قومه، وكان السؤدد والشرف من العماليق، فيما يزعمون، في أهل ذلك البيت.

وكانت أم معاوية بن بكر، كلهدة ابنة الخبيري، رجل من عاد. فلما قحط المطر عن عاد وجُهدوا قالوا: جهِّزوا منكم وفداً إلى مكة فليستسقوا لكم، فإنكم قد هلكتم! فبعثوا عقيل بن عنز ولقيم بن هزّال بن هزيل، وعتيل بن صُدّ بن عاد الأكبر، ومرثد بن سعد بن عفير، وكان مسلماً يكتم إسلامه، وجُلْهُمة بن الخبيري، خال معاوية بن بكر أخو أمه.

ثم بعثوا لقمان بن عاد بن فلان بن فلان بن صُدّ بن عاد الأكبر. فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم معه رهط من قومه، حتى بلغ عدة وفدهم سبعين رجلاً. فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً من الحرم، فأنزلهم وأكرمهم، وكانوا أخواله وصِهْرَه.

فلم نزل وفد عاد على معاوية بن بكر، اقاموا عنده شهراً يشربون الخمر، وتغنيهم الجرادتان - قينتان لمعاوية بن بكر - وكان مسيرهم شهراً ومقامهم شهراً.

فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم، وقد بعثهم قومهم يتعوّذون بهم من البلاء الذي أصابهم، شق ذلك عليه، فقال: هلك أخوالي وأصهاري! وهؤلاء مقيمون عندي، وهم ضيفي نازلون عليّ! والله ما أدري كيف أصنع بهم؟ أستحي أن آمرهم بالخروج إلى ما بعثوا له فيظنوا أنه ضِيق مني بمقامهم عندي، وقد هلك مَن وراءهم من قومهم جَهْداً وعطشاً! أو كما قال:

فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين، فقالتا: قل شعراً نغنّيهم به، لا يدرون من قاله، لعل ذلك أن يحركهم!.

فقال معاوية بن بكر، حين أشارتا عليه بذلك:

ألا يا قَيْلَ، ويحك! قم فَهَيْنِمْ لعل الله يُصبحُنا غمَاما
فيسقي أرض عادٍ، إنّ عاداً قد امْسَوْا لا يُبينون الكلاما
من العطش الشديد، فليس نَرْجو به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلام
وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهمُ عَيامَى
وإن الوحش تأتيهم جهارا ولا تخشى لعاديٍّ سهاما
وأنتم ها هنا فيما اشتهيتم نهاركُم وليلَكم التمَّاما
فُقبِّح وفدُكم من وفدِ قومٍ ولا لُقُّوا التحية والسلاما

فلما قال معاوية ذلك الشعر، غنتهم به الجرادتان. فلما سمع القوم ما غنَّتا به، قال بعضهم لبعض: يا قوم، إنما بعثكم قومكم يتعوذون بكم من هذا البلاء الذي نزل بهم، وقد أبطأتم عليهم! فادخلوا هذا الحرم واستسقوا لقومكم!.

فقال لهم مرثد بن سعد بن عفير: إنكم والله لا تُسْقَوْن بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم وأنبتم إليه سقيتم! فأظهر إسلامه عند ذلك. فقال لهم جُلْهُمة بن الخيبريّ خال معاوية بن بكر، حين سمع قوله، وعرف أنه قد اتبع دين هود وآمن به:

أبا سعدٍ فإنك من قبيل ذوي كرم وأمُّك من ثمود
فإنّا لن نطيعك ما بقينا ولسنا فاعلين لما تريدُ
أتأمرنا لنترك دين رِفْدٍ ورَمْلَ وآلَ صُدّ والعُبُودِ
ونتركَ دين آباءٍ كرام ذوي رأي، ونَتْبَعَ دينَ هودِ

ثم قالوا لمعاوية بن بكر وأبيه بكر: أحبسا عنا مرثد بن سعد. فلا يقدمن معنا مكة. فإنه قد اتبع دين هود، وترك ديننا!

ثم خرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد. فلما ولَّوْا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية بن بكر حتى أدركهم بها، قبل أن يدعوا الله بشيء مما خرجوا له. فلما انتهى إليهم، قام يدعو الله بمكة، وبها وفد عاد قد اجتمعوا يدعون، يقول: اللهم أعطني سؤلي وحدي ولا تدخلني في شيء مما يدعوك به وفدُ عاد.

وكان قَيل بن عنز رأس وفد عاد.

وقال وفد عاد: اللهم أعط قَيْلا ما سألك، واجعل سؤلنا مع سؤله.

وكان قد تخلف عن وفد عاد حين دعا، لقمانُ بن عاد، وكان سيد عاد.

حتى إذا فرغوا من دعوتهم قام فقال: اللهم إني جئتك وحدي في حاجتي، فاعطني سؤلي.

وقال قَيل بن عنز حين دعا: يا إلهنا، إن كان هود صادقاً فاسقنا، فإنا قد هلكنا.

فانشأ الله لهم سحائب ثلاثاً: بيضاء وحمراء وسوداء. ثم ناداه مناد من السحاب: يا قَيل! اختر لنفسك ولقومك من هذة السحائب. فقال: اخترت السحابة السوداء، فإنها اكثر السحاب ماء. فناده مناد: اخترتَ رَماداً رِمْدَاً، لا تُبقي من آل عاد، احداً، لا والداً تترك ولا ولداً، إلا جعلته همداً إلا بني اللُّوذيَّة المُهَدَّى - وبنو اللوذية، بنو لقيم بن هزّال بن هزيلة بن بكر، وكانوا سكاناً بمكة مع اخوالهم، ولم يكونوا مع عاد بأرضهم، فهم عادٌ الآخرة، ومن كان نسلهم الذين بقوا من عاد - وساق الله السحابة السوداء، فيما يذكرون، التي اختارها قَيْل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد، حتى خرجت عليهم من واد يقال له (المغيث).

فلما رأوها استبشروا بها وقالوا: ﴿ هَذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنا ﴾ يقول الله ﴿ بَلْ هُوَ ما اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أليمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شيْءٍ بِأمْرِ رَبِّها ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥] اي كل شيء أُمِرَتْ به.

وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح، فيما يذكرون، امرأة من عاد يقال لها (مَهْدَد) فما تيقنت ما فيها صاحت ثم صَعِقَتْ. فلما أفاقت قالوا: ماذا رأيت يا مهدد؟ قالت: رأيت ريحاً فيها كشُهُبِ النار، أمامها رجال يقودونها!

فـ﴿ سَخَّرَها ﴾ الله ﴿ عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وثَمانِيَةَ أيَّامٍ حُسُوماً ﴾ [الحاقة: ٧]، كما قال الله - والحسوم الدائمة - فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك. فاعتزل هود، فيما ذكر لي، ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه من الريح، إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ الأنفس.

وإنها لتمرّ على عاد بالظَّعن بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة. وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر وأبيه، فنزلوا عليه..

فبينما هم عنده، إذ اقبل رجل على ناقة له في ليلة مقمرة، مُمْسَى ثالثة في مُصاب عاد. فأخبرهم الخبر، فقالوا له: أين فارقتَ هوداً وأصحابه؟ قال: فارقتهم بساحل البحر

فكأنهم شكّوا فيما حدثهم به، فقالت هزيلة بنت بكر: صدق، ورب الكعبة.

قال ابن كثير: وهو سياق غريب، فيه فوائد كثيرة. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود: ٥٨].

وروى الإمام أحمد[١] عن أبي وائل عن الحارث البكري قال خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالربذة، فإذا بعجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله! إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها، فأتيت المدينة. فإذا المسجد غاصّ بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً. فجلست، فدخل منزله - أو قال رحله - فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت فسلمت، فقال: هل كان بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم. قال وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب، فأذن لها، فدخلتْ. فقلتُ: يا رسول الله! إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً، فاجعل الدهنا. فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله! فإلى أين تضطر مضرك؟ قال قلت: إن مثلي مثل ما قال الأول: (معزاء حملت حتفها) حملتُ هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً. أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد! قال هيه، وما وافد عاد؟ وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه، قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له قَيْل، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان، فلما مضى الشهر، خرج جبل تهامة فنادى: اللهم! إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم! اسق عاداً ما كنت تسقيه! فمرت به سحابات سود، فنودى منها: اخْتَرْ، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رماداً رمدداً، لا تبقي من عاد أحداً. قال: فما بلغني أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا. قال أبو وائل: وصدق. قال: فكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد- هكذا رواه الإمام أحمد في المسند، ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير-.

---

(١) أخرجه في المسند ٣/ ٤٨٢.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

﴿**وإلى ثَمُود**﴾ أي: وأرسلنا إلى ثمود. وهي قبيلة أخرى من العرب سموا باسم جدهم ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح، وهو أخو جديس بن عابر. وكذلك قبيلة طسم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة، قبل إبراهيم الخليل عليه السلام. وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله. وقد مرّ رسول الله ﷺ على ديارهم وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع – نقله ابن كثير –.

وثمود كصبور، وتضم ثاؤه، وقرئ به أيضاً، وقرئ بصرفه ومنعه. أما الثاني فلأنه اسم القبيلة، ففيه العلمية والتأنيث. وأما الأول فلأنه اسم للحيّ، أو لأنه لما كان اسمها الجد، أو القليل من الماء كان مصروفاً، لأنه علم مذكر، أو اسم جنس، فبعد النقل حُكي أصله. كذا في (العناية).

﴿**أخَاهُمْ صالحاً**﴾ هو – على ما قاله علماء التفسير والنسب –: ابن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ﴿**قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِّنْ إلهٍ غَيْرُهُ**﴾ دعاهم عليه الصلاة والسلام بما يدعو به الرسل أجمعون، وهو عبادة الله وحده لا شريك له. كما قال تعالى: ﴿وما أرْسَلْنا من قَبْلكَ من رَّسُول إلاَّ نُوحي إليْه أنَّهُ لا إلهَ إلاَّ أنَاْ فاعْبُدُون﴾ [الأنبياء:٢٥]. وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا في كُلِّ أُمَّة رَّسُولاً أنَ اعْبُدُواْ اللّهَ واجْتَنبُواْ الطّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، ﴿**قَدْ جاءَتكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ أي حجة ظاهرة للدلالة على صحة نبوتي ﴿**هَذه ناقَةُ اللّه لَكُمْ آيَةً**﴾ أي خلقها حجة وعلامةً على رسالتي. وأضافها إليه تفضيلاً وتخصيصاً. كـ(بيت الله)، أو لأنه لا مالك لها غيره تعالى، أو لأنها حجته عليهم في أنهم، إن حفظوها وأطلقو لها رعيها وسقياها حفظوا، وإن غدروا بها أُهلكوا، ولذا قال: ﴿**فَذَرُوها تأكُلْ في أرْضِ اللّه**﴾ أي التي لا يملكها غيره، العشبَ ﴿**ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ**﴾ أي لا تضربوها ولا تطردوها ولا تُريبوها بشيء من الأذى، ولو تأذت منها دوابّكم، إكراماً لآية الله ﴿**فيأخُذَكُمْ عَذابٌ**

أليمٌ﴾ أي: في الدارين لجراءتكم على آيات الله.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

﴿واذْكُروا إذْ جعلَكُمْ خُلفاءَ مِن بَعْد عادٍ﴾ قال الشهاب: لم يقل: خلفاء عاد، إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً ﴿وبوأكُمْ في الأرْضِ﴾ أي: أنزلكم في أرض الحجر. والمباءة المنزل. ﴿تَتَخِذُونَ من سُهُولِها قُصُوراً﴾ أي: تبنون في سهولها قصوراً لتسكنوها أيام الصيف. فـ(من) بمعنى (في)، كقوله تعالى: ﴿نُودِيَ لِلصّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعةِ﴾ [الجمعة:٩]. أو هي ابتدائية، أو تبعيضية، أي: تعملون القصور من مادة مأخوذة من السهل وهي الطين. والسهل خلاف الحَزْن، وهو موضع الحجارة والجبال ﴿وتَنْحتُونَ الْجبالَ بُيُوتاً﴾ أي: لتسكنوها أيام الشتاء. والجبال إما مفعول ثان بتضمين (نَحَتَ) معنى (اتخذ)، أو منصوب بنزع الخافض، على ما جاء في الآية الأخرى: والنحت معروف في كل صلب. ومضارعه مكسور الحاء. وقرأ الحسن بالفتح لحرف الحلق: وقرئ تنحاتون بالإشباع، كـ(ينباع)، أفاده الشهاب.

بحث الإشباع في وسط الكلمة:

أقول: بهذه القراءة يستدل على ثبوت الإشباع في وسط الكلمة لغة. ومثله (ينباع) المذكورة، وهي من قول عنترة:

* يَنْباعُ من ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ *

أي ينبع العرق من خلف أذن ناقة غضوب، فأشبع الفتحة لإقامة الوزن، فتولّدت من إشباعها ألف. ومثله قولنا (آمين)، والأصل (أمين) فأشبعت الفتحة، فتولدت من إشباعها ألف - قاله الزوزني -.

ومثله (استكان) على القول بأنه افتعل من (السكون) فزيدت الألف لإشباع الفتحة كما في (شرح الشافية).

ومنه (عَقْرَاب) - قال في (تاج العروس): سمع العَقْرَاب في اسم الجنس. قال:

أعوذ بالله من العَقْرَابِ الشائلاتِ عُقَدَ الأذْنابِ

قال: وعند أهل الصرف ألف (عقراب) للإشباع، لفقدان (فعلال) بالفتح – انتهى –.

وقوله تعالى: ﴿فاذكُروا آلآءَ اللهِ﴾ أي نعمه عليكم لتصرفوها إلى ما خلقها لأجله ﴿ولا تعْثَوْا في الأرضِ مُفْسِدينَ﴾ بالمعاصي وعبادة غيره تعالى.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾

﴿قالَ المَلأُ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي عن الإيمان بعد ظهور آية الناقة والكلمات الناصحة ﴿مِن قَوْمِهِ لِلَّذينَ اسْتُضْعِفُواْ﴾ أي استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم، إذ لم يكن لهم استكبار يمنعهم من الانقياد ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من (الَّذينَ اسْتُضْعِفُواْ) بإعادة الجار، بدل الكل، إن كان الضمير لقومه، فيدل على أن استضعافهم كان مقصوراً على المؤمنين. وبدل البعض إن كان الضمير ﴿لِلَّذينَ اسْتُضْعِفُواْ﴾ فيدل على أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين. قال أبو السعود: والأول هو الوجه، إذ لا داعي إلى توجيه الخطاب أولاً إلى جميع المستضعفين، مع أن المجاوبة مع المؤمنين منهم. على أن الاستضعاف مختص بالمؤمنين، أي قالوا للمؤمنين الذين استضعفوهم واسترذلوهم ﴿أتَعْلَمُونَ﴾ أي من آية الناقة ومن الكلمات الناصحة ﴿أنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ إليكم لعبادته تعالى وحده لا شريك له.

وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء، لأنهم يعلمون بأنهم عالمون بذلك، ولذلك لم يجيبوهم على مقتضى الظاهر، بل عدلوا منه، كما قال تعالى: ﴿قالُوا إنّا بِما أُرْسِلَ بِه مُؤْمِنُونَ﴾ عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا (نعم) أو (إنه مرسل منه تعالى)، مسارعة إلى تحقيق الحق، وإظهار ما لهم من الإيمان الثابت المستمر الذي تنبئ عنه الجملة الاسمية، وتنبيهاً على أن أمر إرساله من الظهور بحيث لا ينبغي أن يسأل عنه، وإنما الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به. أفاده أبو السعود.

فهذا من الأسلوب الحكيم، وهو تلّقي السائل والمخاطب بخلاف ما يترقب،

تنبيهاً على انه هو الذي ينبغي أن يسأل عنه.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾

﴿قالَ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إنَّا بالَّذي آمنتُم به كافِرُونَ﴾ وإنما لم يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون، إظهاراً لمخالفتهم إياهم، وردًا لمقالتهم.

قال في (الانتصاف): ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون، ولكن أبَوْا ذلك حذراً مما في ظاهره من إثباتهم لرسالته، وهم يجحدونها، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم، كما قال فرعون: ﴿إنَّ رَسُولَكُمُ الَّذي أُرْسِلَ إلَيْكُم لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧]، فاثبت إرساله تهكماً، وليس هذا موضع التهكم، فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين، والمكذبين، عن حاله، فلهذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة، إحتياطاً للكفر، وغلواً في الإصرار - انتهى - ولذلك أنكروا آية الناقة وكذبوه في إصابة العذاب عن مسها بالسوء. كما قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾

﴿فَعَقَرُوا النَّاقةَ﴾ أي نحروها. والعقر: الجرح، وأثَرٌ كالخزّ في قوائم الفرس والإبل. يقال: عقره بالسيف يعقره بالكسر، وعقّره تعقيراً، قطع قوائمه بالسيف وهو قائم.

قال الأزهري: العقر عند العرب كشف عرقوب البعير، ثم يجعل النحر عقراً، لأن ناحر الإبل يعقرها: ثم ينحرها.

وفي اللسان: عَقَر الناقة وعقَّرها، إذا فعل بها ذلك حتى تسقط، فينحرها مستمكناً منها، أي: لئلا تشرد عند النحر.

وفي الحديث[1]: لا عقر في الإسلام.

قال ابن الأثير: كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى، أي ينحرونها ويقولون إن

---

(١) أخرجه ابو داود في: الجنائز، ٧٠ - باب كراهية الذبح عند القبر، حديث رقم ٣٢٢٢.

صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته، فنكافئه بمثل صنيعه بعد وفاته. كذا في (تاج العروس)–.

وأسند العقر إلى جميعهم، لأنه كان برضاهم، وإن لم يباشره إلا بعضهم. ويقال للقبيلة الضخمة: أنتم فعلتم كذا وما فعله إلا واحد منهم. كذا في (الكشاف).

قال أبو السعود: وفيه من تهويل الأمر وتفظيعه، بحيث أصابت غائلته الكل، ما لا يخفى.

﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي استكبروا عن امتثاله، وهو عبادته وحده، أو الحذر من مسّ الناقة بسوء. وزادوا في الاستهزاء ﴿ وَقَالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا ﴾ أي: من العذاب على عقر الناقة. والأمر للاستعجال لأنهم يعتقدون أنه لا يتأتى ذلك، ولذا قالوا: ﴿ إن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي فإن الله ينصر رسله على أعدائه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾

﴿ فأخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أي: الصيحة التي يحصل منها الزلزلة الشديدة بدل صوت الناقة عند عقرها، وبدل حركتها عند نزع الروح ﴿ فأصْبَحُوا في دَارِهِمْ ﴾ في بلادهم أو مساكنهم ﴿ جاثِمينَ ﴾ أي: ساقطين على وجوههم، هامدين لا يتحركون، ميتين بدل موت الناقة وسقوطها. والصيحة والزلزلة من آثار الريح المرسلة التي كانت رحمة فانقلبت عذاباً.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

﴿ فَتَوَلَّى ﴾ أي فأعرض صالح ﴿ عَنْهُمْ وقالَ يا قَوْمِ لَقدْ أبْلَغْتُكُمْ رِسالةَ رَبّي ﴾ المتضمنة لتخويف العذاب عنه ﴿ ونَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ فامرتكم بكل خير، ونهيتكم عن كل شر ﴿ ولَكِن لا تُحِبُّونَ النّاصِحينَ ﴾ أي من الرسل والأنبياء والعلماء لمخالفتهم أهويتكم. والظاهر أن صالحاً عليه السلام كان مشاهداً لما جرى عليهم، وأنه تولى عنهم، بعد ما أبصرهم جاثمين، تولّيَ مُغْتَمٍّ متحسر على ما فاته من إيمانهم، يتحزن لهم بقوله ﴿ يا قَوْمِ... ﴾ الخ كذا في (الكشاف). أو خاطبهم خطاب رسول الله ﷺ

أهل قليب بدر حيث قال[(١)]: إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً. - كما رواه البخاري - لا تحزناً، ولكن إعلاماً بنصر الله له، وتحقيق رسالته، زيادة في حزنهم وتوبيخهم، فإن الأحياء ليسوا بأسمع منهم، ولكن لا يتكلمون. كما في (الصحيح). ويجوز عطف قوله ﴿فَتَوَلَّى﴾ على قوله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، فيكون الخطاب لهم حين أشرفوا على الهلاك، لا بعده. فيكون عليه السلام تولى عنهم تولي ذاهب عنهم، منكرٍ لإصرارهم حين رأى علامات نزول العذاب. والمتبادر الأولُ لظهور الفاء في التعقيب - والله أعلم -.

تنبيهات

الأول: نأثر هنا ما رواه علماء التاريخ والنسب في بسط قصة ثمود، لمكان العظة والاعتبار مفصلاً. وإلا، فجلي أن ما أجمله التنزيل الكريم لا غاية وراءه في ذلك، وما سكت عن بيانه من تلك القصص، فلا حاجة إلى السعي وراءه لفقد القطع به، اللهم إلا لزيادة الاتعاظ، وتقوية العبرة، ولذا صح عنه ﷺ أنه قال[(٢)]: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

وخلاصة ما رووه عن ثمود أن عاداً لما هلكت، عمرت ثمود بلادها، وخلفوهم في الأرض، وكانوا في سعة ورخاء من العيش، فعتوا على الله، وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأوثان، فبعث الله تعالى إليهم صالحاً عليه السلام، وكانوا قوماً عرباً، وصالح من أوسطهم نسباً، فدعاهم إلى عبادته تعالى وحده، فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون، فحذرهم وأنذرهم، فسألوه آية، واقترحوا عليه بأن يخرج لهم ناقة عُشَرَاءَ، تمخض من صخرة صماء، عينوها بأنفسهم، وكانت صخرة منفردة في ناحية الجبل، يقال لها (الكاثبة)، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق: لئن أجابهم الله إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه. فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح عليه السلام إلى صلاته، ودعا الله عز وجل، فتحركت تلك الصخرة، ثم انصدعت

---

(١) أخرجه البخاري في: الجنائز، ٨٧ - باب ما جاء في عذاب القبر، حديث ٧٢٦ ونصه: عن ابن عمر قال: اطلع النبيّ ﷺ على أهل القليب فقال «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً»؟
فقيل له: تدعو أمواتاً؟
فقال: «ما أنتم بأسمع منهم. ولكن لا يجيبون».

(٢) أخرجه البخاريّ في: الأنبياء، ٥٠ - باب ما ذكر عن بني إسرائيل حديث ١٦٢٤ ونصه: عن عبد الله بن عَمْرٍو أن النبيّ ﷺ قال: بلّغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار.

عن ناقة جوفاء وَبْرَاء، يتحرك جنينها بين جنبيها، كما سألوا. فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا، فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد، والخباب صاحب أوثانهم، ورباب بن صعمر بن جلمس. وكان لجندع بن عمرو ابن عم له، شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن جواس، وكان من أشراف ثمود وافاضلها، فأراد أن يسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم، فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود يقال له مهوش بن عنمة بن الزميل، رحمه الله:

وكانت عصبةٌ من آل عمرو … إلى دين النبيّ دَعَوْا شِهابا
عزيزَ ثمودَ كلَّهمُ جميعاً … فهمَّ بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالحٌ فينا عزيزاً … وما عدلوا بصاحبهم ذُؤابا
ولكن الغواة مِنَ آل حجْر … تولوا بعد رشدهُم ذُباباً

وأقامت الناقة وفصيلها، بعد ما وضعته، بين أظهرهم مدة، تشرب من بئرها يوماً، وتدعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال في الآية الأخرى ﴿ونَبِّئْهُمْ أنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ، كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر:٢٨] وقال تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَّها شِرْبٌ ولَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥]. وكانت تسرح في بعض تلك الأودية، ترد من فج، وتصدر من غيره، ليسعها. لأنها كانت تتضلع من الماء، وكانت – على ما ذكر – خلقاً هائلاً، ومنظراً رائعاً، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها. فما طال عليهم ذلك، واشتد تكذيبهم لصالح النبيّ عليه السلام، عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم. فيقال إنهم اتفقوا كلهم على قتلها. قال قتادة: بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون لقتلها، حتى على النساء في خدورهن. قال ابن كثير: قلت وهذا هو الظاهر لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسوَّاها﴾ [الشمس:١٤]، وقال ﴿وآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فظَلَمُوا بِها﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف:٧٧]. فاسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رضى جميعهم بذلك – والله أعلم –.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير، وغيره من علماء التفسير، أن سبب قتلها، أن إمرأة من ثمود يقال لها (عنيزة بنت غنم بن مجلز، تكنى بأم غنم، وهي من بني عبيد بن المهل، أخي رُميل بن المهل، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو، وكانت عجوزاً مسنة، وكانت ذات بنات حسان، وكانت ذات مال من إبل وبقر وغنم.

وامرأة أخرى يقال لها (صدوف بنت المحيّا بن دهر بن المحيّا) سيّد بني عبيد وصاحب أوثانهم في الزمن الأول. وكان الوادي يقال له (وادي المحيّا) وهو المحيّا الأكبر، جدّ المحيّا الأصغر أبي صدوف.

وكانت صدوف من أحسن الناس، وكانت غنية ذات مال من إبل وغنم وبقر.

وكانتا من أشد امرأتين في ثمود عداوة لصالح، وأعظمه به كفراً.

وكانتا تحتالان ان تُعقر الناقة مع كفرهما به، لما أضرّت به من مواشيهما.

وكانت صدوف عند ابن خال لها يقال له (صنتم بن هراوة بن سعد بن الغطريف) من بني هلس، فأسلم وحسن إسلامه.

وكانت صدوف قد فوّضت إليه مالها، فانفقه على من أسلم معه من أصحاب صالح، حتى رقّ المال.

فاطلعت على ذلك من إسلامه صدوفُ، فعاتبته على ذلك، فـأظهر لها دينه، ودعاها إلى الله وإلى الإسلام فأبت عليه وبيّتت له. فأخذت بنيه وبناته منه فغيبّتهم في بني عبيد، بطنِها الذي هي منه.

وكان صنتم زوجُها من بني هليل، وكان ابن خالها. فقال لها: ردّي عليّ ولدي. فقالت: حتى أنافرك إلى بني صنعان بن عبيد أو إلى بني جندع بن عبيد. فقال لهم صنتم: بل أنافرك إلى بني مرداس بن عبيد. وذلك أن بني مرداس بن عبيد كانو قد سارعوا في الإسلام وأبطأ عنه الآخرون.

فقالت لا أنافرك إلا إلى من دعوتك إليه.

فقال بنو مرداس: والله لتعطِنّه ولده طائعة أو كارهة.

فلما رأت ذلك أعتطته إياهم.

ثم إن صدوف وعنيزة مَحَلَتَا في عقر الناقة للشقاء الذي نزل. فدعت صدوف رجلاً من ثمود يقال له (الحباب) لعقر الناقة، وعرضت عليه نفسها بذلك إن هو فعل فأبى عليها. فدعت ابن عم لها يقال له (مصدع بن مهرج بن المحيا) وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة. وكانت من أحسن الناس، وكانت غنية كثيرة المال، فأجابها إلى ذلك.

ودعت عنيزة بنت غنم (قدار بن سالف بن جندع) رجلاً من أهل قُرْح.

وكان قدار رجلاً أحمر أزرق قصيراً. يزعمون أنه كان لزنية ، من رجل يقال له (صهياد) ولم يكن لأبيه (سالف) الذي يدعى إليه. ولكنه قد ولد على فراش (سالف) وكان يدعى له وينسب إليه.

فقالت: أعطيتك أيَّ بناتي شئت، على أن تعقر الناقة.

وكانت عنيزة شريفة من نساء ثمود، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو ، من أشراف رجال ثمود. وكان قدار عزيزاً منيعاً في قومه.

فانطلق قدار بن سالف، وصدع بن مهرج، فاستنفرا غُواةً من ثمود. فاتبعهما سبعة نفر . فكانوا تسعة نفر. أحد النفر الذين اتبعوهما رجل يقال له، (هويل بن مبلغ) خال قدار بن سالف، أخو أمه لأبيها وأمها، وكان عزيزاً في أهل حجر. و(دعير ابن غنم بن داعر) وهو من بني خلاوة بن المهل.

و(دأب بن مهرج) أخو مصدع بن مهرج.

وخمسة لم تحفظ لنا أسماؤهم.

فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء، وقد كمن لها قُدار في أصل شجرة على طريقها، وكمن لها مصدع في أصل أخرى. فمرت على مصدع فرماها بسهم، فانتظم به عضلة ساقها.

وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها، وكانت من أحسن الناس وجهاً، فأسفرت لقُدار وأرته إياه. ثم ذمَّرت فشدّ على الناقة بالسيف فخشف عرقوبها. فخرّت ورَغَتْ رَغَاةً واحدة تحذّر سقبها. ثم طعن في لبتها فنحرها.

انْطلق سقبها حتى أتى جبلاً منُيفاً. ثم أتى صخرة في رأس الجبل فزعاً ولاذ بها. واسم الجبل فيما يزعمون (صنو) - فأتاهم صالح، فلما رأى الناقة قد عقرت، قال انتهكتم حرمة اللّه ، فابشروا بعذاب اللّه تبارك وتعالى ونقمته. فاتبّع السقبَ أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة، وفيهم (مصدع بن مهرج) فرماه مصدع بسهم، فانتظم قلبه، ثم جرّ برجله فانزله، ثم ألقوا لحمه مع لحم أمه.

فلما قال لهم صالح: أبشروا بعذاب اللّه ونقمته، قالوا له وهم يهزءون به: ومتى ذلك يا صالح؟ وما آية ذلك؟ - وكانوا يسمون الأيام فيهم : الأحد (أول) والاثنين (أهون) والثلاثاء (وبار) والأربعاء (جبار) والخميس (مؤمن) والجمعة (العروبة) والسبت (شيار) وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء - فقال لهم صالح حين قالوا له

ذلك: تصبحون غداة يوم مؤمن، يعني يوم الخميس، ووجوهكم مصفرّة، ثم تصبحون يوم العروبة، يعني يوم الجمعة ووجوهكم محمرّة، ثم تصبحون يوم شيار، يعني يوم السبت، ووجوهكم مسودّة. ثم يصبحكم العذاب يوم الأول، يعني يوم الأحد.

فلما قال لهم صالح ذلك، قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلم فلنقتل صالحاً. إن كان صادقاً عجّلناه، قبلنا، وإن كان كاذباً يكون قد ألحقناه بناقته.

فأتوه ليلاً ليبيّتوه في أهله، فدمغتهم الملائكة بالحجارة. فلما أبطأوا على أصحابهم، أتوا منزل صالح فوجدوهم مشدّخين قد رُضخوا بالحجارة. فقالوا لصالح: أنت قتلتهم! ثم هموا به. فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم: والله لاتقتلونه أبداً، فقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث، فإن كان صادقاً لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضباً، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون!

فانصرفو عنهم ليلَتهم تلك. والنفر الذين رضخهم الملائكة بالحجارة، التسعةُ الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن بقوله تعالى ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾. إلى قوله: ﴿لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٤٨-٥٢].

فأصبحوا من تلك الليلة التي انصرفوا فيها عن صالح، وجوههم مصفرّة، فأيقنوا بالعذاب. وعرفوا أن صالحاً قد صَدَقَهم فطلبوه ليقتلوه. وخرج صالح هارباً منهم حتى لجأ إلى بطن من ثمود يقال لهم (بنو غنم) فنزل على سيدهم رجل منهم يقال له (نفيل) يكنى بأبي هدب، وهو مشرك، فغيَّبه، فلم يقدروا عليه.

فغدوا على أصحاب صالح فعذّبوهم ليدلّوهم عليه، فقال رجل من أصحاب صالح يقال له (ميدع بن هرم): يانبي الله، إنهم يعذبوننا لندلّهم عليك، أفندلُّهم عليك؟ قال: نعم. فدلهم عليه (ميدع بن هرم).

فلما علموا بمكان صالح، أتوا أبا هدب فكلموه فقال لهم: عندي صالح، وليس لكم إليه سبيل. فأعرضوا عنه وتركوه. وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم من عذابه.

فجعل بعضهم يخبر بعضاً بما يرون في وجوههم حين أصبحوا من يوم الخميس، وذلك أن وجوههم أصبحت مصفرّة، ثم أصبحوا يوم الجمعة ووجوههم

محمرّة، ثم أصبحوا يوم السبتِ ووجوههم مسودّة. حتى إذا كان ليلة الأحد خرج صالح من بين أظهرهم ومَن أسلم معه إلى الشام. فنزل رملة فلسطين. وتخلف رجل من أصحابه يقال له (ميدع بن هرم) فنزل قُرْح – وهي وادي القرى، وبين القُرح وبين الحجر ثمانية عشر ميلاً – فنزل على سيدهم رجلٍ يقال له (عمرو بن غنم) وقد كان أكل من لحم الناقة ولم يَشْرَكْ في قتلها. فقال له ميدع بن هرم: يا عمرو بن غنم، اخرج من هذا البلد، فإن صالحاً قال: من أقام فيه هلك، ومن خرج منه نجا.

فقال عمرو: ما شركت في عَقْرها، وما رضيتُ ما صُنِع بها.

فلما كانت صبيحة الأحد، أخذتهم الصيحة، فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا هلك. إلا جارية مُقعدة يقال لها (الزُّرَيْعة) وهي الكلبة ابنة السِّلْق. كانت كافرة شديدة العداوة لصالح، فاطلق اللّه لها رجليها بعدما عاينت العذاب أجمعَ. فخرجت كأسرع ما يُرى شيء قط. حتى أتت أهل قُرح فأخبرتهم بما عاينت من العذاب وما أصاب ثمود منه، ثم استسقت من الماء فسُقِيَتْ، فلما شربت ماتت.

الثاني – قال الرازي: زعم بعض الملحدين أن ألفاظ التنزيل في حكاية هذه الواقعة اختلفت، وهي الرجفة والطاغية والصيحة. والجواب ما قاله أبو مسلم: إن الطاغية اسم لكل ما تجاوز حده، سواء كان حيواناً أو غير حيوان، وألحق الهاء به للمبالغة. فالمسلمون يسمون الملك العاتي بالطاغية والطاغوت. وقال تعالى: ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق: ٦– ٧]. ويقال طغى طغياناً، وهو طاغ وطاغية. وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ [الشمس: ١١]. وقال في غير الحيوان: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ ﴾ [الحاقة: ١١]، أي: غلب وتجاوز عن الحد. وأما الرجفة فهي الزلزلة في الأرض، وهي حركة خارجة عن المعتاد، فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها. وأما الصيحة، فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة. وأما الصاعقة، فالغالب أنها الزلزلة، وكذلك الزجرة، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات: ١٣–١٤]. فبطل ما زعمه ذلك البعض.

الثالث – قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحدٌ، سوى صالح عليه السلام، ومن تبعه رضي اللّه عنهم. إلا أن رجلاً يقال له أبو رغال. كان، لما وقعت النقمة بقومه، مقيماً إذ ذاك في الحرم، فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحلّ، جاءه حجر من السماء فقتله.

روى الإمام أحمد[١] عن جابر قال: لما مرّ رسول الله ﷺ بالحِجْر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألها قوم صالح، فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم، فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها، فأخذتهم صيحةٌ أخمد الله مَنْ تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه». قال ابن كثير: وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم.

وروى عبد الرزاق عن معمر: أخبرني إسماعيل بن أمية؛ أن النبيّ ﷺ مرّ بقبر أبي رغال فقال: أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال:هذا قبر أبي رغال، رجل من ثمود، كان في حرم الله، فمنعه حرمُ الله عذابَ الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه، فدفن ههنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم، فابتدروه بأسيافهم، فبحثوا عنه، فاستخرجوا الغصن.

وأبو رغال هو أبو ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف، كما روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ - أخرجه أبو داود وغيره[٢].

الرابع - ذكرنا قبل؛ أن رسول الله ﷺ مرّ على ديار ثمود المعروفة الآن بمدائن صالح، وهو ذاهب إلى غزوة تبوك، سنة تسع، وأمر أصحابه أن يدخلوا خاشعين وَجِلين أن يصيبهم ما أصاب أهلها، ونهاهم أن يشربوا من مائها. فروى الإمام أحمد[٣] عن ابن عمر قال: نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك، نزل بهم الحِجْر عند بيوت ثَمُودَ، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها، ونصبوا القدور باللحم. فأمرهم النبيّ ﷺ، فأهَرَاقوا القدور، وعَلَفُوا العجين الإبلَ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذّبوا، وقال: إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم.

وروى أحمد[٤] والبخاري[٥] ومسلم[٦] عن ابن عمر قال: لما مَرَّ رسول الله

---

(١) أخرجه في المسند ٣/٢٩٦.

(٢) أخرجه أبو داود في: الخراج والإمارة والفيء، ٤١ - باب نبش القبور، حديث رقم ٣٠٨٨.

(٣) أخرجه في المسند ٢/ ١١٧. والحديث رقم ٥٩٨٤.

(٤) أخرجه في المسند ٢/ ١٣٧. والحديث رقم ٦٢١١.

(٥) أخرجه البخاري في: المغازي، ٨٠ - باب نزول النبيّ ﷺ الحجْر، حديث رقم ٢٨٤.

(٦) أخرجه مسلم في: الزهد والرقائق، حديث ٣٨ و ٣٩.

ﷺ بالحجر قال: لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم. ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي.

وللبخاري(١)؛ أن الرسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من آبارها ولا يستقوا منها. فقالوا قد عجّنا منها، واستقينا. فأمرهم النبيّ ﷺ أن يطرحوا ذلك العجين، ويهريقوا ذلك الماء.

الخامس – قال ابن كثير: ذكر بعض المفسرين أن كل نبيّ هلكت أمته، كان يذهب فيقيم في الحرم، حرم مكة، والله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد(٢): حدثنا وكيع، حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما مَرَّ رسول الله ﷺ بوادي عُسْفَان حين حج قال: يا أبا بكر! أيَّ وادٍ هذا؟ قال: هذا وادي عُسْفَان. قال: لقد مر به هود وصالح على بَكَرَاتٍ حُمْرٍ خُطُمها الليف، أُزُرُهم العباء، وأرديتهم النِّمَار، يُلَبُّونَ، يحجون البيت العتيق. قال ابن كثير: هذا حديث غريب من هذا الوجه، لم يخرجه أحد منهم.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾

﴿وَلُوطاً﴾ منصوب بفعل مضمر معطوف على ما سبق، أي وأرسلنا لوطاً. ولفظه أعجميّ معناه في العربية (ملفوف) أو (مُرّ)، كما في تأويل أسماء التوراة والإنجيل – وهو فيما قاله علماء النسب والتفسير – ابن هاران بن تارح (ويقال آزر) وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام. وكان قد آمن مع إبراهيم عليهما السلام، وهاجر معه إلى الشام، وتوطنا بلد الكنعانيين من فلسطين، وهي الأرض المقدسة، ثم حدثت مشاجرة بين رعاتهما فنزح لوط إلى وادي الأردنّ، وسكن مدينة سدوم فبعثه الله إلى أهلها، وإلى ما جاورها من القرى. فصار يدعوهم إلى الله

---

(١) أخرجه البخاري في: الأنبياء، ١٧ – باب قوله تعالى: ﴿وإلى ثَمُودَ أخاهُمْ صَالِحاً﴾، حديث رقم ١٥٩٥.

ومسلم في: الزهد والرقائق، حديث ٤٠.

(٢) أخرجه في المسند ١/ ٢٣٢، والحديث رقم ٢٠٦٧.

تعالى، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والفواحش التي اخترعوها، ولم يسبقهم بها أحد من العالمين، من بني آدم، ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور.

قال ابن كثير: وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنعه أهل سدوم، عليهم لعائن الله.

قال عمرو بن دينار: ما زنا ذكر على ذكر، حتى كان قومُ لوط. وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأمويّ، باني جامع دمشق: لولا أن الله عز وجل قصّ علينا خبر قوم لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً.

ثم بيّن تعالى إنكار لوط عليهم بقوله سبحانه: **﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾** أي الفعلة المتناهية في القبح. وقوله تعالى: **﴿مَاسَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾** أي ما عملها أحد قبلكم، والباء للتعدية، من قولك (سبقته بالكرة) إذا ضربتها قبله، ومنه قوله ﷺ[1]: (سبقك بها عُكّاشة). كذا في (الكشاف).

قال أبو السعود: والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد النكير، وتشديد التوبيخ والتقريع. فإن مباشرة القبح قبيح، واختراعه أقبح، فأنكر تعالى عليهم أولاً إتيان الفاحشة، ثم وبخهم بأنهم أول من عملها، ثم استأنف بيان تلك الفاحشة تأكيداً للإنكار السابق وتشديداً للتوبيخ بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ أي: الذين خلقهم الله ليأتوا النساء، لا ليأتيهم الرجال. وقرئ بهمزتين صريحتين، وبتليين الثانية، بغير مدّ وبمد أيضاً. وفي زيادة (إن) و(اللام) مزيد توبيخ وتقريع، كأن ذلك أمر لا يتحقق صدوره عن أحد. وفي إيراد لفظ (الرجال) دون الغلمان والمردان ونحوهما، مبالغة في التوبيخ وتأتون، مِنْ (أتى المرأة) إذا غشيها. قاله الزمخشري.

وفي (تاج العروس): أتى الفاحشة: تلبّس بها، ويكنى بالإتيان عن الوطء وهو من أحسن الكنايات، ورجل مأتي أُتي فيه، ومنه قول بعض المولدين:

---

(١) أخرجه البخاري في: الرقاق، ٥٠ – باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، حديث ١٦٠٥.

يأتي ويؤتى ليس ينكر ذا، ولا هذا ، كذلك إبرة الخيّاط

انتهى.

وقوله تعالى ﴿شَهْوَةً﴾ مفعول له، أي للاشتهاء، أي لا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داع آخر. ولا ذمَّ أعظم منه، لأنه وصف لهم بالبهيمية، وأنه لا داعي لهم من جهة العقل البتة كطلب النسل لو نحوه. أو حال، بمعنى مشتهين تابعين للشهوة، غير ملتفتين إلى السماجة. كذا في (الكشاف) ﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي : مجاوزين عن مواتاه النساء اللاتي خلقن لذلك. قال أبو السعود: ويجوز أن يكون المراد من قوله ﴿شَهْوَةً﴾ الإنكار عليهم، وتقريعهم على اشتهائهم تلك الفعلة الخبيثة المكروهة ، كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي متجاوزين النساء اللاتي هنّ محالّ الاشتهاء كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود:٧٨]. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح، وتدعو إلى اتباع الشهوات. وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف، وتجاوز الحدود في كل شيء. فمن ثَمَّ أسرفوا في باب قضاء الشهوة، حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد. ونحوه ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء :١٦٦]. كذا في (الكشاف).

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ أي: المستكبرين في مقابلة نصحة ﴿إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم﴾ أي: لوطاً والمؤمنين معه ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي : بلدكم . قال الزمخشري: يعني ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط عليه السلام من إنكار الفاحشة، وتعظيم أمرها، ووسمهم بسمة الإسراف الذي هو أصل الشر كله. ولكنهم جاءوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته، من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم، ضجراً بهم ، وبما يسمعونه من وعظهم ونصحهم . وقولهم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ سخرية بهم، وبتطهرهم من الفواحش، وافتخار بما كانوا فيه من القذارة. كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم (أبعدوا عنا هذا المتقشف، وأريحونا من هذا المتزهد).

قال ابن كثير: قال مجاهد: يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء. وروي مثله عن ابن عباس.

قال السيوطي في (الإكليل): فيستدل به على تحريم أدبار النساء، أي بناء على أن تفسير الصحابي له حكم المرفوع.

ورجح ابن القيم أنه في حكم الموقوف.

والمسألة تقدمت مستوفاة في قوله تعالى ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣]. فتذكر.

تنبيه:

قال الإمام شمس الدين ابن القيم رحمه الله في كتابه (إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ):

قد وسم الله سبحانه الشرك والزنى واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه، دون سائر الذنوب، وإن كان مشتملاً على ذلك. لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إِنَّما الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨]، وقوله تعالى في حق اللوطية: ﴿وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً ونَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتي كانَت تَّعْمَلُ الْخَبائث، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسقينَ﴾ [الأنبياء:٧٤]، وقالت اللوطية: ﴿أخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُم أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦] فاقروا، مع شركهم وكفرهم، أنهم هم الأخابث الأنجاس، وأن لوطاً وآله مطهرون من ذلك، باجتنابهم له. وقال تعالى في حق الزناة: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثينَ والْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ [النور:٢٦]، وأما نجاسة الشرك فهي نوعان نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة. فالمغلظة: الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله عز وجل، فإن الله عز وجل لا يغفر أن يُشْرَك به، والمخففة: الشرك الأصغر، كيسير الرياء، والتصنع للمخلوقات والحَلِف به، وخوفه ورجائه.

ثم قال: ونجاسة الزنى واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات، من جهة أنها تفسد القلب، وتضعف توحيده جداً. ولهذا، أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركاً، فكلما كان الشرك في العبد أغلب، كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر. وكلما كان أعظم إخلاصاً، كان منها أبعد. كما قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والْفَحْشاءَ، إِنَّهُ مِنْ عِبادِنا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤] فإن عشق الصور المحرمة نوع تعبُّد لها بل هو من أعلى أنواع التعبد، ولا سيما إذا استولى على القلب، وتمكن منه، صار تتيّماً، والتتيم: التعبد، فيصير العاشق عابداً لمعشوقه، وكثيراً ما يغلب حبه وذكره، والشوق إليه، والسعي في مرضاته، وإيثار محابّه، على حب الله وذكره، والسعي في مرضاته. بل كثيراً ما

يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية، ويصير متعلقاً بمعشوقة من الصور - كما هو مشاهد - فيصير المعشوق هو إلهه من دون الله عز وجل، يقدم رضاه وحبه على رضا الله وحبه، ويتقرب إليه ما لا يتقرب إلى الله، وينفق في مرضاته ما لا ينفقه في مرضاة الله، ويتجنب سخطه، ما لا يتجنب من سخط الله تعالى، فيصير آثر عنده من ربه، حباً وخضوعاً وذلاً وسمعاً وطاعة. ولهذا كان العشق والشرك متلازمين، وإنما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط، وعن امرأة العزيز، وكانت إذ ذاك مشركة، فكلما قوي شرك العبد، بُلي بعشق الصور، وكلما قوي توحيده صرف ذلك عنه. والزاني واللواطة، كمالُ لذته إنما يكون مع العشق، ولا يخلو صاحبهما منه، وإنما لتنقله من محل إلى محل، لا يبقى عشقه مقصوراً على محل واحد، ينقسم على سهام كثيرة، لكل محبوب نصيب من تألهه وتعبدّه فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين، ولهما خاصية في تبعيد القلب من الله، فإنهما من أعظم الخبائث، فإذا انصبغ القلب بهما بَعُدَ ممن هو طيّب، لا يصعد إليه إلا طيّب. وكلما ازداد خبثاً، ازداد من الله بعداً. ولهذا قال المسيح - فيما رواه الإمام أحمد، في كتاب (الزهد) - لا يكون البطالون من الحكماء، ولا يلج الزناة ملكوت السماء. ولما كانت هذه حال الزنى، كان قريناً للشرك في كتاب الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إلاَّ زَانِيةً أوْ مُشْرِكةً والزَّانِيَة لا يَنكِحُها إلاَّ زانٍ أوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذَلكَ على الْمُؤْمنينَ ﴾ [النور:٣].

ثم قال رحمه الله: والمقصود أن الله سبحانه وتعالى سمى الزواني والزناة خبيثين وخبيثات، وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة، وإن كان حلالاً، وسمى فاعله جنباً، لبعده عن قراءة القرآن، وعن الصلاة، وعن المساجد، فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء. فكذلك إذا كان حراماً، يبعد القلب عن الله تعالى، وعن الدار الآخرة، بل يحول بينه وبين الإيمان، حتى يحدث طهراً كاملاً بالتوبة، وطهراً لبدنه بالماء. وقول اللوطية: ﴿ أخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُم إنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأخدود: ﴿ وما نَقَمُواْ مِنْهُمْ إلاَّ أن يُؤْمِنُواْ باللَّه الْعَزِيزِ الْحَمِيد ﴾ [البروج:٨]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يا أهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تنقمُونَ مِنَّا إلاَ أنْ آمَنَّا باللَّه وما أُنزِلَ إلَيْنا ومـا أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ [المائدة:٥٩]، وهكذا المشرك، إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد، وأنه لا يشوبه بالإشراك. وهكذا المبتدع إنما ينقم على السنيّ تجريده متابعة الرسول، وأنه لم يَشُبْها بآراء الرجال، ولا بشيء مما خالفها.

فصبر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة، خير له وأنفع، وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله من موافقة أهل الشرك والبدعة:

إذا لم يكن بدّ من الصبر فاصطبر على الحق ذاك الصبرُ تُحْمَدُ عُقْباهُ

- انتهى -.

ولما همّ قوم لوط بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، أخرجه الله تعالى سالماً، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين، كما أشار لذلك بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فانَجَيْناهُ وأهْلَهُ﴾ أي ومن يختص به من ذويه، أو من المؤمنين لطيبهم. قال ابن كثير: ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فأخْرَجْنا مَن كانَ فيها مِنَ الْمُؤْمنينَ فَما وَجَدْنا فيها غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلمينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦]، ﴿إلاَّ امْـرأتَهُ﴾ أي فإنا لم ننجها لخبثها. قال ابن كثير: إنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تمالئهم عليه، وتُعْلمُهُمْ بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم. ولهذا، لما أُمر لوط عليه السلام ليسريَ بأهله، أُمرَ أن لا يُعْلمها ولا يخرجها من البلد. ومنهم من يقول بل اتبعتهم، فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم. والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم. ولهذا قال ههنا ﴿إلاَّ امْرأتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرينَ﴾ أي من الذين غبروا في ديارهم، أي بقوا فهلكوا. وقيل: من الهالكين. وهو تفسير باللازم، والتذكير للتغليب، ولبيان إستحقاقها لما يستحقه المباشرون للفاحشة.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وأمْطَرْنا عَلَيْهِم مَّطَراً﴾ أي وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً غير متعارف، وهو مبين بقوله تعالى: ﴿وأمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، أي طين متحجر.

قال المهايمي: ولكفرهم بمطر الشرائع المحيي بإبقاء النسل وغيره، انقلب عليهم في صورة العقاب.

وقرأت في التوراة المعربة أن الملَكين اللذين جاءا لوطاً، عليه السلام، يخبرانه ويبشرانه بهلاك قومه، قالا له: أخرج من هذا الموضع، من لك ههنا من أصهارك وبنيك وبناتك وجميع من لك، فإنّا بَعَثَنا الرَّب لنهلك هذه المدينة، ولما كان عند طلوع الفجر ألحّ الملكان على لوط بأخذ امرأته وابنتيه، ثم أمسكا بأيديهم جميعاً وصيّراهم خارج المدينة وقالا: لا يلتفت أحد منكم إلى ورائه، وتخلصا إلى الجبل. ولما أشرقت أمطر الرب من السماء على سَدُومَ وعمُورة كبريتاً وناراً، وقَلَبَ تلك المدن، وكل البقعة، وجميع سكان المدن ونَبْتَ الأرض، والتفتت امرأته إلى ورائها صارت نُصُبَ مِلْح، وقدم إبراهيم غدوة من أرضه، فتطلع إلى جهة سدوم وعمُورة، فإذا دخان الأرض صاعد كدخان الأتُون – انتهى –.

وقرأت في نبوة حَزْقيال عليه السلام، في الفصل السادس عشر: في بيان إثم سدوم ما نصه:

إن الاستكبار والشبع من الخبز، وطمأنينه الفراغ، كانت في سدوم وتوابعها، ولم تعضد يد البائس والمسكين، وتشامخن وصنعن الرجس أمامي، فنزعتهن كما رأيت – انتهى –.

وقد صار موضع تلك المدن بحر ماء أجاج، لم يزل إلى يومنا هذا، ويعرف بالبحر الميت، أو بحيرة لوط. والأرض التي تليها قاحلة لا تنبت شيئاً.

قال في (مرشد الطالبين) بحر لوط، هو بحر سدوم، ويدعى أيضاً البحر الميت، وهو بركة مالحة في فلسطين، طولها خمسون ميلاً، وعرضها عشرة أميال، وهي أوطأ من بحر الروم بنحو ١٢٥٠ قدماً، وموقعها في الموضع الذي كانت عليه سدوم وعمُورة وأدمة وصبوييم – انتهى –.

وقوله: ﴿فانظُرْ كَيْفَ كانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ اي هؤلاء أجرموا بالكفر وعمل الفواحش، كيف أهلكناهم. والنظر تعجيباً من حالهم، وتحذيراً من أعمالهم، فإن من تستولي عليه رذيلة الدعارة، تكبحه عن التوفيق نفساً وجسداً، وتورده موارد الهلكة والبوار، جزاء ما جنى لهم اتباع الأهواء.

تنبيه في حد اللوطي:

اعلم أنه وردت السنة بقتل من لاط بذكر، ولو كان بكراً، وكذلك المفعول

به، إذا كان مختاراً، لحديث ابن عباس، عند أحمد[١] وأبي داود [٢] وابن ماجة[٣] والترمذي[٤] والحاكم والبيهقي، قال: رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به». قال ابن حجر: رجاله موثقون، إلا أن فيه اختلافاً.

وأخرج ابن ماجة[٥] والحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: اقتلوا الفاعل والمفعول به أحصنا أو لم يحصنا - وإسناده ضعيف -.

قال ابن الطلاع في (أحكامه): لم يثبت عن رسول الله ﷺ أنه رجم في اللواط، ولا أنه حكم فيه. وثبت عنه أنه قال: اقتلوا الفاعل والمفعول به - رواه عنه ابن عباس وأبو هريرة - انتهى.

وأخرج البيهقي عن عليّ أنه رجم لوطياً.

وأخرج البيهقي أيضاً عن أبي بكر، أنه جمع الناس في حق رجل ينكح كما تنكح النساء، فسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن ذلك، فكان من أشدهم يومئذ قولاً، عليّ بن أبي طالب قال: هذا ذنب لم تَعْص به أمّةٌ من الأمم إلا أمة واحدة، صنع الله بها ما قد علمتم، نرى أن نحرقه بالنار. فاجتمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن يحرقه بالنار، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه بالنار.

وأخرج أبو داود[٦] عن سعيد بن جبير ومجاهد، عن ابن عباس: في البكر يؤخذ على اللوطية، يرجم.

وأخرج البيهقي عن ابن عباس أيضاً، أنه سئل عن حد اللوطيّ فقال: ينظر أعلى بناء في القرية فيرمى به منكساً، ثم يتبع بالحجارة.

وقال المنذري: حرق اللوطيةَ بالنار أبو بكر وعليّ وعبد الله بن الزبير وهشام بن عبد الملك.

---

(١) اخرجه في المسند ١ / ٣٠٠ والحديث رقم ٢٧٢٣.

(٢) اخرجه ابو داود في: الحدود، ٢٨ - باب فيمن عَمَل عَمَل قوم لوط، الحديث رقم ٤٤٦٢.

(٣) اخرجه ابن ماجة في: الحدود، ١٢ - باب عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط، حديث رقم ٢٥٦١

(٤) اخرجه الترمذي في: الحدود، ٢٤ - باب ما جاء في حد اللوطيّ.

(٥) الذي وقفت عليه هو حديث للترمذي اخرجه في: الحدود، ٢٤ - باب ما جاء في حدّ اللوطيّ ونصه: عن ابي هريرة عن النبيّ ﷺ قال «اقتلوا الفاعل والمفعول به» وليس فيه «أحصنا او لم يحصنا».

(٦) اخرجه ابو داود في: الحدود، ٢٨ - باب فيمن عِمَل عَمَل قوم لوط، حديث رقم ٤٤٦٣.

وبالجملة: فلما ثبت أن حده القتل بقي الاجتهاد في هيئته حرقاً أو تردية أو غيرهما.

وقال بعض المحققين: إن كان اللواط مما يصح اندراجه تحت عموم أدلة الزنى فهو مخصص بما ورد فيه من القتل لكل فاعل، محصناً أو غيره. وإن كان غير داخل تحت أدلة الزنى، ففي أدلته الخاصة له ما يشفي ويكفي - انتهى -.

وقال الإمام الجشمي اليمني: لو كان في اللواط حد معلوم لما خفي على الصحابة، حتى شاورهم في ذلك أبو بكر رضي الله عنه، لمَّا كتب إليه خالد بن الوليد.

وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد): لم يثبت عنه ﷺ أنه قضى في اللواط بشيء، لأن هذا لم تكن تعرفه العرب، ولم يرفع إليه ﷺ، ولكن ثبت عنه أنه قال: اقتلوا الفاعل والمفعول به - رواه أهل السنن الأربعة وإسناده صحيح - وقال الترمذي: حديث حسن، وحكم به أبو بكر الصديق، وكتب به إلى خالد، بعد مشاورة الصحابة، وكان علي كرم الله وجهه أشدهم في ذلك.

وقال ابن القصار وشيخنا: أجمعت الصحابة على قتله، وإنما إختلفوا في كيفية قتله. فقال أبو بكر الصديق: يرمى من شاهق. وقال عليّ كرم الله وجه: يهدم عليه حائط. وقال ابن عباس: يقتلان بالحجارة. فهذا اتفاق منهم على قتله، وإن اختلفوا في كيفيته. وهذا موافق لحكمه ﷺ فيمن وطئ ذات محرم، لأن الوطء في الموضعين لا يباح للواطئ بحال. ولهذا جمع بينهما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، فإنه روي عنه ﷺ أنه قال: من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوه. وروي أيضاً عنه: من وقع على ذات رحم فاقتلوه. وفي حديثه[1] أيضاً بالإسناد: من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه. وهذا الحكم على وفق حكم الشارع، فإن المحرمات كلما تغلظت، تغلظت عقوبتها. ووطء من لا يباح بحالٍ أعظم جرماً من وطء من يباح في بعض الأحوال، فيكون حده أغلظ. وقد نص أحمد في إحدى الروايتين عنه، أن حكم من أتى بهيمة حكم اللواط سواء، فيقتل بكل حال، أو يكون حدّه حدّ الزاني. واختلف السلف في ذلك، فقال الحسن: حدّه حد الزاني. وقال أبو سلمة: يقتل بكل حال. وقال الشعبي والنخعي: يعزّر، وبه أخذ الشافعي

(١) أخرجه الترمذي في: الحدود، ٢٣ - باب ما جاء فيمن يقع على بهيمة.

ومالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية، فإن ابن عباس أفتى بذلك، وهو راوي الحديث. انتهى.

وقد طعن الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث (الهداية) في دعوى إجماع الصحابة على قتل اللوطيّ في رواية البيهقي: أن أبا بكر جمع الصحابة فسألهم، فكان أشدهم في ذلك قولاً عليٌّ، فقال: نرى أن نحرقه بالنار، فاجتمع رأيهم على ذلك. قال ابن حجر: قلت: وهو ضعيف جداً. ولو صح لكان قاطعاً للحجة. انتهى.

وجليٌّ أن عقوبات القتل أعظم الحدود، فلا يؤخذ فيها إلا بالقواطع من كتاب أو سنة متواترة أو إجماع أو حديث صحيح السند والمتن، قطعيّ الدلالة. ولذا كان على الحاكم بذل جهده في ذلك استبراءً لدينه - والله أعلم -.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهُمْ شُعَيْباً ﴾ أي وأرسلنا إليهم. قال ابن إسحاق، هم من سلالة مدين بن إبراهيم. وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين.

قال ابن كثير: مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة التي بقرب معان من طريق الحجاز وهم أصحاب الأيكة.

﴿ قالَ يَا قَوْمِ ﴾ أي: الذين أحب كمالهم ديناً ودنيا ﴿ اعْبُدُوا اللّه ما لَكُم مِّنْ إلهٍ غَيْرُهُ ﴾ وهذه دعوة الرسل كلهم كما قدمنا ﴿ قَدْ جاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي ما تبيّن به الحق من الباطل. يعني دعوته وإرشاده. ومن هنا قال بعضهم: عني بالبينة مجيء شعيب، وأنه لم تكن له آية إلا النبوة. ومن فسر البينة بالحجة والبرهان والمعجزة المحسوسة ذهاباً إلى أن النبيّ لما كان يدعو إلى شرع يوجب قبوله، فلا بد من دليل يعلم صدقه به، وما ذاك إلا المعجزة- قال: إن معجزة شعيب لم تذكر في القرآن، وليست كل آيات الأنبياء مذكورة في القرآن. ولا يخفى أن البينة أعم من المعجزة بعرفهم، فكل من أبطلت شبهة ضلاله، وأظهرت له حجة الحق الذي يدعى إليه فقد جاءته البينة. لأن حقيقة البينة كل ما يبين الحق. فاحفظه.

قال الجشمي: واختلفوا، فقيل: لا يجوز أن يبعث إلا ومعه شرع - عن أبي هاشم -. وقيل: يجوز أن يدعو إلى ما في العقل - عن أبي علي - انتهى.

وقد دلت الآيات هذه على أن شعيباً، عليه السلام، دعاهم إلى التوحيد والشرائع، على ما جرت به عادة الرسل، فمنها قوله: ﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾ أي فاتّموهما للناس بإعطائهم حقوقهم ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ أي: لا تنقصوهم حقوقهم فلا تخونوا الناس في أموالهم، وتأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ....﴾ إلى قوله: ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦].

يقال: بخسه حقه أي نقصه إياه، وظلمه فيه.

قال الزمخشري: كانوا يبخسون الناس كل شيء في مبايعاتهم، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه. قال زهير:

أفي كلِّ أسواقِ العراقِ إتاوةٌ وفي كلِّ ما باع امرُؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ

قال القاضي: وإنما قال ﴿أشْيَآءَهُمْ﴾ للتعميم، تنبيهاً على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير - انتهى -.

والنهي عن النقص يوجب الأمر بالإيفاء. فقيل في فائدة التصريح بالمنهي عنه، بيان لقبحه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله تعالى: ﴿ولاَ تَبْخَسُواْ...﴾ الآية - قال: أي لا تسمّوا لهم شيئاً، وتعطوا لهم غير ذلك. ودلت الآية على أن إيفاء الكيل والميزان واجب على حسب ما يعتاد في صفة الكيل والوزن ﴿ولاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي: بالكفر والظلم: ﴿بَعْدَ إِصْلاحِها﴾ أي: بعد ما أصلح أمرها وأهلها الأنبياء وأتباعهم الصالحون العاملون بشرائعهم من وضع الكيل والوزن والحدود والأحكام ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى العمل بما أمروا به ونهوا عنه ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في الحال لتوجه الناس إليكم بسبب حسن الأحدوثة، وفي المآل ﴿إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مصدقين قولي.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾

﴿ولا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ نهي عن قطع الطريق الحسي. أي: لا

تجلسوا على كل طريق فيه ممر الناس الغرباء، تضربونهم وتخوفونهم، وتأخذون ثيابهم، وتتوعدونهم بالقتل، إن لم يعطوكم أموالهم.

قال مجاهد: كانوا عشارين- أخرجه أبو الشيخ: وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّيّ مثله. وعن ابن عباس وغير واحد أي تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه

قال ابن كثير: والأول أظهر، لأنه قال ﴿بكُلِّ صِراطٍ﴾ وهو الطريق. وهذا الثاني هو قوله ﴿وتصُدُّونَ عن سَبيلِ اللَّهِ مَنْ آمنَ به وتَبْغُونها عِوَجاً﴾ أي: تصرفون عن دين الله وطاعته من آمن بشعيب، وتطلبون لها عوجاً بإلقاء الشبه، ووصفها بما ينقّصها لتغييرها ﴿واذْكُرُوا إذْ كُنتُمْ قَليلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾ بالعدد والعُدَد، فاشكروا نعمة الله عليكم في ذلك ﴿وانظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من الأمم الخالية، والقرون الماضية، وما حلّ بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِالَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿وإن كانَ طائِفَةٌ مِنكُمْ آمَنُوا بالَّذي أُرْسِلْتُ به وطائفةٌ لَم يُؤْمِنُوا﴾ يعني وإن اختلفتم في رسالتي فصرّتم فرقتين مؤمنة وكافرة ﴿فاصْبِرُوا حتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنا﴾ أي: بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين، فهو وعد للمؤمنين، ووعيد للكافرين.

قال الشهاب: وخطاب (اصبروا) للمؤمنين، ويجوز أن يكون للفريقين، أي ليصبر المؤمنون على أذى الكفار، والكفار على ما يسوؤهم من إيمانهم. أو للكافرين. أي تربصوا لتروا حكم الله بيننا وبينكم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ﴾ لأنه منزّه عن الجور في حكمه، فسيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾

﴿قالَ الْمَلأُ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أي عن الإيمان ﴿لَنُخرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ

والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن﴾ أي إلى ترك دعوى الرسالة، والإقرار بها، داخلين ﴿في ملتنا﴾ أي ملة المشركين.

قال الجشمي: الملة الديانة التي يجمع على العمل بها فرقةٌ عظيمة. والأصل فيه تكرر الأمر، من قولهم: طريق ممل ومليل، إذا تكرر سلوكه حتى صار معلماً. ومنه الملل: تكرار الشيء على النفس حتى تضجر منه - انتهى.

﴿قال﴾ أي شعيب ﴿أو لو كنا كارهين﴾ أي: أتجبروننا على ذلك، وإن كنا كارهين له؟ مع أنه لا فائدة في الإكراه، لأن دينكم إن كان حقاً، لم نكن بالإكراه منقادين له، وإن كان باطلاً، لم نكن بالإكراه متصفين به، لأنه بالحقيقة صفة القلب، ولا يسري إكراهكم إليه. وكيف لا نكرهه وهو يستلزم غاية القبح والظلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)

﴿قد افترينا على الله كذباً﴾ أي اختلفنا عليه باطلاً بأن له شريكاً ﴿إن عدنا﴾ إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها، لندخل ﴿في ملتكم﴾ القائلة بأن له شريكاً ﴿بعد إذ نجانا الله منها﴾ فأرانا أنه كالإنجاء من النار ﴿وما يكون﴾ أي ينبغي ﴿لنا أن نعود﴾ أي عن دعوى الرسالة والإقرار بها فنصير ﴿فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ أي الذي يربّينا بما علم من استعدادنا، لأنه ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾ أي فعلم استعداد كل واحد في كل وقت، لكن ﴿على الله توكلنا﴾ أي ليحفظنا عن المصير إليها ﴿ربنا﴾ إن قصدوا إكراهنا عليها أو إخراجنا من قريتهم ﴿افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ فغلبنا عليهم ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ أي خير الحاكمين، فلا تغلّبُ الظالمين وإن كثروا، على المظلومين إذا استفتحوك.

تنبيهات:

الأول - اعلم أن ظاهر قوله تعالى ﴿أو لتعودن في ملتنا﴾ وقوله ﴿بعد إذ نجانا الله منها﴾ يدل على أن شعيباً عليه السلام كان على ملتهم قبل بعثته. ومعلوم عصمة الأنبياء عن الكبائر، فضلاً عن الشرك.

وفي (المواقف وشرحها) : أن الأمة أجمعت على عصمة الأنبياء من الكفر قبل النبوة وبعدها، غير أن الأزارقة من الخوارج جوّزوا عليهم الذنب، وكل ذنب عندهم كفر، فلزمهم تجويز الكفر. وجوّز الشيعة إظهار الكفر تقية عند خوف الهلاك، واحترازاً عن إلقاء النفس في التهلكة. ومثله في (شرح التجريد).

ولما تقرر إجماع الأمة على ما ذكر، كان للعلماء في هذه الآية وجوه:

منها: أن العود المقابل للخروج، هو العود إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها.

والجار والمجرور حال. أي ليكن منكم الخروج من قريتنا، أو العود إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها، داخلين في ملتنا. وهذا الوجه اقتصر عليه المهايمي، وسايرناه فيه مع تفسير تتمة الآية.

ومنها: أن العود المذكور إلى ما خرج منه، وهو القرية. والمجرور حال كالسابق. أي ليكن منكم الخروج من قريتنا، أو العود إليها، كائنين في ملتنا. وعُدّيَ (عاد) بـ (في) كأن الملة لهم بمنزلة الوعاء المحيط بهم.

ومنها: أن هذا القول جارٍ على ظنهم أنه كان في ملتهم، لسكوته قبل البعثة عن الإنكار عليهم

ومنها: أنه صدر عن رؤسائهم تلبيساً على الناس، وإيهاماً لأنه كان على دينهم. وما صدر عن شعيب عليه السلام كان على طريق المشاكلة.

ومنها: أن ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ بمعنى لتصيرن. إذ كثيراً ما يرد (عاد) بمعنى (صار)، فيعمل عمل (كان). ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة، بل عكس ذلك، وهو الانتقال من حال سابقة، إلى حال مؤتنفة مثل (صار). وكأنهم قالوا – والله أعلم – لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لتصيرن كفاراً مثلنا.

قال الرازي: تقول العرب. قد عاد إليّ من فلان مكروه، يريدون: قد صار إليّ منه المكروه ابتداءً. قال الشاعر:

فإن تكنِ الأيام أحسنّ مدةً   إليّ فقد عَادَتْ لَهُنَّ ذُنُوبُ

أردا: فقد صارت لهن ذنوب، ولم يرد أن ذنوباً كانت لهن قبل الإحسان – انتهى –.

ومنه حديث معاذ. قال له النبي ﷺ: (أعُدت فتَّاناً يا معاذ؟) أي صرت.

ومنه حديث خزيمة: عادَ لَها النِّقادُ مُجرَنْثماً. أي صار.

وفي حديث كعب: وددت أن هذا اللبن يعود قَطِراناً، أي يصير. فقيل له: لم ذلك؟ قال: تَتَبَّعَتْ قريشُ أذنابَ الإبل، وتركوا الجماعات.

قال الشهاب: إلا أنه قيل إنه لا يلائم قوله ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ إلا أن يقال بالتغليب فيه، أو يقال: التنجية لا يلزم أن تكون بعد الوقوع في المكروه. الا ترى إلى قوله ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وأَهْلَهُ ﴾ [الأعراف:٨٣] و [النمل:٥٧] وأمثاله؟

ومنها: أن العود يطلق، ويراد به الابتداء. حققه الراغب والجار بردي وغير واحد.

وأنشدوا قول الشاعر:

* وَعادَ الرأسُ مِنّي كَالثَّغَامِ *

ومعنى الآية: لتدخلن في ملتنا، وقوله تعالى: ﴿ إِنْ عُدْنَا ﴾ أي دخلنا - كذا في تاج العروس -.

ومنها: إبقاء صيغة العود على ظاهرها، من استدعائها رجوع العائد، إلى حال كان عليها قبل. كما يقال: عاد له، بعد ما كان أعرض عنه، إلا أن الكلام من باب التغليب. قال الزمخشري: لما قالوا: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ ﴾ فعطفوا على ضميره، الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم- قالوا ﴿ لَتَعُودُنَّ ﴾ فغلبوا الجماعة على الواحد. فجعلوهم عائدين جميعاً، إجراءً للكلام على حكم التغليب. وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال: ﴿ إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ وهو يريد عود قومه، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم، وإن كان بريئاً من ذلك، إجراء لكلامه على حكم التغليب - انتهى.

ومنها: ما قاله الناصر في (الانتصاف): إنه يسلم استعمال (العود) بمعنى (الرجوع إلى أمر سابق)، ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [الظلمات:٢٥٧] والإخراج يستدعي دخولاً سابقاً فيما وقع الإخراج منه، ونحن نعلم أن المؤمن الناشئ في الإيمان لم يدخل قط في ظلمة الكفر، ولا كان فيها. وكذلك الكافر الأصلي لم يدخل قط في نور الإيمان، ولا كان فيه. ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية التي خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكناً منه لو أراده، فعبر عن تمكن المؤمن من الكفر،

ثم عدوله عنه إلى الإيمان، إخباراً بالإخراج من الظلمات إلى النور، توفيقاً من الله له، ولطفاً به، بل وبالعكس في حق الكافر. وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ﴾ [البقرة:١٦] وهو من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب: وفائدة اختياره في هذه المواضع تحقيق التمكن والاختيار، لإقامة حجة الله على عباده – والله أعلم – انتهى.

الثاني: في قوله ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ ردّ إلى الله تعالى مستقيم.

قال الواحدي والذي عليه أهل العلم والسنة في هذه الآية، أن شعيباً وأصحابه قالوا: ما كنا لنرجع إلى ملتكم، بعد أن وقفنا على أنها ضلالة تكسب دخول النار، إلا أن يريد إهلاكنا. فأمورنا راجعة إلى الله، غير خارجة عن قبضته، يسعد من يشاء بالطاعة، ويشقي من يشاء بالمعصية. وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشيئة الله. ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة، وانقلاب الأمر. ألا ترى إلى قول الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم:٣٥]؟ وكان نبيّنا محمد ﷺ كثيراً ما يقول[١]: «يا مقلّبَ القلوب! ثبِّت قلبي على دينك».

وقال الزجاج: المعنى: وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها. وتصديق ذلك قوله ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾، يعني أنه تعالى يعلم ما يكون، من قبل أن يكون، وما سيكون. وأنه تعالى كان عالماً في الأزل بجميع الأشياء. فالسعيد من سعد في علم الله تعالى. والشقي من شقي في علم الله تعالى.

وقال الناصر في (الانتصاف): موقع قوله ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة، والاطلاع على الأمور الغائبة. فإن العود إلى الكفر جائز في قدرة الله أن يقع من العبد. ولو وقع. فبقدرة الله ومشيئته المغيّبة عن خلقه. فالحذر قائم، والخوف لازم. ونظيره قول إبراهيم عليه السلام ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:٨٠] لما ردّ الأمر إلى المشيئة، وهي مغيّبة، مجّد الله تعالى بالانفراد بعلم الغائبات – والله أعلم.

وقال أبو السعود: معنى ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا... ﴾ الآية – أي ما يصح لنا أن نعود فيها في حالٍ من الأحوال، أو في وقت من الأوقات، إلا أن يشاء الله. أي إلا حال

(١) أخرجه الترمذي في: القدر، ٧ – باب ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن.

مشيئة الله تعالى، أو وقت مشيئته تعالى. لعودنا فيها. وذلك مما لايكاد يكون، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿رَبُّنا....﴾ فإن التعرض لعنوان ربوبيته تعالى لهم، مما ينبئ عن استحالة مشيئته تعالى لارتدادهم قطعاً، وكذا قوله ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانا اللَّهُ مِنْها﴾ فإن تنجيته تعالى لهم منها، من دلائل عدم مشيئته لعودهم فيها. وقيل معناه: إلا أن يشاء الله خذلاننا. فيه دليل على أن الكفر بمشيئته تعالى. وأيّاً ما كان، فليس المراد بذلك بيان أن العود فيها في حيّز الإمكان، وخطر الوقوع، بناء على كون مشيئته تعالى كذلك، بل بيان استحالة وقوعها. كأنه قيل: وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا، وهيهات ذلك. بدليل ما ذكر من موجبات عدم مشيئته تعالى له - انتهى -.

ولا يخفى أن إفهام ذلك الاستحالة، هو باعتبار الواقع، وما يقتضيه منصب النبوة. وأما إذا لوحظ مقام الخوف والخشية، الذي هو من أعلى مقامات الخواصّ، فيكون ما ذكرناه أولاً أدقّ، وبالقبول أحق.

قال الإمام ابن القيم في (طريق الهجرتين): قد أثنى الله سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه، بعد أن أثنى عليهم ومدحهم ﴿إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً﴾ [الأنبياء: ٩٠] فالرغب الرجاء، والرهب الخوف والخشية. وقال عن ملائكته الذين قد آمنهم من عذابه ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] وفي الصحيح[١] عن النبي ﷺ أنه قال: «إني أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية». وفي لفظ آخر: إني أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقي. وكان ﷺ[٢] يصلي ولصدره أزيز كأزيز الْمِرجَل من البكاء. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فكلما كان العبد بالله أعلم، كان له أخوف.

الثالث: قال الفرّاء: أهل عُمان يسمون (القاضي) الفاتح والفتاح. لأنه يفتح مواضع الحق، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما كنت أدري ما قوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ﴾ حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول لزوجها: تعال أفاتحك، أي أحاكمك.

وقال الشهاب: الفتح، بمعنى الحكم، وهي لغةٌ لِحمْيَر، أو لمراد، والفُتاحة

(١) أخرجه البخاري في: الأدب، ٧٢ - باب من لم يواجه الناس بالعتاب، حديث ٢٢٤٣.
(٢) أخرجه النسائي في: السهو، ١٨ - باب البكاء في الصلاة.

(بالضم) عندهم الحكومة. أو هو مجاز بمعنى: أظهرْ وبيِّن أمرنا، حتى ينكشف ما بيننا وبينهم، ويتميز المحق من المبطل. ومنه فتح المشكل لبيانه وحلّه، تشبيهاً له بفتح الباب وإزالة الأغلاق، حتى يوصل إلى ما خلفها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾

﴿ وقالَ الْملأُ الّذين كفروا من قوْمِهِ لئن اتَّبعْتُمْ شعَيْباً ﴾ أي فيما يامركم به وينهاكم عنه ﴿ إنّكُمْ إذاً لَخاسِرُونَ ﴾ أي لجاهلون مغبونون، لا ستبدالكم ضلالته بهداكم، أو لفوات ما يحصل لكم من بخس الكيل والميزان.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾

﴿ فأخذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أي الزلزلة الشديدة.

قال ابن كثير: أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة، كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة هود، فقال: ﴿ ولَمَّا جاءَ أمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً والّذينَ ءامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وأخذَتِ الّذينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ [هود:٩٤]، والمناسبة هناك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا به في قولهم ﴿ أصَلاتُكَ تأْمُرُكَ... ﴾ [هود:٨٧]- الآية فجاءت الصيحة فأسكتتهم. وقال تعالى في الشعراء ﴿ فَكَذَّبُوهُ فأخذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ، إنّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء:١٨٩]، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة ﴿ فأسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِّن السَّماءِ... ﴾ [الشعراء:١٨٧]، الآية فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة. وقد اجتمع عليهم ذلك كله. أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم، فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم. ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام ﴿ فأصْبَحُواْ في دارِهِمْ ﴾ أي مدينتهم ﴿ جاثِمينَ ﴾ أي ساقطين ميتين، لاينتفعون برؤوس أموالهم ولا بزوائدها.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾

﴿ الّذِينَ كَذَّبوا شُعَيْباً كأن لَمْ يَغْنُوا فِيها ﴾ استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم:

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ والَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنا﴾ وعقوبتهم بمقابلته. والموصول مبتدأ، وخبره جملة ﴿كأن لَّمْ يَغْنَوْا فِيها﴾ أي استؤصلوا بالمرة، وصاروا كأنهم، لما أصابتهم النقمة، لم يقيموا بديارهم، التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها.

ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم السابق: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كانُواْ هُمُ الْخاسِرِينَ﴾ ديناً ودنيا، لا الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا.

قال ابن السعود: استئناف آخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الأخير. وإعادة الموصول والصلة كما هي، لزيادة التقرير، والإيذان بأن ما ذكر في حيّز الصلة، هو الذي استوجب العقوبتين. أي الذين كذبوه عليه السلام، عوقبوا بمقالتهم الأخيرة، فصاروا هم الخاسرين، لا المتبعون له، وبهذا القصر اكتفى عن التصريح بإنجائه عليه الصلاة والسلام، كما وقع في سورة هود من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً والَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ﴾.

وقال الزمخشري: في هذا الاستئناف والابتداء،وهذا التكرير، مبالغة في ردّ مقالة الملأ لأشياعهم، وتسفيه لرأيهم، واستهزاء بنصحهم لقومهم، واستعظام لما جرى عليهم.

وفي (العناية): أن من عادة العرب الاستئناف من غير عطف، في الذّم والتوبيخ. فيقولون: أخوك الذي نهب مالنا، أخوك الذي هتك سترنا. - انتهى-.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عن شفاعتهم والحزن عليهم ﴿وقالَ﴾ أي: في الاعتذار ﴿يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي﴾ أي بالأمر والنهي ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: حذرتكم من عذاب الله، ودعوتكم إلى التوبة والإيمان بما يفيد ربح الدارين، ويمنعكم خسرانهما، لكنكم كفرتم ﴿فَكَيْفَ ءَاسَى﴾ أي: أحزن حزناً شديداً ﴿على قَوْمٍ كافِرِينَ﴾ أي بالله إن هلكوا، فضلاً عن أن أشتغل بشفاعتهم. يعني أنه لا يأسى عليهم، لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى.

تنبيه :

قال الجشمي : من أحكام الآية أنها تدل على أن قوم شعيب أهلكوا بعذاب الاستئصال لما لم يقبلوا نصيحة نبيّهم. فتدل على وجوب قبول النصيحة في الدين. وتدل على أنه لا يجوز الحزن على هلاك الكفرة والظَّلَمَة. بل يجب أن يحمد الله ويشكر. كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا، والْحَمْدُ لِلَّهِ ربِّ الْعالمِينَ﴾ [الأنعام:٤٥] .

لطيفة :

ذكروا أن شعيباً، عليه السلام، يقال له خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته وأصله ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً يقول: ذاك خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته قومه.

والمراجعة (مفاعلة) من الرجوع، وهي مجاز عن المحاورة. يقال: راجعه القول. وإنما عنى النبي ﷺ ما ذكر في هذه السورة، كما يعلم بالتأمل فيه. كذا في (العناية) .

ثم أشار تعالى إلى أحوال سائر الأمم مع أنبيائهم إجمالاً، إثر بيان الأمم المذكورة تفصيلاً فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى :

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾

﴿وما أرْسَلْنا في قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ أي كذبه أهلها ﴿إلاَّ أخَذْنا أهْلَها﴾ أي قبل الإهلاك الكليّ ﴿بِالْباساءِ﴾ أي شدة الفقر ﴿والضَّرَّاءِ﴾ أي المرض، لاستكبارهم عن اتباع نبيهم، وتعززهم عليه ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ليتضرعوا ويتذللوا، ويحطّوا أردية الكبر والعزة، فيؤمنوا.

القول في تأويل قوله تعالى :

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

﴿ثُمَّ بدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي أعطيناهم – بدل ما كانوا فيه من البلاء،

كالشدة والمرض - السعةَ والصحةَ ﴿حتّى عفَوا﴾ أي كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم. من قولهم: عفا النبات، وعفا الشحم والوبر، إذا كثرت. ومنه قوله ﷺ[١] (وأعفوا اللحى) ﴿وَقالُوا قَدْ مَسَّ ءَابآءَنا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ﴾ يعني وأبطرتهم النعمة وأشِروا، فقالوا كفراناً لها: هذه عادة الدهر. يعاقب في الناس بين الضراء والسراء، وقد مس آباءنا نحو ذلك فصبروا على دينهم، فنحن مثلهم، نقتدي بهم، وما هو بابتلاء من الله لعباده، تصديقاً لوعد الرسل، فازدادوا كفراً بعد الإعلام القوليّ والفعليّ. والمعنى: أن الله تعالى ابتلاهم بالسيئة لينيبوا إليه، فما فعلوا. ثم بالحسنة ليشكروا، فما فعلوا. وإذا لم ينجع فيهم هذا ولا ذاك، فلم يبق إلا أن يأخذهم بالعذاب، وقد فعل. كما قال سبحانه ﴿فأخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أي فأخذناهم أشد الأخذ وأفظعه، وهو أخذهم فجأة، من غير شعور منهم، ولا خطور شيء من المكاره ببالهم، كقوله تعالى: ﴿حتَّى إذا فَرِحُواْ بِما أُوتُواْ...﴾ [الأنعام:٤٤] الآية - وفي الحديث[٢] «موت الفجأة راحة للمؤمن وأخذة أسف للفاجر» رواه الإمام أحمد والبيهقي عن عائشة. مرفوعاً.

تنبيه:

اعتقاد أن مناوبة الضراءِ والسراء عادة الدهر، من غير أن يكون هناك داعية تؤدي إليها، ولا حكمة فيهما، هو من اعتقاد الكافرين.

قال ابن كثير: المؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء، فيشكر الله على السراء، ويصبر على الضراء. ولهذا جاء في الحديث: «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه. والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدري فيم ربطه أهله، ولا فيما أرسلوه» - أو كما قال -.

وفي الصحيحين[٣]: «عجباً لأمر المؤمن. إن أمره كله خير. وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء يشكر، فكان خيراً له. وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

---

(١) أخرجه مسلم في: الطهارة، حديث رقم ٥٢.
والبخاري في: اللباس، ٦٥ - باب إعفاء اللحى، حديث رمق ٢٢٩٢.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ص ١٣٦ ج٦.
(٣) أخرجه مسلم في: الزهد والرقائق، حديث ٦٤.
ولم يخرجه البخاري.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾

﴿ولَوْ أنَّ أهْلَ القُرى﴾ أي القرى المُهْلَكَةَ ﴿آمَنُوا﴾ أي بالله ورسلهم ﴿واتَّقَوْا﴾ أي الكفر والمعاصي ﴿لَفَتَحْنا عَلَيْهِم بَرَكاتٍ مِّن السَّماءِ والأرْضِ﴾ أي لوسعنا عليهم الخير، ويسرناه لهم من كل جانب، مكان ما أصابهم من فنون العقوبات، التي بعضها من السماء، وبعضها من الأرض. فـ (فتحنا) استعارة تبعية، لأنه شبه تيسير البركات عليهم بفتح الأبواب في سهولة التناول. أو مجاز مرسل في لازمه، وهو التيسير. أو أريد بـ (بركات السماء) المطر و(بركات الأرض) النبات والثمار ﴿ولَكِن كَذَّبُوا﴾ أي الرسل ﴿فأخَذْناهُمْ﴾ أي عاقبناهم ﴿بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

تنبيه:

أفادت الآية قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنتْ فنَفَعَهَا إيمانُها إلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ في الْحياةِ الدُّنْيا ومَتَّعْناهُمْ إلى حِينٍ﴾ [يونس:٩٨]، أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا، وذلك بعد ما عاينوا من العذاب، كما قال تعالى عنهم ﴿فآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إلى حِينٍ﴾ [الصافات:١٤٨].

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾

﴿أفأمِنَ أهْلُ القُرَى﴾ أي: القرى المذكورة ﴿أن يأتِيَهُمْ بأسُنا﴾ أي: عذابنا ونكالنا ﴿بَيَاتاً﴾ أي: ليلاً، أي وقت بيات ﴿وَهُمْ نائِمُونَ﴾ أي حال كمال الغفلة.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾

﴿أو أمِنَ أهْلُ القُرى أن يأتِيَهُم بأسُنا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: يخوضون في الباطل ويلهون من فرط الغفلة.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)

﴿ **أفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّه** ﴾ وهو أخذه العبد من حيث لا يحتسب ﴿ **فلاَ يأْمَنُ مَكْرَ اللّه إلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ** ﴾ أي لا يأمن أحدٌ أخذَه تعالى العبدَ من حيث لا يشعر، مع كثرة ما رأى من أخذه العباد من حيث لا يحتسبون، إلا القوم الذي خسروا عقولهم، وأضاعوا فطرة الله التي فطر الناس عليها، والاستعداد القريب المستفاد من النظر في الآيات، فصاروا خاسرين إنسانيتهم، بل أخسّ من البهائم. وفي قوله تعالى: ﴿ **أفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّه** ﴾ تكرير للنكير في قوله: ﴿ **أفأمِنَ أهْلُ الْقرُى** ﴾ لزيادة التقرير.

قال الزمخشري: فعلى العاقل أن يكون في خوف من مكر الله، كالمحارب الذي يخاف من عدوّه الكمين، والبيات، والغيلة. وعن الربيع بن خُثَيْم أن ابنته قالت: ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام؟ فقال: يا بنتاه! إن أباك يخاف البيات. أراد قوله: ﴿ أن يأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً ﴾ - انتهى-.

وقال الحسن البصري: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق، وَجِلٌ خائفٌ. والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

تنبيه:

الأمن من مكر الله كبيرة عند الشافعية، وهو الاسترسال في المعاصي، اتكالاً على عفو الله - كما في جمع الجوامع -.

وقال الحنفية: إنه كفر كاليأس، لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ** ﴾ [يوسف: ٨٧]، ﴿ **فلا يأْمَنُ مَكْرَ اللّه إلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرونَ** ﴾.

واستدل الشافعية بحديث ابن مسعود رضي الله عنه (مِنَ الكَبَائِرِ الأمْنُ مِنْ مَكْرِ اللّهِ). وما ورد من أنه كفر، محمول على التغليظ. كذا في (العناية).

وروى ابن أبي حاتم والبزار عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه ﷺ سئل: «ما الْكَبَائِرُ؟ فَقَالَ: الشِّرْكُ باللّهِ، والإِيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللّهِ، والأمْنُ مِنَ مَكْرِ اللّهِ. قال بعضهم: والأشبه أن يكون موقوفاً».

قال ابن حجر: وبكونه أكبرَ الكبائر، صرح ابن مسعود: كما رواه عنه عبد الرزاق والطبراني.

قال الكمال بن أبي شريف: عطفهُما - يعني الإياس والأمن - في الحديث على (الإشراك بالله) المحمول على مطلق الكفر، ظاهر في أنهما غير الكفر.

وقال أيضاً. مراد الشافعية بكونه كبيرة، أن من غلب عليه الرجاء غلبة دخل بها في حد الأمن من المكر، كمن استبعد العفو عن ذنوبه لعظمها استبعاداً دخل به في حد اليائس. وأما من كان أمنه لاعتقاد أن لا مكر، كمن كان يأسه لإنكار سعة الرحمة ذنوبَه. فينبغي أن يكون كل منهما كافراً عند الشافعية أيضاً، ويحمل عليه نص القرآن - انتهى -.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿أوَلَمْ يَهْدِ﴾ أي يتبين ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أي المأخوذين.

﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي كما أصبنا من قبلهم فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾ أي نختم عليها فلا يقبلون موعظة ولا إيماناً.

قال أبو البقاء: يقرأ (يهد) بالياء وفاعله (أن لو نشاء). و(أن) مخففة من الثقيلة. أي: أو لم يبين لهم علمهُم بمشيئتنا. ويقرأ بالنون. و(أن لو نشاء) مفعوله. وقيل: فاعل (يهدي) ضمير اسم الله تعالى- انتهى-.

ويؤيده قراءة النون. وجوز أن يكون ضميراً عائداً على ما يفهم مما قبله، أي: أوَلَمْ يهد ما جرى للأمم السابقة. وتعدية (يهد) باللام، لأنه بمعنى (يبين) إما بطريق المجاز، أو التضمين.

قال الشهاب: وإنما جعل بمعنى (يبين)، وإن كان (هدى) يتعدى بنفسه، وباللام وبإلى - لأن ذلك في المفعول الثاني لا في الأول، كما هنا، فهذا استعمال آخر. وقيل: لك أن تحمل اللام على الزيادة، كما ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] والمراد بـ(الذين) أهل مكة ومن حولها، كما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما - انتهى- .

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾

﴿**تِلْكَ الْقُرَى**﴾ أي المذكورة وهي قرى قوم نوح وعاد وثمود، ،وقوم لوط، وقوم شعيب ﴿**نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا**﴾ مما يدل على مؤاخذتهم بذنوبهم لإصرارهم عليها بعد التنبيه.

ثم بين تعالى أنه أعذر إليهم بأن بيّن لهم بالحجج على ألسنة الرسل بقوله: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَتْهُم رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ**﴾ عند مجيء الرسل بالبينات والدلائل القاطعة ﴿**بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ**﴾ أي بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم، إذ تمرنوا على التكذيب، فلم تفدهم الآيات، واستوت عندهم الحالتان، كقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ الآية [الأنعام: ١٠٩ - ١١٠] - ولهذا قال ﴿**كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ**﴾ أي من المذكورين وغيرهم، فلا يكاد يؤثر فيها الآيات والنذر، لما علم أنهم يختارون الثبات على الكفر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

﴿**وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ**﴾ أي من وفاء عهد ﴿**وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ**﴾ أي: خارجين عن الطاعة مارقين، فلذلك أخذناهم.

قال الزمخشري: الضمير (للناس) على الإطلاق، أي وما وجدنا لأكثر الناس من عهد. يعني: أن أكثر الناس نقض عهد الله وميثاقه في الإيمان والتقوى. والآية اعتراض.

ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المذكورين، وأنهم كانوا، إذا عاهدوا الله في ضرّ ومخافة، لئن أنجيتنا لنؤمنن، ثم نجاهم، نكثوا.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

﴿**ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم**﴾ أي :الرسل المتقدم ذكرهم، وهم نوح وهود وصالح

ولوط وشعيب، أو الأمم المحكية من بعد هلاكهم ﴿مُّوسَى بِآيَاتِنَا﴾ وهي العصا، واليد البيضاء، والسنون، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّل، والضفادع، والدم، حسبما يأتي مفصلاً ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك مصر في عهد موسى ﴿وَمَلإِيْهِ﴾ أي قومه ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي كفروا بها. أجرى الظلم مجرى الكفر في تعديته بالباء، وإن كان يتعدى بنفسه، لأنهما من وادٍ واحد. ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]. أو هو بمعنى الكفر مجازاً أو تضميناً، أي : كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه، وهو موضع الإيمان، لأنه أوتي الآيات لتكون موجبة للإيمان بما جاء به. فعكسوا، حيث كفروا فوضعوا الشيء في غير موضعه، أو الباء سببية، ومفعوله محذوف، أي ظلموا أنفسهم بسببها، بأن عرضوها للعذاب الخالد. أو ظلموا الناس لصدّهم عن الإيمان بها، والمراد به الاستمرار على الكفر بها إلى أن لقوا من العذاب ما لقوا ، كما يشير له قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي لعقائد الخلق، أفسد الله عليهم ملكهم، وآتاه أعداءهم ، فاغرقهم عن آخرهم، وبمرأى من موسى وقومه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أرسلني إليك الذي هو خالق كل شيء وربه.

القول في تأويل قوله تعالى:

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾

﴿حَقِيقٌ عَلَى أن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ أي جدير بذلك وحري به، لما علمتَ من حالي. والباء و(على) يتعاقبان. يقال: رميت بالقوس وعلى القوس. وجاء على حال حسنة وبحال حسنة. وقرأ أُبيّ رضي الله عنه (حقيق بأن لا أقول) ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي آية منه تشهد على صدقي فيما جئتكم به بالضرورة ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ روي أنه تعالى أمره أن يأتي فرعون ويقول له : إن إلهنا أمرنا أن نسير ثلاثة أيام في البرّية ، ونقرّب له قرابين ونعبده. وقد علم تعالى أن فرعون لا يدعهم يمضون، ولكن ليظهر آياته على يد موسى ، ويهلك عدوّه. فلما

أتى موسى فرعونَ وكلمه في أن يرسل معه قومه، أنكر أمر الرب له، وقال : لماذا نعطل الشعب عن أعماله؟ وكانوا مسخرين لفرعون في عمل اللبن، وأمر بزيادة عملهم، بأن يجمعوا التبن من أنفسهم، بعد أن كانوا يعطونه من قبل فرعون.

ثم طلب فرعون من موسى آية، كما قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾

﴿ قَال إن كُنتَ جِئتَ بآيَةٍ فَأْتِ بِها إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقين ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾

﴿ فالقى عَصَاهُ ﴾ التي هي جماد **﴿ فإذَا هِيَ ﴾** أي من غير سترة ولا معالجة سبب **﴿ ثُعْبَانٌ ﴾** أي حية كبيرة هائلة، فاضت عليه الحياة لتدل على فيضان الحياة العظيمة على يديه **﴿ مُّبِينٌ ﴾** أي ظاهر لا مُتخيَّل.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أي أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه **﴿ فإذَا هِيَ بَيْضاءُ للنَاظِرينَ ﴾** أي بيضاء بياضاً نورانياً خارجاً عن العادة يجتمع عليه النظارة تعجباً من أمرها. فيدلّ على أنه يظهر على يديه شرائع تغلب أنوارُها المعنوية الأنوارَ الحسية، ويتقوى بها الحياة بالله.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾

﴿ قَالَ المَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي الأشراف يكرهون شرف الغير عليهم، في دفع هذه الآيات الظاهرة عن خواطر الخلق **﴿ إنَّ هَذَا لَساحِرٌ عَليمٌ ﴾** أي ماهر فيه.

القول في تأويل قوله تعالى:

يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾

﴿ يُريدُ أن يُخرِجَكُم مِّن أرْضِكُمْ ﴾ أي من أرض مصر بسحره ليتملك عليها

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ اي تشيرون في امره. وهذا من تمام الحكاية عن قول الملأ، أو مستأنف من قول فرعون، تقديره فقال : ماذا تأمرون؟ ويدل عليه قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾

﴿قَالُوا أَرْجِه وَأَخَاهُ﴾ اي اخّر امرهما واصدرهما عنك، حتى ترى رأيك فيهما، وتدبر شأنهما ، لئلا تنسب إلى الظلم الصريح.

قال أبو منصور: والأمر بالتأخير دل على أنه تقدم منه أمر آخر، وهو الهمّ بقتله، فقالوا أخّره ليتبين حاله للناس. وأصل ﴿أَرْجِهْ﴾ أرجئه، كما قرئ كذلك. من (أرجأت) ﴿وأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ أي مدائن الصعيد من نواحي مصر ﴿حَاشِرِينَ﴾ أي من يحشر لك السحرة ويجمعهم.

القول في تأويل قوله تعالى :

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ﴾ وقرى (سحّار) ﴿عَلِيمٍ﴾ اي ماهر في باب السحر، ليعارضوا موسى ما أراهم من البينات.

تنبيه :

قال الجشمي :تدل الآية على عظيم معجزة لموسى، وتدل على جهل فرعون وقومه، حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية تسعى لا يقدر عليه غير الله تعالى، حتى نسبوه إلى السحر. وتدل على أن عادة البشر، أن من رأى أمراً عظيماً أن يعارضه. فلذلك دعا فرعون بالسحرة. فدل على أن العرب لو قدروا على مثل القرآن، لعارضوه. وتدل على أن الطريق في المعجزات، المعارضة بإتيان مثله، ولذلك قال تعالى في القرآن: ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [يونس:٣٨]. ولذلك لم يتكلف فرعون وقومه غير المعارضة وإيقاع الشبه. وتدل أنهم أنكروا أمره محافظة على الملك والمال ، لذلك قالوا ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ فيدل على أن من أقوى الدواعي إلى ترك الدين، المحافظة على الرياسة والمال والجاه، كما هو عادة الناس في هذا الزمن. انتهى.

ثم تسابقت شُرَط فرعون، فحشروهم . كما قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾

﴿ وجاءَ السَّحرةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إنَّ لَنا لأجْراً إن كُنَّا نحْنُ الْغالِبينَ ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

﴿ قَالَ نعَمْ وإنَّكمْ لَمِنَ الْمُقرَّبين ﴾ ولما توثقوا من فرعون.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إمَّا أن تُلْقِيَ وإمَّا أن نَّكُونَ نحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ أي أول من ألقى، كما في الآية الأخرى. قيل خيّروا موسى إظهاراً للجلادة، فلم يبالوا بتقدمه أو تأخره.

وقال الزمخشريّ تخييرهم إياه أدب حسن، راعوه معه، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا، كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا في الجدال، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

﴿ قَالَ ﴾ أي : موسى لهم ﴿ أَلْقُواْ ﴾ أي ما أنتم ملقون. وإنما سوغ لهم التقدم ازدراءً لشأنهم، وقلة مبالاة بهم، وثقة بما كان بصدده من التأييد الإلهيّ، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبداً ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ أي خيلوا لها ما ليس في الواقع ﴿ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ أي وخوفوهم وأفزعوهم بما فعلوا من السحر، كما في الآية الأخرى: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ من سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى ﴾ [طه: ٦٦ - ٦٨]. ﴿ وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : في باب السحر، أو في عين من رآه، فإنه ألقى كل واحد عصاه، فصارت العصي ثعابين.

تنبيه:

قال الجشمي: تدل الآيات على أن القوم أتوا بما في وسعهم من التمويه، وكان الزمان زمان سحر، والغالب عليهم الاشتغال به، فأتى موسى عليه السلام من جنس ما هم فيه، ما لم يقدر عليه أحد، ليعلموا أنه معجز وليس بسحر. وهكذا ينبغي في المعجزات أن تكون من جنس ما هو شائع في القوم، ويتعذر عليهم مثله. وكان الطب هو الغالب في زمن عيسى، فجاء بإحياء الميت، وإبراء الأكمه والأبرص، وليس في وسع طبيب. وكان الغالب في زمن نبيّنا عليه السلام الفصاحة والخطب والشعر، فجاء القرآن وتحداهم به. وتدل على أنهم بالحيل جعلوا الحبال والعصيّ متحركة حتى أوهموا أنها أحياء. ولكن لما وقف على أصل ما فعلوه وعُلِم، وكان مثله مقدوراً لكل من يتعاطى صناعتهم، عُلِمَ أنه شعبذة. ولهذا تتفارق المعجزة والشعبذة. أنه يوقف على أصلها، ويمكن إتيان مثلها، ويخفى أمرها، بخلاف المعجزة.

ثم قال: وتدل على اعتراف فرعون بالذل والضعف، حيث استغاث بهم وبمهنتهم لدفع مكروه. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾

﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ** ﴾ أي تبتلع ﴿ **مَا يَأْفِكُونَ** ﴾ أي ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾

﴿ **فَوَقَعَ الْحَقُّ** ﴾ أي ثبت الإعجاز ﴿ **وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ أي من السحر لإبطال الإعجاز.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾

﴿ **فَغُلِبُوا هُنَالِكَ** ﴾ أي في مكان الوعد الذي اجتمع فيه أهل مصر بدعوته، لظنه

غلبة السحرة ﴿ وانقلَبُواْ ﴾ أي رجعوا ﴿ صَاغِرِينَ ﴾ أي: ذليلين.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾

﴿ وأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ ﴾

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾

﴿ قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَرُونَ ﴾.

قال الجشمي: دلت الآية على أن السحرة عرفوا أن أمر العصا ليس من جنس السحر، فآمنوا في الحال. وتدل على أنهم بتلك الآيات استدلوا على التوحيد والنبوة، لذلك اعترفوا بهما.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿ قَالَ فِرْعَوْنَ آمنتم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا ﴾ أي الصنع ﴿ لَمَكْرٌ ﴾ أي حيلة ﴿ مَّكَرْتُمُوهُ ﴾ أي دبرتموه أنتم وموسى ﴿ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ أي في مصر قبل الخروج للميعاد ﴿ لِتُخْرِجُواْ مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وعيد أجمله ثم فصله بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾

﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّن خِلاَفٍ ﴾ أي من كل جانب، عضواً مغايراً للآخر، كاليد من أحدهما، والرجل من آخر.

قال الشهاب: ﴿مِّنْ خِلاف﴾ حال، أي مختلفة. وقيل ﴿مِّنْ﴾ تعليلية متعلقة بالفعل، أي لأجل خلافكم، وهو بعيد.

﴿ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي تفضيحاً لكم. وتنكيلاً لأمثالكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنا مُنقَلِبُونَ﴾ أي فلا نبالي بما تهددنا به، لأنه هو الذي يقربنا إلى من آمنا به، فيحيينا بحياة خير من الحياة الدنيوية.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ أي ما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله. أي وما عبته وأنكرته هو أعظم محاسننا، لأنه خير الأعمال، وأعظم المناقب، فلا نعدل عنه طلباً لمرضاتك ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً﴾ اي أَفِضْ علينا صبراً واسعاً لنثبت على دينك ﴿وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ﴾ أي ثابتين على الإسلام.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي خوفاً من انقلاب الخلائق عليهم حين رأوا السحرة جاهروا بالإسلام، ولم يبالوا بالتوعد ﴿أَتَذَرُ﴾ أي أتترك ﴿مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ﴾ أي في أرض مملكتك بتغيير الناس عنك ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ الآلهة جمع (إله)، بمعنى المعبود. وكان للمصريين آلهة كثيرة منها المسمى (أوسيرس) وكانوا يعتقدون أن روحه توجد في الثور المسمى (أبيس)، فيعبدونه أيضاً، ويعبدون كثيراً من الحيوانات. وكانوا يعبدون الظلام أيضاً، ويعبدون (بَعْلَزَبوب) صنم (عقرون) يعتقدون أن وظيفته طرد الذباب. وبالجملة فقد فاقوا كل من سواهم في الضلال، فكانوا يسجدون للشمس والقمر والنجوم والأشخاص البشرية

والحيوانات، حتى الهوامّ وأدنى حشرات الأرض. هكذا حكى عنهم بعض المدققين.

وقد ذكر الشهرستانيّ في (الملل والنحل) أن فرعون كان أول أمره على مذهب الصابئة، ثم انحرف عن ذلك، وادعى لنفسه الربوبية، إذ رأى في نفسه قوة الاستعمال والاستخدام. انتهى.

وتقدم في سورة البقرة بيان مذهب الصابئة. فتذكَّرْ.

وقال بعضهم: إن كلمة (الآلهة) لفظة اصطلاحية عند العبرانيين، يراد بها القضاة والحكام الذين يقضون بأمر الله، وأنها لو حملت على هذا ههنا، لم يبعد، ويكون المعنى: وبذرك وقضاتك وذوي أمرك، ويكون الغرض من ذكرهم معه تهويل الأمر، وإلهاب قلب فرعون على موسى، وإثارة غضبه. وقد صرح غير واحد بوقوع ألفاظ من غير العربية في القرآن، كما نقله السيوطي في النوع الثامن والثلاثين من (الإتقان) – انتهى – والأظهر ما قدمناه أولاً. ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد ﴿أَبْنَاءَهُمْ﴾ المولودين ﴿وَنَسْتَحْيِي﴾ أي نستبقي ﴿نِسَاءَهُمْ﴾ أي للاستخدام ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ أي بالغلبة والقدرة عليهم، ففعلوا بهم ذلك، فشكا بنو إسرائيل.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُواْ بِاللَّهِ وَاصْبِرُواْ﴾ أي على أذاهم ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا﴾ أي يعطيها ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني أن النصر والظفر للمتقين على عدوّهم. وكان تعالى وعد موسى بأنه سيطرد المصريين من أرضهم، ويهلكهم وينجي قومه من عذاب آل فرعون لهم.

تنبيه:

قال الجشمي: تدل الآيات على أن قوم فرعون، لما عجزوا عن موسى في آياته، عدلوا إلى إغراء فرعون بموسى، وأوهموه أن تركه فساد في الأرض، وأنه عند ذلك أوعده. وذلك من أدلّ الدليل على نبوة موسى، لأن قتل صاحب المعجزة لا يقدح في معجزته، ولهذا قال مشايخنا: إن العرب لما عدلوا عن معارضة القرآن، التي في إيرادها إبطال أمر النبي ﷺ، إلى القتال، الذي لايفيد ذلك – دلّ على عجزهم. وهكذا حال كل ضالّ مبتدع، إذا أعيته الحجة، عدل إلى التهديد والوعيد. وتدل على أن عند الخوف من الظَّلَمة يجب الفزع إلى الله تعالى، والاستعانة به، والصبر.

ولا مفزع إلا في هذين: وهو الانقطاع إلى الله تعالى بطلب المعونة في الدفع، واللطف له في الصبر. وتدل على أن العاقبة المحمودة تنال بالتقوى، وهي اتقاء الكبائر والمعاصي. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

﴿**قَالُوا**﴾ أي قوم موسى ﴿**أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا**﴾ أي فعلوا بنا من الهوان والإذلال من قبل بعثتك وبعدها. ثم صرح لهم موسى بما رمز إليه من البشارة قبلُ ﴿**قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ**﴾ أي فرعون وجنوده ﴿**وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ أي فيرى الكائن منكم من العمل، حسنه وقبيحه، وشكر النعمة وكفرانها، ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم. ثم بيّن تعالى ما أَحَلّ بفرعون وقومه من الضرّاء، لما تأبى عن إجابة موسى وإرسال قومه معه، بقوله سبحانه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ**﴾ أي بالجدب والقحط ﴿**وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾ أي يتعظون فيرجعوا عما هم فيه من الكفر إلى أمر موسى. وذلك لأن الشدة ترقّق القلوب، وترغّب في الضراعة إلى الله تعالى.

قال الجشمي: تدل الآية علىَ أن الشدة والبؤس قد يكونان لطفاً وصلاحاً في الدين، لذلك قال: ﴿**لَعَلَّهُم يَذَّكَّرُونَ**﴾.

ثم بين تعالى أنهم مع تلك المحن عليهم ، والشدائد، لم يزدادوا إلا تمرداً وكفراً، فقال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

﴿**فَإِذَا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ**﴾ أي الصحة والخصب ﴿**قَالُواْ لَنَا هَذِهِ**﴾ أي لأجلنا

واستحقاقنا، ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم، فيشكروه على إنعامه ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ شدة ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾ أي يتشاءموا. وأصله (يتطيروا). يعني أنهم يقولون: هذه بشؤمهم ﴿أَلا إِنَّما طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أي شدتهم، وما طار إليهم من القضاء والقدر عند الله ، لا عند غيره، أي من قبله تعالى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَيَعْلَمُونَ﴾ أي أن ما أصابهم من الله تعالى، مايقولون، مما حكى عنهم. ثم أخبر تعالى عن شدة تمرد فرعون وقومه وعتوّهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بمصدقين بالرسالة.

القول في تأويل قوله تعالى :

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ أي على آل فرعون. وأما قوم موسى فلطف تعالى بهم، فلم ينلهم ولا محالّهم سوء من الطوفان ولا غيره. والطوفان (لغةً) هو المطر الغالب، ويطلق على كل حادثة تطيف بالإنسان وتحيط به، فعمّ الطوفان الصحراء، وأتلف عُشبها، وكسر شجرها، وتواصلت الرعود والبروق، ونيران الصواعق في جميع أرض مصر ﴿وَالْجَرَادَ﴾ فاكل جميع عشب أرض مصر والثمر، مما تركه الطوفان، حتى لم يبق شيء من ثمرة ولا خضرة في الشجرة، ولا عشب في الصحراء ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ فعمَّ أرض مصر، وكان على الناس والبهائم، وهو بضم وتشديد كـ(سُكَّر) صغار الذرّ، أو شيء صغير بجناح أحمر. أو دوابّ صغار من جنس القردان، أو الدبي الذي لا أجنحة له، وهو الجراد الصغار.

قال أبو البقاء: (القمّل) يقرأ بالشديد والتخفيف مع فتح القاف وسكون الميم. قيل: هما لغتان. قيل: هما القمل المعروف في الثياب ونحوها، والمشدد يكون في الطعام — انتهى.

وردّ ابن سيده، وتبعه المجد في (القاموس) القول بان المراد به قمل الناس.

﴿والضَّفَادِعَ﴾ فصعدت من الأنهار والخلج والمناقع، وغطّت أرض مصر ﴿والدَّمَ﴾ فصارت مياه مصر جميعها دماً عبيطاً، ومات السمك فيها، وأنتنت الأنهار، ولم يستطع المصريون أن يشربوا منها شيئاً ﴿آياتٍ مُفَصَّلاتٍ﴾ أي مبينات لا يشكل على عاقل أنها آيات الله تعالى ونقمته، أو مفرقات بعضها إثر بعض. و(آيات) حال من المنصوبات قبل ﴿فاسْتَكْبَرُوا﴾ أي عن الإيمان، فلم يؤمنوا لموسى. ويرسلوا معه بني إسرائيل ﴿وكانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾ أي عاصين كافرين.

قال الجشمي: تدل الآية على عناد القوم، وإصرارهم على الكفر وجهلهم، حيث عاهدوا في كل آية يأتي بها علىَ صدقه وإثبات العهد، أنهم لا يؤمنون بها، وليس هذه عادة مَنْ غَرَضُهُ الحق. وتدل على ذم من يرى الآيات ولا يتفكر فيها. وتدل على وجوب التدبر في الآيات. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾

﴿ولَمَّا وقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي نزل بهم العذاب المفصل ﴿قالُوا يا مُوسى ادْعُ لَنا ربَّكَ بِما عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي بعهده عندك، وهو النبوة. فـ(ما) مصدرية.

قال الشهاب: سميت النبوة عهداً، لأن الله عهد إكرام الأنبياء بها، وعهدوا إليه تحمل أعبائها، أو لأن لها حقوقاً تحفظ، كما تحفظ العهود. أو لأنها بمنزلة عهد ومنشور من الله تعالى - انتهى -.

﴿لئِنَ كَشَفْتَ عنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لكَ ولَنُرْسِلَنَّ معَكَ بنِي إِسْرائيل﴾ أي الذين أرسلت لطلبهم، ليعبدوا ربهم تعالى.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾

﴿فلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجزَ إلى أجَلٍ هُم بَالِغُوهُ﴾ يعني إلى الوقت الذي أجّل لهم، وهو وقت إهلاكهم بالغرق في اليمّ ﴿إذا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي ينقضون العهد الذي التزموه، فلم يفوا به. فإن فرعون كان كلما حلّ بمصر نقمة مما تقدم، يدعو موسى،

ويطلب منه أن يشفع إلى الله تعالى بكشفها، ويَعِدُهُ أنها إذا كشفت أطلق شعبه لعبادته تعالى، حتى إذا كشفت أخلف ما وعد، وقسا قلبه. ولما لم يتعظوا بما شاهدوه مما تقدم، أنتهم النقمة القاضية، كما قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ



﴿ فانتَقَمْنا مِنهُمْ فأغرَقْناهُمْ فِي اليم ﴾ أي البحر **﴿ بأنَهُمْ كَذَّبُوا بآياتِنا وكانُواْ عَنْها غَافِلينَ ﴾** أي كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى وإعراضهم، وعدم تفكرهم ومبالاتهم بها. وقد روي أن فرعون، بعد أن أبصر ما أبصر من الضربات الربانية على مصر، أذن لموسى وقومه أن يخرجوا من مصر، ليقيموا عبادة الله تعالى حيث شاؤوا، فارتحل بنو إسرائيل على عَجَلٍ ليلاً، وساروا بكل ما معهم من غنم وبقر ومواشٍ، من عين شمس إلى (سُكُّوت) وسلكوا طريق برية البحر الأحمر، ولما سمع فرعون بارتحالهم، ندم على ما فعل، من إطلاقهم من خدمته، فجمع جيشه ومراكبه الحربية، ولحقهم فادركهم، وكانوا قد وصلوا إلى شاطئ البحر الأحمر. حينئذ خاف الإسرائيليون، وأخذو يتذمرون على موسى، فقال لهم: لا تخافوا، إن الله معنا. ثم أمر تعالى موسى، فمد يده إلى البحر الأحمر، فانشق ماؤه، وصار فيه طريق واسعة، وأرسل الله ريحاً شرقية شديدة، فيبس قعره، فعبر فيه الإسرائيليون، والماء عن يمينهم وشمالهم، فتبعهم فرعون وجنوده وتوسطوا البحر، فمدّ موسى يده، بإذن الله، على البحر، فارتدّ ماؤه سريعاً، وغمر فرعونَ وجنوده ومراكبه، فغرقوا جميعاً، ثم طَفَتْ جِيَفُهُم على وجه الماء، وانقذفت إلى الساحل، فشاهدها الإسرائيليون عياناً. هذا ملخص ما روي هنا.

تنبيه:

قال الجشمي: تدل الآية أنه تعالى أهلكهم بعد أن أزاح العلة بالآيات، وتدل على أن ما أصابهم كان عقوبة وجزاء على فعلهم، وتدل على قبح الاعتراض على آيات الله، وتدل على وجوب النظر، وتدل على أن النكث فعلهم، والاعراض، فلذلك عاقبهم عليهما. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿وأورثنا القومَ الذينَ كانوا يُستَضعَفونَ﴾ أي بالاستعباد وقتل الأبناء. وفي التعبير عنهم بهذا، إظهار لكمال لطفه تعالى بهم، وعظيم إحسانه إليهم، وفي رفعهم من حضيض المذلة إلى أوج العزة ﴿مشَارِقَ الأرْضِ ومغَارِبها﴾ أي الأرض المقدسة، أي جوانبها الشرقية والغربية، حيث ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة، وتصرفوا في أكنافها حيث شاءوا. وقوله تعالى: ﴿الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ أي بالخصب وسعة الأرزاق ﴿وتمَّتْ كَلمتُ ربِّكَ الْحُسْنى على بَني إسْرائيلَ﴾ أي مضت واستمرت عليهم، وهي وعده إياهم بالنصر والتمكين ﴿بِما صَبَروا﴾ أي بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه.

قال الزمخشري: وحسبك به حاثّاً على الصبر، ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع، وكله الله إليه. ومن قابله بالصبر، وانتظار النصر، ضمن الله له الفرج.

وعن الحسن: عجبت ممن خفّ كيف خفّ، وقد سمع قوله تعالى – وتلا الآية – ومعن (خفّ) طاش جزعاً وقلة صبر، ولم يرزن أولي الصبر.

﴿ودَمَّرْنا﴾ أي خربنا وأهلكنا ﴿ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنَ وقَوْمُهُ﴾ أي ما كانوا يعملون ويسوّون من العمارات وبناء القصور ﴿وما كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (بكسر الراء وضمها) أي من الجنّات. أو ماكانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء، كصرح هامان. وهذا كما قال تعالى: ﴿ونُريدُ أن نَّمُنَّ على الَّذينَ اسْتُضعِفُوا في الأرْض ونَجْعَلَهُمْ ائمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الْوَارِثينَ ونُمَكِّن لَهُمْ فِي الأرْضِ ونُرِي فِرْعَوْنَ وهامانَ وجُنُودهُما منْهُم مَّا كانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦]. وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جنَّاتٍ وَعُيُونٍ وزُرُوعٍ ومَقامٍ كَرِيمٍ ونَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ كَذَلكِ وأوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨].

قال الزمخشري: وهذا آخر ما اقتص الله من نبأ فرعون والقبط، وتكذيبهم بآيات الله، وظلمهم ومعاصيهم، ثم أتبعه اقتصاص نبأ بني إسرائيل، وما أحدثوه بعد

إنقاذهم من مُلْكَةِ فرعون، واستعباده، ومعاينتهم الآيات العظام، ومجاوزتهم البحر: مِن عبادة البقر، وطلب رؤية الله جهرة، وغير ذلك من أنواع الكفر والعاصي، ليعلم حال الإنسان وانه، كما وصفه ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤]، جهول كنود، إلا من عصمه الله ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، وليسلّي رسول الله ﷺ مما أريَ من بني إسرائيل بالمدينة، فقال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾

﴿وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ﴾ أي الذي أغرق فيه أعداءهم، وهو بحر القلزم كـ(قنفذ)، بلد كان في شرقيّ مصر، قرب جبل الطور، أضيف إليه، لأنه على طرفه، ويعرف البلد الآن بـ(السويس) ومن زعم أن البحر هو نيل مصر، فقد أخطأ، كما في (العناية).

﴿فأتَوْا على قَوْمٍ يَعْكُفُونَ﴾ قرئ بضم الكاف وكسرها **﴿على أصْنامٍ لَهُمْ﴾** أي يواظبون على عبادتها ويلازمونها **﴿قالُوا يا مُوسى اجْعَل لَنا إلهاً﴾** أي صنماً نعكف عليه **﴿كَما لَهُمْ إلِهَةٌ﴾** أي أصنام يعكفون عليها **﴿قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾** أي شان الألوهية وعظمتها،وانه لا يستحقها إلا الله وحده.

قال البغويّ رحمه الله: ولم يكن ذلك شكّاً من بني إسرائيل في وحدانية الله تعالى، وإنما معناه اجعل لنا شيئاً نعظمه، ونتقرب بتعظيمه إلى الله تعالى. وظنوا أن ذلك لا يضر بالديانة، وكان ذلك لشدة جهلهم. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

﴿إنَّ هؤُلاءِ﴾ يعني عبدة تلك التماثيل **﴿مُتَبَّرٌ﴾** أي مهلك **﴿مَاهُمْ فِيهِ﴾** أي من الشرك **﴿وباطِلٌ مَا كانُوا يَعْمَلون﴾** أي عبادة الأصنام، وإن كان قصدهم بذلك التقرب إلى الله تعالى، فإنه كفر محض.

قال الرازي : أجمع كلّ الأنبياء، عليهم السلام، على أن عبادة غير الله تعالى كفر، سواء اعتقد في ذلك الغير كونه إلهاً للعالم، أو اعتقد أن عبادته تقرب إلى الله

تعالى، لأن العبادة نهاية التعظيم، فلا تليق إلا بمن يصدر منه غاية الإنعام، وهي بخلق الجسم والحياة والشهوة والقدرة والعقل وخلق الأشياء المنتفع بها. والقادر على هذه الأشياء ليس إلا الله تعالى، فوجب أن لا تليق العبادة إلا به. انتهى.

وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى غزوة حنين مرّ بشجرة للمشركين كانوا يعلّقون عليها أسلحتهم يقال لها (ذات أنواط) فقالوا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى ﴿اجْعَل لَّنا إِلَهاً كما لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ والذي نفسي بيده! لتركبنّ سنن من كان قبلكم - أخرجه الإمام أحمد[١] والترمذيّ[٢] وابن جرير وغيرهم -.

وقال الإمام أبو بكر الطرطوشي المالكي: انظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس، ويعظمونها، ويرجون البرء والشفاء من قِبَلِها، ويضربون بها المسامير والخرق، فهي ذات أنواط، فاقطعوها.

وقال الحافظ أبو شامة الشافعي الدمشقي في كتاب (البدع والحوادث): وقد عم الابتلاء بتزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعُمُد، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه، مع تضييعهم فرائض الله وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظُم وقع تلك الأماكن في قلوبهم، فيعظِّمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم، وقضاء حوائجهم، بالنذر لها، وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر. ثم شرح شجرة مخصوصة فقال: ما أشبهها بذات أنواط، التي في الحديث.

وروى ابن وضاح في كتابه قال: سمعت عيسى بن يونس يقول: أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ فقطعت، لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها، فخاف عليهم الفتنة. ولهذا البحث تتمة مهمة في (إغاثة اللهفان) لابن القيّم. فلتنظر.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٤٠)

﴿قال﴾ أي موسى، مذكّراً لقومه نعمه تعالى عليهم، الموجبة لتخصيصه

(١) أخرجه في المسند ٥/٢١٨.

(٢) أخرجه الترمذي في: الفتن، ١٨ - باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم.

تعالى بالعبادة ﴿أغيْرَ اللهِ أبغيكُمْ إلهاً﴾ أي أطلب لكم معبوداً. يقال: أبغاه الشيء طلبه له، كـ (بغاه إياه)، يتعدى إلى مفعولين، وليس من باب الحذف والإيصال. وفي الحديث[1]: أبغني أحجاراً أستطيب بها، بهمزة القطع والوصل. وقال الشاعر:

وكم آملٍ من ذي غنىً وقرابةٍ لتبغيَه خيراً وليس بفاعلِ

والاستفهام في الآية للإنكار والتعجب والتوبيخ ﴿وهُو فضَّلَكُمْ على العالَمِينَ﴾ أي والحال، أنه تعالى خصكم بنعم لم يعطها غيركم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

﴿وإذْ أنجَيْناكُمْ مِّن آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: من فرعون وقومه ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذابِ﴾ أي يكلفونكم إياه، أو يولونكم إياه، يقال: سامه الأمر يسومه، كلفه إياه وجشمه وألزمه. أو أولاه إياه ﴿يقَتِّلُونَ أبْناءَكُمْ ويَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وفِي ذَلِكُمْ بلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي فنجاكم منه وحده، من غير شفاعة أحد.

تنبيه:

قال الجشمي: تدل الآية على أن هلاك الأعداء نعمة من الله يجب مقابلتها بالشكر. وتدل على أن المحن في الأولاد والأهل بمنزلة المحن في النفس، ويجري مجراه. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

﴿وَواعَدْنا مُوسى ثلاثِينَ لَيْلَةً وأتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتمَّ مِيقاتُ ربِّه أرْبَعين لَيْلَةً﴾

روي أن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر، نزلوا في بريّة طور سيناء، وكانت مدة خروجهم إلى أن نزلوا شهراً ونصفاً. ولما نزلوا تلقاء الجبل، صعد موسى إليه،

(١) أخرجه البخاري في: الوضوء، ٢٠ - باب الاستنجاء بالحجارة، حديث رقم ١٢٦.

وسمع كلامه تعالى وأوامره ووصاياه.. ثم انحدر موسى إلى قومه، وأعلمهم بما أمروا به، وصاروا يشاهدون على الجبل ضباباً، وصوت رعود، وبروقاً. ثم أمر تعالى موسى أن يصعد إلى الجبل ليؤتيه الشرائع التي كتبها على قومه. فصعد موسى الجبل، وكان مغطى بالغمام، فدخل موسى في وسط الغمام وأقام في الجبل أربعين يوماً، لم يأكل ولم يشرب، لما أُمدَّ من القوة الروحانية، والتجليات القدسية، وأُوتي في برهتها الألواح التي كتبت فيها شرائعهم، ولما رجع إلى قومه، كان على وجهه أشعة نور مدهشة، فخافوا من الدنوّ منه، فجعل على وجهه برقعاً، فكان إذا صعد الجبل للمناجاة، رفعه، وإذا أتاهم وضعه. والله أعلم.

﴿وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ﴾ أي حين توجه للمناجاة ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ أي: كن خليفتي فيهم ﴿وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي لا تتبع من سلك الإفساد ولا تطع من دعاك إليه.

تنبيه:

قال الجشمي: تدل الآية على أنه استخلف هارون عند خروجه، لما رأى أنهم أشد طاعة له،وأكثر قبولاً منه، ومخاطبات موسى عليه السلام لهارون وجوابه له كقوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾[طه:٩٣]، وقول هارون ﴿لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾[طه:٩٤] ﴿فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ﴾ [الأعراف:١٥٠] كل ذلك كالدال على أن موسى كان يختص بنوع من الولاية، وإن اشتركا في النبوة. والظاهر أنه استخلفه إلى أن يرجع، لأنه المعقول من الاستخلاف عند الغيبة. وتدل على أنه يجوز أن ينهاه عن شيء يعلم أنه لا يفعله، ويأمره بما يعلم أنه سيفعله، عظة له، واعتباراً لغيره، وتأكيداً ومصلحة للجميع. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ أي حضر الجبل لوقتنا الذي وقّتنا له وحددنا ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ أي خاطبه من غير واسطة مَلك ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي

ولكِن انظُرْ إلى الجَبلِ فإن اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي﴾ أي لن تطيق رؤيتي، لأن هذه البنية الآدمية في هذه النشأة الدنيوية، لا طاقة لها بذلك، لعدم استعدادها له. بل ما هو أكبر جرماً، وأشد خلقاً وصلابة – وهو الجبل – لا يثبت لذلك، بل يندكّ. ولذا قال تعالى ﴿ولَكِنِ انظُرْ إلى الْجَبل﴾ أي الذي هو أقوى منك ﴿فإنِ اسْتَقَرَّ﴾ أي ثبت مكانه، حين أتجلى له، ولم يتزلزل ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾، أي تثبت لرؤيتي، إذا تجليت عليك، وإلا فلا طاقة. وفيه من التلطيف بموسى، والتكريم له، والتنزل القدسي – ما لا يخفى ﴿فَلَمَّا تَجلَى رَبُهُ للْجَبلِ﴾ أي: ظهر له وبانَ – قاله الزجاج – ﴿جعَلَهُ﴾ أي: التجلي ﴿دكّاً﴾ أي مفتّتاً، فلم يستقر مكانه. فنبه تعالى على أن الجبل، مع شدته وصلابته، إذا لم يستقر، فالآدميّ مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقر. وفيه تسكين لفؤاد موسى، بأن المانع من الانكشاف الإشفاق عليه، وأما أن المانع محالية الرؤية، فليس في القرآن إشارة إليه ﴿وخَرَّ﴾ أي وقع ﴿مُوسَى صَعِقاً﴾ أي مغشياً عليه من هول ما رأى ﴿فَلَمَّا أفاقَ قالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إليْكَ﴾ أي من الإقدام على سؤالي الرؤية ﴿وأنا أوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بأنه لا يستقر لرؤيتك أحدٌ في هذه النشأة.

قال في (الانتصاف) : إنما سبح موسى عليه السلام لِما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا، والله تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه، وعن الخلف في خبره الحق وقوله الصدق. فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم، سبح الله، وقدس علمه وخبره عن الخلف. وأما التوبة في حق الأنبياء فلا تستلزم كونها عن ذنب، لأن منصبهم الجليل ينبغي أن يكون منزهاً مبرأً من كل ما ينحط به. ولا شك أن التوقف في سؤال الرؤية على الإذن كان أكمل. وقد ورد: (سيئات المقربين، حسنات الأبرار).

تنبيه:

قال المتكلمون: دلت الآية على جواز رؤيته تعالى من وجهين:

الأول – أن سؤال موسى عليه السلام الرؤية يدل على إمكانها. لأن العاقل، فضلاً عن النبيّ ﷺ، لا يطلب المحال. ولا مجال للقول بجهل موسى عليه السلام بالاستحالة، فإن الجاهل بما لايجوز على الله، لا يصلح للنبوة. إذ الغرض من النبوة هداية الخلق إلى العقائد الحقة، والأعمال الصالحة. ولا ريب في نبوة موسى عليه السلام، وأنه من أولي العزم.

الثاني – أنه تعالى علق الرؤية على استقرار الجبل، وهو أمر ممكن في نفسه،

والمعلق على الممكن ممكن، لأن معنى التعليق الإخبار بوقوع المعلق عند وقوع المعلق به. والمحال لا يثبت على شيء من التقادير الممكنة.

وأما زعم المعتزلة أن الرؤية مجاز عن العلم الضروري، فمعنى قوله ﴿أرِنِي﴾ أي: اجعلني عالماً بك علماً ضرورياً- خلاف الظاهر. فإن النظر الموصول بـ (إلى) نص في الرؤية البصرية فلا يترك بالاحتمال، مع أن طلب العلم الضروريّ لمن يخاطبه ويناجيه غير معقول. وكذا زعمهم أن موسى عليه السلام، كان سألها لقومه حيث قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥]، فسأل ليعلموا امتناعها - فإنه خلاف الظاهر، وتكلُّف يذهب رونق النظم، فترده ألفاظ الآية. وقد ثبت وقوع رؤيته تعالى في الآخرة، بالكتاب والسنة، أما الكتاب فلقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وأما السنة فلا تحصى أحاديثها ولكن إذا أصيب أحد بداء المكابرة في الحق الصراح، عسر إقناعه مهما قوي الدليل وعظمت الحجة.

قال في فتح البيان: رؤيته تعالى في الآخرة، ثبتت بها الأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة. والجدالُ في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة. ومنهج الحق واضح. ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه، وأدرك عليه أباه، وأهل بلده، مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة - يوقع في التعصب. والمتعصبُ، وإن كان بصره صحيحاً، فبصيرته عمياء، وأذنه عن سماع الحق صماء، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق، غفلة منه، وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح، وتلقى ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم. وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع، فإنه صار بها باب الحق مرتجّاً، وطريق الإنصاف مستوعرة، والأمر للّه سبحانه والهداية:

يأبى الْفتى إلا اتّباعَ الهوى ... ومَنْهَجُ الحقِّ لَهُ واضِحُ

- انتهى -.

وهذا تعريض بالمعتزلة، وفي مقدمتهم الزمخشري. وقد انتقل، عفا الله عنه، أخيراً إلى هجاء أهل السنة بما أنشده:

لجماعة سَمُّوا هواهُمْ سنةً ... وجماعةً حُمُرٌ لعَمْرِي مُوكَفَهْ

قد شَبَّهُوهُ بِخَلْقِه وتَخَوَّفُوا ... شُنْعَ الورى فَتَسَتَّرُوا بِالْبَلْكَفَهْ

والبلكفة نَحْتٌ، كالبسملة، أي بقولهم (بَلا كَيْفَ)

قال في (الانتصاف): ولولا الاستنان بحسّان بن ثابت الأنصاريّ، صاحب رسول الله ﷺ وشاعره، والمنافح عنه، وروح القدس معه، لقلنا لهؤلاء المتلقبين بـ(العدلية) وبـ(الناجين) سلاماً، ولكن كما نافح حسان عن رسول الله ﷺ أعداءه، فنحن ننافح عن أصحاب سنة رسول الله ﷺ أعداءهم، فنقول:

وجماعةٌ كفروا برؤية ربِّهِمْ حقّاً ووعدُ اللّه ما لَنْ يُخْلِفَهْ
وتَلَقَّبُوا عَدْلِيَّةً. قلنا: أجَلْ عَدَلُوا بربهم. فحَسْبُهُمُو سَفَهْ
وتلقَّبوا الناجين. كلاًّ! إنهم إن لَمْ يَكُونُوا فِي لَظىً فَعلَى شَفَهْ

وقال أبو حيّان في الرد عليه:

شبهتَ جهلاً صدرَ أمة أحمد وذوي البصائر بالحمير المُوكَفَهْ
وَجَبَ الخسارُ عليك. فانظر منصفاً في آية الأعراف فهي المنصفهْ
أتُرى الكليم أتى بجهلٍ ما أتى وأتى شيوخُكَ ما أتَوْا عن مَعْرِفَهْ
إن الوجوهَ إليه ناظرةٌ. بذا جاء الكتاب. فقلتمُ: هذا سَفَهْ
نطق الكتابُ وأنت تنطق بالهوى فهوى الْهوَى بِكَ في الَمهاوِي المُتْلِفَهْ

وقال العلامة الجاربردي:

عجباً لقومٍ ظالمين تَسَتَّرُوا بالعَدْلِ. ما فيهم لَعَمْري مَعْرِفَهْ
قد جاءهم من حيث لا يدرونه تعطيلُ ذاتِ اللّه مَعْ نَفْيِ الصِّفَهْ

وقد ساق السبكي في (طبقاته) في ترجمة الجاربرديّ عدة قصائد ومقاطيع في الرد عليه، ثم ذكر الله تعالى أنه خاطب موسى باصطفائه، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

﴿قالَ يا مُوسى إنِّي اصْطَفَيْتُكَ على النَّاسِ﴾ أي اخترتك على أهل زمانك، وآثرتك عليهم ﴿بِرسالاتي وَبِكَلامي﴾ أي: وبتكليمي إياك ﴿فَخُذْ مَآ ءاتَيْتُكَ﴾ أي ما أعطيتك من شرف النبوة والمناجاة ﴿وكُن مِّن الشَّاكِرينَ﴾ أي على النعمة في ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

﴿وَكَتَبْنا لَهُ فِي الأَلْواحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وتفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الحلال والحرام ﴿فَخُذْها بِقُوَّةٍ﴾ أي بعزم على العمل بما فيها ﴿وأْمُرْ قَوْمَكَ يأخُذُوا بِأحْسَنِها﴾ أي بما أمروا به دون ما نهوا عنه ﴿سأُورِيكُمْ دارَ الْفاسِقينَ﴾ وهي الأرض التي وعدوا بها من فلسطين، فإنهم لم يعطوها إلا بعد أربعين سنة من خروجهم من مصر، وبقائهم في البرّية. فإن موسى عليه السلام، لما مات، خلفه يشوع بن نون، فحارب الأمم والملوك الذين كانوا يسكنون أرض كنعان، وفتح بلادهم، وصارت ملكاً للإسرائيليين.

تنبيه:

قال الجشمي: تدل الآية على حدوث كلامه، لأن قوله: ﴿اصْطَفَيْتُكَ﴾ أي اختصصتك به، ولو كان قديماً لكان موسى وغيره سواء، ولما صحَّ الاختصاصُ. ويدل قوله: ﴿وكَتَبْنا﴾ أنه أعطاه التوراة مكتوبة في الألواح عند الميقات، لتكون محروسة، وليبلغه الحاضرون إلى الباقين، ليقع لهم العلم ضرورة. ويدل على أن في التوراة شرائع، وجميع ما يحتاج إليه. ويدل قوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أن العبد قادر على الفعل قبل الفعل، وأنه يفعل بقدرة. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾

﴿سأصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكبَّرُون فِي الأرض﴾ أي سامنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي، قلوبَ المتكبرين عن طاعتي، والمتكبرين على الناس. أي فكما استكبروا أذلهم الله بالجهل، كقوله تعالى: ﴿ونُقَلِّبُ أفئدَتَهُمْ وأبْصارَهُمْ كما لَمْ يُؤْمنواْ بِهِ أوَّلَ مرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زاغُوا أزاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقوله تعالى: ﴿بغَيْرِ الْحَقِّ﴾ إما صلة للفعل، أي

يتكبرون بما ليس بحق، وهو دينهم الباطل. أو حال من فاعله، أي يتكبرون غير محقين ﴿وإن يروا كل ءاية﴾ أي حجة من الآيات والحجج المنزلة عليهم ﴿لا يؤمنوا بها﴾ تكبراً عليها ﴿وإن يروا سبيل الرُشد﴾ يعني طريق الحق والهدى والاستقامة واضحاً ظاهراً ﴿لا يتخذوه سبيلاً﴾ لمنافاته أهويتهم ﴿وإن يروا سبيل الغي﴾ أي الضلال عن الحق والهلاك ﴿يتخذوه سبيلاً﴾ أي طريقاً يميلون إليه ﴿ذلك﴾ أي الصرف عن الآيات، أو اتخاذهم الغي سبيلاً ﴿بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ أي: لاهين لا يتفكرون فيها، ولا يتعظون بها. أو غافلين عما ينزل بهم من مخافة الرسل. ثم بين وعيد المكذبين بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

﴿والذينَ كذَّبوا بآياتنا ولقاءَ الآخرةِ﴾ أي القيامة، وهي الكرّة الثانية. سميت (آخرة) لتأخرها عن الدنيا ﴿حبطَتْ أعمالُهمْ﴾ أي بطلت: فلم تعقب نفعاً. والمراد جزاء أعمالهم، لأن الحابط إنما يصح في المنتظَر، دون ما تقضّى، وهذا كقوله ﴿ليُرَوْا أعْمالَهمْ﴾ [الزلزلة:٦] ﴿هل يُجزَوْنَ إلاَّ ما كانُوا يعْملُونَ﴾ أي إلاَّ جزاء عملهم من الكفر والمعاصي.

تنبيه:

ذهب بعضهم إلى أن قوله تعالى: ﴿سَأصْرِفُ عَنْ آياتيَ﴾ الخ كلام مع قوم رسول الله ﷺ، وهو متصل بما سبق من قصصهم، وهو ﴿أوَلَمْ يَهْدِ...﴾ الخ.

وإيراد قصة موسى وفرعون للاعتبار.

وقال الكعبي وأبو مسلم الأصفهاني: إن هذا الكلام تمام لما وعد الله موسى عليه السلام به من إهلاك أعدائه. ومعنى صرفهم إهلاكهم، فلا يقدرون على منع موسى من تبليغها، ولا على منع المؤمنين من الإيمان بها، وهو شبيه بقوله: ﴿بَلِّغْ ما أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رَّبِّكَ، وإن لَم تَفعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ، واللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، فأراد تعالى أن يمنع أعداء موسى عليه السلام من إيذائه، ومنعه من القيام بما يلزمه في تبليغ النبوة والرسالة. انتهى. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨)﴾

﴿واتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ﴾ يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل، في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حليّ القبط، الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً، جسداً لا روح فيه. وقد احتال بإدخال الريح فيه، حتى صار يسمع له خوار، أي صوت كصوت البقر. وإنما أضاف الصوت إليه، لأنه كان محله عند دخول الريح جوفه. وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى وأعلمه الله تعالى بذلك وهوعلى الطور، حيث يقول إخباراً عن نفسه الكريمة ﴿فإنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وأضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه:٨٥].

لطائف:

قال الزمخشري: فإن قلت: لم قيل ﴿واتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى.... عِجْلاً﴾ والمتخذ هو السامري؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما - أن ينسب الفعل إليهم، لأن رجلاً منهم باشره، ووُجد فيما بين ظهرانيهم، كما يقال: (بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا) والقائل والفاعل واحد. ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذه، راضين له، فكانهم أجمعوا عليه.

والثاني: أن يراد: واتخذوه إلهاً وعبدوه. فإن قلت: لم قال: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ ولم يكن الحليّ لهم، إنما كانت عواري في أيديهم؟ قلت: الإضافة تكون بأدنى ملابسة، وكونها في أيديهم عواري، كفى به ملابسة. على أنهم قد ملكوها بعد المُهْلَكِين، كما قال تعالى: ﴿وأوْرَثْناها بَنِي إسْرائِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩] انتهى.

قال النسفي: وفيه دليل على أن من حلف أن لا يدخل دار فلان، فدخل داراً استعارها يحنث. وأن الاستيلاء على أموال الكفار يوجب زوال ملكهم عنها - انتهى-.

والحُلِيُّ بضم الحاء والتشديد، جمع (حَلْي) بفتح فسكون. كـ(ثَدْي وثُدِيّ) وهو اسم لما يتحسّن به من الذهب والفضة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَم يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ ولا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ تقريع على فرط ضلالهم وإخلالهم بالنظر. والمعنى: ألم يروا، حين اتخذوه إلهاً، أنه لا يقدر على كلام، ولا على إرشاد سبيل، كآحاد البشر؟ فهو جماد لا ينفع ولا يضر. فكيف يكون إلهاً؟

وقوله تعالى: ﴿واتَّخَذُوهُ﴾ تكرير لتأكيد الذم، أي: اتخذوه إلهاً وعبدوه. ﴿وَكَانُواْ ظَالِمِينَ﴾ أي: واضعين الأشياء في غير مواضعها. والجملة إما استئنافية، أو اعتراض تذييلي للإخبار بأن ذلك دأبهم وعادتهم قبل ذلك، فلا ينكر هذا منهم. أو حالية، أي: اتخذوه في هذه الحالة المستقرة لهم.

تنبيه:

قال الجشمي: تدل الآية على صحة الحجاج في الدين، وأنه تعالى دلهم، في بطلان اتخاذ العجل إلهاً، بأنه لا يتكلم ولا يهدي. وإنما ذكر الكلام لأن الخوار تنفد فيه الحيلة، ولا تنفد في الكلام. وتدل على أن إزالة الشبه في الدين واجب، كما أزالها الله تعالى. وتدل على أن القوم كانوا جهالاً غير عارفين حقيقة الأشياء، لذلك عبدوا العجل. وتدل على أن تلك الحلي كانت ملكاً لبني إسرائيل، لذلك قال ﴿حُلِيِّهِمْ﴾. فإن ثبت أنهم استعاروه، فيدل على زوال ملكهم، وانتقال الملك إلى بني إسرائيل، كما تملك أموال أهل الحرب. وتدل على أن الاتخاذ فعلهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندموا على عبادة العجل ﴿وَرَأَوْا﴾ أي علموا وأيقنوا ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ أي: عن الحق والهدى ﴿قَالُوا لئن لَّمْ يَرْحَمْنا ربُّنا﴾ أي بقبول توبتنا ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ أي: ما قدمنا من عبادة العجل ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ أي: بالعقوبة. أي: ممن خسروا أعمالهم وأعمارهم.

لطيفة:

يقال للنادم على ما فعل، الحَسِرِ على ما فَرطَ منه (قد سُقِطَ في يده) و(أُسْقِطَ) مضمومتين – قاله الزجاج –.

وقال الفراء: يقال سُقِطَ في يده وأسقط، من الندامة، و(سُقِطَ) أكثر وأجود.

وأنكر أبو عمرو (أُسقط) بالألف، وجوزه الأخفش.

قال الزمخشري: من شان من اشتد ندمه وحسرته، أن يعض يده غمّاً، فتصير يده مسقوطاً فيها، لأن فاه قد وقع فيها.

وقال الزجاج: معناه: سقط الندم في أيديهم، أي في قلوبهم وأنفسهم. كما يقال: حصل في يده مكروه، وإن كان محالاً أن يكون في اليد، تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس، بما يحصل في اليد، ويرى بالعين - انتهى -.

وقال الفارسي: أي: ضربوا أكفهم على أكفهم من الندم. فإن صح ذلك فهو إذن من السقوط.

وفي (العباب): هذا نظم لم يسمع به قبل القرآن، ولا عرفته العرب، والأصل فيه نزول الشيء من أعلى إلى أسفل، ووقوعه على الأرض، ثم اتسع فيه فقيل للخطأ من الكلام (سقط) لأنهم شبهوه بما لا يحتاج إليه، فيسقط، وذكر اليد لأن الندم يحدث في القلب، وأثره يظهر في اليد، كقوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ على ما أنفَقَ فيها ﴾ [الكهف: ٤٢]، ولأن اليد هي الجارحة العظمى، فربما يسند إليها ما لم تباشره، كقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج: ١٠] - انتهى-.

وعليه، فيكون (سُقط) من السقاط، وهو كثرة الخطأ كما قال:

كيف يَرْجُونَ سِقَاطِي بَعْدَ ما ... لَفَعَ الرأسَ بياضٌ وَصَلَعْ

وقيل: من عادة النادم أن يطأطئ رأسه، ويضعه على يده، معتمداً عليه، وتارة يضعها تحت ذقنه، وشطر من وجهه على هيئةٍ لو نزعت يده لسقط على وجهه، فكانت اليد مسقوطاً فيها، لتمكن السقوط فيها. ويكون قوله: ﴿ سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ بمعنى سقط على أيديهم، كقوله: ﴿ ولأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾[طه: ٧١]، أي عليها. و (سُقط) عده بعضهم من الأفعال التي لا تتصرف، كـ (نِعْمَ وَبِئْسَ). وقرئ (سَقَطَ) معلوماً، أي الندم، أو العض، أو الخسران، وكله تمثيل. وقرئ (أُسْقِطَ) رباعيّ مجهول، وهي لغة نقلها الفراء والزجاج، كما قدمنا.

ثم بين تعالى ما جرى من موسى عليه السلام بعد رجوعه من الميقات. وكان أعلمه تعالى بفتنة قومه. فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾

﴿ولَمَّا رَجعَ مُوسَى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أسفاً﴾ أي: شديد الغضب على قومه لعبادتهم العجل، وحزيناً أي على ما فاته من مناجاة ربه ﴿قَالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُوني مِن بَعْدي﴾ أي بئسما عملتم خلفي، أو قمتم مقامي، وكنتم خلفائي من بعدي. والخطاب إما لعَبَدَة العجل، من السامري وأشياعه. أو لوجوه بني إسرائيل، وهم هارون عليه السلام والمؤمنون معه. ويدل عليه قوله: ﴿اخْلُفْني في قَومِي﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وعلى التقدير يكون المعنى: بئسما خلفتموني حيث لم تمنعوا من عبادة غير الله تعالى – قاله الرازي ﴿أعَجِلْتُمْ أمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي: ميعاده الذي وعدنيه من الأربعين، فلم تصبروا إلى تمامها. وكانوا استبطأوا نزوله من الجبل، فتآمروا في صنع وثن يعبدونه، وينضمون إليه، وفعلوا ذلك، وجعلوا يغنون ويرقصون ويأكلون ويشربون ويلعبون حوله ويقولون: هذا الإله الذي أخرجنا من مصر – عياذاً بالله –. وقال أبو مسلم: معناه سبقتم أمر الله، فعبدتم ما لم يامركم به ﴿وألْقَى الألْواحَ﴾ أي طرحها من شدة الغضب، وفرط الضجرة، بين يديه فتكسرت. وهي ألواح من حجارة كتب فيها الشرائع والوصايا الربانية. وإنما ألقاها، عليه السلام، لما لحقه من فرط الدهش عند رؤيته عكوفهم على العجل. فإنه، عليه السلام، لما نزل من الجبل، ودنا من محلتهم، رأى العجل ورقصهم حوله، اتقد غضبه فألقاها غضباً لله، وحمية لدينه. وكان هو في نفسه حديداً، شديد الغضب. وكان هارون ألين منه جانباً، ولذلك كان محبباً إلى قومه.

تنبيه:

قال السيوطي في (الإكليل): استدلّ ابن تيمية بقوله تعالى: ﴿وألْقَى الألواحَ﴾ على أن من ألقى كتاباً على يده، إلى الأرض، وهو غضبان، لا يلام – انتهى – وهو ظاهر.

﴿وأخَذَ بِرأْسِ أخيهِ﴾ أي بشعره ﴿يَجُرُّهُ إلَيْه﴾ ظناً أن يكون قصر في نهيهم، كما قال في الآية الأخرى ﴿قالَ يا هَارُونُ ما مَنَعَكَ إذْ رَأيْتَهُمْ ضَلُّوا ألاَّ تَتَّبِعنِ،

افَعَصَيْتَ امْرِي قالَ يَبْنَؤُمَّ لا تأْخُذْ بِلِحْيَتي ولا بِرأْسِي ﴾ [طه:٩٢-٩٤]. وقال ههنا: ﴿قالَ ابْنَ أُمَّ﴾ قرئ بالفتح والكسر، وأصله يا ابن أمي، خفف بحذف حرف النداء والياء، وذكر الأم ليرققه عليه. وقوله: ﴿إنَّ القَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وكادُواْ يَقْتُلونَنِي﴾ إزاحة لتوهم التقصير في حقه. والمعنى: بذلتُ وسعي في كفّهم حتى قهروني واستضعفوني، وقاربوا قتلي ﴿فلاَ تُشمِتْ بيَ الأعْداءَ﴾ اي بالإساءة إليّ. والشماتةُ سرور الأعداء بما يصيب المرء ﴿وَ لاَ تَجْعَلْنِي معَ الْقَوْمِ الظَّالِمينَ﴾ اي في عقوبتك لي، في عدادهم. أو لا تعتقد أني منهم، مع براءتي وعدم تقصيري.

قال الجشمي: تدل الآية على أن الأمر بالمعروف قد يسقط في حال الخوف على النفس، وفي الحال الذي يعلم أنه لا ينفع. لذلك قال هارون ﴿اسْتَضْعَفُونِي﴾. وتدل على أن الغضب والأسف على المبتدع محمود في الدين. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

﴿قَالَ﴾ اي موسى عليه السلام، متضرعاً إلى ربه، استنزالاً لرحمته، وتعوذاً بمغفرته من سخطه. ولا يخفى اقتضاء المقام لذلك ﴿ربِّ اغْفِرْ لِي ولأخِي وأدْخِلْنا فِي رَحْمَتَكَ وأنتَ أرْحَمُ الرّاحِمينَ﴾ وقال الزمخشري: لما اعتذر إليه أخوه، وذكر له شماتة الأعداء قال ﴿ربِّ اغْفِرْ لِي ولأخِي﴾ ليرضي أخاه، ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه، فلا تتم لهم شماتتهم. واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه، ولأخيه أن عسى فَرّط في حسن الخلافة، وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾

﴿إنَّ الَّذينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَينالُهمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحياةِ الدُّنْيا وكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ اي من افترى بدعة، فإن ذل البدعة، ومخالفة الرسالة على كتفيه كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هملجت بهم البغال، وطقطقت بهم البراذين. وهكذا روى أيوب عن أبي قلابة الجرميّ أنهُ قرأ هذه الآية

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ قال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة. وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل. ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل التوبة من أي ذنب كان، ولو كفراً بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

﴿ والَّذينَ عَمِلُواْ السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُواْ مِن بَعْدِها ﴾ إلى الله ﴿ وآمَنُوا ﴾ أي أخلصوا الإيمان ﴿ إنَّ ربَّكَ مِن بَعْدِها لَغفورٌ رَّحيمٌ ﴾ أي: محّاء لذنوبهم. منعم عليهم بالجنة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

﴿ ولَمَّا سَكَتَ ﴾ أي سكن ﴿ عَن مُّوسى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْواحَ ﴾ أي التي كان ألقاها من شدة الغضب فتكسرت ﴿ وَفِي نُسْخَتِها ﴾ أي فيما نسخ منها، أي كتب. و(النسخة) فعلة بمعنى مفعول، كالخطبة ﴿ هُدىً ورَحْمَةٌ ﴾ بالشرائع والوصايا الربانية، المرشدة لما فيه الخير والصلاح ﴿ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ أي يخشون.

لطيفتان:

الأولى: قال أبو السعود: في هذا النظم الكريم، يعني قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسى الْغَضَبُ ﴾، من البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب، الحامل له على ما صدر عنه من الفعل والقول، منزلة الآمر بذلك، المغرى عليه، بالتحكم والتشديد، والتعبير عن سكونه بالسكوت – ما لا يخفى. انتهى.

وأصله للزمخشري حيث قال: هذا مَثَلٌ. كأن الغضب كان يغريه على ما فعل، ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجرّ برأس أخيك إليك، فترك النطق بذلك، وقطع الإغراء. ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذي طبع سليم، وذوق صحيح – إلا لذلك، ولأنه من قبيل شعب البلاغة. وإلا، فما لقراءة معاوية بن قرة ﴿ وَلَمَّا سَكَنَ عَن مُّوسى الْغَضَبُ ﴾ لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهمزة، وطرفاً من تلك الروعة؟ انتهى.

ومراده بالمثل كونه استعارة مكنية، حيث شبه الغضب بشخص آمرٍ ناهٍ، وأثبت له السكوت تخييلاً.

وعدّ بعض أهل العربية الآية من المقلوب، أي من نمط قلب الحقيقة إلى المجاز، وكأن الأصل ﴿وَلَمَّا سَكَتَ مُوسى عَنِ الْغَضَبِ﴾ كما في خرق الثوب المسمار.

قال في (الانتصاف) والتحقيق أنه ليس منه، وأن هذا القلب أشرف وأفصح، لما فيه من المعنى البليغ، وهو أن الغضب كان متمكناً من موسى، حتى كأنه كان يصرفه في أوامره. ومثل هذه النكتة الحسناء، لا تلفى في (خرق الثوب المسمار). انتهى.

وقرئ سكن وسَكَّتَ وأسكت، أي أسكته الله، أو أخوه باعتذاره إليه.

الثانية - اللام في (للذين) متعلقة بمحذوف، صفة (لرحمة) أي كائنة لهم. أو هي لام الأجل، أي هدى ورحمة لأجلهم: واللام في (لربهم) لتقوية عمل الفعل المؤخر كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف:٤٣]، أو هي أيضاً لام العلة، والمفعول محذوف. أي يرهبون المعاصي لأجل ربهم، لا للرياء والسمعة. أفاده أبو السعود.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

﴿**وَاخْتَارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا**﴾ روى محمد بن إسحاق أن موسى عليه السلام، لما رجع إلى قومه فرأى ما هم فيه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وحرق العجل، وذرّاه في اليمّ، اختار من بين إسرائيل سبعين رجلاً، الخيّر فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله، فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا، وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقّتَهُ له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال له السبعون - فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربه، لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا، فقال: أفعلُ. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشّى الجبلَ كلّه، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه،

فضرب دونه بالحجاب. ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً، فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه، افعلْ ولا تفعلْ، فلما فرغ إليه من أمره، وانكشف عن موسى الغمام، أقبل إليهم، فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لكَ حَتَّى نَرى اللَّهَ جَهْرَةً فأخذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [البقرة:٥٥] وهي الصاعقة التي يحصل منها الاضطراب الشديد، فماتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: ﴿ربِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وإيَّايَ﴾ قد سفهوا، أتهلك مَنْ ورائي من بني إسرائيل؟

وفي رواية السدّي: فقام موسى يبكي ويقول: يا رب! ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم، وقد أهلكتَ خيارهم، ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وإيَّايَ﴾.

وقال ابن إسحاق: اخترت منهم سبعين رجلاً، الخيِّر فالخير، أرجع إليهم، وليس معي رجل منهم واحد، فما الذي يصدقونني أو يأمنونني عليه بعد هذا؟ وعلى هذا فالمعنى: لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهمونني.

وقال الزجاج: المعنى لو شئت أمتَّهم من قبل أن تبتليهم، بما أوجب عليهم الرجفة. انتهى.

قال ابن القيم في (إغاثة اللهفان) بعد نقل كلام من ذكرنا: وهؤلاء كلهم حاموا حول المقصود، والذي يظهر – والله أعلم بمراده ومراد نبيه – أن هذا استعطاف من موسى عليه السلام لربه، وتوسل إليه بعفوه عنهم من قبل، حتى عبد قومهم العجل، ولم ينكروا عليهم، يقول موسى: إنهم قد تقدم منهم ما يقتضي هلاكهم، ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك، ولم تهلكهم، فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل. وهذا كمن واخذه سيده بجرم يقول: لو شئت واخذتني قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم، ولكن وسعني عفوك أولاً، فليسعني اليوم. ثم قال نبي الله: أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ فقال ابن الأنباري وغير: هذا استفهام على معنى الجحد، أي لست تفعل ذلك. والسفهاء هنا عبدة العجل.

قال الفرّاء: ظن موسى أنهم أهلكوا باتخاذ قومهم العجل، فقال: أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ وإنما كان إهلاكهم بقولهم ﴿أرِنا اللَّهَ جَهْرَةً﴾. انتهى.

واستظهار أن هذا استفهام استعطاف، سبقه إليه المبرّد.

تنبيه:

قال في (اللباب): معظم الروايات أنهم ماتوا بسبب تلك الرجفة، أي ثم

أُحْيُوا. وقال وهب بن منبه: لم تكن تلك الرجفة موتاً، ولكن القوم لما رأوا تلك الهيئة، أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا، حتى كادت أن تبين مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك، راحمهم وخاف عليهم الموت، واشتد عليه فقدهم، وكانوا له وزراء على الخير، سامعين له مطيعين، فعند ذلك دعا موسى وبكى وناشد ربه، فكشف الله عنهم تلك الرجفة، فاطمأنوا وسمعوا كلام الله. والله أعلم.

﴿إنْ هيَ إلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَن تشاءُ وتَهْدِي مَن تَشاءُ﴾ أي ما الفتنة التي وقع فيها السفهاء إلا اختبارك وابتلاؤك وامتحانك لعبادك فأنت ابتليتهم وامتحنتهم، فالأمر كله لك وبيدك. لا يكشفه إلا أنت. كما لم يمتحن به ويختبر إلا أنت. فنحن عائذون بك منك، ولاجئون منك إليك. يعني إن الأمر إلاَّ أمرك، والحكم إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدي من تشاء.

قال الواحدي: هذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية، التي لا يبقى لهم معها عذر. ﴿أنتَ وَلِيُّنا﴾ أي متولي أمورنا القائم بها ﴿فاغْفِرْ لَنا وارْحَمْنا وأنتَ خَيْرُ الغافِرينَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

﴿واكْتُبْ لَنا في هَذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً﴾ أي اثبت لنا فيها خصلة حسنة، كالعافية والحياة الطيبة، والتوفيق للطاعة ﴿وفِي الآخِرَةِ﴾ أي حسنة أيضاً، وهي المثوبة الحسنى والجنة. ﴿إنَّا هُدْنا إليْكَ﴾ أي تبنا إليك. يقال: هاد إليه يهود، إذا رجع وتاب، فهو هائد. ولبعضهم:

يا راكب الذنب هُدْ، هُدْ   واسجد كأنك هُدْهُدْ

وقال آخر:

* إني امرؤ مما جَنَيْتُ هائِدُ *

قال أبو البقاء: المشهور ضم الهاء، وهو من (هاد يهود) إذا تاب. وقرئ بكسرها، من (هاد يهيد) إذا تحرك أو حرك، أي حركنا إليك نفوسنا، وعلى القراءتين، يحتمل الوجهين، البناء للفاعل وللمفعول، بمعنى ملنا أو أمالنا غيرنا، أو حركنا

أنفسنا، أو حركنا غيرنا، وذلك لاتحاد الصيغة وصحة المعنى، وإن اختلف التقدير.

﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جواباً عن سؤال ينساق إليه الكلام، كأنه قيل: فمذا قال تعالى في جواب دعاء موسى؟ فقيل قال: ﴿عَذَابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أشاءُ﴾ أي تعذيبه من العصاة ﴿ورَحْمَتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ تطلق الرحمة على التعطف والمغفرة والإحسان والجنة، كما قال تعالى: ﴿يُدْخِلُ من يَشاءُ في رَحْمَتِه﴾ [الإنسان: ٣١]، ولعلها هي المراد هنا، بدليل مقابلتها بـ (العذاب) قبل، كما قابل الآية التي ذكرناها بقوله ﴿والظَّالِمينَ أعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أليماً﴾ [الإنسان: ٣١]، والله أعلم. ﴿فسأكْتُبُها﴾ أي هذه الرحمة ﴿لِلَّذينَ يَتَّقُونَ﴾ أي الكفر والشرك والفواحش ﴿ويُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾ أي يعطون زكاة أموالهم ﴿والَّذينَ هُمْ بآياتِنا﴾ أي بكتابنا ورسولنا ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون.

تنبيه:

قال الجشمي: تدل الآية على حسن سؤال نعيم الدنيا، كما يحسن سؤال نعيم الآخرة، وتدل على أن الواجب على الداعي أن يقرن بدعائه التوبة والإخلاص، لذلك قالوا ﴿إنَّا هُدْنا إلَيْكَ﴾. وتدل على أنه تعالى ينعم على البر والفاجر، ويخص بالثواب المؤمن، فلذلك فصل. ومن تأمل هذا السؤال والجواب، عرف عظيم محل هذا البيان، لأنه عليه السلام، سال نعيم الدنيا والدين عقيب الرجفة، فكان من الجواب أن العذاب خاصة يصاب به من يستحقه، فأما النعم فما كان من باب الدنيا يسع كل شيء يصح عليه التنعم، وما كان من باب الآخرة يكتب لمن له صفات ذكرها. وتدل على أن الرحمة لا تنال بمجرد الإيمان الذي هو التصديق، حتى ينضم إليه الطاعات، فيبطل قوله المرجئة.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿الَّذِينَ﴾ بدل من الموصول الأول، بدل الكل، أو منصوب على المدح، أو

مرفوع عليه، أي أعني الذين أو هم الذين ﴿يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ أي الذي أرسل إلى الخلائق لتكميلهم ﴿النَّبِيَّ﴾ أي الذي نبئ بأكمل الاعتقادات، والأعمال والأخلاق والأحوال والمقامات من جهة الوحي ﴿الأُمِّيَّ﴾ أي الذي لم يحصل علماً من بشر ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً﴾ أي باسمه (محمد وأحمد) ونعوته ﴿عِندَهُمْ﴾ زيد هذا لزيادة التقرير، وأن شأنه عليه الصلاة والسلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم أصلاً ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني الإيمان بالله. ووحدانيته والشرائع ومكارم الأخلاق، لأن جميع ذلك تعرف صحته إما بالعقل وإما بالشرع ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ يعني الكفر والشرك والمعاصي ومساوئ الأخلاق، لأن العقل والشرع ينكره ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي التي حرمت عليهم لمعاصيهم ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أي التي كانوا يتناولونها كالخنزير والميتة والدم - هذا في باب المأكولات ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي الأمر الذي يثقل عليهم من التكاليف الشاقة ﴿وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ جمع (غُلّ) بالضم، وهو ما يوضع في العنق أو اليد من الحديد، يستعار للشرائط الحرجة والمواثيق الشديدة، أي يخفف عنهم ما كلفوه منها - وهذا في باب العبادات ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ أي بالنبيّ الأمي وهو محمد ﷺ ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي عظموه ووقروه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ أي على أعدائه في الدين فمنعوهم عنه ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ وهو القرآن، فأحلوا حلاله، وحرّموا حرامه.

ولا يقال: القرآن أنزل مع جبريل، فما معنى ﴿أُنزِلَ مَعَهُ﴾ ؟ لأن المراد أنزل مع نبوّته، لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به، ويجوز أن يعلق بـ ﴿اتبعوا﴾ أي واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي، والعمل بسنته، وبما أمر ونهى عنه، فيكون أمراً بالعلم بالكتاب والسنة، أو هو حال، أي اتبعوا القرآن كما اتبعه، مصاحبين له في اتباعه. وفي التعبير عن القرآن بـ ﴿النور﴾ المنبئ عن كونه ظاهراً بنفسه لإعجازه، ومظهراً لغيره من الأحكام، لمناسبة الاتباع ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالرحمة، والناجون من النقمة.

تنبيهات:

الأول - يظهر من سياق الآية أن قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي...﴾ الخ جواب لموسى عليه السلام، وذلك أنه دعا بالمغفرة لقومه أجمعين، كتابه حسنتي الدنيا والآخرة لهم، فأجيب أولاً بان ذلك لا يحصل لقومه كلهم، برٍّ أو فاجراً، لما سبق من تقديره سبحانه العذاب لمن يشاء من الفجار حكمة منه وعدلاً. ولذلك قرأ الحسن

وزيد بن عليّ هنا (لمن أساء) فعل ماض من (الإساءة)، وفي طيه أن ما أصاب قومه من الرجفة هو من عذابه تعالى، الذي شاء إصابتهم به لأفاعيلهم. وثانياً إنه لا يستأهل كتابة الحسنتين إلا المتقون المتصدقون المؤمنون بالآيات، والمتبعون للنبيّ الأميّ، فمن استقام على هذه الشرائط، كتب له ذلك، ولا يقال – على هذا – كيف يتبعونه ولم يدركوا زمنه؟ لأنا نقول الاتباع أعم من الاتباع (بالقوة)، وذلك بالإيمان به إجمالاً، حسبما أشار له الكتابان لمن تقدم موته على زمن بعثته، وإما (بالفعل) لمن لحق زمان بعثته. وفيه تبشير لموسى بالنبيّ ﷺ، وتعريف له بشأنه، وإعلام بشأنه، بأن كتابة الرحمة موقوفة على اتباعه. وعليه فيكون قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ بدلاً من الموصول الأول، بدل الكل. أو منصوب على المدح، أو مرفوع عليه. أي: أعني الذين، أو هم الذين.

وقال بعضهم: إن جواب موسى ينتهي إلي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ وما بعده مستأنف، فكأنه تعالى أعلم موسى بانه ذو عذاب، يصيب به من يشاء، كما أصاب أصحاب الرجفة، وذو رحمة واسعة، تكتب للمتقين المتصدقين المؤمنين بالآيات، أي فأمر قومك بان يكونوا من الفريق المرحوم بالمشي على هذا الوصف المرقوم. ثم استأنف تعالى الإخبار عمّن يتبع النبيّ الأمي بانهم المفلحون حقّاً، وعليه فيكون قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ متبدأ خبره ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وتكون القصة استتبعت أعقاب بني إسرائيل، بانهم إذا اتبعوا النبيّ الأمي، كانوا هم المفلحين.

وجوز بعضهم أن يكون قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي﴾ ارتجال خطاب للنبيّ ﷺ. قصد به إعلام أهل الكتاب المعاصرين له، ﷺ بانهم إذا اتبعوه وآمنوا به وصدقوه، حقت لهم رحمته تعالى الواسعة، وإلا فلا يامنوا ان يصابوا بانتقامه تعالى، كما جرى لأسلافهم. وفي ذلك كله من التنويه بشأن النبيّ ﷺ وأتباعه المتقين، ما لا يخفى.

الثاني– تطلق الرحمة على التعطف والمغفرة والإحسان– هذا ما ذكر في اللغة. وعني أن القرآن الكريم قد تطلق فيه على الجنة، كما قال تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الإنسان:٣١]، بدليل المقابلة بقوله: ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ [الإنسان:٣١]، فلعل الرحمة في قوله تعالى هنا: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ بمعنى الجنة، بدليل مقابلتها بالعذاب قبل. والله أعلم.

وقال أبو المنصور: ما من أحد مسلم وكافر، إلا وعليه من آثار رحمته في هذه الدنيا. بها يتعيشون ويؤاخون ويوادّون، وفيها ينقلبون، لكنها للمؤمنين خاصة في الآخرة، لا حظٌ للكافر فيها. وذلك قوله: ﴿فسأَكْتُبُها لِلَّذينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: معصية الله، والخلاف له، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتي أخْرَجَ لعِبادِه والطَّيِّباتِ مِنَ الرزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذينَ آمَنُوا فِي الْحياةِ الدُّنْيا خَالِصَةً يَوْمَ القِيامَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، جعل طيبات الدنيا ونعيمها مشتركة بين المسلم والكافر، خالصة للذين آمنوا يوم القيامة، لا حظٌ للكافر فيها. فعلى ذلك رحمته نالت كل أحد في هذه الدنيا، لكنها للذين آمنوا واتقوا الشرك خاصة في الآخرة ويحتمل قوله - والله أعلم -. ﴿واكْتُبْ لَنا فِي هَذِه الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ﴾ [الأعراف:١٥٦] أنهم سألوا الرحمة، فقال: سأكتبها للذين يتقون معاصي الله ومخالفته. انتهى.

الثالث - إنما أفرد (الزكاة) بالذكر، مع دخولها في التقوى قبل، لعلوّها وشرفها، فإنها عنوان الهداية، ولأنها كانت أشق عليهم، فذكرها لئلا يفرّطوا فيها.

الرابع - كونه ﷺ لا يكتب ولا يقرأ، أمر مقرر مشهور. وهل صدر عنه ذلك في كتابة صلح الحديبية كما هو ظاهر الحديث المشهور[١]، أو أنه لم يكتب، وإنما أسند إليه مجازاً، أو أنه أصدر منه ذلك معجزة؟- انظر في (فتح الباري) تفصيله -.

و(الأمي) نسبة إلى أمة العرب، لأن الغالب عليهم كان ذلك، كما في الحديث[٢]: (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) وأما نسبته إلى (أم القرى) فلأن أهله كانوا كذلك. أو إلى (أُمّه) كأنه على الحالة التي ولدته أمه عليها. وقيل: إنه منسوب (إلى الأَمّ) - بفتح الهمزة - بمعنى القَصد، لأنه المقصود، وضَمُّ الهمزة من تغيير النسب. ويؤيده قراءة يعقوب (الأَميّ) - بفتح الهمزة -، وإن احتملت أن تكون من تغيير النسب أيضاً. وإنما وصفه تعالى به تنبيهاً على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته. فهي له مدح وعلوّ كعب، لأنها معجزة له، كما قال البوصيري.

---

(١) أخرجه البخاري في: الشهادات، ١٥ - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أجل الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم ٨٨١ و ٨٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في: الصوم، ١٣ - باب قول النبيّ ﷺ «لا نكتب ولا نحسُب» حديث رقم ٩٦٨.

* كفَاكَ بالعلمِ في الأمِّي مُعْجزةً *

كما أن صفة التكبر لله مادحة، وفي غيره ذامة، كذا في (العناية).

الخامس – في قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْراةِ والإنجيلِ﴾ إشارة إلى بشائر الأنبياء عليهم السلام، بنبوته ﷺ.

قال الماوردي في (إعلام النبوة) في الباب الخامس عشر في بشائر الأنبياء بنبوته عليه الصلاة والسلام:

إن لله تعالى عوناً على أوامره، وإغناءً عن نواهيه، فكأن أنبياء الله تعالى معانون على تأسيس النبوة، بما تُقدمه من بشائره، وتبديه من أعلامها وشعائرها، ليكون السابق مبشراً ونذيراً، واللاحق مصدقاً وظهيراً، فتدوم بهم طاعة الخلق، وينتظم بهم إستمرار الحق. وقد تقدمت بشائر من سلف من الأنبياء، بنبوة محمد ﷺ، مما هو حجة على أممهم ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم، بما أطلعه الله تعالى على غيبه، ليكون عوناً للرسول، وحثاً على القبول. فمنهم من عيّنه باسمه، ومنهم من ذكره بصفته، ومنهم من عزاه إلى قومه، ومنهم من أضافه إلى بلده، ومنهم من خصّه بأفعاله، ومنهم من ميّزه بظهوره وإنتشاره. وقد حقق الله تعالى جميعها فيه، حتى صار جلياً بعد الإحتمال ويقيناً بعد الإرتياب، ثم سرد الماوردي البشائر من نصوص كتبهم.

وجاء في (إظهار الحق) ما نصه: إن الإخبارات الواقعة في حق محمد ﷺ، توجد كثيرة إلى الآن أيضاً، مع وقوع التحريفات في هذه الكتب، ومن عرف أولاً طريق إخبار النبيّ المتقدم، عن النبيّ المتأخر، على ما عرفتَ في الأمر الثاني– يعني في كلامه – ثم نظر ثايناً بنظر الإنصاف إلى هذه الإخبارات، وقابلها بالإخبارات التي نقلها الإنجليون في حق عيسى عليه السلام، جزم بأن الإخبارت المحمدية في غاية القوة.

وجاء في (منية الأذكياء في قصص الأنبياء) ما نصه: إن نبينا عليه الصلاة والسلام قد بشرت به الأنبياء السالفون، وشهدوا بصدق نبوته، ووصفوه وصفاً رفع كل احتمال، حيث صرحت باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره وسمته. غير أن أهل الكتاب حذفوا اسمه – يعني من نسخهم الأخيرة – إلا أن ذلك لم يجدهم نفعاً، لبقاء الصفات التي اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة وهي أظهر دلالة

من الاسم على المسمى، إذ قد يشترك اثنان في اسم، ويمتنع إشتراك اثنين في جميع الأوصاف. لكن من أمد غير بعيد، قد شرعوا في تحريف بعض الصفات، ليبعد صدقها على النبيّ عليه الصلاة والسلام. فترى كل نسخة متأخرة تختلف عما قبلها في بعض المواضع، اختلافاً لا يخفى على اللبيب أمره، ولا ما قصد به، ولم يفدهم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم لإنتشار النسخ بالطبع، وتيسر المقابلة بينها. وها نحن نورد شذرة من البشائر لديهم:

فمنها: في الباب السادس عشر من سفر التكوين في حق هاجر هكذا:

١١- وقال لها ملاكُ الربُ أنتِ حُبْلى فتلدين إبناً. وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك.

١٢- وإنه يكون إنساناً وحْشياً. يده علي كل واحد ويد كل واحد عليه. وأمامَ جميع إخوته يسكن.

هذه بشارة بمحمد ﷺ، لا بجده إسماعيل، لأن إسماعيل عليه السلام، لم تكن يده فوق يد الجميع، ولا كانت يد الجميع مبسوطة إليه بالخصوص. بل في التوراة أن إسماعيل وأمه هاجر أُخرج من وطنهما مكرهيْن، ولم يرث إسماعيل مع إسحاق، وكان الملك والنبوة في بني إسحاق، وكان بنو إسماعيل في البراري العطاش، ولم يسمع أن الأمم دانت لهم، حتى بعث رسول الله ﷺ، فدانت له الملوك، وخضعت له الأمم، وعلت يده وأيدي بني إسماعيل على كل يد، وصارت يد كلٍّ بهم فكان ذكر إسماعيل مقصوداً به ولده. كما أن في مواضع كثيرة من التوراة، ذكر يعقوب، والمقصود بالذكر ولد يعقوب. فمن ذلك قوله في السفر الخامس: ﴿يا إسْرائيلُ! الا تَخْشَى اللَّهَ رَبَّكَ، وَتَسْلُكُ فِي سَبِيلِهِ وَتَعْمَلُ لَهُ﴾؟ فهذا خطاب لبني إسرائيل باسم أبيهم، وكذلك قوله لقوم موسى (اسمع إسرائيل، ثم احفظ، واعمل يحسن إليك ربك، وتكثر وتنعم) ونظائره كثيرة. فظهر أنه قد يذكر اسم الأب، ويراد الابن مجازاً، بقرينة الحال، وإلا لزم الخلف في خبره تعالى.

ومنها: في الباب الثالث والثلاثين من سفر التثنية هكذا:

١- وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجلُ الله بني إسرائيل قبل موته.

٢- فقال: جاء الربّ من سيناءَ وأشرق لهم من سَعِيرَ وتلألأ من جبل فَارَانَ وأتى من رِبْوَاتِ القُدْسِ وعن يمنيه نارُ شريعةٍ لهم.

ولا غموض بأن مجئ الله جل وعلا من سيناء عبارة عن إنزاله التوراة على موسى بطور سينا - هكذا يفسره أهل الكتاب - والأمر كذلك فيجب أن يكون إشراقه من سعير عبارة عن إنزاله الإنجيل على المسيح، وكان المسيح يسكن أرض الجليل من سعير بقرية تدعى (ناصرة، واسم النصارى مأخوذ منها. وإستعلاؤه من جبال فاران عبارة عن إنزاله القرآن على محمد في جبل فاران. وفاران هي مكة، لا يخالفنا في ذلك أهل الكتاب. ففي الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في حال إسماعيل عليه السلام هكذا:

٢٠- وكان الله مع الغلام فكبر. وسكن في البرِّيَّة. وكان ينمو رامِيَ قوس.

٢١- وسكن في برِّيَّة فارَانَ. وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر.

ولا شك أن إسماعيل كان سكنه في مكة، وفهيا مات، وبها دفن. وهذه البشارة صريحة في نبينا ﷺ، ظاهرة لا تخفى إلا على أكمة لا يعرف القمر. فاي نبيّ ظهر في مكة بعد موسى غير محمد، وأنتشر دينه في مشارق الأرض ومغاربها، كما يقتضيه الإستعلان المذكور في البشارة.

ومنها: في الباب الثامن عشر من سفر التثنية هكذا:

١٧- قال لي الربّ قد أحسنوا في ما تكلموا.

١٨- أُقيم لهم نبيّاً من وسْط إخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه فيكلّمهم بكل ما أوصيه به.

١٩- ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمى أنا أطالبه.

هذا البشارة في حق نبينا ﷺ قطعاً، لأنه من ذرية إسماعيل، وذريته يسمون إخوة لبني إبراهيم، بدليل ما ذكر في التوراة في حق إسماعيل وأنه قبالة إخوته، ينصب المضارب. وقد جرت عادة الكتب المنزلة بتسمية أبناء الأعمام، عن بعد بعيد، إخوةً كما دعى في القرآن هود وصالح، إخوة لعاد وثمود مع أنهما على بعد بعيد من أولاد الأعمام. وكما قيل في سفر العدد في الباب العشرين:

١٤ - وأرسل موسى رسلاً من قَادَشَ إلى ملك أَدُومَ. وهكذا يقول أخوك إسرائيل قد عرفتَ كلَّ المشقة التي أصابتنا (مع أنهما أبناء أعمام على بعد بعيد).

وليست هذه الشهادة في حق أحد من أنبياء بني إسرائيل، وإلاّ، لقال: وسوف

أقيم لهم نبياً مثلك منهم أو من أنفسهم كما قال تعالى إخباراً بدعوة إبراهيم عليه السلام لولد إسماعيل ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فيهمْ رَسُولاً منْهُمْ﴾ وكما قال تعالى في خطاب بني إسماعيل: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ وأما زعمته اليهود من أن المراد يوشع فتى موسى، فهو باطل من وجوه:

١ – أن المبشر به من إخوة بني إسرائيل، لا من نفس بني إسرائيل، ويوشع كان من نفس بني إسرائيل.

٢ – أن يوشع لم يكن مثل موسى عليه السلام لما في آخر سفر التثنية.

(الأصحاح الرابع والعشرون).

١٠– ولم يقم بعدُ نبيٌّ في بني إسرائيل مثلُ موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه.

ولأن موسى عليه السلام صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواه، ويوشع ليس كذلك، بل هو مأمور باتباع شريعة موسى.

٣ – أن يوشع عليه السلام كان حاضراً هناك ، وقد أشير بعبارة صريحة قبل هذه ففي الباب الأول من هذا السفر.

٣٨ – يَشُوعُ بن نونٍ الواقف أمامك هو يدخل إلى هناك. شدّده لأنه هو يقسمها لإسرائيل.

فأي مقتض للرمز والتلويح، بعد هذا التصريح ؟ وأي موجب لإدخال (سوف) الدالة على الإستقبال على فعل حاصل في الحال؟

وأما ما زعمته النصارى من أن المراد به عيسى عليه السلام، فهو أيضاً باطل، لوجوه :

١ – أنه من بني إسرائيل، والمبشّر به هنا من غيرهم.

٢ – أن موسى بَشرَ بنبيّ مثله، وهم يدّعون أن عيسى إله، وينكرون كونه نبيًّا مرسلاً ، وإلا لزم اتحاد المرسِل والمرسَل ، وهو غير معقول. على أن مشابهة موسى لنبينا عليهما الصلاة والسلام، أقوى من مشابهتة لعيسى، لاتحادهما في أمور:

١ – كونهما ذَوَىْ والدَيْنِ وأزواج بخلاف عيسى عليه السلام.

٢ – كونهما مأمورَيْنِ بالجهاد، بخلاف عيسى عليه السلام. وقد أشار في هذه البشارة بقوله : ١٩ – ويكون أي الإنسان الذي لا يسمع لكلامي، الذي يتكلم به

باسمي، أنا أطالبه. إلى كون هذا النبيّ مأموراً بجهاد من كفر بما جاء به من عند الله، والإنتقام منه بسيفه البتّار. وزعمت النصارى أن الإنتقام هنا بمعنى العذاب الأخرويّ لمنكريه، وهو خطأ، لأن ذلك لا يختص بهذا النبيّ، بل كل من أنكر ما جاء به نبيّ من الأنبياء ينتقم منه في الآخرة، فلا معنى لتخصيص هذا النبيّ بالذكر حينئذ.

٣ – كون شريعتهما مشتملة على الحدود والقصاص والتعزير وإيجاب الغسل على الجنب والحائض والنفساء، وإيجاب الطهارة وقت العبادة، وهذه كلها ليست موجودة في شريعة عيسى عليه السلام– على ما تقول النصارى – ونظائر ذلك كثيرة. وفي هذه البشارة إشارة إلى كون هذا النبيّ أمياً لا يقرأ، حيث قال (يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي) وبذلك تعرف سر وصفه به في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ...**﴾ الآية التي نحن في صددها.

ومنها – في الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا: (إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلا الأبد، روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه، ولا يعرفه. وأنتم تعرفونه، لأنه مقيم عندكم، وهو ثابت فيكم). وهذه بشارة من المسيح عليه السلام بأن الله تعالى سيبعث للناس من يقوم مقامه، وينوب في تبليغ رسالته، وسياسة خلقه، منابَه، وتكون شريعته باقية مخلدة أبداً، وهل هذا إلا محمد ﷺ. و (الأب) هنا بمعنى الرب والإله، لأنه إصطلاح أهل الكتابين. وقد أشار عيسى عليه السلام بكونه (روح الحق) إلى أن الحق قبل مبعثه، يكون كالميت لا حراك له، ولا إنتعاش، وأنه إذا بعث يكون كالروح له، فيرجع حينئذ قائماً في الأرض. ولا خفاء أنه عليه الصلاة والسلام، هو الذي أحيى الله به الحق بعد عيسى عليه السلام بعد ما أندرس، ولم يبق فيه نفس. ثم قال: (الفارقليط روح القدس الذي يرسله الأب باسمي هو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ما قلته لكم). ولا شك بأن محمداً ﷺ هو الذي علم كل شيء من الحقائق، وأوضح ما خفي من الدقائق، وذكّر أمة عيسى ما نسوه من أقواله المتضمنة أنه عبد من عباد الله تعالى، قربه إليه بالرسالة واصطفاه، وأنه لم يَدْعُ لسوى عبادة الله وتوحيده، وتنزيهه وتمجيده. وقوله (باسمي) أي بالنبوة. ثم أبان لهم سبب إخبارهم به قبل أن يأتي فقال: (والآن قد قلت لكم قبل أن يكون. حتى إذا كان، تؤمنون).

وفي الباب الخامس عشر من الإنجيل المذكور: (فأما إذا جاء الفارقليط الذي

أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من الأب ينشق، وهو يشهد لأجلي، وأنتم تشهدون لأنكم معي من الإبتداء).

وفي الباب السادس عشر منه: (لكني أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن أنطلق لأني إن لم أنطلق، لم يأتكم الفارقليط. فأما إن إنطلقت أرسلته إليكم، فإذ جاء ذاك، فهو يوبخ العالم على خطيئة، وعلى بر، وعلى حكم. أما على الخطيئة فلأنهم لم يؤمنو بي. وأما على البر فلأني منطلق إلى الأب، ولستم ترونني بعدُ. وأما على الحكم، فإن رئيس هذا العالم قددين. وإن لي كلاماً كثيرا أقوله لكم، ولكنكم لستم تطيقون حمله. وإذا جاء روح الحق ذاك، فهو يعلمكم جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع، ويخبركم بما سيأتي، وهو يمجدني، لأنه يأخذ مما هو لي، ويخبركم جميع ما هو للأب، فهو لي. من أجل هذا قلت (إن مما هو لي يأخذ ويخبركم). ومن أمعن النظر في هذه العبارات، ولاحظ ما اشتملت عليه من الفحاوى والإشارات جزم بأن (الفارقليط) هو محمد ﷺ، فإنه هو الذي ظهر بعد عيسى عليه السلام، وشهد لعيسى بالنبوة والرسالة، ومجده وبرأه مما افتراه عليه النصارى من دعوى الربوبية، ومما افتراه عليه اليهود من كونه ساحراً كذاباً، وعلى والدته من كونها غير طاهرة الذيل، بريئة الساحة، وهو الذي وبخ العالم، سيما اليهود، على الخطايا، لا سيما خطيئة الكفر بعيسى عليه السلام، والطعن في والدته الطاهرة البتول، وهو الأمين الصادق، الذي علم جميع الحقائق، وهو الذي أبان من الأسرار ما لم تطق تحمله قبل مجيئه الأفكار، وهو الذي، لا يَنطِقُ عَنِ الْهوَى، ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى، عَلَمَهُ شَدِيدُ الْقُوى﴾ [النجم:٣].

وفسر العلامة ابن قتيبة (روح الحق الذي من الأب ينبثق) أي يصدر بكلام الله المنزل، وأستدل بقوله تعالى ﴿وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنا﴾ [الشورى: ٥٢]، والمراد به هنا القرآن الكريم، لأنه هو الذي يشهد للمسيح بالنبوة والنزهة، عما افترى عليه، وبأنه روح الله وكلمته وصفيه ورسوله، كما شهد الحورايون الذين كانوا معه، واهتدوا بهديه. ولم يثبت شهادة كتاب غير القرآن بذلك، فتعيّن أن يكون هو المراد.

وفي قول عيسى عليه السلام (إنه خير لكم أن أنطلق لأني إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط إشارة إلى أن نبينا عليه الصلاة والسلام أفضل.

ولفظ (فارقليط) يوناني الأصل، قيل: أصله باراكلي طوس، بمعنى كان لسان

قومه، وما كان يتكلم باليونانيّ، لأنه كان عبرانيّاً ابن عبرانية، نشأ في قومه العبرانيين، فنقلُ أقواله في هذه الأناجيل، نقل بالمعنى. فترجيح من رجح من النصارى، أن أصل فارقلط هو الأول ترجيح بلا مرجح، والتفاوت بين اللفظين يسير جداً، والحروف اليونانية متشابهة. وأيّاً كان أصله، فالاستدلال صحيح، لصدق اللفظ بمعانيه كلها على النبي ﷺ صدقاً جليا، لا يخفى إلا على مشاغب.

وقد كانت هذه البشائر سبب إسلام الفاضل عبد الله الترجمان، كما بينه في كتابه (تحفة الأديب في الرد على أهل الصليب).

وقد نبذ النصارى بعدُ الأناجيلَ المصرحة باسم (محمد) لكونها شجى في حلوق أهوائهم، كإنجيل (برنابا) ففيه التصريح بقوله (إلى أن يجئ محمد رسول الله) كما نقله في (إظهار الحق).

وإذا كان حالهم في تراجمهم، في لقب إلههم، ولقب خليفته ما علم - فكيف يرجى منهم صحة بقاء (محمد أو أحمد)؟! إلا أن سيف الحق أمضى، وسهام الصوب أنفذ، فثمة من الأوصاف الصريحة، والأشائر الصحيحة، ما لايبق معه وقفه لحائر.

هذا، وفي كتبهم بشائر كثيرة، تعرض لذكرها جلة من العلماء، مما أناف على العشرين.

قال الماوردي: لعل ما لم يصل إلينا منها أكثر. وقد أقتصرنا على ما قدمنا، رَوْماً للإختصار، ولسهولة الوقوف على البقية، من مثل (أعلام النبوّة للماوردي) و(إظهار الحق) وغيرهما.

وقد قال صاحب (إظهار الحق) الشيخ رحمه الله، عليه رحمة الله: إن من أسلم من علماء اليهود والنصارى في القرن الأول، شهد بوجود البشارات المحمدية في كتب العهدين، مثل عبد الله بن سلام، وأبني سعية، وبنيامين، ومخيريق، وكعب الأحبار، وغيرهم من علماء اليهود. ومثل بحيرا ونسطورا الحبشي، وضغاطر، وهو الأسقف الروميّ الذي أسلم على يد دِحْيَةً الكلبيّ وقت الرسالة فقتلوه. والجارود. والنجاشي، والسوس، والرهبان الذين جاءوا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وغيرهم من علماء النصارى. وقد إعترف بصحة نبوته، وعموم رسالته، هرقل قيصر الروم، ومموقس صاحب مصر، وابن صوريا، وحُيّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب وغيرهم، ممن حملهم الحسد على الشقاء ولم يسلموا.

ولما ورد على النبيّ ﷺ نصارى نجران، وحاجّهم في شأن عيسى عليه السلام وحجّهم، دعاهم إلى المباهلة بأمره تعالى، فنكصوا على أعقابهم، خوفاً من شؤم مغبتها، فكانوا كقوم فرعون آمنوا بها ﴿ واسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسهمْ ظُلْماً وَعُلُواً ﴾ [النمل:١٤].

. السادس – قوله تعالى: ﴿ يأمُرُهُم بالمَعْرُوفِ ﴾ يحتمل أن يكون مستأنفاً، وأن يكون مفسّراً ﴿ مَكْتُوباً ﴾ أي لما كتب.

السابع: الطيبات أعم من الطيبات في المأكل كالشحوم، وكذا البحائر والسوائب والوصائل والحام. ومن الطيبات في حكم الشريعة كالبيع، وما خلا كسبه عن سحت. وكذا الخبائث ما يستخبث، من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به، أو ما خبث في الحكم كالربا والرشوة وغيرهما من المكاسب الخبيثة. قيل: يستبعد إرادة ما طاب أو خبث في الحكم، لأن معناه حينئذ ما حكم الشرع بحله، أو حكم بحرمته، فيرجع الكلام إلى أنه يحل ما يحكم بحله، ويحرّم ما يحكم بحرمته، ولا فائدة فيه. وردّوه بأن يفيد فائدة وأيّ فائدة! لأن معناه أن الحل والحرمة بحكم الشرع، لا بالعقل والرأى.

الثامن – في قوله تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ والأغلالَ الّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ إشارة إلى أنه ﷺ جاء بالتيسير والسماحة، كما ورد الحديث من طرقٍ عن رسول الله ﷺ أنه قال[1]: بعثت بالحنيفية السمحة. وقال ﷺ[2] لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعريّ، لما بعثهما إلىّ اليمن: بشراً ولا تنفراص، ويسراً ولا تعسراً، وتطاوعاً ولا تختلفاً.

وقدمنا أن (الإصر والأغلال) إستعارة لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة. فمنها تحريم طبخ الجدي بلبن أمه. ومنها نظام الأعياد التي يعيّدونها لله في السنة وهي عيد الفطير وعيد الحصاد وعيد المظال. وكذلك عيد كل سبت، لا يعمل فيه أدنى عمل. وكذلك سبت المزارع. ففي كل سنة سابعة سبت للأرض، لا يزرع فيها، ولا يقطف الكرم، بل تترك الأراضي عطلاً، وغلت الكروم مأكلاً لفقراء شعبهم ووحوش البرية. ومنه أن من ضرب أباه أو أمه أو شتمهما أو تمرد عليهما وعصاهما

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥ / ٢٦٦ من حديث طويل رواه أبو أمامة عنه ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في: الجهاد، ١٦٤ – باب ما يكره من التنازع والاختلاف وعقوبة من غصا إمامه، حديث ١١٢٩.

يقتل حداً. وكذا من يعمل يوم السبت يقتل. ومن كان به جن أو تابعة يرجم بالحجارة حتى يموت. ومن تزوج فتاة فادعى أنه لم يجد لها عذرة، ثم تبيّن كذبه، جيمعاً يقتلان. وإذا أمسكت امرأةٌ عورةَ رجل تقطع يدها. وإذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات المنطوح يرجم الثور ولايؤكل لحمه. ومن اضطجع مع امرأة طامث يقطعان من شعبهم. ومن طلق امرأته ثم تزوجت آخر، وطلقها أو مات عنها، فلا يجوز لزوجها الأول أن يرجعها. وغير ذلك من الآصار التي تقدم بعضها في آخر سورة البقرة – فراجعه –.

التاسع – قال الجشمي: تدل الآية على أن شريعته ﷺ أسهل الشرائع، وأنه وضع عن أمته كل ثقل كان في الأمم الماضية. وذلك نعْمة عظيمة على هذه الأمة. وتدل على وجوب تعظيم الرسول، ونصره بالجهاد، ونصرته بنصرة دينه، وكل أمر يؤدي إلى توهين ما يتصل بذلك، لأن جميع ذلك من باب النصرة. وهذا لا يختص بعصره. فجيمع ذلك لازم إلى إنقضاء التكليف. ولعل الجهاد بالبيان، وإيراد الحجة، ووضع الكتب فيه، وحلّ شبه المخالفين، يزيد في كثير من الأوقات على الجهاد بالسيف، ولهذا قلنا (منازل العلماء في ذلك أعظم المنازل).

العاشر – قال العلامة البقاعي: لما تراسلت الآي، وطال المدى في أقاصيص موسى عليه السلام، وبيان مناقبه العظام، ومآثره الجسام، وكان ذلك ربما أوقع في بعض النفوس أنه أعلى المرسلين منصباً، وأعظمهم رتبة – ساق سبحانه هذه الآيات، هذا السياق، على هذا الوجه، الذي بين أعلاهم مراتب، وأزكاهم مناقب، الذي خص برحمته من يؤمن به من خلقه، قوة أو فعلاً. وجعل سبحانه ذلك في أثناء قصة بني إسرائيل، إهتماماً به، وتعجيلاً له، مع ما سيذكر، مما يظهر أفضليته، ويوضح أكمليته، بقصته مع قومه، في مبدأ أمره وأوسطه ومنتهاه، في سورة (الأنفال) و(براءة) بكمالها).

ثم قال البقاعي: لما تم ما نظمه تعالى في أثناء هذه القصص، من جواهر أوصاف هذا النبي الكريم، حث على الإيمان به، إيجاباً على وجهٍ علم منه أنه رسول الله إلى كل مكلف، تقدم زمانه أو تأخر– أمَرَهُ سبحانه أن يصرح بما تقدم التلويح إليه، ويصرح بما أخذ ميثاق الرسل عليه، تحقيقاً لعموم رسالته، وشمول دعوته، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾

﴿قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إنِّي رَسُولُ اللهِ إليْكُمْ جَميعاً﴾ أي كافة **﴿الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأرْضِ لا إلَهَ إلاَّ هُو يُحْيِي ويُمِيتُ﴾** نعوتٌ للفظ الجلالة، أي الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي بيده الملك والإحياء والإماتة. والآية نصٌ في عموم بعثته للأحمر والأسود، والعربي والعجمي. وفي الحديث: «أعطيت خمس لم يعطهن نبيٌّ قبلي – ولا أقولهن فخراً – بُعثت إلى الناس كافة، الأحمر والأسود، ونصرن بالرعب مسيرةَ شهر، وأُحلّت لي الغنائم، ولم تحلّ لأحد قبلي، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة، فأخَّرْتُها لأمتي، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً». رواه الإمام أحمد[١] عن ابن عباس مرفوعاً، ورواه[٢] أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «قال رسول الله ﷺ: لقد أعطيت الليلةَ خمساً ما أعطيهن أحد قبلي. أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة، وكان مَنْ قبلي إنما يرسل إلى قومه، ونُصرت على العدوّ بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملئ منه رعباً، وأحلت لي الغنائم، آكلها، وكان من قبلي يُعَظِّمونَ أكلها، كانوا يَحْرِقُونها، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهُوراً، أينما أدركتني الصلاة تمسَّحْتُ وصليتُ وكان مَنْ قبلي يُعَظِّمونَ ذلك، إنما كانوا يصلون في بِيَعِهِمْ وكنائسهم، والخامسة هي ما هي! قيل لي: سل، فإن كل نبيه قد سأل، فأخرتُ مسألتي إلى يوم القيامة، فهي لكم، ومن يشهد أن لا إله إلا الله».

قال الحافظ ابن كثير: إسنادهما جيد قوي.

وروى الإمام أحمد بمعناه عن ابن عمر وأبي موسى، وهو ثابت في الصحيحين[٣] عن جابر:

وأخرج مسلم[٤] عن أبي موسى قال: «قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي

---

(١) أخرجه في المسند ١ / ٣٠١ والحديث رقم ٢٧٤٢.

(٢) أخرجه في المسند ٢ / ٢٢٢ والحديث رقم ٧٠٦٨.

(٣) أخرجه البخاري في: الصلاة، ٥٦ – باب قول النبيّ ﷺ «جعلت لي مسجداً وطهوراً» حديث رقم ٢٣١. ومسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٣.

(٤) أخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ٢٤٠.

بيده! لا يسمع بي رجل من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار» ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ﴾ أي الذي نبئ ما يرشد الخلائق كلهم، مع كونه أمياً. وفي نعته بذلك زيادة تقرير أمره وتحقيق أنه المكتوب في الكتابين ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أي ما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي: موقنين ثابتين، يهدون الناس بكلمة الحق، ويدلونهم على الاستقامة، ويرشدونهم ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ وبالحق يعدلون بينهم في الحكم، لا يجورون. والآية سيقت لدفع ما عسى يوهمه تخصيص كُتُب الرحمة والتقوى والإيمان بمتبعي رسول الله ﷺ من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام، من كل خير، وبين أن كلهم ليسوا كما حكيت أحوالهم. وقيل هم الذين آمنوا بالنبي ﷺ. ويأباه أنه قد مرّ ذكرهم فيما سلف. أفاده أبو السعود.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ أي قوم موسى ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً﴾ أي صيّرناهم قطعاً، أي فرقاً، وميزنا بعضهم من بعض. والأسباط: أولاد الولد، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة، من اثني عشر ولداً، من ولد يعقوب عليه السلام ﴿أُمَماً﴾ أي عظيمة وجماعة كثيفة

العدد ﴿ وأوْحَيْنآ إلى موسى إذِ استَسْقاهُ قَوْمُهُ ﴾ أي في التيه ﴿ أنِ اضرِب بِعصاكَ الْحَجَرَ ﴾ فضربه ﴿ فانبَجَسَتْ ﴾ أي انفجرت ﴿ منهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيناً ﴾ بعدد الأسباط ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ ﴾ أي سبط منهم ﴿ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الغمامَ ﴾ في التية من حرّ الشمس ﴿ وأنزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ والسَّلْوى كُلُوا مِن طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وما ظَلَمُونا وَلَكِن كانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث أوجبوا لها العذاب الدائم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾

﴿ وإذْ قِيلَ لَهُمُ اسكُنُوا هَذهِ الْقَرْيَةَ ﴾ يعني بيت المقدس، والقائل موسى عليه السلام، دعاهم إلى دخول بيت المقدس، أو يوشع، فإنه دعاهم، بعد وفاة موسى، إلى غزو بيت المقدس ﴿ وَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ أي قولو حُطَّ عنا ذنوبنا، وقيل: أمروا بكلمة إذا قالوها حَطَّ عنهم أوزارهم ﴿ وادْخُلُوا الْبابَ ﴾ أي باب القرية ﴿ سُجَّداً ﴾ أي ساجدين أو خاضعين. أُمرُوا بأن يدخلوها بالتواضع، وكان ذلك شرطاً في قبول فعلهم ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

﴿ فَبدَّلَ الَّذينَ ظَلَمُوا منهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذي قِيلَ لَهُمْ فأرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً ﴾ أي عذاباً ﴿ مِّنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ وقد تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة بما يغني عن إعادته.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُون فِي السَّبْتِ إِذْ تأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ﴾
هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِين﴾ [البقرة:٦٥]. فقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ عطف على (اذكر) المقدر عند قوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾ أي وأسأل اليهود المعاصرين لك، سؤال تقريع وتقرير، بقديم كفرهم وتجاوزهم حدود الله، وإعلاماً بأن هذا من علومهم التي لا تعلم إلا بكتاب أو وحي، فإذا أعلمهم به من يقرأ كتابهم، علم أنه من جهة الوحي.

وقال ابن كثير: أي: واسأل هؤلاء اليهود بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، وحذّر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم، لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم.

و(هذه القرية) هي أيلة، بين مدين والطور، وقيل هي متنا، بين مدين وعينونا. ومعنى كونها ﴿حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أنها قريبة منه، راكبة لشاطئه.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي يتجاوزون حد الله فيه، وهو اصطيادهم في يوم السبت، وقد نهوا عنه، فقد أخذت عليهم العهود والمواثيق أن يحفظوا السبوت من عملٍ ما.

و(الحيتان) السمك، وأكثر ما تستعمل العرب الحوت، في معنى السمكة.

و﴿شُرَّعاً﴾ جمع شارع، من (شرع) بمعنى دنا. يقال: شرع علينا فلان، إذا دنا منا، وأشرف علينا. وشرعت على فلان في بيته، فرأيته يفعل كذا، وهو حال من ﴿حِيتَانُهُمْ﴾ أي تأتيهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء، قريبة من الساحل، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم أصلاً إلى السبت المقبل.

قرئ ﴿يُسْبِتُونَ﴾ ثلاثياً، ومزيداً فيه، من (أسبت) معلوماً ومجهولاً أيضاً، بمعنى، لا يدخلون في السبت ولا يدار عليهم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي مثل ذلك البلاء العجيب الفظيع، نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء، في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم الحلال لهم صيده، أي نعاملهم معاملة من يختبرهم، بسبب فسقهم، فيظهر عدوانهم، فيستحقون المؤاخذة.

ثم بين تعالى تماديهم في العدوان. وعدم انزجارهم عنه، بعد العظات والإنذارات، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

﴿**وإذ قَالَتْ أُمَةٌ مِّنْهُمْ**﴾ أي جماعة من صلحائهم، يحاورون فريقاً ممن دأبَ في عظتهم ﴿**لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُمْ**﴾ أي: مخترمهم ومطهّر الأرض منهم ﴿**أوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً**﴾ أي بل معذبهم عذاباً شديداً، إذ مجرد الإهلاك قد يوجد معه لطف، وأما شدة العذاب فتلك القاصمة ﴿**قالُوا**﴾ أي: الوعاظ ﴿**مَعْذِرَةً إلى ربِّكُمْ**﴾ أي نعظهم معذرة إليه تعالى، لئلا ننسب إلى التفريط في وصيته بالنهي عن المنكر. وقرئ بالرفع. أي موعظتنا معذرةٌ ﴿**ولَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ أي ورجاء في أن يتقوا فيتوبوا فينجوا من الإهلاك.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾

﴿**فَلَمَّا نَسُواْ ما ذُكِّرُوا به**﴾ أي فلما تركوا ما ذكرهم به صلحاؤهم، ترك الناسي للشيء، وأعرضوا عنه إعراضاً كلياً، بحيث لم يخطر ببالهم شيء من تلك المواعظ أصلاً ﴿**أنجيْناَ الَّذينَ يَنْهوْنَ عَنِ السُّوءِ وأخَذْنا الَّذينَ ظَلَمُوا**﴾ أي: المرتكبين المنكر.

﴿**بِعَذَابٍ بئيسٍ**﴾ أي: شديد، وزناً ومعنى ﴿**بِما كانُوا يَفْسُقُونَ**﴾ بفعل المنكر.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

﴿**فَلَمَّا عَتَواْ عَن مَّا نُهوا عَنْهُ**﴾، أي تكبروا وأبوا أن يتركوا ما نهوا عنه ﴿**قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ**﴾ أي صاغرين أذلاء، بُعَداءِ من الناس.

قال الزجاج: أمروا بأن يكونوا كذلك بقولٍ سُمِعَ.

وقال غيره: المراد بالأمر هو الأمر التكويني، لا القولي، أي: التكليفي، لأنه ليس في وسعهم حتى يؤمروا به. وفي الكلام استعارة تخييلية. شبه تأثير قدرته تعالى في المراد من غير توقف. ومن غير مزاولة عمل واستعمال آلة، بأمر المطاع للمطيع، في حصول المأمور به، من غير توقف. كذا في (العناية).

وظاهر الآية يقتضي أن الله تعالى عذبهمْ أوّلاً بعذاب شديد، فعتوا بعد ذلك، فمسخهم. ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريراً وتفصيلاً لما قبلها.

تنبيهات:

الأول: قال الجشمي: تدل الآية على أنهم تعبدوا بتحريم الصيد يوم السبت، وأنه شدد التكليف عليهم بظهورها يومئذ، وأنهم خالفوا أمر الله، وهذا القدر يقتضيه الظاهر. ومتى قيل: أفظهور الحيتان يوم السبت دون غيره من الأيام، هل كانت معجزة؟ قلنا: اختلفوا فيه. فقيل: كان معجزة لنبيّ ذلك الزمان، لأنه لا يتفق للسمك أن يأتي الأنهار كثيراً في يوم واحد، ولا يظهر في سائر الأيام. فإن كان كذلك، فلا بد أن الله تعالى قوى دواعي الحيتان يوم السبت، فظهروا. وصرفهم في سائر الأيام، فلم يظهروا، فكانت معجزة. وقيل: كانت جرت عادتهم بترك الصيد يوم السبت، فعلموا ذلك فكثروا في ذلك اليوم على عادتهم، كما اعتاد الدواب كثيراً من الأشياء. انتهى.

وقد روي في اعتدائهم في السبت روايات:

منها – أنهم تحيلوا لاصطياد الحيتان فيه بوضع الحبائل والبرك قبل يوم السبت، حتى إذا جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة، نشبت بتلك الحبائل، فلم تخلص منها يومها، فإذا كان الليل، أخذوها بعد انقضاء السبت.

ومنها – أنهم كانوا يأخذونها يوم السبت بالفعل، ولكن يأكلونها في غيره من الأيام، فتأول لهم الشيطان أن النهي عن الأكل فيه منها، لا عن صيدها. فنهتهم طائفة منهم عن ذلك وقالت: ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف، أو قذف، أو بعض ما عنده من العذاب. فلما أصبحوا وجدوهم أصابهم من المسخ ما أصابهم، وإذا هم قردة – رواه عبد الرزاق وابن جرير – وثمة روايات أخر.

وروي عن مجاهد أنهم مسخت قلوبهم، لا أبدانهم – والله أعلم –.

الثاني – استُدِلَّ بهذه القصة على تحريم الحِيَلِ.

قال الإمام ابن القيم في (إغاثة اللهفان): ومن مكايد الشيطان التي كادَ بها الإسلام وأهله، الحيل والمكر والخداع، الذي يتضمن تحليل ما حرم الله، وإسقاط ما فرضه، ومضادته في أمره ونهيه. وهي من الرأي الباطل الذي اتفق السلف على ذمه. فإن الرأي رأيان: رأي يوافق النصوص، وتشهد له بالصحة والاعتبار، وهو الذي اعتبره السلف، وعملوا به. ورأي يخالف النصوص، وتشهد له بالإبطال والإهدار، فهو الذي ذموه وأنكروه. وكذلك الحيل نوعان: نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله تعالى به، وترك ما نهى عنه، والتخلص من الحرام، وتخليص المحق من الظالم المانع له، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغي، فهذا النوع محمود، يثاب فاعله ومعلمه. ونوع يتضمن إسقاط الواجبات، وتحليل المحرمات، وقلب المظلوم ظالماً، والظالم مظلوماً، والحق باطلاً، والباطل حقاً، فهذا الذي اتفق السلف على ذمه، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض.

ثم ساق الوجوه العديدة على تحريمه وإبطاله. وقال في سادسها:

إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة لَمَّا احتالوا على إباحة ما حرمه الله تعالى عليهم من الصيد، بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة، فلما وقع فيها الصيد، أخذوه يوم الأحد، قال بعض الأئمة: ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية، ممن يتلبس بعلم الفقه، وهو غير فقيه، إذ الفقيه من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده، وتعظيم حرماته، والوقوف عندها. ليس المتحيلَ على إباحة محارمه، وإسقاط فرائضه، ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيباً لموسى عليه السلام وكفراً بالتوراة، وإنما هو استحلال تأويل. واحتيال ظاهره ظاهر الإيفاء، وباطنه باطن الاعتداء، ولهذا - والله أعلم - مسخوا قردة، لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان، وفي أوصافه شبه منهم، وهو مخالف له في الحد والحقيقة. فلما نَسَخَ أولئك المعتدون دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره، دون حقيقته، مسخهم الله قردة يشبهونهم في بعض ظواهرهم، دون الحقيقة، جزاء وِفاقاً.

ثم روي في عاشرها عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، وتستحلّوا محارم الله بأدنى الحيل».

الثالث - دلت الآيات على أن أهل هذه القرية صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور، واحتالوا على صيد السمك يوم السبت، كما بيّنا. وفرقة نهت

عن ذلك واعتزلتهم. وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة: لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم إياهم؟ فأجابتها المنكرة: بأنا نفعل ذلك اعتذاراً إلى ربنا فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم نص الله على نجاة الناهين، وهلاك الظالمين.

وقال ابن كثير: وسكت عن الساكتين، لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين، أو من الناجين؟ على قولين. ويروى أن ابن عباس كان توقف فيهم، ثم صار إلى نجاتهم، لما قال له غلامه عكرمة: ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه، وخالفوهم، وقالوا: لم تعظون قوماً الله مهلكهم؟ فكساه حلة.

الرابع – دل قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ على أن النهي عن المنكر لا يسقط، ولو علم المنكر عدم الفائدة فيه. إذ ليس من شرطه حصول الامتثال عنه، ولو لم يكن فيه إلا القيام بركن عظيم من أركان الدين، والغيرة على حدود الله، والاعتذار إليه تعالى، إذ شدد في تركه – لكفاه فائدة.

ولما ذكر تعالى بعض مساوئ اليهود، تأثره ببيان أنه حكم عليهم بالذل والصغار إلى يوم القيامة فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي آذن، (كتوعد بمعنى أوعد). من (الإيذان) بمعنى (الإعلام) أُجْرِيَ مجرى فعل القسم، كعلم الله، وشهد الله. ولذلك أجيب بما يجاب به القسم، وهو قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ والمعنى: وإذ حتم ربك وحكم، ليسلطن على اليهود ﴿إلى يَوْمِ القِيامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ﴾ كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك، بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه، واحتيالهم على المحارم. وقد بعث الله تعالى، بعد سليمان عليه السلام، بختنصر مالك بابل، فخرب ديارهم، وقتل مقاتلتهم، وسبى نساءهم وذراريهم، وضرب الجزية على من بقي منهم، وجلا كثيراً منهم إلى بابل – قصبة ممكلته – وأقاموا فيها سبعين سنة، ثم تسلطت عليهم ملوك شتى، ولبثوا زماناً طويلاً يكابدون بلاء عنيفاً، من تواتر

الحروب على بلادهم، إلى أن صاروا جميعاً تحت سلطة الرومان، بعد ولادة عيسى عليه السلام بإحدى وسبعين سنة، واستؤصلوا من أرضهم، وتفرقوا في البلاد شذر مذر، صاغرين مقهورين. ومن ها هنا، استدل من استدل بأنهم لا يكون لهم دولة ولا عز، وباتصال ذلهم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن أقام على كفره، ونبذ وصاياه ﴿وإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لمن تاب وآمن وعمل صالحاً.

ثم أخبر تعالى عن تبددهم في الأقطار بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً﴾ أي فرقنا بني إسرائيل في الأرض، وجعلنا كل فرقة منهم في قطر من أقطارها، بحث لا تخلو ناحية منها، منهم، تكملة لإدبارهم، حتى لا تكون لهم شوكة ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أي من ينحط عن درجة الصلاح، لكفرٍ أو فسق ﴿وَبَلَوْنَاهُم بالْحَسَنَات والسَّيِّئَاتِ﴾ أي النعم والنقم التي هي أمثلة اجزاء الصلاح والفسق ﴿لَعَلَّهُمْ يرْجِعُونَ﴾ أي عن أسباب السيئات إلى الحسنات.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد هؤلاء المذكورين ﴿خَلْفٌ﴾ أي بدل سوء. والمراد بهم الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ. (والخلف) مصدر، ولذا يوصف به المفرد وغيره، وقد شاع في الطالح، ومفتوح اللام بـ (الصالح)، وربما جاء عكسه ﴿وَرِثُواْ الْكِتابَ﴾ أي التوراة من أسلافهم المختلفين، يقرؤونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي، والتحليل والتحريم، ولا يعملون بها كما قال: ﴿يَأخُذونَ عرَضَ هَذاَ الأدْنى﴾ أي حطام هذا الشيء الأدنى، يريد الدنيا، وما يتمتع به منها. وفي قوله ﴿هَذا الأدْنى﴾ تخسيس وتحقير. و(العَرَض) بفتح الراء، ما لا ثبات له، ومنه استعار

المتكلمون (العرض) لمقابل (الجوهر). و(الأدنى) إما من الدنوّ، بمعنى القرب، لأنه عاجل قريب بالنسبة إلى الآخرة. وإما من دنوّ الحال وسقوطها وقلتها ﴿ **وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا** ﴾ أي يعتاضون عن بذل الحق ونشره، بعرض الحياة الدنيا، ويتحكمون على الله تعالى بأنه لا يؤاخذهم بما أخذوا ﴿ **وإن يأتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يأخُذُوهُ** ﴾ الواو للحال، أي يرجون المغفرة، وهم مصرّون عائدون إلى مثل فعلهم، غير تائبين، كلما لاح لهم مثل الأول أخذوه. ﴿ **أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثاقُ الْكِتَابِ** ﴾ أي الميثاق الوارد فيه ﴿ **أن لاَّ يَقُولُوا على اللَّهِ إلاَّ الْحَقَّ** ﴾ أي فلوا صح ما تحكموا به على الله، لم يكن لأخذ هذا الميثاق معنى.

ثم أخبر تعالى أن أخذهم ليس عن جهلهم بذلك الميثاق بقوله: ﴿ **وَدَرَسُواْ ما فيهِ** ﴾ أي قرأوا ما في الكتاب من الميثاق مرة بعد مرة ﴿ **والدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ** ﴾ أي من ذلك العرض الخسيس ﴿ **لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ** ﴾ أي أخذ هذا الأدنى بدل كتم الحق ﴿ **أفلاَ تَعْقِلُونَ** ﴾ أي فتعلموا ذلك، فلا تستبدلوا الأدنى المؤدي إلى العقاب، بالنعيم المخلد. وقرئ بالياء. وفي الالتفات تشديد للتوبيخ.

ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ، كما هو مكتوب فيه، بقوله سبحانه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

﴿ **والَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ** ﴾ أي يتمسكون به في أمور دينهم. يقال: مسّك بالشيء وتمسك به. وقرئ يُمْسِكون، من (الإمساك) وتمسكوا واستمسكوا ﴿ **وأقَامُوا الصَّلاةَ إنَّا لا نُضِيعُ أجْرَ الْمُصْلِحِينَ** ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر، تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع، لأن التعليق بالمشتق يفيد علة مأخذ الاشتقاق فكأنه قيل: لا نضيع أجرهم لإصلاحهم. فإن قلت: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة، ومنها إقامة الصلاة، فكيف أفردت؟ أجيب: بأن إفرادها، إظهاراً لمزية الصلاة – لكونها عماد الدين، وفارقة بين الكفر والإيمان.

قال الجشمي: تدل الآية على وعيد المعرض عن الكتاب، ووعد من تمسّك به، تنبيهاً لنا وتحذيراً عن سلوك طريقتهم. وتدل على أن الاستغفار باللسان، وتمني المغفرة لا ينفع حتى يكون معهما التوبة والعمل.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

﴿وإذْ نَتقْنا الْجبَلَ فوْقهُمْ﴾ أي رفعناه ﴿كأنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أي سحابة ﴿وَظَنُّوا أنهُ واقِعٌ بِهِمْ﴾ أي ساقط عليهم، لأن الجبل لا يثبت في الجوّ ﴿خُذُوا ما آتيْناكُمْ﴾ أي وقلنا، أو قائلين: خذوا ما آتيناكم من أحكام التوراة ﴿بقُوَّة﴾ أي عزيمة وجد ﴿واذْكُرُوا ما فيهِ﴾ أي بالعمل ولا تتركوه كالمنسي ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي مساوئ الأعمال، أو راجين أن تنظموا في سلك المتقين. وهذه الآية كقوله تعالى ﴿وَرَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤].

وقد روي عن ابن عباس وغيره من السلف: أنهم راجعوا موسى في فرائض التوراة وشرائعها، حتى رفع الله الجبل فوق رؤوسهم، فقال لهم موسى: (ألا ترون ما يقول ربي عز وجل؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها، لأرمينكم بهذا! فخرُّوا سجَّداً، فَرَقاً من أن يسقط عليهم) - رواه النسائي وسنيد -.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾

﴿وإذْ أخَذَ ربُّكَ مِن بَني آدَمَ من ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي أخرج من أصلابهم نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن، من أنهم كانوا نطفة قذفت إلى رحم الأمهات، ثم جعلت علقة، ثم مضغة، ثم أنشاهم بشراً سوياً حيّاً مكلفاً، فجعل خلقه إياهم كذلك، إخراجاً من أصلابهم، لأن أصلهم خرج منها، و ﴿من ظُهُورِهِمْ﴾ بدل من ﴿بَني ءادَمَ﴾ بدل البعض. وقرئ (ذرياتهم) ﴿وأشْهَدَهُمْ على أنْفُسِهِمْ﴾ أي أشهد كل واحدة من أولئك الذريات المأخوذين من ظهور آبائهم على نفسها، تقريراً لهم بربوبيته التامة.

قال الجشمي: أي أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته، وعجائب خلقته، وغرائب صنعته، من أعضاء سوية، وحواس مدركة، وجوارح ظاهرة، وأعصاب وعروق وغير ذلك، مما يعلمه من تفكر فيه، وكلها تدل عليه وعلى صفاته ووحدانيته، فبالإشهاد بالأدلة، صار كأنه أشهدهم بقوله.

وقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ على إرادة القول، أي قائلاً: ألست بربكم، ومالك أمركم ومربيكم على الإطلاق، من غير أن يكون لأحد مدخل في شأن من شؤونكم، فينتظم استحقاق المعبودية، ويستلزم اختصاصه به تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا﴾ أي على أنفسنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب غيرك، لأنهم بما ظهر عليهم من آثار الصنعة صاروا كأنهم قالوا ﴿بلى﴾، وإن لم يكن هناك قول باللسان. فالآية من باب التمثيل المعروف في كلام العرب. مثَّل تعالى خلقهم على فطرة التوحيد، وإخراجهم من ظهور آبائهم، شاهدين بربوبيته شهادة لا يخالجها ريب، بحمله إياهم على الاعتراف بها بطريق الأمر، ومسارعتهم إلى ذلك من غير تلعثم أصلاً. والقصد من الآية الاحتجاج على المشركين بمعرفتهم ربوبيته تعالى معرفة فطرية، لازمة لهم لزوم الإقرار منهم والشهادة. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، والفطرة هي معرفة ربوبيته.

وفي الصحيحين[١] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاء. هل تحسون فيها من جدعاء؟».

والجمعاء سالمة الأذن، والجدعاء مقطوعتها.

وفي صحيح مسلم[٢] عن عياض بن حمار قال رسول الله ﷺ: «يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم».

وروى الطبري عن الحسن عن الأسود بن سريع قال: قال رسول الله ﷺ: «كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهوّدانها أو ينصّرانها».

قال الحسن: والله لقد قال الله في كتابه ﴿وإذْ أخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادمَ...﴾ الآية – رواه الإمام أحمد[٣] والنسائي، بدون استشهاد الحسن بالآية.

---

(١) أخرجه البخاري في: الجنائز، ٨٠ – باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، حديث ٧١٦.
وأخرجه مسلم في: القدر، حديث رقم ٢٢ – ٢٤.

(٢) أخرجه في: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم ٦٣ ضمن حديث طويل.

(٣) أخرجه في المسند ٣/٤٣٥.

وأما الأخبار المروية في إخراج الذرية من صلب آدم عليه السلام، وتكليمه تعالى إياهم، ونطقهم، ثم إعدتهم إلى صلب أبيهم - فغير صحيحه الإسناد. وما حَسُنَ إسناده منها فغير صريح في ذلك، بل هو أقرب إلى ألفاظ الآية، كما بينه الحافظ ابن كثير. قال رحمه الله:

ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد فطرهم على التوحيد كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض والأسود. وقد فسر الحسن الآية بذلك.

قالوا: ومعنى (أشهدهم) أي أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً وقالاً. والشهادة تارة تكون بالقول، كقوله: ﴿قَالُواْ شَهِدْنَاَ على أنفُسنا﴾ [الأنعام: ١٣٠]، الآية- وتارة تكون حالا كقوله تعالى: ﴿ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أن يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللّه شاهِدِينَ على أنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]، أي حالهم شاهداً عليهم بذلك، لأنهم قائلون ذلك. وكذا قوله تعالى: ﴿وإِنَّهُ على ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٧]، كما أن السؤال تارة يكون بالقال، وتاراة يكون بالحال، كقوله: ﴿وآتاكُمْ مِّن كُلِّ ما سأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

قالوا: مما يدل على أن المراد هذا، أن جعل الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع كما قاله من قاله، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده، فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره. وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد.

﴿أن تَقُولُواْ﴾ أي كراهة أن تقولوا: ﴿يوْمَ الْقيامَة﴾ أي الذي يسأل فيه عن الربوبية والتوحيد ﴿إنَّا كُنَّا عَنْ هَذا﴾ أي عن ربوبيته وتوحيده ﴿غافِلِينَ﴾ أي لم ننبّه عليه. فإنهم حيث جبلوا على ما ذكر، صاروا محجوبين عاجزين عن الاعتذار بذلك. إذ لا سبيل لأحد إلى إنكار ما ذكر من خلقهم على الفطرة السليمة.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾

﴿أوْ تَقُولُوا إنَّما أشْرَكَ آباؤُنا﴾ أي سنوا الإشراك واخترعوه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من

قبل زماننا ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ أي فنشأنا على طريقتهم، احتجاجاً بالتقليد، وتعويلاً عليه، فقد قطعنا العذر بما بيّنا من الآيات ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي أتؤاخذنا بما فعل آباؤنا من الشرك، وأسسوا من الباطل، أو بفعل آبائنا الذين أبطلوا تأثير العقول، وأقوال الرسل؟ والاستفهام للإنكار، أي أنت حكيم لا تأخذ الأبناء بفعل الآباء، وقد سلكنا طريقهم والحجة عليهم بما شرعوا لنا من الباطل. والمعنى: أزلنا الشبهتين بأن الإقرار بالربوبية والتوحيد، هو في أصل فطرتكم، فلم لم ترجعوا إليه عند دعوة العقول والرسل؟ والفطرة أكبر دليل، فهي تسد باب الاعتذار بوجه ما. لا سيما والتلقيد عند قيام الدلائل، والقدرة على الاستدلال بها، مما لا مساغ له أصلاً.

تنبيهات

الأول – وافق الإمام ابن كثير، في هذا المقام أيضاً الجشمي في تفسيره، قال:

ويروي أصحاب الحديث عن أسلافهم من الآثار موقوفة ومرفوعة، ويجعلون ذلك تأويلاً للآية، وهو أنه تعالى مسح ظهر آدم، فأخرج منه ذريته، أمثال الذر، فقال: ألست بربكم؟ فقالوا: بلى طائعين. ثم أعادهم في صلب آدم. وإن تأويل الآية على ذلك.

قال: وقد ذكر مشايخنا رحمهم الله أن ذلك فاسد، وأن ظاهر الآية يخالف ذلك، وذكروا في الرواية ما نذكره. قالوا: فمما يدل على فساده وجوه:

منها: أنه لو كان حالٌ كما ذكروا، لذكرناه، لأن مثل ذلك الأمر العظيم لا ينساه العاقل، خصوصاً إذا كان إشهاداً عليه، ليعمل به.

ومنها: ما ذكره شيخنا أبو عليّ، أن ظهر آدم لا يسع هذا الجمع العظيم، وهذا شنيع من الكلام.

ومنها: أنه ذكر أنه خلقنا من نطفة، وكل ولد ولد من أب ومن نطفة، فلو خلقهم ابتداءً لا من شيء، لم يصح ذلك.

ومنها: أن الجزء الواحد، لا يجوز أن يكون حيّاً عاقلاً، لأن تلك البنية، لا تحمل الحياة، فلا بد من أن يكون مؤلفاً من أجزاء، وحينئذ لا يصح أن يكون الجميع في ظهر آدم.

ومنها: أنه يفتح باب التناسخ، والقول بالرجعة، لأن لهم أن يقولوا: إذا جاز الإعادة ثمة، لم ينكر التناسخ.

ومنها: أنه لا بد أن يكون فيه فائدة، وفائدته أن يذكره ليجري على تلك الطريقة، وإذا لم يذكره بطلت فائدته.

ومنها: أن الاعتراف لا يصح إلا وقد تقدم حال لهم عرفوا ذلك، فكيف يصح في ابتداء الخلق، إلى غير ذلك مما لا يقبله العقل.

ثم قال: قال مشايخنا رحمهم الله: والآية ظاهرها بخلاف قولهم من وجوه:

منها: أنه قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ﴾ ولم يقل (من آدم). وقال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل (من ظهره). وقال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ولم يقل (ذريته).

ومنها: أنه قال: ﴿أَن تَقُولُوا﴾ يعني فعل ذلك، لكيلا تقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾. وأي غفلة أعظم من أن جميع العقلاء لا يذكرون شيئاً من ذلك.

ومنها: أنه قال: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾ ولم يكن لهم يومئذ أب مشرك. وكل ذلك يبين فساد ما قالوا. ولم يصحح أحد من مشايخنا هذه الرواية، ولا قبلها، بل ردها. غير أبي بكر أحمد بن عليّ، فإنه جوّز ذلك من غير قطع على صحته. غير أنه قال: ليس ذلك بتأويل الآية، وذكر أن فائدة ذلك أن يجروا على الأعراق الكريمة في شكر النعمة، والإقرار بالربوبية. كما قال: إنهم ولدوا على الفطرة. قال: وأخرجهم كالذر ثم ألهمهم حتى قالوا بلى. انتهى ما قاله الجشمي.

الثاني - تدل الآية على فساد التقليد في الدين، وتدل على أنه تعالى أزال العذر، وأزاح العلة، وبعدها لا يعذر أحد. ذكره الجشمي.

الثالث - استدل بهذه الآية والأحاديث المتقدمة في معناها، أن معرفته تعالى فطرية ضرورية، قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]. ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧].

وعن عمران بن حصين قال: قال النبيّ ﷺ لأبي: «يا حصين: كم تعبد اليوم إلهاً؟ قال أبي: سبعة ستاً في الأرض، وواحداً في السماء؟ قال: فأيهم تُعدُّ لرغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء» - رواه الترمذي[1] - فالله تعالى فطر الخلق كلهم

(١) أخرجه في: الدعوات، ٦٩ - باب حدثنا أحمد بن منيع.

على معرفته فطرة توحيد، حتى من خلق مجنوناً مطبقاً مصطلماً لا يفهم شيئاً، ما يحلف إلا به، ولا يلهج لسانه بأكثر من اسمه المقدس، فطرة بالغة.

قال التقي ابن تيمية: إن الإقرار والاعتراف بالخالق فطري ضروري في نفوس الناس. وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته، حتى يحتاج إلى نظر يحصل له به المعرفة وهذا قول جمهور الناس، وعليه حذاق النظار أن المعرفة تحصل بالضرورة، وقد تحصل بالنظر لمن فسدت فطرته، كما اعترف بذلك خلائق من أئمة المتكلمين.

وقال أيضاً: ذهب طوائف من النظار إلى أن معرفة الله واجبة، ولا طريق لها إلا بالنظر فأوجبوا النظر على كل أحد. وهذا القول إنما اشتهر في الأمة عن المعتزلة ونحوهم. ولهذا قال أبو جعفر السمناني وغيره: إيجاب الأشعري النظر في المعرفة بقية بقيت عليه من الاعتزال.

وذكر رحمه الله أن الذي يدل عليه كلامه الأئمة والسلف – وهو أعدل الأقوال – أن النظر يجب في حال دون حال، وعلى شخص دون شخص. فوجوبه من العوارض التي تجب على بعض الناس في بعض الأحوال، لا من اللوازم العامة. والذين أوجبوا النظر ليس معهم ما يدل على عموم وجوبه، إنما يدل على أنه قد يجب، كقوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا ماذَا فِي السَّمَوات والأرْضِ﴾ [يونس:١٠١]. وقوله ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق:٥]، فإنه خطاب مع المتكبرين الجاحدين، أُمِروا بالنظر، ليعرفوا الحق،، ويقرّوا به، ولا ريب أن النظر يجب على هؤلاء.

قال أبو حيّان التوحيدي في (مقابساته) في المقابسة الثانية والأربعين : قيل لأبي الخير: حدثنا عن معرفة الله، تقدس وعلا، ضرورةٌ هي أم استدلال؟ فإن المتكلمين في هذا اختلفوا اختلافاً شديداً، وتنابذوا عليه تنابذاً بعيداً، ونحب أن يحصل لنا جواب، فيفسر على حد الاختصار مع البيان.

فقال: هي ضرورة من ناحية العقل، واستدلال من ناحية الحسّ. ولما كان كل مطلوب من العلم إما أن يطلب بالعقل في المعقول، أو بالحس في المحسوس، ساغ أن يظن مرة أن معرفته تعالى اكتساب واستدلال، لأن الحسن يتصفح ويستقوي بمؤازرة العقل ومظاهرته وتحصيله. وأن يظن تارة أنها ضرورة، فإن العقل السليم من الآفة، البريء من العاهة، يحث على الاعتراف بالله تقدس اسمه، ويحظر على صاحبه جحده وإنكاره والتشكك فيه لكن ضرورة لائقة بالعقل. لأن ضرورة العقل ليست

كضرورة الحس. لأن ضرورة الحس فيها جذب واختيار، وحمل وإكراه، وضرورة العقل لطيفة جداً. لأنه يعظ ويلاطف وينصح ويخفف.

ثم ضرب مثلاً لطيفاً، وقال بعده: فعلى هذا، فإن الله تقدس اسمه، معروف عند العقل بالاضطرار، لا ريب عنده في وجوده، ومستدل عليه عند الحس، لأنه يستحيل كثيراً ولا يثبت أصلاً، فمن أستدل ترقى من الجزئيات. ومن ادعى الاضطرار انحدر من الكليات. وكلا الطريقين قد وضح بهذا الاعتبار وكُفي مؤونة الخبط والإكثار. فأما ما ينظر منه في الجدال، فلا يرث منه إلا الشك والفرقة والحمية والعصبيّة. وهناك للهوى ولادة وحضانة، وللباطل استيلاء وجولة، وللحيرة ركود وإقامة. أخذ الله بأيدينا، وكفانا الهوى الذي يؤذينا – انتهى –.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي مثل ما ذكرنا، نُبَيِّن الأدلة والحجج، ليرجعوا إلى الحق. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾

﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على قومك أو على اليهود ﴿نَبأَ الَّذي آتَيْناهُ آياتنا﴾ أي علم الكتاب، فلطف به حتى تعلم وفهم المعاني، وصار عالماً بها ﴿فانسَلَخَ منْها﴾ بأن نزع العلم عنه فكفر بها، وخرج منها خروج الحية من جلدها ﴿فأتْبَعَهُ الشَّيْطانُ﴾ أي فلحقه وأدركه وصار قريناً له حتى أضله ﴿فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

﴿وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها﴾ أي لعظمناه بالعمل بها ﴿وَلكِنَّهُ أخْلَدَ إلى الأرْضِ﴾ أي

مال إلى الدنيا، ورغب فيها ﴿واتَّبعَ هَواهُ فمَثَلهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ وذلك لأنه استوى في حقه إيتاء الآيات، والتكليف بها، والتعظيم من أجلها، وعدم ذلك. كالكلب يدلع لسانه بكل حال، إن تحمل عليه، أي تشدّ عليه وتهيجه، أو تتركه غير متعرض له بالحمل عليه، فلهثه موجود في الحالتين جميعاً ﴿ذَلكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآياتِنا﴾ أي من التوراة أو غيرها ﴿فاقْصُصِ الْقَصصَ لَعَلَّهُمْ يَتفكَّرُونَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿سآءَ مَثلاً﴾ أي ما مثل به ﴿الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بآياتِنا﴾ أي حيث شبهوا بالكلاب، إما في استواء الحالتين في النقصان، وأنهم ضالون، وعظوا أم لم يوعظوا كما قدمنا. وإما في الخسة، فإن الكلاب لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز الهدى والعلم، وأقبل على هواه، صار شبيهاً بالكلب، وبئس المثل مثله. ولهذا ثبت في الصحيح عنه ﷺ قال[1]: ليس لنا مثل السوء. العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه. ﴿وأنفُسَهُمْ كانُوا يَظْلمُونَ﴾ اعلم أن من السلف من ذهب إلى أن هذه الآية مثل ضربه الله لمن عرض عليه الإيمان فأبى أن يقبله وتركه، وهو قول قتادة وعكرمة واختاره أبو مسلم، حيث قال: قوله ﴿آتَيْناهُ آياتِناَ﴾ أي بيناها، فلم يقبل، وعرى منها. وسواء قولك: انسلخ وعرى وتباعد. وهذا يقع على كافر لم يؤمن بالأدلة، وأقام على الكفر. قال: ونظيره قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ آمنُواْ بِمَا نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِّما مَعَكُمْ﴾ [النساء:٤٧]، وقال في حق فرعون: ﴿وَلَقَدْ أرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [طه:٥٦]. ومنهم من ذهب إلى أن الموصول فيها أريد به معيّن، فروي عن عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وزيد ابن أسلم وأبي روق أنه أمية بن أبي الصلت، فإنه كان قد قرأ الكتب، وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك الوقت، ورجا أن يكون هو، فلما أرسل الله محمداً عليه الصلاة والسلام، حسده، ثم مات كافراً، ولم يؤمن بالنبيّ ﷺ. وهو الذي قال فيه رسول

---

(١) أخرجه البخاري في: الهبة، ٣٠ - باب لا يحل لأحد أن يرجع في هبته وصدقته، حديث رقم ١٢٦٤ عن ابن عباس.
وأخرجه مسلم في: الهبات، حديث ٥ - ٨.

الله(١) (إنه آمن شعره وكفر قلبه) يريد أن شعره كشعر المؤمنين، وذلك أنه يوحد الله في شعره، ويذكر دلائل توحيده).

وقيل: نزلت في أبي عامر الراهب، الذي سماه النبيّ ﷺ (الفاسق)، كان يترهب في الجاهلية. فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام، وأمر المنافقين باتخاذ مسجد الضرار والشقاق، وأتى قيصر واستنجده على النبي ﷺ، فمات هناك طريداً وحيداً. وهوقول سعيد بن المسيّب.

وقيل نزلت في منافقي أهل الكتاب. كانوا يعرفون النبيّ ﷺ، فانكروه. عن الحسن والأصم.

وقيل: إنه فرعون. والآيات آيات موسى، كأنه لما اقتص أنبياء بني إسرائيل عاد إلى قصة فرعون وضرب له المثل.

ومن الأقوال التي تناقلها المفسرون أنها نزلت في بلعام بن بَعُور، ويحكون عنه قصة لم تُرْوَ في جوامع الآثار الصحيحة عندنا، ولا هي مطابقة لما عند أهل الكتاب. فقد ذكر نبؤه في الفصل الثاني والعشرين والثالث والعشرين من سفر العدد، من تاريخ التوراة، بغير ما يرويه المفسرون عنه. ثم رأيت الجشميّ لم يصحح ذلك، فحمدت المولى على الموافقة. وعبارته:

«وعن مجاهد قال: هو نبي يقال له بلعم. رشاه قومه فكفر. وهذا لا يجوز، لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر. لأن ذلك ينفّر الخلق عن الأنبياء، والقبول منهم، ويحقرهم في النفوس، ولأنهم حجج الله على خلقه، اصطفاهم. فالأقرب أنه لا يصح عن مجاهد» - انتهى - وهو كذلك لأن من قرأ نبأه السفر المتقدم، رأى من ثباته، وعدم موافقته لبالاق، ملك مؤاب، على ما أراد منه - ما يبرئه عن ذلك.

تنبيه:

قال الجشمي: إن قيل: كيف تتصل الآية بما قبلها؟ قلنا: على القول بأنه عنى بها فرعون فقد اتصلت قصته بقصة بني إسرائيل. وقيل لما نهى عن تقليد الآباء في الدين، بيّن في هذه الآية حال علماء السوء، الذين يختارون الدنيا على الآخرة. نهياً عن تقليدهم واتباعهم، كما نهى عن تقليد الآباء. وقيل: لما تقدم ذكر أخذ الميثاق، بين حال من آتاه الله الآيات فانسلخ منها ولم يتبعها.

---

(١) اخرجه ابو بكر بن الانباري في كتاب المصاحف، والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس. قال المناوي: وسند الحديث ضعيف.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فأولئكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ قال أبو السعود: لما أمر النبي ﷺ بأن يقص قصص المنسلخ على هؤلاء الضالين الذين مثلهم كمثله، ليتفكروا فيه، ويتركوا ما هم عليه من الإخلاد إلى الضلالة، ويهتدوا إلى الحق - عقب ذلك بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهة الله عز وجل، وإنما العظة والتذكير من قبيل الوسائط العادية في حصول الاهتداء، من غير تأثير لها فيه، سوى كونها دواعي إلى صرف العبد اختياره نحو تحصيله، حسبما نيط به خلق الله تعالى إياه، كسائر أفعال العباد.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا﴾ أي خلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ أي لدخولها والتعذيب بها ﴿كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ والإنسِ﴾ وهم الكفار من الفريقين، الموصوفون بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لأَيَفْقَهُونَ بِهاَ﴾ أي آيات الله الهادية إلى الكمالات ﴿وَلَهُمْ أعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهاَ﴾ أي دلائل وحدته، بَصَرَ اعتبار ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهاَ﴾ أي الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ، يعني أنهم لا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وأبْصاراً وأفْئدةً فَما أغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ ولا أبْصارُهُمْ ولا أفْئدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إذْ كانُوا يَجحَدُونَ بآياتِ اللّه﴾. [الأحقاف: ٢٦]، ﴿أولئكَ كالأنعامِ﴾ أي السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها، إلا في الذي يقيتها، كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذين كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إلاَّ دُعَاءً ونِداءً﴾ [البقرة: ١٧١]، أي ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان، كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها، لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أضَلُّ﴾ أي الأنعام، إذ ليس للأنعام قوة تحصيل تلك الكمالات ودفع تلك النقائص. وهم مع ما لهم من تلك القوة قد خلوا عن الكمالات، وعن دفع أضدادها، فكانوا أردأ حالاً منها، لنقصهم مع وجود قوة الكمال فيهم. وأيضاً: الأنعام تبصر

منافعها ومضارها، فتلزم بعض ما تبصره. وهؤلاء، أكثرهم يعلم أنه معاند، فيقدم على النار. وأيضاً: الأنعام قد تستجيب لراعيها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء، وأيضاً: إنها تفعل ما خلقت له، إما بطبعها، وإما بتسخيرها، بخلاف هؤلاء، فإنهم خلقوا ليعبدو الله، ويوحدوه، فكفروا به وأشركوا ﴿أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ أي عن تلك الكمالات والنقائص، ليهتموا لتحصيلها ودفعها، اهتمامهم لجر المنافع الدنيوية، ودفع مضارّها.

تنبيه:

قال أبو السعود: المراد بهؤلاء الذين ذُرئوا لجهنم، الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة، لكن لا بطريق الجبر، من غير أن يكون من قِبَلِهِمْ ما يؤدي إلى ذلك، بل لعلمه تعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبداً، بل يصرّون على الباطل من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم من الآيات والنذر. فبهذا الاعتبار جعل خلقهم مغيّاً بها، كما أن جميع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفطريّ للعبادة، وتمكنهم التام منها، جعل خلقهم مغيّاً بها. كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

﴿ولَلهِ الأسْماءُ الحُسْنى﴾ روى مقاتل أن رجلاً دعا الله في صلاته، ودعا الرحمن. فقال بعض المشركين: إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون ربّاً واحداً، فما بال هذا يدعو اثنين؟ فنزلت الآية. و(الحسنى) تأنيث (الأحسن). والمعنى: للّه الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها، لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها ﴿فَادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ في أسْمائِه﴾ أي يميلون عن الإقرار بها ويجحدونها، ويعدلون عنها كفراً بها. كقوله تعالى: ﴿وَإذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَما الرَّحْمَنُ أنَسْجُدُ لما تأمُرُنا وزادَهُمْ نُفوراً﴾ [الفرقان: ٦٠] أي زادهم ذكر الرحمن نفوراً. ولذا قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللّهَ أو ادْعُوا الرَّحْمَنَ أيّاً مّا تَدْعُوا فَلَهُ الأسْماءُ الحُسْنى﴾ [الإسراء:١١٠]، وقوله تعالى: ﴿سَيُجزَوْنَ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني في الآخرة، من جحدهم إياها ونفورهم عن الإيمان بها.

تنبيهات

الأول - قال السيد محمد بن المرتضى اليمانيّ في (إيثار الحق): مقام معرفة كمال هذا الرب الكريم. وما يجب له من نعوته وأسمائه الحسنى، من تمام التوحيد، الذي لا بد منه، لأن كمال الذات بأسمائها الحسنى، ونعوتها الشريفة. ولا كمال لذات لا نعت لها ولا اسم. ولذلك عدّ مذهب الملاحدة في مدح الرب بنفيها، من أعظم مكائدهم للإسلام. فإنهم عكسوا المعلوم عقلاً وسمعاً. فذموا الأمر المحمود ومدحوا الأمر المذموم، القائم مقام النفي والجحد المحض. وضادّوا كتاب الله ونصوصه الساطعة. قال الله جل جلاله ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى...﴾ الآية. وقال ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء:١١٠] الآية - فما كان منها منصوصاً في كتاب الله، وجب الإيمان به على الجميع، والإنكار على من جحده، أو زعم أن ظاهره اسم ذم لله سبحانه. وما كان في الحديث وجب الإيمان به على من عرف صحته. وما نزل عن هذه المرتبة، أو كان مختلفاً في صحته، لم يصح استعماله. فإن الله أجل من أن يسمى باسم لم يتحقق أنه تسمى به. انتهى.

الثاني: روى الشيخان[١] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، من حفظها دخل الجنة، والله وتْرٌ يحب الوتر». وفي رواية: من أحصاها. قال البخاري[٢]: أحصيناه: حفظناه وأخرجه الترمذيّ[٣] وزاد سوق الأسماء معدودة: ثم قال: ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. ورواه ابن ماجة[٤] أيضاً. فسرد الأسماء بزيادة ونقصان.

قال الحافظ ابن كثير: والذي عول عليه جماعة من الحفاظ، أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانيّ عن زهير بن محمد بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك. أي أنهم جمعوها من القرآن. كما روي عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي. انتهى.

---

(١) أخرجه البخاري في: الدعوات، ٦٨ - باب لله مائة اسم غير واحد، حديث رقم ١٣١٣.
وأخرجه مسلم في: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث رقم ٥ و٦.

(٢) أخرجه في: التوحيد، ١٢ - باب إن لله مائة اسم إلا واحداً.

(٣) أخرجه الترمذي في: الدعوات، ٨٢ - باب حدثنا يوسف بن حماد البصري.

(٤) أخرجه ابن ماجة في: الدعاء، ١٠ - باب أسماء الله عز وجل، حديث ٣٨٦٠ و ٣٨٦١.

وقال النووي: اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى. وليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما المقصود من الحديث الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها، لا الإخبار بحصرها. ولهذا جاء في الحديث[١] الآخر: أسالك بكل اسم سميت به نفسك، أو استأثرت به في علم الغيبّ عندك. وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن العربي المالكي عن بعضهم، أن لله ألف اسم. انتهى.

وقال السيد اليمانيّ في (إيثار الحق): عادة المتكلمين أن يقتصروا هنا على اليسير من الأسماء، ولا ينبغي ترك شيء منها، ولا اختصاره! فإن ذلك كالاختصار للقرآن الكريم. ولو كان منها شيء لا ينبغي اعتقاده ولا ذكره، ما ذَكَره الله تعالى في القرآن العظيم. وعادة بعض المحدثين أن يوردوا جميع ما ورد في الحديث المشهور في تعدادها، مع الاختلاف الشهير في صحته. وحسبك أن البخاري ومسلماً تركا تخريجه مع رواية أوله. واتفاقُهما على ذلك يشعر بقوة العلة فيه، ولكن الأكثرين اعتمدوا ذلك تعرضاً لفضل الله العظيم في وعده، من أحصاها، بالجنة كما اتفق على صحته. وليس يستيقن إحصاؤها بذلك إلا لو لم يكن لله سبحانه اسم غير تلك الأسماء. فأما إذا كانت أسماؤه سبحانه أكثر من أن تحصى، بطل اليقين بذلك، وكان الأحسن الاقتصار على ما في كتاب الله، وما اتفق على صحته بعد ذلك، وهو النادر وقد ثبت أن أسماء الله تعالى أكثر من ذلك المرويّ بالضرورة والنص. أما الضرورة،فإن في كتاب الله أكثر من ذلك. وأما النص، فحديث ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال[٢]: «ما قال عبد أصابه همّ أو حزن: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمَتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك. أسالك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أستأثرت به في علم الغيب، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمه، وأبدله مكان حزنه فرحاً» — رواه أحمد، وأبو عوانة في (صحيحه) وأبو يعلى والبزار.

ثم أخذ اليمانيّ يذكر ما وجده من الأسماء منصوصاً، غير معرِّج على التقليد. فانظره في (إيثار الحق)، فإنه جوّد البحث بمنزع شريف.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ٣٩١ والحديث رقم ٣٧١٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ٣٩١. والحديث رقم ٣٧١٢.

الثالث - قال بعض مفسري الزيدية في قوله تعالى ﴿فادْعُوهُ بِها﴾: المعنى سموه بها، وفي ذلك أمر بدعائه بالأسماء الحسنى، وهو أمر ندب إذا حمل على التلاوة بالتسعة والتسعين، وحث على ذلك في الحديث عنه ﷺ. وإن أريد بالتسمية بما فيه مدح، دون ما فيه إلحاد، فذلك وجوب.

الرابع - قال السيد اليماني في (إيثار الحق): هل يجوز تسمية محامد الرب تعالى وأسمائه الحسنى صفات له سبحانه وتعالى؟ قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، وذكر أهل التفسير واللغة أنه الوصف الأعلى، وكذلك جاء في كلام علي عليه السلام أنه قال: فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من صفته - ذكره السيد أبو طالب في (الأمالي) بإسناده، والسيد الرضي في (النهج) كلاهما في جوابه عليه السلام، على الذي قال له: صف لنا نار ربنا - وهذا لا يعارض قوله عز وجل ﴿سُبْحانَهُ وتَعالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، لأنه لم ينزه ذاته عن الوصف مطلقاً، حتى يعم الوصف الحسن، وإنما ينزه عن وصفهم له بالباطل القبيح. انتهى.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنا﴾ أي للجنة، لأنه في مقابلة ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّم﴾ [الأعراف: ١٧٩] - قاله النسفيّ - ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي يدعون إليه ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي يعملون ويقضون. وقد جاء في الآثار، أن المراد بالأمة، هذه الأمة المحمدية. وقال قتادة: بلغنا أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه لكم، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها. وعن الربيع بن أنس - في هذه الآية - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتي قوماً على الحق، حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل». وفي الصحيحين[1] عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة». وفي رواية: حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في: الاعتصام، ١٠ - باب قول النبيّ ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون، وهم أهل العلم» حديث رقم ٦٢.
وأخرجه مسلم في: الإمارة، حديث ١٧٤ و ١٧٥.

قال الشهاب: استدل بالآية على أن الإجماع حجة في كل عصر، وعلى أنه لا يخلو عصر من مجتهد إلى قيام الساعة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾

﴿ والَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتنا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّن حَيْثُ لا يَعلمُونَ ﴾ أي سنأخذهم بالعذاب من طريق لا يعلمونها، أو نفتح لهم من الأحوال ما يلائم أهويتهم، ثم نهلكهم. وأصل الاستدراج: أن يتدرج إلى الشيء قليلاً قليلاً، تشبيهاً بمن يرقى درجة درجة، حتى ينتهي إلى العلوّ. وقيل: أصله من الدرج الذي يطوى فكأنه يطوى منزلة بعد منزلة، كما يطوى الدرج. وقيل: لأنه من الدرجة فيكون، لأنه ينحط درجة بعد درجة حتى ينتهي إلى حال الهلاك.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

﴿ وأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أي أمهلهم ليزدادوا إثماً ﴿ إنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أي قويّ شديد. والمعنّيون بهذا الخطاب كفار مكة. قال في (التنوير): هم أبو جهل وأصحابه المستهزئون، أخذهم الله بعذابه في يوم (أُحُد)، وأهلك كل واحد بهلاكٍ غير هلاك صاحبه. انتهى.

ويدل قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾

﴿ أوَ لَمْ يَتفكَّرُواْ ما بِصاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ أي كما يختلقون. والاستفهام، للإنكار والتوبيخ. أي: أو لم يتفكروا في أنه ليس بصاحبهم الذي هو أعظم الأمة الهادية بالحق، شيء من جنة. وجوّز أن يكون الكلام تمّ عند قوله: ﴿ أوَ لَمْ يَتفكَّرُواْ ﴾ إنكاراً لعدم تفكرهم في شانه، الموقف على صدقه، وصحة نبوته. ثم ابتدأ نفي الجنة عنه تعجيباً وتبكيتاً. و ﴿ الجِنَّةُ ﴾ مصدر، كالجلسة، بمعنى الجنون، وليس المراد به الجن. كما في قوله تعالى: ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ والنَّاسِ ﴾ [الناس: ٦]، لأنه يحوج إلى تقدير

مضاف، أي مسه جنة أو تخبطها. والتعبير عنه ﷺ بـ (صاحبهم) للإيذان بأن طول مصاحبتهم له، مما يطلعهم على نزاهته عما ذكر، ففيه تأكيد للنكير، وتشديد له ﴿إن هُوَ إلاَّ نَذيرٌ﴾ أي رسول مخوّف ﴿مُبِينٌ﴾ أي موضح إنذاره، مبالغة في الإعذار. ولما نعى عليهم تفكرهم في شأنه ﷺ، أنكر إخلالهم في التأمل بالآيات التكوينية المنصوبة في الآفاق والأنفس، الشاهدة بصحة الآيات المنزلة، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

﴿أوَ لَمْ يَنظُرُواْ﴾ أي نظر استدلال ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّموات﴾ من الشمس والقمر والنجوم والسحاب. والملكوت: الملك العظيم ﴿والأرْضِ﴾ أي وفي ملكوت الأرض، من البحار والجبال والدواب والشجر ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أي وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم (الشيء)، من أجناس لا يحصرها العدد، ولا يحيط بها الوصف ﴿وأنْ عَسى أن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أجَلُهُمْ﴾ عطف على (ملكوت). اي في احتمال ان يهلكوا عما قريب، فيفارقوا الدنيا، وهم على أتعس الأحوال ﴿فَبأيِّ حَديثٍ بَعْدَهُ﴾ اي القرآن ﴿يؤْمِنُونَ﴾ أي إذا لم يؤمنوا به، وهو المعجز الجامع لكل ما يفيد الهداية. وفي هذا قطع لاحتمال إيمانهم رأساً، ونفي له بالكلية.

تنبيه:

قال الجشمي: تدل الآية على وجوب النظر في الأدلة، وأنها طريق المعرفة. وتدل على أنه لا شيء ينظر فيه، إلا ويعرف الله تعالى به.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي في كفرهم يتحيرون. يعني أن من كتب عليه الضلالة، فلا يهديه أحد، ولا يغنيه النظر، ولا الإنذار. كما قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا ماذَا فِي السَّموات والأرْضِ، وما تُغْني الآياتُ والنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّه فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١].

القول في تأويل قوله تعالى:

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

﴿**يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ**﴾ أي عن قيامها وحينها ﴿**أيَّانَ مُرْساها**﴾ أي متى إرساؤها أو وقت إرسائها، أي إثباتها وإقرارها. والرسوّ يستعمل في الأجسام الثقيلة، وإطلاقه على المعاني، تشبيهاً لها بالأجسام ﴿**قُلْ إِنما علمُها عِندَ ربِّي لا يُجلِّيها لوقْتِها إلاَّ هُوَ**﴾ أي لا يظهرها في وقتها إلا هو ﴿**ثَقُلَتْ في السَّموات والأرْضِ**﴾ أي عظمت وكبرت على أهلها لهولها وما فيها من المحاسبة والمجازاة. أو ثقل علم وقتها على أهلهما. أو عظم وصفها على أهل السموات والأرض، من انتشار النجوم، وتكوير الشمس، وتسيير الجبال ﴿**لا تأْتيكُمْ إلاَّ بغْتَةً**﴾ أي فجأة على حين غفلة منكم ﴿**يَسْئلُونَكَ كأنَّكَ حفِيٌّ عَنْها**﴾ أي عالم بها ﴿**قُلْ إنَّما عِلْمُها عِندَ اللهِ ولَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يعْلَمُونَ**﴾ أي أن علمها عند الله، لم يؤته أحداً من خلقه.

لطيفة:

قال الزمخشري: فإن قلت. لم كرر ﴿**يَسْئَلُونَكَ**﴾ و﴿**إنَما عِلْمُها عِندَ اللهِ**﴾؟ قلت: للتأكيد، وما جاء به من زيادة قوله: ﴿**كأنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها**﴾ وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق في كتبهم، لا يُخلون المكرر من فائدة زائدة. انتهى.

وقال الناصر في (الانتصاف): وفي هذا النوع من التكرير نكتة لا تلفى إلا في الكتاب العزيز، وهو أجلّ من أن يشارك فيها. وذاك أن المعهود في أمثال هذا التكرير، أن الكلام إذا بُني على مقصد، واعترض في أثنائه عارض، فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأول، وقد بعد عهده، طُرّي بذكر المقصد الأول، لتتصل نهايته ببدايته. وقد تقدم لذلك في الكتاب العزيز أمثال، وسيأتى، وهذا منها. فإنه لما ابتدأ الكلام بقوله: ﴿**يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أيَانَ مُرْسَاهَا**﴾ ثم اعترض ذكر الجواب المضمن في قوله: ﴿**قُلْ إنَّما علمُها عِندَ ربِّي**﴾ إلى قوله ﴿**بغْتَةً**﴾ أريد تتميم سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم، وهو المضمن في قوله: ﴿**كَأنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها**﴾ وهو شديد التعلق بالسؤال، وقد بعد عهده، فَطُرِّيَ ذكره تطرية عامة، ولا نراه أبداً يطرى إلا بنوع من الإجمال، كالتذكرة للأول، مستغنى عن تفصيله بما تقدم. فمن ثم قيل: ﴿**يَسْئَلُونَكَ**﴾

ولم يذكر المسؤول عنه، وهو (الساعة) اكتفاء بما تقدم فلما كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضاً مجملاً، فقال: ﴿قُلْ إنَّما عِلْمُها عِندَ اللَّهِ﴾. ويلاحظ هذه في تلخيص الكلام بعد بسطه. ومن أدق ما وقَفَتْ عليه العرب في هذا النمط من التكرير لأجل بعد العهد، تتطرية للذكر، قوله:

عَجِّلْ لنا هذا وألحقنا بذا الـ شحم إن قد مللناه بَجلْ

أي فقط، فذكر الألف واللام، خاتمة للأول من الرجزين، ثم لما استفتح الرجز الثاني، استبعد العهد بالأولى، فطرّي ذكرها، وأبقى الأول في مكانها. ومن ثم استدلّ ابن جني. على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء، فهو بيت كامل، وليس بنصف، كما ذهب إليه أبو الحسن. قال: ولو كان بيتاً واحداً، لم يكن عهد الأولى متباعداً، فلم يكن محتاجاً إلى تكريرها. ألا ترى أن عَبيداً لما جاء بقصيدة طويلة الأبيات، وجعل آخر المصراع الأول (أل) لم يعدها أول المصراع الثاني، لأنها بيت واحد، فلم ير عهدها بعيداً، وذلك قول عبيد بن الأبرص الأسدي:

يا خليليّ اربَعا وَاسْتَخْبِرا الْـ مَنْزِل الدَّارسَ عَنْ أهْلِ الْحلالِ
مِثْلَ سَحق الْبُردِ عفّى بَعْدَكَ الْـ قَطْرُ مَغْناهُ وَتأْويبُ الشَّمالِ

(اربعا: أقيما. الحلال: اسم امراة. سَحْق البرد: يريد مثل البرد المسحوق أي البالي. وعفى، بالتشديد :محا. القطر: المطر. مغناه. هو الموضع الذي كانوا يسكنونه. والشمال – بالفتح والكسر – من الرياح، ما مهبّه من مطلع الشمس وبنات نعش. وهي لا تكاد تهب ليلاً. وتأويبها: هبوبها النهار كله) ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتاً. فانظر هذه النكته، كيف بالغت العرب في رعايتها، حتى عدت القريب بعيداً، والمتقاصر مديداً. فتأملها فإنها تحفة إنما تنفق عند الحذاق الأعيان، في صناعتي العربية والبيان، والله المستعان – انتهى –.

(والقصيدة بتمامها في (مختارات ابن الشجريّ) بالصفحة رقم ٣٧)

ثم أمره تعالى أن يخبر بعبوديته الكاملة، بما ينبئ عن عجزه عن علم الساعة بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

﴿قُل لا أمْلكُ لِنَفْسِي نَفْعاً ولا ضَرّاً﴾ أي لا أقدر، لأجل نفسي، على جلب نفعٍ مّا،

ولا على دَفع ضرٍّ ما ﴿إلاّ ما شاءَ اللّهُ﴾ أي تمليكه لي من ذلك بان يلهمنيه، فيمكنني منه، ويقدرني عليه. وهذا كقوله تعالى في سورة يونس ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هَذا الْوَعدُ إن كُنتُمْ صادقينَ قُل لاّ أمْلكُ لنَفْسي ضَرّاً ولا نَفْعاً إلاّ ما شاءَ اللّهُ، لكُلِّ أُمَّةٍ أجَلٌ﴾ [يونس:٤٨-٤٩]. ﴿ولَوْ كُنتُ أعْلَمُ الغَيْبَ لا ستَكْثَرتُ مِنَ الخَيْرِ﴾ أي النفع، بترتيب اسبابه، فكنت مثلاً أعد للسنة المجدبة من المخصبة، ولوقت الغلاء من الرخص ﴿ومَا مَسَّنِي السُّوءُ﴾ أي الضر، للتوقي عن أسبابه ﴿إنْ أنا إلاّ نَذيرٌ وَبَشيرٌ﴾ أي عبد أرسلتُ نذيراً وبشيراً، وما من شأني أني أعلم الغيب. وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يجوز أن يتعلق بـ ﴿نَذيرٌ وبَشيرٌ﴾ جميعا، لان المؤمنين هم المنتفعون بالنذارة والبشارة، أو يتعلق بـ ﴿بَشيرٌ﴾ وحده، ومتعلق النذير محذوف، أي للكافرين، وحذف للعلم به. وقال الشهاب: ليطهر اللسان منهم. ثم بيّن تعالى عظم جناية الكفرة في جراءتهم على الإشراك، بتذكير مبادئ أحوالهم المنافية له، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾

﴿هوَ الّذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ واحِدَةٍ﴾ وهي نفس آدم عليه السلام ﴿وَجَعَلَ منها زَوْجَها﴾ أي من جنسها، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آياته أنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّن أنفُسِكُمْ أزْواجاً﴾ [الروم:٢١]، ﴿لِيَسْكُنَ إليْها﴾ أي ليطمئن إليها ويميل، ولا ينفر، لأن الجنس إلى الجنس أميل، وبه آنس. وإذا كانت بعضاً منه كان السكون والمحبة أبلغ، كما يسكن الإنسان إلى ولده، ويحبه محبة لكونه بضعة منه. وذُكّر ﴿لِيَسْكُنَ﴾ بعد ما أنث في قوله ﴿واحِدةٍ﴾ و ﴿منْها زَوْجَها﴾ ذهاباً إلى معنى النفس، ليبين أن المراد بها آدم، ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها، فكان التذكير أحسن طباقاً للمعنى. أفاده الزمخشري. ﴿فَلَمّا تَغَشّاها﴾ أي وطئها. و(التغشي) كناية عن الجماع، وكذلك الغشيان والإتيان ﴿حَمَلتْ حَمْلاً خَفيفاً﴾ أي خف عليها، وذلك أول الحمل، لا تجد المرأة له ألماً، إنما هي النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة ﴿فَمَرَّتْ بِه﴾ أي فاستمرت به خفيفة، وقامت وقعدت ﴿فَلَمّا أثْقَلَتْ﴾ أي صارت ذات ثقل، لكبر الولد في بطنها ﴿دَعَوا اللّهَ رَبَّهُما لَئنْ آتَيْتَنا صالِحاً﴾ أي ولداً سوياً قد صلح بدنه، أو

غلاماً ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي على نعمائك التي منها هذه النعمة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

﴿ **فَلَمَّا آتاهُما صالحاً** ﴾ أي كما طلبا ﴿ **جعلا لَهُ شُرَكَاءَ فيما آتاهُما** ﴾ أي أخلاّ بالشكر في مقابلة نعمة الولد الصالح أسوأ إخلال، إذا استبدلوه بالإشراك. وقوله تعالى: ﴿ **فَتعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ تنزيه فيه معنى التعجب.

تنبيه:

هذه الآية سيقت توبيخاً للمشركين في جنايتهم، ونقضهم ميثاقهم، في جريهم على خلاف ما يعاهدون الله عليه. وذلك أنه تعالى ذكر ما أنعم عليهم من الخلق من نفس واحدة، وجعل أزواجهم من أنفسهم ليأنسوا بهن. ثم إنشائه إياهم بعد الغشيان، متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود، ومن الضعف إلى القوة. ثم بين إعطاءهم المواثيق إن آتاهم ما يطلبون وولد لهم ما يشتهون، ليكونن من الشاكرين. ثم أخبر عن غدرهم وكفرانهم هذه النعم، التي امتن سبحانه بها عليهم، ونقضهم ميثاقهم في إفراده بالشكر، حيث أشركوا معه غيره في ذلك. ونظير هذه الآية، في الإخبار عن تبديل المشركين نعمة الله كفراً،قوله تعالى في سورة يونس ﴿ هُوَ الَّذي يُسَيِّرُكُمْ في الْبَرِّ والْبَحْرِ، حتّى إذا كُنْتُمْ في الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بهم بريحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بها جاءَتْها ريحٌ عاصفٌ وجاءَهُمُ الْمَوْجُ من كُلِّ مَكانٍ وظَنُّوا أنَّهُمْ أُحيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلصينَ لَهُ الدِّينَ لئِنْ أنجَيْتَنا مِنْ هَذه لَنَكونَنَّ مِنَ الشَّاكرينَ فَلَمَّا أنجاهُمْ إذا هُمْ يَبْغُونَ في الأرْضِ بِغَيرِ الْحَقِّ ﴾ [يونس:٢٢و٢٣]، وقد ذكر المفسرون ههنا أحاديث وآثاراً تفهم أن المراد بهذا السياق آدم وحواء. ولا حاجة بنا إلى روايتها لأنها واهية الإسناد معلولة، كما بينه الحافظ ابن كثير في (تفسيره). وتقبُّل ثُلة من السلف لها وتلقيها – لا يجدي في صحتها شيئاً. إذا أصلها مأخوذ من أقاصيص مسلمة أهل الكتاب، كما برهن عليه ابن كثير. وتهويلُ بعضهم بأنها مقتبسة من مشكاة النبوة، إذ أخرجها فلان وفلان، من تنميق الألفاظ لتمزيق المعاني، فإن المشكاة النبوية أجلُّ من أن يقتبس منها إلا كل ما عرفت جودته.

إذا علمت ذلك، تبين لك أن من استند إلى تلك الأحاديث والآثار، فذهب إلى أن المراد بالنفس الواحدة وقرينتها، آدم وحواء، ثم أورد على نفسه أنهما بريئان من

الشرك، وأن ظاهر النظم يقتضيه، ثم أخذ يؤوله، إما بتقدير مضاف، أي جعل أولادهما له شركاء، فيما آتى أولادهما، وإما بأن المراد جعل أحدهما وهو (حواء) من إطلاق المثنى وإرادة المفرد، وإما بغير ذلك - فإنه ذهب في غير مذهب.

• وقد قرر ما ارتضيناه في معنى الآية غير واحد. قال الحسن البصري، فيما روى عنه ابن جرير: إن الآية عنى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده. وفي رواية عنه: كان هذا في بعض الملل، ولم يكن بآدم.

قال ابن كثير: والأسانيد إلى الحسن، في تفسير هذا، صحيحة، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية.

قال: ولو كان الحديث المرفوع، في أنها في آدم وحواء، محفوظاً عنده من رواية رسول الله ﷺ، لما عدل عنه هو ولا غيره، لا سيما مع تقواه وورعه. فهذا يدل على أنه - إن صح - موقوف على الصحابي، لا مرفوع. انتهى.

وقال القفال: إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل، وبيان هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم، وقولهم بالشرك. وتقرير هذا الكلام، كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة، وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية، فلما تغشى الزوج زوجته، وظهر الحمل، دعا الزوج والزوجة ربهما، لئن آتيتنا ولداً صالحاً سوياً لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك، فلما آتاهما الله ولداً صالحاً سوياً، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما، لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع، كما هو قول الطبائعيين، وتارة إلى الكواكب، كما هو قول المنجمين. وتارة إلى الأصنام والأوثان، كما هو قول عبدة الأصنام.

وقال الناصر في (الانتصاف) - متعقباً على الزمخشري - : الأسلم والأقرب، والله أعلم، أن يكون المراد جنسي الذكر والأنثى، لا يقصد فيه إلى معيّن. وكأن المعنى - والله أعلم - خلقكم جنساً واحداً، وجعل أزواجكم منكم أيضاً، لتسكنوا إليهن، فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر، الجنس الآخر، الذي هو الأنثى، جرى من هذين الجنسين كيت وكيت، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس، وإن كان فيهم الموحدون، على حد (بنو فلان قتلوا قتيلاً) يعني من نسبة ما صدر من البعض إلى الكل.

فائدة:

قال بعض مفسري الزيدية: ثمرة هذه الآية أنه تعالى لما قال ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾

جعل حال الإثقال يخالف ما قبله، وأنه يختص فيه الدعاء لأجل أنه حال الخوف. وقد ذهب الهادي إلى أن الحامل إذا أتى عليها من الحمل ستة أشهر، كانت تصرفاتها كتصرفات المريض، تنفذ من الثلث. وهو قول مالك والليث، واحتجا بالآية، لأنه تعالى فرق بين حال الخفة والإثقال. وقال غيرهما: تصرفها من الجميع، ما لم يأخذها الطلق. قلنا: إنه يجوز عليها بعد الستة، وضع الحمل في كل وقت. انتهى.

ثم قال: ودلت الآية على أنه يجوز الدعاء لطلب أمور الدنيا، وإن حصول الولد منة يجب الشكر عليها. انتهى.

ثم استأنف تعالى توبيخ المشركين كافة، واستقباح إشراكهم، وإبطاله بالكلية ببيان شأن ما أشركوا به سبحانه، وتفصيل أحواله القاضية ببطلان ما اعتقدوه في حقه، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾

﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ أي بخالق الأشياء تعالى وتقدس ﴿مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً﴾ أي لا يقدر على خلق شيء ما، كقوله تعالى: ﴿يا أيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ، إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي: وَمَنْ هذه صفته كيف يعبد؟ ومن حق المعبود أن يكون خالقاً لعابده لا محالة ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي بل هم مخلوقون مصنوعون، كما قال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿أتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات:٩٥].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾

﴿ولا يَسْتَطيعُونَ لَهُمْ﴾ أي لَعَبَدتِهِمْ إذا حَزَبَهُمْ أمر ﴿نَصْراً﴾ أي بجلب نفع، أو دفع ضر ﴿ولا أنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ إذا اعترتهم حادثة من الحوادث، كما قال تعالى: ﴿وإن يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لاَيَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج:٧٣]، وكما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه، ويهينها غاية الإهانة.

وقد حكى ابن كثير أن معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما أسلما لما قدم النبيّ ﷺ المدينة، وكانا شابين، فكانا يعدوان في الليل على

أصنام المشركين، يكسرانها ويتلفانها، ويتخذانها حطباً للأرامل، ليعتبر قومهما. وكان لعمرو بن الجموح – وكان سيداً في قومه – صنم يعبده ويطيّبه، فكانا يجيئان في الليل، فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالعذرة. فيجيء عمرو بن الجموح، فيرى ما صنع به، فيغسله ويطيبه، ويضع عنده سيفاً، ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً. حتى أخذاه مرة، فقرناه مع كلب ميت، ودلّياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح، ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل. وقال:

تاللّهِ لو كنتَ إلهاً مُسْتَدَنْ   لم تك والكلبَ جميعاً في قَرَنْ

(مستدن: ذليل مستعبد. والقَرَن: الحبل).

ثم أسلم فحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً، رضي الله عنه وأرضاه.

تنبيه:

قال الجشمي: تدل الآية على صحة الحجاج في الدين، لأن قوله: ﴿ أيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ.. ﴾ الآية – حجاج. وتدل على أن المستحق للعبادة الذي يخلق وينعم ويقدر على النفع والضر هو الله تعالى.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾ [١٩٣]

﴿ وإن تدْعُوهُمْ ﴾ أيها المشركون ﴿ إلى الْهُدَى ﴾ أي إلى ما فيه رشاد ﴿ لا يَتْبعُوكُمْ ﴾ أي إلى مرادكم وطلبتكم ﴿ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أدعَوْتُمُوهُمْ أمْ أنتُمْ صامتُونَ ﴾ يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، كما قال إبراهيم ﴿ يا أبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْني عنكَ شَيْئاً ﴾ [مريم:٤٢]. وجوّز في الآية أن يكون المعنى: وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم وتطلبوا منهم، كما تطلبون من الله، الخير والشر، لا يجيبوكم كما يجيبكم الله، لقوله تعالى بعدُ: ﴿ فادْعُوهم فَلْيَسْتجيبُوا لَكُمْ إن كُنتُمْ صادِقينَ ﴾ [الأعراف:١٩٤].

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [١٩٤]

﴿ إنَّ الَّذينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ أي تبعدونهم وتسمونهم آلهة ﴿ عِبادٌ أمْثالكُمْ ﴾

أي مخلوقات مماثلة لكم ﴿فادْعُوهمْ﴾ أمر تعجيز وتبكيت. أي فادعوهم لجلب نفع، أو كشف ضر ﴿فلْيَسْتَجيبُواْ لَكُمْ إن كُنتُمْ صادقينَ﴾ أي في زعمكم أنها آلهة. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

﴿أَلَهُمْ أرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها، أمْ لَهُمْ أيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها، أمْ لَهُمْ أعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها، أمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها﴾ تبكيت إثر تبكيت، مؤكد لما يفيده الأمر التعجيزي، من عدم الاستجابة، ببيان فقدان آلتها بالكلية. فإن الاستجابة من الهياكل الجسمانية، إنما تتصور إذا كان لها حياة وقوى محركة. ومدركة. وما ليس له شيء من ذلك، فهو بمعزل من الأفاعيل بالمرة. كأنه قيل: ألهم هذه الآلات التي بها تتحقق الاستجابة، حتى يمكن استجابتهم لكم؟ وقد وجه الإنكار إلى كل واحدة من هذه الآلات الأربع على حدة، تكريراً للتبكيت، وتثنية للتقريع، وإشعاراً بأن انتفاء كل واحدة منها بحيالها، كافٍ في الدلالة على استحالة الاستجابة. أفاده أبو السعود.

ويقال: إنه لما جعلهم مثلهم، كرّ على المثلية بالنقض بما ذكر، لأنهم أدون منهم، وعبادة الشخص مَن هو مثله لا تليق، فكيف من هو دونه.

تنبيه:

قال الرازي: تعلق بعض أغمار المشبهة وجهّالهم بهذه الآية، في إثبات هذه الأعضاء لله تعالى، فقالوا: إنه تعالى جعل عدم هذه الأعضاء، لهذه الأصنام، دليلاً على عدم إلهيتها. فلو لم تكن هذه الأعضاء موجودة لله تعالى، لكان عدمها دليلاً على عدم الإلهية، وذلك باطل. فوجب القول بإثبات هذه الأعضاء لله تعالى... الخ.

وأقول: الظاهر أن ملحظ مثبتيها هو أن عدمها يدل على النقص، وهو محال على المولى تعالى، إذ له كل صفة كمال. ومعلوم أن في إثباتها له تعالى من آيات أخر، وأحاديث مشهورة، ما يغني عن تكلف استثباتها له تعالى من مثل هذه الآية، ولكن على المنهاج السلفيّ، وهو إثبات بلا تكييف، إذ من كيّف فقد مثل، ومن نفى فقد عطّل. فالمشبهة كالمعطلة، والحق وراءهم، والمسألة شهيرة.

ولما بين تعالى أن شركاءهم عاجزون، أمر تعالى رسول الله ﷺ أن يناصبهم

للمحاجّة، ويكرر عليهم التبكيت، فقال سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي استنصروا بها عليّ ﴿ثُمَّ كِيدُونَ﴾ أي اعملوا أنتم وهم في هلاكي من حيث لا أشعر به، حتى يمكنني دفعه.

﴿فلاَ تُنظِرُونِ﴾ أي عجّلوا في كيدي، فلا تمهلوني مدة أطلع فيها على كيدكم، فإني لا أبالي بكم. وقد أثبت نافع وأبو عمرو الياء في ﴿كِيدُونِي﴾، والباقون حذفوها. ومثله في قوله: ﴿ولا تُنظِرُونِ﴾ [يونس:٧١]، ﴿ثُمَّ لا تُنظِرُونَ﴾ [هود:٥٥]، قال الواحديّ: والقول فيه أن الفواصل تشبه القوافي، وقد حذفوا هذه الياءات إذا كانت في القوافي، كقوله:

يلمسُ الأحلاسَ في منزلِهِ بيديه كاليَهُوديّ الْمُصَلّ

(وأصلها المصلّي)

والذين أثبتوها، فلأن الأصل هو الإثبات.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ تعليل لعدم المبالاة، المنفهم من السوق انفهاماً جليّاً. أي: الذي يتولى حفظي ونصرتي هو الله الذي أنزل الكتاب، المشتمل على هذه العلوم العظيمة النافعة.

قال أبو السعود: ووصفه تعالى بتنزيل الكتاب، للإشعار بدليل الولاية، والإشارة إلى علة أخرى لعدم المبالاة. كأنه قيل: لا أبالي بكم وبشركائكم، لأن وليي هو الله الذي نزل الكتاب الناطق بأنه وليي وناصري، وبأن شركاءكم لا يستطيعون نصر أنفسهم، فضلاً عن نصركم. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ تذييل مقرر لما قبله. أي ومن عادته أن يتولى الصالحين من عباده، وينصرهم ولا يخذلهم. وفيه تعريض، لمن فقد الصلاح، بالخذلان والمَحْقِ.

قال الحسن البصريّ: إن المشركين كانوا يخوّفون الرسول ﷺ بآلهتهم، فقال تعالى: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية – ليظهر لكم أنه لا قدرة له على إيصال المضارّ إليّ، بوجه من الوجوه. وهذا كما قال هود عليه السلام، لما قال قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ

اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ، قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّه واشْهَدُوا أنِّي بَريءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُوني جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنظِرُونِ إِنِّي تَوكَّلْتُ على اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم... ﴾ [هود: ٥٤-٥٦] الآية.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾

﴿والَّذِين تَدْعُونَ مِن دُونه لا يَسْتَطيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ أي لا يتولون أحداً، لأنهم لا يستطيعون نصركم ﴿ولا أنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ أي إذا قصد إضرارهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

﴿وإن تَدْعُوهُمْ إلى الْهُدى لا يَسْمَعُواْ﴾ إذ ليس لهم سمع، وإن صوّرت لهم الآذان. كما أنه لا بصر لهم، وإن صورت لهم الأعين. كما قال: ﴿وتَراهُمْ يَنظُرُونَ إليْكَ﴾ إذ صورت لهم الأعين ﴿وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ لأنهم جماد عوملوا معاملة من يعقل، فعبر عنهم بضميره، لأنهم على صورٍ مصورة كالإنسان. وهذا من تمام التعليل، لعدم مبالاته بهم، فلا تكرار.

وقال السدّيّ: المراد بهذا (المشركون) وروي عن مجاهد نحوه، أي وإن كانوا ينظرون إليك، فإنهم لا ينتفعون بالنظر والرؤية.

قال ابن كثير: والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير، وقاله قتادة. أي تفصياً من التفكيك، لأن المحدث عنهم الأصنام.

تنبيه:

من غرائب استنباط المعتزلة قولهم في هذه الآية - والعبارة للجشمي- ما مثاله: تدل الآية على أن النظر غير الرؤية، وأنه لا يقتضي الرؤية، لذلك أثبتهم ناظرين غير رائين.

قال: ومثله قولهم نظرت إلى الهلال فلم أره. ويقسمون النظر إلى وجوه، ولا تنقسم الرؤية.

قال: فبطل قول من يقول: إن قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، يقتضي الرؤية. انتهى.

ولا يخفى أن الأصل في إطلاق النظر هو الرؤية والإبصار، ولذلك تتعاقب في هذا المعنى، وتترادف كثيراً، وانفكاكه عن الرؤية في هذه الآية لقرينة كون المحدَّث عنهم جماداً، ولا قرينة في الآية لتقاس على ما هنا. دع ما صح من الأخبار في وقوعها، مما هو بيان لها - فافهم -

ثم أمر تعالى نبيه ﷺ بالصفح عن المشركين، إذا جادلوه في شركائهم بعد هذا البيان، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي مكان الغضب، ليكونوا أقبل للنصيحة **﴿وأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾** أي بالجميل المستحسن من الأفعال، فإنها قريبة من قبول الناس من غير نكير، ولما كان الناصح لغيره، كالمعرِّض لعدوانهم، ثلَّث بما يحتاج إليه في ذلك فقال: **﴿وأعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾** أي المصرِّينَ على جهلهم، فلا تكافئ السفهاء بمثل سفههم، ولا تمارهم، واحلم عنهم، وأغْضِ على ما يسوؤك منهم.

تنبيهان:

الأول - قال بعض العلماء: إن سر الشريعة في الطباع والعادات، هو تأييد المستحسن ومحو المستقبح. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ فإن المعروف ما عرفته الطباع السليمة واستحسنته، والمنكر ما أنكرته واستقبحته. ذلك لأن غاية الشريعةِ راحة الخلق على حال ونظام معقولين، فلا يصح الحكم بتوحيد العادات في كل البلاد.

الثاني: روي عن الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه قال: أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

وروى البخاري[1] عن ابن عباس أن عيينة بن حصين قال لعمر بن الخطاب: هِي يا ابن الخطاب! فو الله، ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر، حتى همَّ أن يوقع به. فقال له الحرّ بن قيس: يا أمير المؤمنين! إن الله تعالى قال لنبيه

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٧ - سورة الأعراف، ٥ - باب ﴿خُذِ الْعَفْوَ وأْمُرْ بِالْعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، حديث ٢٠٠٤.

ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وأْمُرْ بِالْعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ الْجاهِلينَ﴾، وإن هذا من الجاهلين.

قال ابن عباس: والله! ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله عز وجل.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)﴾

﴿وإمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ﴾ أي يصيبنّك من الشيطان وسوسة تثير غضبك على جهلهم وإساءتهم، وتحملك على خلاف ما أمر فيه من العفو والأمر بالمعروف ﴿فاسْتَعِذْ باللَّهِ﴾ أي استجرْ به، وادعه في دفعه ﴿إنَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ أي باستعاذتك.

قال الزمخشري: النزغ والنسغ: الغرز والنخس، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي. أي فشبهت وسوسته وإغراؤه بالغرز، وهو إدخال الإبرة وطرف العصا وما يشبهه في الجلد، كما يفعله السائق لحث الدواب. وجعلُ النزغ نازغاً مجاز بالإسناد، لجعل المصدر فاعلاً، كجد جدّه.

قال أبو السعود: وفي الأمر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لأمره، وتنبيه على أنه من الغوائل الصعبة التي لا يتخلص من مضرتها إلا بالالتجاء إلى حرم عصمته عز وجل.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١)﴾

﴿إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ﴾ أي أصابهم ﴿طائِفٌ مِّنَ الشَّيْطانِ﴾ أي وسوسة وخاطر منه ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي الاستعاذة به تعالى والتوكل عليه ﴿فإذا هُم﴾ أي بسبب ذلك التذكر ﴿مُّبْصِرُونَ﴾ أي مواقع الخطأ، ومكائد الشيطان. فينتهون عنها ولا يتبعونه. وقرئ (طيف) على أنه مصدر، من قولهم (طاف به الخيال يطيف طيفاً)، أو تخفيف (طيّف) كليّن وهيّن. وهذه الآية تأكيد وتقرير لما قبلها من وجوب الاستعاذة بالله تعالى، عند نزغ الشيطان، وأن المتقين هذه عادتهم. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)

﴿وإخوانُهُمْ﴾ يعني وأما إخوان الشياطين من شياطين الإنس. كقوله: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء:٢٧]، وهم الذين لم يتقوا، فلم يتأت لهم التذكر، ولا ينفع فيهم الاستعاذة لأن الشياطين ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ أي يكونون مدداً لهم بتكثير الشبه والتزيين والتسهيل في الضلال، يعني تساعدهم الشياطين على المعاصي، وتسهلها عليهم وتحسّنها لهم ﴿ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ أي لا يمسكون عن إغوائهم، حتى يصرّوا ولايرجعوا. يعني أن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس، ولا يسأمون من إمدادهم من الشر، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية: وجوز عود الضمير لـ(الإخوان)، أي لا يرعوون عن الغيّ ولا يقصرون، وإن بولغ عليهم في الوعظ بآيات الله، وإقامة الدلائل، ورفع الشبه، وغير ذلك. وجوز أيضاً أن يراد أيضاً بـ (الإخوان) الشياطين، ويرجع الضمير إلى ﴿الْجَاهِلِينَ﴾ أي وإخوان الجاهلين، وهم الشياطين، يمدون الجاهلين في الغيّ.

قال الزمخشري: والأول أوجه، لأن (إخوانهم) في مقابلة ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾.

ثم بين تعالى، من أنوع إغوائهم، لجاجهم في طلب آيات معينة، وتعنتهم في اقتراحها، مع أن لديهم المعجزة العظمى، والخارقة الكبرى، وهي القرآن العظيم، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)

﴿وإذَا لَمْ تأْتِهِمْ بآيَةٍ﴾ أي مما اقترحوه ﴿قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي هلا تكلفتها وأنشأتها من عندك ﴿قُلْ إنما أتبِعُ ما يُوحى إليَّ مِن ربِّي﴾ أي فلست بمفتعل للآيات، ولا أتقدم إليه تعالى في شيء منها. ثم أرشدهم تعالى إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات، وأبين الدلالات، وأصدق الحجج والبينات، فقال سبحانه ﴿هَذا﴾ أي القرآن ﴿بَصائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي بمنزلة البصائر للقلوب، بها يبصر الحق، ويدرك الصواب. فالكلام على طريقة التشبيه البليغ. أو سبب البصائر، فهو مجاز مرسل. أو استعارة لإرشاده. أو المعنى: حجج بيّنة، وبراهين نيّرة. وإنما جمع خبر المفرد

لاشتماله على آيات وسور، جعل كل منها بصيرة. والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم - لتأكيد وجوب الإيمان بها ﴿وَهُدىً﴾ أي من الضلالة ﴿ورَحمةٌ﴾ أي من العذاب ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي به، فيتفكرون في حقائقه.

تنبيه:

قال الجشمي: تدل الآية أنه تعالى ينزل الآيات بحسب المصلحة، لا بحسب اقتراحهم، لأن ذلك قد يكون فساداً. ويدل قوله: ﴿هَذا بَصائِرُ﴾ أن المعارف مكتسبة. وتدل أن جميع ما يقوله الرسول ويفعله من الشرع من وحيه، لذلك قال: ﴿أَتَّبِعُ ما يُوحى إليَّ﴾، ومتى قيل: هل تدل الآية على أنه لا يجتهد ولا يقيس؟ قلنا: لا! لأن القياس والاجتهاد إذا كان متعبداً به، فاتباعه اتباع الوحي. كالعاميّ يقبل من المفتي، والعالم يجتهد، ويتبع الوحي، كذلك هذا. والذي يدل عليه أن النبي ﷺ لا يفعل شيئاً من تلقاء نفسه حتى يؤمر به - انتهى كلامه - وفي إطلاقه تفصيل له موضع آخر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾

﴿وإذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فاسْتَمِعُوا لَهُ وأنصِتُواْ﴾ أي عن حديث النفس وغيره ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أرشد إلى طريق الفوز بما انطوى عليه من منافعه الجليلة. أي وإذا قرئ القرآن الذي ذكرت خصائصه، فاستمعوا له، أي أصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا معانيه، وتتدبروا مواعظه، وأنصتوا لقراءته حتى تنقضي، إعظاماً له واحتراماً، لكي تفوزوا بالرحمة التي هي أعظم ثمراته، لا كما يعتمده كفار قريش من قولهم: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرآنِ والْغَوْاْ فيهِ﴾ [فصلت:٢٦].

تنبيهات:

الأول - ظاهر الآية يقتضي وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في الصلاة وغيرها، وعليه أهل الظاهر، وهوقول الحسن البصريّ وأبي مسلم الأصفهاني. وقد روى مسلم(١) عن أبي موسى الأشعريّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل

---

(١) اخرجه مسلم في: الصلاة، حديث ٧٧ - ٨١ عن أنس و ٨٢ عن عائشة و ٨٦ عن أبي هريرة أما حديث أبي موسى فلم اهتد إليه.

الإمام ليؤتم به، فإذا كبّر فكبْروا، وإذا قرأ فانصتوا». وكذا رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة.

وروى الإمام أحمد[1] وأهل السنن عن أبي هريرة أن «رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال: هل قرأ أحد منكم معي آنفاً؟ قال رجل: نعم. يا رسول الله. قال: إني أقول: ما لي أنازَع القرآن؟ قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ».

قال الترمذي[2]: هذا حديث حسن. وصححه أبو حاتم الرازي. نعم وردت السنة الصحيحة باستثناء الفاتحة وحدَها للمأموم. وذلك فيما رواه عبادة قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح، فثقلت عليه القراءة، فلما انصرف قال: إني أراكم تقرؤون وراء إمامكم؟ قال: قلنا: يا رسول الله! إي والله. قال: لا تفعلوا إلا بأم القرآن، فإنه لا صلاة لمن لا يقرأ بها» - رواه أبو داود[3] والترمذي[4]- وفي لفظ: فلا تقرءوا بشيء من القرآن إذا جهرت به، إلا بأم القرآن - رواه أبو داود والنسائي، والدارقطني وقال: رواته كلهم ثقات.

وأخرج ابن حبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أتقرءون في صلاتكم خلف الإمام، والإمام يقرأ؟ فلا تفعلوا، وليقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب في نفسه».

وأما حديث أبي هريرة المتقدم، فلا يستدل به على عدم قراءة المأموم مطلقاً، بل جهراً. لأن المنازعة إنما تكون مع جهر المأموم، لا مع إسراره. ولو سلم دخول ذلك في المنازعة لكان الاستفهام الإنكاري فيه عامّاً لجميع القرآن، أو مطلقاً في جميعه. وحديث عبادة خاص أو مقيّد، ولا تعارض بين عام وخاص، أو مطلق ومقيد، لابتناء الأول على الثاني. وكذا يقال في عموم الآية، وفي هذا جمع بين دلالة الكتاب، وصحيح السنة، إذ جاءنا بها من جاء بالقرآن.

الثاني - روي عن كثير من السلف أن الآية نزلت في الصلاة. وعن بعضهم: فيها وفي الخطبة يوم الجمعة. وعن بعضهم: فيهما وفي خطبة الأضحى والفطر. وقد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢ / ٢٤٠ والحديث رقم ٧٢٦٨.

(٢) أخرجه الترمذي في: الصلاة، ١١٦ - باب ما جاء في ترك القراءة خلف الإمام إذا جهر بالقراءة.

(٣) أخرجه أبو داود في: الصلاة، ١٣١ - باب القراءة في الفجر، حديث ٨٢٣.

(٤) أخرجه الترمذي في: الصلاة، ٦٩ - باب لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب.

قدمنا في مقدمة الكتاب مصطلح السلف في قولهم (نزلت هذه الآية في كذا) وبيّنا أنه قد يراد بذلك، أن الآية تشمل ذلك الشيء لدخوله في عمومها، لا أنه سبب لنزولها، وذلك في بعض المقامات، وما هنا منه. وبتحقيق هذا يسقط ما للرازي هنا من أنه إذا قيل بنزولها في منع المأموم من الجهر بالقراءة، يذهب تناسب الآية مع ما قبلها من إفحام المشركين، بأن يستمعوا لقراءته، ليقفوا على إعجازه. وما للخازن، بأن الآية مكية، وخطبة الجمعة والعيدين شرعتا بالمدينة – فافهمه –.

الثالث – روى الأمام أحمد[1] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من استمع إلى آية من كتاب الله، كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة».

قال ابن كثير تفرد به الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

﴿واذْكُر رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ والآصَالِ﴾ خطاب للنبي ﷺ، والمراد عامّ. أو المعنى: واذكر ربك أيها الإنسان. والأول أظهر، لأن ما خوطب به النبيّ ﷺ ولم يكن من خصائصه، فإنه مشروع لأمته. وقد أوضح هذا آية: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وأصِيلاً﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢]. والأمر بالذكر، قال الزمخشريّ: هو عام في الأذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك. وقال بعض الزيدية: هذا الأمر يحتمل الوجوب، إن فسر الذكر بالصلاة، وإن أريد الدعاء أو الذكر باللسان، فهو محمول على الاستحباب. قال: وبكلٍّ فسرت الآية.

ثم إنه تعالى ذكر آداباً لذكره:

الأول – أن يكون في نفسه، لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص، وأقرب إلى الإجابة، وأبعد من الرياء.

---

(١) أخرجه في المسند ٢/٣٤١.

الثاني – أن يكون على سبيل التضرع، وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير، ليتحقق بذلة العبودية لعزة الربوبية.

الثالث – أن يكون على وجه الخيفة أي الخوف والخشية من سلطان الربوبية، وعظمة الألوهية، من المؤاخذة على التقصير في العمل، لتخشع النفس، ويخضع القلب.

الرابع – أن يكون دون الجهر، لأنه أقرب إلى حسن التفكر. قال ابن كثير: فلهذا يستحب أن لا يكون الذكر نداءً ولا جهراً بليغاً. وفي الصحيحين[1] عن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النبيّ ﷺ: يا أيها الناس! اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً. إن الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته. قال الإمام: المراد أن يقع الذكر متوسطاً بين الجهر والمخافة، كما قال تعالى: ﴿ولا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ولاَ تُخافِتْ بِها وابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ١١٠].

الخامس – أن يكون باللسان لا بالقلب وحده، وهو مستفاد من قوله: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾ لأن معناه: ومتكلماً كلاماً دون الجهر، فيكون صفة لمعمول حال محذوفة معطوفاً على ﴿تَضَرُّعاً﴾، أو هو معطوف على ﴿فِي نَفْسِكَ﴾. أي اذكره ذكراً في نفسك، وذكراً بلسانك دون الجهر.

السادس – أن يكون بالغدوّ والآصال، أي في البكرة والعشيّ. فتدل الآية على مزية هذين الوقتين،لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد. وما بينهما، الغالبُ فيه الانقطاعُ إلى أمر المعاش. وقد روي: أن عمل العبد يصعد أول النهار وآخره، فطلب الذكر فيهما، ليكون ابتداء عمله واختتامه بالذكر.

ثم نهى تعالى عن الغفلة عن ذكره بقوله ﴿ولاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي من الذين يغفلون عن ذكر الله، ويلهون عنه، وفيه إشعار بطلب دوام ذكره تعالى، واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه، بقدر الطاقة البشرية.

ثم ذكر تعالى ما يقوي دواعي الذكر، وينهض الهمم إليه، بمدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار، لا يفترون، فقال:

---

(١) أخرجه البخاري في: الجهاد، ١٣١ – باب ما يكره من رفع الصوت بالتكبير، حديث ١٤٢٣.
وأخرجه مسلم في: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٤٤ – ٤٧.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة الذين هم في أعلى مقامات القرب **﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ﴾** أي لا يتعظمون عنها. وقوله **﴿وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾** أي فينبغي أن يقتدى بهم فيما ذكر عنهم، ففيه حث ولطف مرغب في ذلك. لأنه إذا كان أولئك - وهم ما هم في قرب المنزلة والعصمة - حالهم في عبادته تعالى وتسبيحه ما ذكر، فكيف ينبغي أن يكون غيرهم.

تنبيهات

الأول - قال الرازي: تمسك أبو بكر الأصم بهذه الآية في تفضيل الملائكة على البشر قال: لأنه تعالى لما أمر رسوله بالعبادة والذكر قال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ...﴾** الآية - أي فأنت أولى وأحق بالعبادة، والمسألة مستوفاة في كتب الكلام. واستنبط من قال بالتفضيل المذكور من الآية، أنه ينبغي للعبد أن ينظر إلى من فوقه في طاعة الله تعالى.

الثاني - قال الرازي: المشبهة تمسكوا بقوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ...﴾** وقالوا: لفظ (عِندَ) مشعر بالجهة. ثم أجاب بما هو معروف للخلف. ويعني، سامحه الله، بالمشبهة الحنابلة، وهم براء من التشبيه، كما يعلمه من طالع عقائدهم، واقفون على حدّ النصوص بلا تشبيه ولا تعطيل، ولم ينفردوا بذلك، فقد تقدمهم من لا يحصى في هذه المسألة. راجع كتاب (العلوّ للذهبيّ) تعلم ما ذكرنا.

الثالث - قال الجشمي: تدل الآية على كون الملائكة مكلفين. وتدل على أنهم سجدوا للّه. وآدمُ كان قبلة السجود، لأنه وصفهم بأنهم يسجدون له.

الرابع - هذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع. وقد ورد في حديث رواه ابن ماجة[1] عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ، أنه عدها في سجدات القرآن.

وروى الشيخان[1] عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن، فيقرأ

---

(١) أخرجه ابن ماجة في: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب عدد سجود القرآن، حديث رقم ١٠٥٦.

سورة فيها سجدة، فيسجد ونسجد معه، حتى ما يجد بعضنا موضعاً لمكان جبهته، في غير وقت صلاة.

وروى مسلم[٢] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويلتا! أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرتُ بالسجود فأبيتُ. فلي النار».

وروى مسلم[٣] عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ «قال: سألت رسول الله ﷺ فقال: عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة، إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة».

الخامس – السجدة المشروعة، إن كانت لآية، أُمِرَ فيها بالسجود فللأمر، أو حكى فيها استنكاف الكفرة عنه، فلمخالفتهم وإرغامهم، أو حكي فيها سجود الأنبياء أو الملائكة، فللتأسي بهم – كذا في (العناية).

وهذا آخر ما تيسر تعليقه على سورة الأعراف، فلله الحمد على هذا التسهيل والإسعاف. ونسأله بمنه وكرمه العون على الإتمام، فإنه ذو الجلال والإكرام.

وكان الفراغ في ذلك طلوع الشمس من يوم الثلاثاء، في ٢٦ رمضان المبارك سنة ١٣٢١ بشباك السدة العليا اليمنى من جامع السنانية. على يد الفقير جمال الدين القاسميّ غفر الله له ولوالديه ولجميع المؤمنين، ورحمه وإياهم إنه أرحم الراحمين.

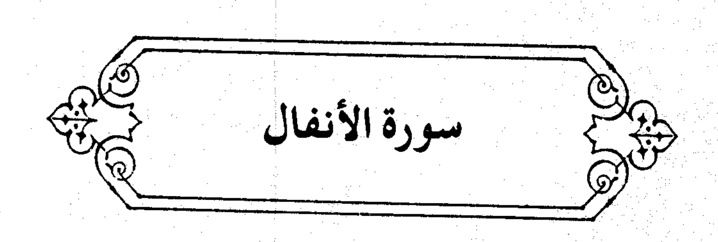
---

(١) أخرجه البخاري في: سجود القرآن، ٨ – باب من سجد لسجود القارئ، حديث رقم ٥٩٢.
وأخرجه مسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ١٠٥.

(٢) أخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ١٣٣.

(٣) أخرجه مسلم في: الصلاة، حديث رقم ٢٢٥.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة الأنفال

مدنية، أو، إلاَّ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ...﴾ الآيات السبع، فمكية. وآياتها خمس وسبعون آية.

سميت بالأنفال لأنها مبدأ هذه السورة، ومنتهى ما ذكر فيها من أثر أمر الحروب.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ، قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

روى البخاري[١] عن ابن عباس أن سورة الأنفال نزلت في بدر.

وروى الإمام أحمد[٢] عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فشهدت معه بدراً. فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدوّ، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويَقتلون: وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه. وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدوُّ منه غرة. حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها، فليس لأحد فيها نصيب. قال الذين خرجوا في طلب العدوّ: لستم بأحق به منا، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا. نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة، واشتغلنا به – فنزلت: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ...﴾** الآية – فقسمها رسول الله ﷺ على فُوَاقٍ من المسلمين.

وهذا الحديث رواه الترمذي أيضاً وحسنه، ورواه ابن حبان في صحيحه، وصححه الحاكم. ولفظ ابن إسحاق عن عبادة قال: فينا، أصحابَ بدر، نزلت، حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين على السواء.

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٨ – سورة الأنفال، باب قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفالِ﴾، حديث رقم ١٨٦٩.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/٣٢٣.

وروى أبو داود[١] والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: من صنع كذا وكذا فله من النَّفَل كذا وكذا. فتسارع في ذلك شبّان القوم، وبقي الشيوخ تحت الرايات. فلما كانت المغانم، جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم. فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإنا كنا رِدْءاً لكم، لو انكشفتم لثُبْتُم إلينا. فتنازعوا، فأنزل الله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ**...﴾ الآية — وهذا مما يفيد أن التشاجر كان متنوعاً، وأن الآية نزلت لفصله.

والأنفال: هي المغانم، جمع (نَفَل) محركة، وهو الغنيمة. أي كل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب. قال ابن تيمية: سميت بذلك، لأنها زيادة في أموال المسلمين. أي لأن النفل يطلق على الزيادة — كما في (التاج). ومنه النافلة لصلاة التطوع لزيادتها على الفريضة.

وقوله تعالى: ﴿**قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ — قال المهايمي: أي ليست هي في مقابلة الجهاد، وإنما مقابله الأجر الأخرويّ، وهذه زائدة عليه، خرجت عن ملك المشركين فصارت ملكاً خالصاً لله ولرسوله. والرسول خليفة يعطيها، على ما أراه الله، من يشاء. ولما أطلق له ﷺ الحكم فيها، قسمها بينهم بالسوية، ووهب من استوهبه. فروى الإمام أحمد[٢] عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر قُتِل أخي عمير وقُتلتُ سعيد بن العاص، وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكَتيفة، فأتيت به النبيّ ﷺ فقال: اذهب فاطرحه في القَبَض. قال، فرجعت، وبي ما لا يعلمه إلا الله، من قتل أخي، وأخذ سَلَبي. قال، فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال. فقال لي رسول الله ﷺ: اذهب فخذ سَلَبك. وروى الإمام أحمد[٣] والترمذي — وصححه — عن سعد بن مالك قال: قلت: يارسول الله! قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف، فقال: إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضعه. قال، فوضعته ثم رجعت، فقلت: عسى أن يعطي هذا السيف اليوم من لا يبلي بلائي. قال، إذا رجل يدعوني من ورائي. قال، قلت: قد أنزل الله فيّ شيئاً. قال: كنت سألتني السيف، وليس هو لي، وإنه قد وهب لي، فهو لك. قال، وأنزل الله هذه الآية ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ**...﴾ الآية.

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، ١٤٤ — باب في النفل، حديث رقم ٢٧٣٧.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١ / ١٨٠ والحديث رقم ١٥٥٦.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١ / ١٧٨ والحديث رقم ١٥٣٨.

تنبيهات

الأول – ذهب بعضهم إلى أن أنفال بدر قسمت من غير تخميس، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس، فنسخت الأولى.

قال ابن كثير: فيه نظر. ويرد عليه حديث عليّ بن أبي طالب في شَارِفَيْه اللذيْن حصلا له، من الخمس، يوم بدر. فالصواب أنها مجملة محكمة، بيّن مصارفها في آية الخمس.

الثاني – روي عن عطاء أنه فسر (الأنفال) بما شذّ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال من دابة أو أَمَةٍ أو متاع. قال: فهو نَفَلٌ للنبيّ ﷺ يصنع به ما يشاء.

قال ابن كثير: وهذا يقتضي أنه فسر (الأنفال) بالفيء، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال.

قلت: صِدْقُ (النفل) عليه، لا شك فيه، وأما كونه المراد من الآية بخصوصه، فلا يساعده سبب نزولها المارّ ذكره، لا سيما قوله: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ المشير إلى التنازع المتقدم.

ثم قال ابن كثير: واختار ابن جرير أنها الزيادة على القسم، أي ما يدفع إلى الغازي زائداً على سهمه من المغنم، والكلام الذي قلته قبل، يجري هنا أيضاً.

ونقل الرازي عن القاضي؛ أن كل هذه الوجوه تحتمله الآية. قال: وليس فيها دليل على ترجيح بعضها على بعض، وإن صح في الأخبار ما يدل على التعين، قضى به. وإلا فالكل محتمل. وكما أن كل واحد منها جائز، فكذلك إرادة الجميع جائزة، فإنه لا تناقض بينها. أي لصدق (النَّفَل) عليها.

الثالث – وقع عند الزمخشري أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر، لمن الحكم فيها أللمهاجرين أم للأنصار، أم لهم جميعاً؟ فأجيبوا بأن الحاكم فيها الرسول، وليس لأحد فيها حكم. وتأثر الزمخشري أبو السعود في سوقه لما ذكر، وزاد عليه اعتماده له، بتطويل مملّ. ولا أدري من أين سرت لهم هذه الرواية. فإن رواة الآثار لم يخرجوها في صحاحهم ولا سننهم، بل ولا أصحاب السير، كابن إسحاق وابن هشام. وهل يمكن للمسلمين أن يختلفوا للحكم على الغنائم، ويتنازعوا ولايتها، والرسول بين أظهرهم؟ ومتى عهد ذلك من سيرتهم؟ سبحانك

هذا بهتان عظيم! ولكن هو الرأي (قاتله الله!) ونبذ كتب السنة، والتقليد البحت، الذي لا يهتم صاحبه بحقائق الأشياء، ولا يريد معرفتها ولا فحصها بالعقل يضع قدمه على القدم، حيث يكون مطواعاً لآراء غيره، منقاداً لها مصدقاً ما ينطق به فمه، غثّاً كان أو سميناً. اللهم نوّر بصيرتنا بفضلك.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي في الاختلاف والتخاصم، وكونوا متحدين متآخين في الله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي أحوال بينكم، يعني ما بينكم من الأحوال، حق تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في قسمه بينكم، على ما أراه الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بالأوامر الثلاثة.

قال الزمخشري: جعل التقوى، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله، من لوازم الإيمان وموجباته، ليعلمهم أن كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها: فمعنى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي كاملي الإيمان.

ثم بيّن تعالى من أريد بالـ (مؤمنين) بذكر أوصافهم الجليلة، المستتبعة لما ذكر من الخصال الثلاث، ترغيباً لهم في الامتثال بالأوامر المذكورة، فقال سبحانه.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي الكاملون المخلصون فيه ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ أي حقه أو وعيده ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي فزعت لذكره، واقشعرت إشفاقاً ألا تكون قامت بحقه، وتهيباً من جلاله وعزة سلطانه، وبطشه بالعصاة وعقابه.

قال الجشمي: ومتى قيل: لمَ جاز وصفهم هاهنا بالوجل والطمانينة في قوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]، فجوابنا فيه وجوه:

منها: أنه تطمئن قلوبهم عند ذكر نعمه، وتوجل لخوف عقابه بارتكاب معاصيه.

ومنها: أن قلوبهم تطمئن لمعرفة توحيده، ووعده، ووعيده، فعند ذلك توجل

لأوامره ونواهيه، خوف التقصير في الواجبات، والإقدام على المعاصي، والمستقبل يتغير حاله. انتهى.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ﴾ أي حججه وهي القرآن ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ أي يقيناً وطمأنينة نفس، إلى ما عندهم؛ فإن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه، وأثبت لقدمه.

وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها، على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة. بل قد حكى الإجماع عليه غيرُ واحد، كالشافعيّ وأحمد بن حنبل وأبي عبيد ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي لا يرجون سواه، ولا يخشون غيره، ولا يفوّضون أمورهم إلى غيره.

ولما ذكر تعالى، من أعمالهم الحسنة، أعمالَ القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل، أعقبه بأعمال الجوارح من الصلاة والصدقة، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي المفروضة بحدودها وأركانها، في أوقاتها. والموصول نعت للموصول الأول، أو بيان له، أو منصوب على المدح.

وقوله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ عامّ في الزكاة، وأنواع البر والقُربات.

القول في تأويل قوله تعالى:

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقاً﴾ أي لا شك في إيمانهم. و﴿حَقاً﴾ صفة لمصدر محذوف، أي إيماناً حقّاً أو مصدر مؤكد للجملة، أي حق ذلك حقّاً، كقولك. هو عبد الله حقّاً.

قال عمرة بن مرة (في هذه الآية): إنما أنزل القرآن بلسان العرب، كقولك: فلان سيّد حقّاً، وفي القوم سادة. وفلان تاجر حقّاً، وفي القوم تجار. وفلان شاعر حقّاً، وفي القوم شعراء. انتهى.

وكأنه أراد الرد على من زعم أن (حَقاً) من صلة قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ بعدُ، تأكيداً له، وأن الكلام تم عند قوله ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾، فإن هذا الزعم يصان عنه أسلوب التنزيل الحكيم.

وقد تطرف بعض المفسرين هنا لمسألة شهيرة. وهي: هل يجوز أن يقال: أنا مؤمن حقاً.

قال الطوسي في (نقد المحصل): المعتزلة ومن تبعهم يقولون: اليقين لا يحتمل الشك والزوال. فقول القائل: (أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللّهُ) لا يصح إلا عند الشك، أو خوف الزوال. وما يوهم أحدهما؛ لا يجوز أن يقال للتبرك. انتهى.

والغزاليّ في الإحياء، بسط هذه المسألة، وأجاب عمن سوّغ ذلك بأجوبة:

منها: التخوف من الخاتمة، لأن الإيمان موقوف على سلامة الخاتمة.

ومنها: الاحتراز من تزكية النفس.

ومنها: غير ذلك. انظره بطوله.

وقال ابن حزم في (الفِصَل): القول عندنا في هذه المسألة؛ أن هذه صفة يعلمها المرء من نفسه، فإن كان يدري أنه مصدّق باللّه عز وجل، وبمحمد ﷺ، وبكل ما أتى به، وأنه يقر بلسانه بكل ذلك، فواجب عليه أن يعترف بذلك، كما أمر تعالى في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]. ولا نعمة أوْكد ولا أفضل، ولا أولى بالشكر، من نعمة الإسلام. فواجب عليه أن يقول: أنا مؤمن مسلم قطعاً عند اللّه تعالى، في وقتي هذا. ولا فرق بين قوله (أَنَا مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ) وبين قوله (أَنَا أَسْوَدُ أَوْ أَنَا أَبْيَضُ) وهكذا سائر صفاته التي لا يشك فيها. وليس هذا من باب الامتداح والعجب في شيء، لأنه فرض عليه أن يحقن دمه بشهادة التوحيد. وقول ابن مسعود: (أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللّهُ) عندنا صحيح، لأن الإسلام والإيمان اسمان منقولان عن موضوعهما في اللغة، إلى جميع البر والطاعات. فإنما منع ابن مسعود الجزم على معنى أنه مستوف لجميع الطاعات، وهذا صحيح. ومن ادعى لنفسه هذا فقد كذب بلا شك. وما منع أن يقول المرء (إِنِّي مُؤْمِنٌ) بمعنى (مصدق).

وأما قول المانعين: (من قال أنا مؤمن، فليقل إنه من أهل الجنة) فالجواب: إنا نقول إن متنا على ما نحن عليه الآن، فلا بد لنا من الجنة بلا شك. وبرهان ذلك أنه قد صح من نصوص القرآن والسنن والإجماع، أن من آمن باللّه ورسوله ﷺ، وبكل ما جاء به، ولم يأت بما هو كفر، فإنه في الجنة إلا أننا لا ندري ما يفعل بنا في الدنيا، ولا نأمن مكر اللّه تعالى، ولا إضلاله، ولا كيد الشيطان؛ ولا ندري ماذا نكسب غداً، ونعوذ باللّه من الخذلان. انتهى كلام ابن حزم رحمه اللّه، ولقد أجاد فيما أفاد.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي منازل ومقامات عاليات في الجنة ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي تجاوز لسيئاتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعدّ لهم من نعيم الجنة.

تنبيه:

قال الجُشمي: تدل الآية على أشياء:

منها: أن الإيمان اسم شرعي لثلاث خصال: القول، والاعتقاد، والعمل. خلاف ما تقوله المرجئة. لأن الوجل وزيادة التصديق من فعل القلب، والتدبر والتفكر كذلك، والصلاة والإنفاق من أعمال الجوارح، والتوكل يشتمل على فعل القلب والجوارح. ثم بين في آخره أن من جمع هذه الخصال فهو المؤمن حقاً.

ومنها: أنها تدل على أن الإيمان يزيد وينقص، لأن هذه الطاعات تزيد وتنقص، وقد نص على ذلك في قوله ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾.

ومنها: أن الواجب عند تلاوة القرآن التدبر والتفكر فيما أمر ونهى، ووعد وأوعد، لينجرّ للرغبة والرهبة. وذلك حثّ على الطاعة، وزجر عن المعاصي.

ومنها: وجوب التوكل عليه. والتوكل على ضربين: منها في الدنيا، ومنها في الدين. أما في الدنيا فلا بد من خصال:

منها: أن يطلب مصالح دنياه من الوجه الذي أتيح له، ولا يطلب محرماً.
ومنها: إذا حرم الرزق الحلال لا يعدل إلى محرّم.
ومنها: ألا يظهر الجزع عند الضيق، بل يسلك فيه طريق الصبر، واعتقاد أن ما هو فيه مصلحة له.

ومنها: أن ما يرزق من النعم بعدها، من جهته تعالى. إما بنفسه أو بواسطة.
ومنها: ألا يحبسه عن حقوقه خشية الفقر.
ومنها: ألا يسرف في النفقة ولا يقتر.
فعند اجتماع هذه الخصال يصير متوكلاً.

فأما الذي يزعمه بعضهم؛ أن التوكل إهمال النفس، وترك العمل – فليس بشيء. وقد أمر الله تعالى بالإنفاق، وبالعمل. وثبت عن الصحابة – وهم سادات الإسلام – التجارة والزراعة والأعمال. وكذلك التابعين. وبهذا أجرى الله العادة. وقد أمر النبيّ[١] ﷺ الأعرابيّ أن يعقل ناقته ويتوكل.

---

(١) أخرجه الترمذي في: صفة القيامة والرقائق والورع، ٦٠ – باب حدثنا عمرو بن عليّ.

فأما التوكل في الدين فخصال:

منها: أن يقوم بالواجبات، ويجتنب المحارم، لأنه بذلك يصل إلى الجنة والرحمة.

ومنها: أن يسأله التوفيق والعصمة.

ومنها: أن يرى جميع نعمه منه، إذ حصل بهدايته وتمكينه ولطفه.

ومنها: أن لا يثق بطاعته جملة، بل يطيع ويجتنب المعاصي، ويرجو رحمة ربه، ويخاف عذابه. فعند ذلك يكون متوكلاً.

ثم قال الجشمي: وتدل الآية على أن تارك الصلاة والزكاة لا يكون مؤمناً، خلاف قول المرجئة. انتهى.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾

﴿ **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ** ﴾ الكاف في (كَمَا) كاف التشبيه، والعامل فيه يحتمل وجوهاً، فإما هو معنى الفعل الذي دل عليه ﴿ **قُلِ الأَنْفَالُ لِلّهِ** ﴾، تقديره نزع الأنفال من أيديهم بالحق، كما أخرجك بالحق. وإما هو معنى الحق، يعني هذا الذكر حق، كما أخرجك بالحق. وإما أنه خبر مبتدأ محذوف هو المشبه، أي حالهم هذه في كراهة تنفيل الغزاة، كحال إخراجك من بيتك للحرب في كراهتهم له (كما سيأتي في تفصيل القصة). وهذا هو قول الفرّاء، فإنه قال: الكاف شبهت هذه القصة التي هي إخراجه من بيته، بالقصة المتقدمة، التي هي سؤالهم عن الأنفال وكراهتهم لما وقع فيها، مع أنها أولى بحالهم.

وقوله تعالى: ﴿ **مِنْ بَيْتِكَ** ﴾ أراد به بالمدينة، أو المدينة نفسها، لأنها مثواه. أي إخراجه إلى بدر. وزعم بعض أن المراد إخراجه ﷺ من مكة إلى المدينة للهجرة. وهو ساقط، برده سياق القصة البدرية في الآيات بعدُ. وملخصها أن أبا سفيان قدم بعيرٍ من الشام في تجارة عظيمة، فخرج النبيّ ﷺ وأصحابه ليغنموها، فعلمت قريش. فخرج أبو جهل ومقاتلو مكة ليذبّوا عنها، وهم النفير. وأخذ أبو سفيان بالعير

طريق الساحل، فنجت. فقيل لأبي جهل: ارجع، فأبى وسار إلى بدر. فشاور ﷺ أصحابه وقال لهم: إن الله وعدني إحدى الطائفتين، فوافقوه على قتال النفير، وكره بعضهم ذلك، وقالوا: لم نستعد له، كما قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾

﴿**يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ**﴾ وهو الجهاد وتلقي النفير ﴿**بَعْدَمَا تَبَيَّنَ**﴾ أي ظهر لهم أنهم يُنصرون فيه ﴿**كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ**﴾ أي يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت، وهو ناظر إلى أسبابه، وكان ذلك لقلة عددهم، وعدم تأهبهم. إذ روي أنهم كانوا ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فيهم فارسان، المقداد والزبير. وقيل الأول فقط. والمشركون ألف، ذوو عِدَّة وعُدَّة وفيه تعريض بأنهم إنما يسار بهم إلى الظفر والغنيمة للوعد الحق.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧﴾

﴿**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ**﴾ العير أو النفير ﴿**أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ**﴾ أي تحبون ﴿**أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ**﴾ وهو العير، لا ذات الشوكة، وهي النفير. والشوكة: السلاح أو حدته ﴿**وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ**﴾ أي يثبته ويعليه، وهو دعوة رسوله ﴿**بِكَلِمَاتِهِ**﴾ أي بآياته المنزلة، وأوامره في هذا الشأن ﴿**وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ**﴾ أي يستأصلهم، فلا يبقى منهم أحداً.

ثم بيّن تعالى الحكمة في اختيار ذات الشوكة لهم ونصرتهم عليها، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

﴿**لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ**﴾ أي ليثبت الدين الحق، ويمحق الدين الباطل، باستئصال أهله، مع ظهور شوكتهم ﴿**وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾ أي المشركون ذلك.

ثم ذكرهم تعالى التجاءهم إليه، واستمدادهم منه النصر يوم بدر، وإمداده حينئذ بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾

﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ**﴾ أي تطلبون منه الغوث، وهو التخلص من الشدة، والعون بالنصر عليهم ﴿**فَاسْتَجَابَ لَكُمْ**﴾ أي الدعاء ﴿**أَنِّي مُمِدُّكُمْ**﴾ أي معينكم ﴿**بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ بكسر الدال، أي متتابعين، بعضهم على إثر بعض، أو مردفين غيرهم. وقرئ بفتحها على معنى أن الله أردف المسلمين بهم، أو مردفين بغيرهم، أي من ملائكة آخرين. وقرئ (بآلاف) بالجمع، كما يأتي.

روى مسلم[١] عن ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر؛ نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً؛ فاستقبل نبيّ الله ﷺ القبلة؛ ثم مدّ يده؛ فجعل يهتف بربه ويقول: اللهم أنجز لي ما وعدتني. اللهم آتني ما وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام؛ لا تعبد في الأرض. فما زال يهتف بربه مادّاً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله! كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ**﴾.

وروى البخاري[٢] عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال يوم بدر: هذا جبريل آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب.

وروى البخاري[٣] عن معاذ بن رفاعة، عن رافع الزرقيّ، عن أبيه – وكان ممن شهد بدراً – قال: جاء جبريل إلى النبيّ ﷺ فقال: ما تعدّون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسمين – أو كلمة نحوها – قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة.

تنبيهات:

الأول – قال الجشمي: تدل الآية على أن المَلَك يجوز أن يتشبه بالآدمي، ولا يخرج من كونه ملكاً، بأن يغير أطرافهم دون الأجزاء التي صاروا بها أحياء والذي ينكر أن يقدر أحد على تغيير الصور، بل نقول: إن الله هو الذي يقدر على ذلك. انتهى.

---

(١) أخرجه مسلم في: الجهاد والسير، حديث رقم ٥٨.

(٢) أخرجه البخاري في: المغازي، ١١ – باب شهود الملائكة بدراً، حديث رقم ١٨٥٥.

(٣) أخرجه البخاري في: المغازي، ١١ – باب شهود الملائكة بدراً، حديث رقم ١٨٥٣.

الثاني – قال الزمخشري: وعن السدّي ﴿ بِآلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ ﴾ – على الجمع – ليوافق ما في سورة آل عمران. فإن قلت: فيم يُعتذر لمن قرأ على التوحيد، ولم يفسر (المردِفين) بإرداف الملائكة ملائكة آخرين، و(المردَفين) بارتدافهم غيرهم؟ قلت: بأن المراد بالألف، من قاتل منهم، أو الوجوه منهم، الذين مَنْ سواهم أتباع لهم. انتهى.

وقال شمس الدين ابن القيّم في (زاد المعاد) في بحث غزوة بدر:

فإن قيل: ههنا ذكر أنه أمدهم بألف، وفي سورة آل عمران قال: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ ءَالافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤–١٢٥]، فكيف الجمع بينهما؟

قيل: اختلف في هذا الإمداد الذي بثلاثة آلاف، والذي بخمسة، على قولين:
أحدهما: أنه كان يوم (أُحُد). وكان إمداداً معلقاً على شرط، فلما فات شرطه، فات الإمداد. وهذا قول الضحاك ومقاتل. وإحدى الروايتين عن عكرمة.

والثاني: أنه كان يوم بدر، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة. والرواية الأخرى عن عكرمة واختاره جماعة من المفسرين. وحجة هؤلاء؛ أن السياق يدل على ذلك. فإنه سبحانه قال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ ءَالافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾، إلى أن قال: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي هذا الإمداد ﴿إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ [آل عمران: ١٢٣–١٢٦]. قال هؤلاء: فلما استغاثوا، أمدهم بألف، ثم أمدهم بتمام ثلاثة آلاف، ثم أمدهم بتمام خمسة آلاف، لما صبروا واتقوا. وكان هذا التدريج، ومتابعة الإمداد، أحسن موقعاً، وأقوى لتقويتهم وأسرّ لها من أن يأتي مرة واحدة، وهو بمنزلة متابعة الوحي، ونزوله مرة بعد مرة.

وقالت الفرقة الأولى: القصة في سياق (أُحُد) وإنما أدخل ذكر (بدر) اعتراضاً في أثنائها، فإنه سبحانه قال: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢١–١٢٢]، ثم قال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فذكره نعمه عليهم، لما نصرهم ببدر وهم أذلة، ثم عاد إلى قصة (أُحُد)، وأخبر عن قول رسوله لهم ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ

بِثَلاثَةِ ءَالافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ [آل عمران:١٢٣-١٢٦]، ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة آلاف. فهذا من قول رسوله، والإمداد الذي ببدر من قوله تعالى، وهذا بخمسة آلاف، وإمداد بدر بألف، وهذا معلق على شرط، وذلك مطلق. والقصة في سورة آل عمران، هي قصة (أُحُد) مستوفاة مطولة، و(بدر) ذكرت فيها اعتراضاً.

والقصة في سورة الأنفال قصة (بدر) مستوفاة مطولة، فالسياق في آل عمران غير السياق في الأنفال. يوضح هذا أن قوله: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ [آل عمران:١٢٥]، قد قال مجاهد: هو يوم (أُحُد)، وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه، فلا يصح قوله إن الإمداد بهذا العدد كان يوم بدر وإتيانهم من فورهم هذا يوم أحد، والله أعلم. انتهى.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي هذا الإمداد ﴿إِلاَّ بُشْرَى﴾ أي بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي من غير أن يكون فيه شركة لغيره ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال بعض الحكماء: ذكر تعالى في هذه الآية حكمة إخبارهم بالنصر، وأنه يريد بشراهم وطمأنينتهم وتوكلهم عليه، وهو أدعى إلى قوة العزيمة. فإن العامل إذا أيقن بأن معه قاهر الكون: رفعته تلك الفكرة، وجعلته أقوى الناس، وأقدرهم على صعاب الأمور، لا كما يظنه المنتكسون الجاهلون الكسالى اليائسون من روح الله، حيث جعلوا التوكل ذريعة إلى البطالة، فباؤا بغضب على غضب. انتهى.

ثم ذكّرهم سبحانه بنعم أخرى جعلها سبباً لنصرهم، وللعناية بهم، فقال:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ أي يلقي عليكم النوم للأمن الكائن منه تعالى،

مما حصل لكم من الخوف من كثرة عدوّكم. وقد كان أسهرهم الخوف، فالقى تعالى عليهم النوم فأمنوا واستراحوا. وكذلك فعل تعالى بهم يوم (أُحُد)، كما قال جل ذكره ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٤]، وقرئ ﴿ يُغْشيكم ﴾ من الإغشاء، بمعنى التغشية والفاعل في الوجهين هو الله تعالى وقرئ ﴿ يَغْشاكم ﴾ على إسناد الفعل إلى النعاس.

وفي الصحيح[1] أن رسول الله ﷺ لما كان يوم (بدر) في العريش مع الصديق رضي الله عنه، وهما يدعوان، أخذت رسولَ الله ﷺ سنَةٌ من النوم، ثم استيقظ متبسماً، فقال: أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل، على ثغاياه النقع. ثم خرج من باب العريش، وهو يتلوا ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيَوَلُّونَ الدُّبُر ﴾ [القمر:٤٥].

ثم ذكّرهم تعالى منة أخرى تدل على نصره إياهم بقوله سبحانه: ﴿ **وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ** ﴾ أي: من الحدث الأصغر والأكبر، وهو تطهير الظاهر ﴿ **وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ** ﴾ أي وسوسته بأنكم على هذا الرمل لا تتمكنون من المحاربة، ومع فقد الماء كيف تفعلون؟ فأزال تعالى بإنزاله، ذلك. فكان لهم به طهارة باطنة، فكملت لهم الطهارتان، أي من وسوسة أو خاطر سيء، وهو تطهير الباطن ﴿ **وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ** ﴾ أي يقويها بالثقة، بالأمن وزوال الخوف ﴿ **وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ** ﴾ أي على الرمل. قال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر، فأطفأ به الغبار، وتلبدت به الأرض، وطابت نفوسهم؛ وثبتت به أقدامهم.

قال الجشمي: قال القاضي: وهو أشبه بالظاهر. وقيل بالصبر وقوة القلب التي أفرغها عليهم، حتى ثبتوا لعدوّهم. وقوله (به) يرجع إلى الماء المنزل، أو إلى ما تقدم من البشارة والنصر.

ثم أشار تعالى إلى نعمة خفية أظهرها تعالى لهم ليشكروه عليها بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ** ﴾ أي الذين أمدّ بهم المسلمين ﴿ **أَنِّي مَعَكُمْ** ﴾ أي بالعون والنصر.

---

(١) أخرجه البخاري في: الجهاد، ٧٩ – باب ما قيل في درع النبيّ ﷺ والقميص في الحرب.

قال الجشمي: يحتمل مع الملائكة، إذ أرسلهم ردءاً للمسلمين، ويحتمل مع المسلمين، كأنه قيل: أوحي إلى الملائكة أني مع المؤمنين، فانصروهم وثبتوهم.

وقوله تعالى: ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي بدفع الوسواس وبالقتال معهم والحضور مدداً وعوناً ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي الخوف.

ثم علمهم تعالى كيفية الضرب بقوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا﴾ أمرٌ للمؤمنين أو للملائكة. وعليه، ففيه دليل على أنهم قاتلوا ﴿فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ أي أعالي الأعناق التي هي المذابح، تطييراً للرؤوس. أو أراد الرؤوس، لأنها فوق الأعناق ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي أصابع. جمع (بنانة) قيل: المراد بالبنان، مطلق الأطراف مجازاً، تسمية للكل بالجزء، لوقوعها في مقابلة الأعناق والمقاتل. والمعنى: اضربوهم كيفما اتفق من المقاتل وغيرها.

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾

﴿ذَلِكَ﴾ أي الضرب أو الأمر به ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي خالفوهما فيما شرعا. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تقرير لما قبله، إن أريد بالعقاب ما وقع لهم في الدنيا، أو وعيد بما أعدّ لهم في الآخرة، بعد ما حاق بهم في الدنيا، وبيان لخسرانهم في الدارين.

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

﴿ذَلِكُمْ﴾ خطاب للكفرة على طريقة الالتفات ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أي ذلك العذاب، أيها الكفار، في الدنيا ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ في الآخرة.

ثم نهى تعالى عن الفرار من الزحف، مبيناً وعيده بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ أي الظهور

بالانهزام. و(الزحف) الجيش الكثير، تسمية بالمصدر، والجمع زحوف، مثل فلس وفلوس. ويقال: زحف إليه، أي مشى، وزحف الصبيّ على استه قبل أن يقوم. شبه بزحف الصبيان مشي الجيش الكثير للقتال، لأنه لكثرته يرى كأنه يزحف، أي يدب دبيباً قبل التداني للضراب أو الطعان.

قال أبو السعود: ﴿زَحْفاً﴾ منصوب، إما على أنه حال من مفعول ﴿لَقِيتُمْ﴾ أي: زاحفين نحوكم، أو على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر، هو الحال منه، أي يزحفون زحفاً.

وأما كونه حالاً من فاعله أو منه، ومن مفعوله معاً كما قيل – فيأباه قوله تعالى ﴿فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ إذ لا معنى لتقييد النهي عن الإدبار بتوجههم السابق إلى العدوّ، أو بكثرتهم. بل توجه العدوّ إليهم وكثرتهم هو الداعي إلى الإدبار عادة، والمحوج إلى النهي عنه.

وحمله على الإشعار بما سيكون منهم يوم حنين، حيث تولّوا مدبرين، وهم زحف من الزحوف اثنا عشر ألفاً – بعيدٌ.

والمعنى: إذا لقيتموهم للقتال، وهم كثير جمّ، وأنتم قليل، فلا تولوهم أدباركم، فضلاً عن الفرار، بل قابلوهم وقاتلوهم، فضلاً عن أن تدانوهم في العدد أو تساووهم.

قال الشهاب: عدل عن لفظ الظهور إلى الأدبار تقبيحاً للانهزام، وتنفيراً عنه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم اللقاء ﴿دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ﴾ أي مائلاً له. يقال: تحرف وانحرف واحرورف: مال وعدل. وهذا التحرف إما بالتوجه إلى قتال طائفة أخرى أهمّ من هؤلاء، وإما بالفرّ للكرّ، بأن يخيّل عدوه أنه منهزم ليغره، ويخرجه من بين أعوانه، فيفرّ عنه، ثم يكرّ عليه وحده أو مع من في الكمين من أصحابه، وهو باب من مكايد الحرب ﴿أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ﴾ أي منضماً إلى جماعة أخرى من المسلمين ليستعين بهم ﴿فَقَدْ بَاءَ﴾ أي رجع ﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي ما صار إليه من عذاب النار.

تنبيهات:

الأول – دلت الآية على وجوب مصابرة العدو، أي الثبات عند القتال، وتحريم الفرار منه يوم الزحف، وعلى أنه من الكبائر. لأنه توعد عليه وعيداً شديداً.

الثاني – ظاهر الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمن، وعلى كل حال، إلاّ حالة التحرف أو التحيز، وهو مروي عن ابن عباس؛ واختاره أبو مسلم. قال الحاكم: وعليه أكثر الفقهاء.

وروي عن جماعة من السلف؛ أن تحريم الفرار المذكور مختص بيوم (بدر)، لقوله تعالى **﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾** وأجيب بأن الإشارة في **﴿يَوْمَئِذٍ﴾** إلى يوم لقاء الزحف كما يفيده السياق، لا إلى يوم بدر.

الثالث – ذهب جماعة من السلف إلى أن معنى قوله تعالى **﴿أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ﴾** أي جماعة أخرى من المسلمين، سوى التي هو فيها، سواء قربت تلك الفئة أو بعدت وقد روي أن أبا عبيد قتل على الجسر بأرض فارس، لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر رضي الله عنه: لو تحيز إلي لكنت له فئة. وفي رواية عنه: أيها الناس! أنا فئتكم. وقال الضحاك: المتحيز إلى فئة، الفارّ إلى النبيّ وأصحابه. وكذلك من فرّ اليوم إلى أميره أو أصحابه. وجنح إلى هذا ابن كثير حيث قال: من فرّ من سرية إلى أميره، أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة. ثم أورد حديث عبد الله بن عمر المروي عند الإمام أحمد[1] وأبي داود[2] والترمذيّ[3] وغيرهم. قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فحاص الناس حيصة، فكنت فيمن حاص، فقلنا: كيف نصنع؛ وقد فررنا من الزحف، وبؤنا بالغضب، ثم قلنا: لو دخلنا المدينة. فبتنا! ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة، وإلا ذهبنا! فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: من القوم؟ فقلنا: نحن الفرارون. فقال: لا، بل أنتم العكّارون، أنا فئتكم وفئة المسلمين، قال: فأتيناه حتى قبلنا يده. قال الترمذي: حديث حسن، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبي زياد – انتهى – أي وقد تكلم فيه غير واحد من الأئمة.قال الحاكم في (مسألة الفرار): إن ذلك يرجع إلى ظن المقاتل واجتهاده. فإن ظن المقاومة لم يحلّ الفرار. وإن ظن الهلاك، جاز الفرار

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢ / ٧٠ والحديث رقم ٥٣٨٤.

(٢) أخرجه أبو داود في: الجهاد، ٩٦ – باب في التولي يوم الزحف، حديث ٢٦٤٧.

(٣) أخرجه الترمذي في: الجهاد، ٣٧ – باب ما جاء في الفرار من الزحف.

إلى فئة وإن بعدت، وإذا لم يقصد الإقلاع عن الجهات. وحمل عليه حديث ابن عمر المذكور.

وعن الكرخي: أن الثبات والمصابرة واجب، إذا لم يخش الاستئصال، وعرف عدم نكايته للكفار، والتجأ إلى مصرٍ للمسلمين، أو جيش، وهكذا أطلق في (شرح الإبانة) فلم يبح الفرار إلا بهذه الشروط الثلاثة، ولم يعتبر العدد الآتي بيانه.

الرابع – روي عن عطاء أن حكم هذه الآية منسوخ بقوله تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ [الأنفال:٦٦]، قال الحاكم: إذا أمكن الجمع فلا نسخ وأقول: كنا أسلفنا أن السلف كثيراً ما يعنون بـ(النسخ) تقييد المطلق، أو تخصيص العامّ، فلا ينافي كونَهَا محكمة إطلاقُهم النسخ عليها.

قال بعض الأئمة: هذه الآية عامة تقضي بوجوب المصابرة، وإن تضاعف عدد المشركين أضعافاً كثيرة. لكن هذا العموم مخصوص بقوله تعالى في السورة هذه: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً﴾ [الأنفال:٦٥] فأوجب الله المصابرة على الواحد للعشرة. لأنه خبر معناه الأمر. فلما شق ذلك على المسلمين رحمهم الله تعالى، وأوجب على الواحد مصابرة الاثنين، فقال تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٦].

وعن ابن عباس: من فرّ من اثنين فقد فرّ، ومن فرّ من ثلاثة فلم يفرّ.

وبالجملة، فلا منافاة بين هذه الآية وآية الضّعف، فإن هذه الآية مقيدة بها، فيكون الفرار من الزحف محرماً بشرط ما بينه الله في آية الضّعف.

وفي (المهذب): إن زاد عددهم على مثلي عدد المسلمين، جاز الفرار. لكن إن غلب على ظنهم أنهم لا يهلكون، فالأفضل الثبات. وإن ظنوا الهلاك، فوجهان: يلزم الانصراف لقوله تعالى ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]. والثاني: يستحب ولا يجب، لأنهم إن قُتلوا فازوا بالشهادة. وإن لم يزد عدد الكفار على مثلي عدد المسلمين، فإن لم يظنوا الهلاك، لم يجز الفرار. وإن ظنوه فوجهان: يجوز لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]. ولا يجوز، وصححوه لظاهر الآية.

ثم بيّن تعالى أن نصرهم يوم بدر، مع قلتهم، كان بحوله تعالى وقوته، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧)﴾

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي بقوّتكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي سبَّبَ في قتلهم بنصرتكم وخذلانهم وألقى الرعب في قلوبهم، وقوى قلوبكم، وأمدكم بالملائكة، وأذهب عنها الفزع والجزع ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ أي أنت يا خاتم النبيين، أي ما بلغتَ رمية االحصباء إلى وجوه المشركين ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي بالحصباء، لأن كفّاً منها لا يملأ عيون الجيش الكثير برمية بَشَرٍ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ أي بلغ بإيصال ذلك إليهم ليقهرهم. وقال أبو مسلم (في معنى الآية): أي ما أصبت إذ رميت، ولكن الله أصاب. والرمي لا يطلق إلا عند الإصابة، وذلك ظاهر في أشعارهم.

وقد روي عن غير واحد؛ أنها نزلت في شأن القبضة من التراب التي حصب بها النبيّ ﷺ وجوه المشركين يوم بدر، حين خرج من العريش، بعد دعائه وتضرعه واستكانته. فرماهم بها وقال (شاهت الوجوه). ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله، وانهزموا.

تنبيه:

قال الجشمي: تدل الآية أن فعل العبد يضاف إليه تعالى إذا كان بنصرته ومعونته وتمكينه. إذ معلوم أنهم قتلوا، وأنه رمى، ولذلك قال ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ولهذا يضاف إلى السيد ما يأتيه غلامه. وتدل على أن الإضافة بالمعونة والأمر، صارت أقوى، فلذلك قال ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾.

وقال في (العناية): استدل بهذه الآية والتي قبلها على أن أفعال العباد بخلقه تعالى، حيث نفى القتل والرمي. والمعنى: إذ رميت أو باشرت صرف الآلات. والحاصل: ما رميت خلقاً إذ رميت كسباً. وأورد عليه أن المدعي، وإن كان حقاً، لكن لا دلالة في الآية عليه، لأن التعارض بين النفي والإثبات الذي يتراءى في باديء النظر، مدفوع بأن المراد ما رميت رمياً تقدر به على إيصاله إلى جميع العيون، وإن رميت حقيقة وصورة،-وهذا مراد من قال: (ما رميت حقيقة، إذ رميت صورة) فالمنفيّ هو الرمي الكامل، والمثبت أصله، وقدر منه. فالإثبات والنفي لم يردا على

شيء واحد، حتى يقال: (المنفيّ على وجه الخلق، والمثبت على وجه المباشرة) ولو كان المقصود هذا لما ثبت المطلوب بها، الذي هو سبب النزول، من أنه أثبت له الرمي، لصدوره عنه، ونفى عنه، لأن أثره ليس في طاقة البشر، ولذا عدت معجزة له، حتى كأنه لا مدخل له فيها أصلاً. فمبنى الكلام على المبالغة، ولا يلزم منه عدم مطابقته للواقع، لأن معناه الحقيقي غير مقصود. هكذا ينبغي أن يفهم هذا المقام، إذ لو كان المراد ما ذكر، لم يكن مخصوصاً بهذا الرمي، لأن جميع أفعال العباد كذلك بمباشرتهم وخلق الله. انتهى.

وهذا التحقيق جيد، وقد نبه عليه أيضاً العلامة ابن القيم في (زاد المعاد) حيث قال: وقد ظنت طائفة أن الآية دلت على نفي الفعل عن العبد وإثباته لله، وأنه هو الفاعل حقيقة، وهذا غلط منهم من وجوه عديدة، مذكورة في غير هذا الموضع. ومعنى الآية: أن الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمي، ونفى عنه الإيصال الذي لم يحصل برميه، فالرمي يراد به الحذف والإيصال، فأثبت لنبيه الحذف، ونفى عنه الإيصال. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ﴾ أي ليمنحهم من فضله ﴿بَلاَءً حَسَناً﴾ أي منحاً جميلاً، بالنصر والغنيمة والفتح، ثم بالأجر والمثوبة، غير مشوب بمقاساة الشدائد والمكاره، فيعرفوا حقه ويشكروه.

قال أبو السعود: واللام، إما متعلقة بمحذوف متأخر، فالواو اعتراضية، أي وللإحسان إليهم بالنصر والغنيمة، فعل ما فعل، لا لشيء غير ذلك، مما لا يجديهم نفعاً. وإما، برمي، فالواو للعطف على علة محذوفة، أي ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلي... الخ. وتفسير البلاء هنا بالمنحة هو ما اختاره المحققون من قولهم: (أبلاه الله ببلية إبلاء حسناً) إذا صنع به صنعاً جميلاً، وأبلاه معروفاً، قال زهير (في قصيدته التي مطلعها:

صحا القلبُ عن سَلْمَى وقد كَادَ لاَ يَسْلُو وأقفر من سَلْمَى التَّعانيقُ والثُّقْلُ

والتعانيق والثقل: مواضع):

جزى اللّهُ بالإحسانِ ما فَعَلا بكم وأبلاهما خَيْرَ البَلاءِ الذي يَبْلُو

(أي إحسان فعلهما بكم. فأبلاهما خير البلاء، أي صنع الله إليهما خير الصنيع الذي يبتلي به عباده. والإنسان يبلى بالخير والشر) أي صنع بهما خير

الصنيع الذي يبلو به عباده. واستظهر الطيبي تفسيره بالإبلاء في الحرب بدليل ما بعده. قال ابن الأعرابيّ: يقال: أبلى فلان إذا اجتهد في صفة حرب أو كرم. ويقال: أبلى ذلك اليوم بلاء حسناً.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي لدعائهم واستغاثتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ أي بمن يستحق النصر والغلب وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن، أو القتل، أو الرمي. ومحله الرفع. أي المقصود أو الأمر (ذلكم). وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ معطوف عليه. أي مضعف بأس الكافرين وحيلهم بنصركم وخذلانهم، أي أن المقصود إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين.

قال ابن كثير: هذه بشارة أخرى. مع ما حصل من النصر، فإنه أعلمهم بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل، مصغر أمرهم، وأنه في تبار ودمار. أي: وقد وجد المخبر على وفق الخبر، فصار معجزة للنبيّ ﷺ، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ خطاب للمشركين، أي إن تطلبوا الفتح، أي القضاء وأن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم القضاء بما سألتم.

روى الإمام أحمد[1] والنسائي والحاكم، وصححه، عن عبد الله بن ثعلبة. أن أبا جهل قال، حين التقى القوم: اللهم! أقطعنا للرحم. وآتانا بما لا نعرفه، فَأَحِنْهُ - أي فأهلكه - الغداةَ. فكان المستفتحَ.

وعن السّدّي؛ أن المشركين حين خرجوا من مكة إلى بدر: أخذوا بأستار

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/٤٣١ .

الكعبة، فاستنصروا الله وقالوا: اللهم؟ انصر أعزّ الجندين، وأكْرَمَ الفئتين، وخيرَ القبيلتين. فقال تعالى ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا... ﴾ الآية.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ أن هذه الآية إخبار عنهم بما قالوا ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ... ﴾ الآية - قيل: في هذا الخطاب تهكم بهم، يعني في قوله تعالى ﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ لأن الذي جاءهم الهلاك والذلة. كذا في (العناية). وهو مبنيّ على أن الفتح بمعنى النصر، وله معنى آخر وهو الحكم بين الخصمين والقضاء. وبهما فسرت الآية أيضاً. ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ أي عن الكفر وعداوة الرسول ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ أي لمحاربة الرسول ﴿ نَعُدْ﴾ أي لنصره عليكم ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ﴾ أي تدفع ﴿عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بالنصر. قرئ بكسر (إن) استئنافاً، وفتحها، على تقدير اللام.

تنبيه:

جُوِّز أن يكون الخطاب في قوله تعالى ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ للمؤمنين، أي إن تطلبوا النصر باستغاثتكم ربكم، فقد حصل لكم ذلك، فاشكروا ربكم، والزموا طاعته. وقوله تعالى ﴿إِنْ تَنْتَهُوا﴾ أي عن المنازعة في أمر الأنفال، وعن طلب الفداء على الأسرى الذي عوتبوا عليه بقوله تعالى ﴿لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: ٦٨]، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ - عن مثله - ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا﴾ إلى تلك المنازعات نعد عليكم بالإنكار، وتهييج العدوّ؛ لأن الوعد بنصرتكم مشروط بشرط استمراركم على الطاعة، وترك المخالفة، ثم لا تنفعكم الفئة والكثرة، إذا لم يكن الله معكم بالنصر، فإنه مع الكاملين في إيمانهم. وهذا الوجه قرره الرازي ونقله عن القاضي.

قال البيضاوي: ويؤكده الآية بعدُ؛ فإن المراد بها الأمر بطاعة الرسول؛ والنهي عن الإعراض عنه؛ والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي تعرضوا عنه بمخالفة أمره ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي القرآن الناطق بوجوب طاعته، والمواعظ الزاجرة عن مخالفته.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾

﴿**وَلاَ تَكُونُوا كَالذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا**﴾ أي ادعوا السماع ﴿**وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ**﴾ أي سماع تدبر واتعاظ، وهم المنافقون أو المشركون. فالمنفيّ سماع خاص، لكنه أتى به مطلقاً للإشارة إلى أنهم نزّلوا منزلة من لم يسمع أصلاً، بجعل سماعهم بمنزلة العدم. وقيل: السماع مجاز عن التصديق.

قال الزمخشري: والمعنى أنكم تصدقون بالقرآن والنبوة، فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور، من قسمة الغنائم وغيرها، كان تصديقكم كَلاَ تصديقٍ، وأشبه سماعُكم سماعَ من لا يؤمن.

ثم بيّن تعالى سوء حال المشبه بهم، مبالغة في التحذير، وتقريراً للنهي، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾

﴿**إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ**﴾ أي ما يدبّ على الأرض، أو شر البهائم ﴿**عِنْدَ اللَّه الصُّمُّ**﴾ أي عن سماع الحق ﴿**الْبُكْمُ**﴾ أي عن النطق به ﴿**الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ أي لا يفهمونه. جعلهم تعالى من جنس البهائم، لصرفهم جوارحهم عما خلقت له، ثم جعلهم شرّها لأنهم عاندوا بعد الفهم، وكابروا بعد العقل، وفي ذكرهم في معرض التشبيه، بهذا الأسلوب، غاية في الذم. وقد كثر، في التنزيل، تشبيه الكافرين بنحو هذا، كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلاَّ دُعَاءً وَنِداءً﴾ [البقرة:١٧١]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ**﴾ أي في هؤلاء الصم البكم ﴿**خَيْراً**﴾ صدقاً ورغبة ﴿**لأَسْمَعَهُمْ**﴾ أي الحجج والمواعظ، سماع تفهم وتدبر، أي لجعلهم سامعين حتى

يسمعوا سماع المصدقين. أي ولكن لم يعلم الله فيهم شيئاً من ذلك، لخلوّهم عنه بالمرة، فلم يسمعهم كذلك، لخلوه عن الفائدة وخروجه عن الحكمة، وإليه أشير بقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ أي: ولو أسمعهم سماع تفهم، وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالكلية، لتولوا عما سمعوه من الحق ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي عن قبوله جحوداً وعناداً. قال الرازي: كل ما كان حاصلاً؛ فإنه يجب أن يعلمه الله، فعدم علم الله بوجوده، من لوازم عدمه، فلا جرم حَسُنَ التعبير عن عدمه في نفسه بعدم علم الله بوجوده.

تنبيه:

قد يتوهم أن الشرطيتين في الآية مقدمتا قياس اقتراني. هكذا: لو علم فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا. ينتج: لو علم فيهم خيراً لتولوا. وفساده بيّن. وأجيب: بأنه إنما يلزم النتيجة الفاسدة لو كانت الثانية كلية، وهو ممنوع. واعترض بأن هذا المنع، وإن صح في قانون النظر، إلا أنه خطأ في تفسير الآية، لابتنائه على أن المذكور قياس مفقود شرائط الإنتاج، ولا مساغ لحمل كلام الله عليه. وأجيب: بأن المراد منع كون القصد إلى ترتيب قياسٍ، لانتفاء شرطٍ، لا أنه قياس فقد شرطه. كما أنه يمنع منه عدم تكرار الوسط أيضاً، وإنما المقصود من المقدمة الثانية تأكيد الأولى، إذ مآله إلى أنه انتفى الإسماع، لعدم الخيرية فيهم، ولو وقع الإسماع، لا تحصل الخيرية فيهم، لعدم قابلية المحل. كذا في (العناية). وقد حاول بعضهم تصحيح كونها قياساً شرطيّاً، متحد الوسط، صحيح الإنتاج، بتقدير: لو علم فيهم خيرا في وقتٍ، لتولوا بعده.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الاستجابة: بمعنى الإجابة. قال:

وداعٍ دعا يا مَنْ يُجِيبُ إِلى النِّدا ... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذاكَ مُجِيبُ

(يريد : فلم يجبه. وقائله كعب بن سعد الغنوي. والقصيدة في الأصمعيات رقم ١٤).

والمراد بها الطاعة والامتثال. وإنما وحّد الضمير في قوله ﴿دَعَاكُمْ﴾ – أي الرسول – لأنه هو المباشر للدعوة إلى الله تعالى.

وقال الزمخشري: لأن استجابته ﷺ، كاستجابته تعالى، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد. وقوله ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، قال عروة بن الزبير – فيما رواه ابن إسحاق – أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقوّاكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوّكم بعد القهر منهم لكم. وإنما سمي الجهاد حياة، لأن في وهن عدوّهم بسببه حياة لهم وقوة، أو لأنه سبب الشهادة الموجبة للحياة الدائمة، أو سبب المثوبة الأخروية التي هي معدن الحياة، كما قال تعالى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤] أي الحياة الدائمة، فيكون مجازاً مرسلاً، بإطلاق السبب على المسبب، أو استعارة. وقيل: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي من العلوم الدينية التي هي مناط حياة القلب، كما أن الجهل موته.

قال الشهاب: وإطلاق الحياة على العلم، والموت على الجهل، استعارة معروفة، ذكرها الأدباء، وأهل المعاني. وأنشد الزمخشري لبعضهم:

لا تعجبنّ الجهولَ حُلَّتُـه فذاك مَيْتٌ، وثوبُهُ كَفَنُ

وقد الَمّ فيه بقول أبي الطيّب، من قصيدته التي أولها:

أفاضلُ الناسِ أغراضٌ لذا الزمنِ يخلُوا من الهمِّ أخلاهُمْ من الفِطَنِ

ومنها:

لا تُعْجِبَنَّ مضيما حسنُ بَزِّتِهِ وهل تروقُ دَفيناً جَوْدَةُ الكَفَنِ

والأظهر أن يُعْنَى بـ (ما يحييكم) ما يصلحكم من أعمال البر والطاعة. فيدخل فيه ما تقدم وغيره.

تنبيه:

استدل النبيّ ﷺ بهذه الآية على وجوب إجابته إذا نادى أحداً وهو في الصلاة. روى البخاري[1] عن أبي سعيد بن المعلّى رضي الله عنه قال: كنت أصلي، فمرّ بي

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٨– سورة الأنفال، ٢– باب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ، حديث رقم ١٩٦١ .

النبيّ ﷺ، فدعاني، فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا..﴾ الآية.

وقوله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ يحتمل وجوهاً من المعاني.

أحدهما: أنه تعالى يملك على المرء قلبه فيصرفه كيف يشاء، فيحول بينه وبين الكفر، إن أراد هدايته، وبينه وبين الإيمان، إن أراد ضلالته، وهذا المعنى رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس، وصححه، وقاله غير واحد من السلف. ويؤيده ما روي؛ أن النبيّ ﷺ كان يكثر أن يقول: يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك. فقيل: يا رسول الله! آمنا بك، وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى، يقلبها – رواه الإمام أحمد[١] والترمذي[٢] عن أنس ولفظ مسلم[٣]: إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفها كيف شاء ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم! مصرف القلوب، صرف قلوبنا إلى طاعتك – انفرد مسلم عن البخاري بإخراجه عن عبد الله بن عمرو – وفي رواية: إن قلب الآدميّ بين إصبعين من أصابع الله، فإذا شاء أزاغه، وإذا شاء أقامه – رواه الإمام أحمد[٤] عن عائشة –. وروي أيضاً مثله عن جابر وبلال والنوّاس[٥] بن سمعان وأم سلمة، كما ساقه ابن كثير. وعلى هذا المعنى، فالآية استعارة تمثيلية، لتمكنه من قلوب العباد، فيصرفها كيف يشاء، بما لا يقدر عليه صاحبها. شبه بمن حال بين شخص ومتاعه، فإنه يقدر على التصرف فيه دونه.

ثانيها: أنه حث على المبادرة إلى الطاعة، قبل حلول المنية، فمعنى (يحول بينه وبين قلبه) يميته فتفوته الفرصة التي هو واجدها، وهو التمكن من إخلاص القلب، ومعالجة أدوائه وعلله، ورده سليماً، كما يريده الله، فاغتنموا هذه الفرصة، وأخلصوها لطاعة الله ورسوله. فشبه الموت بالحيلولة بين المرء وقلبه، الذي به يعقل، في عدم التمكن من علم ما ينفعه علمه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣ / ١١٢ .

(٢) أخرجه الترمذي في: القدر، ٧ – باب ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن.

(٣) أخرجه مسلم في: القدر، حديث رقم ١٧ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦ / ٢٦١ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤ / ١٨٢ .

ثالثها: أنه مجاز عن غاية القرب من العبد، لأن من فصل بين شيئين كان أقرب إلى كل منهما من الآخر، لاتصاله بهما، وانفصال أحدهما عن الآخر. و(يحول) إما استعارة تبعية معناه يقرب. أو استعارة تمثيلية. وهذا المعنى نقل عن قتادة حيث قال: الآية كقوله تعالى ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦] وفيه تنبيه على أنه تعالى مطلع، من مكنونات القلوب، على ما عسى أن يغفل عنه صاحبها.

﴿ وأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي فيجزيكم بأعمالكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً** ﴾ الفتنة: إما بمعنى الذنب، كإقرار المنكر، وافتراق الكلمة والتكاسل في الجهاد وإما بمعنى العذاب. فإن أريد الذنب فإصابته بإصابة أثره. وإن أريد العذاب، فإصابته بنفسه. و﴿ **لاَ تُصِيبَنَّ** ﴾ جواب للأمر، أي: إن إصابتكم لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم، بل تشملهم وغيرهم بشؤم صحبتهم، وتعدي رذيلتهم إلى من يخالطهم، كقوله تعالى ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاس ﴾ [الروم:٤١]. قاله القاشانيّ.

وقد روى الإمام أحمد[1] عن جرير أن رسول الله ﷺ قال: ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعملون، ثم لم يغيروه، إلا عمهم الله بعقاب.

وروي نحوه عن عدي بن عميرة وحذيفة والنعمان وعائشة وأم سلمة.

قال الكرخي: ولا يستشكل هذا بقوله تعالى ﴿ وَلاَ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام:١٦٤]، لأن الناس، إذا تظاهروا بالمنكر، فالواجب على كل من رآه أن يغيره، إذا كان قادراً على ذلك فإذا سكت فكلهم عصاة. هذا يفعله، وهذا برضاه. وقد جعل تعالى، بحكمته، الراضي بمنزلة العامل، فانتظم في العقوبة. انتهى.

وذكر القسطلاني أن علامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي، فلا يتحقق كون الإنسان كارهاً له، إلا إذا تألم للخلل الذي يقع في الدين، كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده، فكل من لم يكن بهذه الحالة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤ / ٣٦١ .

فهو راض بالمنكر، فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار. انتهى.

وعن ابن عباس: أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم، فيعمهم الله بالعذاب. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي لمن يخالف أوامره.

ثم نبه تعالى عباده المؤمنين السابقين الأولين على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثرهم، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، ورزقهم من الطيبات، ليشكروه بدوام الطاعة، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

﴿وَاذْكُرُوا﴾ أي يا معشر المهاجرين ﴿إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ أي في العدد ﴿مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ﴾ أي مقهورون في أرض مكة قبل الهجرة، تستضعفكم قريش ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ أي أهل مكة. و(تخطفه) و(اختطفه) بمعنى استلبه وأخذه بسرعة ﴿فَآوَاكُمْ﴾ أي إلى المدينة ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ يعني أعانكم وقواكم يوم بدر بنصره، وذلك بمظاهرة الأنصار، وإمداد الملائكة، والتثبيت الرباني ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي الغنائم لأنها لم تطب إلا لهم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي المولى على ما تفضل به وأولى. وما ذكرنا من كون الخطاب في الآية للمهاجرين خاصة، هو أنسب بالمقام والسياق يشعر به. وقيل: الخطاب للعرب كافة، وعليه قول قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله في هذه الآية: كان هذا الحيّ من العرب أذل الناس وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً، وأثبته ضلالاً. والله! ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم، حتى جاءَ الله بالإسلام، فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله. انتهى.

وأقول: الأمر في العرب، وإن كان كما ذكر، لكن في تنزيل بعض ألفاظ الآية عليه تكلف لا يخفى فالظاهر ما ذكرنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٧﴾

﴿ يا أيُّها الَّذينَ ءامَنُوا لاَ تخونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وتَخونُوا أماناتِكُمْ وَأنْتُم تعلَمُونَ ﴾ لما ذكَّرهم تعالى بإسباغ نعمه عليهم ليشكروه، وكان من شكره الوقوف عند حدوده، بين لهم ما يحذر منها، وهو الخيانة. ويدخل في خيانة اللّه تعطيل فرائضه، ومجاوزة حدوده . وفي خيانة رسوله رفض سنته، وإفشاء سره للمشركين. وفي خيانة أمانتهم الغلول في المغانم، أي السرقة منها، وخيانة كل ما يؤتمن عليه الناس من مال أو أهل أو سر، وكل ما تعبدوا به. وقد روي في نزول الآية شيء مما ذكرنا. ولفظ الآية مطلق يتناوله وغيره. ومن ذلك ما رواه سعيد بن منصرر عن عبد اللّه بن أبي قتادة قال: نزلت في أبي لبابة حين حاصر رسول اللّه ﷺ قريظة وأمرهم أن ينزلوا على حكم سعد، فاستشار قريظة من أبي لبابة في النزول على حكم سعد، وكان أهل أبي لبابة وأمواله فيهم، فأشار إلى حلقه – أنه الذبح – قال أبو لبابة: ما زالت قدماي حتى علمت أني خنت اللّه وسوله، ثم حلف الا يذوق ذواقاً حتى يموت، أو يتوب اللّه عليه. وانطلق إلى المسجد، فربط نفسه بسارية، فمكث أياماً، حتى كان يخرّ مغشياً عليه من الجهد، ثم أنزل اللّه توبته، وحلف لا يحله إلا رسول اللّه ﷺ بيده، فحله ، فقال: يا رسول اللّه! إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال: يجزيك الثلث أن تصدق به.

قال بعض المفسرين: دل هذا السبب على جواز إظهار الجزع على المعصية، وإتعاب النفس وتوبيخها، لأنه ﷺ لم ينكر على أبي لبابة. ودل على أنه يستحب إتباع المعصية بالصدقة، لأنه عليه السلام قال: يجزيك ثلث مالك، وهذا سبيل قوله في هود ﴿ إنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّآت ﴾ [هود: ١١٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ دليل على أن ذنب العالم بالخطيئة أعظم منه من غيره، لأنه المعنى: وأنتم تعلمون تبعة ذلك ووباله.

قال الرازي: ثم إنه لما كان الداعي إلى الإقدام على الخيانة هو حب الأموال والأولاد، نبه تعالى على أنه يجب على العاقل أن يحترز عن المضارة المتولدة من ذلك الحب فقال:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ** ﴾ أي محنة من اللّه ليبلوكم، هل تقعون بهما في الخيانة،أو تتركون لهما الاستجابة للّه ولرسوله، أو لا تلهون بهما عن ذكره، ولا تعتاضون بهما منه. فسموا (فتنة) اعتباراً بما ينال الإنسان من الاختبار بهم. ويجوز أن يراد (بالفتنة) الإثم أو العذاب، فإنهم سبب الوقوع في ذلك.

قال الحاكم: قد أمر اللّه بالعلم بذلك. وطريق العلم به التفكر في أحوالهما وزوالهما، وقلة الانتفاع بهما، وكثرة الضرر، وأنه قد يعصي اللّه بسببهما.

وقوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ أي لمن آثر رضاه على جمع المال وحب الولد، فلم يورط نفسه من أجلهما. وقد جاء التحذير من فتنتهما صراحة مع الترهيب الشديد في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩]. قيل: هذه الآية من جملة ما نزل في أبي لبابة، وما فرط منه لأجل ماله وولده.

ولما حذر تعالى، فيم تقدم، عن الفتنة بالأموال والأولاد، بشر من اتقاه في الافتتان بهما، وفي غيره بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّه يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّه ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ قال المهايمي: أشار تعالى إلى أن من ترك الخيانة، واستجاب للّه، فلا يخاف على أهله وماله وعرضه، أي كما خاف أبو لبابة. فإن من اتقاه تعالى فلا يجترئ أحد على أهله وحوزته، لأنه يؤتى فرقاناً يفارق به سائر الناس من المهابة والإعزاز. انتهى.

وقيل: ﴿ **فُرقاناً** ﴾ أي نصراً، لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين الكفر بإذلال حزبه، والإسلام بإعزاز أهله. ومنه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾[الأنفال: ٤١]. وقيل: بياناً وظهوراً يشهر أمركم، ويبث صيتكم وآثاركم في أقطار الأرض من قولهم: بت

أفعل كذا حتى سطع الفرقان، أي طلع الفجر. وقيل: فصلاً بين الحق والباطل، ومخرجاً من الشبهات. كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين ءامَنْوا اتَّقُوا اللَّه وءَامنُوا بِرَسُولِه يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ويَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

والفرقان (كالفرق)، مصدر (فَرَقَ)، أي فصل بين الشيئين، سواء كان بما يدركه البصر، أو بما تدركه البصيرة. إلا أن الفرقان أبلغ، لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل، والحجة والشبهة.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ لما ذكّر اللَّه تعالى المؤمنين نعمه عليهم بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ ذكر نبيه ﷺ نعمته عليه خاصة، في حفظه من مكر قريش به ليشكره تعالى في نجاته من مكرهم، واستيلائه عليهم. وذلك أن قريشاً، لما أسلمت الأنصار، وأخذ نور الإسلام في الانتشار، فرقوا أن يتفاقم أمره، فاجتمعوا في دار الندوة (وهي دار بناها قصّي بن كلاب ليصلح فيها بين قريش. ثم صارت لمشاورتهم. وهي الآن مقام الحنفيّ. والندوة الجماعة من القوم، وندا بالمكان اجتمع فيه، ومنه النادي) ليتشاوروا في أمره ﷺ. فقال أبو البحتريّ بن هشام: رأيي أن تحبسوه في بيت، وتشدوا وثاقه، وتسدوا بابه، غير كوّة، تلقون إليه طعامه وشرابه منها، وتتربصوا به ريب المنون. وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي ليحبسوك ويوثقوك، لأن كل من حبس شيئاً وربطه فقد جعله ثابتاً لا يقدر على الحركة منه. ثم اعترض هذا الرأي شيخ نجدي دخل معهم، فقال: بئس الرأي! يأتيكم من يقاتلكم من قومه، ويخلصه من أيديكم! ثم قال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل، وتخرجوه من بين أظهركم، فلا يسركم ما صنع، واسترحتم. وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾، يعني من مكة، ثم اعترض النجدي أيضاً بقوله: بئس الرأي! يفسد قوماً غيركم، ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل – لعنه

الله -: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً، وتعطوه سيفاً، فيضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا. وهذا ما ذكره تعالى بقوله: ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾. ثم قال النجدي اللعين: صدق هذا الفتى، هو أجودكم رأياً. فتفرقوا على رأي أبي جهل، مجمعين على قتله. فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ، وأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأذن الله له في الهجرة. فأمر علياً. فنام في مضجعه، وقال له: اتشح ببردتي، فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه. ثم خرج النبيّ ﷺ، وأخذ قبضة من تراب، فأخذ الله بأبصارهم عنه، وجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ: ﴿يَس وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله ﴿فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١ - ٩]. ومضى مع أبي بكر إلى الغار، وبات المشركون يحرسون عليّاً، يحسبون أنه النبيّ. فلما أصبحوا ساروا إليه ليقتلوه، فرأوا عليّاً، فقالوا: أين صاحبك؟ فقال: لا أدري! فاتبعوا أثره، فلما بلغوا الغار، رأوا نسج العنكبوت على بابه، فقالوا: لو دخله لم يبق لنسج العنكبوت أثر. وخيب الله سعيهم، وأبطل مكرهم. ثم مكث ﷺ فيه ثلاثاً، ثم خرج إلى المدينة.

روي ذلك عن ابن عباس من طرق عند ابن إسحاق والإمام أحمد والحاكم والبيهقي - دخلت روايات بعضهم في بعض -.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أي يدبر ما يبطل مكرهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي أعظمهم تأثيراً، قاله المهايمي وأفاد أيضاً في مناسبة هذه الآية مع ما قبلها؛ أن هذه تشير إلى أن المتقي كما يجعل الله له فرقاناً يمنع من الاجتراء على أهله وماله وعرضه ظاهراً، يحفظه من مكر من مكر به، بل يمكر له على ماكره. انتهى.

ثم أخبر تعالى عن كفر قريش وعتوّهم وتمردهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته تعالى بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ أي مثل هذا ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ أي المتلوّ. وهذا غاية المكابرة، ونهاية العناد. كيف لا؟ ولو استطاعوا شيئاً من ذلك،

فما الذي كان يمنعهم من المشيئة، وقد تُحُدُّوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله، وقُرِّعوا على العجز، وذاقوا من ذلك الأمرين، ثم قورعوا بالسيف، فلم يعارضوا سواه، مع فرط أنفتهم، واستنكافهم أن يغلبوا، خصوصاً في باب البيان الذي هم فرسانه، المالكون لأزمته، وغاية ابتهاجهم به.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي ما سطروه وكتبوه من القصص. قيل: (أساطير) لا واحد له، وقيل: هو جمع أسطر وسطور وأسطار، جموع سطر، بسكون الطاء وفتحها، فهو جمع الجمع. وقيل: هو جمع أسطورة، كأحدوثة وأحاديث. والأصل في السطر الخط والكتابة. يقال: سطر: كتب، ويطلق على الصف من الشيء كالكتاب والشجر. كذا في القاموس وشرحه.

وقد روي أن قائل هذا. النضر بن الحارث من كلدة، وأنه كان ذهب إلى بلاد فارس، وجاء منها بنسخة حديث رستم واسفنديار، ولما قدم ووجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس ما قصه تعالى من أحاديث القرون. قال: لو شئت لقلت مثل هذا، فزعم أنه مثل ما تلقفه. وكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس، جلس فيه النضر فحدثهم من متلقفاته، ثم يقول: بالله! أينا أحسن قصصاً، أنا أو محمد؟ وقد أمكن الله تعالى منه يوم بدر، وأسره المقداد، ثم أمر ﷺ به، فضربت عنقه. وإسناده قوله إلى الجميع، إما لرضا الباقين به أو لأن قائله كبير متبع. وقد كان اللعين قاصّهم الذي يعلمهم الباطل ويقودهم إليه، ويغرهم بمثل هذه الجعجعة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا أسلوب من الجحود بليغ، لأنهم عدّوا حقية القرآن محالاً، فلذا علقوا عليه طلب العذاب الذي لا يطلبه عاقل، ولو كان ممكناً لفرّوا من تعليقه عليه. والمعنى، إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً، فعاقبنا على إنكاره بالسجّيل، كما فعلتَ بأصحاب الفيل، أو بعذاب آخر. وفي إطلاقهم (الحق) عليه، وجعله من عند الله تهكم بمن يقول ذلك من النبي أو المؤمنين. وفائدة التعريف فيه الدلالة على أن

المعلق به كونه حقاً على الوجه، يدعيه ﷺ، وهو تنزيله، لا الحق مطلقاً، لتجويزهم أن يكون مطابقاً للواقع، غير منزل، كالأساطير. فالتعريف للعهد. و﴿أَمْطِرْ﴾ استعارة أو مجاز لـ (أَنْزِلْ) قال الزمخشريّ: وقد كثر الإمطار في معنى العذاب. فإن قلت: ما فائدة قوله ﴿من السماء﴾، والإمطار لا يكون إلا منها؟ قلت: كأنه أريد أن يقال: فأمطر علينا السجيل، وهي الحجارة المسوّمة للعذاب، فوضع ﴿حجارة من السماء﴾، موضع (السجيل) كما تقول: صبّ عليه مسرودة من حديد، تريد درعاً. وقوله ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي سوى الإمطار المذكور، أو من عطف العامّ على الخاصِ.

وعن معاوية، أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! قال: أجهل من قومي قومك! قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة، ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق فاهدنا له. أي الذي هو الأصلح لهم، ولكن لشدة جهلهم وعتوهم وعنادهم استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا تقديم العقوبة، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣]. ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]. وقوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ١-٣] وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة، كما قال قوم شعيب له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

وعن عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير أن قائل ذلك النضر بن الحارث، صاحب القول السالف. قال عطاء: لقد أنزل في النضر بضع عشرة آية، فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر.

وروى البخاري [(١)] عن أنس أن قائل ذلك أبو جهل.

وروى ابن مردويه عن بريدة قال: رأيت عمرو بن العاص واقفاً يوم أحد على فرس وهو يقول: اللّهم إن كان ما يقول محمد حقاً فاخسف بي وبفرسي.

وقوله تعالى:

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٨ - سورة الأنفال، ٣ - باب قوله تعالى: ﴿وإذْ قَالُوا اللّهُمَّ إنْ كانَ هذا هُوَ الحَقَّ مِنْ عَنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنا حِجَارَةً مِنَ السَّماءِ أوِ ائتِنا بِعَذابٍ اليمٍ﴾، حديث ٢٠٠٧.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

﴿وَمَا كَانَ اللَّه لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ بيان للموجب لإمهالهم، وعدم إجابة دعائهم. واللام لتأكيد النفي، والدلالة على أن تعذيبهم، والنبيّ بين أظهرهم، غير مستقيم في الحكمة، لأن سنته تعالى، وقضية حكمته، ألا يعذب أمة ونبيها بين ظهرانيها، لأنه لو نزل العذاب في مكانهم لأصاب كل من كان فيه. وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ذكروا فيه ثلاثة أوجه:

الأول – أن المراد استغفار من بقي بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين. قال الطيبي: وهذا الوجه أبلغ، لدلالته على أن استغفار الغير مما يدفع به العذاب عن أمثال هؤلاء الكفرة.

والثاني – أن المراد به دعاء الكفرة بالمغفرة، وقولهم: (غفرانك) في طوافهم بالبيت، كما رواه ابن أبي حاتم. فيكون مجرد طلب المغفرة منه تعالى مانعاً من عذابه، ولو من الكفرة.

والثالث – أن المراد بالاستغفار التوبة، والرجوع عن جميع ما هم عليه من الكفر وغيره، فيكون القيد منفياً في هذا، ثابتاً في الوجهين الأولين.

قال القاشاني: العذاب سورة الغضب وأثره، فلا يكون إلا من غضب النبيّ، أو من غضب اللَّه المسبب من ذنوب الأمة، والنبيّ عليه الصلاة والسلام كان صورة الرحمة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. ولهذا لما كسروا رباعيته قال: (اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون) ولم يغضب كما غضب نوح عليه السلام وقال ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦]. فوجوده فيهم مانع من نزول العذاب، وكذا وجود الاستغفار، فإن السبب الأوليّ للعذاب لما كان وجود الذنب، والاستغفار مانع من تراكم الذنب وثباته، بل يوجب زوالَه، فلا يتسبب لغضب اللَّه، فما دام الاستغفار فيهم فهم لا يعذبون. انتهى.

روى الترمذي [1] عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: أنزل اللَّه

---

(١) أخرجه الترمذي في: التفسير، ٨ – سورة الأنفال، ٤ – باب حدثنا سفيان بن وكيع.

عليّ أمانين لأمتي ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ..﴾ الآية. فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة.

قال ابن كثير: ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد[١] والحاكم وصححه، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك، لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني.

وروى الإمام أحمد[٢] عن فضالة بن عبيد عن النبيّ ﷺ أنه قال: العبد آمن من عذاب الله عز وجل ما استغفر الله عز وجل.

ثم بيّن تعالى أنهم أهل للعذاب لولا المانع المتقدم بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي وأيّ شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم، وحالهم الصد عن المسجد الحرام، كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية. ومن صدهم عنه إلجاء رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الهجرة.

قال القاشاني: أي ليس عدم نزول العذاب لعدم استحقاقهم لذلك بحسب أنفسهم، بل إنهم مستحقون بذواتهم، لصدودهم، وصدهم المستعدين، وعدم بقاء الخيرية فيهم. ولكن يمنعه وجودك ووجود المؤمنين المستغفرين معك فيهم. ثم قال: واعلم أن الموجود الإمكاني يتبع الخير الغالب، لأن الوجود الواجبيّ هو الخير المحض. فما رجع خيره على شره فهو موجود بوجوده بالمناسبة الخيرية، وإذا غلب الشر لم تبق المناسبة، فلزم استئصاله وإعدامه. فهم ما داموا على الصورة الاجتماعية كان الخير فيهم غالباً، فلم يستحقوا الدمار بالعذاب. وأما إذا تفرقوا فما بقي إلا شرهم خالصاً فوجب تدميرهم، كما وقع في وقعة بدر. ومن هذا يظهر تحقيق المعنى الثاني في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣ / ٢٩ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣ / ٢٠ .

[الأنفال: ٢٥]، لغلبة الشرع على المجموع حينئذ. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ ردّ لما كانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرم، نصدّ من نشاء، وندخل من نشاء. أي ما كانوا مستحقين ولاية أمره، لشركهم ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ أي من الشرك، فلهم أن يصدوا المفسدين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي أنهم لا ولاية لهم عليه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً﴾ أي تصفيراً ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ أي تصفيقاً بالأكفّ.

روى ابن أبي حاتم أن ابن عمر رضي اللّه عنهما حكى فعلهم، فصفر، وأمال خده، وصفق بيديه.

وعن ابن عمر أيضاً قال: إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفرون ويصفقون.

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، يصفرون ويصفقون.

وعن مجاهد أنهم كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا على النبيّ ﷺ صلاته.

وقال الزهري: يستهزئون بالمؤمنين.

وهذه الجملة إما معطوفة على ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾، فيكون لتقرير استحقاقهم للعذاب، أو على قوله: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾، فيكون تقريراً لعدم استحقاقهم لولايته.

قال الزمخشري: فإن قلت: ما وجه هذا الكلام؟ قلت: هو نحو من قوله (أي الفرزدق):

وما كنت أخشى أن يكون عطاؤه أداهِمَ سوداً أو مُحَدْرَجَةً سُمْرا

والمعنى أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء. ووضعوا المكاءَ والتصدية موضع الصلاة.

وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال والنساء، وهم مشبكون بين أصابعهم، يصفرون فيها ويصفقون. وكانوا يفعلون ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته، يخلطون عليه. ما كنت أخشى، أي: ما كنت أعلم. وأداهم: جمع (أدهم) وهو الأسود من الحيات. والعرب تذكر (الأدهم) وتريد به (القيد) كما في قصة القبعثري. والمحدرجة: السياط. انتهى.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي اعتقاداً وعملاً، وفيه إشعار بأن هذا الفعل المبطل لحرمة البيت، كفر، للاستهانة بشعائره تعالى والسخرية بها. والعذاب المذكور هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي، كما قاله غير واحد من السلف، واختاره ابن جرير.

تنبيه:

قال ابن القيّم في (إغاثة اللهفان): المتقربون إلى الله بالصفير والتصفيق، والمخلطون به على أهل الصلاة والذكر والقراءة، أشباه هؤلاء المشركين قال ابن عرفة وابن الأنباري: المكاء والتصدية ليسا بصلاة، ولكن الله تعالى أخبر أنهم جعلوا، مكان الصلاة التي أمروا بها، المكاء والتصدية. فالزمهم ذلك عظيم الأوزار. وهذا كقولك: زرته فجعل جفائي صلتي، أي أقام الجفاء مقام الصلة. والمقصود أن المصفقين والصفارين في يراع أو مزمار، ونحوه، فيهم شبه من هؤلاء، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر، فلهم قسط من الذم، بحسب تشبههم بهم، وإن لم يتشبهوا بهم في جيمع مكائهم وتصديتهم، والله سبحانه لم يشرع التصفيق[1] للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابهم أمر، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح، لئلا يتشبهوا بالنساء. فكيف إذا فعلوه، لا لحاجة، وقرنوا به أنواعاً من المعاصي قولاً وفعلاً. انتهى.

وقال قبله: ومن مكائد عدوّ الله ومصايده التي كاد بها من قلّ نصيبه من العلم والعقل والدين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين، سماع المكاء والتصدية، والغناء بالآلات المحرمة الذي يصدّ القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان.

---

(١) أخرجه البخاري في: الأذان، ٤٨ ــ باب من دخل ليؤم الناس فجاء الإمام الأول، فتاخر الآخر أو لم يتاخر جازت صلاته، والحديث رقم ٤٢٩ عن سهل بن سعد الساعدي وهو حديث طويل، وفيه قوله ﷺ «من رابه شيء في صلاته فليسبّح. فإنه إذا سبّح التُفِتَ إليه. وإنما التصفيق للنساء».

وقال شيخه تقي الدين بن تيمية رحمه اللّه تعالى، في بعض فتاويه: وأما اتخاذ التصفيق والغناء والضرب بالدفوف والنفخ بالشبابات والاجتماع على ذلك، ديناً وطريقاً إلى اللّه وقربة، فهذا ليس من دين الإسلام، وليس مما شرعه لهم نبيّهم محمد ﷺ، ولا أحد من خلفائه، ولا استحسن ذلك أحد من أئمة المسلمين. بل ولم يكن أحد من أهل الدين يفعل ذلك على عهد رسول اللّه ﷺ، ولا عهد أصحابه، ولا تابعيهم بإحسان، ولاتابعي التابعين. بل لم يكن أحد من أهل الدين من الأعصار الثلاثة، لا بالحجاز ولا بالشام ولا باليمن ولا العراق ولا بخراسان ولا المغرب ولا مصر يجتمع على مثل هذا السماع، وإنما ابتدع في الإسلام بعد القرون الثلاثة، ولهذا قال الشافعيّ - لما رأى ذلك -: خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه (التغبير)، يصدون به الناس عن القرآن. وسئل عنه أحمد فقال: أكرهه، هو محدث. قيل، أتجلس معهم؟ قال: لا! وكذلك كِرهه سائر أئمة الدين، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه. فلم يحضره مثل إبراهيم بن أدهم، ولا الفضيل بن عياض، ولامعروف الكرخي، ولا أبو سليمان الدارانيّ ولا أحمد بن أبي الحواريّ، ولا السري السقطي، وأمثالهم. والذين حضروه من الشيوخ من المحمودين، تركوه في آخر أمرهم. وأعيان المشايخ عابوا أهله، كما ذكر ذلك الشيخ عبد القادر، والشيخ أبو البيان وغيرهما من الشيوخ: وما ذكره الإمام الشافعيّ رضي اللّه عنهم أنه من إحداث الزنادقة، من كلام إمام خبير بأصول الإسلام. فإن هذا السماع لم يرغّب فيه، ويدعو إليه في الأصل، إلا من هو متهم بالزندقة، كابن الراونديّ والفارابيّ وابن سينا وأمثالهم.

ثم قال رحمه اللّه: نعم! قد حضره أقوام من أهل الإرادة والمحبة، وممن له نصيب في المحبة، لما فيه من التحريك لهم، ولم يعلموا غائلته، ولا عرفوا مغبته. كما دخل قوم من الفقهاء في أنواع من كلام الفلاسفة المخالف لدين الإسلام ظنَّاً منهم أنه حق موافق، ولم يعلموا غائلته. ولا عرفوا مغبته، فإن القيام بحقائق الدين علماً وقولاً وعملاً وذوقاً وخبرة لا يستقل به أكثر الناس، ولكن الدليل الجامع هو الاعتصام بالكتاب والسنة.

ثم قال رحمه اللّه: ومن كان له خبرة بحقائق الدين، وأحوال القلوب، ومعارفها وأذواقها، عرف أن سماع المكاء والتصدية لا يجلب للقلب منفعة ولا مصلحة، إلا وفي ضمن ذلك من المفسدة ما هو أعظم منه. فهو للروح، كالخمر للجسد، يفعل في النفوس، أعظم ما تفعله حميّاً الكؤوس.

ثم قال: وبالجملة فعلى المؤمن أن يعلم أن النبيّ ﷺ لم يترك شيئاً يقرّب إلى الجنة، إلا وقد حدث به، ولا شيئاً يبعد عن النار، إلا وقد حدث به. وإن هذا السماع، لو كان مصلحة، لشرعه الله ورسوله، فإن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ..﴾ [المائدة: ٣] الآية. وإذا وجد السامع به منفعة لقلبه،ولم يجد شاهد ذلك من كتاب الله ولا من سنة رسوله، لم يلتفت إليه. كما أن الفقيه إذا رأى قياساً لا يشهد له الكتاب والسنة، لم يلتفت إليه انتهى.

وقد سلف لنا شيء من هذا البحث عند قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ فليراجع.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾

﴿إنَّ الَّذين كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبيلِ اللّه فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ نزلت فيمن ينفق على حرب النبيّ ﷺ من المشركين، وبيان سوء مغبة هذا الإنفاق، وقد ذهب الضحاك إلى أنه عني بها المطعمون منهم يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش، يطعم كل واحد منهم، كل يوم عشرة جزر.

وروي عن مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم أنها نزلت في أبي سفيان، ونفقته الأموال في (أحُد) لقتال رسول الله ﷺ.

روى محمد بن إسحاق عن الزهري أنه لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع فلّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيره، مشى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلموا أبا سفيان، ومن كانت له في تلك العير تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا، ففعلوا. قال: ففيهم، كما ذكر عن ابن عباس، أنزلت الآية.

ولا يخفى شمول الآية لجميع ذلك. واللام في (ليصدوا) لام الصيرورة، ويصح أن تكون للتعليل، لأن غرضهم الصد عما هو سبيل الله بحسب الواقع، وإن لم يكن كذلك في اعتقادهم. وسبيل الله طريقه وهو دينه،واتباع رسوله، ولما تضمن الموصول معنى الشرط، والخبر بمنزلة الجزاء، وهو **﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾** اقترن

بالفاء. و﴿ينفقون﴾ إما حال، أو بدل من ﴿كفروا﴾ وفي تضمن الجزاء من معنى الإعلام والإخبار، التوبيخ على الإنفاق، والإنكار عليه، كما في قوله: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. وفي تكرير الإنفاق في شبه الشرط والجزاء، الدلالة على كمال سوء الإنفاق، كما في قوله: ﴿إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَه﴾ [آل عمران: ١٩٢]. وقولهم: من أدرك الصمَّان فقد أدرك المرعى. والمعنى: الذين ينفقون أموالهم لإطفاء نور اللّه، والصدّ عن اتباع رسوله ﷺ، سيعلمون عن قريب سوء مغبة ذلك الإنفاق، وانقلابه إلى أشد الخسران، من القتل والأسر في الدنيا، والنكال في العقبى: قال المتنبي:

إذا الجودُ لم يُرْزَقْ خلاصاً من الأذى فلا َ الحمد مكسوباً ولا المالُ باقياً

(والأذى هنا المنّ)

وفي جعل ذات الأموال تصير ﴿حسرة﴾ أي ندماً وتأسفاً - وهي عاقبة أمرها - مبالغة. والمراد بالغلبة في قوله: ﴿ثم يغلبون﴾ الغلبة التي استقر عليها الأمر، وإن كانت الحرب بينهم سجالاً قبل ذلك. فإن قلت: غلبة المسلمين متقدمة على تحسرهم، بالزمان، فلم أخرت بالذكر؟ قلت: المراد أنهم يغلبون في مواطن أخر بعد ذلك. كذا في (العناية).

تنبيه:

قال بعضهم ثمرة الآية خطر المعاونة على معصية اللّه تعالى، وأن الإنفاق في ذلك معصية، فيدخل في هذا معاونة الظلمة على حركاتهم في البغي والظلم، وكذلك بيع السلاح والكراع، ممن يستعين بذلك على حرب المسلمين.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي الكافر من المؤمن، أو الفساد من الصلاح. واللام متعلقة بـ﴿يحشرون﴾ أو ﴿يغلبون﴾. أو ما أنفقه المشركون في عداوة رسول اللّه ﷺ. مما أنفقه المسلمون في نصرته، واللام متعلقة بقوله ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾، ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾

أي: فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض ، حتى يتراكبوا لفرط ازدحامهم، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه، ليزيد به عذابه، كمال الكانزين ﴿أولَئكَ﴾ إشارة إلى الخبيث، لأنه مقدر بالفريق الخبيث، أو إلى المنفقين ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لخسرانهم أنفسهم وأموالهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه. فالتعريف فيه للعهد أو للجنس، فيدخل هؤلاء دخولاً أولياً ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ أي عن الكفر وقتال النبيّ ﷺ ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفْ﴾ أي من الكفر والمعاصي ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ إلى قتاله ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ﴾ أي الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير، أو الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر. وقوله ﴿فقد مضت﴾ الخ دليل الجزاء. والتقدير: انتقمنا منهم فقد مضت الخ.

تنبيه:

استدل بالآية على أن الإسلام يجبّ ما قبله، كما جاء في الحديث[1] وأن الكافر إذا أسلم، لا يخاطب بقضاء ما فاته من صلاة أو زكاة أو صوم أو إتلاف مال أو نفس. وأجرى المالكية ذلك كله في المرتد إذا تاب، لعموم الآية، واستدلوا بها على إسقاط ما على الذمي من جزية وجبت عليه قبل إسلامه. أخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن وهب عن مالك: لا يؤاخذ كافر بشيء صنعه في كفره إذا أسلم، ولم يعد طلاقهم شيئاً، لأن الله تعالى قال ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَد سَلَف﴾ كذا في (الإكليل).

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي شرك أو إضلال لغيرهم، وفتن منهم للمؤمنين عن دينهم ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ أي يخلص التوحيد لله، فلا يعبد غيره ﴿فَإِنِ انْتَهَوا﴾ أي عن الكفر والمعاصي ظاهراً ﴿فَإِنَّ اللَّه بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي ببواطنهم

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤ / ١٩٩، من حديث طويل، عن عمرو بن العاص.

﴿بَصِيرٌ﴾ أي فيجازيهم، وعليه حسابهم، فكفوا عنهم، وإن لم تعلموا ببواطنهم. كقوله تعالى ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ..﴾ [التوبة: ٥] الآية - وفي الآية الأخرى ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [الأحزاب: ٥] وفي الصحيحين[١] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عزَّ وجلَّ». وفي الصحيح[٢] أن رسول الله ﷺ قال لأسامة: لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال: لا إله إلا الله، فضربه فقتله، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال لأسامة: أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله، فكيف تصنع بـ (لا إله إلا الله) يوم القيامة؟ فقال: يا رسول الله! إنما قالها تعوّذاً، فقال: هلا شققت عن قلبه؟ وجعل يقول ويكرر عليه: مَنْ لك بـ (لا إله إلا الله) يوم القيامة؟ قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

﴿**وَإِنْ تَوَلَّوْا**﴾ أي أعرضوا عن الإيمان ولم ينتهوا ﴿**فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاَكُمْ**﴾ أي ناصركم ومعينكم، فثقوا بولايته ونصرته ﴿**نِعْمَ الْمَوْلَى**﴾ فلا يضيع من تولاه ﴿**وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ فلا يغلب من نصره.

ثم بيّن تعالى مصرف ما أحله لهذه الأمة وخصها به، وهو الغنائم، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

﴿**واعْلَمُوا أنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ**﴾ أي قلّ أو كثُر من الكفار ﴿**فَأَنَّ لِلَّهِ**﴾ أي الذي

---

(١) أخرجه البخاري في: الإيمان، ١٧ - باب ﴿فإنْ تَابُوا وأقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، حديث رقم ٢٤، عن ابن عمر.
وأخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في: المغازي: ٤٥ - باب بعثُ النبيّ ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرُقات من جهينة، حديث رقم ١٩٢٠.
وأخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ١٥٨.

منه النصر المتفرع عليه الغنيمة ﴿خُمُسَهُ﴾ شكراً له على نصره وإعطائه الغنيمة ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ أي الذي هو الأصل في أسباب النصر ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ وهم بنو هاشم والمطلب ﴿وَالْيَتَامَى﴾ أي من مات آباؤهم ولم يبلغوا، لأنهم ضعفاء ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ لأنهم أيضاً ضعفاء كاليتامى ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر الذي قطع عليه الطريق ويريد الرجوع إلى بلده، ولا يجد ما يتبلغ بهم.

وفي هذه الآية مسائل:

الأولى – قال الفقهاء: (الغنيمة) المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب، أي ما ظهر عليه المسلمون بالقتال. وهل هي والفيء والنفل شيء واحد أوْ لا؟ وسنفصله في آخر المسائل.

الثانية – (ما) في ﴿أنما﴾ بمعنى الذي، والعائد محذوف، وكان حقها، على أصولهم، أن تكتب مفصولة. قال الشهاب: وقد أجيز في (ما) هذه أن تكون شرطية.

الثالثة – قوله تعالى : ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾، بيان للموصول، محله النصب، على أنه حال من عائد الموصول، قصد به الاعتناء بشأن الغنيمة، وألا يشذ عنها شيء، أي ما غنمتموه كائناً ما كان يقع عليه اسم الشيء، حتى الخيط والمخيط.

الرابعة – (الخمس) بضم الميم، وسكونها ، لغتان قد قرئ بهما.

الخامسة – أفادت الآية أن الواجب في المغنم تخميسه، وصرف الخمس إلى من ذكره الله تعالى، وقسمة الباقي بين الغانمين بالعدل، للراجل سهم، وللفارس ذي الفرس العربيّ ثلاثة أسهم، سهم له، وسهمان لفرسه. هكذا قسم النبيّ ﷺ عام خيبر. ومن الفقهاء من يقول: للفارس سهمان. والأول هو الذي دلت عليه السنة الصحيحة، ولأن الفرس يحتاج إلى مؤونة نفسه وسائسه، ومنفعة الفارس به أكثر من منفعة رجلين. ومنهم من يقول: يسوى بين الفرس العربيّ والهجين في هذا . الهجين يسمى البرذون والأكديش. ويجب قسمتها بينهم بالعدل، فلا يحابي أحد، لا لرياسته ولا لنسبه ولا لفضله، كما كان النبيّ ﷺ وخلفاؤه يقسمونها.

وفي صحيح البخاري[1] أن سعد بن أبي وقاص رأى أنّ له فضلاً على من دونه،

---

(١) أخرجه البخاري في: الجهاد، ٧٦ – باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، حديث رقم ١٣٨٤.

فقال النبيّ ﷺ: هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟

وفي مسند أحمد[1] أن سعد بن أبي وقاص رضي اللّه عنه قال: قلت: يا رسول اللّه الرجل يكون حامية القوم. يكون سهمه وأسهم غيره سواء؟ قال: ثكلتك أمكَ ابن أمّ سعد! وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم. كذا في (السياسة الشرعية) لابن تيمية.

وفي (زاد المعاد) لابن القيّم: كان ﷺ إذا ظفر بعدوّه، أمر منادياً فجمع الغنائم كلها، فبدأ بالأسلاب فأعطاها لأهلها، ثم أخرج خمس الباقي فوضعه حيث أراه اللّه وأمره به من مصالح الإسلام، ثم يرضخ من الباقي لمن لا سهم له من النساء والصبيان والعبيد، ثم قسم الباقي بالسوية بين الجيش: للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهم. وكان ينفل من صلب الغنيمة بحسب مايراه من المصلحة. وقيل: بل كان النفل من الخمس. وجمع لسلمة بن الأكوع، في بعض مغازيه،بين سهم الراجل والفارس، فأعطاه خمسة أسهم، لعظم غنائه في تلك الغزوة.

قال ابن تيمية: وما زالت الغنائم تقسم بين الغانمين في دولة بني أمية وبني العباس، لما كان المسلمون يغزون الروم والترك والبربر.

السادسة - ذهب الجمهور إلى أن ذكر اللّه تعالى في قوله: ﴿فَأَنَّ للّهِ﴾ للتعظيم، أي تعظيم الرسول، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]. أو لبيان أنه لابد في الخمسة من إخلاصها للّه تعالى، وأن المراد قسمة الخمس على المعطوفين عليه، وتمسك بعضهم بظاهر ذلك، فأوجب سهماً سادساً للّه تعالى، يصرف في وجوه الخير، أو يؤخذ للكعبة قال: لأن كلام الحكيم لا يُعَرَّى عن الفائدة، ولأنه ثبت اختصاصه في آية الصدقات في قوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٦٠]، فكذا هنا. وهذا مروي عن أبي العالية، والربيع والقاسم وأسباطه ويؤيد ما للجمهور، ما رواه البيهقي بإسناد صحيح عن عبد اللّه بن شقيق عن رجل قال: أتيت النبيّ ﷺ، وهو بوادي القرى، وهو معترض فرساً، فقلت: يا رسول اللّه! ما تقول في الغنيمة؟ فقال: للّه خمسها وأربعة أخماسها للجيش. قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال، لا، ولا السهم تستخرجه من جيبك، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم. ومن لطائف الحسن أنه أوصى بالخمس من ماله وقال: ألا

---

(١) أخرجه في المسند ١ / ١٧٣، والحديث رقم ١٤٩٣.

أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه؟

السابعة – خمس النبيّ ﷺ الذي جعله الله له، كان أمره في حياته مفوّضاً إليه، يتصرف فيه بما شاء، ويرده في أمته كيف شاء.

روى الإمام أحمد[١] أن أبا الدرداء قال لعبادة بن الصامت: يا عبادة! كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس؟ فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوهم إلى بعير من المقسم، فلما سلّم قام رسول الله ﷺ، فتناول وبرة بين أنملتيه فقال: إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيط، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلّوا فإن الغلول نار وعار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس، في الله تبارك وتعالى، القريب والبعيد، ولا تبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله في الحضر والسفر، وجاهدوا في سبيل الله، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة. ينجي الله تبارك وتعالى به من الغم والهم.

قال ابن كثير: هذا حديث حسن عظيم.

وروى أبو داود[٢] والنسائي عن عمرو بن عبسَةَ، أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بعير من المغنم، فلما سلّم أخذ وبرة من جنب البعير ثم قال: ولا يحلّ لي من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس والخمس مردود عليكم – واستدل به على أنه عليه الصلاة والسلام كان يصرفه لمصالح المسلمين.

وكان له ﷺ من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه، عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك، رواه أبو داود [٣] عن محمد بن سيرين والشعبي مرسلا، وأحمد والترمذي عن ابن عباس.

وللعلماء فيما يصنع بخمسه ﷺ من بعده مذاهب: فمن قائل: يكون لمن يلي الأمر من بعده. قال ابن كثير: روي هذا عن أبي بكر وعليّ وقتادة وجماعة. وجاء

---

(١) أخرجه في المسند ٥/ ٣١٦.

(٢) أخرجه أبو داود في: الجهاد، ١٤٩ – باب في الإمام يستأثر بشيء من الفيء لنفسه، حديث رقم ٢٧٥٥.

(٣) أخرجه أبو داود في: الخراج والإمارة والفيء، ٢١ – باب ما جاء في سهم الصفي، الحديث رقم ٢٩٩١ عن عامر الشعبيّ، والحديث رقم ٢٩٩٢ عن محمد بما يقارب هذا اللفظ.

فيه حديث مرفوع. ومن قائل: يصرف في مصالح المسلمين . قال الأعمش عن إبراهيم: كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبيّ ﷺ في الكراع والسلاح. ومن قائل: بأنه يصرف لقرابته ﷺ. ومن قائل: بأنه مردود على بقية الأصناف: ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. واختاره ابن جرير. وللمسألة حظ من النظر.

الثانية – أجمعوا على أن المراد بـ (ذَوِي الْقُرْبَى) قرابته ﷺ. وذهب الجمهور إلى أن سهم ذوي القربى يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب خاصة. لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية، وفي أول الإسلام ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول اللّه ﷺ، وحماية له. مسلمهم طاعة للّه ولرسوله، وكافرهم حمية للعشيرة، وأنفة وطاعة لأبي طالب عمّ رسول اللّه ﷺ. وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل، وإن كانوا ابني عمهم، لم يوافقوهم، بل حاربوهم ونابذوهم، ومالأوا بطون قريش على حرب الرسول، ولهذا كان ذمهم أبو طالب في قصيدته بقوله منها:

جزَى اللّهُ عَنَّا عبدَ شَمسٍ ونَوْفَلاً عقوبةَ شرٍ عاجلاً غير آجلِ

نوفل: هو ابن خويلد. كان من شياطين قريش . قتله عليّ بن أبي طالب يوم بدر).

بميزانِ قِسْطٍ لا يَخيسُ شَعيرةً له شاهِدٌ من نفسه غيرُ عائلِ

(لا يخيس، من قولهم : خاس بالعهد إذا نقضه وأفسده. والعائل: الحائر)

لقد سَفِهَتْ أَحْلامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا بني خَلَفٍ قَيْضاً بِنَا والغَياطِلِ

(قيضاً: عوضاً . والغياطل: بنو سهم):

ونحنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذُؤَابةِ هَاشِمٍ وآلِ قُصيٍّ في الخُطُوبِ الأَوَائِلِ

(الصميم: الخالص من كل شيء. والذؤابة: الجماعة العالية، وأصله الخصلة من شعر الرأس).

وقال جبير بن مطعم بن عديّ بن نوفل: مشيت أنا وعثمان بن عفان، إلى النبيّ ﷺ، فقلنا: أعطيتَ بني المطلب من خمس خيبر، وتركتنا، ونحن وهم بمنزلة واحدة منك؟ فقال: إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد – رواه مسلم.

وفي رواية: أنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام – أفاده ابن كثير.

وقد روي عن ابن عباس وزين العابدين والباقر أنه يسوّى في العطاء بين غنيّهم وفقيرهم، ذكورهم وإناثهم، لأن اسم القرابة يشملهم، ولأنهم عُوِّضوه لما حرمت

عليهم الزكاة، وقياساً على المال المقرّ به لبني فلان. واعتبر الشافعي أن سهمهم استحق بالقرابة، فأشبه الميراث. قال: فللذكر منه مثل حظ الأنثيين، انتهى.

وقال في (العناية): إنه كان لعبد مناف، جد النبيّ ﷺ خمس بنين: هاشم وعبد شمس ونوفل والمطلب وأبو عمرو، وكلهم أعقبوا إلا أبا عمرو.

التاسعة – سهم اليتامى: قيل يخص به فقراؤهم، وقيل: يعم الأغنياء والفقراء. حكاه ابن كثير. والأظهر الثاني. والسرّ فيه ما قدمناه في سورة البقرة، فتذكره فإنه مهم.

العاشرة – المساكين: المحاويج الذين لا يجدون ما يسدُّ خلتهم ويكفيهم. وابن السبيل: ذكرنا معناه أولاً.

الحادية عشرة – قال بعضهم: يقتضي ما ذكر في هذه الآية، وما في صدر هذه السورة من الأنفال، وما في سورة الحشر من قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [الحشر:٦– ٧] ، أن القسمة في الأموال المظفور بها ثلاثية: نفل: وغنيمة، وفيء. ويقتضي إطلاق جعل النفل لله ولرسوله، والغنيمة لمن ذكر مخمسة ، والفيء لمن ذكر بلا قيد التخميس – أن لكل من الثلاثة حكماً يخالف الآخر، وإن النفل ما يعطى لمن له من العناية والمقاتلة ما ليس لغيره، وفاء لعدَته بذلك، قبل إحراز الغنيمة كالسَّلَب. وإن الغنيمة ما أحرز بالقتال، سوى ما شَرَطَ التنفيل به، لأنه لا بخمس. والفيء ما أخذ من الكفار بغير قتال، كالأموال التي يصالحون عليها، والجزية والخراج، ونحو ذلك، وإلى هذا التفصيل ذهب الجمهور. وذهب بعضهم إلى اتحاد الثلاثة، وعدم التفرقة بينها، وإلى دخولها في الغنيمة، وقال: ما أطلق في آية الأنفال، وآية الحشر، مقيد بآية الغنيمة هذه. وهذا هو مراد قول بعضهم: إنهما منسوختان بهذه، بمعنى أن إطلاقهما مقيد بهذه. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ أي فاعملوا بما ذكر، وارضوا بهذه القمسة فالإيمان يوجب العمل بالعلم ، والرضا بالحكم .

وقد جاء في الصحيحين[1] من حديث عبد الله بن عباس، في حديث وفد عبد القيس: أن رسول الله ﷺ قال لهم : «وآمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: آمركم

---

(١) اخرجه البخاري في: الإيمان، ٤٠ – باب أداء الخمس من الإيمان، حديث رقم ٤٨.
واخرجه مسلم في: الإيمان، حديث ٢٣ و ٢٤ و ٢٥.

بالإيمان بالله. ثم قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من المغنم» الحديث – فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان، وقد بوّب البخاري[١] على ذلك في باب الإيمان من صحيحه، فقال: (باب أداء الخمس من الإيمان) وساق الحديث المذكور.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا﴾ معطوف على ﴿بِاللَّهِ﴾ أي إن كنتم آمنتم بالله وبالمنزل ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي محمد عليه الصلاة والسلام، أي من الآيات والملائكة والنصر ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أي يوم بدر، فإنه فرق فيه بين الحق والباطل. و (الفرقان) بمعناه اللغوي، والإضافة فيه للعهد ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ يعني جمع المؤمنين وجمع الكافرين. فالتعريف للعهد. وكان التقاؤهما يوم الجمعة. لسبع عشرة مضت من رمضان والمؤمنون يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة، فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على سبعين، وأسر منهم مثل ذلك ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على نصر القليل على الكثير، كما فعل بكم يوم بدر.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

﴿إِذْ أَنتُمْ﴾ بدل من (يَوْمَ الْفُرْقَانِ)، أو ظرف لمحذوف، أي: اذكروا إذ أنتم يا معشر المؤمنين ﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ يعني بشفير الوادي الأدنى من المدينة ﴿وَهُمْ﴾ يعني المشركين أبا جهل وأصحابه ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أي البُعْدَى عن المدينة، مما يلي مكة ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي العير التي فيها أبو سفيان، بما معه من التجارة التي كان الخروج لأجلها، أسفل من موضع المؤمنين إلى ساحل البحر على ثلاثة أميال من (بدر).

لطيفة:

قال الزمخشري: فإن قلت: ما فائدة هذا التوقيت، وذكر مراكز الفريقين ، وأن

العير كانت أسفل منهم؟ قلت: الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدوّ وشوكته وتكامل عدته، وتمهّد أسباب الغلبة له، وضعف شأن المسلمين، والتباث أمرهم، وأن غلبتهم في مثل هذه الحال، ليست إلا صنعاً من اللّه سبحانه، ودليلاً على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته، وباهر قدرته، وذلك أن العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون، كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا بأس بها. ولا ماء بالعدوة الدنيا، وهي خبارٌ (ما لان من الأرض واسترخى) تسوخ فيه الأرجل،ولا يمشي فيها إلا بتعب ومشقة، وكانت العير وراء ظهور العدوّ، مع كثرة عددهم، فكانت الحماية دونها تضاعف حميّتهم، وتشحذ في المقاتلة عنها نياتهم، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم، ليبعثهم الذبّ عن الحريم، والغيرة على الحرب، على بذل جُهَيْدَاهم في القتال، وألا يتركوا وراءهم ما يحدّثون أنفسهم بالانحياز إليه، فيجمع ذلك قلوبهم، ويضبط همومهم، ويوطن نفوسهم، على ألا يبرحوا موطنهم، ولا يُخلُوا مراكزهم، ويبذلوا منتهى نجدتهم، وقصارى شدتهم، وفيه تصوير ما دبّر سبحانه من أمر وقعة بدر، ليقضي أمراً كان مفعولاً، من إعزاز دينه، وإعلاء كلمته، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين، مبهمة غير مبينّة، حتى خرجوا ليأخذوا العير، راغبين في الخروج، وشخص بقريش مرعوبين مما بلغهم من تعرّض رسول اللّه ﷺ لأموالهم، حتى نفروا ليمنعوا غيرهم، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا، وهؤلاء بالعدوة القصوى، ووراءهم العير يحامون عليها، حتى قامت الحرب على ساق، وكان ما كان، انتهى.

قال الناصر في (الانتصاف): وهذا الفصل من خواص حسنات الزمخشري، وتنقيبه عن أسرار الكتاب العزيز.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي ولو تواعدتم أنتم وأهل مكة على موعد تلتقون فيه للقتال، لخالف بعضكم بعضاً، فثبطكم قلتكم وكثرتهم، على الوفاء بالموعد، وثبطهم ما في قلوبهم من تهيّب رسول اللّه ﷺ والمسلمين، فلم يتفق لكم من التلاقي ما وفقه اللّه وسبب له . قاله الزمخشري.

وفي حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول اللّه ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع اللّه بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد.

وروى ابن جرير عن عمير بن إسحاق قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول اللّه ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، ولا يشعر

هؤلاء بهؤلاء ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقى السقاة وشهد الناس بعضهم إلى بعض.

﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ اي ولكن جمع بينكم على هذه الحال على غير ميعاد، ليقضي ما أراد من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، من غير ملأ منكم. وقوله ﴿كَانَ مَفْعُولاً﴾ أي حقيقاً بأن يفعل. وقيل: ﴿كان﴾ بمعنى (صار) أي صار مفعولاً، بعد أن لم يكن. وقيل: إنه عبر به عنه لتحققه حتى كأنه مضى. وقوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد، لينصركم عليهم، ويرفع حجة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً، والحجة قاطعة ، والبراهين ساطعة، ، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك، أي يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره، أنه مبطل لقيام الحجة عليه. ويؤمن من آمن عن حجة وبصيرة ويقين، بأنه دين الحق، الذي يجب الدخول فيه، والتمسك به. وذلك أن ما كان من وقعة (بدر)، من الآيات الغرّ المحجّلة، التي من كفر بعدها، كان مكابراً لنفسه، مغالطاً لها.

لطائف:

الأولى – قوله تعالى ﴿لِيَهْلِكَ﴾ بدل من ﴿لِيَقْضِيَ﴾ أو متعلق بـ﴿مفعُولاً﴾.

الثانية – الحياة والهلاك استعارة للكفر والإسلام، وقرئ ﴿ليهلَك﴾ بفتح اللام.

الثالثة – ﴿حَيَّ﴾ يقرأ بتشديد الياء، وهو الأصل، لأن الحرفين متماثلان متحركان، فهو مثل شدّ ومدّ. ومنه قول عبيدة بن الأبرص:

عَيُّوا بِأَمْرِهِمُ كَمَا عَيَّتْ بِبَيْضَتِها الحَمامَهْ

ويقرأ بالإظهار وفيه وجهان:

أحدهما – أن الماضي حمل على المستقبل، وهو (يحيا) فكما لم يدغم في المستقبل، لم يدغم في الماضي، وليس كذلك شدّ ومدّ، فإنه يدغم فيهما جميعاً.

والوجه الثاني: أن حركة الحرفين مختلفة، فالأولى مكسورة، والثانية مفتوحة، واختلاف الحركتين، كاختلاف الحرفين، ولذلك أجازوا في الاختيار: لححت عليه، وضبب البلد، إذا كثر ضبه، ويقوي ذلك أن الحركة الثانية عارضة، فكأن الياء الثانية ساكنة، ولو سكنت لم يلزم الإدغام، وكذلك إذا كانت في تقدير الساكن، والياآن أصل، وليست الثانية بدلاً من (واو)، فأما الحيوان، فـ(الواو) فيه بدل من الياء. وأما

الحواء، فليس من لفظ (الحية)، بل من (حوى يحوي) إذا جمع – قاله أبو البقاء –. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي بكفر من كفر وعقابه، وإيمان من آمن وثوابه. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ منصوب بـ (اذكر)، أو بدل آخر من (يوم الفرقان). وذلك أن اللّه عزَّ وجلَّ أراه إياهم في رؤياه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه، فكان تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوّهم ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ﴾ أي لجبنتم وهبتم الإقدام ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾ أي أمر الإقدام والإحجام، فتفرقت كلمتكم ﴿وَلَكِنَ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع بتأييده وعصمته ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي يعلم ما سيكون فيها من الجراة والجبن والصبر والجزع. ولذلك دبر ما دبر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾ وذلك تصديقاً لرؤيا رسول اللّه ﷺ، وليعاينوا ما أخبرهم به، فيزداد يقينهم، ويجدّوا، ويثبتوا.

قال ابن مسعود رضي اللّه عنه: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة! فأسرنا رجلاً منهم، فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفاً! – رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ﴾ أي في اليقظة، حتى قال أبو جهل: إن محمداً وأصحابه أكلة جزورٍ مثل في القلة، كـ (أكلة رأس) أي أنهم لقلتهم يكفيهم ذلك. و(أكلة) بوزن (كتبة)، جمع آكل، بوزن فاعل، والجزور الناقة، كذا في (العناية). ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً﴾ أي من إظهار الخوارق الدالة على صدق دين الإسلام، وكذب دين الكفر ﴿كَانَ مَفْعُولاً﴾ أي كالواجب فعله على الحكيم، لما فيه من الخير الكثير. قاله المهايمي.

لطائف:

الأولى – قال الزمخشري: فإن قلت: الغرض في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهر، فما الغرض في تقليل المؤمنين في أعينهم؟ قلت: قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء، ثم كثّرهم فيها بعده، ليجترئوا عليهم، قلة مبالاة بهم، ثم تفجؤهم الكثرة، فيبهتوا ويهابوا، وتفلّ شوكتهم، حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم، وذلك قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ [آل عمران:١٣] ولئلا يستعدوا لهم، وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البينة من قلتهم أولاً وكثرتهم آخراً.

الثانية – قال الزمخشري أيضاً: فإن قلت: بأي طريق يبصرون الكثير قليلاً؟ قلت: بأن يستر اللّه عنهم بعضه بساتر، أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير، كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين قيل لبعضهم: إن الأحول يرى الواحد اثنين – وكان بين يديه ديك واحد – فقال: مالي لا أرى هذين الديكين أربعة؟ انتهى.

قال الناصر في (الانتصاف): و في هذا – يعني كلام الزمخشري – دليل بيّن على أن اللّه تعالى هو الذي يخلق الإدراك في الحاسة، غير موقوف على سبب من مقابلة ، أو قرب،أو ارتفاع حجب، أو غير ذلك. إذ لو كانت هذه الأسباب موجبة للرؤية عقلاً، لما أمكن أن يستر عنهم البعض، وقد أدركوا البعض، والسبب الموجب مشترك. فعلى هذا يجوز أن يخلق اللّه الإدراك مع اجتماعها ، فلا ربط إذن بين الرؤية ونفيها في مقدرة اللّه تعالى؟ وهي رادّة على القدرية المنكرين لرؤية اللّه تعالى، بناء على اعتبار هذه الأسباب في حصول الإدراك عقلاً، وأنها تستلزم الجسمية، إذ المقابلة والقرب وارتفاع الحجب إنما تتأتى في جسم. فهذه الآية حسبهم في إبطال زعمهم، ولكنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون، واللّه الموفق.

الثالثة: لا يقال: إن قوله تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ مكرر مع ما سبق. لأنّا نقول: إن المقصود من ذكره أولاً هو اجتماعهم بلا ميعاد ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين، على وجه يكون معجزة دالة على صدقه ﷺ، والمقصود منه ها هنا بيان خارق آخر، وهو تقليلهم في أعين المشركين، ثم تكثيرهم للحكمة المتقدمة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ تنبيه على أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها، وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زاداً ليوم المعاد.

ثم أرشد تعالى عباده المؤمنين إلى آداب اللقاء في ميدان الوغى، ومبارزة الأعداء ، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

﴿ يا أيها الذين ءامنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾ أي إذا حاربتم جماعة فاثبتوا للقائهم واصبروا على مبارزتهم، فلا تفروا ولاتجبنوا ولاتنكلوا. وتفسير (اللقاء) بـ(الحرب) لغلبته عليه، كالنزال ولم يصف الفئة بأنها كافرة، لأنه معلوم غير محتاج إليه ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ أي في مواطن الحرب، مستظهرين بذكره مستنصرين به، داعين له على عدوّكم ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة.

وقد ثبت في الصحيحين(١) عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه، التي لقي فيها العدوّ انتظر حتى مالت الشمس. ثم قام في الناس فقال: «يا أيها الناس! لا تتمنوا لقاء العدوّ، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف».

ثم قال: اللّهم! منزل الكتاب. ومُجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم.

وفي الآية إشعار بأن على العبد الا يفتُرَ عن ذكر ربه، أشغل ما يكون قلباً، وأكثر ما يكون هماً، وأن يلتجىء إليه عند الشدائد، ويقبل إليه بكليته، فارغ البال، واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في حال من الأحوال..

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ أي في كل ما يأمران به وينهيان، وهذا عامّ،

---

(١) أخرجه البخاري في: الجهاد، ١١٢ - باب كان النبيّ ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، حديث رقم ١٣٤٦.
وأخرجه مسلم في: الجهاد والسير، حديث رقم ٢٠.

والتخصيص بالذكر هنا فيه تأكيد ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا﴾ أي باختلاف الآراء، أو فيما أمرتم به ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ أي تجبنوا، إذ لا يتقوى بعضكم ببعض. ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي قوتكم وغلبتكم، ونصرتكم ودولتكم، شبه ما ذكر في نفوذ الأمر وتمشيته، بالريح وهبوبها، ويقال: هبت رياح فلان، إذا دالت له الدولة ونفذ أمره، قال:

إذا هبّت رياحُكَ فاغتنْمها فإن لكلِّ خافقةٍ سُكُونُ

ولا تغْفَلْ عن الإحسانِ فيها فما تَدْرِي السكونَ مَتَى يكُونُ

﴿واصْبِرُوا﴾ أي على شدائد الحرب، وعلى مخالفة أهويتكم الداعية إلى التنازع، فالصبر مستلزم للنصر ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي بالنصر.

قال ابن كثير رحمه اللّه: وقد كان للصحابة رضي اللّه عنهم، في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم اللّه ورسوله، وامتثال ما أرشدهم إليه، ما لم يكن لأحد من الأمم، والقرون قبلهم ولا يكون لأحد من بعدهم. فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً، في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم. من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم. قهروا الجميع حتى علت كلمة اللّه وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي اللّه عنهم وأرضاهم أجمعين.

تنبيه:

قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا﴾، أي لا تختلفوا فيما أمركم به من الجهاد، بل ليتفق رأيكم. قال: ولقائل أن يقول: استثمر من هذا وجوب نصب أمير على الجيش ليدبّر أمرهم. ويقطع اختلافهم، فإن بلزوم طاعته، ينقطع الاختلاف . وقد فعله ﷺ في السرايا، وقال[1]: اسمعوا وأطيعوا، وإن أمِّر عليكم عبد حبشي. انتهى.

ولما أمر تعالى المؤمنين بالثبات والصبر عند اللقاء، أمرهم بالإخلاص فيه، بنهيهم. عن التشبه بالمشركين، في انبعاثهم للرياء، بقوله سبحانه:

---

(١) أخرجه البخاري في: الأحكام، ٤ – باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، الحديث رقم ٤٣٤ عن أنس. وفيه (اسْتُعمِل) عوضاً عن (أُمِّرَ).

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

﴿**وَلاَ تَكُونُوا كالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً**﴾ أي فخراً بالشجاعة ﴿**وَرِئَاءَ النَّاسِ**﴾ أي طلباً للثناء بالسماحة والشجاعة ﴿**وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**﴾ أي لا تكونوا كأبي جهل وأصحابه، وقد أتاهم رسول أبي سفيان، وهم بالجحفة: أن ارجعوا، فقد سلمت عيركم. فأبوا وقالوا: لا نرجع حتى نأتي بدراً، فننحر بها الجزر، ونسقي بها الخمر، وتعزف علينا فيه القيان، وتسمع بنا العرب. فذلك بطرهم ورئاؤهم الناس بإطعامهم. فوافوها ، فسُقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، أي: لا يكن أمركم رياء ولا سمعة ولا التماس ماعند الناس، وأخلصوا للّه النية والحسبة، في نصر دينكم، ومؤازرة نبيّكم، لا تعملوا إلا لذلك ، ولا تطلبوا غيره، و(الرئاء) مصدر (راءى)، إذا أظهر العمل للناس ليروه غفلة عن الخالق، وقد يقال راياه مراياة ورياء، على القلب. و﴿**بطراً ورئاء**﴾ إما مفعول من أجله ، أو مصدر في موضع الحال. و(يصدون) إما حال، بتأويل اسم الفاعل، أو بجعله مصدر فعل هو حال، وإما مستأنف. ونكتة التعبير بالاسم أولاً ثم الفعل، الإعلام بأن البطر والرياء دأبهم، بخلاف الصد فإنه تجدد لهم في زمن النبوة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

﴿**وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ**﴾ أي في معاداة الرسول والمؤمنين، بأن وسوس إليهم ﴿**وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ**﴾ أي من النبيّ ﷺ وأصحابه ﴿**وَإِنّي جَارٌ لَكُمْ**﴾ أي مجير ومعين لكم ﴿**فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ**﴾ أي تلاقتا، وتراءت كل واحدة صاحبتها، فرأى الملائكة نازلة من السماء لإمداد المؤمنين ﴿**نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ**﴾ أي

ولّى هارباً على قفاه ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ أي من عهد جواركم ﴿إِنِّي أَرَىٰ﴾ أي من الملائكة النازلة لإمداد المؤمنين ﴿مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أي أن يعذبني قبل يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي فلا يبعد مع إمهالي إلى القيامة، أن يعذبني لشدة عقابه.

تنبيه:

ذكروا في التزيين وجهين:

أحدهما: أن الشيطان وسوس لهم من غير تمثيل، في صورة إنسان، وهو مروي عن الحسن والأصم. فالقول على هذا مجاز عن الوسوسة. والنكوص وهو الرجوع استعارة لبطلان كيده.

وثانيهما: أنه ظهر في صورة إنسان، لأنهم لما أرادوا المسير إلى بدر، خافوا من بني كنانة، لأنهم كانوا قتلوا رجلاً، وهم يطلبون دمه، فلم يأمنوا أن يأتوهم من ورائهم، فتمثل إبليس اللعين في صورة سراقة الكناني، وقال: أنا جاركم من بني كنانة، فلا يصل إليكم مكروه منهم. فقوله (إني جار لكم) على الحقيقة. وقال الإمام: معنى (الجار) هنا الدافع للضرر عن صاحبه، كما يدفع الجار عن جاره. والعرب تقول: أنا جار لك من فلان، أي حافظ لك، مانع منه. وهذا القول الثاني ذهب إلى جمهور المفسرين.

روى مالك[1] في الموطأ عن طلحة بن عبيد اللّه بن كَرِيز، مرسلاً؛ أن رسول اللّه ﷺ قال: ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ، منه في يوم عرفة. وماذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة، وتجاوز اللّه عن الذنوب العظام. إلا ما رأى يوم بدر، فإنه قد رأى جبريل يزع الملائكة.

قال الإمام: وكان في تغيير صورة (إبليس) إلى صورة (سراقة) معجزة عظيمة للرسول ﷺ، وذلك لأن كفار قريش لما رجعوا إلى مكة قالوا: هزم الناس سراقة، فبلغ ذلك سراقة فقال: واللّه ما شعرت بمسيركم، حتى بلغتني هزيمتكم، فعند ذلك تبين للقوم أن ذلك الشخص ما كان سراقة، بل كان شيطاناً.

---

(١) أخرجه في الموطأ في: الحج: حديث ٢٤٥.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ أي بالمدينة. و(إذ) منصوب بـ (اذكر) مقدراً، أو بـ(زين) ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يجوز أن يكون من صفة المنافقين، وتوسطت الواو لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، لأن هذه صفة للمنافقين، لا تنفك عنهم. قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة:١٠]. أو تكون الواو داخلة بين المفسِّر والمفسَّر نحو: أعجبني زيد وكرمه. ويجوز أن يراد: الذين هم على حرف، ليسوا بثابتي الأقدام في الإسلام. وعن الحسن: هم المشركون. ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعنون المؤمنين ﴿دِينُهُمْ﴾ فظنوا أنهم ينصرونهم به على أضعافهم ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي من يعتمد عليه سبحانه وتعالى فإنه ينصره على أضعافه، بالغين ما بلغوا، لأنه عزيز غالب على ما أراد، وهو يريد نصر أوليائه؛ حكيم، وحكمته تقتضي نصرهم. وهو جواب لهم من جهته تعالى، ورد لمقالتهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠)

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي يقبض أرواحهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ أي ملائكة القهر والعذاب مما يناسب هيئات نفوسهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ لإعراضهم عن الحق، ولهيآت الكبر والعجب والنخوة فيها ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ لميلهم إلى الباطل، وشدة انجذابهم إليه، ولهيئات الشهوة والحرص والشره ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ عطف على (يضربون) بإضمار القول. أي: ويقولون ذوقوا بشارة لهم بعذاب الآخرة. وجواب (لو) محذوف، لتفظيع الأمر وتهويله.

وقال ابن كثير: وهذا السياق، وإن كان سببه وقعة بدر، ولكنه عامّ في حق كل كافر. وفي سورة القتال مثل هذه الآية. وتقدم في الأنعام نحوها، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الْمُجْرِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]، أي بالضرب فيهم بأمر ربهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

﴿ **ذَٰلِكَ** ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الضرب والعذاب ﴿ **بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ** ﴾ أي ما كسبتم من الكفر والمعاصي ﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ أي بأن يأخذهم بلا جرم.

فإن قيل: ما سر التعبير بـ (ظلّام) بالمبالغة، مع أن نفي نفس الظلم أبلغ من نفي كثرته، ونفي الكثرة لا ينفي أصله، بل ربما يشعر بوجوده، وبرجوع النفي للقيد؟

وأجيب بأجوبة:

منها: أنه نفي لأصل الظلم وكثرته، باعتبار آحاد من ظلم، كأنه قيل: ظالم لفلان ولفلان وهلم جرّاً. فلما جمع هؤلاء عدل إلى (ظلّام) لذلك، أي لكثرة الكمية فيه.

ومنها: أنه إذا انتفى الظلم الكثير، انتفى الظلم القليل، لأن من يظلم، يظلم للانتفاع بالظلم فإذا ترك كثيره، مع زيادة نفعه في حق من يجوز عليه النفع والضر، كان لقليله مع قلة نفعه أكثر تركاً.

ومنها: أن (ظلاماً) للنسب، كـ (عطار)، أي لا ينسب إليه الظلم أصلاً.

ومنها: أن كل صفة له تعالى في أكمل المراتب، فلو كان تعالى ظالماً، كان ظلاماً، فنفى اللازم، لنفي الملزوم.

ومنها: أن نفي (الظلام) لنفي الظالم، ضرورةَ أنه إذا انتفى الظلم انتفى كماله، فجعل نفي المبالغة كناية عن نفي أصله، انتقالاً من اللازم إلى الملزوم.

ومنها: أن العذاب من العظم بحيث، لولا الاستحقاق، لكان المعذب بمثله ظلاماً بليغ الظلم متفاقمه. فالمراد تنزيهه تعالى، وهو جدير بالمبالغة.

وأيضاً: لو عذب تعالى عبيده بدون استحقاق وسبب، لكان ظلماً عظيماً، لصدوره عن العدل الرحيم. كذا في (العناية).

وفي صحيح مسلم[1] عن أبي ذرّ رضي اللّه عنه عن رسول اللّه ﷺ أن اللّه

---

(١) أخرجه مسلم في: البرّ والصلة والآداب، حديث رقم ٥٥.

تعالى يقول: إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه. والحديث طويل جليل. معروف، عند المحدثين، بالحديث المسلسل بالدمشقيين.

ثم بين تعالى أن سير المشركين المستمر، وعادتهم الدائمة، مع ما أرسل به النبيّ ﷺ كسير الأمم السالفة مع رسلهم، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

﴿**كَدَأْبِ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ خبر لمقدر، أي دأب هؤلاء، كدأب آل فرعون ومن تقدمهم من الأمم، كقوم نوح، وهو عملهم الذي دأبوا، أي استمروا عليه، ثم فسره فقال: ﴿**كَفَرُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ**﴾ أي قبل يوم القيامة ﴿**بِذُنُوبِهِمْ**﴾ أي كما أخذ هؤلاء، لأنهم اجترؤوا على معاصيه بما رأوا لأنفسهم من القوة. فضعّفهم، إظهاراً لقوته ﴿**إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ قال المهايمي: تأخير العذاب إنما يكون للرحمة، لكنه لما اشتد عنادهم، اشتد غضبه، لأنه شديد العقاب لمن اشتد عناده معه، فلا يكون في حقه رحمة.

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾

﴿**ذَلِكَ**﴾ أي التعذيب الذي علم كونه مؤاخذة بالذنوب ﴿**بِأَنَّ اللَّهَ**﴾ أي بسبب أنه تعالى ﴿**لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ**﴾ بتبديله إياها بالنقمة ﴿**حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ من موجبات تلك النعم من اعتقاد أو قول أو عمل. وهذا إخبار عن تمام عدله وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

قال القاشاني. كل ما يصل إلى الإنسان هو الذي يقتضيه استعداده، ويسأله بدعاء الحال، وسؤال الاستحقاق. فإذا أنعم على أحد النعمة الظاهرة أو الباطنة

لسلامة الاستعداد، وبقاء الخيرية فيه لم يغيرها حتى أفسد استعداده، وغير قبوله للصلاح، بالاحتجاب وانقلاب الخير الذي فيه بالقوة إلى الشر، لحصول الرين وارتكام الظلمة فيه، بحيث لم يبق له مناسبة للخير، ولا إمكان لصدوره منه، فيغيرها إلى النقمة عدلاً منه وَجوداً، وطلباً من ذلك الاستعداد إياها بجاذبة الجنسية والمناسبة، لا ظلماً وجوراً. انتهى.

﴿وأنَّ اللّهَ سَميعٌ عَليمٌ﴾ أي فيغير إذا غيّروا، غضباً عليهم بما يسمع منهم أو يعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

﴿كدأْبِ ءَالِ فرْعَوْنَ وَالَّذينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾ فكان مبدأ تغييرهم أنهم ﴿كَذَّبُوا بآياتِ ربِّهِمْ﴾ أي الذي رباهم بالنعم، فصرفوها إلى غير ما خلقت له بمقتضى تلك الآيات، فكانت ذنوباً ﴿فأهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي زيادة على سلبه النعم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي بما صرفوا بها النعم إلى غير ما خلقت له ﴿وأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ لإغراقهم النعم في بحر الإنكار بنسبتها إلى فرعون حيث أقروا بآلهيته ﴿وكُلٌّ﴾ أي من الفرق المكذبة الكافرة، . أو من آل فرعون، ومن قبلهم، وكفار قريش: ﴿كَانُوا ظَالِمينَ﴾ أي بصرف النعم إلى غير ما خلقت له، وهو نوع من الإغراق لها في بحر الإنكار لأنه مرجع التغيير لها. كذا أوّل المهايمي. وفيه إشارة إلى دفع ما يتوهم من التكرار في الآيتين، بتغاير التشبيهين فيهما، فلا يحتاج إلى دعوى التأكيد. فمعنى الأول: حال هؤلاء كحال آل فرعون في الكفر، فأخذهم وآتاهم العذاب. ومعنى الثاني: حال هؤلاء كحال آل فرعون في تغييرهم النعم، وتغيير اللّه حالهم بسبب ذلك التغيير، وهو أنه أغرقهم وقيل: إن النظم يأباه، لأن وجه التشبيه في الأول كفرهم المترتب عليه العقاب، فينبغي أن يكون وجهه في الثاني قوله ﴿كَذبوا﴾ لأنه مثله، إذ كل منهما جملة مبتدأة بعد تشبيه، صالحة لأن تكون وجه الشبه، فتحمل عليه، كقوله تعالى: ﴿إنَّ مَثَلَ عيسَى عِنْدَ اللّه كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] وأما قوله: ﴿ذلك بأن اللّه لم يك مغيراً نعمة...﴾ فكالتعليل لحلول النكال، معترض بين التشبيهين، غير مختص بقوم، فَجَعْلُهُ وجهاً للتشبيه بعيدٌ عن الفصاحة. كذا في (العناية).

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أصرّوا على كفرهم ورسخوا فيه ﴿فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ أي فلا يتوقع منهم إيمان.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ﴾ أي لا يخافون عاقبة الغدر، ولا يبالون بما فيه من العار والنار.

تنبيهات:

الأول – قال المهايمي: أشار تعالى إلى أنه كيفْ يترك نعمه على من غيَّر أحواله التي كانت أسباب النعم، وقد كان بها إنسانيته، فبتغييرها لحق بالدوابّ، وبإنكار المنعِم صار شراً منها. والنعم تسلب ممن لا يعرف قدرها، فكيف لا تسلب ممن ينكر المنعِم؟.

الثاني – دلت الآية على جواز تحقير العصاة، والاستخفاف بهم، حيث سماهم تعالى (دوابّ) وأخبر أنهم (شرّ الدواب).

الثالث – قالوا: نزلت الآية في يهود بني قريظة، رهط كعب بن الأشرف، فإن رسول الله ﷺ، كان عاهدهم ألا يحاربوه، ولا يعاونوا عليه، فنقضوا العهد، وأعانوا مشركي مكة بالسلاح على قتال رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا. فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد أيضاً. ومالأوا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق. وركب كعب بن الأشرف إلى مكة، فوافقهم على مخالفة رسول الله ﷺ.

الرابع – (الذين) بدل من الموصول الأول، أو عطف بيان له، أو نصب له على الذم. وضمن (عاهدت) معنى الأخذ، حتى عدّي بـ (من) أي أخذت منهم عهدهم. وقيل: (من) صلة، وقال أبو حيّان: هي للتبعيض، لأن المباشر بالذات للمعاهدة بعض القوم، وهم الرؤساء والأشراف.

الخامس – قوله: ﴿وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ﴾، حال من فاعل (ينقضون)، أي يستمرون على النقض، والحال أنهم لا يتقون العارَ فيه، لأن عادة من يرجع إلى دين وعقل وحزم

أن يتقي نقض العهد، حتى يسكن الناس إلى قوله، ويثقون بكلامه. فبيّن الله عزّ وجلّ أن من جمع بين الكفر ونقض العهد، فهو شرّ من الدواب.

ثم شرع تعالى في بيان أحكام الناقضين، بعد تفصيل أحوالهم، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧)

﴿**فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ**﴾ أي فإما تصادفنهم وتظفرنّ بهم ﴿**فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ**﴾ أي فرّق بهم مَن وراءهم من المحاربين يعني: بأن تفعل بهم من النكال وتغليظ العقوبة، ما يشرّد غيرهم خوفاً، فيصيروا لهم عبرة. كما قال: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾ أي لعل المشرَّدين يتعظون بما شاهدوا ما نزل بالناقضين، فيرتدعوا عن النقض أو عن الكفر. قال في (التاج): وقيل: معنى ﴿**فشرد بهم**﴾ فسمّع بهم، وقيل: فزّع بهم، ولا يخفى أن هذه المعاني متقاربة. وأصل التشريد الطرد والتفريق. ويقال. شرد به تشريداً، سَمَّع الناس بعيوبه. قال:

أُطوِّفُ بالأباطح كلَّ يوم مخافَةَ أن يُشَرِّدَ بي حَكِيمُ

معناه أنْ يَسَمِّعَ بي و (حكيم) رجل من بني سُلَيْم كانت قريش ولّتْهُ الأخذ على أيدي السفهاء.

استشهد به في اللسان في مادة (ش ر د).

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)

﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً**﴾ بيان لأحكام المشرفين إلى نقض العهد، إثر بيان الناقضين له بالفعل. و(الخوف) مستعار للعلم. أي: وإما تعلمن من قوم من المعاهدين نقضَ عهد فيما سيأتي، بما لاح لك منهم من دلائل الغدر، ومخايل الشرّ ﴿**فَانبِذْ إِلَيْهِمْ**﴾ أي فاطرح إليهم عهدهم ﴿**عَلَىٰ سَوَاءٍ**﴾ أي على طريق مستوٍ قصدٍ، بأن تظهر لهم النقض، وتخبرهم إخباراً مكشوفاً بأنك قد قطعت ما بينك وبينهم من الوصلة، ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد، كي لا يكون من قِبَلِكَ شائبة خيانة أصلاً، وإن كانت في مقابلة خيانتهم.

وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالنبذ، إما باعتبار استلزامه النهي عن مناجزة القتال، لكونها خيانة، فيكون تحذيراً له ﷺ منها، وإما باعتبار استتباعه للقتال، فيكون حثاً له ﷺ على النبذ أولاً، وعلى قتالهم ثانياً، كأنه قيل. وإما تعلمن من قوم خيانة فانبذ إليهم، ثم قاتلهم، إن الله لا يحب الخائنين، وهم من جملتهم، لما علمت من حالهم. أفاده أبو السعود.

تنبيه:

دلت الآية على جواز معاهدة الكفار لمصلحة، ووجوب الوفاء بالعهد إذا لم يظهر منهم أمارة الخيانة، وتدل على إباحة نبذ العهد لِمن توقع منهم غائلة مكر، وأن يعلمهم بذلك، لئلا يعيبوا علينا بنصب الحرب مع العهد.

روى أصحاب السنن(١) أنه كان بين معاوية وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم ليقرب، حتى إذا انقضى العهد غزاهم. فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول: الله أكبر! الله أكبر! وفاء لا غدر. فإذا هو عمرو بن عَبَسَةَ، فأرسل إليه معاوية فسأله، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء: فرجع معاوية.

وروى الإمام أحمد(٢) عن سلمان الفارسي أنه انتهى إلى حصن أو مدينة، فقال لأصحابه: دعوني أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم، فقال: إنما كنت رجلاً منكم فهداني الله عزَّ وجلَّ للإسلام، فإن أسلمتم فلكم مالنا، وعليكم ما علينا، وإن أنتم أبيتم، فأدوا الجزية وأنتم صاغرون، فإن أبيتم نابذناكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين. يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها.

هذا، وما ذكر من وجوب إعلامهم، إنما هو عند خوف الخيانة منهم وتوقعها، كما هو منطوق الآية. وأما إذا ظهر نقض العهد ظهوراً مقطوعاً به فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد، بل يفعل كما فعل رسول الله ﷺ بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة، وهم في ذمة رسول الله ﷺ، فلم يَرْعَهم إلا وجيش رسول الله ﷺ بمرّ الظهران، وذلك على أربعة فراسخ من مكة.

---

(١) أخرجه أبو داود في: الجهاد، ١٥٢ - باب في الإمام يكون بينه وبين العدّ عهد فيسير إليه، حديث رقم ٢٧٥٩.

وأخرجه الترمذي في: السير، ٢٧ - باب ما جاء في الغدر.

(٢) أخرجه في المسند ٥/ ٤٤٠ .

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ﴾ قرئ بالياء والتاء ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم ﴿إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾ أي لا يفوتون الله من الانتقام منهم، إما في الدنيا بالقتل، وإما في الآخرة بعذاب النار. وقرئ بفتح (أن) على تقدير لام التعليل، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤]، وقوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ، وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ﴾ أي لقتال ناقضي العهد السابق ذكرهم، أو الكفار مطلقاً، وهو الأنسب بسياق النظم الكريم ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أي من كل ما يتقوى به في الحرب من عددها، أطلق عليه القوة مبالغة.

قال الشهاب: وإنما ذكر لأنه لم يكن لهم في (بدر) استعداد تام، فنبهوا على أن النصر من غير استعداد لا يتأتى في كل زمان.

﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (الرباط) في الأصل مصدر ربط، أي شدّ، ويطلق بمعنى المربوط مطلقاً، وكثر استعماله في الخيل التي تربط في سبيل الله. فالإضافة، إما باعتبار عموم المفهوم الأصلي، أو بملاحظة كون الرباط مشتركاً بين معان أخر، كانتظار الصلاة وملازمة ثغر العدوّ، والمواظبة على الأمر، فإضافته لأحد معانيه للبيان، كـ (عين الشمس) ومنه يعلم أنه يجوز إضافة الشيء لنفسه إذا كان مشتركاً. وإذا كان من إضافة المطلق للمقيد، فهو على معنى (من) التبعيضية. وقد يكون (الرباط) جمع ربيط، كفصيل وفصال. قال في (التاج): يقال: نعم الربيطِ هذا، لما

يرتبط من الخيل. ثم إن عطفها على (القوة) مع كونها من جملتها للإيذان بفضلها على بقية أفرادها، كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ أي تخوّفون بذلك الإعداد ﴿عَدُوَّ اللَّهِ﴾ وهو المثبت له شريكاً، المبطل لكلمته ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي الذي يظهر عداوتكم، فتخوفونهم لئلا يحاربوكم باعتقاد القوة في أنفسهم دونكم.

تنبيه:

دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية، إتقاءَ بأس العدوّ وهجومه. ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية، أيام حضارة الإسلام، كان الإسلام عزيزاً، عظيماً، أبي الضيم، قوي القنا، جليل الجاه، وفير السنا، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار، وخضد شوكة المستبدين الكافرين، وزحزح سجوف الظلم والاستعباد، وعاش بنوه أحقاباً متتالية وهم سادة الأمم، وقادة مشعوب، وزمام الحول والطول وقطب روحي العز والمجد، لا يستكينون لقوة، ولا يرهبون لسطوة. وأما اليوم، فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة، ومالوا إلى النعيم والترف فاهملوا فرضاً من فروض الكفاية، فاصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض. ولذا تعاني اليوم من غصته ما تعاني. وكيف لا يطمع العدوّ بالممالك الإسلامية، ولا ترى فيها معامل للأسلحة، وذخائر الحرب، بل كلها مما يشترى من بلاد العدوّ؟ أما آن لها أن تتنبه من غفلتها، وتنشئ معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية؟ فلقد ألقي عليها تنقص العدوّ بلادها من أطرافها درساً يجب أن تتدبره، وتتلافى ما فرطت به. قبل أن يداهم ما بقي منها بخيله ورجله، فيقضي - والعياذ باللّه - على الإسلام وممالك المسلمين، لاستعمار الأمصار، واستعباد الأحرار، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار. وباللّه الهداية.

وقوله تعالى ﴿ءَاخَرِينَ﴾ أي وترهبون قوماً آخرين ﴿مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي من دون من يظهر عداوتكم، وهم المنافقون ﴿لاَ تَعْلَمُونَهُمْ﴾ أي أنهم يعادونكم ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي أنهم أعداؤكم، يظهرون عداوتهم إذا رأوا ضعفكم. ثم شجعهم سبحانه على إنفاق المال في إعداد القوة، ورباط الخيل، مبشراً لهم بتوفية جزائه كاملاً، بقوله تعالى ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي الذي أوضحه الجهاد ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي في الدنيا من الفيء والغنيمة والجزية والخراج، وفي الآخرة بالثواب المقيم ﴿وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ أي بترك الإثابة.

تنبيهات:

الأول – هذه الآية أصل في كل ما يلزم إعداده للجهاد من الأدوات.

الثاني – في قوله تعالى ﴿تُرْهِبُون بِهِ﴾ إشارة إلى التجافي عن أن يكون الإعداد لغير الإرهاب كالخيلاء. وفي حديث الإمام مالك عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: الخيل ثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر ولرجل وزر. فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر. ورجل ربطها فخراً ورياءً ونواءً لأهل الإسلام، فهي على ذلك وزر.

الثالث – ما ذكرناه في تأويل (الآخرين) من أنهم المنافقون، يشهد له قوله تعالى ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ، وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١].

ثم بين تعالى جواز مصالحة الكفار بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ أي مالوا وانقادوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ بكسر السين وفتحها، لغتان، وقد قرئ بهما. أي الصلح والاستسلام، بوقوع الرهبة في قلوبهم، بمشاهدة ما بكم من الاستعداد، وإعتاد العتاد ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ أي فمل إلى موافقتهم وصالحهم وعاهدهم، وإن قدرت على محاربتهم، لأن الموافقة أدعى لهم إلى الإيمان. ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلحَ، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين، أجابهم إلى ذلك، مع ما اشترطوا من الشروط الأخر. و (السلم) يذكر ويؤنث – كما في القاموس –

قال الزمخشري: (السلم) تؤنث تأنيث نقيضها، وهي الحرب. قال العباس بن مرداس:

السِّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيت بِهِ   والحربُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي لا تخف في الصلح مكرهم، فإنه يعصمك من مكرهم ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ أي بأحوالهم، فيؤاخذهم بما يستحقون، ويردّ كيدهم في نحرهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾

﴿**وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ**﴾ أي بالصلح لتكفّ عنهم ظاهراً، وفي نيتهم الغدر ﴿**فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ**﴾ أي كافيك بنصره ومعونته. قال مجاهد: يريد قريظة. ثم علل كفايته له، بما أنعم عليه من تأييده ﷺ بنصره وبالمؤمنين، فقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ**﴾ أي يوم بدر بعد الضعف، من غير إعداد قوة ولا رباط ﴿**وَبِالْمُؤْمِنِينَ**﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾

﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ**﴾ أي جمع بين قلوبهم وكلمتهم، بالهدى الذي بعثك **الله** به إليهم، بعد ما كان فيها العصبية والضغينة ﴿**لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً**﴾ أي من الذهب والفضة ﴿**مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ**﴾ إذ لا يدخل ذلك تحت قدرة البشر، لكونه من عالم الغيب ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾ أي بين قلوبهم بدينه الذي جمعهم إليه ﴿**إِنَّهُ عَزِيزٌ**﴾ أي غالب في ملكه وسلطانه على كل ظاهر وباطن ﴿**حَكِيمٌ**﴾ أي فاقتضت حكمته ذلك، لما فيه من تأييد دينه، وإعلاء كلمته.

قال الزمخشري رحمه الله تعالى: التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول **الله** ﷺ، من الآيات الباهرة. لأن العرب، لما فيهم من الحمية والعصبية، والانطواء على الضغينة، في أدنى شيء، وإلقائه بين أعينهم، إلى أن ينتقموا، لا يكاد يأتلف منهم قلبان. ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله ﷺ، واتحدوا وأنشأوا يرمون عن قوس واحدة، وذلك لمّا نظم الله من ألفتهم، وجمع من كلمتهم، وأحدث بينهم من التحابّ والتوادّ، وأماط عنهم من التباغض والتماقت، وكلفهم من الحب في الله، والبغض في الله ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب، فهو يقلبها كما شاء، ويصنع فيها ما أراد. وقيل: هم الأوس والخزرج، كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك سادتهم ورؤساءهم، ودق جماجمهم. ولم يكن لبغضائهم أمد ومنتهى. وبينهما التجاور الذي يهيج الضغائن، ويديم التحاسد والتنافس. وعادة كل طائفتين كانتا بهذه المثابة أن تتجنب هذه، ما آثرته أختها، وتكرهه وتنفر عنه، فأنساهم **الله** تعالى ذلك كله، حتى اتفقوا على الطاعة، وتصافوا وصاروا أنصاراً وعادوا أعواناً،

وما ذاك إلا بلطيف صنعه، وبليغ قدرته. انتهى.

وإنما ضعف القول الثاني لأنه ليس في السياق قرينة عليه. كذا في (العناية).

أقول: لكن شهرة ما كان بين هذين البطنين من التعادي الذي تطاول أمده، واستحال قبل البعثة نضوب مائه، يصلح أن يكون قرينة. ونقل علماء السيرة أن النبيّ ﷺ، لما لقي في الموسم الرهط من الخزرج، ودعاهم إلى الله تعالى. فأجابوه وصدقوه، قالوا له: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، نعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزُّ منك. رواه ابن إسحاق وغيره.

وفي الصحيحين[1] أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم (حنين) قال لهم يا معشر الأنصار! ألم أجدكم ضلاّلاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ كلما قال شيئاً قال: الله ورسوله أمنّ.

لطيفة:

روى الحاكم أن ابن عباس كان يقول: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء. ثم يقرأ: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ﴾... الآية.

وعند البيهقي نحوه. وقال: ذلك موجود في الشعر:

إذا بتَّ ذو قربَى إليك بزلة ... فغشَّك واستغنى فليس بذي رُحْمِ

ولكنّ ذا القربى الذي إن دعوتَه ... أجاب، وأنْ يرمي العدوَّ الذي ترمي

قال: ومن ذلك قول القائل:

ولقد صحبتُ الناس ثم سَبَرْتهم ... وبلوتُ ما وصلوا من الأسبابِ

فإذا القرابة لا تقرّب قاطعاً ... وإذا المودة أقرب الأسبابِ

قال البيهقي: لا أدري هذا موصولاً بكلام ابن عباس، أو هو قول مَن دونه من الرواة.

---

(١) أخرجه البخاري في: المغازي، ٥٦ - باب غزوة الطائف في شوّال سنة ثمان، الحديث رقم ١٩٣١ عن عبد الله بن زيد بن عاصم.
وأخرجه مسلم في: الزكاة، حديث رقم ١٣٩.

قال الرازي: احتج أصحابنا بهذه الآية، على أن أحوال القلوب من العقائد والإرادات، كلها من خلق الله تعالى. وذلك لأن الألفة والمودة والمحبة الشديدة إنما حصلت بسبب الإيمان ومتابعة الرسول ﷺ. انتهى.

ولما بين تعالى كفايته لنبيه ﷺ عند مخادعة الأعداء، في الآية المتقدمة، أعلمه بكفايته له في جميع أموره مطلقا، فقال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال العلامة ابن القيّم في مقدمة (زاد المعاد) في تفسير هذه الآية: أي الله وحده كافيك، وكافي أتباعك، فلا يحتاجون معه إلى أحد. ثم قال: وها هنا تقديران:

أحدهما - أن تكون الواو عاطفة لـ (مَنْ) على الكاف المجرورة، ويجوز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار، على المذهب المختار، وشواهد كثيرة، وشُبَه المنع منه واهية.

والثاني - أن تكون الواو واوَ (مع)، وتكون (من) في محل نصب عطفاً على الموضع فإن (حسبك) في معنى كافيك، أي الله يكفيك، ويكفي من اتبعك، كما يقول العرب: حسبك وزيداً درهم، قال الشاعر:

إذا كانتِ الهيجاءُ وانشقَّتِ العصا فحسبُكَ والضحاكَ سيفٌ مُهَنَّدُ

وهذا أصح التقديرين. وفيها تقدير ثالث، أن تكون (مَنْ) في موضع رفع بالابتداء، أي ومن اتبعك من المؤمنين، فحسبهم الله؛ وفيها تقدير رابع، وهو خطأ من جهة المعنى، وهو أن يكون (من) في موضع رفع عطفاً على اسم الله، ويكون المعنى: حسبك الله وأتباعك. وهذا، وإن قال به بعض الناس، فهو خطأ محض، لا يجوز حمل الآية عليه، فإن الحسب والكفاية لله وحده، كالتوكل والتقوى والعبادة. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢] ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده. وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده، حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل

عمران:١٧٣]، ولم يقولوا: حسبنا اللّه ورسوله. فإذا كان هذا قولهم، ومدح الرب تعالى لهم بذلك، فكيف يقول لرسوله: اللّه وأتباعك حسبك؟ وأتباعه، قد أفردوا الرب تعالى بالحسب، ولم يشركوا بينه وبين رسوله فيه، فكيف يشرك بينهم وبينه في حسب رسوله؟ هذا من أمحل المحال، وأبطل الباطل. ونظير هذا قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة:٥٩]، فتأمل كيف جعل الإيتاء للّه ولرسوله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر:٧]، وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا حسبنا اللّه ورسوله، بل جعله خالص حقه، كما قال: ﴿إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة:٥٩]، ولم يقل وإلى رسوله، بل جعل الرغبة إليه وحده. كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح:٧]، فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب، للّه وحده. كما أن العبادة والتقوى والسجود، للّه وحده. والنذر والحلف لا يكون إلا له سبحانه وتعالى ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦]، فـ (الحسب) هو (الكافي)، فأخبر سبحانه وتعالى أنه وحده كافٍ عبده، فكيف يجعل أتباعه مع اللّه في هذه الكفاية؟ والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد، أكثر من أن نذكرها هنا. انتهى.

قال الخفاجي (في العناية): وتضعيفه الرفع لا وجه له، فإن الفراء والكسائي رجّحاه، وما قبله وما بعده يؤيده. انتهى.

وأقول: هذا من الخفاجيّ من الولع بالمناقشة، كما هو دأبه، ولو أمعن النظر فيما برهن عليه ابن القيّم وأيده بما لا يبقى معه وقفة، لما ضعفه. والفراء والكسائيّ من علماء العربية، ولأئمة التأويل فقه آخر. فتبصر، ولا تكن أسير التقليد.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حثهم ﴿عَلَى الْقِتَالِ، إِنْ يَكُنْ مِنكُمْ عِشْرُونَ

صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فيكُمْ ضَعْفاً، فَإِنْ يَكُن مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرين﴾.

في الآية مسائل:

الأولى – مشروعية الحضّ على القتال، والمبالغة في الحث عليه. وقد كان النبيّ ﷺ يحرض أصحابه عند صفهم، ومواجهة العدوّ، كما قال لهم[1] يوم بدر، حين أقبل المشركون في عَدَدهم وعُدَدهم: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، فقال عمير بن الحمام: عرضها السموات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم! فقال: بخٍ بخٍ. فقال: ما يحملك على قولك بخ بخ؟ قال: رجاء أن أكون من أهلها. قال: فإنك من أهلها. فتقدم الرجل، فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن، إنها لحياة طويلة؛ ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه.

الثانية – ذهب الأكثرون إلى أن قوله تعالى ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً﴾ شرط في معنى الأمر بوجوب مصابرة الواحد للعشرة أي بألا يفرّ منهم.

روى البخاري[2] عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ كتب عليهم الا يفر واحد من عشرة، ولا عشرون من مائتين. ثم نزلت ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ...﴾ الآية – فكتب أن لا يفر مائة من مائتين.

---

(١) أخرجه مسلم في: الإمارة، حديث ١٤٥ عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه البخاري في: التفسير، ٨ – سورة الأنفال، ٦ – باب ﴿يا أيُّها النَّبيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنينَ عَلى الْقِتالِ﴾، و ٧ – باب ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾، الحديث رقم ٢٠٠٨.

وفي رواية أخرى عنه قال: لما نزلت ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتَيْنِ﴾ شق ذلك على المسلمين، فنزلت ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ...﴾ الآية - فلما خفف الله عنهم من العدة، نقص عنهم من الصبر، بقدر ما خفف عنهم.

قال في (اللباب): فظاهر هذا أن قوله تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ ناسخ لما تقدم في الآية الأولى، وكان هذا الأمر يوم بدر. فرض الله سبحانه وتعالى على الرجل الواحد من المسلمين قتال عشرة من الكافرين، فثقل ذلك على المؤمنين، فنزلت ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ - أيها المؤمنون - ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾ يعني في قتال الواحد للعشرة، فإن تكن منكم مائة صابرة محتسبة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله. فردّ العشرة إلى الاثنين. فإذا كان المسلمون على قدر النصف من عدوّهم لا يجوز لهم أن يفروا. فأيما رجل فرّ من ثلاثة فلم يفر، ومن فر من اثنين فقد فرّ. انتهى.

قال في (العناية): وذهب مكيّ إلى أنها مخففة لا ناسخة، كتخفيف الفطر للمسافر. وثمرة الخلاف أنه لو قاتل واحد عشرة، فقتل، هل يأثم أوْ لا؟ فعلى الأول يأثم، وعلى الثاني لا يأثم.

وقال الرازي: أنكر أبو مسلم الأصفهاني دعوى النسخ في الآية، وقال: الأمر الذي فهم من الآية مشروط بكون العشرين قادرين على الصبر، أي إن حصل منكم عشرون موصوفون بالصبر على مقاومة المائتين، فليشتغلوا بمقاومتهم. ثم دل قوله تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ على أن ذلك الشرط غير حاصل منهم، فلم يكن التكليف لازماً عليهم. وبالجملة، فالآية الأولى دلت على ثبوت حكم عند شرط مخصوص، والثانية دلت على أن ذلك الشرط مفقود في حق هؤلاء الجماعة، فلم يثبت ذلك الحكم. وعلى هذا فلا نسخ، ولا يقال إن قوله تعالى ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ مشعر بأن هذا التكليف كان متوجهاً عليهم قبله، لأن لفظ التخفيف لا يستلزم الدلالة على حصول التثقيل قبله، لأن عادة العرب الرخصة بمثل هذا الكلام، كقوله تعالى في ترخيصه للحرّ في نكاح الأمَة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء:٢٨] وليس هناك نسخ، وإنما هو إطلاق نكاح الأمة لمن لا يستطيع نكاح الحرائر. فكذا ها هنا. ومما يدل على عدم النسخ ذكر هذه الآية مقارنة للأولى وجعلُ الناسخ مقارناً للمنسوخ، لا يجوز إلا بدليل قاهر.

قال الرازي: بعد تقرير كلام أبي مسلم: إن ثبت إجماع الأمة قبل أبي مسلم

على حصول النسخ في الآية، فلا كلام عليه، وإلا فقول أبي مسلم صحيح حسن. انتهى.

الثالثة – في قوله تعالى: ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ إشارة إلى علة غلبة المؤمنين عشرةَ أمثالهم من الكفار، فالظرف متعلق بـ﴿ يَغْلِبُوا ﴾ أي بسبب أنهم قوم جهلة بالله تعالى واليوم الآخر، لا يقاتلون احتساباً وامتثالاً لأمر الله تعالى، وإعلاء لكلمته، وابتغاء لرضوانه، كما يفعله المؤمنون، وإنما يقاتلون للحمية الجاهلية، واتباع خطوات الشيطان، وإثارة نائرة البغي والعدوان، فلا يستحقون إلا القهر والخذلان. أفاده أبو السعود.

الرابعة – قال الرازي: احتج هشام على قوله (إن الله تعالى لا يعلم الجزئيات إلا عند وقوعها) بقوله: ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً ﴾ إذ يقتضي أن علمه بضعفهم ما حصل إلا في هذا الوقت. وأجاب المتكلمون بأن معناه: الآن حصل العلم بوقوعه وحصوله. وأما قبل ذلك فقد كان الحاصل العلم بأنه سيقع أو سيحدث. انتهى.

وقال الطيبي رحمه الله: معناه الآن خفف الله عنكم لما ظهر متعلق علمه تعالى، أي كثرتكم الموجبة لضعفكم بعد ظهور قتلكم وقوتكم.

الخامسة – في (الضعف) لغتان: الفتح والضم، وبهما قرئ. وهو يؤكد كونهما بمعنى فيكونان في الرأي والبدن. وقيل: (الفتح) في الرأي والعقل، (الضم) في البدن. وهو منقول عن الخيل. وقرئ (ضعفاء) بصيغة الجمع.

السادسة – إن قيل: إن كفاية عشرين لمائتين تغني عن كفاية مائة لألف وكفاية مائة لمائتين تغني عن كفاية ألف لألفين، لما تقرر من وجوب ثبات الواحد للعشرة في الأولى، وثبات الواحد للاثنين في الثانية، فما سر هذا التكرير؟ أجيب: بأن سره كون كل عدة بتأييد القليل على الكثير لزيادة التكرير المفيد لزيادة الاطمئنان، والدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة، لاتتفاوت، فإن العشرين قد لا تغلب المائتين. وتغلب المائة الألف. وأما الترتيب في المكرر فعلى ذكر الأقل ثم الأكثر على الترتيب الطبيعي.

قال في (الفتح): وقد قيل، في سر ذلك، إنه بشارة للمسلمين بأن جنود الإسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات إلى الألوف.

السابعة – قال في (البحر): انظر إلى فصاحة هذا الكلام، حيث أثبت في

الشرطية الأولى قيد الصبر، وحذف نظيره من الثانية، وأثبت في الثانية قيد كونهم من الكفرة وحذفه من الأولى. ولما كان الصبر شديد المطلوبية أثبت في جملتي التخفيف وحذف من الثانية، لدلالة السابقة عليه، ثم ختمت بقوله: ﴿**وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ مبالغة في شدة المطلوبية. ولم يأت في جملتي التخفيف بقيد الكفر، اكتفاء بما قبله.

قال الشهاب: هذا نوع من البديع يسمى الاحتباك، وبقي عليه أنه ذكر في التخفيف ﴿**بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ وهو قيد لهما. وقوله: ﴿**وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ إشارة إلى تأييدهم، وأنهم منصورون حتماً لأن من كان الله معه لا يغلب. وبقي فيها لطائف. فللّه درّ التنزيل ما أحلى ماء فصاحته! وأنضر رونق بلاغته!

القول في تأويل قوله تعالى:

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾

﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ**﴾ روى الإمام[١] أحمد عن أنس قال: استشار النبيّ ﷺ في الأسارى يوم بدر فقال: إن الله قد أمكنكم منهم فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! اضربْ أعناقهم، فاعرض عنه النبيّ ﷺ. ثم عاد رسول الله ﷺ لمقالته وقال: إنما هم إخوانكم بالأمس، وعاد عمر لمقالته، فاعرض عنه ﷺ. فقام أبو بكر الصديق فقال: يا رسول الله! نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. قال فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغمّ، فعفا عنهم، وقبل منهم الفداء.

وأخرج مسلم[٢] في (أفراده) من حديث عمر بن الخطاب؛ قال ابن عباس: لما أسروا الأسارى. قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله! هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال: قلت لا، والله! يا رسول الله! ما أرى الذي رأى أبو بكر. ولكني أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم، فتمكّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من

(١) أخرجه في المسند ٣/ ٢٤٣ .
(٢) أخرجه مسلم في: الجهاد والسير، حديث رقم ٥٨ .

العباس فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان – نسيب لعمر – فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده. فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلتُ. فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر يبكيان، فقلت: يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ أبكي على أصحابك – من أخذهم الفداء. لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة – لشجرة قريبة من نبيّ الله ﷺ – فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ...﴾ الآية. ذكره الحميديّ في (مسنده) عن عمر بن الخطاب، من أفراد مسلم بزيادة فيه.

ومعنى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ ما صح له وما استقام وقرئ (للنبيّ) على العهد. والمراد على كلٍّ، نبيُّنا ﷺ، وإنما نكّر تلطفاً به، حتى لا يواجه بالعقاب. وقرئ ﴿أُسَارَى﴾. ومعنى ﴿يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ يكثر القتل ويبالغ فيه، حتى يذل الكفر، ويقل حزبه، ويعز الإسلام، ويستولي أهله. يقال: أثخن في العدوّ، بالغ في قتلهم. كما في (الأساس) وأثخن في الأرض قتلاً إذا بالغ. وقال ابن الأعرابي: أثخن إذا غلب وقهر.

قال الرازي: وإنما حمله الأكثرون على القتل، لأن الدولة إنما تقوى به. قال المتنبّي:

لا يسلم الشرفُ الرفيعُ من الأذى   حتى يراقَ عَلَى جَوانبِهِ الدمُ

ولأنه يوجب قوةالرعب، وشدة المهابة، فلذلك أمر تعالى به.

وقوله تعالى ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ أي متاعها الزائل، بفداء أسارى بدر.

و (العرض) ما لا ثبات له ولو جسماً. ومنه استعار المتكلمون (العرض) المقابل (للجوهر)، قاله الشهاب. ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ أي يريد لكم ثوابها ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي غالب على ما أراد ﴿حَكِيمٌ﴾ أي فيما يأمر به عباده.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾

﴿لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ﴾ أي لأصابكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ أي بسببه، وهو الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي شديد، بقدر إبطالكم الحكمة العظيمة، وهي قتلهم، الذي هو أعزّ للإسلام، وأهيب لمن وراءهم وأفلّ لشوكتهم. والمراد بـ(الكتاب)

الحكم، وإنما أطلق عليه لأنه مكتوب في اللوح. ولأئمة التفسير أقوال في تفسيره. فقيل: هو أنه لا يعذب قوماً إلا بعد تقديم النهي، ولم يتقدم نهي عن ذلك، وقيل: هو أنه لا يعذب المخطئ في اجتهاده. وقيل: هو كون أهل بدر مغفوراً لهم. وقيل: هو حلّ المغانم.

وللرازي مناقشة في هذه الأقوال. واختار أن (الكتاب) هو حكمه في الأزل بالعفو عن هذه الواقعة، لأنه كتب على نفسه الرحمة، وسبقت رحمتُهُ غضبَهُ.

أقول: لعل الأمسّ في تهويل ما اكتسبوه، تفسير (الكتاب) بما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]. والله أعلم.

تنبيهات:

الأول – قال الرازي: قال ابن عباس: هذا الحاكم إنما كان يوم بدر، لأن المسلمين كانوا قليلين. فلما كثروا وقوي سلطانهم، أنزل الله بعد ذلك في الأسارى ﴿حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

وأقول: هذا الكلام يوهم أن قوله ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ يريد حكم الآية التي نحن في تفسيرها. وليس الأمر كذلك، لأن الآيتين متوافقتان، فإن كلتيهما تدلّ على أنه لا بد من تقديم الإثخان، ثم بعده أخذ الفداء. انتهى.

وقال بعضهم: لا تظهر دعوى النسخ من أصلها، إذ النهي الضمني، كما هنا، مقيد ومُغَيّاً بالإثخان. أي كثرة القتال اللازمة لها قوة الإسلام وعزته. وما في سورة القتال من التخيير، محله بعد ظهور شوكة الإسلام بكثرة القتال، فلا تعارض بين الآيتين، إذ ما هناك بيان للغاية التي هنا. نقله في (الفتح).

الثاني – قال القاضي: في الآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون، وأنه قد يكون خطأً، ولكن لا يقرّون عليه.

الثالث – قال ابن كثير: وقد استمرّ الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء؛ أن الإمام مخيّر فيهم، إن شاء قتل، كما فعل ببني قريظة، وإن شاء فادى بمال، كما فعل بأسرى بدر، وبمن أُسِرَ من المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين.

وإن شاء استرقّ من أسر. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة. وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة، مقرر في موضعه.

الرابع – قال بعض مفسري الزيدية: في هذه الآية سؤال وهو أن يقال: إن كان فعلهم اجتهاداً وخطأً، فلمَ عوتبوا؟ ويلزم أن لا معصية. وإن تمكنوا من العلم وقصروا، فكيف أقرّهم الرسول ﷺ؟ وجواب ذلك من وجهين:

الأول – عن أبي عليّ؛ أن ذلك كان معصية صغيرة. قال الحاكم: وكانوا متمكنين من العلم، إذا ما عاتبهم.

وقيل: كان خطأً وقصروا فعوتبوا على التقصير انتهى.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

﴿ **فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً** ﴾ أي كلوا بعضه، بعد إخراج الخمس حلالاً، أي مطلقاً عن العتاب والعقاب، من (حل العقال). ﴿ **طَيِّباً** ﴾ أي لذيذاً هنيئاً. أو حلالاً بالشرع، طيباً بالطبع. قيل: هذا الأمر تأكيد لحل المغانم، لأنه علم مما تقدم من قوله ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ... ﴾ الآية – وإشارة لاندراج مال الفداء في عمومها، فـ (مَا غَنِمْتُمْ) هنا، إما الفدية، لأنها غنيمة، أو مطلق الغنائم. والمراد بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية وجعلُ الفاء عاطفة على سبب مقدر، أي أبحت لكم الغنائم، فكلوا – قد يستغنى عنه بعطفه على ما قبله لأنه بمعناه، أي لا أؤاخذكم بما أخذ من الفداء فكلوه. كذا في (العناية).

قال أبو السعود: والأظهر أنها للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي دعوه فكلوا مما غنمتم. ثم قال: وقيل (ما) عبارة عن الفدية، فإنها من جملة الغنائم، ويأباه اتساق النظم الكريم وسياقه. انتهى. وهو متجه.

﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ أي في مخالفة أمره ونهيه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ فيغفر لكم ويرحمكم إذا اتقيتموه.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى** ﴾ أي لمن في ملكتكم، كأن

أيديكم قابضة عليهم وذلك تخليصاً لهم من أسر الضلال بضعف الإيمان ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً﴾ أي قوة إيمان وإخلاصاً فيه ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ أي من الفداء، إما أن يخلفكم في الدنيا أضعافه، أو يثيبكم في الآخرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ أي الأسرى ﴿خِيانَتَكَ﴾ أي نكث ما بايعوك عليه من الإسلام بالردة، أو منع ما ضمنوا من الفداء ﴿فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل (بدر) بالكفر به ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي فامكنك منهم، أي اظفرك بهم قتلاً وأسراً، كما رأيتم يوم بدر، فسيُمكن منهم إن عادوا إلى الخيانة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بما في بواطنهم من إيمان وتصديق، أو خيانة ونقض عهد. حكيم يجازي كلاً بعمله، الخير بالثواب، والشر بالعقاب.

روى ابن هشام في السيرة أن فداء المشركين يوم بدر كان أربعة آلاف درهم بالرجل إلى ألف درهم، إلا من لا شيء له. فمنّ رسول الله ﷺ عليه.

وقال ابن إسحاق: كان أكثر الأسارى يوم بدر فداءً العباس، وذلك أنه كان رجلاً موسراً، فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً.

وفي صحيح البخاري[1] عن أنس أن رجالاً من الأنصار قالوا: يا رسول الله! ائذن لنا، فنترك لابن أختنا عباس فداءه. قال: لا والله! لا تذرون منه درهماً.

وروى ابن إسحاق[2] أن العباس قال: يا رسول الله! قد كنت مسلماً. فقال رسول الله ﷺ: الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول، فإن الله يجزيك. وأما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك وابني أخيك نوفل وعقيل وحليفك عتبة. قال: ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل، فقلت لها: إن أُصِبْتُ في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبنيّ: الفضل وعبد الله وقثم؟ قال: والله! يا رسول الله، إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري

---

(١) أخرجه في: المغازي، ١٢ - باب حدثني خليفة، حديث رقم ١٢٤٥.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١ / ٣٥٣، والحديث رقم ٣٣١٠.

وغير أم الفضل، فاحسب لي، يا رسول الله، ما أصبتم من عشرين أوقية من مال كان معي. فقال رسول الله ﷺ: لا. ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك.

ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، فانزل الله عز وجل فيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ...﴾ الآية.

قال العباس: فاعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام، عشرين عبداً كلهم في يده مال، يضرب به. مع ما أرجو من مغفرة الله عزّ وجلّ.

وروى ابن إسحاق أيضاً أن العباس كان يقول: فيّ نزلت، والله! حين ذكرت لرسول الله ﷺ إسلامي.

وروى ابن جريج عن عطاء بن عباس؛ أن عباساً وأصحابه قالوا للنبيّ ﷺ: آمنا بما جئت به، ونشهد أنك رسول الله، لننصحنّ لك على قومنا، فأنزل الله تعالى ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾ [الأنفال: ٧٠] الآية. قال، فكان العباس يقول: ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لي الدنيا، لقد قال: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مائة ضعف. وقال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ وأرجو أن يكون قد غفر لي.

وروى البيهقي عن أنس قال: أُتي رسول الله ﷺ بمال من البحرين، فقال: انثروه في مسجدي. قال، وكان أكثرَ مال أتي به رسول الله ﷺ، فخرج إلى الصلاة، ولم يلتفت إليهم، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاءه العباس فقال: يا رسول الله! أعطني، فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً، فقال رسول الله ﷺ: خذ! فحثا في ثوبهِ، ثم ذهب يقلّه، فلم يستطع. فقال: مرْ بعضهم يرفعه إليّ، قال: لا، قال: فارفعه أنت عليّ، قال: لا! فنثر منه، ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه ببصره حتى خفي عنه، عجباً من حرصه.

فما قام رسول الله ﷺ وثمّ منها درهم. وفي رواية: وما بعث إلى أهله بدرهم. ورواه البخاري[1] تعليقاً.

وفي رواية: فجعل العباس يقول وهو منطلق: أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد

(١) أخرجه البخاري في: الجزية والموادعة، ٤ - باب ما اقطع النبيّ ﷺ من البحرين وما وعد من مال البحرين، حديث رقم ٢٧٧.

أنجزنا، وما ندري ما يصنع في الأخرى!

ثم ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسمهم إلى مهاجرين وأنصار فقال:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ أي من مكة إلى المدينة لنصر الله ورسوله ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي طاعته ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا﴾ أي وطنوا المهاجرين وأنزلوهم منازلهم وبذلوا إليهم أموالهم، وآثروهم على أنفسهم، ونصروهم على أعدائهم ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي يتولّى بعضهم بعضاً في النصرة والمظاهرة، ويقوم مقام أهله ونفسه، ويكون أحق به من كل أحد. ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

قال ابن إسحاق: وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال فيما بلغنا: تآخوا أخوين أخوين ثم أخذ بيد عليّ بن أبي طالب فقال: هذا أخي. وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله وعمّ النبيّ ﷺ، وزيد بن حارثة مولى النبيّ ﷺ أخوين. وإليه أوصى حمزة يوم (أُحُد) حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت. وجعفر ذو الجناحين الطيار في الجنة ومعاذ بن جبل أخوين. وأبو بكر الصديق وخارجة بن زيد أخوين. وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين. وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ أخوين. وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين. والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة أخوين، و عبد الله بن مسعود وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخوين وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين. وسعيد بن زيد وأبيّ بن كعب أخوين. ومصعب بن عمير وأبو أيوب الأنصاري أخوين. وأبو حذيفة وعباد بن بشر أخوين. وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين. وأبو ذرّ الغفاري والمنذر بن عمرو أخوين. وسلمان الفارسي وأبو الدرداء أخوين. وحاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين. وبلال الحبشي وأبو رويحة الخثعمي أخوين.

ولما خرج بلال إلى الشام، وأقام فيها مجاهداً، قال له عمر: إلى من نجعل ديوانك؟ قال: مع أبي رويحة، لا أفارقه أبداً، للأخوّة التي كان رسول اللّه ﷺ عقد بينه وبيني. فضم إليه، وضم ديوان الحبشة إلى خثعم، لمكان بلال منهم.

قال ابن إسحاق. فهؤلاء من سمى لنا ممن كان رسول اللّه ﷺ آخى بينهم من أصحابه.

تنبيه:

نقل الواحدي عن ابن عباس وغيره، أن المراد من هذه الولاية، هي الولاية في الميراث. قال ابن كثير: لما تآخوا كانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ اللّه ذلك بالمواريث. ثبت ذلك في صحيح البخاري عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد.

قال الخفاجي: فكان المهاجري يرثه أخوه الأنصاري، إذا لم يكن له بالمدينة وليّ مهاجري، ولا توارث بينه وبين قريبه المسلم غير المهاجري. واستمر أمرهم على ذلك إلى فتح مكة، ثم توارثوا بالنسب بعدُ، إذ لم تكن هجرة. و (الولي) القريب والناصر. لأن أصله القرب المكانيّ، ثم جعل للمعنوي، كالنسب والدين والنصرة. فقد جعل ﷺ، في أول الإسلام، التناصر الديني أخوّة، وأثبت لها أحكام الأخوّة الحقيقية من التوارث، فلا وجه لما قيل إن هذا التفسير لا تساعده اللغة، فالولاية على هذا، الوراثة المسببة عن القرابة الحكمية. انتهى.

ومراده بـ (ما قيل) ما ذكره الرازي في تضعيف تفسير الولاية بالوراثة، حيث قال:

واعلم أن لفظ الولاية غير مشعر بهذا المعنى، لأن هذا اللفظ مشعر بالقرب على ما قررناه في مواضع من هذا الكتاب. ويقال: السلطان وليّ من لا وليّ له، ولا يفيد الإرث. وقال تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، ولا يفيد الإرث، بل الولاية تفيد القرب، فيمكن حمله على غير الإرث، وهو كون بعضهم معظماً للبعض، مهتماً بشأنه، مخصوصاً بمعاونته ومناصرته. والمقصود أن يكونوا يداً واحدة على الأعداء، وأن يكون حب كل واحد لغيره جارياً مجرى حبه لنفسه. وإذا كان اللفظ محتملاً لهذا المعنى، كان حمله على الإرث بعيداً عن دلالة اللفظ، لا سيما وهم يقولون: إن ذلك الحكم صار منسوخاً بقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وأي حاجة تحملنا على حمل اللفظ على معنى لا إشعار لذلك اللفظ به، ثم

الحكم بأنه صار منسوخاً بآية أخرى مذكورة معه؟ هذا في غاية البعد، اللهم إلا إذا حصل إجماع المفسرين على أن المراد ذلك، فحينئذ يجب المصير إليه. إلا أن دعوى الإجماع بعيدة. انتهى.

وأقول: لعموم هذا الخطاب ونظمه وجه في إثبات التوارث، لا سيما وقد نفى تعالى ولاية من لم يهاجر نفياً استغرق أقرب الأقارب حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ أي بأن أقاموا في بواديهم ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ أي إلى المدينة. وقوله تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ أي إذا استنصركم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال دينيّ، فيجب عليكم أن تنصروهم على أعدائهم المشركين، لأنهم إخوانكم في الدين ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي عهد ومهادنة إلى مدة، فلا تعينوهم عليهم، لئلا تخفروا ذمتكم، وتنقضوا عهدكم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي فلا تخالفوا أمره.

تنبيهات:

الأول – احتج من ذهب إلى أن المراد من قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي من توليتهم في الميراث، وأنه هو المراد في الآية السابقة أيضاً، بقوله تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ فإن هذا موالاة في الدين، فحينئذ لا يجوز حمل الموالاة المنفية، على النصرة والمظاهرة، لأنها لازمة لكل حال لكلا الفريقين. وأجاب الرازي بما معناه: إن الولاية هنا ليس المراد بها مطلق التولي حتى يرد ماذكروه، بل عنى بها معنى خاص، وهو علاقة شديدة، ومحبة أكيدة، وإيثار قويّ، وأخوة وثيقة. ولا يلزم من النصر التولي. فقد ينصر المرء ذمياً لأمرٍ ما ولا يتولاه، ويدافع عن عبده أو أمته ويعينهما ولا يتولاهما – والله أعلم – .

الثاني – يظهر أن هذه الآية كسوابقها مما نزل إثر واقعة بدر، وطلب من كل من آمن من البادين أن يهاجر، ليكثر سواد المسلمين، ويظهر اجتماعهم، وإعانة بعضهم لبعض، فتتقوى بأُلفتهم شوكتهم، ولم يزُل طلب الهجرة إلا بفتح مكة، لقوله ﷺ: لا هجرة بعد فتح مكة. رواه البخاري[1] عن مجاشع بن مسعود.

---

(١) حديث مجاشع بن مسعود أخرجه البخاريّ في: الجهاد، ١١٠ – باب البيعة في الحرب الا يفرّوا، حديث رقم ١٤١٣ و ١٤١٤.
وأخرجه مسلم في: الإمارة، حديث ٨٣ و ٨٤.
ونصه: قال: اتيت النبيّ ﷺ أبايعه على الهجرة فقال «إن الهجرة قد مضت لأهلها».

الثالث - شمل نفي الموالاة عن الذين لم يهاجروا وقتئذ، حرمانهم من المغانم والفيء. روى الإمام أحمد[١] عن بريدة بن الحُصَيْب الأسلمي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرّية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً. وقال: اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. إذا لقيتَ عدوَّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتها ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكفّ عنهم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكفّ عنهم. ثم ادعهم من التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك، أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا واختاروا دارهم، فاعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم، وكفّ عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.

قال ابن كثير: انفرد به مسلم[٢]، وعنده زيادات أخر.

الرابع - قرأ حمزة (ولايتهم) بكسر الواو، والباقون بفتحها.

قال الشهاب: جاء في اللغة: (الولاية) مصدراً بالفتح والكسر، فقيل: هما لغتان فيه بمعنى واحد، وهو القرب الحسي والمعنوي، وقيل: بينهما فرق، فالفتح ولاية مولى النسب ونحوه. والكسر ولاية السلطان. قاله أبو عبيدة. وقيل الفتح من النصرة والنسب. والكسر من الإمارة. قاله الزجاج. وخطأ الأصمعيُّ قراءة الكسر، وهو المخطئ لتواترها. واختلفوا في ترجيح إحدى القراءتين. ولما قال المحققون من أهل اللغة: إن (فعالة) بالكسر في الأسماء لما يحيط بشيء، ويجعل فيه كاللفافة والعمامة. وفي المصادر يكون في الصناعات وما يزاول بالأعمال، كالكتابة والخياطة - ذهب الزجاج وتبعه غيره إلى أن الولاية لاحتياجها إلى تمرن وتدرب شبهت بالصناعة، لذا جاء فيها الكسر، كالإمارة. وهذا يحتمل أن الواضع حين وضعها شبهها بذلك، فتكون حقيقة ويحتمل - كما في بعض شروح الكشاف - أن تكون استعارة، كما سموا الطب صناعة. انتهى.

---

(١) أخرجه في المسند ٥/ ٣٥٨.

(٢) أخرجه في: الجهاد والسير، حديث رقم ٣.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي فلا يتولاهم إلا من كان منهم، ففيه إشارة إلى نهي المسلمين عن موالاتهم. وإيجاب مباعدتهم ومصارمتهم، وإن كانوا أقرب وقد استدل به على أنه لا توارث بين المسلمين والكفار.

روى الحاكم في (مستدركه) عن أسامة عن النبيّ ﷺ قال: لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً ولا كافر مسلماً، ثم قرآ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية رواه الشيخان عنه[1] بلفظ: لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم.

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي إلا تفعلوا ما أمرتكم به من التواصل، وتولّي بعضكم بعضاً، ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار، تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة، لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الشرك، كان الشرك ظاهراً، والفساد زائداً، في الاعتقادات والأعمال.

وقيل: الضمير المنصوب للميثاق أو حفظه أو النصر أو الإثبات. وقيل إنه للاستنصار المفهوم من الفعل. والفتنة: إهمال للمؤمنين المستنصرين بنا، حتى يسلط علينا الكفار. إذ فيه وهن للدين.

قال الشهاب: وفيه تكلف، أي فالأوجه عوده للتولي والتواصل - كما بينا - .

قال الرازي: بيان هذه الفتنة والفساد عن وجوه:

الأول - أن المسلمين لو اختلطوا بالكفار في زمان ضعف المسلمين، وقلة عددهم، وزمان قوة الكفار، وكثرة عددهم، فربما صارت تلك المخالطة سبباً لالتحاق المسلم بالكفار.

الثاني - أن المسلمين لو كانوا متفرقين لم يظهر منهم جمع عظيم، فيصير ذلك سبباً لجراة الكفار عليهم.

الثالث أنه إذا كان جميع المسلمين كل يوم في الزيادة في العدد والعدد صار ذلك سبباً لمزيد رغبتهم فيما هم فيه، ورغبة المخالف في الالتحاق بهم. انتهى.

---

(١) أخرجه مسلم عن أسامة بن زيد في: الفرائض، حديث رقم ١ .

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾

﴿**وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ عودٌ لذكر المهاجرين والأنصار، للثناء عليهم، والشهادة لهم، مع الموعد الكريم. فلا تكرار، لما أن مساق الأول لإيجاب التواصل بينهم، فذكرهم هاهنا لبيان تعظيم شأنهم، وعلوّ درجتهم.

قال الرازي: وبيانه من وجهين:

الأول – أن الإعادة تدل على مزيد الاهتمام بحالهم، وذلك يدل على الشرف والتعظيم.

والثاني – وهو أنه تعالى أثنى عليهم ها هنا من ثلاثة أوجه:

أولها – قوله: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا**﴾ فقوله: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ **يفيد الحصر**، وقوله: ﴿**حَقًّا**﴾ يفيد المبالغة في وصفهم بكونهم محقين محققين في طريق الدين، وقد كانوا كذلك، لأن من لم يكن محقّاً في دينه، لم يتحمل ترك الأديان السالفة، ولم يفارق الأهل والوطن، ولم يبذل النفس والمال، ولم يكن في هذه الأحوال من المتسارعين المتسابقين.

وثانيها – قوله ﴿**لَهُمْ مَغْفِرَةٌ**﴾ والتنكير يدل على الكمال، أي مغفرة تامة كاملة.

وثالثها – قوله ﴿**وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ والمراد منه الثواب الرفيع الشريف انتهى.

وقد أثنى تعالى على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه الكريم والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

﴿**وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ**﴾ أي من جملتكم، أي المهاجرون والأنصار، في استحقاق ما استحقيتموه من الموالاة والمناصرة، وكمال

الإيمان والمغفرة والرزق الكريم.

وهل المراد من قوله ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ هو من بعد الهجرة الأولى، أو من بعد الحديبية. وهي الهجرة الثانية، أو من بعد نزول هذه الآية، أو من بعد يوم بدر؟ أقول - واللفظ الكريم يعمها كلها، والتخصيص بأحدهما تخصيص بلا مخصص. ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في حكمته وقسمته، أو في اللوح، أو في القرآن، لأن (كتاب الله) يطلق على كل منها ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيقضي بين عباده بما شاء من أحكامه التي هي منتهى الصواب والحكمة والصلاح.

تنبيهات:

الأول إن هذه الآية ناسخة للميراث بالموالاة والمناصرة عند من فسر ما تقدم من قوله ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وما بعده بالتوارث.

أخرج أبو داود[1] من حديث ابن عباس قال: كان الرجل يحالف الرجل، ليس بينهما نسب، فيرث أحدهما من الآخر، فنسخ ذلك آية الأنفال فقال: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ...﴾ الخ إلا أن في إسناده مَن فيه مقال.

وأما من فسر الموالاة المتقدمة بالنصرة والمعونة والتعظيم، فيجعل هذه الآية إخباراً منه سبحانه وتعالى بأن القرابات بعضهم أولى ببعض. وذلك أن تلك الآية، لما كانت محتملة للولاية بسبب الميراث، بيّن الله تعالى في هذه الآية أن ولاية الإرث إنما تحصل بسبب القرابة، إلا ما خصه الدليل، فيكون المقصود من الآية إزالة هذا الوهم.

قال الرازي: وهذا أولى. لأن تكثير النسخ، من غير ضرورة وحاجة، لا يجوز.

الثاني - استدل بالآية من ورّث ذوي الأرحام، وهم من ليسوا بعصبات، ولا ذوي سهام. قال: ويعضده حديث[2]: (الخال وارث من لا وارث له) وأجاب من منع توريثهم بأن المراد من الآية من ذكر اللهُ من ذوي السهام والعصبات. ومن الحديث: (من كان وارثه الخال فلا وارث له). وردّ بأنها عامة فلا موجب للتخصيص، وبأن معنى الحديث: من كان لا وارث له غيره، لحديث: (أنا عماد من لا عماد له).

---

(١) أخرجه أبو داود في: الفرائض، ١٦ - باب نسخ ميراث العقد بميراث الأرحام، حديث رقم ٢٩٢١.

(٢) أخرجه أبو داود في: الفرائض، ٨ - باب في ميراث ذوي الأرحام، حديث رقم ٢٨٩٩ و ٢٩٠٠ عن المقدام الكندي.

ثم إن الذين أثبتوا ميراثهم اختلفوا في أنهم هل يرثون بالقرب، أو بالتنزيل، وهل يرث القريب مع البعيد، وهل يفضل الذكر على الأنثى أَوْ لا؟ والآية محتملة. أفاده بعض مفسري الزيدية.

قال ابن كثير: ليس المراد بقوله: ﴿وأُولُوا الأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا عصبة، بل يدلون بوارث كالخالة والخال، والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم، كما يزعمه بعضهم، ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة. بل الحق أن الآية عامة، تشمل جميع القرابات؛ كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص، ومن لم يورّثهم يحتج بأدلة، من أقواها حديث[1]: (إن اللّه قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث) قالوا: فلو كان ذا حق لكان ذا فرض في كتاب اللّه مسمى، فلما لم يكن كذلك، لم يكن وارثاً. انتهى.

ولا يخفى ضعف هذا الاستدلال، إذ لا يلزم من ثبوت الحق تعيين الفرض. على أن معنى الحديث، أعطى كل ذي حق حقه مفصلاً ومجملاً، وقد أعطاهم حق الأولوية العامة، ووكل بيان ما يفهم من إجمال الإرث بعمومها لاستنباط الراسخين وفهمهم على قاعدة عمومات التنزيل.

وقد رأيت في هذه المسألة مقالة بديعة أوردها الحسن الصابئ في (تاريخ الوزراء) في أخبار وزارة أبي الحسن بن الفرات، نائرها هنا، لأنها جمعت فأوعت، قال رحمه اللّه:

ونسخة ما كتب به أبو خازم إلى بدر المعتضدي جواب كتابة إليه في أمر المواريث: وصل كتاب الأمير، يذكر أنه احتيج إلى كتابي بالذي أراه واجباً من مال المواريث لبيت المال، ومالاً أراه واجباً منه، وتلخيص ذلك وتبيينه – وأنا أذكر للأمير الذي حضرني من الجواب في هذه المسألة والحجة فيما سأل عنه ليقف على ذلك إن شاء اللّه –.

الناس مختلفون في توريث الأقارب، فروي عن زيد بن ثابت أنه جعل التركة – إذا لم يكن للمتوفى من يرثه من عصبة وذي سهم – لجماعة من المسلمين وبيت

---

(١) أخرجه ابو داود في: الوصايا، ٦ – باب ما جاء في الوصية للوارث، حديث رقم ٢٨٧٠.

مالهم. وكذلك يقول في الفصل بعد السُّهمان المسماة، إذا لم تكن عصبة. ولم يرو ذلك عن أحد من الصحابة سوى زيد بن ثابت. وقد خالفه عمر بن الخطاب، وعلي ابن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وجعلوا ما يفضل من السُّهمان رداً على أصحاب السهام من القرابة، وجعلوا المال لذي الرحم إذا لم يكن وارث سواه. والسنّة تعاضد ما روي عنهم، وتخالف ما روي عن زيد بن ثابت وتأويل القرآن يوجب ما ذهبوا إليه. وليس لأحد أن يقول في خلاف السنة والتنزيل بالرأي. قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّه اللَّهَ، بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. فصيّر القريب أولى من البعيد، وإلى هذا ذهب عمر وعليّ وعبد الله رضي الله عنهم ومن تابعهم من الأئمة، وعليه اعتمدوا، وبه تمسكوا - والله أعلم.

ولو كان في هذه المسألة ما يدل عليه شاهد من الكتاب والسنة، لكان الواجب تقليد الأفضل والأكثر من السابقين الأولين، وترك قبول من سواهم ممن لا يلحق بدرجتهم بسابقته. وإذا ردّ أمر الناس إلى التخيير من أقاويل السلف فهل يحيل أو يشكل على أحد أن زيداً لا يفي علمه بعلم عمر وعليّ وعبد الله؟ وإذا فضلوا في السابقة والهجرة، فمن أين وجب أن يؤخذ بما روي عن زيد بن ثابت، واطّراح ما روي عنهم، وقد استدلوا مع ذلك بالكتاب فيما ذهبوا إليه، وبالسنة فيما أفتوا به؟ والرواية ثابتة عن النبيّ ﷺ بتوريث من لا فرض له في الكتاب من القرابة. فمن ذلك ما ذكر لنا عن معاوية بن صالح عن راشد بن سعد عن أبي عامر الهرويّ عن المقدام ابن معدي كرب عن النبيّ ﷺ [1] أنه قال: الخال وارث من لا وارث له يرث ماله، ويعقل عنه. وكذلك بلغنا عن شريك بن عبد الله عن ليث عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ مثله. وعن ابن جريج عن عمر بن سلم عن طاوس عن عائشة أن النبيّ ﷺ قال مثل ذلك. وذكر عن عبادة بن أبي عباد عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن محمد بن يحيا بن حبان عن عمه واسع بن حبان قال: توفي ثابت بن أبي الدحداح، فقال النبيّ ﷺ لعاصم بن عدي: أله فيكم نسب؟. قال: فدفع تركته إلى ابن أخته فقد أوجب عليه السلام، بما نقلته عنه هذه الرواية، توريث من لا سهم له من القرابة مع عدم أصحاب السُّهمان المبينة في الكتاب. وأعطى الجدة السدس من الميراث، ولا فرض لها، وفي ذلك الاتفاق، وفيما صير لها من السدس، دليل على أن مَنْ لا سهم له من القرابة في معناها؟ إذا بطلت السهام، ولم يكن من أهلها، وأنه أولى بالميراث من الأجنبيّ.

---

(١) أخرجه أبو داود في: الفرائض، ٨ - باب في ميراث ذوي الأرحام، حديث رقم ٢٨٩٩ و ٢٩٠٠.

والمرويّ عن زيد بن ثابت أنه جعل الفضل عن سهام الفرائض، وكل المال، إذا سقطت السهام بعد أهلها، لجماعة المسلمين. فجعلهم كلهم وارثاً، وجعل ما يصير لهم من ذلك – في خلاف مال الفيء المصروف إلى الشحنة وأرزاق المقاتلة وإلى المصالح إذا كان ذلك – يكون فيما روي عنه للناس كافة، وعددهم لا يحصى، فغير ممكن أن يقسم ذلك فيهم وهم متفرقون في أقطار الأرض، مشارقها ومغاربها. وإذا امتنع ذلك وخرج إلى ما ليس بممكن، فسد وثبت ما قلناه من قول أكابر الأئمة، وقد تأول بعض المتأولين قوله الله تعالى: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فقال فيه: كان الناس يتوارثون بالحلف دون القرابة. فلما أوجب الله المواريث لأهلها من الأقارب، مُنِع الحليف بما فرض من السهمان فغلطوا وصرفوا حكم الآية إلى الخصوص، فذلك غير واجب مع عدم الدليل، لأن مخرجها في السمع مخرج العموم.

وبعد، فلو كان تأويلها ما ذهبوا إليه، وكانت السهام التي نسخت ما يرثه الحليف قبل نزول الفرائض، لوجب في بدءٍ، وما قالوا إذا كان لا وارث للميت من أصحاب السهام أن يكون الحليفان في التوارث على أول فرضهما، وعلى المقدم من حكمها، لأن الذي منعهما إذا ثبت هذا التأويل (من له سهم) دون (من لا سهم له)، فإذا ارتفع المانع، رجع الحكم إلى بدئه. ولا اختلاف بين الفريقين أن الحليف لايرث الحليف اليوم، وإن كان لا وارث سواه، وهذا يدل على فساد تأويلهم، وعلى أن المراد في الآية التي أوجبت الحق للأقارب غير الذي ذهبوا إليه، فإن الله سبحانه إنما أراد بمعناها اختصاص القريب بالإرث دون البعيد. وقد يلزم من ذهب إلى الرواية عن زيد ، وترك الرواية عن عمر وعليّ وعبد الله عليهم السلام جانباً، وأسقط التعاقل بين الأجنبي والقريب، أن يجعل ذا الرحم أولى، لأنه لا يفضل الأجنبي بالقرابة. وترتيبُ المواريث في الأصل يجري على من تقدمه من فضل غيره في المناسبة، كالأخ للأب والأم، والأخ للأب، وابن العم للأب والأم، وابن العم للأب، واختصاصهما قرابة أولاهما بالميراث عند جمع الجميع. قال الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، وولد الولد، من سفل منهم ومن ارتفع، يعمهم هذا الاسم، إلا أن الأقرب منهم، في معنى الآية، أحق من الأبعد. فإذا كان ذلك كذلك، كان القريب أولى من الأجنبي بالتركة للرحم التي تقرّب بها دونه.

وبعد، فإن العلماء نفر يسير لا يعرفون الصواب في هذه المسألة، إلا فيما روي عن الخليفتين عمر وعليّ صلوات الله عليهما، وما روي عن ابن مسعود، ثم لم

يقتصروا في المبالغة والدليل في توريث ذي الرحم، إلا على ما روي عن عبد اللّه بن العباس، جدّ أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه، وترجمان القرآن، وبحر العلم، ومن كان إذا تكلم سكت الناس، ومن دعا له النبيّ ﷺ فقال[1]: اللهم! فقهه في الدين وعلمه التأويل. ودعوة النبيّ ﷺ مستجابة. ومن كان أعلم بتأويل القرآن فاتباعه فيه أوجب. وقد روي عن ابن عباس مثل ذلك من قول عمر وعليّ وعبد اللّه والجماعة. وما زالت الخلفاء من أجداد أمير المؤمنين، أعزه اللّه، يستقضون الحكام، فيقضون برد المواريث على الأقارب، ولا ينكرون ذلك على مَنْ قضى به مِنْ قضاتهم، ولا تردونه متجاوزاً للحق فيه، وما عرفت الجماعة بغير هذا الاسم إلا منذ نحو عشرين سنة، وأمير المؤمنين أولى من اتبع آثار السلف، واقتدى بخلفاء اللّه، ومَالَ إلى أفضل المذهبين، وإلى اللّه الرغبة في عصمة الأمير، وتسديده، والحمد للّه رب العالمين. انتهى.

ونقل أبو الحسن الصابي قبل نسخة أبي الحسن محمد بن جعفر بن ثوابة في المواريث، وفيها نقل ما كتبه عبد الحميد في كتاب مواريث أهل الملة، وأنه حكى فيه أن عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب وعبد اللّه بن عباس وعبد اللّه بن مسعود رضوان اللّه عليهم ومن اتبعهم من الأئمة الهادين رحمة اللّه عليهم، رأوا أن يردّ على أصحاب السهام من القرابة ما يفضل عن السهام المفترضة في كتاب اللّه تبارك وتعالى من المواريث، إذا لم يكن للمتوفى عصَبة يحوز باقي ميراثه، وجعلوا، رضي اللّه عنهم، تركة من يتوفى ولا عَصَبةَ له لذوي رحمه، إن لم يكن له وارث سواهم، ممتثلين في ذلك أمر اللّه سبحانه إذ يقول: **﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** . وسنة رسول اللّه ﷺ في توريثه من لا فرض له في كتاب اللّه تعالى من الخال وابن الأخت والجدة. انتهى.

الثالث - استدل بالآية الإمامية على تقديم الإمام علي كرم اللّه وجهه على غيره في الإمامة، لاندراجها في عموم الأولوية. والجواب - على فرض صحة هذه الدلالة - أن العباس رضي اللّه عنه كان أولى بالإمامة، لأنه كان أقرب إلى رسول اللّه ﷺ من علي رضي اللّه عنه.

---

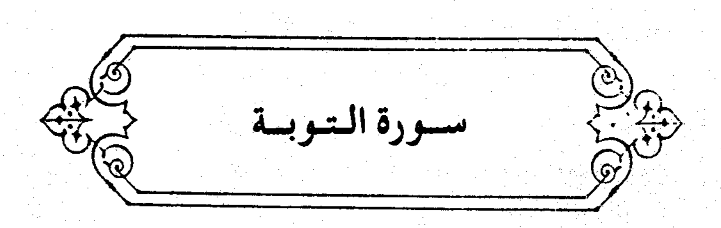
(١) أخرجه البخاري في: العلم، ١٧ - باب قول النبيّ ﷺ «اللهم! علمه الكتاب»، ونصه: اللهم! علمه الكتاب.

وفي: الوضوء، ١٠ - باب وضع الماء عند الخلاء، ونصه: اللهم فقهه في الدين.

وفي: فضائل أصحاب النبيّ ﷺ، ٢٤ - باب ذكر ابن عباس، ونصه: اللهم! علمه الحكمة.

وفي: الاعتصام بالكتاب والسنة، ونصه: اللهم! علمه الكتاب، والحديث رقم ٦٥. أما النص الذي أورده المؤلف فلم أعثر عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة التوبة

هي مدنية بإجماعهم. قيل: سوى آيتين في آخرها ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ..﴾ [التوبة: ١٢٨] فإنهما نزلتا بمكة. وفيه نظر. فقد روى البخاري [١] عن البراء أنها آخر سورة نزلت، واستثنى بعضهم ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ..﴾ [التوبة:١١٣] – لما ورد أنها نزلت في قوله ﷺ لأبي طالب: لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك. وهي مائة وتسع وعشرون آية ولهذه السورة عشرة أسماء:

١ – براءة: سميت بها لافتتاحها بها، ومرجع أكثر ما ذكر فيها إليها.

٢– التوبة: لتكرارها فيها، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [التوبة:٣]، ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ [التوبة:٥ و ١١]، وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: ٢٧]، وقوله: ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٤] وقوله ﴿عَسَى اللَّه انْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] وقوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [التوبة:١١٧]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا انَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] وهما أشهر أسمائها.

٣ – الفاضحة: أخرج البخاري [٢] عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس:

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٩ – سورة التوبة، ١ – باب قوله ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، حديث ١٩٤١.

(٢) أخرجه البخاري في: التفسير، ٥٩ – سورة الحشر، ١ – حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حديث رقم ١٨٦٩.

سورة التوبة، قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم ومنهم، حتى ظنوا أنها لم تُبْقِ أحداً منهم إلا ذكر فيها.

٤ – سورة العذاب: رواه الحاكم عن حذيفة، وذلك لتكرره فيها.

٥ – المقشقشة: رواه أبو الشيخ عن ابن عمر، والقشقشة معناها التبرئة، وهي مبرئة من النفاق.

٦ – المنقرة: أخرجه أبو الشيخ عن عبيد بن عمير لأنها نقرت عما في قلوب المشركين. أي بحثت.

٧ – البَحوت: بفتح الباء، صيغة مبالغة، رواه الحاكم عن المقداد.

٨ – الحافرة: ذكره ابن الغرس، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين، أي بحثت عنها، مجازاً.

٩ – المثيرة: رواه ابن أبي حاتم عن قتادة لأنها أثارت مثالبهم وعوراتهم أي أخرجتها من الخفاء إلى الظهور.

١٠ – المبعثرة: لأنها بعثرت أسرارهم أي أظهرتها.

١١ – المدمدمة: أي المهلكة لهم.

١٢ – المخزية.

١٣ – المنكلة: أي المعاقبة لهم.

١٤ – المشرِّدة: أي الطاردة لهم والمفرقة جمعهم.

وليس في السور أكثر أسماء منها ومن الفاتحة.

تنبيه:

للسلف في وجه ترك كتابة البسملة في هذه السورة والتلفظ بها أقوال:

١ – روى الحاكم في (المستدرك) عن ابن عباس قال: سألت عليّ بن أبي طالب: لِمَ لَمْ تكتب في (براءة) البسملة؟ قال: لأنها أمان. وبراءة نزلت بالسيف. أي فنزولها لرفع الأمان الذي يأبى مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه تعالى، مشفوعاً بوصف الرحمة. ولذا قالَ ابن عيينة: اسم الله سلام وأمان، فلا يكتب في النبذ والمحاربة. قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾ [النساء:٩٤]، قيل له : فإن النبيّ ﷺ قد كتب إلى أهل الحرب البسملة. قال: إنما ذلك ابتداءً منه يدعوهم، ولم ينبذ إليهم . ألا تراه يقول: سلام على من اتبع الهدى؟ فمن دعي إلى الله عزَّ وجلَّ فأجاب، ودعي إلى الجزية فأجاب،

فقد اتبع الهدى، فظهر الفرق. وكذا قال المبرد: إن التسمية افتتاح للخير، وأول هذه السورة وعيد ونقض عهود، فلذلك لم تفتتح بالتسمية.

٢ - عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا سطر البسملة،ووضعتموها في السبع الطوال، ماحملكم على ذلك؟ قال عثمان: كان رسول اللّه ﷺ كثيراً ما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، وكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وإذا نزلت عليه الآية يقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت (الأنفال) من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت (براءة) من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وظَنَنْتُ أنها منها. وقبض رسول اللّه ﷺ ولم يبين لنا أنها منها أو من غيرها، من أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب البسملة، ووضعتها في السبع الطوال. أخرجه أبو داود[١] والترمذي[٢] وقال: حديث حسن ورواه الإمام أحمد[٣] والنسائي وابن حبان في صحيحه، والحاكم وصححه.

قال الزجاج: والشبه الذي بينهما أن في (الأنفال) ذكر العهود، وفي (براءة) نقضها.

٣ - أخرج أبو الشيخ عن أبي روق قال: (الأنفال) و (براءة) سورة واحدة. ونقل مثله عن مجاهد، وأخرجه ابن أبي حاتم عن سفيان. وقال ابن لهيعة: يقولون إن (براءة) من (الأنفال)، ولذلك لم تكتب البسملة في (براءة)، وشبهتهم اشتباه الطرفين، وعدم البسملة. ويردّه تسمية النبيّ ﷺ كلا منهما.

وقال الحاكم: استفاض النقل أنهما سورتان.

وقال أبو السعود: اشتهارها بهذه الأسماء - يعني الأربعة عشر اسماً المتقدمة - يقضي بأنها سورة مستقلة، وليست بعضاً من سورة الأنفال، وادعاء اختصاص الاشتهار بالقائلين باستقلالها، خلاف الظاهر، انتهى.

---

(١) أخرجه أبو داود في: الصلاة، ١٢٢ - باب من لم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، باب من جهر بها، حديث رقم ٧٨٦.

(٢) أخرجه الترمذي في: التفسير، ٩ - سورة التوبة، ١ - حدثنا محمد بن بشار.

(٣) أخرجه في المسند ١/ ٥٧، حديث ٣٩٩.

ونقل صاحب (الإقناع) أن البسملة ثابتة (لبراءة) في مصحف ابن مسعود، قال: ولا يؤخذ بهذا.

وعن مالك: أن أولها لما سقط، سقط معه البسملة، فقد ثبت أنها كانت تعدل البقرة لطولها. كذا في (الإتقان).

ثم اعلم أن القراء أجمعوا على ترك قراءة البسملة في أول هذه السورة اتباعاً لسقوطها في الرسم من مصحف الإمام، إلا ابن منادر، فإنه يسمي في أولها، كما في مصحف ابن مسعود.

وقال السخاوي في (جمال القراء): إنه اشتهر تركها في أول براءة.

وروي عن عاصم التسمية في أولها، وهو القياس. لأن إسقاطها، إما لأنها نزلت بالسيف أو لأنهم لم يقطعوا بأنها سورة مستقلة، بل من الأنفال. ولا يتم الأول، لأنه مخصوص بمن نزلت فيه، ونحن إنما نسمي للتبرك. وأما الابتداء بما بعد أول براءة، فلا نصّ للمتقدمين من أئمة القراء فيه، وظاهر إطلاق كثير التخيير فيها، واختار السخاوي الجواز، وقال: ألا ترى أنه يجوز بغير خلاف أن يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَقَاتِلوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]. وإلى منعها ذهب الجعبري، وتعقبه السخاويّ فقال: إن كان نقلاً فمسلَّم، وإلا فردٌّ عليه، لأنه تفريع على غير أصل.

وقال ابن الجزري في (النشر): من اعتبر بقاء أثر العلة التي من أجلها حذفت البسملة أولها، وهي نزولها بالسيف، لم يبسمل. ومن لم يعتبر ذلك، أو لم يرها، بسمل بلا نظر. والله أعلم.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾

﴿بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ خبر لمحذوف، وتنوينه للتفخيم. أي هذه براءة. أو مبتدأ مخصص بصفة، وخبره **﴿إلى الذين﴾**. و(البراءة) في اللغة انقطاع العصمة، يقال: برئت من فلان براءة، أي انقطعت بيننا العصمة، ولم يبق بيننا علقة.

فإن قيل: حق البراءة أن تُنسب إلى المعاهِد، فلم لم تنسب إليهم، ونسبت إلى الله ورسوله؟

أجيب: أن ﴿عاهدتم﴾ إخبار عن سابق صدر من الرسول ﷺ والجماعة، فنسب إلى الكل، كما هو الواقع، وإن كان بإذن الله أيضاً.

وأما البراءة فهي إخبار عن متجدّد، فكيف ينسب إليهم، وهم لم يحدثوه بعد، وإنما يسند إلى من أحدثه؟ وقال الناصر: إن سر ذلك أن نسبة العهد إلى الله ورسوله ﷺ في مقام نسب فيه النبذ إلى المشركين، لا يحسن أدباً. الا ترى إلى وصية رسول الله ﷺ لأمراء السرايا حيث يقول لهم[1]: «إذا نزلت بحصن فطلبوا النزول على حكم الله، فأنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أصادفت حكم الله فيهم أوْ لا! وإن طلبوا ذمة الله، فأنزلهم على ذمتك. فَلأنْ تخفر ذمتك، خير من أن تخفر ذمة الله»!

فانظر إلى أمره ﷺ بتوقير ذمة الله، مخافة أن تخفر، وإن كان لم يحصل بعد ذلك الأمر المتوقع، فتوقير عهد الله، وقد تحقق من المشركين النكث، وقد تبرأ منه الله ورسوله بألا ينسب العهد المنبوذ إلى الله - أحرى وأجدر. فلذلك نسب العهد إلى المسلمين دون البراءة منه.

وقال الشهاب: ولك أن تقول: إنما أضاف العهد إلى المسلمين، لأن الله علم أن لا عهد لهم، فلذا لم يضف العهد إليه، لبراءته منهم، ومن عهدهم في الأزل. وهذا نكتة الإتيان بالجملة اسمية خبرية. وإن قيل: إنها إنشائية للبراءة منهم، ولذا دلت على التجدد. انتهى.

قال ابن إسحاق. نزلت براءة في نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العقد الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم، الا يصدّ عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام. وكان ذلك عهداً عامّاً بينه وبين الناس من أهل الشرك. وكانت بين ذلك عهود بين رسول الله ﷺ وبين قبائل من العرب خصائص إلى آجال مسماة، فنزلت فيه وفيمن تخلف من المنافقين عنه في (تبوك)، وفي قول من قال منهم، فكشف الله سرائر أقوام كانوا يَسْتَخْفُونَ بغير ما يظهرون.

---

(١) أخرجه مسلم في: الجهاد، حديث رقم ٣.
وأخرجه أبو داود في: الجهاد، ٨٢ - باب في دعاء المشركين، حديث رقم ٢٦١٢.
وأخرجه الترمذي في: السير، ٤٧ - باب ما جاء في وصية النبيّ ﷺ في القتال.
وأخرجه ابن ماجة في: الجهاد، ٣٨ - باب وصية الإمام، حديث رقم ٢٨٥٨.

وقال ابن كثير: وأول هذه السورة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة (تبوك)، وهمَّ بالحج. ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك. وأنهم يطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطتهم، وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة، ليقيم للناس مناسكهم، ويعلم المشركون الا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي بالناس ﴿ **براءة من الله ورسوله** ﴾، فلما قفل، أتبعه بعليّ بن أبي طالب ، ليكون مبلغاً عنه ﷺ، لكونه عَصَبةً له، كما سيأتي.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢﴾

﴿ **فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ** ﴾ أي فقولوا لهم: سيروا في الأرض بعد نبذنا العهد آمنين من القتل والقتال مدة أربعة أشهر، وذلك من يوم النحر إلى عشر يخلون من ربيع الآخر. والمقصود تأمينهم من القتل، وتفكرهم واحتياطهم، ليعلموا أنهم ليس لهم بعدها إلا السيف، وليعلموا قوة المسلمين إذ لم يخشوا استعدادهم لهم. وهذه الأربعة الأشهر كانت عهداً لمن له عهد دون الأربعة الأشهر، فاتمت له. فأما من كان له عهد موقت، فأجله إلى مدته، مهما كانت، لقوله تعالى: ﴿ **فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ** ﴾ [التوبة: ٤]، كما يأتي. روي هذا عن غير واحد، واختاره ابن جرير. وقال مجاهد: هذا تأجيل للمشركين مطلقاً، فمن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر رفع إليها، ومن كانت أكثر حط إليها، ومن كان عهده بغير أجل حُدَّ بها، ثم هو بعد ذلك حرب لله ولرسوله، يقتل حيث أدرك ويؤسر، إلا أن يتوب ويؤمن.

أقول: ولا يرد عليه إطلاق قوله تعالى: ﴿ **إِلَى مُدَّتِهِمْ** ﴾، لأن له أن يجيب بأن الإضافة للعهد، أي المدة المعهودة وهي الأربعة الأشهر. والله أعلم.

﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ** ﴾ يعني أن هذا الإمهال ليس لعجز عنكم، ولكن لحكمة ولطف بكم. أي فلا تفوتونه. وإن أمهلكم ﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ** ﴾ أي مُذِلُّهم بالقتل في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

﴿ وأذانٌ منَ اللهِ ورسُولِهِ إلى النّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأكْبَرِ أنَّ اللهَ بَرِيءٌ منَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ . (الأذان) بمعنى الإيذان، وهو الإعلام، كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء. وارتفاعه كارتفاع ﴿ براءة ﴾ وهذه الجملة معطوفة على مثلها، والفرق بين معنى الجملة الأولى والثانية أن تلك إخبار بثبوت البراءة، وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت، وإنما عُلقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين، وعلق الأذان بالناس، لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم، وأما الأذان فعامٌّ لجميع الناس، من عاهد ومن لم يعاهد، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث. كذا في (الكشاف).

ويوم الحج الأكبر: قيل يوم عرفة، وقيل يوم النحر.

قال ابن القيم: وهو الصواب، لأنه ثبت في الصحيحين[١] أن أبا بكر وعلياً رضي الله عنهما، أذّنا بذلك يوم النحر، لا يوم عرفة.

وفي سنن أبي داود [٢] بأصح إسناد أن رسول الله ﷺ قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر، وكذلك قال أبو هريرة وجماعة من الصحابة.

ويوم عرفة مقدمة ليوم النحر بين يديه، فإن فيه يكون الوقوف والتضرع والتوبة والابتهال والاستقالة، ثم يوم النحر تكون الوفادة والزيارة، ولهذا سمي طوافه طواف الزيارة، لأنه قد طهروا من ذنوبهم يوم عرفة، ثم أذن لهم يوم النحر في زيارته، والدخول عليه إلى بيته، ولهذا كان فيه ذبح القرابين، وحلق الرؤوس ، ورمي الجمار ومعظم أفعال الحج وعمل يوم عرفة، كالطهور والاغتسال بين يدي هذا اليوم، انتهى.

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٩ – سورة التوبة، ٢ – باب قوله: ﴿ فَسِيحُوا فِي الأرْضِ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ ﴾، و٣– باب قوله: ﴿ وأذَانٌ مِنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إلى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأكْبَرِ ﴾، حديث رقم ٢٤٥.
وأخرجه مسلم في: الحج، حديث رقم ٤٣٥.

(٢) أخرجه أبو داود في: المناسك، ٦٦ – باب يوم الحج الأكبر، حديث رقم ١٩٤٥ و ١٩٤٦.

تنبيه:

روى الأئمة ها هنا آثاراً كثيرة، نأتي منها على جوامعها:

قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: قدم رسول الله ﷺ من (تبوك) حين فرغ، فأراد الحج ثم قال: إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج. حتى لا يكون ذلك: فأرسل أبا بكر وعلياً فطافا بالناس في (ذي المجاز) وبأمكنتهم التي كانوا يتبايعون بها، وبالمواسم كلها، فآذنوا أصحاب العهد بأن يؤمنوا أربعة أشهر، فهي الأشهر المتواليات، عشرون من ذي الحجة، إلى عشر يخلون من ربيع الآخر، ثم لاعهد لهم، وآذن الناس كلهم بالقتال، إلى أن يؤمنوا.

وروى ابن إسحاق بسنده عن أبي جعفر محمد بن عليّ رضوان الله عليه قال: لما نزلت (براءة) على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه ليقيم للناس الحج، قيل له: يا رسول الله! لو بعثت بها إلى أبي بكر؛ فقال: لايؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي. ثم دعا عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال له: اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان. ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته. فخرج عليّ بن أبي طالب على ناقة رسول الله ﷺ (العضباء) حتى أدرك أبا بكر الصديق، فلما رآه أبو بكر بالطريق قال: أمير أو مأمور؟ فقال: بل مأمور. ثم مضيا.، فأقام أبو بكر للناس الحج، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية. حتى إذا كان يوم النحر قام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ، فقال: أيها الناس! إنه لا يدخل الجنة كافر، ولايحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته. وأجَّل الناس أربعة أشهر من يوم أذّن فيهم، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وبلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة. إلا أحدٌ كان له عند رسول الله ﷺ عهدٌ إلى مدة، فهو له إلى مدته. فلم يحجّ بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.

ثم قدما على رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: -فكان هذا من أمر (براءة) فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العامّ، وأهل المدة إلى الأجل المسمى.

وروى البخاري [١] عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر رضي اللّه عنه في تلك الحجة في المؤذّنين. بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

قال حميد: ثم أردف النبيُّ ﷺ بعليّ بن أبي طالب، فأمره أن يؤذن ببراءة.

قال أبو هريرة: فأذن معنا عليّ في أهل منى يوم النحر ببراءة، وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وفي رواية أخرى للبخاري[٢]، قال أبو هريرة: بعثني أبو بكر فيمن يؤذّن يوم النحر بمنى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان ويوم الحج الأكبر يوم النحر. وإنما قيل (الأكبر) من أجل قول الناس - للعمرة - الحج الأصغر. فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حجّ فيه رسول اللّه ﷺ مشرك. هذا لفظ البخاري في (كتاب الجهاد).

وروى الإمام أحمد[٣] عن أبي هريرة قال: كنت مع عليّ بن أبي طالب حين بعثه رسول اللّه ﷺ إلى أهل مكة بـ(براءة) فقال: ما كنتم تنادون؟ قال: كنا ننادي: أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول اللّه ﷺ عهد فإن أجله - أو أمدهُ - إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر، فإن اللّه بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك. قال: فكنت أنادي حتى صَحِلَ صوتي (صحِل الرجلُ وصَحِل صوتُهُ: بَحَّ).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي فإن تبتم أيها المشركون، من كفركم ورجعتم إلى توحيد اللّه وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد، فهو خير لكم من الإقامة على الشرك رأس الضلال والفساد ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي عن الإيمان وأبيتم إلا الإقامة على ضلالكم وشرككم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي غير فائتين أخذه وعقابه ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي حجدوا نبوّتك وخالفوا أمر ربهم ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي موجع يحل بهم. وفيه من التهكم والتهديد ما فيه، كيلا يظن أن عذاب الدنيا، لو فات وزال خلصوا من العذاب. بل العذابُ مُعَدٌّ لهم يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري في: الحج، ٦٧ - باب لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك، حديث رقم ٢٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في: الجزية والموادعة، ١٦ - باب كيف ينبذ إلى أهل العهد، حديث رقم ٢٤٥.

(٣) أخرجه في المسند ٢ / ٢٩٩، والحديث رقم ٧٩٦٤.

ثم استثنى تعالى من ضرب مدة التأجيل، لمن له عهد مطلق بأربعة أشهر، مَن له عهد مؤقت بتأجيله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

﴿ **إلاَّ الَّذينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشرِكِينَ ثُمَّ لَمْ ينْقُصُوكُمْ شَيْئاً** ﴾ أي من شروط الميثاق فلم يقتلوا منكم أحداً ولم يضروكم فقط. قال أبو السعود: وقرئ بالمعجمة، أي لم ينقضوا عهدكم شيئاً، من (النقض)، وكلمة (ثم) للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادي المدة ﴿ **وَلَمْ يُظَاهِرُوا** ﴾ أي لم يعاونوا ﴿ **عَلَيْكُمْ أحَداً** ﴾ أي عدواً من أعدائكم ﴿ **فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدتِهِمْ** ﴾ ثم حرّض تعالى على الوفاء بذلك، منبهاً على أنه من باب التقوى بقوله سبحانه ﴿ **إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ أي فاتقوه في ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

﴿ **فَإِذَا انْسَلَخَ** ﴾ أي انقضى ﴿ **الأَشْهُرُ الْحُرُمُ** ﴾ أي التي أبيح للذين عوهدوا فيها أن يسيحوا في الأرض وحرم فيها قتالهم ﴿ **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ** ﴾ أي من حلٍّ أو حرَمٍ – كذا قاله غير واحد – قال ابن كثير: هذا عام، والمشهور تخصيصه بغير الحرم، لتحريم القتال فيه، لقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلوكُمْ فيه فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ [البقرة:١٩١]. ﴿ **وَخُذُوهُمْ** ﴾ أي ائسروهم ﴿ **وَاحْصُرُوهُمْ** ﴾ أي احبسوهم في المكان الذي هم فيه، لئلا يتبسطوا في سائر البلاد ﴿ **وَاقْعُدُوا لَهُمْ** ﴾ أي لقتالهم ﴿ **كُلَّ مَرْصَدٍ** ﴾ أي طريق وممرّ ﴿ **فَإِنْ تَابُوا** ﴾ أي عن الكفر ﴿ **وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سبيلَهُمْ** ﴾ أي فاتركوا التعرض لهم ﴿ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ أي يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر.

تنبيهات:

الأول – ما ذكرناه من أن المراد (بالأشهر الحرام) أشهر العهد، هو الذي

اختاره الأكثرون. سماها (حرماً) لتحريم قتال المشركين فيها ودمائهم. فالألف واللام للعهد. ووضع المظهر موضع المضمر ليكون ذريعة إلى وصفها بالحرمة، تأكيداً لما ينبئ عنه إباحة السياحة من حرمة التعرض لهم، مع ما فيه من مزيد الاعتناء بشأنها. وقيل: المراد (بالأشهر الحرام): رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، روي ذلك عن ابن عباس والضحاك والباقر، واختاه ابن جرير. وضعف بأنه لا يساعده النظم الكريم، لأنه يأباه ترتبه عليه (بالفاء) فهو مخالف للسياق الذي يقتضي توالي هذه الأشهر.

قال ابن القيم: (الحرم) ها هنا هي أشهر التسيير، أولها يوم الأذان، وهو اليوم العاشر من ذي الحجة، وهو يوم الحج الأكبر، الذي وقع فيه التأذين بذلك، وآخرها العاشر من ربيع الآخر. وليست هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة:٣٦]، فإن تلك واحد فرد هو رجب، وثلاثة سرد وهي ذو القعدة وتالياه. ولم يسيّر المشركين في هذه الأربعة، فإن هذا لا يمكن، لأنها غير متوالية، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم. انتهى.

وقالوا: يلزم على هذا بقاء حرمة تلك الأشهر. وتكلف الجواب بنسخها، إما بانعقاد الإجماع عليه، أو بما صح من أنه ﷺ حاصر الطائف لعشر بقين من المحرم، مع أن هذا الإجماع كلاماً، وقد خالف بعضهم في بقاء حرمتها، إلا أنهم لم يعتدّوا به كما قاله في (العناية). وفيها: إن لك أن تقول: منع القتال في الأشهر الحرم في تلك السنة، لا يقتضي منعه في كل ما شابهها، بل هو مسكوت عنه، فلا يخالف الإجماع، ويكون حلّه معلوماً من دليل آخر.

وأقول: يظهر لي هذا الثاني وأن المراد بالأربعة الأشهر هي المعروفة، وأن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ هي هذه الأربعة، لأنها حيثما أطلقت في التنزيل لا تنصرف إلا إليها، فصرفها إلى غيرها يحتاج إلى برهان قاطع.

قال في (فتح البيان) ومعنى الآية على هذا وجوب الإمساك عن قتال من لا عهد له من المشركين في هذه الأشهر الحرم. وقد وقع النداء والنبذ إلى المشركين بعهدهم يوم النحر، فكان الباقي من الأشهر الحرم، التي هي الثلاثة المسرودة، خمسين يوماً، تنقضي بانقضاء شهر المحرم، فأمرهم الله بقتل المشركين حيث يوجدون، وبه قال جماعة من أهل العلم. انتهى.

ولا يقال: إن الباقي من الأشهر الحرم ثمانون يوماً، إذ الحج في تلك السنة كان في العاشر من ذي القعدة، بسبب النسيء، ثم صار في السنة المقبلة في العاشر من ذي الحجة، وفيها حج رسول الله ﷺ وقال[1]: إن الزمان قد استدار... الحديث - لأنا نقول: كان ذو القعدة عامئذ هو ذا الحجة بحسابهم، لا في الواقع، وكذلك ذو الحجة، المحرم، فعوملوا بحسابهم.

الثاني - قال السيوطي في (الإكليل) في قوله تعالى: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**﴾ هذه آية السيف الناسخة لآيات العفو والصفح والإعراض والمسالمة. انتهى.

وروي عن الضحاك أنها منسوخة بقوله تعالى في سورة محمد: ﴿**فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً**﴾ [محمد : ٤]. وردّه الحاكم بأنه لا شبهة في أن براءة نزلت بعد سورة محمد، ومقتضى كلام الحاكم، أنها لا ناسخة ولا منسوخة، قال: لأن الجمع ، من غير منافاة، ممكن فحيث ورد في القرآن ذكر الإعراض، فالمراد به إعراض إنكار، لا تقرير. وأما الأسر والفداء، فالمراد به أنه خيّر بين ذلك، لا أن القتل حتم، إذ لو كان حتماً، لم يكن للأخذ معنى بعد القتل. انتهى.

ويشمل عمومها مشركي العرب وغيرهم، واستدل بقوله تعالى: ﴿**وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ**﴾ على جواز حصارهم والإغارة عليهم وبياتهم.

الثالث - فهو من قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ تَابُوا...**﴾ الآية أن الأمر بتخلية السبيل معلق على شروط ثلاثة: التوبة، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فحيث لم تحصل جاز ما تقدم من القتل والأخذ والحصر. ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه، في قتال مانعي الزكاة، على هذه الآية الكريمة وأمثالها.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يرحم الله أبا بكر، ما كان أفقهه!

وفي الصحيحين [2] عن ابن عمر رضي الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله عنهما وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٩ - سورة التوبة، ٨ - باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾، حديث رقم ٥٩ عن أبي بكرة.

(٢) أخرجه البخاري في: الإيمان، ١٧ - باب ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، حديث رقم ٢٤.
وأخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ٣٦.

وروى الإمام أحمد (١) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإذا شهدوا ، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم. ورواه البخاري وغيره.

الرابع – ذكر ابن القيمّ خلاصة بديعة في سياق ترتيب هديه ﷺ مع الكفار والمنافقين، من حين بعث ، إلى حين لقي الله عزَّ وجلَّ، مما يؤيد فهم ما تشير إليه هذا السورة، قال رحمه الله:

أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ١– ٢] فنبأه بقوله ﴿ اقرأ﴾ [العلق: ١]، وأرسله بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح، ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكفّ عمن لم يقاتله. ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله. ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة. فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد. وأمر أن يقاتل من نقض عهده، ولما نزلت سورة (براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوّه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، أو يدخلوا في الإسلام. وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام:

قسماً أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم.

وقسماً لهم عهد موقت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم.

---

(١) أخرجه في المسند ٣/١٩٩ .

وقسماً لم يكن لهم عهد، ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم. فقتل الناقض لعهده، وأجّل من لا عهد له أو له عهد مطلق، أربعة أشهر، وأمره أن يتم للموفي بعهده إلى مدته، فاسلم هؤلاء كلهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم. وضرب على أهل الذمة الجزية فاستقرّ أمر الكفار معه بعد نزول (براءة) على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة. ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام ، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن. وخائف محارب.

وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويَكِلَ سرائرهم إلى اللّه، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمر أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهي أن يصلّي عليهم وأن يقوم على قبورهم، وأخبره أنه إن استغفر لهم أو لم يستغفر لهم، فلن يغفر اللّه لهم. فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين. انتهى.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كَلامَ اللّه ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ﴾: أي وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرتَ بقتالهم، أي استأمنك بعد انقضاء أشهر العهد، فاجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام اللّه، أي القرآن الذي تقرؤه عليه، ويتدبره، ويطلع على حقيقة الأمر، وتقوم عليه حجة اللّه به، فإن أسلم ثبت له ما للمسلمين، وإن أبى فإنه يردّ إلى مأمنه ودراه التي يأمن فيها، ثم قاتله إن شئت. وقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ**﴾ يعني الأمر بالإجارة وإبلاغ المأمن، بسبب أنهم قوم لا يعلمون، أي جهلة، فلا بد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا الحق، ولا يبقى لهم معذرة.

تنبيهات:

الأول – دلت الآية على أن المستأمن لا يؤذى، وأنه يمكّن من العود من غير

غدر به ولا خيانة، ولذا ورد في الترهيب من عدم الوفاء بالعهد والغدر ما يزجر أشد الزجر. فروى البخاري في (تاريخه) والنسائي عن النبيّ ﷺ قال: « من أمَّنَ رجلاً على دمه فقتله، فأنا بريء من القاتل وإن كان المقتول كافراً ».

وروى أحمد والشيخان[1] عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة.

قال ابن كثير: من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام، في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة، أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطي، ما دام متردداً في دار الإسلام، إلى أن يرجع إلى مأمنه ووطنه.

قال الحاكم: وإنما يجار ويؤمّن إذا لم يعلم أنه يطلب الخداع والمكر، لأنه تعالى علل لزوم الإجارة بقوله ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾.

الثاني – قال الحاكم: تدل الآية على أنه يجوز للكافر دخول المسجد لسماع كلام اللّه.

الثالث – استدل بهذه الآية من ذهب إلى كلام اللّه بحرف وصوت قديمين، وهم الحنابلة، ومن وافقهم كالعضد. قالوا: لأن منطوق الآية يدل على أن كلام اللّه يسمعه الكافر والمؤمن والزنديق والصديق، والذي يسمعه جمهور الخلق ليس إلا هذه الحروف والأصوات. فدل ذلك على أن كلام اللّه ليس هذه الحروف والأصوات. والقول بأن كلام اللّه شيء مغاير لها باطل، لأن رسول اللّه ﷺ ما كان يشير بقوله (كلام اللّه) إلا لها، وقد اعترف الرازي بقوة هذا، لإلزام من خالف فيه، وقد مضى لنا في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [النساء: ١٦٤] في آخر سورة النساء، فارجع إليه.

الرابع – قال الرازي: دلت الآية على أن التقليد غير كاف في الدين، وأنه لا بد من النظر والاستدلال، وذلك لأنه لو كان التقليد كافياً، لوجب أن لا يمهل هذا الكافر، بل يقال له: إما أن تؤمن، وإما أن نقتلك. فلما لم يُقَلْ له ذلك، بل أمهل وأزيل الخوف عنه، ووجب تبليغه مأمنه – علم أن ذلك لأجل عدم كفاية التقليد في الدين، وأنه لا بد من الحجة والدليل، فلذا أمهل ليحصل له النظر والاستدلال.

---

(١) أخرجه البخاري في: الجزية والموادعة، ٢٢ – باب إثم الغادر للبر والفاجر، حديث رقم ١٥٠٤.
وأخرجه مسلم في: الجهاد والسير، حديث رقم ١٤.

ثم بيّن تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونَظِرَتَهُ إياهم أربعة أشهر، ثم بعدها السيف المرهف بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

﴿ **كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ** ﴾ أي أمان ﴿ **عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ** ﴾ أي وهم كافرون بهما، فالاستفهام بمعنى الإنكار، والاستبعاد لأن يكون لهم عهد ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾ يعني أهل مكة الذين عاهدهم رسول اللّه ﷺ يوم الحديبية على ترك الحرب معهم عشر سنين ﴿ **فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ** ﴾ أي فما داموا مستقيمين على عهدهم، مراعين لحقوقكم، فاستقيموا لهم على عهدهم ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ أي فاتقوه في نقض عهد المستقيمين على عهدهم.

قال ابن كثير: وقد فعل رسول اللّه ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد، ومالأوا حلفاءهم، وهم بنو بكر، على خزاعة، أحلاف رسول اللّه ﷺ، فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول اللّه ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح اللّه عليه البلد الحرام، ومكنه من نواصيهم، وللّه الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم، بعد القهر و الغلبة عليهم، فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره، وفرَّ من رسول اللّه ﷺ، بعث إليه بالأمان والتسيير في أربعة أشهر، يذهب حيث شاء. ومنهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم اللّه للإسلام.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾

﴿ **كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ** ﴾ أي يظفروا بكم بعد ما سبق لهم من تأكيد الإيمان والمواثيق ﴿ **لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ** ﴾ أي قرابة ويميناً ﴿ **وَلاَ ذِمَّةً** ﴾ أي عهداً. وهذه الجملة

مردودة على الآية الأولى، أي كيف يكون لهم عهد، وحالهم ما ذكر؟ وفيه تحريض للمؤمنين على التبرؤ منهم، لأن من كان أسير الفرصة، مترقباً لها، لايرجى منه دوام العهد.

قال الناصر: ولما طال الكلام باستثناء الباقين على العهد، أعيدت (كيف) تطريه للذكر، وليأخذ بعض الكلام بحجزة بعض. انتهى.

ثم استأنف تعالى بيان حالهم المنافية لثباتهم على العهد بقوله ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ أي ما تتفوه به أفواههم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي متمردون، لا عقيدة تزعمهم، ولا مروءة تردعهم. وتخصيص الأكثر، لما في بعض الكفرة من التفادي عن الغذر، والتعفف عما يجرّ إلى أحدوثة السوء.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩﴾

﴿اشْتَرَوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي استبدلوا بها ﴿ثَمَناً قَلِيلاً﴾ أي من متاع الدنيا. يعني أهويتهم الفاسدة ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي فعدلوا عنه أو صرفوا غيرهم ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴿١٠﴾

﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلّاً ولاَ ذِمَّةً وأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ أي المجاوزون الغاية في الظلم والمساوئ.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾

﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ أي مما هم عليه من الكفر ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي فهم إخوانكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، فعاملوهم معاملة الإخوان، وفيه من استمالتهم واستجلاب قلوبهم ما لا مزيد عليه.

وقوله ﴿وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ جملة معترضة للحث على تأمل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين وعلى المحافظة عليها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

﴿وَإِنْ نَكَثُوا﴾ أي نقضوا ﴿أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ أي فقاتلوهم. وإنما أوثر ما عليه النظم الكريم، للإيذان بأنهم صاورا بذلك ذوي رياسة وتقدم في الكفر، أحقاء بالقتل والقتال. وقيل: المراد بالأئمة رؤساؤهم وصناديدهم وتخصيصهم بالذكر إما لأهمية قتلهم، أو للمنع من مراقبتهم، ولكونهم مظنة لها أو للدلالة على استئصالهم، فإن قتلهم غالباً يكون بعد قتل من دونهم أفاده أبو السعود. ﴿إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ جمع يمين اي لا عهود لهم على الحقيقة، حيث لا يراعونها ولا يعدّون نقضها محذوراً، فهم، وإن تفوهوا بها، لا عبرة بها. وقرئ ﴿لا إيمان﴾ بكسر الهمزة، أي لا إسلام ولا تصديق لهم، حتى يرتدعوا عن النقض والطعن ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ أي عن الكفر والطعن ويرجعون إلى الإيمان.

تنبيه:

قال السيوطي في (الإكليل): استدل بهذه الآية من قال إن الذمّي يقتل إذا طعن في الإسلام أو القرآن أو ذكر النبيّ ﷺ بسوء، سواء شرط انتقاض العهد به أم لا. واستدل من قال بقبول توبته بقوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ . انتهى.

ثم حض على قتالهم بتهييج قلوب المؤمنين وإغرائهم بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾

﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أي التي حلفوها في المعاهدة ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ يعني من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة،حسبما ذكر في قوله

تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأنفال: ٣٠] فيكون نعياً عليهم جنايتهم القديمة ﴿ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي بالقتال يوم بدر، حين خرجوا لنصر عيرهم فما نجت وعلموا بذلك، استمروا على وجوههم طلباً للقتال، بغياً وتكبراً. وقيل: بنقضهم العهد، وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة، أحلاف رسول الله ﷺ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان. قاله ابن كثير.

وقال الزمخشري: أي وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة، لأن رسول الله ﷺ جاءهم أولاً بالكتاب المنير، وتحداهم به، فعدلوا عن المعارضة، لعجزهم عنها، إلى القتال، فهم البادئون بالقتال، والبادئ أظلم. فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله، وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ أي أتخافون أن ينالكم منهم مكروه حتى تتركوا قتالهم ﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ بمخالفة أمره وترك قتالهم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ يعني أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه، ولا يبالي بمن سواه كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٣٩]. قاله الزمخشري – وفيه من التشديد ما لا يخفى.

ثم عزم تعالى على المؤمنين الأمر بالقتال لحكمته بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ ﴾ أي بآلام الجراحات والموت ﴿ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ أي تغليباً لكم عليهم ﴿ وَيُخْزِهِمْ ﴾ أي بالأسر والاسترقاق، فيجتمع في حقهم العذاب الحسي والمعنوي ﴿ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي: ممن لم يشهد القتال.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي بما كابدوا من المكاره والمكايد ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي فيحصل لكم أجرهم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي في أفعاله وأوامره. وقد أنجز الله سبحانه لهم هذه المواعيد كلها، فكان إخباره ﷺ بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة دالة على صدقه وصحة نبوته.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تُتْرَكُوا﴾ أي على ما أنتم عليه، ولا تؤمروا بالجهاد ﴿وَلَمَّا يَعْلَم اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دونِ اللَّهِ وَلاَ رسُولِه وَلاَ الْمُؤْمنِينَ وَلِيجَةً﴾. أي بطانه يفشون إليهم أسرارهم. والواو في (ولما) حالية، و(لما) للنفي مع التوقع، والمراد من نفي العلم نفي المعلوم بالطريق البرهاني، إذ لو شم رائحة الوجود، لعلم قطعاً، فلما يعلم لزم عدمه قطعاً ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ عطف على ﴿جاهدوا﴾ داخل في حيز الصلة. والمعنى: انكم لا تتركون على ما أنتم عليه، والحال أنه لم يتبين الخّلص من المجاهدين منكم من غيرهم، بل لا بد أن تختبروا، حتى يظهر المخلصون منكم، وهم الذين جاهدوا في سبيل اللّه، لوجه اللّه، ولم بتخذوا وليجة، أي بطانة من الذين يضادون رسول اللّه ﷺ، والمؤمنين رضوان اللّه عليهم. ودلت (لما) على أن تبين ذلك وإيضاحه متوقع كائن، وإن الذين لم يخلصوا دينهم للّه يميز بينهم وبين المخلصين، وفي الاية اكتفاء بأحد القسمين، حيث لم يتعرض للمقصرين، وذلك لأنه بمغزل من الاندراج تحت إرادة أكرم الأكرمين، وهذا كما قال:

وَمَا أَدْرِي إذا يَمَّمْتُ أرضاً أريدُ الخيرُ أيُّهُمَا يَلنِي

وقد قال اللّه تعالى في الآية الأخرى: ﴿آلم أَحَسِبَ النَّاسُ أنْ يُتْرَكُوا أنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذينَ مِنْ قَبلِهمْ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الَّذينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ – ٣]. وقال تعالى: ﴿أمْ حسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ.. ﴾ [البقرة: ٢١٤] الآية – قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمنِينَ عَلَى مَا أنْتُم عَلَيْه.. ﴾ [آل عمران: ١٧٩] الآية – وكلها تفيد أن مشروعية الجهاد اختبار المطيع من غيره.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي ما صحّ لهم وما استقام ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ أي التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، أي يعمروا شيئاً منها، فهو جمع مضاف في سياق النفي، ويدخل فيه المسجد الحرام دخولاً أولياً، إذ نفي الجمع يدل على النفي عن كل فرد، فيلزم نفيه عن الفرد المعّين بطريق الكناية. وقرئ (مسجد الله) بالتوحيد، تصريحاً بالمقصود، وهو المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده، لا شريك له، وأسسه خليل الرحمن.

قال في (البصائر): (يعمر) إما من العمارة التي هي حفظ البناء، أو من العمرة التي هي الزيارة، أو من قولهم: عمرت بمكان كذا أي أقمت به. انتهى.

﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ أي بحالهم وقالهم، وهو حال من الضمير في ﴿يَعْمُرُوا﴾ ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ [الأنفال: ٣٤]﴾ ولهذا قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ أي لم يعبد إلا الله ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي إلى الجنة. وإبراز اهتدائهم مع ما بهم من الصفات السنية، في معرض التوقع، لقطع أطماع الكفرة عن الوصول إلى مواقف الاهتداء، والانتفاع بأعمالهم التي يحسبون أنهم في ذلك محسنون، ولتوبيخهم بقطعهم أنهم مهتدون. فإن المؤمنين، ما بهم من هذه الكمالات، إذا كان أمرهم دائراً بين (لعلّ وعسى)، فما بال الكفرة وهم هم، وأعمالهم أعمالهم!! وفيه لطف للمؤمنين، وترغيب لهم في ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء، ورفض الاغترار بالله تعالى . كذا حرره أبو السعود -.

وقال الناصر: وأكثرهم يقول: إن (عسى) من الله واجبة، بناء منهم على أن استعمالها غير مصروفة للمخاطبين. والحق أن الخطاب مصروف إليهم، كما قال الزمخشري. أي فحال هؤلاء المؤمنين حال مرجوّة، والعاقبة عند الله معلومة، ولله عاقبة الأمور.

تنبيهات:

الأول – قال الزمخشريّ: (العمارة) تتناول زمّ ما استرمّ منها وقمّها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وتعظيمها واعتيادها للعبادة والذِّكر. ومن الذكر درس العلم، بل هو أجلّه وأعظمه. وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا، فضلاً عن فضول الحديث.

روى البخاري[١] ومسلم عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: من غدا إلى المسجد أو راح، أعدّ اللّه له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح.

ورويا [٢] أيضاً عن عثمان بن عفان قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: من بنى للّه مسجداً يبتغي به وجه اللّه تعالى، بنى اللّه له بيتاً في الجنة.

وأخرج الترمذي[٣] عن أبي سعيد أن رسول اللّه ﷺ قال: إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ..﴾ الآية.

الثاني – إنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ لدخوله في الإيمان باللّه، فتُرك للمبالغة في ذكر الإيمان بالرسالة، دلالة على أنهما كشيء واحد، إذا ذكر أحدهما فهم الآخر. على أنه أشير بذكر المبدأ والمعاد إلى الإيمان بكل مايجب الإيمان به، ومن جملته رسالة ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة:٨]. كذا في (العناية).

الثالث – في تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر، تفخيم لشانهما وحث على التنبه لهما.

الرابع – دلت الآيتان على أن عمل الكفار محبط لا ثواب فيه.

وقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في: الاذان، ٣٧ – باب فضل من غدا إلى المسجد ومن راح، حديث ٤١٧.
أخرجه مسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٢٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في: الصلاة، ٦٥ – باب من بنى مسجداً، حديث ٢٩٧
وأخرجه مسلم في: المساجد ومواضع الصلاة حديث رقم ٢٤ و ٢٥.

(٣) أخرجه الترمذي في: التفسير، ٩ – سورة التوبة، ٨ – حدثنا أبو كريب.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ روى العوفي في (تفسيره) عن ابن عباس أن المشركين قالوا: عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد. وكانوا يفخرون بالحرم، ويستكبرون به، من أجل أنهم أهله وعماره. فخير اللهُ الإيمانَ والجهاد مع رسوله، على عمارة المشركين البيت، قيامهم على السقاية، وبيّن أن ذلك لا ينفعهم مع الشرك، وأنهم ظالمون بشركهم، لا تغني عمارتهم شيئاً.

قال اللغويون: (السقاية) بالكسر والضم موضع السقي. وفي (التهذيب): هو الموضع المتخذ فيه الشراب في المواسم وغيرها. انتهى.

وفي (التاج): سقاية الحاج ما كانت قريش تسقيه للحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء، وكان يليها العباس رضي الله عنه في الجاهلية والإسلام. انتهى.

وروى الإمام مسلم(١) عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر النبيّ ﷺ فقال رجل: ما أبالي الاّ أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام؛ وقال الآخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم؛ فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر النبيّ ﷺ وهو يوم الجمعة. ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. فأنزل الله عز وجل ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ...﴾ الآية.

ورواه عبد الرزاق في (مصنفه) ولفظه: إن رجلاً قال: ما أبالي الا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي الا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام... الحديث.

قال بعضهم: فظاهر هذه الرواية أن المفاضلة كانت بين بعض المسلمين المؤثرين للسقاية والعمارة على الهجرة والجهاد ونظائرهما، ونزلت الآية في ذلك، مع أن الرواية السالفة عن ابن عباس تنافيه. وكذا تخصيص ذكر الإيمان بجانب المشبه

---

(١) أخرجه مسلم في: الإمارة، حديث رقم ١١١.

به، وكذا وصفهم بالظلم لأجل تسويتهم المذكورة.

وأقول: لا منافاة. وظاهر النظم الكريم فيما قاله ابن عباس لا يرتاب فيه، وقول النعمان (فانزل الله) بمعنى أن مثل هذا التحاور نزل فيه فيصل متقدم، وهو هذه الآية، لا بمعنى انه كان سبباً لنزولها كما بيناه غير ما مرة. وهذا الاستعمال شائع بين السلف، ومن لم يتفطن له تتناقض عنده الروايات، ويحار في المخرج، فافهم ذلك وتفطن له.

وتأييد أبي السعود نزولها في المسلمين بما أطال فيه، ذهول عن سباق الآية وعن سياقها، فيما صدعت فيه من شديد التهويل، وعن لاحقها في درجات التفضيل، وقصر الفوز والرحمة والرضوان على المشبه به.

لطيفة:

لا يخفى أن السقاية والعمارة مصدران لا يتصور تشبيههما بالأعيان، فلا بد من تقدير مضاف في أحد الجانبين. أي أجعلتم أهلهما كمن آمن بالله... الخ ويؤيده قراءة من قرأ (سقاة الحاج وعَمَرة المسجد الحرام) أو: أجعلتموهما كإيمان من آمن... الخ.

قال أبو البقاء: الجمهور على (سقاية) بالياء، وصحّت الياء لما كانت بعدها تاء التأنيث.

ثم بيّن تعالى مراتب فضل المؤمنين، إثر بيان عدم الاستواء وضلال المشركين وظلمهم، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ اي من أهل السقاية والعمارة، وهم، وإن لم يكن لهم درجة عند الله، جاء على زعمهم ومدعاهم. قاله في (العناية). **﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾** أي لا أنتم. أي المختصون بالفوز دونكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم نهاهم تعالى عن موالاة المشركين، وإن كانوا أقرب الأقربين، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي بطانة وأصدقاء، تفشون إليهم أسراركم، وتمدحونهم وتذبون عنهم **﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا﴾** أي اختاروا **﴿الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** أي لوصفهم الموالاة في غير موضعها، ولتعديهم وتجاوزهم عما أمر الله به.

ثم أشار تعالى إلى أن مقتضى الإيمان ترك الميل الطبيعي إذا كان مانعاً من محبة الله، ومحبة واسطة الوصول إليه، ومحبة ما يعلي دينه بقوله

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي أقاربكم الأدنون، أو قبيلتكم. قال أهل اللغة: عشيرة الرجل بنو أبيه الأدنون، أو قبيلته،

كالعشير – بلا هاء – مأخوذة من (العشرة) أي المعاشرة، لأنها من شأنهم، أو من (العَشَرة) الذي هو العدد لكمالهم، لأنها عدد كامل ﴿وأَموَالٌ اقْتَرفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها ﴿وتَجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَهَا﴾ أي فوات وقت نفادها بفراقكم لها ﴿وَمَسَاكِنَ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي منازل تعجبكم الإقامة فيها من الدور والبساتين ﴿أَحبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللّه﴾ أي المنعم بالكل ﴿ورَسُولِهِ﴾ وهو واسطة نعمه ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ أي مما يعلي دينه ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي انتظروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي بقضائه، وهو عذاب عاجل، أو عقاب آجل، أو فتح مكة، وهذا أمر تهديد وتخويف. أي فارتقبوا قهر اللّه بدعوى محبته بالإيمان، وتكذيبها بترجيح محبة غيره ﴿وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن الطاعة في موالاة المشركين والمؤثرين لما ذكر على رضاه تعالى.

تنبيهات:

الأول – قال بعضهم: ثمرة الآيتين تحريم موالاة الكفار، ولو كانوا أقرباء، وأنهم كبيرة لوصف متوليهم بالظلم، ووجوب الجهاد، وإيثاره على كل هذه المشتهيات المعدودة طاعة للّه ورسوله.

الثاني – قال الرازي: الآية الثانية تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين، وبين جميع مهمات الدنيا. وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا.

الثالث – في هذه الآية وعيد وتشديد، لأن كل أحد قلما يخلص منها، فلذا قيل إنها أشد آية نعت على الناس كما فصّله في (الكشاف) بقوله:

وهذه آية شديدة لا ترى أشدّ منها، كأنها تنعي على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين فلينصف أورعُ الناس وأتقاهم من نفسه، هل يجد عنده من التصلب في ذات اللّه، والثبات على دين اللّه، ما يستحبّ له دينه على الآباء والأبناء والأخوات والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا، ويتجرّد منها لأجله؟ أم يزوي اللّه عنه أحقر شيء منها لمصلحته فلا يدري أيَّ طرفيه أطول؟ ويغويه الشيطان عن أجلّ حظ من حظوظ الدين، فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيّره؟!

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي في مواقف حروب كثيرة، ووقعات شهيرة، كغزوة بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة. وكانت غزوات رسول الله ﷺ - على ما ذكر في الصحيحين[1] - من حديث زيد بن أرقم، تسع عشرة غزوة. زاد بريدة في حديث: قاتل في ثمان منهن ويقال: إن جميع غزواته وسراياه وبعوثه سبعون، وقيل ثمانون ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ أي فاعتمدتم عليها، حيث قلتم: لن نغلب اليوم من قلة ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾ أي من أمر العدوّ، مع قلتهم ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي برحبها وسعتها. والباء للملابسة والمصاحبة. أي ضاقت، مع سعتها، عليكم. وهو استعارة تبعية، إما لعدم وجدان مكان يقرّون به آمنين مطمئنين من شدة الرعب، أو انهم لا يجلسون في مكان، كما لا يُجلَس في المكان الضيق ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ أي منهزمين.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ﴾ أي ما تسكنون به، وتثبتون من رحمته ونصره، وانهزام الكفار، واطمئنان قلوبهم للكرّ بعد الفرّ ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الذين انهزموا. وإعادةُ الجارّ للتنبيه على اختلاف حاليهما. أو الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ ولم يفروا: أو على الكل، وهو الأنسب. ولا ضير في تحقيق أصل السكينة في الثابتين من قبل، والتعرض لوصف الإيمان للإشعار بعليّة الإنزال. افاده أبو السعود ﴿وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ يعني الملائكة ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اي بالقتل والأسر والسبي ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ لكفرهم في الدنيا.

---

(١) أخرجه البخاري في: المغازي، ١ - باب غزوة العُشَيْرة أو العُسَيْرة حديث رقم ١٨٣٩.
ومسلم في: الجهاد والسير، حديث رقم ١٤٣.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي منهم، لحكمة تقتضيه. أي يوفقه للإسلام ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ أي يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصي ﴿رَحِيمٌ﴾ أي يتفضل عليهم ويثيبهم.

تنبيهات:

الأول - فيما نقل في غزوة (حنين)، وتسمى غزوة (أوطاس)، وهما موضعان بين مكة والطائف، فسميت الغزوة باسم مكانها، وتسمى غزوة (هوازن)، لأنهم الذين أتوا لقتال رسول الله ﷺ وكانت هذه الواقعة بعد فتح مكة، في شوال سنة ثمان من الهجرة، فإن الفتح كان لعشر بقين من رمضان، وبعده أقام رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة ليلة، وهو يقصر الصلاة، فبلغه أن هوازن وثقيف جمعوا له، وهم عامدون إلى مكة، وقد نزلوا (حنيناً) وكانوا، حين سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ بالمدينة، يظنون أنه إنما يريهم. فاجتمعت هوازن إلى مالك بن عوف من بني نصر، وقد أوعب معه بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن وبني جُشَم بن معاوية وبني سعد بن بكر، وناساً من بني هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية والأحلاف وبني مالك بن ثقيف بن بكر. وفي جشم دريد بن الصمة رئيسهم وكبيرهم. شيخ كبير، ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب، وكان شجاعاً مجرباً، وجميع أمر الناس إلى مالك ابن عوف. فلما أتاهم أن رسول الله ﷺ فتح مكة، أقبلوا عامدين إليه، فأجمع السير إلى رسول الله ﷺ، وساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، يرى أنه أثبت لموقفهم. فلما نزل بأوطاس، اجتمع إليه الناس، فقال دريد: بأي وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نِعْمَ مجال الخيل، لا حَزْنٌ ضِرسٌ، ولا سهلٌ دَهْسٌ. مالي أسمع رغاءَ البعير، ونُهَاق الحمير، ويُعَار الشاء وبكاء الصغير؟ قالوا: ساق مالك مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم ليقاتلوا عنها، فقال: راعيَ ضأن والله! وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسلاحه. وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك! ثم قال: ما فعلت كعب وكلاب؟ قالوا: لم يشهدها أحدٌ منهم. قال: غاب الحدّ والجِدّ، لو كان يوم علاءٍ ورفعةٍ لم يغب عنهم كعب ولا كلاب، ولودِدْت أنكم فعلتم ما فعلا. فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو وعوف ابنا عامر. قال: ذانك

الجذَعان، لا ينفعان ولا يضران!ثم أنكر على مالك رأيه في ذلك وقال له: لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم، وعليا قومهم، ثم ألق الصبيان على متون الخيل شيئاً، فإن كانت لك، لحق بك من ورائك، وإن كانت لغيرك، كنت قد أحرزت أهلك ومالك. قال: لا، واللّه لا أفعل ذلك، إنك قد كبِرْت، وكبر عقلك. واللّه لتطيعنّني يا معشر هوازن، أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري! وكره أن يكون لدريد بن الصمة فيها ذكر أو رأي. قالوا أطعناك. فقال دريد: هذا يوم لم أشهده، ولم يفتني. ثم قال مالك للناس: إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدة رجل واحد. وبعث عيوناً من رجاله فأتوه، وقد تفرقت أوصالهم، فقال: ويلكم! ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضاً، على خيل بُلْق: واللّه ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى. فو اللّه ما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد.

فلما سمع بهم نبيّ اللّه ﷺ، بعث عبد اللّه بن أبي حدرد الأسلميّ يستعلم خبرهم، فجاءه وأطلعه على جلية الخبر، وأنهم قاصدون إليه، فاستعار رسول اللّه ﷺ من صفوان بن أمية مائة درع – وقيل أربعمائة – وخرج في اثني عشر ألفاً من المسلمين: عشرة آلاف الذين صحبوه من المدينة، وألفان من مسلمة الفتح، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية، ومضى لوجهه، وفي جملة من اتبعه عباس بن مرداس والضحاك بن سفيان الكلابي، وجموع من عبس وذبيان، ومزينة، وبني أسد. ومرّ في طريقه بشجرة سدر خضراء، وكان لهم في الجاهلية مثلها، يطوف بها الأعراب ويعظمونها، ويسمونها ذات أنواط فقالوا[1]: يا رسول اللّه! اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط، فقال لهم: قلتم كما قال قوم موسى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨] والذي نفسي بيده! لتركبن سنن من كان قبلكم. ثم نهض حتى أتى وادي حنين من أودية تهامة، وهو واد حزن فتوسطوه في غبش الصبح، وقد كمنت هوازن في جانبيه، فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون لا يلوي أحد على أحد، وناداهم ﷺ فلم يرجعوا، وثبت معه أبو بكر وعمر وعلي والعباس وأبو سفيانا بن الحرث وابنه جعفر، والفضل وقثم ابنا العباس، وجماعة سواهم، والنبيّ ﷺ على بغلته البيضاء (دلدل) والعباس آخذ بشكائمها ، وكان جهير الصوت فأمره رسول اللّه ﷺ أن ينادي بالأنصار وأصحاب الشجرة، (قيل: والمهاجرين) فما سمعوا الصوت وذهبوا

(١) أخرجه الترمذي في: الفتن، ١٨ – ما جاء: لتركبنّ سنن من كان قبلكم، عن أبي واقد الليثي.

ليرجعوا، صدهم ازدحام الناس عن أن يثنوا رواحلهم، فاستقاموا وتناولوا سيوفهم وتراسهم، واقتحموا عن الرواحل راجعين إلى النبيّ ﷺ، وقد اجتمع منهم حواليه نحو المائة، فاستقبلوا هوازن، والناس متلاحقون، واشتد الحرب، وحمي الوطيس. ولما غَشَوْا رسول اللّه ﷺ نزل عن بغلته، ثم قبض قبضة من تراب الأرض، ثم استقبل به وجوههم وقال: شاهت الوجوه! فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه، ثم صدق المسلمون الحملة عليهم، وقذف اللّه في قلوب هوازن الرعب. فلم يملكوا أنفسهم، فولوا منهزمين، ولحق آخر الناس، وأسرى هوازن مغلولة بين يديه، وغنم المسلمون عيالهم وأموالهم، واستحرَّ القتل في بني مالك من ثقيف، فقتل منهم يومئذ سبعون رجلاً، وانحازت طوائف هوازن إلى أوطاس، واتبعتهم طائفة من خيل المسلمين الذين توجهوا من (نخلة)، فادركوا فيهم دريد بن الصمة فقتلوه. وبعث ﷺ إلى من اجتمع بأوطاس من هوازن، أبا عامر الأشعري عمّ أبي موسى، فقاتلهم، وقتل بسهم رماه به سلمة بن دريد بن الصمة، فأخذ أبو موسى الراية، وشدّ على قاتل عمه، فقتله، وانهزم المشركون، وانفضّت جموع أهل هوازن كلها، واستشهد من المسلمين يومئذ أربعة. ثم جُمِعت إلى رسول اللّه ﷺ سبايا حنين وأموالها، فامر بها، فحبست (بالجعرانة) بنظر مسعود بن عمرو الغفاري. وسار ﷺ من فوره إلى الطائف، فحاصر بها (ثقيف) خمس عشرة ليلة، وقاتلوا من وراء الحصون، وأسلم من كان حولهم من الناس، وجاءت وفودهم إليه. ثم انصرف ﷺ عن الطائف، ونزل الجعرانة فيمن معه من الناس وأتاه هناك وفد هوازن، مسلمين راغبين، فخيرهم بين العيال والأبناء والأموال، فاختاروا العيال والأبناء، وكلموا المسلمين في ذلك بأمر رسول اللّه ﷺ، فقال ﷺ: ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول اللّه ﷺ ومن لم تطب نفسه عوّضه رسول اللّه ﷺ عن نصيبه، ورد عليهم نساءهم وأبناءهم بأجمعهم. وكان عدد سبي هوازن ستة آلاف بين ذكر وانثى، والإبل أربعة وعشرون الفاً، والغنم أكثر من أربعين الف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، وقسم ﷺ الأموال بين المسلمين، ونفل كثيراً من الطلقاء (وهم الذين منّ عليهم النبيّ ﷺ بالإطلاق يوم فتح مكة من الأسر ونحوه) يتألفهم على الإسلام، مائة من الإبل، ومنهم مالك بن عوف النصريّ. فقال حين أسلم:

ما إن رأيتُ ولا سمعت بمثله ... في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتُدي ... ومتى يشأ يخبرك عما في غدِ

وإذا الكتيبة عرّدَتْ أنيابُها ... بالسمهري وضربِ كل مهند
فكأنه ليث على أشباله ... وسْط الهباءَة خادر في مَرْصَدِ

الثاني – قال الإمام ابن القيّم في (زاد المعاد) في فصل جوّد فيه:

الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهية والنكت الحكميّة ما نصه:

كان اللّه عزَّ وجلَّ قد وعد رسوله، وهو صادق الوعد، وأنه إذا فتح مكة، دخل الناس في دينه أفواجاً، ودانت له العرب بأسرها، فلما تم له الفتح المبين، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازنَ ومن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتأهبوا لحرب رسول اللّه ﷺ والمسلمين، ليظهر أمر اللّه، وتمام إعزازه لرسوله، ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح، وليُظهر اللّه سبحانه لرسوله وعباده، قهره لهذه الشوكة العظيمة، التي لم يلق المسلمون مثلها، فلا يقاومهم بعدُ أحدٌ من العرب، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التي تلوح للمتأملين، وتبدو للمتوسمين. فاقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة، مع كثرة عددهم وعُددهم، وقوة شوكتهم، ليطامنَ رؤوساً رفعت بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمه، كما دخله رسول اللّه ﷺ، واضعاً رأسه، منحنياً على فرسه؛ حتى إن ذقنه تكاد أن تمس سرجه، تواضعاً لربه، وخضوعاً لعظمته، واستكانة لعزته أن أحلّ له حرمه وبلده، ولم يحل لأحد قبله، ولا لأحد بعده، وليبين اللّه لمن قال: (لن نغلب اليوم عن قلة)، أن النصرّ إنما هو من عنده، وأنه من ينصره فلا غالب له، ومن يخذله فلا ناصر له غيره، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر رسوله ودينه، لا كثرتكم التي أعجبتكم، فإنها لم تغن عنكم شيئاً، فوليتم مدبرين. فلما انكسرت قلوبهم أرسلت إليها خلَع الجبر مع بريد النصر ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة:٢٦] وقد اقتضت حكمته أنّ خلَع النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الانكسار. ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٥-٦]. ومنها أن اللّه سبحانه لما منع الجيش غنائم أهل مكة، فلم يغنموا منها ذهباً ولا فضة ولا متاعاً ولا سبياً ولا أرضاً، كما روى أبو داود[1] عن وهب بن منبه قال: سألت جابراً: هل غنموا يوم الفتح شيئاً؟ قال: لا!

---

(١) أخرجه أبو داود في: الخراج والإمارة والفيء، ٢٥ – باب ما جاء في خبر مكة، حديث ٣٠٢٣.

وكانوا قد فتحوها بإيجاف الخيل والركاب، وهم عشرة آلاف، وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيش من أصحاب القوة، فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم، وقذف في قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم وشياههم، وسبيهم معهم نزولاً وضيافة، وكرامة لحزبه وجنده، وتمم تقديره سبحانه بأن أطمعهم في الظفر، وألاح لهم مبادئ النصر، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

فما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه، وبرزت الغنائم لأهلها، وجرت فيها سهام الله ورسوله، قيل: لا حاجة لنا في دمائكم، ولا في نسائكم وذراريّكم. فأوحى الله سبحانه إلى قلوبهم التوبة والإنابة، فجاءوا مسلمين، فقيل: إن من شكران إسلامكم، وإتيانكم، أن ردّ عليكم نساءكم وأبناءكم وسبيكم ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠].

ومنها: أن الله سبحانه افتتح غزوات العرب بغزوة بدر، وختم غزوهم بغزوة حنين، ولهذا، يقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر، فيقال: بدر وحنين، وإن كان بينهما سبع سنين، والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين في هاتين الغزاتين، والنبيّ ﷺ رمى في وجوه المشركين بالحصباء فيها، وبهاتين الغزاتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين، فالأولى خوفتهم وكسرت من خدتهم، والثانية استفرغت قواهم، واستنفدت سهامهم، وأذلت جميعهم، حتى لم يجدوا بدا من الدخول في دين الله.

ومنها: أن الله سبحانه جبر بها أهل مكة، وفرحهم بما نالوه من النصر والمغنم، وكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم، وإن كان عين جبرهم، وعرفهم تمام نعمه عليهم، بما صرف عنهم من شر هوازن، فإنه لم يكن لهم بهم طاقة، وإنما نصروا عليهم بالمسلمين، ولو أفردوا عنهم لأكلهم عدوّهم. إلى غير ذلك من الحكم التي لا يحيط بها إلا الله تعالى. انتهى.

الثالث - قال بعضهم: دلت الآية على أنه يجب الانقطاع إلى الله تعالى، والاتكال عليه. ودل ما حكى في القصة على جواز ما ورد حسنه من جواز التأليف، وملاطفة المؤمنين والرمي بالحصا حالة الحرب، والأصوات التي يرهب بها. انتهى.

ولابن القيم في (زاد المعاد) فصول حسنة في فقه هذه الوقعة. فلينظر.

الرابع – قوله: (ويوم حنين)، قيل: منصوب بمضمر معطوف على (نصركم) أي ونصركم يوم حنين، واستظهر عطفه على محل (في مواطن) بحذف المضاف في أحدهما، أي ومواطن يوم حنين. أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين.

قال أبو مسعود: ولعل التغيير للإيماء إلى ما وقع فيه من قلة الثبات من أول الأمر. انتهى.

قال الشهاب. فيكون عطف (يوم حنين) على منوال (ملائكته وجبريل) كأنه قيل: نصركم الله في أوقات كثيرة، وفي وقت إعجابكم بكثرتكم. ولا يرد عليه ما قيل إن المقام لا يساعد عليه، لأنه غير وارد، لتفضيل بعض الوقائع على بعض. ولم يذكر المواطن توطئة ليوم حنين كالملائكة، إذ ليس يوم حنين بأفضل من يوم بدر، وهو فتح الفتوح، وسيد الوقعات، وبه نالوا القدح المعلى، والدرجات العلى، لأن القصد في مثله إلى أن ذلك الفرد فيه من المزية ما صيّره مغايراً لجنسه. لأن المزية ليس المراد بها الشرف، وكثرة الثواب فقط، حتى يتوهم هذا. بل ما يشمل كون شأنه عجيباً، وما وقع فيه غريباً، للظفر بعد اليأس، والفرج بعد الشدة، إلى غير ذلك من المزايا. انتهى.

ثم أشار تعالى إلى أن موالاة المشركين، مع عدم إفادتها التقوية المحصلة للنصر، تضر بسريان نجاسة بواطنهم إلى بواطن المؤمنين الطاهرة، فقال:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

﴿ يا أيها الذين ءامنوا ﴾ أي المطهرة بواطنهم بالإيمان **﴿ إنما المشركون نجس ﴾** أي ذوو نجس، لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، فهو مجاز عن خبث الباطن، وفساد العقيدة، مستعار لذلك. أو هو حقيقة، لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون، ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغة في وصفهم بها. **﴿ فلا يقربوا المسجد الحرام ﴾** أي لحج أو عمرة كما كانوا يفعلون في الجاهلية. قال المهايمي: لأن المسجد الحرام يجتمع فيه المتفرقون في الأرض، ليسري صفاء القلوب من بعض إلى بعض، وها هنا يخاف سريان الظلمات

في العموم ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ أي بعد حج عامهم هذا، وهو عام تسع من الهجرة، حين أمّر أبو بكر على الموسم، وتقدم لنا أن النبيّ ﷺ أتبع أبا بكر بعليّ رضي الله عنهما، لينادي في المشركين: ألا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. فأتم الله ذلك، وحكم به شرعاً وقدراً ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي فقراً بسبب منعهم من الحرم، لانقطاع أرفاق كانت لكم من قدومهم ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ أي من فتح البلاد، وحصول المغانم، وأخذ الجزية، وتوجه الناس من أقطار الأرض. قال ابن إسحاق: إن الناس قالوا: لتقطعنّ عنا الأسواق، فلتهلكنّ التجارة، وليذهبنّ ما كنا نصيب فيها من المرافق، فقال الله تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً...﴾ إلى قوله ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله مما قطع عنهم بأمر الشرك، ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية. انتهى. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ أي فيما يأمر به وينهي عنه.

تنبيهات:

الأول – دلت الآية على نجاسة المشرك، كما في الصحيح[1] (المؤمن لا ينجس) وأما نجاسة بدنه، فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات، لأن الله تعالى أحلّ طعام أهل الكتاب. وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم. وقال أشعث عن الحسن: من صافحهم فليتوضأ، رواه ابن جرير، ونقله ابن كثير.

وأقول: الاستدلال بكونه تعالى أحلّ طعام أهل الكتاب غير ناهض، لأن البحث في المشركين وقاعدة التنزيل الكريم، التفرقة بينهم وبين أهل الكتاب، فلا يتناول أحدهما الآخر فيه.

وقال بعض المفسرين اليمنيين: مذهب القاسم والهادي وغيرهما؛ أن الكافر نجس العين، آخذاً بظاهر الآية، لأنه الحقيقة ويؤيد ذلك حديث[2] أبي ثعلبة الخشني فإنه قال للنبيّ ﷺ إنا نأتى أرض أهل الكتاب فنسألهم آنيتهم، فقال ﷺ: اغسلوها ثم اطبخوا فيها.

---

(١) أخرجه البخاري في: الغسل، ٢٤ – باب الجنب يخرج ويمشي في السوق وغيره، حديث رقم ٢٠٤، عن أبي هريرة.
وأخرجه مسلم في: الحيض، حديث رقم ١١٥م.

(٢) أخرجه البخاري في: الذبائح والصيد، ٤ – باب صيد القوس، حديث رقم ٢١٩٨.
وأخرجه مسلم في: الصيد والذبائح، حديث رقم ٨.

وقال زيد والمؤيد بالله والحنفية والشافعية: إن المشرك ليس نجس العين، لأنه ﷺ توضأ من مزادة مشرك، واستعار من صفوان دروعاً ولم يغسلها، وكانت القصاع تختلف من بيوت أزواج النبيّ ﷺ إلى الأسارى ولا تغسل، وكان أصحاب النبيّ ﷺ يطبخون في أواني المشركين ولا تغسل. وأوّلوا الآية بما تقدم من الوجوه، وكلٌّ متأولٌ ما احتج به الآخر. انتهى.

الثاني - قال السيوطي في (الإكليل) في قوله تعالى: ﴿فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾: إن الكافر يمنع من دخول الحرم، وإنه لا يؤذن له في دخوله، لا للتجارة ولا لغيرها، وإن كان مصلحة لنا، لأن المسجد الحرام حيث أطلق في القرآن فالمراد به الحرم كله، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وابن جبير ومجاهد وعطاء وغيرهم. واستدل بظاهر الآية مَن أباح دخوله الحرم سوى المسجد، لقصره في الآية عليه. واستدل الشافعي بظاهر الآية على أنهم لا يمنعون من دخول سائر المساجد، لقوله ﴿الْحَرَامَ﴾. وقاس عليه غيره سائرَ المساجد واستدل أبو حنيفة بظاهرها أيضاً على أن الكتابي لا يمنع من دخوله لتخصيصه بالمشرك. انتهى. وهو المتجَه.

قال الشهاب: وبالظاهر أخذ أبو حنيفة رحمه الله تعالى، إذ صرف المنع عن دخوله الحرم للحج والعمرة، بدليل قوله تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، فإنه إنما يكون إذا منعوا من دخول الحرم، وهو ظاهر، أي لأن موضع التجارات ليس عين المسجد. ونداءُ عليّ كرم الله وجهه بقوله: ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك، بأمر النبيّ ﷺ، يعيّنه. فلا يقال إن منطوق الآية يخالفه. انتهى.

الثالث - قال الناصر: قد يستدل بقوله تعالى ﴿فَلاَ يَقْرَبُوا...﴾ الآية - من يقول إن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، وخصوصاً بالمناهي، فإن ظاهر الآية توجه النهي إلى المشركين، إلا أنه بعيد، لأن المعلوم من المشركين أنهم لا ينزجرون بهذا النهي، والمقصود تطهير المسجد الحرام بإبعادهم عنه، فلا يحصل هذا المقصود إلا بنهي المسلمين عن تمكينهم من قربانه. ويرشد إلى أن المخاطب في الحقيقة المسلمون، تصديرُ الكلام بخطابهم في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وتضمينه نصّاً بخطابهم بقوله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، وكثيراً ما يتوجه النهي على مَن المراد خلافه، وعلى ما المراد خلافه، إذا كانت ثَمَّ ملازمة كقوله: لا أرينَّك ها هنا ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]. انتهى.

الرابع - (العيلة) مصدر من (عال) بمعنى افتقر. قرئ (عائلة). وهو إما مصدر بوزن فاعلة، أو اسم فاعل صفة لموصوف مؤنث مقدر، أي حالاً عائلة، أي مفقرة.

قال ابن جني: هذه من المصادر التي جاءت على فاعلة، كالعاقبة والعافية. ومنه قوله تعالى ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ [الغاشية:١١]، أي لغواً ومنه قولهم: مررت به خاصة، أي خصوصاً وأما قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة:١٣] فيجوز أن يكون مصدراً، أي خيانة، وأن يكون على تقدير: نية أو عقيدة خائنة. وكذا ها هنا يقدر: إن خفتم حالاً عائلة انتهى.

الخامس - إن قيل: ما وجه التعليق بالمشيئة في قوله تعالى ﴿إِنْ شَاءَ﴾ مع أن المقام وسبب النزول، وهو خوفهم الفقر، يقتضي دفعه بالوعد بإغنائهم من غير تردد؟ فالجواب: أن الشرط لم يذكر للتردد، بل لبيان أنه بإرادته لا سبب له غيرها، فانقطُعوا إليه، واقطَعوا النظر عن غيره. ولينبّه على أنه متفضل به، لا واجب عليه، لأنه لو كان بالإيجاب لم يوكل إلى الإرادة، فلا يقال إن هذا لا حاجة إلى أخذه من الشرط، مع قوله تعالى: ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ لأن قوله ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ يفيد أنه عطاء وإحسان، وهذا يفيد أنه بغير إيجاب، وشتان بينهما، وقيل إنه للتنبيه على أنه بإرادته، لا بسعي المرء وحيلته:

لَوْ كَانَ بالْحِيَلِ الْغِنَى لَوَجَدْتَنِي بنجومِ أَقْطَارِ السَّمَاءِ تَعَلُّقِي

كذا في (العناية).

القول في تأويل قوله تعالى:

قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ اعلم أنه لما ذكر تعالى حكم المشركين في إظهار البراءة من عهدهم، وفي إظهار البراءة عنهم في أنفسهم، وفي وجوب مقاتلتهم، وفي تبعيدهم عن المسجد الحرام وعدم

الخوف من الفاقة المتوهمة من انقطاعهم - ذكر بعده حكم أهل الكتاب. هو أن يقاتلوا إلى أن يسلموا أو يعطوا الجزية، منبهاً في تضاعيف ذلك على بعض طرق الإغناء الموعود على الوجه الكلي، مرشداً إلى سلوكه ابتغاء لفضله، واستنجازاً لوعده.

قال مجاهد: نزلت الآية حين أمر النبيّ ﷺ بقتال الروم، فغزا بعد نزولها غزوة تبوك.

وقال الكلبي: نزلت في قريظة والنضير من اليهود، فصالحهم، فكانت أول جزية أصابها أهل الإسلام، وأول ذلّ أصاب أهل الكتاب بأيدي المسلمين. انتهى.

ولا يخفي شمول الآية لكل ذلك بلا تخصيص.

قال ابن كثير: هذه الآية أول أمر نزل بقتال أهل الكتاب - اليهود والنصارى - وكان ذلك في سنة تسع، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم، ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة، فندبهم، فأوعبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة، ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جدب، ووقت قيظ وحرّ. وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك، ونزل بها، وأقام بها قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله في الرجوع، فرجع عامة ذلك لضيق الحال، وضعف الناس، كما سيأتي بيانه بعدُ إن شاء الله تعالى. انتهى.

والتعبير عن (أهل الكتاب) بالموصول المذكور، للإيذان بعلّية ما في حيز الصلة للأمر بالقتال، فإنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، كما أمر تعالى، إذ لديهم من فساد العقيدة، فيما يجب له تعالى، وفي البعث، أعظم ضلال وزيغ، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، يعني ما ثبت تحريمه في الكتاب والسنة. وقيل: المراد برسوله الرسول الذي يزعمون اتباعه، فالمعنى أنهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً، إذ غيّروا وبدّلوا اتباعاً لأهوائهم.

قال الشهاب: فيكون المراد: لا يتبعون شريعتنا ولا شريعتهم، ومجموع الأمرين سبب لقتالهم. وقوله تعالى: ﴿دِينَ الْحَقِّ﴾ من إضافة الموصوف للصفة، أو المراد بـ﴿الْحَقِّ﴾، الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي ما تقرر عليهم أن يعطوه.

قال ابن الأثير: الجزية المال الذي يعقد عليه الكتابيّ الذمة، وهي (فِعْلَة) من الجزاء كأنها جَزَتْ عن قتله.

وقال الراغب: سميت بذلك للاجتزاء بها عن حقن دمهم.

وقال الشهاب: قيل مأخذها من (الجزاء) بمعنى القضاء. يقال: جزيته بما فعل، أو جازيته. أو أصلها الهمز من (الجزء والتجزئة)، لأنها طائفة من المال يعطى. وقيل: إنها معرب (كزيت) وهو الجزية بالفارسية. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ حال من فاعل ﴿يُعْطُوا﴾ و (اليد) هنا إمّا بمعنى الاستسلام والانقياد، يقال: هذه يدي لك، أي استسلمت إليك، وانقدت لك، وأعطى يده أي انقاد. كما يقال في خلافه: نزع يده من الطاعة. لأن من أبى وامتنع، لم يعط يده، بخلاف المطيع المنقاد، وإما بمعنى النقد، أي حتى يعطوها نقداً غير نسيئة، فيكون كـ (اليد) في قوله ﷺ[1]: «لا تبيعوا الذهب والفضة... إلى قوله (يَداً بيد)». وإما بمعنى الجارحة الحقيقية، و (عن) بمعنى الباء، أي لا يبعثون بها عن يد أحد، ولكن عن يد المعطي إلى يد الآخذ. وإما بمعنى: من طيبة نفس؛ قال أبو عبيدة: كل من انطاع لقاهر بشيء أعطاه، من غير طيب نفس به وقهر له، من يد في يد، فقد أعطاه عن يد (مجاز القرن ج١ ص ٢٥٦). وإما بمعنى الجماعة، أنشد ابن الأعرابي:

أعطى فاعطاني يداً وَدَارَا وباحةً حولَها عَقَارَا

ومنه الحديث[2] (وهم يدٌ على من سواهم) أي هم مجتمعون على أعدائهم، يعاون بعضهم بعضاً - قاله أبو عبيد - وإما بمعنى الذل - نقله ابن الأعرابي وحكاه وجهاً في الآية -.

هذا إن أريد باليد يد المعطي. وإن أريد بها يد الآخذ، فاليد إما بمعنى القوة، أي عن يد قاهرة مستولية ويقولون: ما لي به يد أي قوة. وإما بمعنى السلطان، وهو كالذي قبله، ومنه يد الريح سلطانها. قال لبيد:

* نِطافٌ أَمْرُهَا بِيَدِ الشَّمَالِ *

---

(١) أخرجه البخاري في: البيوع، ٧٨ - باب بيع الفضة بالفضة، ٧٩ - باب بيع الدينار بالدينار نسْءاً، حديث رقم ١٠٩٧ عن أبي سعيد الخدري.
وأخرجه مسلم في: المساقاة، حديث ٧٦ وانفرد مسلم بقوله (إلا يداً بيد).

(٢) أخرجه ابن ماجة في: الديات، ٣١ - باب المسلمون تتكافا دماؤهم، حديث رقم ٢٦٨٣ عن ابن عباس.

لما ملكت الريح تصريف السحاب، جعل لها سلطان عليه. وإما بمعنى النعمة، أي عن إنعام عليهم بذلك، لأن قبول الجزية، ، وترك أنفسهم عليهم، نعمة عليهم.

قال الناصر في (الانتصاف): وهذا الوجه أملى بالفائدة.

وإما بمعنى الغنى، حكاه في (العناية)، ونقله (التاج) من معاني اليد.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي أذلاء.

تنبيهات:

الأول – قوله تعالى: ﴿عَن يَدٍ﴾ إما حال من الضمير في ﴿يُعْطُوا﴾ أو من الجزية أي مقرونة بالانقياد، ومسلمة بأيديهم، وصادرة عن غنى، ومقرونة بالذلة، وكائنة عن إنعام عليهم. كذا في (العناية).

الثاني – قال السيوطي في (الإكليل): هذه الآية أصل قبول الجزية من أهل الكتاب.

الثالث – قال أيضاً: استدل من قال بأن معنى اليد فيما تقدم، الغنى، أنها لا تجب على مُعسر. ومن قال بأنه لا يرسل بها، على أنه لا يجوز توكيل مسلم بها، ولا أن يضمنها عنه، ولا أن يحيل بها عليه.

الرابع – قال السيوطي أيضاً: استدل بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ من قال إنها تؤخذ بإهانة، فيجلس الآخذ، ويقوم الذمي ويطأطئ رأسه، ويحني ظهره، ويضعها في الميزان، ويقبض الآخذ لحيته، ويضرب لهزمتيه. قال: ويردّ به على النووي حيث قال: إن هذه سيئة باطلة. انتهى.

قلت: ولقد صدق النووي عليه الرحمة والرضوان، فإنها سيئة قبيحة، تأباها سماحة الدين، والرفق المعلوم منه. ولولا قصد الرد على من قاله لما شوهت بنقلها ديباجة الصحيفة.

ثم رأيت ابن القيّم رد ذلك بقوله: هذا كله مما لا دليل عليه، ولا هو من مقتضى الآية، ولا نقل عن رسول الله ﷺ، ولا عن أصحابه. قال: والصواب في الآية أن الصغار هو التزامهم بجريان أحكام الله تعالى عليهم، وإعطاء الجزية، فإن ذلك هو الصغار، وبه قال الشافعي. انتهى.

ثم قال السيوطي: واستدل بالآية من قال: إن أهل الذمة يتركون في بلد أهل الإسلام، لأن مفهومها الكف عنهم عند أدائها، ومن الكف ألا يجلوا. ومن قال لا حدَّ لأقلها، ومن قال هي عوض حقن الدم لا أجرة الدار. انتهى.

الخامس – روى أبو عبيد في كتاب (الأموال) عن ابن شهاب قال: أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب، أهل نجران، وكانوا نصارى.

السادس – قال أبو عبيد: ثبتت الجزية على اليهود والنصارى بالكتاب، وعلى المجوس بالسنّة.

وقال ابن القيّم: لما نزلت آية الجزية أخذها ﷺ من ثلاث طوائف: من المجوس واليهود والنصارى، ولم يأخذها من عباد الأصنام. فقيل: لا يجوز أخذها من كافر غير هؤلاء، ومن دان بدينهم اقتداءً بأخذه وتركه، وقيل: بل تؤخذ من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار وهم كعبدة الأصنام من العجم، دون العرب والأول قول الشافعيّ وأحمد (في إحدى روايتيه)، والثاني قول أبي حنيفة وأحمد في الرواية الأخرى. وأصحاب القول الثاني يقولون: إنما لم يأخذها من مشركي العرب لأنها إنما نزلت فرضيتها بعد أن أسلمت دارة العرب، ولم يبق فيها مشرك، فإنها نزلت بعد فتح مكة، ودخول العرب في دين اللّه أفواجاً، فلم يبق بأرض العرب مشرك، ولهذا غزا بعد الفتح تبوك، وكانوا نصارى، ولو كان بأرض العرب مشركون لكانوا يلونه، وكانوا أولى بالغزو من الأبعدين. ومن تأمل السير وأيام الإسلام، علم أن الأمر كذلك، فلم تؤخذ منهم الجزية، لعدم من يؤخذ عنه، لا لأنهم ليسوا من أهلها. قالوا: وقد أخذها من المجوس فليسوا بأهل كتاب. ولا يصح أنه كان لهم كتاب ورفع، وهو حديث لا يثبت مثله، ولا يصح سنده. ولا فرق بين عبادة النار، وعبادة الأصنام. بل أهل الأوثان أقرب حالاً من عباد النار. وكان فيهم من التمسك بدين إبراهيم ما لم يكن في عباد النار، بل عباد النار أعداء إبراهيم الخليل. فإذا أخذت منهم الجزية فأخذها من عباد الأصنام أولى. وعلى ذلك تدل سنة رسول اللّه ﷺ، كما ثبت في صحيح مسلم[1] أنه قال: إذا لقيت عدوّك من المشركين، فادعهم إلى إحدى خلال ثلاث، فأيتهن أجابوك إليها، فاقبل منهم. وكف عنهم. ثم أمره أن يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو يقاتلهم.

---

(١) أخرجه مسلم في: الجهاد، حديث ٣ عن بريدة بن الحصيب.

وقال المغيرة لعامل كسرى: أمرَنا نبيُّنا أن نقاتلكم حتى تعبد الله أو تؤدي الجزية.

وقال رسول الله ﷺ لقريش[١]: هل لكم في كلمة تدين لكم بها العرب، وتؤدي العجم إليكم بها الجزية؟ قالوا: ما هي: قال: لا إله إلا الله.

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله أن النبيّ ﷺ[٢] صالح أهل نجران على ألفي حلة، النصف في صفر، والبقية في رجب يؤدونها إلى المسلمين، وعارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح، يغزون بها، والمسلمون ضامنون بها، حتى يردوها عليهم، إن كان باليمن كيدة أو غدرة. وعلى ألا يُهْدَم لهم بيعة، ولا يخرج لهم قسّ، ولا يفتنوا عن دينهم، ما لم يحدثوا حدثاً، أو يأكلوا الربا.

ولما وجه[٣] ﷺ معاذاً إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل محتلم ديناراً، أو قيمته من ثياب. وفي هذا دليل على أن الجزية غير مقدرة الجنس، ولا القدر، بل يجوز أن تكون ثياباً وذهباً وحللاً، وتزيد وتنقص بحسب حاجة المسلمين، واحتمال من تؤخذ منه، وحاله في الميسرة، وما عنده من المال. ولم يفرق رسول الله ﷺ ولا خلفاؤه في الجزية بين العرب والعجم. بل أخذها رسول الله ﷺ من نصارى العرب، وأخذها من مجوس[٤] هَجَر. وكانت مدينة قاعدة البحرين، وكان أهلها عرباً، فإن العرب أمة ليس لها في الأصل كتاب. وكانت كل طائفة تدين بدين من جاورها من الأمم، فكانت عرب البحرين مجوساً لمجاورتها فارس وتنوخ وبهرا. وبنو تغلب نصارى لمجاورتهم للروم. وكانت قبائل من اليمن يهود، لمجاورتهم ليهود اليمن. فأجرى رسول الله ﷺ أحكام الجزية، ولم يعتبر آباءهم، ولا متى دخلوا في أهل الكتاب، هل كان دخولهم قبل النسخ والتبديل أو بعده، ومن أين يعرفون ذلك، وكيف ينضبط، وما الذي دل عليه؟ وقد ثبت في السير والمغازي أن من الأنصار من

---

(١) أخرجه الترمذي في: التفسير، ٣٨ – سورة ص، ١ – حدثنا محمود بن غيلان.
وأخرجه في المسند ص ٢٢٧ ج١ والحديث رقم ٢٠٠٨.

(٢) أخرجه أبو داود في: الخراج والإمارة والفيء، ٣٠ – باب في أخذ الجزية، حديث ٣٠٤١.

(٣) أخرجه أبو داود في: الزكاة، ٥ – باب في زكاة السائمة حديث رقم ١٥٧٦.

(٤) أخرجه البخاري في: الجزية والموادعة، ١ – باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب، حديث ١٤٩١و ١٤٩٢و ١٤٩٣.

تهوّد أبناؤهم بعد النسخ بشريعة عيسى، وأراد آباؤهم إكراههم على الإسلام، فأنزل الله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦] وفي قوله لمعاذ[١]: خذ من كلّ حالم ديناراً، دليل على أنها لا تؤخذ من صبي ولا امرأة.

السابع – قال الإمام أبو يوسف رحمه الله في كتاب (الخراج):

وليس في شيء من أموالهم، الرجال منهم والنساء، زكاة، إلا ما اختلفوا به في تجارتهم، فإن عليهم نصف العشر، ولا يؤخذ من مال حتى يبلغ مائتي درهم، أو عشرين مثقالاً من الذهب، أو قيمة ذلك من العروض للتجارة، ولا يضرب أحد من أهل الذمة في استيدائهم الجزية، ولا يقاموا في الشمس ولا غيرها، ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره، ولكن يرفق بهم، ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم؛ ولا يخرجون من الحبس حتى تستوفى منهم الجزية، ولا يحل للوالي أن يدع أحداً من النصارى واليهود والمجوس والصابئين والسامرة، إلا أخذ منهم الجزية، ولا يرخص لأحد منهم في ترك شيء من ذلك، ولا يحل أن يدع واحداً ويأخذ من واحد، ولا يسع ذلك، لأن دماءهم وأموالهم إنما أحرزت بأداء الجزية، والجزية بمنزلة مال الخراج.

ثم قال أبو يوسف مخاطباً هارون الرشيد:

وقد ينبغي يا أمير المؤمنين – أيدك الله – أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ، والتفقد لهم حتى لا يُظلموا ولا يؤذوا، ولا يُكلفوا فوق طاقتهم، ولا يُؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم، فقد روي[٢] عن رسول الله ﷺ أنه قال: من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه. وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند وفاته[٣]: أُوصِي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم.

قال: وحدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن سعيد بن زيد أنه مرّ على قوم قد

---

(١) أخرجه أبو داود في: الزكاة، ٥ – باب في زكاة السائمة، حديث ١٥٧٦.

(٢) أخرجه أبو داود في: الخراج والفيء والإمارة، ٣٣ – باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، حديث ٣٠٥٢.

(٣) أخرجه البخاري في: فضائل أصحاب النبيّ ﷺ، ٨ – باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان رضي الله عنه. حديث ٧٣٧.

أقيموا في الشمس في بعض أرض الشام، فقال: ما شأن هؤلاء؟ فقيل له أقيموا في الشمس في الجزية! قال: فكره ذلك، ودخل على أميرهم وقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من عذب الناس عذبه الله.

قال: وحدثنا هشام بن عروة عن أبيه أن عمر بن الخطاب مرّ بطريق الشام وهو راجع في مسيره من الشام على قوم قد أقيموا في الشمس، يصبّ على رؤوسهم الزيت، فقال: ما بال هؤلاء؟ فقال: عليهم الجزية لم يؤدوها، فهم يعذبون حتى يؤدوها! فقال عمر: فما يقولون هم وما يعتذرون به في الجزية؟ قالوا: يقولون لا نجد! قال: فدعوهم لا تكلفوهم ما لا يطيقون. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تعذبوا الناس، فإن الذين يعذبون الناس في الدنيا، يعذبهم الله يوم القيامة، وأمر بهم فخلى سبيلهم.

ثم قال: وحدثني عمير بن نافع عن أبي بكر قال: مرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بباب قوم وعليه سائل يسأل، شيخ ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. قال: فما ألجاك إلى ما أرى؟ قال: اسأل الجزية، والحاجة والسن. قال: فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته، ثم نخذله عند الهرم ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب. ووضع عنه الجزية وعن ضربائه. قال: قال أبو بكر: أنا شهدت ذلك من عمر، ورأيت ذلك الشيخ. انتهى.

الثامن – في الغرض من الجزية ورأفة المسلمين بمن أظلوهم بسيوفهم.

قال الإمام الشيخ محمد عبده مفتي مصر في كتاب (الإسلام والنصرانية) في هذا المعنى، تحت بحث المقابلة بين الإسلام الحربيّ، المسيحية السلمية، ما نصه ص٧٤:

الإسلام الحربي، كان يكتفي من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه، ثم يترك الناس، وما كانوا عليه من الدين، يؤدون ما يجب عليهم في اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد، وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها، لتكون عوناً على صيانتهم، والمحافظة على أمنهم في ديارهم، وهم في عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار، لا يضايقون في عمل، ولا يضامون في معاملة. خلفاء المسلمين،

كانوا يوصون قوادهم باحترام العبّاد الذين انقطعوا عن العامة في الصوامع والأديار لمجرد العبادة، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال؛ وكل من لم يُعِن على القتال. جاءت السنة المتواترة بالنهي عن إيذاء أهل الذمة، وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين، لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، ومن آذى ذمياً فليس منا. واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام. ولست أبالي إذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام عندما بدأ الضعف في الإسلام وضيقُ الصدر من طبع الضعيف، فذلك مما لا يلصق بطبيعته، ويخلط بطينته.

المسيحيةُ السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها، تراقب أعمال أهله، وتخصصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر، مهما عظم، حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم بعد العجز عن إخراجهم من دينهم، وتعميدهم، أجلتهم عن ديارهم، وغسلت الديار من آثارهم، كما حصل ويحصل في كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاءً حقيقياً، لا يمنع غيرَ المسيحي من تعدي المسيحي إلا كثرة العدد، أو شدة العضد، كما شاهد التاريخ، وكما يشهد كاتبوه.

ثم قال: فانت ترى الإسلام يكتفي من الأمم والطوائف التي يغلب على أرضها، بشيء من المال، أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلّبه عليهم، وبأن يعيشوا في هدوء، لا يعكرون معه صفو الدولة، ولا يخلّون بنظام السلطة العامة، ثم يرخى لهم بعد ذلك عنان الاختيار في شؤونهم الخاصة بهم، لا رقيب عليهم فيها إلا ضمائرهم. انتهى.

وفي كتاب (أشهر مشاهير الإسلام) في بحث إجلاء أهل نجران ما نصه:

إن أساس الدعوة إلى الإسلام التبليغ، وأنه لا إكراه في الدين، فمن قبلها كان من المسلمين، ومن أبى فعليه أن يخضع لسلطانهم، وأن يعطيهم جزءاً من ماله يستعينون به على حماية ماله وعرضه ونفسه، وله عليهم حق الوفاء بما عاهدوه عليه، وأن لا يُفْتَنَ عن دينه، وأن تكون له الذمة والعهد أنّى حل، وحيثما وجد من ممالك الإسلام، ما دام وافياً بعهده، مؤدياً لجزيته، لا يخون المسلمين، ولا يمالئ عليهم عدوّهم، وأحسن شاهد على هذا نسوقه إليك في هذا الفصل، خبر أهل نجران اليمن، وكانوا من الكتابيين، لتعلم كيف كانت معاملة أهل الذمة، ومبلغ محافظة الخلفاء على عهودهم معهم، ما لم يخونوا أو يغدروا.

وتحرير الخبر عنهم أنه كان وَفَدَ وَفْدُهُمْ على رسول الله ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا، وسألوه الصلح، وأن يقبل منهم الجزاء، فصالحهم على شيء معلوم، يؤدونه كل سنة للمسلمين وكتب لهم بذلك كتاباً جعل لهم فيه ذمة الله وعهده، وأن لا يفتنوا عن دينهم، ومراتبهم فيه، ولا يحشروا، ولا يعشروا، وأن يؤمنوا على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعيرهم، وبعثهم وأمثلتهم. لا يغير ما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم، ولا يطأ أرضَهم جيش ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف، غير ظالمين ولا مظلومين، ولهم على ذلك جوار الله، وذمة رسوله أبداً، حتى يأتي أمر الله، ما نصحوا وأصلحوا. واشترط عليهم أن لا يأكلوا الربا، ولا يتعاملوا به.

ولما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر الصديق رضي الله عنه، أقرهم على حالهم، وكتب لهم كتاباً على نحو كتاب رسول الله ﷺ، مع أنه كان يتخوفهم، ويود إجلاءهم، لما روي[1] أن رسول الله ﷺ قال: «لا يبقين في جزيرة العرب دينان».

ولما حضر أبا بكر الوفاة، أوصى عمر بن الخطاب بإجلائهم لنقضهم العهد بإصابتهم الربا.

فانظر كيف أن النبيّ ﷺ كان يرى أن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان، لأن العرب أمة حديثة عهد بالإسلام، قد عانى ﷺ ما عانى في جمع كلمتها، وتوحيد وجهتها، فمن الخطر أن يوجد بين ظهرانيها قوم يدينون بغير دينها، فيفتنون من جاورهم عن الإسلام، على حداثة عهدهم فيه، وعدم تمكنهم بعدُ من أصوله الصحيحة. هذا من وجه، ومن وجه آخر، فإن النجرانيين كانوا يتاجرون بالربا، ولا يخفى ما فيه من الضرر على من جاورهم من أهل اليمن، الذين ينضب التعاملُ بالربا معينَ ثروتهم، ويؤذن بفقرهم، على غير شعور منهم، لا سيّما وأن الشريعة الإسلامية قد حرمته تحريماً باتّاً، ولا يؤمن من أن النجرانيين، باستمرارهم على تعاطي الربا، يحملون بعض من جاورهم من المسلمين على ارتكاب الإثم بالتعامل معهم بالربا. ومع هذه الأسباب التي تلجئ إلى إكراه النجرانيين على الإسلام، فإن النبيّ ﷺ لم

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ مرسلاً في: الجامع، الحديث رقم ١٧و ١٨و ١٩.
وأخرجه الإمام أحمد في المسند ص ٢٧٥ ج٦ عن عائشة متصلاً.

يكرههم على ذلك، لأن شريعته لم تأذن بإكراه أهل الكتاب على الإسلام، لهذا تركهم على دينهم، بعد أن دعاهم إلى الإسلام بالتي هي أحسن، فأبوا، وأعطاهم كتاب العهد المذكور، إلا أنه اشترط عليهم فيه أن لا يخونوا المسلمين، ولا يتعاملوا بالربا كما رأيت.

ولما استُخْلِفَ أبو بكر أكد لهم عهدهم الأول، مع أنه كان يرى في وجودهم في جزيرة العرب من الخطر ما كان يراه النبيّ ﷺ، فلم يسعه في أمرهم إلا ما وسع الرسول ﷺ، حتى إذا علم أنهم خانوا العهد، وتعاملوا بالربا، أمر في حال مرضه عمر ابن الخطاب رضي اللّه عنه بإجلائهم عن جزيرة العرب، دون أن يُفْتنوا في دينهم.

ولما استُخْلِفَ عمر رضي اللّه عنه، كان أول بعث بعثه، بعث أبي عبيد إلى العراق، وبعث يعلى بن أمية إلى اليمن، وأمره بإجلاء أهل نجران، وأن يعاملهم بالرأفة ويشتري أموالهم، ويخيرهم عن أرضهم في أي أرض شاءوا من بلاد الإسلام، لا أن يعاملهم معاملة القوي الغالب، للضعيف المغلوب، كما هو شأن كل دولة من الدول قبل الإسلام وبعده، حتى الآن، في معاملة الأمم التي تخالف مذهبها، وتخضع لقوة سلطانها. فتفرقوا، فنزل بعضهم الشام، وبعضهم النجرانية بناحية الكوفة، وبهم سميت. ولم تقف العناية بهم في إجلائهم، والمحافظة على ما بيدهم من العهد، وتعويضهم عما تركوه من العقار والمال عند هذا الحد، بل كانوا يجدون بعد ذلك من الخلفاء كل رعاية ورفق. من ذلك أنهم شكَوا مرة إلى عثمان رضي اللّه عنه – لما استخلف – ضيقَ أرضهم، ومزاحمة الدهاقين لهم، وطلبوا إليه تخفيف جزيتهم، فكتب إلى الوليد بن عقبة بن أبي معيط، عامله على الكوفة، كتاباً يوصيه بهم، ويأمره أن يضع عنهم مائتي حلة من جزيتهم، لوجه اللّه، وعقبى لهم من أرضهم.

وروى البلاذري؛ أنه لما ولي معاوية، أو يزيد بن معاوية، شَكَوْا إليه تفرقهم، وموت من مات منهم، وإسلام من أسلم منهم، وأحضروه كتاب عثمان بن عفان، بما حطهم من الحلل، وقالوا: إنما ازددنا نقصاناً وضعفاً. فوضع عنهم مائتي حلة تتمة أربعمائة حلة. فلما ولي الحجّاجُ العراق، وخرج ابن الأشعث عليه، اتهمهم والدهاقين بموالاته، فردّ جزيتهم إلى ما كانت عليه. فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، شكوا إليه ظلم الحجاج ونقصهم، فأمر فأحصوا فبلغوا العشر من عدتهم، فألزمهم مائتي حلة جزية عن رؤوسهم فقط. فلما ولي يوسف بن عمر العراق، في خلافة الوليد بن يزيد الأموي، ردّهم إلى ما كانوا عليه، عصبيةً للحجاج. فلما

انقضت دولة الأمويين واستخلف أبو العباس السفاح، رفعوا إليه أمرهم، وما كان من عمر بن عبد العزيز ويوسف بن عمر، فردّهم إلى مائتي حلة ولما استخلف هارون الرشيد شكوا إليه تعنت العمال معهم، فأمر فكُتب لهم كتاب بالمائتي حلة، وبالغ بالرفق بهم، فأمر أن يعفوا من معاملة العمال، وأن يكون مؤداهم بيت المال بالحضرة، كي لا يعنتهم أحد من العمال.

هذا ما رواه المؤرخون في شأن هؤلاء الكتابيين الذين أجلاهم عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه عن جزيرة العرب. وقد رأيت مما مرّ مبلغ عناية عمر رضي اللّه عنه بهم، لما لم ير بُدّاً من إجلائهم للأسباب التي مر ذكرها. وقد كان من السهل إكراههم على الإسلام، ودخولهم فيه، كما دخل أولئك الملايين من مشركي العرب، وعامة سكان الجزيرة العربية، طوعاً أو كرهاً. وإنما هو الشرع الإسلامي، منع من إكراه غير مشركي العرب على الإسلام، كما منع من نقض العهد، وخفر الذمة إلا بسبب مشروع. لهذا، لما خان النجرانيون عهدهم بتعاملهم بالربا، وقد عاهدوا رسول اللّه ﷺ الا يتعاملوا به في الجزيرة ساغ لأمير المؤمنين إجلاؤهم إلى غيرها، بعد أن عوّضهم عن المال والعقار بمثله. وما زال الخلفاء بعده - مبالغةً بالرفق بأهل الكتاب، وقياماً بواجب السيادة العادلة، ووفاء بعهد اللّه والرسول - يعاملون النجرانيين بأحسن ما تعامل به عامة الرعية من المسلمين، ويدفعون عنهم أذى الظلم والإجحاف كما رأيت.

ونتج من هذه القصة ثلاثة أمور:

الأمر الأول: - عدم إكراه النجرانيين على الإسلام، مع تعيّن الخطر من وجودهم في جزيرة العرب، لحداثة عهد أهلها بالإسلام. ذلك لأن عدم الإكراه من أصول الشريعة الإسلامية. والجهادُ الذي يعظم أمرَه أعداءُ المسلمين إنما شرع لحماية الدعوة لا للإكراه، إلاّ جهاد مشركي العرب يومئذ. فقد شرع لإرغامهم على الإسلام، لأسباب حكيمة لا تخفى على بصير، أهمها تطهير نفوس تلك الأمة العظيمة من شرور الوثنية، واستئصال شأفة الجهل والتوحش من جزيرة العرب، التي كانت وسطاً بين ممالك الشرق والغرب، من آسيا وأفريقيا وأوربا، بل هي نقطة الصلة السياسية والتجارية بين تلك الممالك، فانتشار أنوار المدنية والدين فيها، يستلزم انتشارها بطبيعة المجاورة والإشراف على تلك الممالك أيضاً، قد كان ذلك كما هو معلوم.

والأمر الثاني – عدم حيد الخلفاء عن أمر الشارع فيما أمر به من الوفاء بالعهود، وتأكيدهم لعهد النجرانيين، الواحد تلو الآخر، على ضعف هؤلاء وقلتهم، وقوة الخلافة الإسلامية وسلطانها. وإن ذلك لم يكن عن رهبة أو رغبة، بل عن محض تمسك بالعهد، وعدل بين الشعوب الخاضعين لسلطة الخلافة، وسلطان الإسلام، من كل ملة ودين.

والأمر الثالث – حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قاعدة حماية الذميّ في نفسه وماله، بتعويضه النجرانيين عن أرضهم ومالهم بالمثل من أرض المسلمين ومالهم، لما قضت الضرورة بإجلائهم عن أرضهم، إلى غيرها من بلاد المسلمين: وقد ذكر في سيرة أبي بكر عن عمر رضي الله عنهما ما فعله من هذا القبيل من أهل عَرَبْسُوسَ من ثغور الروم، وكيف أنه لما أمر بإجلائهم عن أرضهم لخيانتهم جوار المسلمين، ونكثهم عهد الأمانة والصدق، أمر بأن يعوّضوا عن مالهم وعقارهم ونعمهم ضعفين. وما زال الخلفاء في أيام الفتوح العظيمة وما بعدها يحافظون على حق القرار الثابت، والملك القديم، للأقوام المغلوبين للمسلمين، الخاضعين لسلطانهم، سواء كانوا من المسيحيين أو غيرهم. ولم يؤثر عن أحد منهم أنه طرد قوماً من أرضهم، أو انتزعها منهم بغير حق ولا عوض. ولا عبرة بما ربما يقع من هذا القبيل على بعض الأفراد من جور بعض العمال الذين غلبت شهواتهم على الفضيلة، فحادوا عن طريق الشرع، فإنه قد يصيب أفرادَ المسلمين من جور هؤلاء أكثر مما يصيب غيرهم، وليس في هذا ما يقدح في أصول الحكم الإسلامي الذي يأبى الظلم، ويدعو إلى الرأفة والعدل. هذا شأن الإسلام في المحافظة على حقوق الأمم المغلوبة. وقد رأيت مما تقدم أنه لم يعط للمسلمين من حقوق الغلب التي ينتحلها الغالبون في كل عصر، إلا ما تدعو إليه الضرورة القصوى، وتستلزمه سلامة الملك والدين، لا ما تدعو إليه شهوات الملك، ورغبات الأمة الغالبة. وقد علم هذا المسلمون وخلفاؤهم، وأن لأهل الذمة ما لهم، وعليهم ما عليهم، فبالغوا في الرأفة بأهل جوارهم، والداخلين في ذمتهم من أرباب الملل الأخرى، فتركوا لهم حرية التملك والدين، لم ينازعوهم حقاً من حقوق المواطنة و الجوار، بل كانوا يعتبرونهم جزءاً من الدولة، وعضواً من أعضاء مجتمعهم لا غنى عن مشاركته في العمل، ومشاطرته أسباب السعادة المدنية، والحياة الوطنية. يؤيد هذا اعتماد الخلفاء الأمويين والعباسيين على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في ترتيب دواوين

الخراج. وترجمة علوم اليونان، وتقريب النابغين منهم في علوم الهندسة والطب، إليهم. واعتمادهم في شفاء عللهم عليهم. بل بلغ بالمسلمين اعتبارهم لأهل الكتاب عضواً من جسم هيأتهم الاجتماعية، لا يجوز فصله في حال من الأحوال – أن جيوش التتار، لما اكتسحت بلاد الإسلام من حدود الصين إلى الشام، ووقع في أسرهم من وقع من المسلمين والنصارى، ثم خضد المسلمون شوكة التتار في الشام، ودان ملوكهم بالإسلام، خاطب شيخُ الإسلام ابن تيمية رأس العلماء في عصره أميرَ التتار (قطلوشاه) بإطلاق الأسرى، فسمح له بالمسلمين، وأبى أن يسمح له بأهل الذمة، فقال له شيخ الإسلام: لا بد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا، ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة، ولا من أهل الذمة. فأطلقهم له – انتهى –.

ومنه يعلم شأن الحكم الإسلاميّ في أهل الذمة، ومبلغ عناية الخلفاء والعلماء بهم. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ جملة مبتدأة، سيقت لتقرير ما مر من عدم إيمان أهل الكتابين بالله سبحانه، وانتظامهم بذلك في سلك المشركين. وقرئ ﴿عزيرٌ﴾ بالتنوين على الأصل، وحذفه لالتقاء الساكنين على غير القياس تخفيفاً. وهو مبتدأ وما بعده خبره، ولهم أوجه أخرى في إعرابه، والوجه ما ذكرناه.

وليعلم أن الذي دعا الفريقين إلى مقاليهما هو الغلوّ في التعظيم. فأما اعتقاد النصارى فهو مشهور معلوم، تكفل التنزيل الكريم بذكره مراراً، ودخر شبهه. وأما اليهود في (عزير) فغلاتهم أو جهلتهم يتفوهون بهذه الكلمة الشنعاء، وأما بقيتهم فيعتبرونه في مقام موسى، ويحترمون دائماً ذكره، ويعتقدون أن الله تعالى قد أقامه لجمع التوراة المبددة. ولتجديد الملة الموسوية، وإرجاعها إلى عهدها، وإصلاح ما

فسد من آدابها وعوائدها، بإلهام، فإن نسخة التوراة الأصلية، وبقية أسفارهم، فقدت لما أغار أهل بابل، جند (بخت نصّر) على بيت المقدس، وهدموه، وسبوا أهله إلى مملكتهم بابل، وأقاموا هناك سبعين سنة،ثم لما نبغ فيهم (عزير) واشتهر، واستعطف أحد ملوكهم في سراحهم، فأطلق له الملك الإجازة، فعاد من بابل بمن بقي من اليهود إلى بيت المقدس، وجدد ما اندثر من الشريعة الموسوية.

قال بعض الكتابيين في قاموس له: زعم اليهود أن أئمتهم عقدوا مجمعاً في عهد (عزرا)، وجمعوا الأسفار العبرانية في قانون متعارف عندهم اليوم، وضموا إليه ما لم يكن فيه من قبل جلاء بابل.

وفي (الذخيرة) من كتبهم ما نصه: أجمع القوم على أن (عزرا) الذي كان خبيراً بآثار وطنه وقدمها، وماهراً بمعرفة الطقوس اليهودية، وبارعاً بالعلوم المقدسة، هو أول من قرر هذا القانون، وأثبت أجزاءه المختلفة، بعد الأسر البابلي في نحو السنة ٥٤٣ قبل ميلاد المسيح، ولما تفرقت التوراة آن الجلاء، قام (عزرا) وجمع ما وجد من النسخ المتناثرة، وألف منها نسخة صححها ونقحها ما استطاع، وبدل أسماء الأماكن التي انتسخ ثَمَّ استعمالُها، بأسماء أخرى أشهر في عرفهم، ونسق الكل نسقاً محكماً، واتفق الجميع على أنه اعتاض في كل الأسفار عن حروف الخط العبراني بحروف كلدانية، ألف استعمالها اليهود مدة أسرهم الذي استمر سبعين سنة. انتهى.

فلهذا العمل المهم عندهم دعوه (ابنا). وفيه من الجراءة على المقام الرباني ما فيه. ولو زعموا إرادة المجاز في ذلك، فلا مناص لهم من لحوق الكفر بهم، فإنه يجب الاحتياط في تنزيهه تعالى، حتى بعفة اللسان، عن النطق بما يوهم نقصاً في جانبه، فيتبرأ من مثل هذا اللفظ مطلقاً ومن كل ما شاكله. هذا وقد قيل إن القائل لذلك بعض من متقدميهم، وقيل ناس من أهل المدينة في عهد النبيّ ﷺ ولا دلالة في الآية على واحد منهما بخصوصه، ونسبة الشيء القبيح إذا صدر من بعض القوم إلى الكل، مما شاع.

لطيفة:

قرئ (عزيرٌ) بالتنوين على الأصل، لأنه منصرف، وقرئ بحذفه لالتقاء الساكنين على غير القياس، لا لأنه أعجمي غير منصرف للعلمية والعجمية، كما قيل، لأن ذلك إنما يصح لو كان على لفظه الأصلي، وهو (عزراء) أو (عزريا)،

لفظان عبرانيان، معنى الأول معين، والثاني اللّه مساعد. أما وقد تصرفت فيه العرب بالتصغير، فلا. وظاهر أن أغلب الأسماء القديمة، لانتقالها من أمة إلى أخرى وكثرة تداولها، تطرق إليها من شوائب التحريف والزيادة والنقصان، ما غير صيغتها الأصلية بعض التغيير ولما استعملت العرب من الأسماء العبرانية ونحوها ما أدخلته إلى لغتها، إما منحوتة من القديمة، أو محرفة منها، أصبحت بالاصطلاح من قبيل الأعلام العربية، إلا ما بقي على وضعه الأول.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما صدر عنهم من العظيمتين. وما فيه من معنى البعد، للدلالة على بعد درجة المشار إليه في الشناعة والفظاعة - قاله أبو السعود - ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ قال الزمخشريّ: فإن قلت: كل قول يقال بالفم، فما معنى ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما - أن يراد به أنه قول لا يعضده برهان، فما هو إلا لفظ يفوهون به، فارغ من معنى تحته، كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم، لا تدل على معان. وذلك أن القول الدال على معنى، لفظه مقول بالفم، ومعناه مؤثر في القلب. وما لا معنى له، مقول بالفم لا غير.

والثاني - أن يراد بالقول المذهب، كقولهم (قول أبي حنيفة)، يريدون مذهبه، وما يقول به، كأنه قيل: ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم، لا بقلوبهم، لأنه لا حجة معه ولا شبهة، حتى يؤثر في القلوب. وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له، لم تبق شبهة في انتفاء الولد. انتهى.

وثَمَّةَ وجه ثالث شائع في مثله، وهو التأكيد لنسبة هذا القول إليهم، مع التعجيب من تصريحهم بتلك المقالة الفاسدة. قال بعضهم: القول قد ينسب إلى الأفواه وإلى الألسنة، والأول أبلغ.

﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أي يضاهئ قولهم قولَ الذين كفروا من قبلهم من الأمم، فضلوا كما ضل أولئك. قيل: المراد بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مشركو مكة، القائلون بأن الملائكة بنات اللّه، وهذا يتم إن أريد بـ (اليهود والنصارى) في الآية، يهود المدينة ونصارى نجران في عهده ﷺ، وهو وجه في الآية كما تقدم، فإنهم سُبِقوا من أهل مكة بالكفر به ﷺ. وقيل: المراد بهم قدماؤهم، يعني أن من كان في

زمنه ﷺ منهم، يضاهئ قولهم قول قدمائهم. والمراد عراقتهم في الكفر، أي أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث.

قال أبو السعود: وفيه أنه لا تعدد في القول، حتى يتأتى التشبيه، وجعله بين قولي الفريقين، مع اتحاد المقول، ليس فيه مزيد مزيّة. وقيل: الضمير للنصارى، أي يضاهئ قولُهم ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ قولَ اليهود ﴿عُزَيْرٌ...﴾ الخ لأنهم أقدم منهم..

قال أبو السعود: وهو أيضاً كما ترى، فإنه يستدعي اختصاص الرد والإبطال بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، بقول النصارى انتهى.

والمضاهاة المشابهة، يقال: ضاهيت ، وضاهأت – كما قاله الجوهري – وقراءة العامة (يضاهون) بهاء مضمومة بعدها واو. وقرأ عاصم بهاء مكسورة بعدها همزة مضمومة، وهما بمعنى. من المضاهاة، وهي المشابهة، وهما لغتان. وقيل: الياء فرع عن الهمزة، كما قالوا: قريت وتوضيت وأخطيت ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ أي لعنهم أو قتلهم، أو عاداهم أو تعجب من شناعة قولهم ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

اتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّه وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى، وفيه وصفهم بنوع آخر من الشرك. والأحبار علماء اليهود جمع (حَبْر) بكسر الحاء وفتحها، وهو العالم بتحبير الكلام وتحسينه – كذا ذكره أئمة اللغة – قال بعضهم: (الحبر) أعظم الأشراف بين الإسرائيليين، يكون عندهم وسيلة للتقرب لله، ومرتبة وراثية في آل هارون، يكون بكر أشيخ من فيها. انتهى.

و (الرهبان) جمع راهب بمعنى المتعبد الخاشع الزاهد. وأصل الترهب عند النصارى، التخلي عن أشغال الدنيا، وترك ملاذّها، والزهد فيها، والعزلة عن أهلها.

وفي الحديث[١] (لا رهبانية في الإسلام). وقوله تعالى ﴿أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال الرازي: الأكثرون من المفسرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم، أي لما روى الترمذي[٢] عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبيّ ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي! اطرح عنك هذا الوثن. وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه.

وروى الإمام أحمد والترمذي[٣] وابن جرير[٤] من طرق، عن عدي بن حاتم رضي اللّه عنه أنه لما بلغته دعوة رسول اللّه ﷺ فرَّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية فاسرت أخته وجماعه من قومه، ثم منّ رسول اللّه ﷺ، على أخته، وأعطاها، فرجعت إلى أخيها، فرغَّبته في الإسلام، وفي القدوم على رسول اللّه ﷺ، فقدم عدي المدينة، وكان رئيساً في قومه طيىء، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول اللّه ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم. وقال رسول اللّه ﷺ: يا عدي! ما تقول؟ أيضرك أن يقال: اللّه أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من اللّه؟ ما يضرك أن يقال: لا إله إلا اللّه، فهل تعلم إلهاً غير اللّه؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق.

---

(١) اخرج الإمام أحمد في المسند ٣/٨٢ ضمن حديث طويل عن ابي سعيد الخدريّ.. وعليك الجهاد فإنه رهبانية الإسلام.
وبالصفحة ٢٦٦ من هذا الجزء عن أنس بن مالك «لكل نبيّ رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله».
وبالصفحة ٢٢٦ من الجزء السادس عن عائشة «يا عثمان! إن الرهبانية لم تكتب علينا...»
وجاء في مسند الدارمي في: النكاح، ٣ – باب النهي عن التبتل، عن سعد بن أبي وقاص «يا عثمان! إني لم اومر بالرهبانية».
(٢) أخرجه الترمذي في: التفسير، ٩ – سورة التوبة، ١٠– حدثنا الحسين بن مرثد الكوفي.
(٣) أخرجه الترمذي في: التفسير، ٩ – سورة التوبة، ١٠ – حدثنا الحسين بن مرثد الكوفيّ.
(٤) تفسير الطبري ١٠/١١٤ .

قال فلقد رأيت وجهه استبشر. ثم قال: إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون.

قال ابن كثير: وهكذا قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهما في تفسير هذه الآية، أنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

وقال السدّي: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

وقد ذكر بعض المفسرين وجهاً في تفسير اتخاذهم أرباباً، قال: بأن أطاعوهم بالسجود لهم.

قال الشهاب: والأول هو تفسير النبيّ ﷺ، فينبغي الاقتصار عليه، لأنه لما أتاه عديّ بن حاتم وهو يقرؤها قال له: إنا لم نعبدهم، فقال: ألم تتبعوهم في التحليل والتحريم؟ فهذه هي العبادة، والناس يقولون: فلان يعبد فلاناً، إذا أفرط في طاعته، فهو استعارة بتشبيه الإطاعة بالعبادة؛ أو مجاز مرسل بإطلاق العبادة، وهي طاعة مخصوصة على مطلقها، والأول أبلغ. انتهى.

قال الرازي: قال الربيع: قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟ فقال: إنهم ربما وجدوا في كتاب الله ما يخالف أقوال الأحبار والرهبان، فكانوا يأخذون بأقوالهم، وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى.

قال الرازي: قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضي الله عنه: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء، قرأت عليهم آيات كثيرة في كتاب الله تعالى في بعض مسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها، وبقوا ينظرون إليّ كالمتعجب، يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات، مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها؟ ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل المدينة. انتهى.

﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ أي والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا في كتابهم ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً﴾ أي يطيعوا أمره، ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه، وقوله ﴿لاَ إِله إِلاَّ هُوَ﴾ صفة ثانية لـ (إلهاً)، أو استئناف مقرر للتوحيد ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي به في العبادة والطاعة.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾

﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ**﴾ أي يخمدوا حجته الدالة على وحدانيته، وتقدسه عن الولد، أو القرآن، أو نبوّة محمد ﷺ ﴿**وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ**﴾ أي بإعلاء التوحيد، وإعزاز الإسلام ﴿**وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ أي بدلائل التوحيد، ذلك. قال أهل المعاني: نور الله استعارة أصلية تصريحية لحجته أو ما بعدها، لتشبيه كل منها بالنور في الظهر. والإطفاء ترشيح، أو هو استعارة تمثيلية، شبه حالهم في محاولتهم إبطال النبوة بالتكذيب، بحال من يطلب إطفاء نور عظيم، منبث في الآفاق، يريد الله أن يزيده بنفخه.

لطائف:

الأولى – قال الشهاب: روعي في كل من المشبه والمشبه به الإفراط والتفريط، حيث شبه الإبطال بالإطفاء بالفم، ونسب النور إلى الله. ومن شأن النور المضاف إليه أن يكون عظيماً، فكيف يطفأ بنفخ الفم، مع ما بين الكفر الذي هو ستر وإزالة للظهور، والإطفاء من المناسبة.

الثانية – لا يخفى أن قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ**﴾ استثناء مفرغ، وهو في محل نصب مفعول به، والاستثناء المفرغ يكون في الفعل المنفي لا الموجب، إلا أن يستقيم المعنى. وهنا صح التفريغ من الموجب وهو ﴿**وَيَأْبَى اللهُ**﴾ لأنه نفى في المعنى، لأنه وقع في مقابلة ﴿**يُرِيدُونَ**﴾ وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس في نفي الإرادة، أي لا يريد شيئاً من الأشياء إلا إتمام نوره، فيندرج في المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه، فضلاً عن الإطفاء – أفاده أبو السعود –

وقال الزجاج: المستثنى منه محذوف تقديره (ويكره الله كل شيء إلا إتمام نوره).

قال الشهاب: فالمعنى على العموم المصحح للتفريغ، عنده، فللناس في توجيه التفريغ هنا مسلكان. والحاصل أنه إن أريد كل شيء يتعلق بنوره بقرينة السياق، صح إرادة العموم، ووقوع التفريغ في الثابتات، كما ذهب إليه الزجاج، إذ ما من عامّ إلا وقد خُصِّص، فكل عموم نسبي، لكنه يكتفي به، ويسمى عموماً. ألا ترى

أن مثالهم (قرأت إلا يوم كذا) قد قدّروه كل يوم، والمراد من أيام عمره، لا من أيام الدهر. فإن نظر إلى الظاهر في أمثاله كان عاماً، واستغنى عن النفي، و إن نظر إلى نفس الأمر، فهو ليس بعام، فيؤول بالنفي، والمعنى فيهما واحد و إنما أوّل به هنا عند من ذهب إلى تأويله، لاقتضاء المقابلة له، إذ ما من إثبات إلا ويمكن تأويله بالنفي، فيلزمه جريان التفريغ في كل شيء، وليس كذلك ما صرح به الرضي. ولذا قيل: الاستثناء المفرغ، وإن اختص بالنفي، إلا أنه قد يمال مع المعنى بمعونة القرائن، ومناسبة المقامات، فيجري بعض الإيجابات مجرى النفي في صحة التفريغ معها - ذكره الشهاب أيضاً -.

الثالثة - قال أبو السعود: وفي إظهار (النور) في مقام الإضمار مضافاً إلى ضميره عز وجل - زيادة اعتناء بشأنه، وتشريف له على تشريف، وإشارة بعلة الحكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى**﴾ أي القرآن الذي هو هدى للمتقين ﴿**وَدِينِ الْحَقِّ**﴾ أي التوحيد الثابت الذي لا يزول ﴿**لِيُظْهِرَهُ**﴾ أي الدين الحق ﴿**عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾ أي على سائر الأديان ﴿**وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ أي أن يكون ذلك.

وجواب (لو) فيهما محذوف لدلالة ما قبله عليه، وجملة ﴿**هُوَ الَّذِي**﴾ الخ بيان وتقرير لمضمون الجملة قبلها، لأن المراد من إتمام نوره إظهاره ولكونه بحسب المآل بمعناه، ذيله بما ذيله به بعينه، لكنه عبر عن الكافرين بالمشركين تفادياً عن صورة التكرار - كذا في العناية -.

وفي الصحيح[1] عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن الله زوى لي الأرض، مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها.

---

(١) أخرجه مسلم في: الفتن وأشراط الساعة، حديث رقم ١٩. عن ثوبان.
وأخرجه أبو داود في: الفتن والملاحم، ١ - باب ذكر الفتن ودلائلها، حديث ٤٢٥٢.
والإمام أحمد في المسند ص ٢٧٨ ج٥.

وروى الإمام أحمد[١] عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول: صلى هذا الحي من محارب الصبح، فلما صلُّوا قال شاب منهم: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها في النار، إلا من اتقى اللّه وأدى الأمانة.

وأخرج أيضاً[٢] عن تميم الداري قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك اللّه بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين، يعز عزيزاً، ويذل ذليلاً، عزاً يعز اللّه به الإسلام، وذلاً يذل اللّه به الكفر.

وكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعزّ. ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذل والصغار والجزية.

وأخرج أيضاً[٣] عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام، يعز عزيزاً، ويذل ذليلاً، إما يعزهم اللّه فيجعلهم من أهلها، وإما يذلهم فيدينون لها.

وأخرج أيضاً[٤] عن عدي بن حاتم قال: دخلت على رسول اللّه ﷺ فقال: يا عدي! أسلم تسلم. فقلت: إني من أهل دين. قال: أنا أعلم بدينك منك. فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: نعم، ألست من الرَّكوسية، وأنت تأكل مرباع قومك؟ قلت: بلى! قال: فإن هذا لا يحل لك في دينك. قال: فلم يعد أن قالها، فتواضعتُ لها. قال: أما إني أعلم ما الذي يمنعك عن الإسلام، تقول: إنما اتبعه ضعفة الناس، ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد سمعت بها. قال: فوالذي نفسي بيده! ليتمنّ اللّه هذا الأمر، حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولتفتحنّ كنوز كسرى بن هرمز، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: نعمْ! كسرى بن هرمز، وليبذلنّ المال حتى لا يقبله أحد.

قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة، فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده! لتكوننّ الثالثة، لأن رسول اللّه ﷺ قد قالها.

---

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ص ٣٦٦ ج٥.
(٢) أخرجه في المسند ٤ / ١٠٣.
(٣) أخرجه في المسند ٦ / ٤.
(٤) أخرجه في المسند ٤ / ٢٥٧.

وروى[1] مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزّى، فقلت: يا رسول الله! إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ..﴾ الآية – إن ذلك تامّ! قال: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل، ثم يبعث الله ريحاً طيبةً، فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم.

قال في (اللباب): معنى الآية ليظهرن دين الإسلام على الأديان كلها، وهو ألا يعبد الله إلا به. وكذا روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: هذا وعد من الله تعالى بأنه يجعل الإسلام عالياً على جميع الأديان، وتمام هذا إنما يحصل عند خروج عيسى. وكذلك قال الضحاك والسدّي: لا يبقى أحد إلا دخل في الإسلام. وقال الشافعي: قد أظهر الله دين رسوله ﷺ على الأديان كلها، بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق، وما خالفه من الأديان باطل، وأظهره على الشرك دين أهل الكتاب، ودين الأميين، فقهر رسول الله ﷺ الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعاً وكرهاً، وقتل أهل الكتاب وسبى حتى دان بعضهم بالإسلام، وأعطى بعضهم الجزية صاغرين، وجرى عليهم حكمه. قال: فهذا هو ظهوره على الدين كله. انتهى.

قلت: ما ذكره الشافعي هو من ظهوره، والأدق ما تقدم، من أنه سوف يعتنقه كل فرقة، فإن ما تذهب إليه طوائف الإصلاح من الملل الأخرى لا يبعد الآن عن الإسلام إلا قليلاً.

ثم بيّن تعالى حال الأحبار والرهبان في إغوائهم لأراذلهم، إثر بيان سوء حال الأتباع في اتخاذهم لهم أرباباً يطيعونهم في الأوامر والنواهي، واتباعهم لهم فيما يأتون وما يذرون، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ والرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في: الفتن وأشراط الساعة، حديث رقم ٧٢.

أي بالطريق المنكر من الرّشا في الأحكام والتخفيف والمسامحة في الشرائع وغير ذلك. و (الأكل) مجاز عن الأخذ، بعلاقة العلّية والمعلولية: لأنه الغرض الأعظم منه. وفيه من التقبيح لحالهم، وتنفير السامعين عنه ما لا يخفى ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي عن دين الإسلام وحكمه، واتباع الدلائل، إلى ما يهوون. أو عن المسلك المقرر في التوراة والإنجيل، إلى ما افتروه وحرفوه.

ثم أشار إلى أن سبب ذلك هو إيثارهم حب المال وكنزه على أمر الله، وتناسيهم وعيده في الكنز بقوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي يحفظونهما حفظ المدفون في الأرض ﴿وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي الذي هو الزكاة ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا﴾ أي يوقد عليها ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ أي ويقال لهم ضماً إلى ما هم فيه، هذا ما كنزتم ﴿لأَنْفُسِكُمْ﴾ أي لتتلذذوا به، فكان سبب تعذيبها ﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي وباله، وهو ألمه وشدته بالكي.

وفي هذه الآية فوائد:

الأولى: قال بعضهم في قوله تعالى ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾ دلالة على تحريم الرشا على الباطل، وقد ورد[1] (لعن الله الراشي والمرتشي). وكذا تحريم أخذ العوض على فعل الواجب. وفي جواز الدفع ليتوصل إلى حقه خلاف. رجح الجواز ليتوصل إلى الحق، كالاستفداء. قال الحاكم يدخل في تحريم الرشا الأحكام والشهادات والفتاوى وأصول الدين وفروعه، وكل من حرّف شيئاً لغرض الدنيا. انتهى.

الثانية – في الآية – كما قال ابن كثير – تحذير من علماء السوء وعبّاد الضلال، كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود،

(١) اخرجه الترمذيّ في: الاحكام، ٩ – باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم.

ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى وفي الحديث الصحيح[١] (لتركبن سَنَن من كان قبلكم حَذْوَ القذَّة بالقذَّة﴾ قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟ وفي رواية: فارس والروم؟ قال: ومَنَ الناس إلا هؤلاء؟ ثم أنشد لابن المبارك:

وهل أَفْسَدَ الدينَ إلا الملو ... كُ، وأحبارُ سوء ورهبانُهَا

الثالثة - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿يَكْنِزُونَ﴾ أو منصوب تقديره: بشر الذين يكنزون. والتعريف في الموصول للعهد والمعهود، إما الأحبار والرهبان، وإما المسلمون الكانزون، لجري ذكر الفريقين، وإما ما هو أعم. والأول رُوِي عن معاوية، والثاني عن السدّي، والثالث عن ابن عباس وأبي ذرّ.

قال الزمخشري: يجوز أن يكون الموصول إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان، للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم: أخذ البراطيل، وكنز الأموال والضن بها عن الإنفاق في سبيل الله. ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين ويقرن بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى تغليظاً، ودلالةً على أن من يأخذ منهم السحت، ومن لا يعطي منكم طيب ماله، سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم. انتهى.

قال في (الأنوار): ويؤيد الثاني أنه لما نزل كبُر على المسلمين، فذكر عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ فقال: إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم - رواه[٢] أبو داود والحاكم وصححه - وقوله ﷺ ما أدي زكاته فليس بكنز - أخرجه الطبراني والبيهقي - أي ليس بالكنز المتوعَّد عليه في الآية، فإن الوعيد على الكنز مع عدم الإنفاق فيما أمر الله أن ينفق فيه. وأما قوله ﷺ: من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها ونحوه، فالمراد منها: ما لم يؤد حقها، لقوله ﷺ، فيما أورده

---

(١) أخرجه البخاري في: الأنبياء، ٥٠ - باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث ١٦٢٢.
وفي مسلم في: العلم، حديث رقم ٦ نصه هكذا:
عن أبي سعيد الخدري: أن النبيّ ﷺ قال «لتتبعنَّ سَنَن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع. حتى لو سلكوا حجر ضب لسلكتموه»، قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟
أما الحديث الذي جاء فيه حذو القذة بالقذة فقد أخرجه الإمام أحمد في المسند ص ١٢٥ ج٤ ونصه:
عن شداد بن أوس: «ليحملنّ شرار هذه الأمة على سَنَن الذي خلوا من قبلهم، أهل الكتاب، حذو القذة بالقذة».

(٢) أخرجه أبو داود في: الزكاة، ٣٢ - باب في حقوق المال، حديث ١٦٦٤.

الشيخان: البخاري في تاريخه، ومسلم[١] في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره. انتهى.

وقد اشتهرت محاورة معاوية لأبي ذر في هذه الآية.

روى البخاري[٢] عن زيد بن وهب قال: مررت بالربذة، فإذا بأبي ذر، فقلت: ما أنزلك هذا المنزل؟ قال: كنت في الشام، فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...﴾ فقال معاوية: نزلت في أهل الكتاب؛ فقلت: نزلت فينا وفيهم. فكان بيني وبينه في ذلك كلام، فكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليّ عثمان أن أقدم المدينة فقدمتها، فكثر عليّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال: إن شئت تنحيت، فكنت قريباً. فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أُمّر عليّ عبد حبشي لسمعت وأطعت.

ولابن جرير في رواية (بعد قول عثمان له: تَنح قريباً) قلت: والله لن أدع ما كنت أقول.

وروى أبو يعلى أن أبا ذر كان يحدث ويقول: لا يبيتنّ عند أحدكم دينار ولا درهم، إلا ما ينفقه في سبيل الله، أو يعدّه لغريم. فكتب معاوية إلى عثمان: إن كان لك بالشام حاجة، فابعث إلى أبي ذرّ فكتب إليه عثمان أن اقدم عليّ، فقدم.

قال ابن كثير: كان من مذهب أبي ذر رضي الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يفتي بذلك، ويحثهم عليه، ويأمرهم به، ويغلظ في خلافه. فنهاه معاوية فلم ينته. فخشي أن يضر بالناس في هذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان، وأن يأخذه إليه، فاستقدمه عثمان إلى المدينة، ثم أنزله بالربذة، وبها مات رضي الله عنه في خلافة عثمان. وقد اختبره معاوية رضي الله عنه وهو عنده، هل يوافق عمله قوله، فبعث إليه بألف دينار، ففرقها من يومه، ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال: إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت فهات الذهب. فقال: ويحك! إنها خرجت، ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في: الزكاة حديث رقم ٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في: الزكاة، ٤ – باب ما أدّي زكاته فليس بكنز، حديث رقم ٧٤٩.

وقال[1] الأحنف بن قيس: قدمت المدينة فبينا أنا في حلقة فيها ملأ من قريش، إذ جاء رجل أخشن الثياب، أخشن الجسد، أخشن الوجه، فقام عليهم فقال: بشر الكانزين بَرضْف يحمى عليه في نار جهنم، ثم يوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نُغْضِ كتفه، ويوضع على نُغْضِ كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه، يتزلزل. قال: فوضع القوم رؤوسهم، فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً. قال: وأدبر واتبعتُه حتى جلس إلى معاوية فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم، فقال: إن هؤلاء لا يعلمون شيئاً، إنما يجمعون الدنيا - رواه مسلم، وللبخاري نحوه -.

وفي الصحيح[2] أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهباً، يمر عليّ ثلاثة أيام، وعندي منه شيء، إلا دينار أرصده لدين.

قال ابن كثير: فهذا - والله أعلم - هو الذي حدا أبا ذر على القول بهذا.

أي وما أخرجه الشيخان[3] أيضاً عنه، قال: انتهيت إلى النبيّ ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني قال: هم الأخسرون ورب الكعبة! قال: فجئت حتى جلست، فلم أتقارّ حتى قمت فقلت: يا رسول الله! فداك أبي وأمي، من هم؟ قال: هم الأكثرون أموالاً، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا، من بين يديه من خلفه، وعن يمينه وعن شماله، وقليل ما هم.

وروى الإمام أحمد[4] عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه، أنه كان مع أبي ذر، فخرج عطاؤه ومعه جارية، فجعلت تقضي حوائجه، ففضلت معها سبعة، فأمرها أن تشتري به فلوساً. قال: قلت: لو ادخرته لحاجة بيوتك، وللضيف ينزل بك قال: إن خليلي عهد إليّ أن أيّما ذهب أو فضة أوكئ عليه، فهو جمر على صاحبه، حتى يفرغه في سبيل الله عزّ وجلّ إفراغاً.

قال ابن عبد البر: وردت عن أبي ذر آثار كثيرة، تدل على أنه كان يذهب إلى أن كل مال مجموع يفضل عن القوت، وسداد العيش، فهو كنز يذم فاعله، وأن آية الوعيد

---

(١) أخرجه البخاري في: الزكاة، ٤ - باب ما أدّي زكاته فليس بكنز، حديث رقم ٧٥٠.
وأخرجه مسلم في: الزكاة، حديث ٣٤.
(٢) أخرجه البخاري في: الاستقراض وأداء الديون، ٣ - باب أداء الديون، حديث رقم ٦٦٠.
(٣) أخرجه البخاري في: الأيمان والنذور، ٣ - باب كيف كانت يمين النبيّ ﷺ، حديث ٧٧٥.
وأخرجه مسلم في: الزكاة، حديث ٣٠.
(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ١٧٥.

نزلت في ذلك، وخالفه جمهور الصحابة ومن بعدهم، وحملوا الوعيد على مانعي الزكاة، وأصح ما تمسكوا به حديث طلحة وغيره في قصة الأعرابي[١] حيث قال: هل عليّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تَطَوَّعَ. انتهى.

وبالجملة فالجمهور على أن الكنز المذموم ما لم تؤدّ زكاته. وقد ترجم لذلك البخاري[٢] في (صحيحه) فقال (باب ما أدِّي زكاته فليس بكنز). ويشهد له حديث أبي هريرة[٣] مرفوعاً: إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك - حسنه الترمذي وصححه الحاكم -.

وعن ابن عمر: كلّ ما أديت زكاته، وإن كان تحت سبع أرضين، فليس بكنز وكلّ ما لا تؤدي زكاته فهو كنز، وإن كان ظاهراً على وجه الأرض - أورده البيهقي مرفوعاً، ثم قال: المشهور وقفه، كحديث جابر: إذا أديت زكاة مالك، فقد أذهبت عنك شره. أخرجه الحاكم، والمرجح وقفه.

هذا وذهب ابن عمر رضي الله عنهما ومن وافقه إلى أن الزكاة نسخت وعيد الكنز.

روى البخاري في (صحيحه)[٤] أن أعرابياً قال لابن عمر: أخبرني عن قول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...﴾ الآية - قال ابن عمر: من كنزها فلم يؤد زكاتها، فويل له. إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طهراً للأموال: زاد ابن ماجة[٥]: ثم قال ابن عمر: ما كنت أبالي لو كان لي مثل أحد ذهباً، أعلم عدده، أزكيه وأعملَ فيه بطاعة الله تعالى. ورواه أبو داود في كتاب (الناسخ والمنسوخ). فهذا يشعر بأن الوعيد على الاكتناز - وهو حبس ما فضل عن الحاجة عن المواساة به - كان في أول الإسلام، ثم نسخ ذلك بفرض الزكاة، لما فتح الله الفتوح، وقدّرت نصب الزكاة. ويشعر أيضاً بأن فرض الزكاة كان في السنة التاسعة من الهجرة، وجزم به ابن الأثير في (تاريخه): وقواه بعضهم بما وقع في قصة ثعلبة بن حاطب المطولة، ففيها لما أنزلت آية الصدقة بعث النبيّ ﷺ عاملاً فقال: ما هذه إلا

---

(١) يشير إلى حديث البخاري الذي رواه عن طلحة بن عبيد الله في: الإيمان، ٣٤ - باب الزكاة من الإسلام، حديث ٤٢.

(٢) أخرجه في: الزكاة، ٤ - باب ما أدي زكاته فليس بكنز.

(٣) أخرجه الترمذي في: الزكاة، ٢ - باب ما جاء إذا أديت الزكاة فقد قضيت ما عليك.

(٤) أخرجه البخاري في: الزكاة، ٤ - باب ما أدي زكاته فليس بكنز، حديث ٧٤٧.

(٥) أخرجه ابن ماجة في: الزكاة، ٣ - باب ما أدي زكاته فليس بكنز، حديث ١٧٨٧.

جزية أو أخت الجزية. والجزية إنما وجبت في التاسعة.

وأقول: هذا الحديث ضعفوه. والأقوى منه كون هذه السورة التي فيها هذه الآية نزلت في السنة التاسعة كما قدمنا. فإذا نسخت بالزكاة كانت الزكاة في تلك السنة أو بعدها قطعاً.

قال ابن حجر في (الفتح): والظاهر أن ذلك كان في أول الأمر كما تقدم عن ابن عمر. واستدل له ابن بطال بقوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، أي ما فضل عن الكفاية، فكان ذلك واجباً في أول الأمر، ثم نسخ - والله أعلم-.

وفي المسند[١] من طريق يعلى بن شداد بن أوس عن أبيه قال: كان أبو ذر يسمع الحديث من رسول الله ﷺ فيه الشدة. ثم يخرج إلى قومه، ثم يرخص فيه النبيّ ﷺ فلا يسمع للرخصة، ويتعلق بالأمر الأول.

وما سقناه من مذهب أبي ذر، هو ما ساقه المفسرون وشراح الحديث. وزعم بعضهم أن الذي حدا أبا ذر لذلك ما رآه من استئثار معاوية بالفيء حيث قال: الذي صح أن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم كانوا يعتبرون الفيء لكافة المسلمين، يستوي فيه المقاتلون وغيرهم، ولعله باعتبار أن القتال فريضة على كل المسلمين، فكلهم داخل تحت ذلك الحكم. قال: والذي يؤيد أنه لكافة المسلمين، أن أبا ذر رضي الله عنه لما كان بالشام، والوالي عليها، من قبَل الخليفة عثمان، معاوية رضي الله عنهما، ورأى من معاوية ما يشعر بحرصه على ادخار المال في بيت المال، لصرفه في وجوه المصالح التي يراها للمسلمين، وكان أبو ذر مشهوراً بالورع شديد الحرص على حقوق المسلمين، يقول الحق ولو على نفسه. أخذ يتكلم بهذا الأمر بين الناس واتخذ له حزباً من أهل الشام يساعده على مطالبة معاوية برد المال للمسلمين، وبيان عدم الرضا بكنزه في بيت المال، لأي حال من الأحوال، إلا لتوزيعه على كافة المسلمين لاشتراكهم بما أفاء الله عليهم أجمعين وتابعه على قوله جماعة كثيرون، كانوا يجتمعون لهذا القصد سراً وجهراً، حتى كادت تكون فتنة، فشكاه معاوية إلى الخليفة عثمان رضي الله عنهم أجمعين فنفاه إلى الربذة خوفاً من حدوث ما لا تحمد عقباه. انتهى.

---

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/١٢٥ .

ونقل ما يقرب منه ابن حجر في (الفتح) حيث قال: والصحيح أن إنكار أبي ذر كان على السلاطين الذين يأخذون المال لأنفسهم ولا ينفقونه في وجهه.

الرابعة – إنما قيل ﴿ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا ﴾ بضمير المؤنث، مع أن الظاهر التثنية، إذ المذكور شيئان لأن المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة، وذلك لأن الكثير منهما هو الذي يكون كنزاً، فأتى بضمير الجمع للدلالة على الكثرة، ولو ثنّى احتمل خلافه. وقيل: الضمير عائد على الكنوز أو الأموال المفهومة من الكلام، فيكون الحكم عاماً، ولذا عدل فيه عن الظاهر. وتخصيصهما بالذكر، لأنهما الأصل الغالب في الأموال للتخصيص. وقيل: الضمير للفضة، واكتفى بها، لأنها أكثر، والناس إليها أحوج، ولأن الذهب يعلم منها بالطريق الأولى، مع قربها لفظاً.

الخامسة – في قوله تعالى ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ تهكم بهم، كما في قوله:

* تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ *

وقيل: البشارة هي الخبر الذي يتغير له لون البشرة، لتأثيره في القلب، سواء كان من الفرح أو من الغم.

السادسة – قيل في تخصيص هذه الأعضاء الثلاثة بالكيّ دون غيرها: بأن جمع ذويها وإمساكهم كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية، والملابس البهية، فَلِوَجاهتهم ورئاستهم المعروفة بوجوههم، كان الكيّ بجباههم، ولامتلاء جنوبهم بالطعام كووا عليها. ولما لبسوه على ظهورهم كويت. وقيل: لأنهم إذا سألهم فقير تبدو منهم آثار الكراهة والمنع، فتكلح وجوههم، وتقطب. ثم إذا كرر الطلب ازورّوا عنه وتركوه جانباً، ثم إذا ألحّ ولَّوه ظهورهم واستقبلوا جهة أخرى، وهي االنهاية في الرد، والغاية في المنع، الدال على كراهيةَ الإعطاء و البذل. وهذا دأب مانعي البر والإحسان، وعادة البخلاء، فكان ذلك سبباً لكيّ هذه الأعضاء. وقيل: لأن هذه الأعضاء أشرف الأعضاء الظاهرة، إذ هي المشتملة على الأعضاء الرئيسية التي هي الدماغ والقلب والكبد. أو لأنها أصول الجهات الأربع التي هي مقاديم البدن ومآخره وجنباه، فيكون كناية عن جميع البدن.

وقال القاشاني: جمع المال وكنزه مع عدم الإنفاق لا يكون إلا لاستحكام رذيلة الشح، وحب المال. وكل رذيلة لها كيّة يعذب بها صاحبها في الآخرة ويخزى بها في الدنيا. ولما كانت مادة رسوخ تلك الرذيلة واستحكامها هي ذلك المال، وكان هو

الذي يحمى عليه في نار جحيم الطبيعة، وهاوية الهوى، فيكوى به. وإنما خصت هذه الأعضاء، لأن الشحّ مركوز في النفس، والنفس تغلب القلب من هذه الجهات، لا من جهة العلوّ التي هي جهة استيلاء الروح وممرّ الحقائق والأنوار، ولا من جهة السفل التي هي من جهة الطبيعة الجسمانية، لعدم تمكن الطبيعة من ذلك، فبقيت سائر الجهات، فيؤذى بها من الجهات الأربع ويعذب، كما تراه يعاب بها في الدنيا، ويجزى من هذه الجهات أيضاً، إما بأن يواجه بها جهراً فيفضح، أو يسارّ بها في جنبه، أو يغتاب بها من وراء ظهره -انتهى -.

السابعة – قال أبو البقاء (يَوْمَ) من قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا﴾ ظرف على المعنى. أي يعذبهم في ذلك اليوم. وقيل: تقديره عذاب يوم، وعذاب بدل من الأول، فلما حذف المضاف أقام (اليوم) مقامه. وقيل: التقدير اذكروا؛ و (عليها) في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل. وقيل: القائم مقام الفاعل مضمر، أي يحمى الوقود أو الجمر، و (بها) أي بالكنوز. وقيل: هي بمعنى (فيها) أي في جهنم وقيل: (يوم) ظرف لمحذوف تقديره: يوم يحمى عليها يقال لهم هذا ما كنزتم.

ولما بيّن تعالى فيما تقدم إقدام الأحبار والرهبان على تغيير أحكام الله تعالى إيثاراً لحظوظهم، أتبعه بما جرأ عليه المشركون في نظيره من تغيير الأشهر التي حرمها الله تعالى بغيرها. وهو النسيء الآتي، وقوفاً مع شهواتهم أيضاً، فنعى عليهم سعيهم في تغيير حكم السنَة بحسب أهوائهم وآرائهم مما أوجب زيادة كفرهم، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي عددها ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي في حكمه ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْراً﴾ وهي القمرية التي عليها يدور فلك الأحكام الشرعية ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في اللوح المحفوظ، أو فيما أثبته وأوجبه من حكمه. وقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ متعلق بما في الجار والمجرور من معنى الاستقرار. أراد بـ (الكتاب) على أنه مصدر،

والمعنى : أن هذا أمر ثابت في نفس الأمر، منذ خلق الله تعالى الأجرام والحركات والأزمنة. أفاده أبو السعود ﴿مِنْهَا﴾ أي من تلك الشهور الاثني عشر ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ثلاثة سَرْدٌ: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وواحد فرد وهو رجب ﴿ذَلِكَ﴾ أي تحريم الأشهر الأربعة المذكورة ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي المستقيم ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي بهتك حرمتها بالقتال فيها. وقال ابن إسحاق: أي لا تجعلوا حرامها حلالاً، ولا حلالها حراماً، كما فعل أهل الشرك ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي جميعاً ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي بالنصر والإمداد.

ثم بيّن تعالى ثمرة هذه المقدمة، وهو تحريم تغيير ما عيّن تحريمه من الأشهر الحرم، وإيجاب الحذو بها على ما سبق في كتابه، ناعياً على المشركين كفرهم، بإهمالهم ذلك، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ أي تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر مصدر (نسأه) إذا أخره ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ لأنه تحليل ما حرمه الله، وتحريم ما حلله، فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بالله عن أحكامه إذا يجمعون بين الحلّ والحرمة في شهر واحد ﴿يُحِلُّونَهُ عَاماً﴾ أي: يحلون النسيء من الأشهر الحرم سنة، ويحرمون مكانه شهراً آخر ﴿وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً﴾ أي يتركونه على حرمته القديمة، ويحافظون عليها سنة أخرى، إذا لم يتعلق بتغييره غرض من أغراضهم، والتعبير عن ذلك بالتحريم، باعتبار إحلالهم له في العام الماضي، والجملتان تفسير للضلال، أو حال.

قال الزمخشري: النسيء تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات، فإذا جاء الشهر الحرام، وهم محاربون، شق عليهم ترك المحاربة، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرمون من أشق شهور العام أربعة أشهر، وذلك قوله تعالى: ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي ليوافقوا العدة التي هي الأربعة، ولا يخالفوها، وقد

خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين، وربما زادوا في عدد الشهور، فيجعلونها ثلاثة عشر، أو أربعة عشر، ليتسع لهم الوقت. ولذلك قال عز وعلا ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّه اثْنَا عَشَرَ شَهْراً﴾ يعني من غير زيادة زادوها ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ بتركهم التخصيص للأشهر بعينها ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ فاعتقدوا قبيحها حسناً ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

اعلم أن في هاتين الآيتين مسائل:

الأولى – أن الأحكام تعلق بالأشهر العربية، وهي شهور الأهلة، دون الشهور الشمسية. قيل: جعلُ أول الشهور الهلالية المحرم، حَدَثَ في عهد عمر رضي اللّه عنه، وكان قبل ذلك يؤرخ بعام الفيل. ثم أرخ في صدر الإسلام بربيع الأول. وقد نقل ابن كثير هنا عن السخاوي وجوه تسمية الأشهر بما سميت به، ونحن نورد ذلك مأثوراً عن أمهات اللغة المعول عليها فنقول:

١ – المحرم: على أنه اسم المفعول، هو أول الشهور العربية. أدخلوا عليه الألف واللام لمْحاً للصفة في الأصل، وجعلوها علماً بهما، مثل النجم والدبران ونحوهما، ولا يجوز دخولهما على غيره من الشهور عند قوم، وعند قوم يجوز على صفر وشوال. وجمعُ المحرم محرمات. والمحرم شهر اللّه، سمته العرب بهذا الاسم، لأنهم كانوا لا يستحلون فيه القتال، وأضيف إلى اللّه تعالى إعظاماً له، كما قيل للكعبة (بيت اللّه). وقيل: سمي بذلك، لأنه من الأشهر الحرم. قال ابن سيده: وهذا ليس بقوي.

٢ – صفر: الشهر الذي بعد المحرم. قال بعضهم: إنما سمي لأنهم كانوا يمتارون الطعام فيه من المواضع. وقيل: لإصفار مكة من أهلها إذا سافروا. وروي عن رؤبة أنه قال: سموا الشهر (صفراً)، لأنهم كانوا يغزون فيه القبائل، فيتركون من لقوا صِفْراً من المتاع، وذلك أن صفراً بعد المحرم، فقالوا: صفر الناس منا صفراً. قال ثعلب: الناس كلهم يصرفون صفراً إلا أبا عبيدة، فمنعه للعلمية والتأنيث،بإرادة الساعة، يعني أن الأزمنة كلها ساعات، وإذا جمعوه مع المحرم قالوا: (صفران)، ومنه قول أبي ذؤيب:

أَقَامَتْ بِهِ كمقَام الحنيـ ـف شَهْرَيْ جُمَادَى وشَهْرَيْ صَفَرْ

(استشهد به في اللسان في مادة (ص ف ر) وليس في ديوان الهذليين).

قال ابن دريد : الصفران من السنة شهران ، سمي أحدهما في الإسلام المحرم؛ وجمعه أصفار، مثل سبب وأسباب، وربما قيل (صفرات).

٣ و ٤ – الربيع شهران بعد صفر، سميا بذلك لأنهما حُدًّا في هذا الزمن، فلزمهما في غيره قالوا: لا يقال فيهما إلا شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر، بزيادة (شهر) وتنوين (ربيع)، وجعل (الأول) و (الآخر) وصفاً تابعاً في الإعراب، ويجوز فيه الإضافة، وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه عند بعضهم، لاختلاف اللفظين، نحو ﴿حَبَّ الحَصِيدِ﴾ [ق:٩]، ﴿وَلَدَارُ الآخرة﴾ [يوسف:١٠٩]، و﴿حق اليقين﴾ [الواقعة:٩٥]و [الحاقة:٥١]، ومسجد الجامع[1]. قال بعضهم: إنما التزمت العرب لفظ (شهر) قبل (ربيع) لأن لفظ (ربيع) مشترك بين الشهر والفصل، فالتزموا لفظ شهر (في الشهر) وحذفوه في (الفصل) للفصل.

قال الأزهري أيضاً: والعرب تذكر الشهور كلها مجردة من لفظ (شهر) إلا شهري ربيع ورمضان. ويثنّى الشهر ويجمع، فيقال شهرا ربيع، وأشهر ربيع، وشهور ربيع.

٥ و ٦ – جمادى الأولى والآخرة (كحُبارى) الشهران التاليان لشهري ربيع. وجمادى معرفة مؤنثة. قال ابن الأنباري: أسماء الشهور كلها مذكرة، إلا جماديين، فهما مؤنثان. تقول مضت جمادى بما فيها؛ قال الشاعر:

إذا جُمَادى مَنَعَتْ قَطْرَها زان جِنَاني عَطَنٌ مُغْضِفُ

ثم قال: فإن جاء تذكير جمادى في شعر، فهو ذهاب إلى معنى الشهر. كما قالوا: هذه ألف درهم، على معنىَ هذه الدراهم. والجمع على لفظها جماديات، والأولى والآخرة صفة لها. فالآخرة بمعنى المتأخرة. قالوا: ولا يقال جمادى الأخرى، لأن الأخرى بمعنى الواحدة فتتناول المتقدمة والمتأخرة، فيحصل اللبس. فقيل الآخرة لتختص بالمتأخرة. وإنما سميت بذلك لجمود الماء فيها، عند تسمية الشهور، من البرد. قال:

في ليلةٍ من جُمَادَى ذاتِ أندية لا يُبْصِرُ الكلب من ظلمائها الطُّنُبَا
لا ينبح الكلبُ فيها غيرَ واحدة حتى يَلُفَّ على خُرْطُومِهِ الذَّنَبَا

---

(١) أخرجه في المسند ٤ /٢٤٧ ، ونصه: هشام عن محمد قال: دخلت مسجد الجامع....الخ.

٧ - رجب: سمي به لتعظيمهم إياه في الجاهلية عن القتال فيه يقال: رَجَبَ فلاناً، هابه وعظمه. كرجّبه. منصرف وله جموع: أرجاب وأرجبة وأرجُب ورجاب ورجوب وأراجب وأراجيب ورجبانات. وإذا ضموا له شعبان قالوا (رجبان) للتغليب. وفي الحديث[1]: رجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. وقوله (بين جمادى وشعبان) تأكيد للشأن وإيضاح، لأنهم كانوا يؤخرونه من شهر إلى شهر، فيتحول عن موضعه الذي يختصّ به، فبيّن لهم أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا ما كانوا يسمونه على حساب النسيء، وإنما قيل: رجب مضر وأضَافَهُ إليهم، لأنهم كانوا أشد تعظيماً له من غيرهم، وكأنهم اختصوا به، وذكر له بعضهم سبعة عشر اسماً.

٨ - شعبان: جمعه شعبانات وشعابين. من (تشعب) إذا تفرق كانوا يتشعبون فيه في طلب المياه. وقيل في الغارات. وقال ثعلب: قال بعضهم: إنما سمي شعبان لأنه شعب أي ظهر بين شهر رمضان ورجب.

٩ - رمضان: سمي به لأن وضعه وافق الرَّمَضَ (بفتحتين)، وهو شدة الحر، وجمعه رمضانات وأرمضاء. وعن يونس أنه سمع رماضين، مثل شعابين. وقيل: هو مشتق من (رمض الصائم يرمض) إذا اشتد حرّ جوفه من شدة العطش، وهو قول الفراء. قال بعض العلماء: يكره أن يقال جاء رمضان وشبهه، إذا أريد به الشهر، وليس معه قرينة تدلّ عليه. وإنما يقال: جاء شهر رمضان، واستدل بحديث (لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسم من أسماء اللّه تعالى، ولكن قولوا شهر رمضان) وهذا الحديث ضعّفه البيهقي، وضعفه ظاهر، لأنه لم ينقل عن أحد من العلماء أن رمضان من أسماء اللّه تعالى، فلا يعمل به. والظاهر جوازه من غير كراهة، كما ذهب إليه البخاري وجماعة من المحققين، لأنه لم يصح في الكراهة شيء. وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة ما يدل على الجواز مطلقاً، كقوله[2]: إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلّقت أبواب النار وصفّدت الشياطين.

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٩ - سورة التوبة، ٨ - باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، الحديث رقم ٥٩ عن أبي بكرة.

(٢) أخرجه البخاري في: الصوم، ٥ - باب هل يقال: رمضان و شهر رمضان، حديث ٩٦٤.
ومسلم في: الصيام، حديث رقم١ عن أبي هريرة.
وفي البخاري: وسلسلت الشياطين، وفي مسلم: صفّدت.

وحقق السهيلي أن لحذف (شهر) مقاماً يباين مقام ذكره، يراعيه البليغ.

وحاصله أن في حذفه إشعاراً بالعموم، وفي ذكره خلاف ذلك، لأنك إذا قلت شهر كذا، كان ظرفاً وزال العموم من اللفظ، إذ المعنى في الشهر، ولذلك قال ﷺ[١] (من صام رمضان) ولم يقل (شهر رمضان) ليكون العمل فيه كله. انتهى. فليتأمل

١٠ – شوال: شهر عيد الفطر، وأول أشهر الحج، وجمعه شوالات وشواويل، وقد تدخله الألف واللام. قال ابن فارس: وزعم ناس أن الشوال سمي بذلك لأنه وافق وقتاً تشول فيه الإبل، أي ترفع ذنبها للقاح، وهو قول الفراء. وقال غيره: سمي بتشويل ألبان الإبل، وهوتولّيه وإدباره، وكذلك حال الإبل في اشتداد الحر، وانقطاع الرطب وكانت العرب تتطيّر من عقد المناكح فيه وتقول: إن المنكوحة تمتنع من ناكحها، حتى تمتنع طروقة الجمل إذا لقحت وشالت بذنبها. فأبطل النبي ﷺ طيرتهم. وقالت عائشة رضي اللّه عنها[٢]: تزوجني رسول اللّه ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، وأيّ نسائه كان أحظى عنده مني؟

١١ – ذو القعدة: بفتح القاف، والكسر لغة، سمي به لأن العرب كانوا يقعدون فيه عن الأسفار والغزو والميرة وطلب الكلأ، ويحجون في ذي الحجة: والجمع ذوات القعدة، وذوات القعدات، والتثنية ذواتا القعدة وذواتا القعدتين، فثنوا الاسمين وجمعوهما، وهو عزيز، لأن الكلمتين بمنزلة كلمة واحدة، ولا تتوالى على كلمة علامتا تثنية ولا جمع.

١٢ – ذو الحجة: الشهر الذي يقع فيه الحج سمي بذلك للحج فيه، والجمع ذوات الحجة، ولم يقولوا (ذوو) على واحده، والفتح فيه أشهر من الكسر، و(الحجة) بالكسر المرأة الواحدة من الحج، وهو شاذّ لأن القياس في المرة الفتح – انتهى –.

وقد أوردنا هذا ملخصاً عن (المصباح) و (القاموس) و (شرحه).

المسألة الثانية – قدمنا أن الأشهر الحرم الأربعة، ثلاثة سَرْدٌ أي متتابعة، وواحد فرد وكانت العرب لا تستحل فيها القتال، إلاّ حيّان: خثعم وطيّئ، فإنهما كانا

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الصوم، ٦ – باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية، حديث رقم ٣٣ عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه مسلم في: النكاح، حديث رقم ٧٣.

يستحلان الشهور. وكان الذين ينسأون الشهور أيام الموسم يقولون: حرمنا عليكم القتال في هذه الشهور إلا دماء المحلين، فكانت العرب تستحل دماءهم خاصة في هذه الشهور. وكان لقومٍ من غطفان وقيس، يقال لهم الهبا آت، ثمانية أشهر حرم، يقال لها (البَسْل) يحرمونها تشدداً وتعمقاً.

الثالثة: قال ابن كثير: إنما كانت الأشهر المحرمة أربعة: ثلاثة سرد، وواحد فرد، لأجل أداء المناسك - الحج والعمرة - فحرم، قبل أشهر الحج، شهر وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال. وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون بأداء المناسك. وحرم بعده شهر آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين. وحرم رجب في وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتمار به، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً.

الرابعة - قال النووي في (شرح مسلم): وقد اختلفوا في كيفية عدتها على قولين حكاهما الإمام أبو جعفر النحاس في كتابه (صناعة الكاتب) قال: ذهب الكوفيون إلى أنه يقال: المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة قال: والكتاب يميلون إلى هذا القول ليأتوا بهن من سنة واحدة قال: وأهل المدينة يقولون: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. وقوم ينكرون هذا ويقولون: جاؤوا بهن من سنتين. قال أبو جعفر: وهذا غلط بيّن، وجهل باللغة، لأنه قد علم المراد، وأن المقصود ذكرها، وأنها في كل سنة، فكيف يتوهم أنها من سنتين؟ قال: والأوْلى والاختيار ما قاله أهل المدينة، لأن الأخبار قد تظاهرت عن رسول الله ﷺ كما قالوا، من رواية ابن عمر وأبي هريرة وأبي بكرة رضي الله عنهم، قال: وهذا أيضاً قول أكثر أهل التأويل.

الخامسة - استنبط بعضهم من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ أن الإثم في هذه الأشهر المحرمة آكد وأبلغ في الإثم في غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥] وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام، ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا في حق من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم. وقال ابن عباس فيما رواه عنه عليّ بن أبي طلحة: أنه تعالى اختص من الأشهر أربعة أشهر جعلهن حراماً، وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم.

وقال قتادة: إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما

سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، ولكن الله يعظّم من أمره ما يشاء. وقال: إن الله اصطفى صفايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر. فعظّموا ما عظّم الله، فإنما تعظيم الأمور بما عظم الله به عند أهل الفهم، وأهل العقل – نقله ابن كثير – ثم ذكر أن ابن جرير اختار في قوله تعالى ﴿فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ ما قاله ابن إسحاق فيما تقدم.

أقول: وهو الظاهر المتبادر.

السادسة – قال المهايمي: إنما كان منها أربعة حرم ليكون ثلث السنة تغليباً للتحليل الذي هو مقتضى سعة الرحمة، على التحريم الذي هو مقتضى الغضب فجعل أول السنة وآخرها وهو المحرم وذو الحجة. ولما لم يكن له وسط صحيح، أخذ أول النصف الآخر وهو رجب، فبقي من الثلث شهر، فأخذ قبل الآخر وهو ذو القعدة، ليكون مع آخر السنة المتصلة بأولها وتراً، وبقي وترية رجب فتتم السنة على التحريم باعتبار أولها وآخرها، وأوسطها، مع تذكر وترية الحق المؤكد للتحريم. انتهى.

السابعة – استدل جماعة بقوله تعالى ﴿فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦] على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ. وكذا بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّه وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة:٢] وبقوله تعالى ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ..﴾ [التوبة:٥] الآية – وذهب آخرون إلى أن تحريم القتال فيها، منسوخ بآية السيف، يعني قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة:٣٦] قالوا: ظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عامّاً ولو كان محرماً في الشهر الحرام، لأوشك أن يقيده بانسلاخها، وبأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام، وهو ذو القعدة، كما ثبت في الصحيحين[1] أنه خرج إلى هوازن في شوال، فلما كسرهم واستفاء

---

(1) أخرجه البخاري في: المغازي، ٥٦ – باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، حديث رقم ١٩٢٨ عن عبد الله بن عمر.
وأخرجه مسلم في: الجهاد والسير، حديث ٨٢.

أموالهم ورجع فلّهم، لجؤوا إلى الطائف، فعمد إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوماً، وانصرف ولم يفتتحها، فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام. وأجاب الأولون بأن الأمر بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ...﴾ [التوبة:٥] الآية – فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد في تحريم القتال في الأشهر الحرم، كما هي مقيدة بتحريم القتال في الحرَم، للأدلة الواردة في تحريم القتال فيه. فقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً...﴾ الآية – من باب التهييج والتحضيص، أي كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم، فاجتمعوا كذلك لهم. أو هو إذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام، إذا كانت البداءة منهم، كما قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة:١٩٤] وقال تعالى: ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ...﴾ [البقرة:١٩١] الآية – وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدؤوا القتال، وجمعوا الرجال، ودعوا إلى الحرب والنزال، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم. فلما تحصّنوا بالطائف، ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم، فنالوا من المسلمين، وقتلوا جماعة واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً، وكان ابتداؤه في شهر حلال، ودخل الشهر الحرام، فاستمر فيه أياماً، ثم قفل عنهم، لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا أمر مقرر، وله نظائر كثيرة. فالمحرم هو ابتداء القتال في الأشهر الحرام، لا إتمامه، وبهذا يحصل الجمع، ولذا قال ابن جريج: حلف بالله عطاءُ بن أبي رباح؛ ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، وما نسخت إلا أن يقاتلوا فيها.

الثامنة – قال في (الإكليل) في قوله تعالى ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ...﴾ الآية – إنَّ الله وضع هذه الأشهر وسماها ورتبها على ما هي عليه، وأنزل ذلك على أنبيائه، فيستدل بها لمن قال: إن اللغات توقيفية.

التاسعة – في (الإكليل) أيضاً: استدل بقوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ من قال إن الجهاد في عهده ﷺ كان فرض عين.

العاشرة – قال ابن إسحاق: كان أول من نسأ الشهور على العرب، فأحل منها ما حرم الله، وحرم منها ما أحل الله عزَّ وجلَّ (القَلَمَّس) وهو حذيفة بن عبد فُقَيْم بن

عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خُزَيْمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. ثم قام بعده على ذلك ابنه عبّاد، ثم ابنه قَلَع، ثم أمية بن قلع ثم ابنه عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثُمامة جُنادة بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام،فكانت العرب، إذا فرغت من حجها، اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً فحرم رجباً، وذا القعدة، وذا الحجة ويحل (المحرم) عاماً، ويجعل مكانه (صفر) ويحرمه عاماً ليواطئ عدة ما حرم الله، فيحل ما حرم الله يعني ويحرم ما أحل الله. انتهى.

و (القَلَمَّس) بقاف فلام مفتوحتين ثم ميم مشددة. قال في (القاموس وشرحه): هو رجل كناني من نَسَأَةِ الشهور على معدّ في الجاهلية، كان يقف عند جمرة العقبة ويقول: أحد الصفرين، وحرمت صفر المؤخر، وكذا في الرجبين، (يعني رجباً وشعبان) ثم يقول: انفروا على اسم الله تعالى. قال شاعرهم:

* وفينا ناسئ الشهر القَلَمَّس *

وقال عمير بن قيس المعروف بِجَذْل الطِّعان:

لقد علمت معدٌّ أنَّ قومي ... كرامُ الناس أنَّ لهم كراما
ألسنا الناسئين على معدّ ... شهورَ الحلّ نجعلها حراما
فأي الناس فاتونا بِوِتْرٍ ... وأي الناسِ لم نُعْلِكْ لِجَاما

وروي[١] أن أول من سن النسيء عمرو بن لُحَيّ، والذي صح من حديث أبي هريرة وعائشة؛ أن عمرو بن لحيّ أول من سيّب السوائب، وقال فيه النبيّ ﷺ (رأيت عمرو بن لحيّ يجر قُصْبَهُ في النار).

ثم حرّض تعالى المؤمنين على قتال الكفرة، إثر بيان طرف من قبائحهم الموجبة لذلك، وأشار إلى توجه العتاب والملامة إلى المتخلفين عنه، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

(١) أخرجه البخاري في: المناقب، ٩ – باب قصة خزاعة، حديث ١٦٥٦ و ١٦٥٧ عن أبي هريرة.
وأخرجه مسلم في: صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم ٥٠.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ أي تثاقلتهم وتباطأتم. والاستفهام في ﴿مَا لَكُمْ﴾ فيه معنى الإنكار والتوبيخ.

وقوله ﴿إِلَى الأَرْضِ﴾ متعلق بـ ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ على تضمينه معنى الميل والإخلاد، أي اثاقلتم مائلين إلى الدنيا وشهواتها الفانية عما قليل، وكرهتم مشاقّ الغزو، المستتبعة للراحة الخالدة، كقوله تعالى: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف:١٧٦]. أو مائلين إلى الإقامة بأرضكم ودياركم. وكان ذلك في غزوة تبوك في سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف، استُنْفِرُوا لغزو الروم في وقت عسرة وقحط وقيظ، وقد أدركت ثمار المدينة وطابت ظلالها، مع بُعد الشقة، وكثرة العدوّ، فشق عليهم.

وقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي الحقيرة الفانية ﴿مِنَ الآخِرَةِ﴾ أي بدل الآخرة ونعيمها الدائم ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ اظهر في مقام الإضمار لزيادة التقرير، أي فما التمتع بلذائذها ﴿فِي الآخِرَةِ﴾ أي في جنب الآخرة أي إذا قيست إليها، و (في) هذه تسمى (في القياسية) لأن المقيس يوضع بجنب ما يقاس به ﴿إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ أي مستحقر لا يؤبه له.

روى الإمام أحمد[١] ومسلم[٢] عن المستورد قال: قال رسول الله ﷺ: ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل احدكم إصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع - وأشار بالسبابة -.

ثم توعد تعالى من لم ينفر إلى الغزو، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ أي لنصرة نبيه، وإقامة دينه ﴿وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً﴾ لأنه الغني عن العالمين، أي وإنما تضرون أنفسكم. وقيل:

(١) اخرجه الإمام احمد في المسند ٤ / ٢٢٩.
(٢) اخرجه مسلم في: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم ٥٥.

الضمير للرسول ﷺ، أي ولا تضروه، لأن الله وعده النصر، ووَعْدُهُ كائن لا محالة. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي من التعذيب والتبديل ونصرة دينه بغيرهم. وفي هذا التوعد، على من يتخلف عن الغزو، من الترهيب الرهيب ما لا يقدر قدره.

تنبيه:

قال بعضهم: ثمرة الآية لزوم إجابة الرسول ﷺ إذا دعا إلى الجهاد، وكذا يأتي مثله في دعاء الأئمة، ويأتي مثل الجهاد، الدعاء إلى سائر الواجبات، وفي ذلك تأكيد من وجوه:

الأول – ما ذكره من التوبيخ.

الثاني – قوله تعالى ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ وان الميل إلى المنافع والدعة واللذات لا يكون رخصة في ذلك.

الثالث – في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهذا زجر.

الرابع – قوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ...﴾ الآية – وهذا تخسيس لرأيهم.

الخامس – ما عقب من الوعيد بقوله ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ﴾.

السادس – ما بالغ فيه بقوله ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾.

السابع – قوله ﴿وَيَسْتَبْدِلْ...﴾ الآية.

الثامن – قوله ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ففيه تهديد.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ﴾ أي بالخروج معه إلى تبوك ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ

كَفَرُوا﴾ يعني كفار مكة حين مكروا به، فصاروا سبب خروجه، فخرج ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ حال من ضميره ﷺ. أي أحد اثنين ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ بدل من ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾ بدل البعض، إذ المراد به زمان متسع. والغار نقب في أعلى ثور، وهو جبل في الجهة اليمنى من مكة على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاثاً، ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهما، ثم يسيرا إلى المدينة ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل ثان، أي رسول الله ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ أي أبي بكر ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ وذلك أن أبا بكر رضي الله عنه أشفق من المشركين أن يعلموا بمكانهما، فيخلص إلى الرسول ﷺ أذى، وطفق يجزع لذلك، فقال له رسول الله ﷺ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أي بالنصرة والحفظ.

روى الإمام أحمد(1) والشيخان(2) عن أبي بكر رضي الله عنه قال: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار، وهم على رؤوسنا، فقلت: يا رسول الله! لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه! فقال: يا أبا بكر! ما ظنك باثنين الله ثالثهما ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أي أَمَنَتَه التي تسكن عندها القلوب ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على النبيّ ﷺ ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني الملائكة، أنزلهم ليحرسوه في الغار، أو ليعينوه على العدوّ يوم بدر والأحزاب وحنين، فتكون الجملة معطوفة على قوله ﴿نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ وقوّى أبو السعود الوجه الثاني بأن الأول يأباه وصفهم بعدم رؤية المخاطبين لهم.

قلت: لا إباءة، لأن هذا وصف لازم لإمداد القوة الغيبية في كل حال، وفي الثاني تفكيك في الأسلوب لبعد المتعاطفيْن، فافهم. والله أعلم.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ أي المغلوبة المقهورة، و (الكلمة) الشرك، أو دعوة الكفر، فهو مجاز عن معتقدهم الذي من شأنهم التكلم به على أنها الشرك، أو هي بمعنى الكلام مطلقاً على أنها دعوة الكفر ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ يعني التوحيد، أو دعوة الإسلام كما تقدم، أي التي لا تزال عالية إلى يوم القيامة ﴿وكلمةُ الله﴾ بالرفع على الابتداء و ﴿هِيَ الْعُلْيَا﴾ مبتدأ وخبر. أو تكون (هي) فصلاً. وقرئ بالنصب أي: وجعل كلمة الله، والأول أوجه وأبلغ، لأن الجملة الاسمية

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ٤ والحديث رقم ١١.

(2) أخرجه البخاري في: التفسير، ٩ – سورة التوبة، ٩ – باب ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾، حديث ١٧١٦.

وأخرجه مسلم في: فضائل الصحابة، حديث رقم ١.

تدل على الدوام والثبوت. وإن الجعل لم يتطرق لها لأنها في نفسها عالية لا يتبدل شأنها ولا يتغير حالها. وفي إضافة (الكلمة) إلى (اللّه) إعلاء لمكانها، وتنويه لشأنها ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي غالب على ما أراد ﴿حَكِيمٌ﴾ في حكمه وتدبيره.

تنبيه:

قال بعض مفسري الزيدية: استدل على عظيم محل أبي بكر من هذه الآية من وجوه: منها: قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ﴾، وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، وقوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ قيل: على أبي بكر. عن أبي علي والأصم. قال أبو علي: لأنه الخائف المحتاج إلى الأمن، وقيل: على الرسول، عن الزجاج وأبي مسلم. قال جار اللّه: وقد قالوا: من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر، لأنه رد كتاب اللّه تعالى. انتهى.

وقال السيوطي في (الإكليل): أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر رضي اللّه عنه أنه قال: أنا، واللّه! صاحبه. فمن هنا قالت المالكية: من أنكر صحبة أبي بكر كفر وقتل، بخلاف غيره من الصحابة، لنص القرآن على صحبته - انتهى -.

وعن ابن عمر[1] أن رسول اللّه ﷺ قال لأبي بكر: أنت صاحبي على الحوض، وصاحبي في الغار - أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب -.

وقد ساق الفخر الرازي اثني عشر وجهاً من هذه الآية على فضل الصديق رضي اللّه تعالى عنه، فأطال وأطاب.

ولما توعد تعالى من لا ينفر مع الرسول لتبوك، وضرب له من الأمثال ما فيه أعظم مزدجر، أتبعه بهذا الأمر الجزْم؛ فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)

﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ حالان من ضمير المخاطبين، أي على أي حال كنتم خفافاً في النفور لنشاطكم له، وثقالاً عنه، لمشقته عليكم. أو خفافاً لقلة عيالكم

(١) أخرجه الترمذي في: المناقب، ١٦ - باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، كليهما، حدثنا يوسف بن القطان البغدادي.

وأذيالكم، وثقالاً لكثرتها. أو خفافاً من السلاح وثقالاً منه. أو ركباناً ومشاة. أو شباباً وشيوخاً أو مهازيل وسماناً .واللفظ الكريم يعم ذلك كله. والمراد حال سهولة النَّفْر وحال صعوبته.

وقد روي عن ثلة من الصحابة أنهم ما كانوا يتخلفون عن غزاة قط، ويستشهدون بهذه الآية.

ولما كانت البعوث إلى الشام، قرأ أبو طلحة رضي الله عنه سورة براءة حتى أتى على هذه الآية، فقال، أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباباً، جهزوني يا بَنيّ! فقال بنوه؛ يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك فقال: ما سمع الله عذر أحد، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل.

وكان أبو أيوب الأنصارى رضي الله عنه يقرأ هذه الآية، ويقول: فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً ولم يتخلف عن غزاة المسلمين إلا عاماً واحداً.

وقال أبو راشد الحراني: وافيت المقداد بن الأسود، فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فَضَلَ عنها يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك، فقال: أتت علينا سورة البعوث ﴿انفِرُوا خِفَافاً وثِقَالاً﴾.

وعن حيّان بن زيد قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان والياً على حمص - فرأيت شيخاً كبيراً هِمّاً، قد سقط حاجباه على عينيه، من أهل دمشق، على راحلته فيمن أغار، فأقبلت إليه فقلت: يا عم! لقد أعذر الله إليك، قال. فرفع حاجبيه فقال: يا ابن أخي! استنفرنا الله خفافاً وثقالاً، ألا إنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده الله فيبقيه. وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله عزَّ وجلَّ - روى ذلك كله ابن جرير -.

فرحم الله تلك الأنفس الزكية، وحيّاها من بواسل، باعت أرواحها في مرضاة ربها، وإعلاء كلمته، وأكرمت نفسها عن الاغترار بزخارف هذه الحياة الدنية.

ثم رغّب تعالى في النفقة في سبيله، وبذل المهج في مرضاته، ومرضاة رسوله، فقال: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما في اسم الإشارة إلى النفير والجهاد من معنى البعد، للإيذان ببعد منزلته في الشرف، والمراد بكونه خيراً، وأنه خير في نفسه، أو خير من الدعة، والتمتع بالأموال.

تنبيه:

قال الحاكم: الجهاد بالمال ضروب: منها إنفاقه على نفسه في السير في الجهاد، ومنها صرف ذلك إلى الآلات التي يستعان بها على الجهاد، ومنها صرفه إلى من ينوب عنه أو يخرج معه.

وقال بعض مفسري الزيدية: ذكر المؤيد بالله أن من له فضل مال، وجب عليه أن يدفعه إلى الإمام، إن دعت إليه حاجة.

وذكر الراضي بالله وجوب دفع ما دعت الحاجة إليه من الأموال في الجهاد، قليلاً كان أو كثيراً، ويتعين ذلك بتعيين الإمام. وأما من طريق الحسبة، فقال الراضي بالله: يجب ذلك إن حصل خلل لا يسده إلا المال، ويدخل في هذا إلزامُ الضّيفة، وتنزيل الدور، وقد قال الراضي بالله: للإمام أن يلزم الرعية على ما يراه من المصلحة.

وعن المؤيد بالله: إن للإمام إنزال جيشه دور الرعية إذا لم يتم له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بالجند، واحتاجوا إلى ذلك. كما يجوز دخول الدار المغصوبة لإزالة المنكر. وكذا ذكر أبو مضر أنه ينزل في الزائد على حاجة أهل الدور. وأما من ينزل الدار من جيشه بظلم أو فساد، فإن عُرِفَ ذلك عورض بين مطلب الإمام في دفعه المنكر، وبين هذا المنكر الواقع من الجند، أيهما أغلظ. انتهى.

ثم صرف تعالى الخطاب عن المتخلفين، ووجّه إلى رسول الله ﷺ، معدّداً لما صدر عنهم من الهنات قولاً وفعلاً، مبيناً لدناءة هممهم في هذا الخطب، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

﴿**لَوْ كَانَ**﴾ أي ما تدعوهم إليه ﴿**عَرَضاً قَرِيباً**﴾ أي نفعاً سهل المأخذ ﴿**وَسَفَراً قَاصِداً**﴾ أي وسطاً ﴿**لاَتَّبَعُوكَ**﴾ أي لا لأجلك، بل لموافقة أهوائهم ﴿**وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ**﴾ بضم الشين، وقرئ بكسرها، أي الناحية التي ندبوا إليها. وسميت

الناحية التي يقصدها المسافر بذلك، للمشقة التي تلحقه في الوصول إليها. وقرئ (بعِدت) بكسر العين. قال الشهاب: بعد يبعَد كعلم يعلم، لغة فيه، لكنه اختص ببعد الموت غالباً. و(لا تبعد) يستعمل في المصائب للتفجع والتحسر كقوله:

لا يُبْعِدِ اللّهُ إخواناً لنا ذَهَبُوا أفناهم حَدَثَانُ الدهرِ والأَبَدُ

﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ أي هؤلاء المتخلفون عن غزوة تبوك ﴿بِاللّه﴾ متعلق بـ(سيحلفون)، أو هو من جملة كلامهم. والقول مراد في الوجهين. أي سيحلفون عند رجوعك من غزوة تبوك، معتذرين بالعجز، يقولون باللّه ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي إلى تلك الغزوة.

ثم بيّن تعالى أن هذه الدعوى الكاذبة والحلف لا يفيدانهم، بقوله سبحانه ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي بهذا الحلف والمخالفة ودعوى العجز ﴿وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لأنهم كانوا يستطيعون الخروج مع رسول اللّه ﷺ.

القول في تأويل قوله تعالى:

عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾

﴿عَفَا اللّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ أي لهؤلاء المنافقين بالتخلف حين اعتلّوا بعللهم ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرّين على القعود عن الغزو. ولهذا أخبر تعالى انه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن باللّه ورسوله، بقوله سبحانه.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾

﴿لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ أي لمنع إيمانهم به، من مخالفته، مع القدرة ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ لمنع إيمانهم به من ترك تعويض الثواب والحياة الأبديين إذا أُمروا ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي لأنهم يودون الجهاد بها قربة، فيبذلونها في

سبيله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أي فيعطيهم من الأجر ما يناسب تقواهم. ففيه شهادة لهم بالانتظام في زمرة الأتقياء، وعِدَةٌ لهم بأجزل الثواب.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ أي في ترك الجهاد بهما ﴿الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إذ لا يرجون ثوابه ولا حياته، وهم المنافقون، ولذا قال: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي فيما تدعوهم إليه، أي رسخ فيها الريب ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي ليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هلكى، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء.

تنبيهات

الأول – اعلم أن في تصديره تعالى فاتحة الخطاب ببشارة العفو، دون ما يوهم العتاب، من مراعاة جانبه عليه الصلاة والسلام، وتعهده بحسن المفاوضة، ولطف المراجعة – ما لا يخفى على أولي الألباب.

قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف: بدأ بالعفو قبل ذلك المعفوّ. قال مكّي. (عفا الله عنك)، افتتاح كلام مثل (أصلحك الله وأعزك). وقال الداودي: إنها تكرمة.

أقول: ويؤيد ذلك قوله عليّ بن الجهم يخاطب المتوكل وقد أمر بنفيه:

عفا الله عنك ألا حُرمةٌ ... تَعُوذُ بعفوك أن أُبْعَدَ
ألم تر عبداً عدا طورَهُ ... ومولىً عفا، ورشيداً. هدَى
أقلني، أقالك من لم يَزَلْ ... يقيك، ويصرف عنك الردى

وما اشتهر من كون العفو لا يكون إلا عن ذنب – غير صحيح – فالواجب تفسيره في كل مقام بما يناسبه..

قال الشهاب: وهو يستعمل حيث لا ذنب، كما تقول لمن تعظمه: عفا الله عنك، ما صنعت في أمري؟ وفي الحديث: عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له. وقال السخاوندي: هو تعليم لتعظيمه ﷺ، ولولا تصدير العفو في الخطاب لما قام بصولة العتاب.

وقال القاضي عياض في (الشفا): وأما قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ فأمر لم يتقدم للنبيّ ﷺ فيه من الله نهي، فيعدّ معصية ولا عدّه الله عليه معصية، بل لم يعده أهل العلم معاتبة، وغلّطوا من ذهب إلى ذلك.

قال نفطويه: وقد حاشاه الله من ذلك، بل ما كان مخيراً في أمرين. قالوا: وقد كان له أن يفعل ما يشاء فيما لم ينزل عليه وحي، وكيف؟ وقد قال الله تعالى: ﴿فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فلما أذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم، أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم، وأنه لا حرج عليه فيما فعل، وليس (عفا) هنا بمعنى غفر، بل كما قال النبيّ ﷺ[1]: عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق. ولم تَجِبْ عليهم قط. أي لم يلزمهم ذلك.

ونحوه للقشيري قال: إنما يقول (العفو لا يكون إلا عن ذنب) من لم يعرف كلام العرب. قال: ومعنى (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ) أي لم يلزمك ذنباً. انتهى.

وقد عدّ ما وقع في الكشاف هنا من قبيح سقطاته.

وللعلامة أبي السعود مناقشة معه في ذلك .أورِدُها لبلوغها الغاية في البلاغة قال رحمه الله: ولقد أخطأ وأساء الأدب، وبئسما فعل فيما قال وكتب، من زعم أن الكلام كناية عن الجناية، وأن معناه أخطأت، وبئسما فعلت، هب أنه كناية، أليس إيثارها على التصريح بالجناية للتلطيف في الخطاب، والتخفيف في العتاب، وهب أن العفو مستلزم لكونه من القبح واستتباع اللائمة، بحيث يصحح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء، أو يسوغ إنشاء الاستقباح بكلمة (بئسما) المنبئة عن بلوغ القبح إلى رتبة يتعجب منها. ولا يخفى أنه لم يكن في خروجهم مصلحة للدين، أو منفعة للمسلمين، بل كان فيه فساد وخبال، حسبما نطق به قوله عزّ وجلّ ﴿لَوْ خَرَجُوا...﴾ الخ، وقد كرهه سبحانه كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ...﴾ الآية – نعم. كان الأولى تأخير الإذن حتى يظهر كذبهم آثر ذي أثير، ويفتضحوا على رؤوس الأشهاد، ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعة، ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم، بأنهم غروه ﷺ، وأرضوه بالأكاذيب. على أنه لم يهنأ لهم عيش، ولا قرّت لهم عين، إذ لم يكونوا على أمن واطمئنان، بل كانوا على خوف من ظهور أمرهم وقد كان. انتهى.

---

(١) أخرجه ابن ماجة في: الزكاة، ٤ – باب زكاة الورق والذهب، حديث رقم ١٧٩٠ عن عليّ ونصه: إني قد عفوت عنكم عن صدقة الخيل والرقيق...الخ.

قال الخفاجي: وحاول بعضهم توجيه كلام الكشاف بأن مراده أن الأصل فيه ذلك، فأبدله بالعفو تعظيماً لشأنه، ولذا قدم العفو على ما يوجب الجناية، فلا خطأ فيه.

قال رحمه الله: ولو اتقى هو والموجِّه موضع التهم - كان أولى وأحرى. انتهى.

الثاني - استدل بالآية على أن النبي ﷺ كان يحكم أحياناً بالاجتهاد، كما بسطه الرازي.

قال السيوطي في (الإكليل): واستدل بها من قال: إن اجتهاده قد يخطئ ولكن ينبَّه عليه بسرعة.

الثالث - قال الرازي: دلت الآية على وجوب الاحتراز عن العجلة، ووجوب التثبت والتأني، وترك الاغترار بظواهر الأمور، والمبالغة في التفحص، حتى يكمنه أن يعامل كل فريق بما يستحقه من التقريب أو الإبعاد.

الرابع - قال أبو السعود: تغيير الأسلوب بأن عبر عن الفريق الأول بالموصول الذي صلته فعل دالّ على الحدوث، وعن الفريق الثاني باسم الفاعل المفيد للدوام - للإيذان بأن ما ظهر من الأولين صدق حادث في أمر خاص غير مصحح لنظمهم في سلك الصادقين. وأن ما صدر من الآخرين، وإن كان كذباً حادثاً متعلقاً بأمر خاص، لكنه أمر جارٍ على عادتهم المستمرة، ناشئ عن رسوخهم في الكذب. ودقّق رحمه الله في بيان لطائف أخر. فلتراجع.

الخامس - قيل: نفي الفعل المستقبل الدالّ على الاستمرار في قوله تعالى ﴿لاَيَسْتَأْذِنُكَ﴾ يفيد نفي الاستمرار. وهذا معنى قول الزمخشريّ: ليس من عادة المومنين أن يستأذنوك .

قال النحرير: ولا يبعد حمله على استمرار النفي كما في أكثر المواضع، أي عادتهم عدم الاستئذان.

قال الناصر: وهذا الأدب يجب أن يقتفى مطلقاً، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه في أن يسدي له معروفاً، ولا بالمضيف أن يستأذن ضيفه في أن يقدم إليه طعاماً. فإن الاستئذان في أمثال هذه المواطن أمارة التكلف والتكرّه، وصلوات الله على خليله وسلامه، لقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه أنه كان لا يتعاطى شيئاً من

أسباب التهيؤ للضيافة بمرأى منهم، فلذلك مدحه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ بهذه الخلة الجميلة، والآداب الجليلة، فقال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦] أي ذهب على خفاء منهم، كيلا يشعروا به. والمهتم بأمر ضيفه بمرأى منه، ربما يعدّ كالمستأذن له في الضيافة، فهذا من الآداب التي ينبغي أن يتمسك بها ذوو المروءة، وأولو القوة. وأشد من الاستئذان في الخروج للجهاد ونصرة الدين، والتثاقل عن المبادرة إليه، بعد الحض عليه والمناداة. وأسوأ أحوال المتثاقل، وقد دعي الناس إلى الغزاة، أن يكون متمسكاً بشعبة من النفاق. نعوذ بالله من التعرض لسخطه.

ثم بيّن تعالى جلية شأن أولئك المنافقين المستأذنين، بأنهم لم يريدوا الخروج للجهاد حقيقة، ولذلك خذلهم، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾

﴿**وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً**﴾ بضم العين وتشديد الدال، أي قوةً من مال وسلاح وزادٍ، ونحوها ﴿**وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ**﴾ أي نهوضهم للخروج ﴿**فَثَبَّطَهُمْ**﴾ أي فكسّلهم وضعّف رغبتهم ﴿**وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ**﴾ أي من النساء والصبيان.

تنبيهات:

الأول – دل قوله تعالى: ﴿**لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً**﴾ على أن عدة الحرب من الكُراع والسلاح وجميع ما يستعان به على العدوّ، من جملة الجهاد. فما صرف في المجاهدين، صرف في ذلك. وهذا جلّي فيما يتقى به من العدة كالسلاح. فأما ما يحصل به الإرهاب من الرايات والطبول ونحو ذلك، مما يضعف به قلب العدوّ، فهو داخل في الجهاد. وقد قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ويكون ذلك كلباس الحرير حالة الحرب، وهذا جليّ حيث لا يؤدّي إلى السرَف.

الثاني – إن الفعل يحسن بالنية، ويقبح بالنية، وإن استويا في الصورة. لأن النفير واجب مع نية النصر، وقبيح مع إرادة تحصيل القبيح. وذلك لأنه تعالى أخبر أنه كره انبعاثهم لما يحصل منه من إرادة المكر بالمسلمين.

الثالث – للإمام منع مِنْ يتهم بمضرة المسلمين، أن يخرج للجهاد. فله نفي الجاسوس والمرجف والمخذّل. ذكر ذلك كله بعض مفسري الزيدية.

الرابع – ذكروا أن قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ تمثيل لإلقاء الله تعالى كراهة الخروج في قلوبهم. يعني نزّل خلق داعية القعود فيهم، منزلة الأمر، والقول الطالب، كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] أي أماتهم. أو هو تمثيل لوسوسة الشيطان بالأمر بالقعود. أو هو حكاية قول بعضهم لبعض. أو هو إذن الرسول ﷺ لهم بالقعود.

قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى قوله ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾؟ قلت: هو ذم لهم وتعجيز، وإلحاق بالنساء والصبيان والزَّمْنَى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت، وهم القاعدون والخالفون والخوالف. ويبينه قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾.

قال الناصر: وهذا من تنبيهاته الحسنة. ونزيده بسطاً فنقول: لو قيل ﴿اقعدوا﴾ مقتصراً عليه، لم يُفِدْ سوى أمرهم بالقعود. وكذلك (كُونوا مع الْقَاعِدِينَ). ولا تحصل هذه الفائدة من إلحاقهم بهؤلاء الأصناف الموصوفين عند الناس بالتخلف والتقاعد، الموسومين بهذه السمة، إلا من عبارة الآية. ولعن الله فرعون، لقد بالغ في توعيد موسى عليه السلام بقوله ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]. ولم يقل: لأجعلنك مستجوناً. لمثل هذه النكتة من البلاغة.

ثم بين تعالى سرّ كراهته لخروجهم بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي فساداً وشراً ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالفساد.

قال الشهاب: الإيضاع: إسراع سير الإبل. يقال: وضعت الناقة تضع إذا أسرعت، وأوضعتها أنا. والمراد: الإسراع بالنمائم، لأن الراكب أسرع من الماشي. فقيل: المفعول مقدَّر، وهو النمائم. فشبه النمائم بالركائب في جريانها وانتقالها، وأثبت لها الإيضاع. ففيه تخييلية ومكنية. وقيل: إنه استعارة تبعية. شبه سرعة إفسادهم

لذات البيْن بالنميمة. بسرعة سير الركائب، ثم استعير لها الإيضاع ، وهو للإبل. و(خلال) جمع خلل، وهو الفرجة، استعمل ظرفاً بمعنى (بين).

واعلم أن قوله ﴿ وَلَأَوْضَعُوا ﴾ مرسوم في الإمام بالفين، لأن الفتحة كانت تكتب ألفاً قبل الخط العربي. والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن، وقد بقي من تلك الألف أثر في الطباع، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً وفتحها ألفاً أخرى ونحوه ﴿أو لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ [النمل: ٢١].

﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أي يطلبون لكم ما تفتنون ، بإيقاع الخلاف فيما بينكم، وإلقاء الرعب في قلوبكم، وإفساد نيّاتكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي منقادون لقولهم مستحسنون لحديثهم، وإن كانوا لا يعلمون حالهم، لضعف عقولهم، فيتوهمون منهم النصح والإعانة، وهم يريدون التخذيل والفتنة، فيؤدي إلى وقوع شرّ بين المؤمنين، وفساد كبير.

وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير. أي فيكم عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم .

قال ابن كثير: وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم ، بل هذا عامّ في جميع الأحوال. والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

قال محمد بن إسحاق : كان استاذن ، فيما بلغني، من ذوي الشرف منهم، عبد الله بن أبيّ ابن سلول والجدّ بن قيس، وكانوا أشرافاً في قومهم، فثبطهم الله، لعلمه بهم أن يخرجوا فيفسدوا عليه جنده. وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيها يدعونهم إليه. لشرفهم فيهم، فقال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ انتهى. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ولا يخفى عليه شيء من أمرهم. وفيه شمول للفريقين: القاعدين والسماعين.

ثم برهن تعالى على ابتغائهم الفتنة في كل مرة بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي طلبوا الشر بتشتيت شملك، وتفريق صحبك عنك، من قبل غزوة تبوك، كما فعل عبد الله بن أبي ابنُ سلول حين انصرف بأصحابه يوم أحُدٍ عن المسلمين ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾ أي دبروا لك الحيل والمكايد ودوّروا الآراء في إبطال أمرك.

قال الشهاب: المراد من (الأمور) المكايد، فتقليبها مجاز عن تدبيرها. أو (الآراء). فتقليبها تفتيشها وإحالتها.

﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ وهو تأييدك ونصرك وظفرك ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي علا دينه ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي على رغم منهم.

قال ابن كثير: لما قدم النبيّ ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها. فلما نصره الله يوم بدر، وأعلى كلمته. قال ابن أبيّ وأصحابه: هذا أمر قد توجَّه (أي:أقبل) فدخلوا في الإسلام ظاهراً. ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله، أغاظهم ذلك وساءهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي﴾ أي في القعود ﴿وَلاَ تَفْتِنِّي﴾ أي لا توقعني في الفتنة.

روي عن مجاهد وابن عباس أنها نزلت في الجدّ بن قيس، أخي بني سلمة، وذلك فيما رواه محمد بن إسحاق؛ أن النبيّ ﷺ قال له ذات يوم وهو في جهازه: هل لك يا جدّ في جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله ! أو تأذن لي ولا تفتنِّي؟ فوالله! لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى، إن رأيت نساء بني الأصفر، ألاّ أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: قد أذنت لك!

قال الشهاب: يعني أنه يخشى العشق لهن. أو مواقعتهن من غير حلّ. وبنات الأصفر: للروم، كبني الأصفر. وقيل في وجه التسمية وجوه: منها أنهم ملكهم بعض الحبشة، فتولد بينهم نساء وأولاد ذهبية الألوان. انتهى.

قال ابن كثير: كان الجدّ بن قيس هذا من أشراف بني سلمة.

وفي الصحيح (١) أن رسول الله ﷺ قال لهم: من سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: الجدّ بن قيس؟ على أنا نبخّله. فقال رسول الله ﷺ: وأي داء أدوأ من البخل؟ ولكن سيّدكم الفتى الجعد الأبيض، بشر بن البراء بن معرور.

وقوله تعالى: ﴿أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ قال أبو السعود: أي في عينها ونفسها، وأكمل أفرادها، الغني عن الوصف بالكمال، الحقيق باختصاص اسم الجنس به، سقطوا. لا في شيء مغاير لها، فضلاً عن أن يكون مهرباً ومخلصاً عنها. وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف، والجرأة على الاستئذان بهذه الطريقة الشنيعة، ومن القعود بالإذن المبني عليه، وعلى الاعتذارات الكاذبة، وقرئ بإفراد الفعل، محافظة على لفظ (من). وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه، مع تقديم الظرف، إيذان بأنهم وقعوا فيها، وهم يحسبون أنها منجى من الفتنة، زعماً منهم أن الفتنة إنما هي التخلف بغير إذن. وفي التعبير عن (الافتتان) بالسقوط في الفتنة، تنزل لها منزلة المهواة المهلكة، المفصحة عن تردّيهم في درجات الردى أسفل سافلين. انتهى.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي ستحيط بهم يوم القيامة، فلا محيد لهم عنها ولا مهرب، وهذا وعيد لهم على ما فعلوا.

ثم بيّن تعالى عدواتهم، زيادة في تشهير مساوئهم، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾

﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ أي من فتح وظفر وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ أي تورثهم مساءة لفرط عداوتهم ﴿وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ أي من نوع شدة ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ أي بالحزم في القعود ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل إصابة المصيبة، فيتبجحوا بما صنعوا حامدين لآرائهم ﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ أي عن مجتمعهم الذي أظهروا فيه الفرح برأيهم ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ أي برأيهم وبما أصابكم وبما سلموا.

---

(١) ليس هذا الحديث في الصحيح ولا في السنن. ولكن رواه يعقوب بن سفيان في (تاريخه) وأبو الشيخ في (الأمثال) والوليد بن أبان في كتاب (الجود). انظر (الإصابة في تمييز الصحابة) للحافظ ابن حجر العسقلانيّ رقم ٦٥١، ترجمة بشر بن البراء بن معرور، على خلاف يسير في اللفظ.

ثم أرشد تعالى إلى جوابهم ببطلان ما بنوا عليه مسرتهم، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي ما أثبته لمصلحتنا الدنيوية أو الأخروية، فلا وجه لهذا الفرح، لرضانا بقضائه في تلك المصيبة، فلم يسؤنا بالحقيقة كيف؟ ولم يكتبها علينا ليضرّنا بها، إذ ﴿هُوَ مَوْلاَنَا﴾ أي يتولى أمورنا، فإنما كتبها علينا ليوفقنا للصبر عليها، والرضا بها، فيعطينا من الأجر ما هو خير منها ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي لأنه لا ناصر ولا متولي لأمرهم غيره.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾ أي تنتظرون ﴿بِنَا إلا إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هي حسنى العواقب، وهما النصر والشهادة ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أي إحدى السُّوأيين من العواقب إما ﴿أنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ أي كما أصاب من قبلكم من الأمم ﴿أوْ﴾ بعذاب ﴿بأيْدِينَا﴾ وهو القتل على الكفر ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي بنا ما ذكر من عواقبنا ﴿إنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ أي منتظرون ما هو عاقبتكم فلا بدّ أن يلقى كلنا ما يتربصه، لا يتجاوزه، فلا تشاهدون إلا ما يسرنا، ولا نشاهد إلا ما يسوؤكم.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾

﴿قُلْ أنْفِقُوا﴾ يعني أموالكم في سبيل اللَّه ووجوه البرّ ﴿طَوْعاً أوْ كَرْهاً﴾ مصدران وقعا موقع الفاعل، أي طائعين من قبل انفسكم، أو كارهين مخافة القتل

﴿لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أي ذلك الإنفاق. ثم بيّن سبب ذلك بقوله : ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوماً فَاسِقِينَ﴾ أي عاتين. متمردين.

لطائف:

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال ﴿لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾! قلت: هو أمر في معنى الخبر، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً﴾ [مريم: ٧٥]. ومعناه: لن يتقبل منكم، انفقتم طوعاً أو كرهاً. ونحوه قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

وقوله:

* أسيئي بنا أو احسني لا ملومةً *

أي لن يغفر الله لهم، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم. ولا نلومك،، أسأت إلينا أم أحسنتِ.

فإن قلت: متى يجوز هذا؟ قلت: إذا دلّ الكلام عليه، كما جاز عكسه في قولك: رحم الله زيداً وغفر له. فإن قلت: لم فعل ذلك؟ قلت: لنكتة فيه، وهي أن كُثَيِّراً كأنَّه يقول لعزّة: امتحني لطف محلك عندي ، وقوة محبتي لك، وعامليني بالإساءة والإحسان، وانظري: هل يتفاوت حالي معك، مسيئةً كنتِ أو محسنة! وفي معناه قول القائل:

أَخُوكَ الذي إن قُمتَ بالسيف عامداً لِتَضْرِبهُ لَمْ يَسْتَغِشَّكَ في الوُدِّ

وكذلك المعنى: أنفقوا وانظروا، هل يتقبل منكم؟ واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم، وانظر هل ترى اختلافاً بين حال الاستغفار وتركه؟

فإن قلت: ما الغرض في نفي التقبّل، أهو ترك رسول الله ﷺ تقبّله منهم، ورده عليهم ما يبذلون منه، أم هو كونه غير مقبول عند الله تعالى، ذاهباً هباء لا ثواب له؟ قلت: يحتمل الأمرين جميعاً. وقد روي ان الآية من تتمة جواب الجدّ بن قيس حيث قال للنبيّ ﷺ: هذا مالي أعينك به، فاتركني ولا تفتني. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنهُمْ نفقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى ﴾ جمع كسلان، أي متثاقلين، إذ لا يرجون على فعلها ثواباً، ولا يرهبون من تركها عقاباً ﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ لأنهم يرون الإنفاق في سبيل الله مغرماً، وتركه مغنماً، وفي الحديث[1] عن النبيّ ﷺ: إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً، وابتغي به وجهه - رواه النسائي عن أبي أمامة. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

ولما بيّن تعالى قبائح أفعال المنافقين، وما لهم في الآخرة من العذاب المهين، وعدم قبول نفقاتهم، تأثره ببيان أن ما يظنونه من منافع الدنيا هو في الحقيقة سبب لعذابهم وبلائهم، فينجلي تمام الانجلاء أن النفاق مهواة الخسار، لجلبه آفات الدنيا والآخرة، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ﴾ أي لأن ذلك استدراج لهم، كما قال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب. وقوله ﴿ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ قيل: اللام زائدة. وقيل: المفعول محذوف، وهذه تعليلية، أي يريد إعطاءهم لتعذيبهم ﴿ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ أي فيموتوا كافرين، لاهين بالتمتع عن النظر في العاقبة، فيكون ذلك استدراجاً لهم. وأصل (الزهوق) الخروج بصعوبة - أفاده القاضي -.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ يعني المنافقين ﴿ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ﴾ في الدّين ليدفعوا، بدلالة اليمين، دلائل النفاق ﴿ وَمَاهُمْ مِنْكُمْ ﴾ في ذلك يعني أنهم كاذبون ﴿ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ أي يخافون القتل، وما يُفعل بالمشركين، فيتظاهرون بالإسلام تقية، ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة. ثم أشار إلى سبب الخوف، وهو اضطرارهم إلى مساكنهم مع ضعفهم، بقوله تعالى:

---

(١) رواه النسائي في: الجهاد، ٢٤ - باب من غزا يلتمس الأجر والذكر.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

﴿**لَوْ يَجِدُونَ مَلْجأً**﴾ أي حصناً يلتجئون إليه ﴿**أَوْ مَغَارَاتٍ**﴾ يعني غيراناً في الجبال يسكن كل واحد منهم غاراً ﴿**أَوْ مُدَّخَلاً**﴾ يعني موضع دخول يدخلون فيه، وه والسرب في الأرض ﴿**لوَلَّوْا إِلَيْه**﴾ أي لأقبلوا نحوه ﴿**وَهُمْ يَجْمَحُونَ**﴾ أي يسرعون إسراعاً، لايردهم شيء، كالفرس الجموح، أي النَّفور الذي لا يرده لجام. أي لو وجدوا شيئاً من هذه الأمكنة التي هي منفور عنها، مستنكرة، لأتوه لشدة خوفهم، وكراهتهم للمسلمين، وغمهم بعزّ الإسلام، ونصر أهله.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾

﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ**﴾ أي يعيبك ﴿**فِي الصَّدَقَات**﴾ أي في قسمتها. ثم بيّن فساد لمزهم، وأنه لا منشأ له سوى حرصهم على حطام الدنيا بقوله: ﴿**فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا**﴾ أي قدر ما يريدون ﴿**رَضُوا**﴾ فجعلوه عدلاً ﴿**وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**﴾ فيجعلونه غير عدل.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ**﴾ أي كفانا فضله، وما قسمه لنا ﴿**سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِه وَرَسُولُهُ**﴾ أي بعد هذا، حسبما نرجو ونؤمّل ﴿**إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ**﴾ أي في أن يغنمنا ويخولّنا فضله. والجواب محذوف بناء على ظهوره. أي لكان خيراً لهم.

روى الشيخان[1] عن أبي سعيد الخدري قال: بينما نحن عند رسول اللَّه ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في: الأدب، ٩٥ - باب ما جاء في قول الرجل: ويلك، حديث ١٥٨١.
وأخرجه مسلم في: الزكاة، حديث ١٤٨.

وهو يقسم فيئاً، أتاه ذو الخويصرة - رجل من بني تميم - فقال: يا رسول الله! اعدل. فقال رسول الله ﷺ : ويلك. من يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر بن الخطاب: إيذن لي فيه فاضرب عنقه! فقال رسول الله ﷺ : دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدّين كما يمرق السهم من الرميّة.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلفُقَراءِ وَالْمَسَاكِينَ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَة قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

لما ذكر تعالى لمزهم في الصدقات تاثره ببيان حقّيَّة ما فعله رسول الله ﷺ من القسمة، إذ لم يتجاوز فيها مصارفها المشروعة له، وهو عين العدل، وذلك انه تعالى شرع قسمها لهؤلاء، ولم يكله إلى أحد غيره، ولم ياخذ ﷺ منها لنفسه شيئاً، ففيم اللمز لقاسمها، صلوات الله عليه؟

روى البخاري[1] عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ : من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، والله يعطي.

وروى أبو داود [2] عن زياد بن الحارث رضي الله عنه قال: أتيت النبيّ ﷺ فبايعته، فاتى رجل فقال: أعطني من الصدقة. فقال له: إن الله تعالى لم يرض بحكم نبيّ ولا غيره في الصدقات، حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك.

فالآية ردّ لمقالة أولئك اللمزة، وحسم لأطماعهم، ببيان أنهم بمعزل من الاستحقاق. وإعلام بمن إعطاؤهم عدل، ومنعهم ظلم.

---

(١) أخرجه البخاري في: العلم، ١٣ - باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، حديث ٦٢.
(٢) أخرجه أبو داود في: الزكاة، ٢٤ - باب من يُعطى من الصدقة، وحدّ الغنى. الحديث رقم ١٦٣٠.

والفقراء. جمع فقير ، فعيل، بمعنى فاعل، يقال فقر يفقر من باب تعب، إذا قل ماله.

والمساكين: جمع مسكين، من (سكن سكوناً) . ذهبت حركته، لسكونه إلى الناس، وهو بفتح الميم في لغة بني أسد، وبكسرها عند غيرهم. قال ابن السكِّيت: المسكين: الذي لا شيء له، والفقير: الذي له بُلغة من العيش. وكذلك قال يونس، وجعل الفقير أحسن حالاً من المسكين. قال: وسألت أعرابياً: أفقير أنت؟ فقال: لا، والله! بل مسكين وقال الأصمعيّ: المسكين أحسن حالاً من الفقير، وهو الوجه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ [الكهف: ٧٩] وكانت تساوي جملة، وقال في حق الفقراء: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] وقال ابن الأعرابي: المسكين هو الفقير، وهو الذي لا شيء له، فجعلهما سواء. كذا في (المصباح).

قال البدر القرافي: وإذا اجتمعا افترقا، كما إذا أوصي للفقراء والمساكين، فلا بد من الصرف للنوعين، وإن افترقا اجتمعا، كما إذا أوصي لأحد النوعين، جاز الصرف للآخر.

قال المهايمي: ثم ذكر تعالى من يحتاج إليهم المحتاجون إلى الصدقات فقال: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي الساعين في تحصيلها: القابض والوازن والكيال والكاتب، ويعطون أجورهم منها. ثم ذكر من يحتاج إليهم الإمام فقال: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

وهم قوم ضعفت نيتهم في الإسلام، فيحتاج الإمام إلى تأليف قلوبهم بالعطاء، تقوية لإسلامهم، لئلا يسري ضعفهم إلى غيرهم. أو أشراف يترقب بإعطائهم إسلام نظرائهم.

ثم ذكر تعالى من يعان بها في دفع الرقّ بقوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾.

أي وللإعانة في فك الرقاب، فيعطي المكاتبون منها ما يستعينون به على أداء نجوم الكتابة، وإن كانوا كاسبين، وهو قول الشافعي والليث. أو: وللصرف في عتق الرقاب، بأن يبتاع منها الرقاب فتعتق قال ابن عباس والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة، وهو مذهب مالك وأحمد وإسحاق. ولا يخفى أن (الرقاب) يعم الوجهين. وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة.

ثم ذكر تعالى من تفك ذمته في الديون بقوله: ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾.

وهم الذين ركبتهم الديون لأنفسهم في غير معصية، ولم يجدوا وفاء. أو لإصلاح ذات البين ولو أغنياء.

ثم ذكر تعالى الإعانة على الجهاد بقوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ .

فيصرف على المتطوعة في الجهاد، ويشتري لهم الكراع والسلاح. قال الرازي: لا يوجب قوله ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ القصر على الغزاة، ولذا نقل القفّال في (تفسيره) عن بعض الفقهاء جوازَ صرف الصدقات إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى، وبناء الحصون، وعمارة المساجد، لأن قوله ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عامّ في الكل. انتهى.

ولذا ذهب الحسن وأحمد وإسحاق إلى أن الحج من ﴿سبيل الله﴾ فيصرف للحجاج منه. قال في (الإقناع) و(شرحه): والحج من (سبيل الله) نصاً، روي عن ابن عباس وابن عمر. لما روى أبو داود[1]، أن رجلاً جعل ناقة في سبيل الله. فأرادت امرأته الحج، فقال لها النبيّ ﷺ: اركبيها، فإن الحج من (سبيل الله). فيأخذ، إن كان فقيراً، من الزكاة ما يؤدي به فرض حج أو عمرة، أو يستعين به فيه، وكذا في نافلتهما. لأن كلاً من (سبيل الله) انتهى.

قال ابن الأثير: و(سبيل الله) عام، يقع على كل عمل خالص سلك به طريق التقرب إلى الله عزَّ وجلَّ، بأداء الفرائض والنوافل، وأنواع التطوعات، وإذا أطلق فهو في الغالب واقع على الجهاد، حتى صار لكثرة الاستعمال كأنه مقصور عليه. انتهى.

وقال في (التاج): كل سبيل أريد به الله عز وجل، وهو برّ، داخل في (سبيل الله).

ثم ذكر تعالى الإعانة لأبناء الطريق بقوله:

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فيعطي المجتاز في بلدٍ ما يستعين به على بلوغه لبلده.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ ناصبه مقدَّر، أي فرض الله ذلك فريضة، وقوله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم. وقول: ﴿حَكِيمٌ﴾ أي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة من الأمور الحسنة التي منها سوق الحقوق إلى مستحقيها.

---

(١) أخرجه أبو داود في: المناسك، ٧٩ ـ باب العمرة، حديث رقم ١٩٨٩، عن أم معقل.

تنبيهات:

الأول – ظاهر الآية يقضي بالقسمة بين الثمانية الأصناف ويؤيد هذا وجهان:

الأول – ما يقتضيه اللفظ اللغوي، إن قلنا: الواو للجمع والتشريك.

والثاني – ما رواه أبو داود في سننه من قوله ﷺ: إن الله لم يرض بحكم نبيّ ولا غيره في الصدقات، حتى حكم فيها، فجزأها ثمانية أجزاء.. الحديث.

وقد ذهب، إلى هذا، الشافعي وعكرمة والزهري، إلا إن استغنى أحدها فتدفع إلى الآخرين، بلا خلاف.

وذهبت طوائف إلى جواز الصرف في صنف واحد منهم عمر وابن عباس وحذيفة وعطاء وابن جبير والحسن ومالك وأبو حنيفة، والهادي والقاسم وأسباطهما، وزيد. قال في (التهذيب): وخرجوا عن الظاهر في دلالة الآية المذكورة والخبر، بوجوه:

الأول – أن الله تعالى قال في سورة البقرة ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] فدل على أن ذكر العدد هنا لبيان جنس من يستحقها. الثاني – الخبر وهوقوله ﷺ[1] لمعاذ: أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وتُرَدُّ في فقرائهم.

الثالث – حديث سلمة بن صخر. فإنه عليه الصلاة والسلام جعل له صدقة بني زريق.

الرابع – أنه لم يظهر في ذلك خلاف من جهة الصحابة فجرى كالمجمع عليه.

الخامس – المعارضة للفظ بالمعنى. فإن المقصود سدّ الخلة. وقال صاحب (النهاية): وهذا أقرب إلى المعنى، والأول أقرب إلى اللفظ، ويؤيد أنها مستحقة بالمعنى لا بالاسم، أنا لو قلنا تستحق بالاسم لزم أن من كان فقيراً غازياً غارماً مسافراً، أن يستحق سهاماً لهذه الأسباب جميعاً – كذا في تفسير بعض الزيدية –.

وقال الناصر في (الانتصاف): القول بوجوب صرفها إلى جميع الأصناف، حتى لا يجوز ترك صنف واحد منها أخذاً من إشعار (اللام) بالتمليك، كما ذهب إليه

---

(١) أخرجه البخاري: في: الزكاة، ١ – باب وجوب الزكاة، حديث ٧٤٠ عن ابن عباس.

الشافعي – لا يسعده السياق، فإن الآية مصدرة بكلمة الحصر الدالة على قصر جنس الصدقات على الأصناف المعدودة، وأنها مختصة بهم، وأن غيرهم لا يستحق فيها نصيباً. كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم، فهذا هو الغرض الذي سيقت له الآية، فلا اقتضاء فيها لما سواه . انتهى.

الثاني – قال بعضهم: لفظ (الصَّدَقات) بعمومه يجمع الصدقة الواجبة والنافلة. ثم إن الصدقة الواجبة تتنوّع أنواعاً، منها الزكوات لما هو العشر أو نصف العشر أو ربع العشر، وزكاة المواشي والفطرة والكفارات، نحو كفارة اليمين والظهار والصوم، وكذلك الهَدْي في الحج، ومنها ما يؤخذ من أموال الكفار ورؤوسهم، ولهذا سمى اللّه الغنائم صدقة في سبب نزول الآية، وذلك في قسمة غنائم (حنين)، فإذا كان اللفظ يعمّ ما ذكر ، فهل تحمل الآية على عمومها في قسمتها على ما ذكر، أو يخصص البعض؟

ثم قال: والعلماء قسموا الصدقات، وجعلوا مصارفها مختلفة، والكفارة لم يذكر أنها تصرف في الثمانية المصارف. وقد ورد قوله تعالى: ﴿ فكفَّارَتُهُ إطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة: ٨٩]. ﴿فَإطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾ [المجادلة: ٤]، وفي الحديث: أطعم عن كل يوم مسكيناً، وورد في الفطرة: اغنوهم هذا اليوم. وورد في الغنيمة: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِنْ شَيءٍ..﴾ [الأنفال: ٤١] الآية. فهل هذه الأدلة مخصصة لعموم لفظ (الصدقات)؟ فإن الزكوات مجمع عليها في أن مصرفها الثمانية الأصناف. أم كيف تنزل الآية على القواعد الأصولية؟. انتهى كلامه.

ولا يخفى كونها مخصصة لعموم لفظ الصدقات، لأن الخاصّ يقضي على العامّ على أن المراد قصرها على هذه الأصناف، فكل ما ذكر لم يخرج عنها، لشمولها له. واللّه أعلم.

الثالث – (المؤلفة قلوبهم) حكمهم باق، لأنه ﷺ أعطى المؤلفة من المسلمين والمشركين، فيعطون عند الحاجة. ويحمل ترك عمر وعثمان وعليّ إعطاءهم، على عدم الحاجة إلى إعطائهم في خلافتهم، لا لسقوط سهمهم، فإن الآية من آخر ما نزل. وأعطى أبو بكر عدي بن حاتم والزبرقان بن بدر. ومنعُ وجود الحاجة على ممرّ الزمان، واختلاف أحوال النفوس في القوة والضعف – لا يخفى فساده. كذا في (الإقناع) و (شرحه).

والمؤلفة كما في (الإقناع) هم رؤساء قومهم: من كافر يرجى إسلامه، أو كف

شره، ومسلم يرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو نصحه في الجهاد، أو في الدفع عن المسلمين، أو كف شره كالخوارج ونحوهم، أو قوة على جباية الزكاة ممن لا يعطيها. انتهى.

الرابع – قال في (الإكليل): استدل بعموم الآية من أجاز الدفع للفقير القادر على الاكتساب. وللذمي، ولمن تلزمه نفقته، ولسائر القرابة، وللزوج، ولآله ﷺ، حيث حرموا حظهم من الخمس، ولمواليهم، ولمن جوّز نقلها.

وقال ابن الفرس: يؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَالْعَامِلِينَ﴾ جواز أخذ الأجرة لكل من اشتغل بشيء من أعمال للمسلمين. قال: وقد احتج به أبو عُبَيْد على جواز أخذ القضاة الرزقَ فقال: قد فرض الله للعاملين على الصدقة، وجعل لهم منها حقاً بقيامهم فيها وسعيهم، فكذلك القضاة يجوز لهم أخذ الأجرة على عملهم، وكذا كل من شغل بشيء من أعمال المسلمين.

الخامس – قال الزمخشري: فإن قلت: لم عدل عن اللام إلى (في) في الأربعة الأخيرة؟ قلت: للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره، لأن (في) للوعاء، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات، ويجعلوا مظنة لها ومصباً. وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر، وفي فك الغارمين من الغرم – من التخليص والإنقاذ.

ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال. وتكرير (في) في قوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فيه فضل ترجيح لهذين، على الرقاب والغارمين. انتهى.

قال الناصر: وَثُمَّ سر آخر هو أظهر وأقرب، وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاّك لما عساه يدفع إليهم، وإنما يأخذونه ملكاً، فكان دخول اللام لائقاً بهم وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم، بل ولا يصرف إليهم، ولكن في مصالح تتعلق بهم. فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتِبون والبائعون، فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيديهم حتى يعبّر عن ذلك بـ (اللام) المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم، وإنما هم محالّ لهذا الصرف، والمصلحة المتعلقة به. وكذلك (الغارمون) إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم، تخليصاً لذممهم، لا لهم، وأما ﴿سبيل الله﴾ فواضح فيه ذلك. وأما ﴿ابن السبيل﴾ فكأنه كان مندرجاً في

سبيل الله، وإنما أفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته، مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً، وعطفه على المجرور (باللام) ممكن، ولكنه على القريب منه أقرب. والله أعلم. ثم قال: وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه استنبط من تغاير الحرفين المذكورين وجهاً في الاستدلال لمالك، رحمه الله، على أن الغرض بيان المصرف و (اللام) لذلك لام الملك، فيقول: متعلق الجارّ الواقع خبراً عن الصدقات محذوف، فيتعين تقديره، فإما أن يكون التقدير: إنما الصدقات مصروفة للفقراء، كقول مالك، أو مملوكة للفقراء، كقول الشافعي، لكن الأول متعين لأنه تقدير يكتفي به في الحرفين جميعاً، يصح تعلق (اللام) به و (في) معاً، فيصح أن نقول: هذا الشيء مصروف في كذا ولكذا، بخلاف تقديره مملوكة، فإنه إنما يلتئم مع اللام، وعند الانتهاء إلى (في) يحتاج إلى تقدير: مصروفة ليلتئم بها. فتقديره من (اللام) عامّ التعلق، شامل الصحة، متعين، والله الموفق. انتهى.

السادس - قال الزمخشري: فإن قلت: فكيف وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ومكايدهم؟ قلت: دلّ بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسماً لأطماعهم، وإشعاراً باستيجابهم الحرمان، وأنهم بعداء عنها وعن مصارفها. فما لهم وما لها، وما سلطهم على التكلم فيها، ولمز قاسمها صلوات الله عليه وسلامه. انتهى.

وتقدم بيانه أيضاً.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي من الذين يحلفون بالله إنهم لمنكم، من هو أشدّ من اللامز في الصدقات إذ هم ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي يسمع كل ما يقال له ويصدقه، ويعنون إنه ليس بعيد الغور، بل سريع الاغترار بكل ما يسمع.

قال أبو السعود: وإنما قالوه لأنه صلوات الله عليه كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا، ويصفح عنهم حلماً وكرماً، فحملوه على سلامة القلب، وقالوا ما قالوا.

قال اللغويون: (الأُذُن) الرجل المستمع القابل لما يقال له. وصفوا به الواحد والجمع، فيقال: رجلٌ أذن، ورجالٌ أذن، وامرأةٌ أذن، فلا يثنى ولا يجمع، وإنما سموه باسم العضو تهويلاً وتشنيعاً، فهو مجاز مرسل، أطلقَ فيه الجزء على الكل مبالغة بجعل جملته، لفرط استماعه، آلةَ السماع، كما سمي الجاسوس عيناً لذلك، ونحوُه:

إذا ما بدت ليلَى فكلِّيَ أعينٌ وإن حدثوا عنها فكلِّي مسامعُ

وجعله بعضهم من قبيل التشبيه: بـ (الأُذُن) في أنه ليس فيه وراء الاستماع تمييز حق عن باطل.

قال الشهاب: وليس بشيء يعتد به. وقيل إنه على تقدير مضاف، أي ذو أذن.

قال الشهاب: وهو مُذْهِب لرونقه. وقيل: هو صفة مشبهة من (أذن إليه وله) كفرح: استمع. قال عمرو بن الأهيم:

فلما أنْ تَسَايَرْنَا قَليلاً أذنَّ إِلَى الْحَديثِ فَهُنَّ صُورُ

ولِقَعنب بن أم صاحب:

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً مني، وما سَمِعُوا من صالحٍ دَفَنُوا

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خيراً ذكرتُ بـهِ وإن ذُكِرْتُ بشرٍّ عندَهُمْ أَذِنُوا

وفي الحديث[1] ما أذن اللّه لشيء ما أذِن لنبيّ يتغنى بالقرآن. قال أبو عبيد: يعني ما استمع اللّه لشيء كاستماعه لمن يتلوه، يجهر به. وقوله عز وجل: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق:٢و٥]، أي استمعت. كذا في (تاج العروس).

وعلى هذا فـ (أُذن) صفة بمعنى سميع ولا تجوّز فيه، ففيه أربعة أوجه.

وعطف قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطف تفسير: لأنه نفس الإيذاء.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة للمبالغة، كرجل صدق. تريد المبالغة في الجودة والصلاح، كأنه قيل: نعم هو أذن، ولكن نِعْمَ الأذن أو إضافته على معنى (في) أي هو أذن في الخير والحق، وفيما يجب سماعه

---

(١) أخرجه البخاري في: فضائل القرآن، ١٩ - باب من لم يتغنّ بالقرآن، حديث رقم ٢٠٨٨، عن أبي هريرة.

وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك. ودل عليه قراءة حمزة. (ورحمةٍ) بالجر عطفاً عليه. أي هو أذن خير لكم ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله. ثم فسر كونه أذن خير بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ قال القاشاني: هو بيان لينه ﷺ وقابليته، لأن الإيمان لا يكون إلا مع سلامة القلب ولطافة النفس ولينها ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يصدق قولهم فيّ الخيرات، ويسمع كلامهم فيها ويقبله، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي وهو رحمة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ أي يعطف عليهم، ويرقّ لهم، فينجيهم من العذاب بالتزكية والتعليم، ويصلح أمر معاشهم ومعادهم، بالبر والصلة، وتعليم الأخلاق من الحلم والشفقة والأمر بالمعروف، باتباعهم إياه فيها، ووضع الشرائع الموجبة لنظام أمرهم في الدارين، والتحريض على أبواب البر بالقول والفعل، إلى غير ذلك.

قاله القاشاني.

وقال غيره: أي هو رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم، معشر المنافقين، حيث يقبله، لا تصديقاً لكم، بل رفقاً بكم، وترحماً عليكم، ولا يكشف أسراركم، ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين، مراعاة لما رأى تعالى من الحكمة في الإبقاء عليكم.

قال الشهاب: والمعنى: هو أذن خير يسمع آيات اللّه ودلائله فيصدقها ويستمع للمؤمنين، فيسلم لهم ما يقولون، ويصدقهم. وهو تعريض بأن المنافقين أذن شر، يسمعون آياتِ اللّه ولا يثقون بها، ويسمعون قول المؤمنين ولا يقبلونه، وأنه ﷺ لا يسمع أقوالهم إلا شفقة عليهم، لا أنه يقبلها لعدم تمييزه، كما زعموا.

وقال القاشاني في (تفسيره): كانوا يؤذونه، صلوات اللّه عليه، ويغتابونه بسلامة القلب وسرعة القبول والتصديق لما يسمع، فصدقهم في ذلك وسلّم وقال: هو كذلك، ولكن بالنسبة إلى الخير، فإن النفس الأبية والغليظة الجافية، والكزة القاسية التي تتصلب في الأمور، ولا تتأثر، غير مستعدة للكمال. إذ الكمال الإنساني لا يكون إلا بالقبول والتأثر، فكلما كانت النفس ألين عريكة، وأسلم قلباً، وأسهل قبولاً، كانت أقبل للكمال، وأشد استعداداً له. وليس هذا اللين هو من باب الضعف والبلاهة الذي يقتضي الانفعال من كل ما يسمع، حتى المحال، والتأثر من كل ما يرد عليه ويراه، حتى الكذب والشرور والضلال، بل هو من باب اللطافة، وسرعة القبول لما يناسبه من الخير والصدق، فلذلك قال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ﴾ .إذ صفاء الاستعداد، ولطف النفس، يوجب قبول ما يناسبه من باب الخيرات، لا ما ينافيه من

باب الشرور، فإن الاستعداد الخيريّ لا يقبل الشر، ولا يتأثر به، ولا ينطبع فيه، لمنافاته إياه، وبعده عنه. انتهى.

لطائف:

الأولى – في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ﴾ أبلغ أسلوب في الرد عليهم، فإنه صدقهم في كونه أذناً، إلا أنه فسره بما هو مدح له، وثناء عليه.

قال الناصر: لا شيء أبلغ من الردّ عليهم بهذا الوجه، لأنه، في الأول، إطماع لهم بالموافقة، ثم كرّ على طمعهم بالحسم، وأعقبهم في تنقصه باليأس منه. ويضاهي هذا، من مستعملات الفقهاء، القول بالموجب، لأن في أوله إطماعاً للخصم بالتسليم، ثم بتّاً للطمع على قرب، ولا شيء أقطع من الإطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه. والله الموفق.

الثانية – (اللام) في قوله تعالى: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ مزيدة للتفرقة بين الإيمان المشهور، وهو الاعتراف، وبين الإيمان بمعنى التسليم والتصديق – قاله أبو السعود تبعاً للقاضي –

قال الشهاب: يعني أن الإيمان بالله بمعنى الاعتراف والتصديق، يتعدى بالباء، فلذا قال (بِاللَّهِ) والإيمان للمؤمنين بمعنى جعلهم في أمان من التكذيب بتصديقه لهم، لما علم من خلوصهم، متعد بنفسه، فاللام فيه مزيدة للتقوية.

الثالثة – قال أبو السعود: إسناد الإيمان إليهم بصيغة الفعل، بعد نسبته إلى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبئة عن الرسوخ والاستمرار – للإيذان بأن إيمانهم أمر حادث ما له من قرار.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي بما نقل عنهم من قولهم ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ ونحوه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي بما يجترئون عليه من إيذائه.

قال أبو السعود: وهذا اعتراض مسوق من قبَله عزَّ وجلَّ على نهج الوعيد، غير تحت الخطاب. وإيراده ﷺ بعنوان الرسالة مضافاً إلى الاسم الجليل، لغاية التعظيم، والتنبيه على أن أذيته راجعة إلى جنابه عزَّ وجلَّ، موجبة لكمال السخط والغضب. انتهى.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ قال الزمخشري: الخطاب للمسلمين، وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن، أو يتخلفون عن الجهاد، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم، ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم، ويرضوا عنهم، فقيل لهم: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون، فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق. انتهى.

ولما كان الظاهر بعد العطف بالواو التثنية، وقد أُفْرِدَ - وَجَّهُوهُ:

بأن إرضاء الرسول إرضاءٌ لله تعالى لقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فلتلازمهما جعلا كشيء واحد، فعاد عليهما الضمير المفرد، و ﴿أَحَقُّ﴾، على هذا، خبر عنهما من غير تقدير.

أو بأن الضمير عائد إلى الله تعالى، و﴿أَحَقُّ﴾ خبره، لسبقه. والكلام جملتان، حذف خبر الجملة الثانية، لدلالة الأولى عليه. أي: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك.

وسيبويه جعله للثاني، لأنه أقرب، مع السلامة من الفصل بين المبتدأ والخبر كقوله:

نَحْنُ بما عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْـ ـدَكَ رَاضٍ والرأيُ مُخْتَلِفُ

أو بأن الضمير لهما بتأيل ما ذكر، أو كل منهما، وأنه لم يثن تأدباً لئلا يجمع بين الله وغيره في ضمير تثنية، وقد نهي عنه، على كلام فيه.

أو بأن الكلام في إيذاء الرسول ﷺ وإرضائه، فيكون ذكر الله تعظيماً له وتمهيداً. فلذا لم يخبر عنه، وخص الخبر بالرسول. قال الشهاب: وفيه تأمل. انتهى.

وقد عهد لهم القول بمثله في آيات كثيرة، وجواب الشرط مقدر يدل عليه ما قبله، وقراءة التاء على الالتفات، للتوبيخ.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا**﴾ أي أولئك المنافقون. قال أبو السعود: والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من العظيمة، مع علمهم بسوء عاقبتها. وقرئ بالتاء على الالتفات، لزيادة التقريع والتوبيخ أي ألم يعلموا بما سمعوا من رسول الله ﷺ من فنون القوارع والإنذارات ﴿**أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا**﴾ أي من يخالف الله ورسوله. قال الليث: حاددته أي خالفته، والمحاددة كالمجانبة والمعاداة والمخالفة، واشتقاقه من (الحدّ)، بمعنى الجهة والجانب، كما أن المشاقة من (الشق) بمعناه أيضاً، فإن كل واحد من المتخالفين والمتعاديَيْن في حدّ وشقّ، غير ما عليه صاحبه. فمعنى ﴿**يُحَادِدِ اللَّهَ**﴾ يصير في حدٍّ غير حدٍّ أولياء الله، بالمخالفة.

وقال أبو مسلم: المحادة مأخوذة من الحديد، حديد السلاح.

وقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ**﴾ أي الذل والهوان الدائم. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿**يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ**﴾ أي في شأنهم، فإن ما نزل في حقهم، نازل عليهم ﴿**سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ أي من الأسرار الخفية، فضلاً عما كانوا يظهرونه فيما بينهم من أقاويل الكفر والنفاق. ومعنى تنبئتها إياهم بما في قلوبهم، مع أنه معلوم لهم، وأن المحذور عندهم اطّلاع المؤمنين على أسرارهم، لا اطّلاع أنفسهم عليها - أنها تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم، فتنتشر فيما بين الناس، فيسمعونها من أفواه الرجال مذاعة، فكأنها تخبرهم بها. والمراد بالتنبئة المبالغة في كون السورة مشتملة على أسرارهم، كأنها تعلم من أحوالهم الباطنة ما لا يعلمونه، فتنبئهم بها، وتنعي عليهم قبائحهم. وقيل: معنى (يحذر) ليحذر، وقيل: الضميران الأولان للمؤمنين، والثالث للمنافقين، ولا يبالي بالتفكيك عند ظهور الأمر بعود المعنى إليه. أي يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما في قلوب المنافقين. أفاده أبو السعود.

فإن قلت: المنافق كافر، فكيف يحذر نزول الوحي على الرسول؟ أجيب: بأن القوم، وإن كانوا كافرين بدين الرسول، إلا أنهم شاهدوا أنه ﷺ كان يخبرهم بما يكتمونه، فلهذه التجربة وقع الحذر والخوف في قلوبهم.

وقال الأصمّ: إنهم كانوا يعرفون كونه رسولاً صادقاً من عند الله، إلا أنهم كفروا به حسداً وعناداً. وتعقبه القاضي بأن يبعد، في العالم بالله وبرسوله وصحة دينه، أن يكون محاداً لهما. لكن قال الرازي: هو غير بعيد، لأن الحسد إذا قوي في القلب، صار بحيث ينازع في المحسوسات. انتهى.

وقال أبو مسلم: هذا حذر أظهره المنافقون على وجه الاستهزاء حين رأوا الرسول ﷺ يذكر كل شيء، ويدعي أنه عن الوحي، وكان المنافقون يكذبون بذلك فيما بينهم، فأخبر الله رسوله بذلك، وأمره أن يعلمهم أنه يظهر سرهم الذي حذروا ظهوره. ولذلك قال تعالى: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا﴾ أي بالله وآياته ورسوله، أو افعلوا الاستهزاء، وهو أمر تهديد ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ أي مظهر بالوحي ما تحذرون خروجه من إنزال السورة، ومن مثالبكم ومخازيكم المستكنة في قلوبكم الفاضحة لكم، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ....﴾ الآية [محمد :٢٩] — ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة (الفاضحة) فاضحة المنافقين.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أي عن إتيانهم بتلك القبائح المتضمنة للاستهزاء بما ذكر ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أي في الاعتذار إنه لم يكن عن القلب حتى يكون نفاقاً وكفراً بل ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ﴾ أي ندخل هذا الكلام لترويح النفس ﴿وَنَلْعَبُ﴾ أي نمزح ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي في ترويحكم ومزاحكم، ولم تجدوا لهما كلاماً آخر.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ أي لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة، فالنهي عن الاشتغال به

وإدامته إذ أصله وقع ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ أي أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول ﷺ والطعن فيه وباستهزائكم بمقالكم ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي بعد إظهاركم الإيمان.

تنبيه:

قال في (الإكليل): قال الكيا: فيه دلالة على أن اللاعب والجادّ في إظهار كلمة الكفر سواء، وأن الاستهزاء بآيات الله كفر - انتهى -.

قال الرازي: لأن الاستهزاء يدل على الاستخفاف. والعمدةُ الكبرى في الإيمان تعظيمُ الله تعالى بأقصى الإمكان، والجمع بينهما محال.

وقال الإمام ابن حزم في (الملل): كل ما فيه كفر بالبارئ تعالى، واستخفاف به، أو بنبيّ من أنبيائه، أو بملك من ملائكته، أو بآية من آياته عزَّ وجلَّ، فلا يحلّ سماعه، ولا النطق به، ولا يحلّ الجلوس حيث يلفظ به. ثم ساق الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ أي لتوبتهم وإخلاصهم. أو تجنبهم عن الإيذاء والاستهزاء ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي مصرّين على النفاق، أو مُقدِمين على الإيذاء والاستهزاء.

تنبيه:

روي في صفة استهزاء المنافقين روايات عدة:

قال ابن إسحاق: كان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت، أخو بني عمرو ابن عوف، ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مُخَشِّن بن حُمَيِّر، (ويقال مَخْشِيّ) يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً. والله! لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فقال مخشن بن حمير. والله! لوددت أن أقاضَى على أن يُضْرَبَ كل منا مائة جلدة، وأنا ننقلب أن ينزل فينا قرآن، لمقالتكم هذه. وقد قال رسول الله ﷺ فيما بلغني - لعمار بن ياسر: أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى! قلتم: كذا وكذا. فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت - ورسول الله ﷺ واقف على ناقته -: يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله عزَّ وجلَّ فيهم ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ وقال مخشن بن حمير: يا رسول الله! قعد بي اسمي واسم أبي. وكان الذي عُفِيَ عنه في هذه الآية

مخشن، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله تعالى أن يقتله شهيداً لا يعلم بمكانه، فقتل بيوم اليمامة، فلم يوجد له أثر. انتهى.

وقال عكرمة: ممن إن شاء الله تعالى عفا عنه يقول: اللهم إني أسمع آية أنا أعنى بها، تقشعر منها الجلود، وتوجَل منها القلوب. اللهم فاجعل وفاتي قتيلاً في سبيلك، لا يقول أحد: أنا غسلت، أنا كفنت، أنا دفنت. قال: فأصيب يوم اليمامة، فما من أحد من المسلمين إلا وقد وُجِدَ، غيره.

وممى روي في استهزائهم أن رجلاً من المنافقين قال: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء. فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء إلى النبيّ صلوات الله عليه وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونلعب، فقال: ﴿أبِالله ورسوله وآياته كنتم تستهزئون...﴾ الآية - وهو متعلق بسيف الرسول، وما يلتفت إليه ﷺ.

قال الزجاج: (الطائفة) في اللغة أصلها الجماعة، لأنها المقدار الذي يمكنها أن تطيف بالشيء، ثم يجوز أن يسمى الواحد بالطائفة. انتهى.

وإيقاع الجمع على الواحد معروف في كلام العرب.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾

﴿الْمُنَافِقُونَ و الْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان، كتشابه أبعاض الشيء الواحد. والمراد الاتحاد في الحقيقة والصفة. فـ(من) اتصالية.

قال الزمخشري: أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم ويحلفون بالله إنهم لمنكر وتقرير قوله (وما هم منكم) ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين بقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ كالكفر والمعاصي ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ كالإيمان والطاعات ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي بخلاً

بالمبرّات، والإنفاق في سبيل الله، فإن قبض اليد كناية عن الشح والبخل، كما أن بسطها كناية عن الجود، لأن من يُعْطِي يمد يده، بخلاف من يمنع ﴿نسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي أغفلوا ذكره وطاعته، فتركهم من رحمته وفضله.

قال الشهاب: معنى ﴿نَسُوا اللهَ﴾ أنهم لا يذكرونه ولا يطيعونه، لأن الذكر له مستلزم لإطاعته، فجعل النسيان مجازاً عن الترك، وهو كناية عن ترك الطاعة، ونسيان الله منع لطفه وفضله عنهم.

قال النحرير: جعل النسيان مجازاً لاستحالة حقيقته عليه تعالى، وامتناع المؤاخذة على نسيان البشر.

﴿إنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الكاملون في الفسق، الذي هو التمرد في الكفر، والانسلاخ عن كل خير. وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين حين بالغ في ذمهم. وإذا كره رسول الله ﷺ للمسلم أن يقول (كسلت) لأن المنافقين وصفوا بالكسل في قوله: ﴿كُسَالَى﴾ [النساء:١٤٢] فما ظنك بالفسق؟ أفاده الزمخشري.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

﴿وَعَدَ اللهُ الْمُنافقينَ وَالْمُنافقات وَالْكُفَّارَ نَارَ جهنَّم خَالدينَ فِيهَا، هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي عقاباً وجزاءً ﴿وَلَعَنَهُمُ اللهُ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقيمٌ﴾ أي لا ينقطع.

القول في تأويل قوله تعالى:

كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

﴿كَالَّذينَ منْ قَبْلكُمْ﴾ أي أنتم مثل الذين أو فعلتم مثلهم، أي ممن أنعم عليهم ثم عذبوا، والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للتشديد ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ في أنفسهم ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً﴾ أي تفيدهم مزيد قوة، ومنافع جمة ﴿وَأَوْلاداً﴾ أي تفيدهم

مزيد قوة لا تفوت بفوات المال، ومنافع أخر ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ﴾ أي انتفعوا بنصيبهم، ثم أعطاكم أيها المنافقون أقل مما أعطاهم ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي دخلتم في الباطل، كالخوض الذي خاضوه، أو كالفوج الذي خاضوا ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي لم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين، أما في الآخرة فظاهر، وأما في الدنيا فما لهم من الذل والهوان وغير ذلك ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي الذين خسروا الدارين.

روى ابن جريج عن أبي هريرة قال[1]: قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده! لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وباعاً بباع، حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه. قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ أهل الكتاب؟ قال: فمن؟ وفي رواية قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم القرآن: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ الآية (قال أبو هريرة: الخَلاقُ: الدين) قالوا: يا رسول الله! كما صنعت فارس والروم؟ قال: فهل الناس إلا هم؟ وهذا الحديث له شاهد في الصحيح - أفاده ابن كثير -.

لطيفة:

قال الزمخشري: فإن قلت: أي فائدة في قوله ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ﴾؟ وقوله ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ﴾ مغن منه، كما أغنى قوله ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ عن أن يقال: وخاضوا فخضتم كالذي خاضوا؟ قلت: فائدته أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا، ورضاهم بها، والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة، وطلب الفلاح في الآخرة، وأن يخسس أمر الاستمتاع، ويهجن أمر الراضي به، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول: أنت مثل فرعون، كان يقتل بغير جرم، ويعذب ويعسف، وأنت تفعل مثل فعله. وأما ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ فمعطوف على ما قبله مستند إليه، مستغن، باستناده إليه، عن تلك التقدمة.

ثم وعظ تعالى المنافقين بقوله:

---

(١) الحديث أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير، ١٠/ ١٧٦ .
وشاهده في الصحيح ما أخرجه البخاري في: الاعتصام، ١٤ - باب قول النبيّ ﷺ «لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم»، الحديث رقم ٢٥٨٩ .

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ أي بطريق التواتر ﴿نَبَأُ﴾ أي خبر ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وهو إهلاكهم بعد تنعيمهم لكفرهم ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ انعم عليهم بنعم، منها تطويل أعمارهم، ثم أهلكوا بالطوفان ﴿وَعَادٍ﴾ قوم هود، أنعم عليهم بنعم منها مزيد قوتهم، ثم أهلكوا بالريح ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح، أنعم عليهم بنعم، منها القصور، ثم أهلكوا بالرجفة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أهلكوا بالهدم - كذا في (التنوير).

وقال المهايمي: أنعم عليهم بنعم منها عظم الملك ثم أهلك ملكهم نمرود بالبعوض الداخل في أنفه ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ قوم شعيب، أنعم عليهم بنعم، منها التجارة، ثم أهلكهم بإفاضة النار عليهم ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قريات قوم لوط، ائتفكت بهم، أي انقلبت بهم، فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارة من سجيل.

وقوله تعالى: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ استئناف لبيان نبئهم. أن جاءتهم بالآيات الدالة على رسالتهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي بإهلاكه إياهم، لأنه أقام عليهم الحجة، بإرسال الرسل، وإزاحة العلل. والفاء للعطف على مقدّر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام. أي فكذبوهم فاهلكهم الله تعالى، فما ظلمهم بذلك ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي بالكفر والتكذيب، وترك شكره تعالى، وصرفهم نعمه إلى غير ما أعطاهم إياها لأجله، فاستحقوا ذلك العذاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في مقابلة قوله في المنافقين ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾[التوبة: ٦٧]، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي فلا يزالون يذكرونه تعالى، فهو في مقابلة ما سبق من قوله ﴿نَسُوا

اللّهَ﴾ [التوبة:٦٧]، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ بمقابلة قوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، ﴿وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في كل أمر ونهي، وهو بمقابلة وصف المنافقين، بكمال الفسق والخروج عن الطاعة ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ، إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

﴿وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي من تحت شجرها ومساكنها أنهار الخمر والماء والعسل واللبن ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي منازل حسنة تستطيبها النفوس أو يطيب فيها العيش ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي إقامة وثبات ويقال ﴿عَدْنٍ﴾ علم لموضع معين في الجنة، لآثار فيه، ولما كان ﴿وَمَسَاكِنَ﴾ معطوفاً على ﴿جَنَّاتٍ﴾ قيل: إن المتعاطفين إما أن يتغايرا بالذات، فيكونوا وُعِدُوا بشيئين، وهما الجنات بمعنى البساتين ومساكن في الجنة، فلكل أحد جنة ومسكن. أو الجنات المقصود بها غير عدن، وهي لعامة المؤمنين، و(عَدْنٍ) للنبيين عليهم الصلاة والسلام، والشهداء والصديقين. وإما أن يتحدا ذاتاً. ويتغايرا صفة، فينزل التغاير الثاني منزلة الأول، ويعطف عليه، فكل منهما عام، ولكن الأول باعتبار اشتمالها على الأنهار والبساتين، والثاني باعتبار الدور والمنازل.

قال القاضي: فكأنه وصف الموعود أولاً بأنه من جنس ما هو أبهى الأماكن التي يعرفونها لتميل إليه طباعهم، أول ما يقرع أسماعهم، ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش، معرى من شوائب الكدورات التي لا تخلو عن شيء منها أماكن الدنيا، وفيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين. ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات في جوار العلّيين، لا يعتريهم فيها فناء ولا تغيّر، ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللّهِ أَكْبَرُ﴾ إذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة، وبه يناط نيل كل شرف وسيادة، ولعل عدم نظمه في سلك الوعد مع عزته في نفسه لأنه متحقق في ضمن كل موعود، ولأنه مستمر في الدارين. أفاده أبو السعود.

وإيثار رضوان اللّه على ما ذكر، إشارة إلى إفادة أن قدراً يسيراً منه خير من ذلك.

وقد روى الإمام مالك والشيخان[١] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عزَّ وجلَّ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب؛ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً.

وروى المحاملي والبزار عن جابر، رفعه: إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال الله عزَّ وجلَّ: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ قالوا: يا ربنا! ما هو خير مما أعطيتنا؟ قال: رضواني أكبر.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي لا ما يعدّه الناس فوزاً من حظوظ الدنيا.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قيل: مجاهدة المنافقين بالحجة لا بالسيف. قال في (العناية) ظاهر الآية يقتضي مقاتلة المنافقين، وهم غير مظهرين للكفر، ونحن مأمورون بالظاهر، فلذا فسر الآية السلفُ بما يدفع ذلك، بناء على أن الجهاد بذل الجهد في دفع ما لا يرضى، سواء كان بالقتال أو بغيره، وهو إن كان حقيقة فظاهر، وإلا حمل على عموم المجاز، فجهاز الكفار بالسيف، وجهاد المنافقين بإلزامهم الحجج، وإزالة الشبه ونحوه. أو بإقامة الحدود عليهم، إذا صدر منهم موجبها، كما روي عن الحسن في الآية. وقيل عليه بأن إقامتها واجبة على غيرهم أيضاً، وأجيب بأنها في زمنه ﷺ أكثر ما صدرت عنهم. انتهى.

قال ابن العربي: هذه دعوى لا برهان عليها، وليس العاصي بمنافق، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق كامناً، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً، وأخبار المحدودين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا منافقين.

---

(١) أخرجه البخاري في: الرقاق، ٥١ - باب صفة الجنة والنار: حديث رقم ٢٤٥٨.
وأخرجه مسلم في: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم ٩.

وقال ابن كثير: روي عن عليّ رضي الله عنه قال: بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف، سيف للمشركين: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:٥]؛ وسيف للكفار أهل الكتاب: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ [التوبة:٢٩] الآية -؛ وسيف للمنافقين: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣] و [التحريم :٩] وسيف للبغاة: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي...﴾ [الحجرات:٩] الآية - وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير. انتهى.

وفي (الإكليل) استدل بالآية من قال بقتل المنافقين. انتهى.

﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي اشدد على كلا الفريقين بالقول والفعل ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ أي فيك شيئاً يسوءُك ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ﴾ قال قتادة: نزلت في عبد الله بن أبيّ، وذلك أنه اقتتل رجلان: جهني وأنصاري، فعلا الجهني على الأنصاري، فقال عبد الله للأنصار: ألا تنصرون أخاكم! والله، ما مثلنا ومثل محمد إلاّ كما قال القائل: (سمن كلبك يأكلك). وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزُّ منها الأذلّ. فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبيّ ﷺ، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية.

وروى الأموي في مغازيه عن ابن إسحاق أن الجلاس بن سويد بن الصامت - وكان ممن تخلف من المنافقين - لما سمع ما ينزل فيهم قال: والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول، لنحن شرٌّ من الحمير، فسمعها عمير بن سعد، وكان في حجره، فقال: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إليّ، وأحسنهم عندي بلاءً، وأعزهم عليّ أن يصله شيئاً تكرهه، ولقد قلت مقالة، فإن ذكرتها لتفضحني، ولئن كتمتها لتهلكنّي، ولإحداهما أهون عليّ من الأخرى. فمشى إلى رسول الله ﷺ، فذكر له ما

قال الجلاس، فلما بلغ ذلك الجلاس، أتى رسول الله ﷺ، فحلف بالله ما قالها، فأنزل الله عزَّ وجلَّ فيه ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ...﴾ الآية – فوقفه رسول الله ﷺ عليها، فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته، ونزع فأحسن النزوع.

وهاتان الروايتان وغيرهما مما روي هنا، كله مما يفيد تنوع مقالات وكلمات مكفرة لهم مما هو من هذا القبيل، وإن لم يمكنّا تعيين شيء منها في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ قال ابن كثير: قيل أنزلت في الجلاس بن سويد، وذلك أنه هم بقتل عمير ابن امرأته، لما رفع كلمته المتقدمة إلى النبيّ صلوات الله عليه. وقد ورد أن نفراً من المنافقين هموا بالفتك بالنبيّ ﷺ، وهو في غزوة تبوك، في بعض تلك الليالي، في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً. قال الضحاك: ففيهم نزلت هذه الآية. قال الإمام أحمد في مسنده[1]: حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أمر منادياً فنادى أن رسول الله ﷺ أخذ العقبة، فلا يأخذها أحد. فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة، ويسوق به عمّار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل، غشوا عماراً، وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار رضي الله عنه يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: قُدْ قُدْ. حتى هبط رسول الله ﷺ. فلما هبط رسول الله ﷺ نزل، ورجع عمار! فقال: يا عمار! هل عرفت القوم؟ فقال: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم متلثمون. قال: هل تدري ما أرادوا؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه. قال: فسابَّ عمار رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: نشدتك بالله، كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر رجلاً. فقل: إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر. قال فعدّد رسول الله ﷺ منهم ثلاثة، قالوا: والله ما سمعنا مناديَ رسول الله ﷺ، وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ أي ما أنكروا وما عابوا ﴿إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فإنهم كانوا قبل مقدمه ﷺ المدينة في ظنك من العيش، فأثروا بالغنائم، وقتل للجلاس مولى، فأمر له النبيّ ﷺ بديته فاستغنى. والمعنى أن المنافقين عملوا بضد الواجب، فجعلوا موضع شكر النبيّ ﷺ ما هموا به، ولا ذنب إلا تفضله عليهم، فهو على حد قولهم: ما لي عندك ذنب إلا أني أحسنت إليك، وقول ابن قيس الرقيّات:

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٤٥٣ .

ما نَقِمَ الناسُ من أُمَيَّةَ إلا أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إنْ غَضِبُوا

وقول النابغة:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

ويقال: نقم من فلان الإحسان (كعلم) إذا جعله مما يؤديه إلى كفر النعمة كما في (التاج) - ثم دعاهم تعالى إلى التوبة بقوله: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾ أي من الكفر والنفاق ﴿يَكُ خَيْراً لَهُمْ، وَإِنْ يَتَوَلَّوا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا﴾ أي بالقتل والهم والغم ﴿وَالآخِرَةِ﴾ أي بالنار وغيرها ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي يشفع لهم في دفع العذاب ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ أي فيدفعه بقوته.

ثم بيّن تعالى بعض مَنْ نقم لإغناء اللّه تعالى إياه بما آتاه من فضله، ممن نكث في يمينه، وتولى عن التوبة، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ أي حلف به ﴿لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي بإعطاء كل ذي حق حقه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾

﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا﴾ أي من العهد ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ أي فجعل اللّه عاقبة فعلهم ذلك، أو فأورثهم البخل ﴿نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ أي من التصدق والصلاح ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ في العهد.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ٧٨﴾

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ اي ما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ اي ما غاب عن العباد.

تنبيهات:

الأول – قال السيوطي في (لباب النقول): أخرج الطبراني وابن مردويه وابن أبي حاتم والبيهقي في (الدلائل) بسند ضعيف عن أبي أمامة؛ أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله! ادع الله ان يرزقني مالاً. قال: ويحك يا ثعلبة! قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه. قال: والله لئن آتاني الله مالاً لأوتين كل ذي حق حقه. فدعا له، فاتخذ غنماً، فنمت حتى ضاقت عليه أزقة المدينة، فتنحى بها، وكان يشهد الصلاة ثم يخرج إليها، ثم نمت حتى تعذرت عليه مراعي المدينة، فتنحى بها، فكان يشهد الجمعة ثم يخرج إليها، ثم نمت، فتنحى بها، فترك الجمعة والجماعات. ثم انزل الله على رسوله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]، فاستعمل على الصدقات رجلين، وكتب لهما كتاباً، فاتيا ثعلبة، فاقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: انطلقا إلى الناس، فإذا فرغتم فمروا بي ففعلا، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية، فانطلقا، فانزل الله ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ...﴾ إلى قوله ﴿يَكْذِبُونَ﴾ الحديث.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس نحوه، وفيه انه جاء بعدُ إلى النبيّ ﷺ بصدقته فقال له: إن الله منعني أن أقبل منك، فجعل التراب على رأسه. فقال: هذا عملك، قد أمرتك فلم تطعني، فقبض رسول الله ﷺ، فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها، وكذا عمر وعثمان، ثم إنه هلك في أيام عثمان.

قال الشهاب: مجيء ثعلبة وحثوه التراب، ليس للتوبة من نفاقه، بل للعار من عدم قبول زكاته مع المسلمين. وقوله صلوات الله عليه: هذا عملك، أي جزاء عملك، وهو عدم إعطائه المصدقين، مع مقالته الشنعاء.

قال الحاكم: إن قيل: كيف لم تقبل صدقته وهو مكلف بالتصدق؟ أجيب:

بأنه يحتمل أن اللّه تعالى أمر بذلك، كيلا يجترئ الناس على نقض العهد، ومخالفة أمر اللّه تعالى، وردّ سعاة النبيّ ﷺ، ويكون لطفاً في ترك البخل والنفاق.

الثاني – قال بعض المفسرين من الزيدية: ثمرة الآية وسبب نزولها أحكام:

منها – أن الوفاء بالوعد واجب، إذا تعلق العهد بواجب. والعهد إن حمل على اليمينّ باللّه، فذلك ظاهر، وإن حمل على النذر، ففي ذلك تأكيد لما أوجب اللّه.

ومنها – أن للإمام أن يفعل مثل ذلك لمصلحة، أي يمتنع من أخذ الواجب إذا حصل له وجه شابه الوجهَ الذي حصل في قصة ثعلبة. انتهى.

الثالث – قال السيوطي في (الإكليل): فيها أن إخلاف الوعد والكذب من خصال النفاق، فيكون الوفاء والصدق من شعب الإيمان. وفيها المعاقبة على الذنب بما هو أشد منه لقوله: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً ﴾ واستدل بها قوم على أن من حلف إن فعل كذا فلله عليّ كذا، أنه يلزمه. وآخرون على أن مانع الزكاة يعاقب بترك أخذها منه. كما فعل بمن نزلت الآية فيه. انتهى.

الرابع – قال الرازي: ظاهر الآية يدل على أن نقض العهد، وخلف الوعد، يورث النفاق، فيجب على المسلم أن يبالغ في الاحتراز عنه، فإذا عاهد اللّه في أمر فليجتهد في الوفاء به. ومذهب الحسن البصري رحمه اللّه أنه يوجب النفاق لا محالة، وتمسك فيه بهذه الآية، وبقوله عليه السلام[1]: (ثلاث من كن فيه فهو منافق، وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان).

الخامس – دل قوله تعالى: ﴿ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ على أن ذلك المعاهِد مات منافقاً. قال الرازي: وهذا الخبر وقع مخبره مطابقاً له، فإنه روي أن ثعلبة أتى النبيّ ﷺ بصدقته فقال: إن اللّه تعالى منعني أن أقبل صدقتك. وبقي على تلك الحالة. وما قَبِلَ أحدٌ من الخلفاء رضي اللّه عنهم صدقته حتى مات. فكان إخباراً عن غيب، فكان معجزاً.

السادس – الضمير في (يلقونه) للفظ الجلالة، والمراد بـ(اليوم) يوم القيامة. وله نظائر كثيرة في التنزيل. وأعرب بعض المفسرين حيث قال: الضمير في (يلقونه)

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الإيمان، ٢٤ – باب علامة المنافق، حديث رقم ٣١ عن أبي هريرة. وأخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ١٠٧ – ١١٠.

إما لله، والمراد باليوم وقت الموت، أو للبخل والمراد يوم القيامة والمضاف محذوف، وهو الجزاء. انتهى.

واللقاء إذا أضيف إلى الكفار كان لقاءً مناسباً لحالهم من وقوفهم للحساب مع حجبهم عنه تعالى، لأنهم ليسوا أهلاً لرؤيته، تقدس اسمه. وإذا أضيف إلى المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، كان لُقْياً مناسباً لمقامهم من رؤيته تعالى. وذلك لمَا أفصحت عنه آيات أخر من حال الفريقين، مما يتنزل مثل ذلك عليها. فمن وقف في بعض الآيات على لفظة، وأخذ يستنبط منها، ولم يراع من استعملت فيه، وأطلقت عليه، كان ذلك جموداً وتعصباً، لا أخذاً بيد الحق. نقول ذلك رداً لقول الجبائي: إن اللقاء في هذه الآية لا يفيد رؤيته تعالى، للإجماع على أن الكفار لا يرونه تعالى، فلا يفيدها أيضاً في قوله تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾. وللرازي معه مناقشة من طريق أخرى. وما ذكرناه أمتن. والله أعلم.

السابع – قال الرازي: (السر) ما ينطوي عليه صدورهم، و (النجوى) ما يفاوض فيه بعضهم بعضاً فيما بينهم، وهو مأخوذ من النجو، وهو الكلام الخفي، كأن المتناجيين مَنَعَا إدخال غيرهما معهما، وتباعدا من غيرهما.

ثم بين تعالى من مساوئ المنافقين نوعاً آخر، وهو لمزهم المتصدقين بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

﴿ **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ** ﴾ أي يعيبون ﴿ **الْمُطَّوِّعِينَ** ﴾ أي المتبرعين ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ** ﴾ فيزعمون أنهم تصدقوا رياءً ﴿ **وَالَّذِينَ** ﴾ أي ويلمزون الذين ﴿ **لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ** ﴾ أي لا يجدون ما يتصدقون به إلا قليلاً، وهو مقدار طاقتهم ﴿ **فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ** ﴾ أي يهزؤون بهم، ويقولون إن الله غنّي عن صدقتهم ﴿ **سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ أي جازاهم على سَخَرهم ﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ روى البخاري[1] في صحيحه عن أبي

(١) أخرجه البخاري في: الزكاة، ١٠ – باب اتقوا النار ولو بشق تمرة، الحديث رقم ٧٥٥.

مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة، كنا نحامل فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرائي. وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغنيّ عن صدقة هذا، فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ...﴾ الآية - ورواه مسلم[١] أيضاً.

وروى الإمام أحمد[٢] عن أبي السليل عن رجل حدثه عن أبيه أو عمه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: من يتصدق بصدقة أشهدُ له بها يوم القيامة؟ فجاء رجل لم أرى رجلاً أشدّ منه سواداً، ولا أصغر منه ولا أدمّ، بناقة لم أر أحسن منها، فقال: يا رسول الله، دونك هذه الناقة. قال: فلمزه رجل فقال: هذا يتصدق بهذه، فوالله لهي خير منه! فسمعها رسول الله ﷺ فقال: كذبت! بل هو خير منك ومنها (ثلاث مرات). ثم قال: ويل لأصحابك إلا من قال بالمال هكذا وهكذا، وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله.

قال ابن إسحاق: كان المطّوّعون من المؤمنين في الصدقات عبد الرحمن بن عوف، وعاصم بن عدي أخا بني عجلان. وذلك أن رسول الله ﷺ رغَّب في الصدقة، وحضّ عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف، وقام عاصم بن عديّ وتصدق بمائة وسق من تمر، فلمزوهما وقالوا. ما هذا إلا رياءٌ. وكان الذي تصدق بجهده أبا عقيل، أخا بني أُنَيْف، أتى بصاع من تمر، فأفرغها في الصدقة فتضاحكوا به، وقالوا: إن الله لغنيّ عن صاع أبي عقيل.

وروى الحافظ البزار في مسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً. فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال: يا رسول الله! عندي أربعة آلاف، ألفين أقرضهما لربي، وألفين لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: بارك الله لك فيما أعطيت، وبارك لك فيما أمسكت. وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر، فقال: يا رسول الله! أصبت صاعين من تمر، صاع أقرضه لربي، وصاع لعيالي. قال، فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياءٌ، وقالوا ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله الآية. وقوله ﷺ (أريد أن أبعث بعثاً) أي لغزو الروم، وذلك في غزوة تبوك.

تنبيهات:

الأول - قال السيوطي في (الإكليل): في هذه الآية تحريم اللمز والسخرية بالمؤمنين. انتهى.

---

(١) أخرجه مسلم في: الزكاة، حديث ٧٢.

(٢) أخرجه في المسند ٥ / ٣٤.

الثاني - في ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ وجوه من الإعراب: خبر مبتدأ بتقدير ﴿هُمُ الَّذِينَ﴾ أو مفعول أعني أو أذم الذين، أو مجرور بدل من ضمير ﴿سِرَّهُمْ﴾، وجوّز أيضاً أن يكون مبتدأ خبره ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾، وقيل: ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾، ودخلت (الفاء) لما في (الَّذِينَ) من الشبه بالشرط. وأما ﴿الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ﴾... الخ فقيل: معطوف على ﴿الَّذِين يَلْمِزون﴾ وقيل: على ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾، والأحسن أنه معطوف على (المطوعين).

قال في (الفتح): ويكون من عطف الخاص على العام، والنكتة فيه التنويه بالخاص، لأن السخرية من المقلّ أشدّ من المكثر غالباً.

الثالث – قال في (الفتح): قراءة الجمهور ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ بتشديد الطاء والواو. وأصله المتطوعين، أدغمت التاء في الطاء. انتهى. أي لقرب المخرج. والتطوع التنفّل، وهو الطاعة للّه تعالى بما ليس بواجب. و(الجهد)، قال الليث: هو شيء قليل يعيش به المقلّ، وبضم الجيم قرأ الجمهور. وقرأ ابن هرمز وجماعة بالفتح، فقيل: هما لغتان بمعنى واحد. وقيل: المفتوح بمعنى المشقة، والمضموم بمعنى الطاقة. وقيل: المضموم قليل يعاش به، والمفتوح: العمل. والمختار أنهما بمعنى، وهو الطاقة وما تبلغه القوة. قال الفراء: الضم لغة أهل الحجاز، والفتح لغيرهم. والهزء والسخرية بمعنى.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٨٠﴾

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي لهؤلاء المنافقين ﴿أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي فإنهما في حقهما سواء. ثم بيّن استحالة المغفرة لهم وإن بولغ في الاستغفار بقوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ، ذَلِكَ﴾ أي عدم الغفران لهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن حدوده.

تنبيهات:

الأول – جملة قوله تعالى ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الخ، إنشائية لفظاً، خبرية معنى. والمراد التسوية بين الاستغفار لهم، وتركه، في استحالة المغفرة. وتصويرُه بصورة

الأمر، للمبالغة في بيان استوائهما. كأنه عليه الصلاة والسلام أمر بامتحان الحال، بأن يستغفر تارة، ويترك أخرى، ليظهر له جلية الأمر، كما مر في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ [التوبة:٥٣]، وقد وردت بصيغة الخبر في سورة «المنافقون» في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون:٥-٦].

الثاني – قال الزمخشري: (السبعون) جارٍ مجرى المثل في كلامهم للتكثير. قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

لأَصْبَحَنَّ العاصَ وابن العاصِي   سَبْعِينَ أَلْفاً عَاقِدِي النَّوَاصِي

أي فذكرها للمبالغة في حسم مادة الاستغفار لهم، جرياً على أساليب العرب في ذكرها للمبالغة لا للتحديد، بأن يكون ما زاد عليها بخلافها.

وقال أبو السعود: شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة في مطلق التكثير، لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد، فكأنها العدد بأسره. وقيل: هي أكمل الأعداد، لجمعها معانيها، ولأن الستة أول عدد تامّ، لتعادل أجزائها الصحيحةٌ، إذ نصفها ثلاثة، وثلثها اثنان، وسدسها واحد، وجملتها ستة، وهي مع الواحد سبعة، فكانت كاملة؛ إذ لا مرتبة بعد التمام إلا الكمال. ثم السبعون غاية الكمال، إذ الآحاد غايتها العشرات. والسبعمائة غاية الغايات – انتهى –.

الثالث – روى البخاري[1] وغيره أن النبيّ ﷺ قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما أراد أن يصدّه عن الصلاة على عبد الله بن أبيّ: إنما خيّرني الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية وسأزيده على السبعين. فظاهر هذا أن (أو) للتخيير، وأن السبعين له حدٌّ يخالفه حكم ما وراءه، وهو من الإشكال بمكان. ولذا قال الزمخشري: فإن قلت: كيف خفي على رسول الله ﷺ، وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته؟ والذي يفهم من هذا العدد كثرة الاستغفار، كيف وقد تلاه بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا...﴾ الآية فبين الصارف عن المغفرة لهم، حتى قال: قد رخص لي ربي فسأزيد على السبعين.ثم أجاب الزمخشري بقوله: قلت لم يخف

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٩ – سورة التوبة، ٨ – باب قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾، حديث ٧٢٢.

عليه ذلك، ولكنه خيل بما قال إظهاراً لغاية رحمته ورأفته على من بعث إليه، كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦] وفي إظهار النبيّ ﷺ الرأفة والرحمة لطف لأمته، ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض. انتهى.

قال الشراح: يعني أنه أوقع في خيال السامع أنه فهم العدد المخصوص دون التكثير، فجوّز الإجابة بالزيادة قصداً إلى إظهار الرأفة والرحمة، كما جعل إبراهيم ﷺ جزاء من عصاني أي لم يمتثل أمر ترك عبادة الأصنام، قولَه ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ دون أن يقول: (شديد العقاب) فخيل أنه يرحمهم ويغفر لهم رأفة بهم، وحثّاً على الاتباع. وفهمُ المعنى الحقيقي من لفظ اشتهر مجازه، لا ينافي فصاحته، ومعرفته باللسان، فإنه لا خطأ فيه، ولا بعد، إذ هو الأصل. ورجحه عنده شغفه بهدايتهم، ورأفته بهم، واستعطاف من عداهم.

قال الناصر: وقد أنكر القاضي رضي الله عنه حديث الاستغفار، ولم يصححه، وتغالى قوم في قبوله، حتى إنهم اتخذوه عمدة في مفهوم المخالفة، وبنوه على أنه عليه السلام فهم من تحديد نفي الغفران بالسبعين، ثبوت الغفران بالزائد عليه، وذلك سبب إنكار القاضي عليهم وقيل: لما سوى الله بين الاستغفار وعدمه، ورتب عليه عدم القبول، ولم ينه عنه، فهم أنه خير ومرخص فيه، وهذا مراده ﷺ، لا أنه فهم التخيير من (أو)، حتى ينافي التسوية بينهما، المرتب عليها عدم المغفرة، وذلك تطيباً لخاطرهم، وأنه لم يأل جهداً في الرأفة بهم.

قال الشهاب: والتحقيق أن المراد التسوية في عدم الفائدة، وهي لا تنافي التخيير، ثبت فهو بطريق الاقتضاء، لوقوعها بين ضدين لا يجوز تركهما ولا فعلهما، فلا بد من أحدهما. فقد يكون في الإثبات كقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ [البقرة:٦]، لأنه مأمور بالتبليغ، وقد يكون في النفي كما هنا، وفي قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ...﴾ [المنافقون:٦] الآية - فهو محتاج إلى البيان. ولذا قال النبيّ ﷺ: (إنه رخص لي) ولعله رخص له في ابن أبيّ لحكمة، وإن لم يترتب عليه فائدة القبول. انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح): روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: لما نزلت ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ قال النبيّ ﷺ: لأزيدنّ على السبعين، فأنزل الله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ اسْتَغْفَرْتَ

لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِر لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ثم قال: ويحتمل أن تكون الآيتان معاً نزلتا في ذلك انتهى.

ثم أشار تعالى إلى نوع آخر من مساوئ المنافقين وهو جعلهم الفرح مكان الحزن، والكراهة مكان الرضا. بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

﴿**فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ المخلفون: هم الذين استأذنوا رسول الله ﷺ من المنافقين، فأذن لهم في التخلف كما قلنا، أو لأنه خلفهم في المدينة في غزوة تبوك. وإيثار ﴿**الْمُخَلَّفُونَ**﴾ على (المتخلفون)، لأنه ﷺ منع بعضهم من الخروج، فغلب على غيرهم. أو المراد من خلفهم كسلُهم أو نفاقهم. أو لأن الشيطان أغراهم بذلك، وحملهم عليه. وقوله تعالى: ﴿**بِمَقْعَدِهِمْ**﴾ متعلق بـ (فرح)، أي بقعودهم عن غزوة تبوك. فـ (مقعد) على هذا مصدر ميميّ، أو هو اسم مكان، والمراد به المدينة. وقوله ﴿**خِلافَ رَسُولِ اللهِ**﴾ أي خلفه، وبعد خروجه، حيث خرج ولم يخرجوا. فـ (خلاف) ظرف بمعنى خلف وبعد. يقال: فلان أقام خلاف الحي أي بعدهم، ظعنوا ولم يظعن ويؤيده قراءة من قرأ (خلف رسول الله)، فانتصابه على أنه ظرف لـ (مقعدهم)، إذ لا فائدة لتقييد فرحهم بذلك.

قال الشهاب: واستعمال (خلاف) بمعنى (خلف) لأن جهة الخلف خلاف الأمام، وجوز أن يكون (الخلاف) بمعنى (المخالفة)، فهو مصدر (خالفَ)، كالقتال. ويعضده قراءة من قرأ (خُلف رسول الله) بضم الخاء، وفي نصبه وجهان:

الأول - أنه مفعول له، والعامل إما (فرح) أي فرحوا لأجل مخالفته ﷺ بالقعود. وإما (مقعدهم) أي فرحوا بقعودهم لأجل مخالفته ﷺ، فهو علة إما للفرح أو للقعود.

والثاني - أنه حال، والعامل أحد المذكورين، أي فرحوا مخالفين له ﷺ بالقعود، أو فرحوا بالقعود مخالفين له.

وقوله تعالى: ﴿وَكَرِهُوا﴾ الخ أي لما في قلوبهم من مرض النفاق.

قال أبو السعود: وإنما أوثر ما عليه النظم الكريم على أن يقال: (وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو) إيذاناً بأن الجهاد في سبيل الله، مع كونه من أجلّ الرغائب، وأشرف المطالب، التي يجب أن يتنافس بها المتنافسون، قد كرهوه، كما فرحوا بأقبح القبائح الذي هو القعود خلاف رسول الله ﷺ.

قال الزمخشري: في قوله تعالى: ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ تعريض بالمؤمنين، وبتحملهم المشاق العظام لوجه الله تعالى، وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله تعالى، وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض (أي الراحة والتنعم بالمآكل والمشارب) وكره ذلك المنافقون. وكيف لا يكرهونه؟ وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان، وداعي الإيقان.

قال الشهاب: ووجه التعريض ظاهر، لأن المراد كرهوه، لا كالمؤمنين الذين أحبوه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي قالوا لإخوانهم لا تنفروا إلى الجهاد في الحر، فإنه لا يستطاع شدته. وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، وذلك تثبيتاً لهم على التخلف، وتواصياً فيما بينهم بالشر والفساد. أو قالوا للمؤمنين تثبيطاً لهم عن الجهاد، ونهياً عن المعروف، وإظهاراً لبعض العلل الداعية لهم إلى ما فرحوا به من القعود. فقد جمعوا ثلاث خلال من خصال الكفر والضلال: الفرح بالقعود، وكراهية الجهاد، ونهي الغير عن ذلك - أفاده أبو السعود -.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي رداً عليهم وتجهيلاً لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ أي التي ستدخلونها بما فعلتم ﴿أَشَدُّ حَرّاً﴾ أي مما تحذرون من الحرّ المعهود، وتحذّرون الناس منه، فما لكم لا تحذرونها، وتعرضون أنفسكم لها، بإيثار القعود على النفير.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ اعتراض تذييلي من جهته تعالى، غير داخل تحت القول المأمور به، مؤكد لمضمونه. وجواب (لو) إما مقدر، أي لو كانوا يفقهون أنها كذلك، أو كيف هي؛ أو أن مآلهم إليها - لما فعلوا ما فعلوا، أو لتأثروا بهذا الإلزام. وإما غير منويّ، على أن (لو) لمجرد التمني المنبئ عن امتناع تحقق مدخولها. أي لو كانوا من أهل الفطانة والفقه، كما في قوله تعالى ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا

فِي السَّمَوات وَالأَرْضِ، وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] كذا في (أبي السعود) -.

تنبيهان:

الأول - قال الزمخشري: قوله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ..﴾ الخ، استجهال لهم، لأن من تصوّن من مشقة ساعة، فوقع بسبب ذلك التصون في مشقة الأبد، كان أجهل من كل جاهل. ولبعضهم:

مَسَرَّةُ أحقاب تَلَقَّيْتَ بَعْدَهَا ... مساءةَ يوم، أريُها شَبَهُ الصَّاب
فكيف بأَنْ تَلقي مَسَرَّةَ ساعة ... وَرَاءَ تقضِّيهَا مَسَاءَةُ أَحْقَابِ

- انتهى -

أي فهم كما قال الآخر:

كالمستجير من الرمضاء بالنار

وقال آخر:

عمرك بالْحمية أفنيته ... خوفاً من البارد والحار
وكان أولى لك أن تتقي ... من المعاصي حَذَرَ النارِ

الثاني - روى الإمام مالك[١] والشيخان عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: نار بني آدم التي يوقدون بها جزء من سبعين جزءاً - زاد الإمام أحمد: من نار جهنم.

وروى الشيخان[٢] عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة، لَمَنْ له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي الْمِرجل. لا يرى أن أحداً من أهل النار أشدَّ عذاباً منه، وإنه أهونهم عذاباً.

ثم أخبر تعالى عن عاجل أمرهم وآجله من الضحك القليل، والبكاء الطويل، المؤدي إليه أعمالهم السيئة، التي من جملتها ما ذكر من الفرح، بقوله سبحانه.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ في: جهنم، حديث رقم ١.
وأخرجه البخاري في: بدء الخلق، ١٠- باب صفة النار وأنها مخلوقة، حديث رقم ١٥٤٥.
وأخرجه مسلم في: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم ٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في: الرقاق، ٥١ - باب صفة الجنة والنار، حديث ٢٤٦٥.
وأخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ٣٦٣.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً﴾ أي ضحكاً قليلاً، أو زماناً قليلاً، غايته مدة حياتهم ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ أي بكاءً، أو زماناً كثيراً، بعد الموت، أبد الآباد ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي بفرحهم بمخالفة الله ورسوله، من الكفر والمعاصي العظائم.

لطائف:

الأولى - سرّ إخراج حالهم الدنيوي والأخروي على صيغة الأمر، الدالة على تحتم وقوع المخبر به، فإن أمر الآمر المطاع مما لا يكاد يتخلف عنه المأمور به. فإن قيل: إنهم ذكروا أنه يعبر عن الأمر بالخبر للمبالغة، لاقتضائه تحقق المأمور به، فالخبر آكد، فما باله عكس هنا؟ فالجواب: لا منافاة بينهما، لأن لكل مقام مقالاً، والنكت لا تتزاحم، فإذا عبر عن الأمر بالخبر، لإفادة أن المأمور، لشدة امتثاله، كأنه وقع منه ذلك، وتحقق قبل الأمر - كان أبلغ. وإذا عبر عن الخبر بالأمر كأنه لإفادة لزومه ووجوبه، فكأنه مأمور به - أفاد ذلك مبالغة من جهة أخرى.

الثانية - الجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ دلالة على الاستمرار التجددي ما داموا في الدنيا.

الثالثة - (جزاءً) مفعول له للفعل الثاني. أي ليبكوا جزاءً. أو مصدر حذف ناصبه. أي يجزون بما ذكر من البكاء الكثير جزاءً.

ولما جلّى سبحانه ما جلى من أمرهم، فرّع عليه قوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ أي ردّك من غزوة تبوك ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ أي من المنافقين المتخلفين في المدينة ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد تبوك، دفعاً للعار السابق ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي فخذلكم الله، وسقطتم عن نظره، بل غضب عليكم، وألزمكم العار ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي من النساء والصبيان دائماً.

لطائف:

قوله تعالى: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبداً﴾ إخبار في معنى النهي للمبالغة، وذكر القتال لأنه المقصود من الخروج. فلو اقتصر على أحدهما كفى إسقاطاً لهم عن مقام الصحبة، ومقام الجهاد، أو عن ديوان الغزاة، وديوان المجاهدين، وإظهاراً لكراهة صحبتهم، وعدم الحاجة إلى عدّهم من الجند. أو ذكر الثاني للتأكيد، لأنه أصرح في المراد، والأول لمطابقته لسؤاله كقوله:

* أَقُولُ لَهُ ارْحَلْ لاَ تُقِيمَنَّ عِنْدَنَا *

فهو أدل على الكراهة لهم - أفاده الشهاب -.

قال أبو السعود فكان محوُ أساميهم من دفتر المجاهدين، ولزّهم في قَرَن الخالفين، عقوبة لهم أيّ عقوبة. ثم قال: وتذكير اسم التفضيل المضاف إلى المؤنث، هو الأكثر الدائر على الألسنة. فإنك لا تكاد تسمع قائلاً يقول: هي كبرى امرأة، أو أُولى مرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨٤﴾

﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً﴾ قال المهايمي: لأنها شفاعة، ولا شفاعة في حقهم ﴿وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ أي لا تقف عليه للدفن أو للزيارة والدعاء. قال الشهاب: القبر مكان وضع الميت، ويكون بمعنى الدفن، وجوّز هنا: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في الحياة في الباطن ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون عن الإيمان الظاهر، الذي كانوا به في حكم المؤمنين.

تنبيهات:

الأول - روى الشيخان[1] في سبب نزول الآية عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما توفي عبد الله بن أبيّ، جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٩ - سورة التوبة، ١٣ - باب قوله تعالى: ﴿ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تَقُمْ على قَبْرِهِ﴾، حديث رقم ٦٧٥.
وأخرجه مسلم في: فضائل الصحابة، حديث رقم ٢٥.

يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فاعطاه، ثم ساله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر، فاخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! تصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه،؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما خيَّرني الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] وسأزيده على السبعين. قال: إنه منافق. قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ آية ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ...﴾ الخ.

قال الحافظ أبو نعيم: وقع في رواية في قول عمر:(أتصلي عليه وقد نهاك الله عن الصلاة على المنافقين؟) ولم يبيّن محل النهي. فوقع بيانه في رواية أبي ضمرة عن العمري: وهو أن مراده بالصلاة عليهم الاستغفار لهم، ولفظه (وقد نهاك الله أن تستغفر لهم) انتهى. يعني في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ [التوبة: ١١٣] فإنها نزلت في قصة أبي طالب حين قال ﷺ: لأستغفرنّ لك، ما لم أُنْهَ عنك. وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة اتفاقاً، ووفاة عبد الله بن أبيّ في ذي القعدة سنة تسع بعد قدوم النبيّ ﷺ من تبوك. كذا في (فتح الباري).

ووقع في مسند الإمام أحمد ما تقدم من حديث عمر نفسه. قال عمر: لما توفي عبد الله بن أبيّ دُعي له رسول الله ﷺ، فقام عليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه، تحولت حتى قمتُ في صدره فقلت: يا رسول الله! أعلى عدوّ الله: عبد الله بن أبيّ القائل يوم كذا، كذا وكذا؟ يعدّد أيامه – قال: ورسول الله ﷺ يبتسم، حتى إذا أكثرت عليه قال: أَخِّرْ عني يا عمر. إني خيرت فاخترت. قد قيل لي: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ..﴾ الآية – لو أعلم أني لو زدت على السبعين، غُفِرَ له، لزدت. قال: ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره، حتى فرغ منه. قال: فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم. قال: فوالله! ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً﴾ الآية – فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره، حتى قبضه الله عزَّ وجلَّ.

ورواه البخاري [1] والترمذي [2] أيضاً.

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٩ – سورة التوبة، ١٢ – باب قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً..﴾، حديث رقم ٧٢٢.

(٢) أخرجه الترمذي في: التفسير، ٩ – سورة التوبة، ١٢ – حدثنا عبد بن حميد، و١٣ – حدثنا محمد بن بشار.

وروي الإمام أحمد[1] عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أبيّ، أتى ابنه النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله ! إنك إن لم تأته لم نزل نُعيَّر به، فأتاه النبيّ ﷺ، فوجده قد أدخل في حفرته فقال: أَفَلاَ قَبْلَ أن تدخلوه؟ فأخرج من حفرته، وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه، وألبسه قميصه[2]. ورواه النسائي. وروى[3] نحوه البخاري والبزار في مسنده، وزاد: فأنزل الله الآية. زاد ابن إسحاق في المغازي بسنده قال: فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله، ولا قام على قبره.

وقد روى[4] الإمام أحمد عن أبي قتادة قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعي إلى جنازة سأل عنها، فإن أُثْنِيَ عليها خير قام فصلى عليها، وإن كان غير ذلك، قال لأهلها: شأنكم بها. ولم يصل عليها.

الثاني – إنما منع ﷺ من الصلاة على أحدهم إذا مات، لأن صلاة الميت دعاء واستغفار واستشفاع له. والكافر ليس بأهل لذلك.

الثالث – قال: السيوطي في (الإكليل): في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ الآية – تحريم الصلاة على الكافر، والوقوف على قبره، وأن دفنه جائز: ومفهومه وجوب الصلاة على المسلم ودفنه، ومشروعية الوقوف على قبره، والدعاء له، والاستغفار. انتهى.

قال عثمان رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت، وقف عليه وقال: استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسْأل – انفرد بإخراجه أبو داود[5] –.

الرابع – قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): ظاهر الآية أنها نزلت في جميع المنافقين، لكن ورد ما يدل على أنها نزلت في عدد معين منهم: قال الواقدي: أنبأنا معمر عن الزهري قال: قال حذيفة: قال لي رسول الله ﷺ: إني مُسِرٌّ إليك سراً، فلا تذكره لأحد. إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان، رهطٍ ذوي عدد من المنافقين.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ص ٣٧١ ج٣.
(٢) أخرجه النسائي في: الجنائز، ٩٢ – باب إخراج الميت من اللحد بعد أن يوضع فيه.
(٣) أخرجه البخاري في: الجنائز، ٢٣ – باب الكفن في القميص الذي يكفّ، أو لا يكفّ، ومن كفّن بغير قميص، حديث رقم ٦٧٦.
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ص ٢٩٩ ج٥.
(٥) أخرجه أبو داود في: الجنائز، ٦٩ – باب الاستغفار عند القبر للميت، حديث رقم ٣٢٢١.

قال، فلذلك كان عمر إذا أراد أن يصلي على أحد استتبع حذيفة، فإن مشى معه، وإلا لم يصلّ عليه.

ومن طريق أخرى، عن جبير بن مطعم أنهم اثنا عشر رجلاً. وقال حذيفة مرة: إنه لم يبق منهم غير رجل واحد. ولعل الحكمة في اختصاص المذكورين بذلك، أن الله علم أنهم يموتون على الكفر، بخلاف من سواهم، فإنهم تابوا. انتهى.

ثم بين تعالى أن دوام غضبه عليهم لا ينافي إعطاءهم الأموال والأولاد، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿**وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ**﴾ أي لأنه لم يرد الله الإنعام عليهم بها، ليدل على رضاه عنهم، بل الانتقام منهم، قال: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا**﴾ أي بالمشقة في تحصيلها وحفظها والحزن عليها ﴿**وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾ أي فيموتون كافرين غافلين عن التدبر في العواقب. وقد تقدمت الآية في هذه السورة مع تغاير في ألفاظها.

قال الزمخشري: أعيد قوله ﴿**وَلاَ تُعْجِبْكَ**﴾، لأن تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل له وتأكيده، وإرادة أن يكون على بالٍ من المخاطب لا ينساه، ولايسهو عنه، وأن يعتقد أن العمل به مهم، يفتقر إلى فضل عناية به، لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين، فأشبه الشيءِ الذي أهم صاحبه، فهو يرجع إليه في أثناء حديثه، ويتخلص إليه. وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يحب أن يحذر منه. انتهى.

وقال الفارسي: ليست للتأكيد، لأن تيك في قوم، وهذه في آخرين. وقد تغاير نطقها، فهنا: ﴿وَلاَ﴾، بالواو لمناسبة عطف نهي على نهي قبله في قوله: ﴿وَلاَ تُصَلِّ..﴾ الخ فناسب الواو. وهناك بالفاء لمناسبة التعقيب لقوله قبله: ﴿وَلاَ يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُون﴾ أي للإنفاق. فهم معجبون بكثرة الأموال والأولاد، فنهى عن الإعجاب المتعقب له. وهنا: وأولادهم. دون (لا)، لأنه نهي عن الإعجاب بهما مجتمعين، وهناك بزيادة (لا)، لأنه نهي كل واحدٍ واحدٍ، فدل مجموع الآيتين على النهي عن الإعجاب بهما مجتمعين ومنفردين. وهنا ﴿**أَنْ يُعَذِّبَهُمْ**﴾ وهناك

﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ بلام التعليل. وحذف المفعول. أي إنما يريد اختيارهم بالأموال والأولاد وهنا المراد التعذيب، فقد اختلف متعلق الإرادة فيهما ظاهراً، وهناك ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وهنا ﴿فِي الدُّنْيَا﴾، تنبيهاً على أن حياتهم كَلاَ حياة فيها، وناسب ذكرها بعد الموت، فكأنهم أموات أبداً. انتهى.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾

﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ إنكار وذم للمتخلفين عن الجهاد، الناكلين عنه، مع وجود الطَّول الذي هو الفضل والسعة، وإخبار بسوء صنيعهم، إذ رضوا بالعار والقعود مع الخوالف، لحفظ البيوت، وهن النساء. وذلك لإيثارهم حب المال على حب الله، وأنه بسبب ذلك **﴿طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾** أي ختم عليها، **﴿فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾**، اي ما في حب الله والتقرب إليه بالجهاد من الفوز والسعادة، وما في التخلف من الشقاء والهلاك.

فوائد:

الأولى – قال الزمخشري: يجوز أن يراد السورة بتمامها، وأن يراد بعضها، في قوله: **﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾** كما يقع (القرآن) و(الكتاب) على كله وعلى بعضه. وقيل: هي (براءة)، لأن فيها الأمر بالإيمان والجهاد. انتهى.

وقيل: المراد كل سورة ذكر فيها الإيمان والجهاد.

قال الشهاب: وهذا أولى وأفيد، لأن استئذانهم عند نزول آيات براءة علم مما مرّ. وقد قيل: إن (إذا) تفيد التكرار بقرينة المقام لا بالوضع، وفيه كلام مبسوط في محله.

الثانية – إنما خص ذوي الطَّول، لأنهم. المذمومون، وهم من له قدرة مالية، ويعلم منه البدنية أيضاً بالقياس.

الثالثة - الخوالف: جمع (خالفة)، وهي المرأة المتخلفة عن أعمال الرجال، والمراد ذمهم وإلحاقهم بالنساء، كما قال:

كُتبَ القتلُ والقِتالُ علينا وعلى الغانيَات جرُّ الذيولِ

والخالفة تكون بمعنى من لا خير فيه، والتاء فيه للنقل للاسمية، فإن أريد ههنا، فالمقصود من لا فائدة فيه للجهاد. وجمع على فواعل على الوجهين: أما الأول فظاهر، وأما الثاني فلتأنيث لفظه، لأن (فاعلاً) لا يجمع على (فواعل) في العقلاء الذكور، إلا شذوذاً، كنواكس، أفاده الشهاب.

ثم بيّن تعالى ما للمؤمنين من الثناء الحسن، والمثوبة الحسنى ضد أولئك، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي في سبيل الله، لغلبة حب الله عليهم، على حب الأموال والأنفس ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أي منافع الدارين، النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في العقبى ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بالمطلوب.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي الذي لا فوز وراءه.

ثم بيّن تعالى أحوال منافقي الأعراب، إثر بيان منافقي أهل المدينة، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي في ترك الجهاد، وهم أحياء ممن

حول المدينة. و﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ فيه قراءتان، التشديد والتخفيف ، والمشددة لها تفسيران:

أحدهما - من (عذر في الأمر) إذا قصر فيه وتوانى ولم يجدّ، فتكلف العذر، فعذره باطل.

والثاني - من (اعتذر)، وهو محتمل لأن يكون عذره باطلاً وحقاً، وأصله، عليهما، (معتذرون) نقلت فتحة التاء إلى العين، وقلبت التاء ذالاً، وأدغمت فيها.

وأما التخفيف فهي من (أعذر) إذا كان له عذر، وهم صادقون على هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في دعوى الإيمان، وهم منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا، ولم يعتذروا، بل قعدوا من قلة المبالاة بالله ورسوله.

ثم أوعدهم تعالى بقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ إما للأعراب مطلقاً، فالذين كفروا منافقوهم، أو أعم، وإما للمعذرين، فإن منهم من اعتذر لكسله، لا لكفر، وجوّز أن يكون المعنى بالذين كفروا منهم، المصرون على الكفر.

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وما هو عارض عنّ له بسبب مرض شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب عجزه عن التجهز للحرب، وبدأ بالأول فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١)﴾

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ﴾ وهم العاجزون مع الصحة، عن العدو، وتحمل المشاق، كالشيخ والصبي والمرأة والنحيف ﴿وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى﴾ أي العاجزين بأمر عرض لهم، كالعمى والعرج والزمانة ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ أي ولا على الأقوياء والأصحاء الفقراء والعاجزين عن الإنفاق في السفر والسلاح ﴿حَرَجٌ﴾ أي إثم في القعود، و(الحرج) أصل معناه الضيق، ثم استعمل للذنب، وهو المراد ﴿إِذَا نَصَحُوا

لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي أخلصوا الإيمان والعمل الصالح، فلم يرجفوا، ولم يثيروا الفتن، وأوصلوا الخيرات للجاهدين، وقاموا بمصالح بيوتهم.

وقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما سبق، أي ليس عليهم جناح، ولا إلى معاتبتهم سبيل، و(مِنْ) مزيدة للتأكيد، ووضع ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ موضع الضمير، للدلالة على انتظامهم، بنصحهم لله ورسوله، في سلك المحسنين، أو تعليل لنفي الحرج عنهم، أي ما على جنس المحسنين من سبيل، وهم من جملتهم أفاده أبو السعود.

قال الشهاب: (ليس على محسن سبيل)، كلام جارٍ مجرى المثل، وهو إما عامّ، ويدخل فيه من ذكر، أو مخصوص بهؤلاء فالإحسان: النصح لله والرسول، والإثم المنفي إثم التخلف، فيكون تأكيداً لما قبله بعينه على أبلغ وجه، والطف سبك، وهو من بليغ الكلام، لأن معناه لا سبيل لعاتب عليه، أي لا يمرّ به العاتب، ويجوز في أرضه، فما أبعد العتاب عنه! فتفطن للبلاغة القرآنية كما قيل:

سُقْياً لأيامنا الّتي سَلَفَتْ إذ لا يَمُرُّ العذُولُ في بَلَدِي

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تذييل مؤيد لمضمون ما ذكر، مشير إلى أن بهم حاجة إلى المغفرة، وإن كان تخلفهم بعذر - أفاده أبو السعود، أي لأن المرء لا يخلو من تفريط ما، فلا يقال إنه نفى عنهم الإثم أولاً، فما الاحتياج إلى المغفرة المقتضية للذنب؟ أفاده الشهاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ عطف على ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾، أو على ﴿الضُّعَفَاءِ﴾ أي لتعطيهم ظهراً يركبونه إلى الجهاد معك ﴿قُلْتَ﴾ أي لهم ﴿لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي إلى الجهاد. وقوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا﴾ جواب (إذا) أي خرجوا من عندك ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ أي في الحملان، فهؤلاء وإن كانت لهم، قدرة على تحمل المشاق، فما عليهم من سبيل أيضاً.

تنبيهات:

الأول - قال السيوطي في (الإكليل): في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾

الخ رفع الجهاد عن الضعيف والمريض، ومن لا يجد نفقة ولا أهبة للجهاد ولا محملاً، انتهى.

وقال بعض الزيدية: هذه الآية الكريمة قاضية بنفي الحرج، وهو الإثم، على ترك الجهاد لهذه الأعذار، بشرط النصيحة لله ولرسوله، أي بأن يريد لهم ما يريد لنفسه - عن أبي مسلم - .

الثاني - قال الحاكم: في الآية دلالة على أن النصح في الدين واجب، وأنه يدخل في ذلك: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والشهادات والأحكام والفتاوى وبيان الأدلة.

الثالث - قال ابن الفرس: يستدل بقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ على أن قاتل البهيمة الصائلة لا يضمنها. وقال بعض الزيدية: يدل على أن المستودَع والوصيّ والملتقط لا ضمان عليهم مع عدم التفريط، وأنه لا يجب عليهم الرد، بخلاف المستعير.

الرابع - دل قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ...﴾ الخ على أن العادم للنفقة، الطالب للإعانة، إذا لم تحصل له، فلا حرج عليه. وفيه إشارة إلى المعونة إذا بذلت له من الإمام، لزمه الخروج.

الخامس - دلت الآية على جواز البكاء وإظهار الحزن على فوات الطاعة، وإن كان معذوراً.

السادس - قوله تعالى: ﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ أبلغ من (يفيض دمعها)، لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض، و(من) للبيان. كقولك: أفديك من رجل. ومحلّ الجار والمجرور النصب على التمييز - أفاده الزمخشري - .

السابع - روى ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب (براءة) فإني لواضع القلم على أذني،إذ أمرنا بالقتال. فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ..﴾ الآية - .

وروى العوفي عن ابن عباس في هذه الآية، أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن مغفل بن مُقَرِّن المزني، فقالوا: يا رسول الله! احملنا. فقال لهم: والله! لا أجد ما أحملكم عليه،

فتولوا وهم يبكون، وعزّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولامحملاً، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله، أنزل عذرهم في كتابه، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ . ﴾.

وروى الإمام أحمد[1] عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : لقد خلفتم بالمدينة رجالاً، ما قطعتم وادياً، ولا سلكتم طريقاً، إلا أشركوكم في الأجر، حبسهم المرض - ورواه مسلم [2].

ثم رد تعالى الملامة على المستأذنين في القعود وهم أغنياء، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

﴿إنّما السَّبِيلُ﴾ أي بالعتاب والعقاب **﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ أي** قادرون على تحصيل الأهبة **﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾** أي من النساء والصبيان وسائر أصناف العاجزين. أي رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف.

قال المهايمي: وهذا الرضا، كما هو سبب العتاب، فهو أيضاً سبب العقاب، لانه لما كان عن قلة مبالاتهم بالله، غضب الله عليهم **﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** أي ما يترتب عليه من المصائب الدينية والدنيوية، أو لا يعلمون أمر الله فلا يصدقون.

لطيفة:

قال الشهاب: اعلم أن قولهم (لاَ سَبِيلَ عَلَيْهِ) معناه: لا حرج ولا عتاب، وأنه بمعنى لا عاتب يمر عليه، فضلاً عن العتاب، وإذا تعدى بـ(إلى) كقوله:

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ إلى أُمِّ سَالِمٍ ... سبيل؟ فَأَمَّا الصبرُ عَنْهَا فَلاَ صَبْرُ

فبمعنى الوصول كما قال:

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلى خَمْرٍ فَأَشْرَبَهَا ... أَمْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/ ٣٠٠ .
(٢) أخرجه مسلم في: الإمارة، حديث رقم ١٥٩.

ونحوه، فتنبه لمواطن استعماله، فإنه من مهمات الفصاحة - انتهى - .
ثم أخبر تعالى عما سيتصدون له عند القفول من تلك الغزوة، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

﴿**يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ**﴾ أي سداً للسبيل عليهم في التخلف ﴿**قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا**﴾ أي لظهور كذبكم، إذ لم يمنعكم فقر ولا مرض، ولا يفيدكم الاعتذار ﴿**لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ**﴾ أي لن نصدق قولكم، وقوله تعالى: ﴿**قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ**﴾ تعليل لانتفاء التصديق أي أعلمنا بالوحي من أسراركم ونفاقكم وفسادكم ما ينافي التصديق ﴿**وَسَيَرى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ**﴾ أي من الرجوع عن الكفر، أو الثبات عليه، علماً يتعلق به الجزاء ﴿**ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾ أي للجزاء بما ظهر منكم من الأعمال ووضعُ المظهر موضع المضمر، لتشديد الوعيد، وأنه تعالى مطلع على سرهم وعلنهم، لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم، فيجازيهم على حسب ذلك.

قال في (النبراس): المراد بالغيب ما غاب عن العباد، أو ما لم يعلمه العباد، أو ما يكون وبالشهادة ما علمه العباد أو ما كان ﴿**فَيُنَبِّئُكُمْ**﴾ أي يخبركم ﴿**بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ أي في الدنيا. قبل إعلامهم به. وذكره لهم للتوبيخ.

قال أبو السعود: المراد بالتنبئة بذلك، المجازاة به، وإيثارها عليها، لمراعاة ما سبق من قوله تعالى: ﴿**قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ..**﴾ الخ. فإن المنبأ به الأخبار المتعلقة بأعمالهم. وللإيذان بأنهم ما كانوا عالمين في الدنيا بحقيقة أعمالهم، وإنما يعلمونها حينئذ.

ثم أخبر تعالى عما سيؤكدون به معاذيرهم من أيمانهم الفاجرة، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾

﴿**سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِم لِتعرضُوا عَنهُمْ**﴾ أي فلا توبخوهم ولا

تعاتبوهم ﴿فَأعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي فاعطوهم طلبتهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ تعليل لترك معاتبتهم، يعني أن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم، وإنما يعاتب الأديمُ ذو البشَرة. والمؤمن يوبَّخ على زلة تفرط منه ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار. وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم - أفاده الزمخشري -.

وقال الشهاب: يعني أنهم يتركون، ويجتنب عنهم كما تجتنب النجاسة، وهم طلبوا إعراض الصفح، فأعطوا إعراض مقت.

وقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ من تمام التعليل، فالعلة نجاسة جبلّتهم التي لا يمكن تطهيرها، لكونهم من أهل النار، فاللوم يغريهم ولا يجديهم. والكلب أنجس ما يكون إذا اغتسل، أو تعليل ثان يعني وكَفَتْهُمُ النار عتاباً وتوبيخاً، فلا تكلفوا عتابهم.

وقوله تعالى : ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون علة.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ بدل مما سبق، وعدم ذكر المحلوف به لظهوره، أي يحلفون به تعالى: ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ أي باعتقاد طهارة ضمائرهم وإخلاصهم ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فيه تبعيد عن الرضا عنهم على أبلغ وجه وآكده، فإن الرضا عمن لا يرضى اللّه تعالى عنه، مما لا يكاد يصدر عن المؤمن.

ثم أشار تعالى إلى أن منافقي الأعراب أشد رجساً فلا يغتر بحلفهم، وإن لم يكذبهم الوحي، فقال:

القول في تأويل قوله تعالى:

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾

﴿الأعْرَابُ﴾ وهم أهل البدو ﴿أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً﴾ أي من أن أهل الحضر، لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم، ونشئهم في بعدٍ من مشاهدة العلماء، ومعرفة الكتاب

والسنة ﴿وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي وأحق بجهل حدود الدين، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر ﴿حَكِيمٌ﴾ أي فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم، مخطئهم ومصيبهم، من عقابه وثوابه.

لطائف:

الأولى – قال الشهاب: العرب، هذا الجيل المعروف مطلقاً، والأعراب سكان البادية منهم، فهو أعم. وقيل: العرب سكان المدن والقرى، والأعراب سكان البادية من العرب، أو مواليهم، فهما متباينان، ويفرق بين جمعه وواحده بالياء فيهما.

الثانية – ما ذكر في الآية من أجدرية جهل الأعراب من بعدهم عن سماع الشرائع، وملابسة أهل الحق، يشير إلى ذم سكان البادية، وهو يطابق ما رواه الإمام أحمد،[1]، وأصحاب السنن، عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: من سكن البادية جفاً وتتمته: ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن. وقوله ﷺ[2]: إن الجفاء والقسوة في الفدادين. قال ثعلب: الفدادون أصحاب الوبر، لغلظ أصواتهم، وهم أصحاب البادية ويقال: من صحب الفدادين، فلا دنيا نال ولا دين. مأخوذ من (الفديد) وهو رفع الصوت أو شدته.

قال ابن كثير: ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي، لم يبعث الله منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]. ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ، فردّ عليه أضعافها حتى رضي قال: لقد هممت الا أقبل هدية إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي، لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة والطائف والمدينة واليمن، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب، لما في طباع الأعراب من الجفاء.

الثالثة – روي الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو

---

(١) أخرجه الإمام احمد في مسنده ١ / ٣٥٧ والحديث رقم ٣٣٦٢.
وأخرجه أبو داود في: الأضاحي، ٢٤ – باب في اتباع الصيد، حديث رقم ٢٨٥٩.
وأخرجه الترمذي في: الفتن، ٦٩ – باب حدثنا محمد بن بشار.
وأخرجه النسائي في: الصيد، ٢٤ – باب اتباع الصيد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ٢ / ٢٥٨.

يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم (نهاوند) فقال الأعرابي: والله! إن حديثك ليعجبني وإن يدك لتريبني! فقال زيد: ما يريبك من يدي، إنها الشمال؟ فقال الأعرابي: والله! ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَنْ لاَ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾.

ثم أشار تعالى إلى فريق آخر من منافقي الأعراب، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً﴾ أي يعدّ ما يصرفه في سبيل الله، ويتصدق به صورةً، غرامةً وخسراناً، لأنه لاينفق إلا تقية من المسلمين ورياءً لا لوجه الله عزَّ وجلَّ، وابتغاء المثوبة عنده، والغرامة والمغرم والغُرم (بالضم): ما ينفقه المرء من ماله وليس يلزمه، ضرراً محضاً وخسراناً. وقال الراعب: الغرم ما ينوب الإنسان في ماله من ضرر لغير جناية منه ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أي ينتظر بكم دوائر الدهر – جمع (دائرة) وهي النكبة والمصيبة تحيط بالمرء – فتربص الدوائر، انتظار المصائب، لينقلب أمر المسلمين ويتبدل، فيخلصوا مما عدّوه مغرماً ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ اعتراض بالدعاء عليهم، بنحو ما يتربصونه، أو إخبار عن وقوع ما يتربصون عليهم.

قال الشهاب: (الدائرة) اسم للنائبة، وهي بحسب الأصل مصدر، كالعافية والكاذبة. أو اسم فاعل بمعنى عقبة دائرة. والعقبة أصلها اعتقاب الراكبيْن وتناوبهما. ويقال: للدهر عُقَب ونُوَب ودُوَل، أي مرة لهم ومرة عليهم. و(السوء) يقرأ بضم السين وهو الضرر، وهو مصدر في الحقيقة. يقال: سؤته سوءاً ومساءةً ومسائية. ويقرأ بفتح السين وهو الفساد والرداءة – قاله أبو البقاء – ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي لما يقولونه عند الإنفاق مما لا خير فيه ﴿عَلِيمٌ﴾ أي بما يضمرونه من الأمور الفاسدة التي منها تربصهم الدوائر. وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى.

ثم نوّه تعالى بمؤمني الأعراب الصادقين، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

﴿وَمِنَ الأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ باللَّهِ وَالْيَومَ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾. امتثالاً لأمره، وترجيحاً لحبه، وقطعاً لحب ما سواه. و﴿قُرُبَاتٍ﴾ مفعول ثان لـ ﴿يَتَّخِذُ﴾، وجمعها باعتبار أنواعها، أو أفرادها.

قال الشهاب: القُربة (بالضم) ما يتقرب به إلى اللّه، ونفس التقرب. فعلى الثاني يكون معنى اتخاذها تقرباً اتخاذها سبباً له، على التجوز في النسبة أو التقدير. و﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ صفة لـ ﴿قُرُبَاتٍ﴾ أو ظرف لـ ﴿يَتَّخِذُ﴾ ﴿وَصَلَواتِ الرَّسُولِ﴾ أي سبب دعواته بالرحمة المكملة لقصوره وكان ﷺ يدعو للمتصدقين بالخير والبركة، ويستغفر لهم ومنه قوله ﷺ[1]: اللهم صلِّ على آل أبي أوفى ﴿أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ الضمير لما ينفق، والتأنيث باعتبار الخير، والتنكير للتفخيم، أي قربة عظيمة جامعة لأنواع القربات، يكملها اللّه بدعوة الرسول، ويزيد على مقتضاها بما أشار إليه بقوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي جنته ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر عيب المخلّ ﴿رَحِيمٌ﴾ يقبل جهد المقلّ.

قال الزمخشري: قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّهَا﴾ شهادة من اللّه للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات وتصديقاً لرجائه، على طريق الاستئناف، مع حرفي التنبيه والتحقيق، المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه. وكذلك ﴿سَيُدْخِلُهُمُ﴾ وما في (السين) من تحقيق الوعد. وما أدل هذا الكلام على رضا اللّه تعالى عن المتصدقين، وأن الصدقة منه بمكان، إذا خلصت النية من صاحبها! انتهى.

وفي (الانتصاف): النكتة في إشعار (السين) بالتحقيق أن معنى الكلام معها (أفعل كذا، وإن أبطأ الأمر) أي لا بد من فعله، قال الشهاب: وفيه تأمل.

ولما بيّن تعالى فضيلة مؤمني الأعراب بما تقدم. تأثره ببيان من هم فوقهم بمنازل من الفضيلة والكرامة، بقوله سبحانه:

---

(١) أخرجه البخاري في: الدعوات، ٣٢ - باب هل يصلّى على غير النبيّ ﷺ؟ حديث رقم ٨٠٠.
وأخرجه مسلم في: الزكاة، حديث رقم ١٧٦.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)

﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ**﴾ أي ممن تقدم بالهجرة والنصرة. وقيل: عني بالفريق الأول من صلى إلى القبلتين، أو من شهد بدراً، أو من أسلم قبل الهجرة وبالثاني أهل بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة نفر، وأهل العقبة الثانية، وكانوا سبعين، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير، فعلمهم القرآن. واختار الرازي الوجه الأول. قال: والصحيح عندي أنهم السابقون في الهجرة وفي النصرة، والذي يدل عليه أنه ذكر كونهم سابقين، ولم يبين أنهم سابقون فماذا، فبقي اللفظ مجملاً، إلا أنه وصفهم بكونهم مهاجرين وأنصاراً، فوجب صرف ذلك اللفظ إلى ما به صاروا مهاجرين وأنصاراً، وهو الهجرة والنصرة، فوجب أن يكون المراد منه ﴿**السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ**﴾ في الهجرة والنصرة، إزالة للإجمال عن اللفظ. وأيضاً فالسبق إلى الهجرة طاعة عظيمة، من حيث إن الهجرة فعل شاق على النفس، ومخالف للطبع، فمن أقدم عليه أولاً، صار قدوة لغيره في هذه الطاعة، وكان ذلك مقوّياً لقلب الرسول عليه الصلاة والسلام، وسبباً لزوال الوحشة عن خاطره، وكذلك السبق في النصرة، فإن الرسول ﷺ لما قدم المدينة، فلا شك أن الذين سبقوا إلى النصرة والخدمة فازوا بمنصب عظيم.

وقرئ (الأنصارُ) بالرفع، عطفاً على ﴿**السابقون**﴾.

﴿**وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ**﴾ أي سلكوا سبيلهم بالإيمان والطاعة ﴿**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**﴾ لأن الهجرة أمر شاق على النفس، لمفارقة الأهل والعشيرة. والنصرة منقبة شريفة، لأنها إعلاء كلمة الله، ونصر رسوله وأصحابه والإحسان من أحوال المقربين أو مقاماتهم - قاله المهايمي - ﴿**وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ بما وفقهم إليه من الإيمان والإحسان، وما آتاهم من الثواب والكرامة ﴿**وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ**﴾ وذلك بدل ما تركوا من دورهم وأهليهم، وبدل ما أعطوه للمهاجرين من أموالهم، ولغرسهم جنات القرب في قلوبهم، وإجرائهم أنهار المعارف في قلوبهم وقلوب من اتبعوهم بهذه الهجرة والنصرة والإحسان – قاله المهايمي.

وقرأ ابن كثير ﴿مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ كما هو في سائر المواضع.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ لتخليدهم هذا الدين بإقامة دلائله، وتأسيس قواعده، إلى يوم القيامة، والعمل بمقتضاه، واختيار الباقي على الفاني ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي الذي لا فوز وراءه.

تنبيهات:

الأول – قال في (الإكليل): في هذه الآية تفضيل السابق إلى الإسلام والهجرة، وأن السابقين من الصحابة أفضل ممن تلاهم.

الثاني – قيل: المراد بـ (السابقين الأولين) جميع المهاجرين والأنصار، فـ (من) بيانية لتقدمهم على من عداهم. وقيل: بعضهم – وهم قدماء الصحابة – و (من) تبعيضية. وقد اختار كثيرون الثاني، واختلفوا في تعيينهم على ما ذكرناه أولاً، ورأى آخرون الأول. روي عن حميد بن زياد قال: قلت يوماً لمحمد بن كعب القرظي: ألا تخبرني عن الصحابة فيما كان بينهم؟ وأردت الفتن – فقال لي: إن الله تعالى قد غفر لجميعهم، وأوجب لهم الجنة في كتابه، محسنهم ومسيئهم. قلت له: وفي أي موضع أوجب لهم الجنة؟ فقال: سبحان الله! ألا تقرأ قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ...﴾ الآية فأوجب للجميع الجنة والرضوان، وشرط على تابعيهم أن يقتدوا بهم في أعمالهم الحسنة وألا يقولوا فيهم إلا حسناً لا سوءاً. أي لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ..﴾ الآية [الحشر: ١٠].

الثالث – قال الشهاب: تقديم المهاجرين لفضلهم على الأنصار كما ذكر في قصة السقيفة [١]، ومنه علم فضل أبي بكر رضي الله عنه على من عداه، لأنه أول من هاجر معه ﷺ.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ﴾ يعني حول بلدتكم، وهي المدينة ﴿مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ

(١) أخرجه البخاريّ في: الحدود، ٣١ – باب رجم الحبلى من الزنى إذا أحصنت حديث رقم ١٢١٤.

أهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي مرنوا ومهروا فيه وقوله عز شانه **﴿لاَ تَعْلَمُهُمْ﴾** دليل لمرانتهم عليه، ومهارتهم فيه، أي يخفون عليك، مع علوّ كعبك في الفطنة وصدق الفراسة، لفرط تأنقهم وتصنعهم في مراعاة التقية، والتحامي عن مواقع التهم.

قال في (الانتصاف) وكأن قوله تعالى: **﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾** توطئة لتقرير خفاء حالهم عنه ﷺ لما لهم من الخبرة في النفاق والضراوة به. انتهى.

وقوله تعالى: **﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾** تقرير لما سبق من مهارتهم في النفاق، أي لا يعلمهم إلا اللّه، ولا يطلع على سرهم غيره، لما هم عليه من شدة الاهتمام بإبطان الكفر، وإظهار الإخلاص.

وقوله تعالى: **﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾** للمفسرين في المرتين وجوه: إظهار نفاقهم وإحراق مسجد الضرار أو الفضيحة وعذاب القبر، أو أخذ الزكاة لما أنهم يعدّونها مغرماً بحتاً، ونهك الأبدان، وإتعابها بالطاعات والفارغة عن الثواب.

وقال محمد بن إسحاق: هو – فيما بلغني عنهم – ما هم فيه من أمر الإسلام، وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذي يُرَدُّون إليه، عذاب الآخرة، ويخلدون فيه.

قال أبو السعود: ولعل تكرير عذابهم، لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق، أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه. ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير. كما في قوله تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك:٣]، أي كرة بعد أخرى،لقوله تعالى: ﴿أَوَ لاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ..﴾ الآية [التوبة:١٢٦].

تنبيه:

لا ينافي قوله تعالى: **﴿لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾** قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب، على التعيين، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً، وإن كان يراه صباحاً ومساءً. وشاهد هذا بالصحة، ما رواه الإمام أحمد[1] عن جبير

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ٨٢.

ابن مطعم رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة، فقال: لتأتينكم أجوركم، ولو كنتم في حجر ثعلب. وأصغى إليّ رسول الله ﷺ برأسه فقال: إن في أصحابي منافقين، أي يرجفون ويتكلمون بما لا صحة له.

وروى ابن عساكر عن أبي الدرداء أن رجلاً يقال له حرملة أتى النبيّ ﷺ، فقال: الإيمان ها هنا، وأشار بيده، إلى لسانه، والنفاق ها هنا ، وأشار بيده إلى قلبه، ولم يذكر الله إلا قليلاً. فقال رسول الله ﷺ: اللهم اجعل له لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وارزقه حبي وحب من يحبني، وصيّر أمره إلى خير. فقال: يا رسول الله! إنه كان لي أصحاب من المنافقين، وكنت رأساً فيهم، أفلا آتيك بهم؟ قال: من أتانا استغفرنا له، ومن أصرّ على دينه، فالله أولى به، ولا تخرقنّ على أحد ستراً – ورواه الحاكم أيضاً –.

وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في هذه الآية قال: ما بال أقوام يتكلفون علم الناس فلان في الجنة وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري! لعمري أنت بنصيبك أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك! قال نبيّ الله نوح عليه السلام: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:١١٢]. وقال نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُم مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦]. وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

لطيفة:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ عطف على ﴿مِمَّنْ حَوْلَكُمْ﴾ عطف مفرد على مفرد. وقوله تعالى: ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ إما جملة مستانفة لا محل لها من الإعراب، مسوقة لبيان علوّهم في النفاق. إثر بيان اتصافهم به، وإما صفة للمبتدأ المذكور، فصل بينها وبينه بها عطف على خبره. وإما صفة لمحذوف أقيمت هي مقامه ، وهو مبتدأ خبره ﴿مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ والجملة عطف على الجملة السابقة، أي ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق – أفاده أبو السعود –.

ولما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة، رغبة عنها وتكذيباً وشكاً، بيّن حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال عز شانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أقروا بها، وهي تخلفهم عن الغزو، وإيثار الدعة عليه، والرضا بسوء جوار المنافقين. أي لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة، كغيرهم ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً﴾ كالندم وما سبق من طاعتهم ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئاً﴾ كالتخلف عن الجهاد ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي يقبل توبتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه.

تنبيهات:

الأول – أخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: غزا رسول الله ﷺ، فتخلف أبو لبابة وخمسة معه، ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا وندموا وأيقنوا بالهلاك وقالوا: نحن في الظلال والطمأنينة مع النساء، ورسول الله ﷺ والمؤمنون معه في الجهاد! والله! لنوثقن أنفسنا بالسواري، فلا نطلقها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقها: ففعلوا، وبقي ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم، فرجع رسول الله ﷺ من غزوته فقال: من هؤلاء الموثقون بالسواري؟ فقال رجل: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا، فعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم. فقال: لا أطلقهم حتى أومر بإطلاقهم، فأنزل الله ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾، فلما نزلت أطلقهم وعذرهم، وبقي الثلاثة الذين لم يوثقوا أنفسهم، لم يذكروا بشيء، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمرِ اللَّهِ...﴾ الآية – فجعل أناس يقولون: هلكوا؛ إذ لم ينزل عذرهم، وآخرون يقولون: عسى الله أن يتوب عليهم، حتى نزلت ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا..﴾ [التوبة: ١١٨].

وأخرج ابن جرير من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس نحوه، وزاد: فجاء أبو لبابة وأصحابه بأموالهم حين أطلقوا، فقالوا: يا رسول الله! هذه أموالنا، فتصدق بها عنا، واستغفر لنا فقال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً، فأنزل الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً..﴾ [التوبة: ١٠٣] الآية.

وأخرج هذا القدر وحده عن سعيد بن جبير والضحاك وزيد بن أسلم وغيرهم.

وأخرج عبد عن قتادة أنها نزلت في سبعة: أربعة منهم ربطوا أنفسهم

بالسواري، وهم أبو لبابة ومرداس وأوس بن خذام وثعلبة بن وديعة.

وأخرج أبو الشيخ وابن منده في (الصحابة) من طريق الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: كان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في تبوك ستة: أبو لبابة وأوس بن خذام وثعلبة بن وديعة وكعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية. فجاء أبو لبابة وأوس وثعلبة، فربطوا أنفسهم بالسواري، وجاءوا بأموالهم، فقالوا: يا رسول الله! خذ هذا الذي حبسنا عنك، فقال: لا أحلهم حتى يكون قتال، فنزل القرآن: ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ..﴾ الآية - إسناده قوي، كذا في (اللباب) -.

قال ابن كثير: هذه الآية، وإن كانت نزلت في أناس معينين، إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلطين. وقد قال مجاهد: إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة (إنه الذبح) وأشار بيده إلى حلقه، ثم نقل ما تقدم.

الثاني - روى البخاري[١] في التفسير في هذه الآية، عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لنا: أتاني الليلة آتيان، فابتعثاني، فانتهيا إلى مدينة مبنية بلَبِن ذهب، ولَبِن فضة، فتلقانا رجال، شطرٌ من خلفهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء، قالا لهم:

اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا، قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنة عدن، وهذاك منزلك. قالا: أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، تجاوز الله عنهم.

الثالث - قال الزمخشري: فإن قلت: قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً، فما المخلوط به؟ قلت: كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به، لأن المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر، كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه، وفيه ما ليس في قولك (خلطت الماء باللبن)، لأنك جعلت الماء مخلوطاً، واللبن مخلوطاً به؟ وإذا قلته بالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما، كأنك قلت: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء.

وناقشه الناصر في (الانتصاف) فقال: التحقيق في هذا أنك إذا قلت (خلطت

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٩ - سورة التوبة، ١٥ - باب ﴿وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، حديث رقم ٥٠١.

الماء باللبن) فالمصرح به في هذا الكلام أن الماء مخلوط، واللبن مخلوط به، والمدول عليه لزوماً، لا تصريحاً، كون الماء مخلوطاً به، واللبن مخلوطاً. وإذا قلت: خلطت الماء واللبن، فالمصرح به جعل كل واحد منهما مخلوطاً. وأما ما خلط به كل واحد منهما، فغير مصرح به، بل من اللازم أن كل واحد منهما له مخلوط به، يحتمل أن يكون قرينه أو غيره. فقول الزمخشري: إن قولك (خلطت الماء واللبن) يفيد مايفيد مع الباء، وزيادة - ليس كذلك. فالظاهر في الآية - والله أعلم - أن العدول عن الباء إنما كان لتضمين الخلط معنى العمل، كأنه قيل عملوا صالحاً وآخر سيئاً، ثم انضاف إلى العمل معنى الخلط، فعبر عنهما معاً به - انتهى -.

قال النحرير: يريد الزمخشري أن (الواو) كالصريح في خلط كلّ بالآخر، بمنزلة ما إذا قلت: (خلطت الماء باللبن)، و(خلطت اللبن بالماء)، بخلاف الباء، فإن مدلولها لفظاً إلا خلط الماء مثلاً باللبن. وأما خلط اللبن بالماء، فلو ثبت لم يثبت إلا بطريق الالتزام ودلالة العقل - انتهى -.

وهو متجه ولا حاجة للتضمين المذكور.

ثم قال الزمخشري: ويجوز أن يكون من قولهم (بعت الشاء شاة ودرهماً) بمعنى شاة بدرهم، أي فـ (الواو) بمعنى الباء، ونقل ذلك عن سيبويه، وقالوا: إنه استعارة، لأن (الباء) للإلصاق، و(الواو) للجمع، وهما من وادٍ واحد. وقال ابن الحاجب في قولهم المذكور: أصله شاة بدرهم أي كل شاة بدرهم، وهو بدل من الشاء، أي مع درهم، ثم كثر، فابدلوا من (باء المصاحبة) (واواً)، فوجب نصبه وإعرابه بإعراب ما قبله، كقولهم: كل رجل وضيعته.

قال الشهاب: وهو تكلف، ولذا قالوا: إنه تفسير معنى، لا إعراب - انتهى - .

قال الواحدي: العرب تقول: خلطت الماء باللبن، وخلطت الماء واللبن، كما تقول: جمعت زيداً وعمراً. و(الواو) في الآية أحسن من (الباء)، لأنه أريد معنى الجمع، لا حقيقية الخلط. الا ترى أن العمل الصالح لا يختلط بالسّيئ، كما يختلط الماء باللبن، لكن قد يجمع بينهما - انتهى -.

وفي الآية نوع من البديع يسمى (الاحتباك)، وهو مشهور، لأن المعنى: خلطوا عملاً صالحاً بسّيئ وآخر سيئاً بصالح.

الرابع - قال الرازي: ها هنا سؤال، وهو أن كلمة (عسى) شك، وهو في حق اللّه تعالى محال. وجوابه من وجوه:

الأول – قال المفسرون: كلمة (عسى) من الله واجب، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾، وفعل ذلك، وتحقيق القول فيه أن القرآن نزل على عرف الناس في الكلام، والسلطان العظيم إذا التمس المحتاج منه شيئاً، فإنه لا يجيب إليه إلا على سبيل الترجي مع كلمة (عسى) أو (لعل) تنبيهاً على أنه ليس لأحد أن يلزمني شيئاً، وأن يكلفني بشيء، بل كل ما أفعله فإنما أفعله على سبيل التفضل والتطوّل، فذكر كلمة (عسى)، الفائدة فيه هذا المعنى، مع أنه يفيد القطع بالإجابة.

الوجه الثاني: أن المقصود بيان أنه يجب أن يكون المكلف على الطمع والإشفاق، لأنه أبعد من الاتكال والإهمال.

الخامس – قال القاشاني: الاعتراف بالذنب هو إبقاء نور الاستعداد، ولين الشكيمة، وعدم رسوخ ملكة الذنب فيه، لأنه ملك الرجوع والتوبة، ودليلُ رؤية قبح الذنب التي لا تكون إلا بنور البصيرة، وانفتاح عين القلب، إذ لو ارتكمت الظلمة ورسخت الرذيلة، ما استقبحه، ولم يره ذنباً، بل رآه فعلاً حسناً، لمناسبته لحاله، فإذا عرف أنه ذنب. ففيه خير.

ثم أمر تعالى رسوله صلوات الله عليه أن يأخذ من أموالهم التي تقدموا إليه، أن يتصدق بها عنهم كفارة لذنوبهم، كما تقدم في الروايات قبل، بقوله عزَّ وجلَّ:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾ أي بعضها ﴿**صَدَقَةً**﴾ قال المهايمي: لتصدق توبتهم إذ ﴿**تُطَهِّرُهُمْ**﴾ أي عما تلطخوا به من أوضار التخلف. وعن حب المال الذي كان التخلف بسببه ﴿**وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**﴾ أي عن سائر الأخلاق الذميمة التي حصلت عن المال. قال الزمخشري: التزكية مبالغة في التطهير وزيادة فيه، أو بمعنى الإنماء والبركة في المال ﴿**وَصَلِّ عَلَيْهِمْ**﴾ أي واعطف عليهم بالدعاء لهم وتَرَحَّمْ ﴿**إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ**﴾ أي تسكن نفوسهم إليها، وتطمئن قلوبهم بها، ويثقون بأنه سبحانه قبل توبتهم.

وقال قتادة: (سكن) أي: وقار. وقال ابن عباس: رحمة لهم.. وقد روى

الإمام[١] أحمد عن حذيفة أن النبيّ ﷺ كان إذا دعا للرجل، أصابته وأصابت ولده وولد ولده. وفي رواية: إن صلاة النبيّ ﷺ لتدرك الرجل وولده وولد ولده.

والجملة تعليل للأمر بالصلاة عليهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعاءهم ﴿عَلِيمٌ﴾ أي بما في ضمائرهم من الندم والغم، لما فرط منهم.

تنبيهات:

الأول - ﴿تطهرهم﴾ قرئ مجزوماً على أنه جواب للأمر. وأما بالرفع، فعلى أنه حال من ضمير المخاطب في (خذ). أو صفة لـ(صدقة) والتاء للخطاب أو للصدقة. والعائد على الأول محذوف ثقة بما بعده، أي: بها. وقرئ تُطْهِرهم - من أطهره بمعنى طهره - ولم يقرأ (وتزكيهم) إلا بإثبات الياء، وهو خبر لمحذوف، والجملة حال من الضمير في الأمر أو في جوابه. أي: وأنت تزكيهم بها، هذا على قراءة (تطهرهم) بالجزم. وأما على قراءة الرفع فـ(تزكيهم) عطف على (تطهرهم) حالاً أو صفة.

الثاني - قرئ (صلاتك) بالتوحيد، و(صلواتك) بالجمع، مراعاة لتعدد المدعوّ لهم. وقال الشهاب: جمع (صلاة) لأنها اسم جنس، والتوحيد لذلك، أو لأنها مصدر في الأصل..

الثالث - قال الشهاب: السكن: السكون، وما يسكن إليه من الأهل والوطن، فإن كان المراد الأول، فجعلها نفس السكن والاطمئنان مبالغة، وهو الظاهر. وإن كان الثاني فهو مجاز بتشبيه دعائه، في الالتجاء إليه بالسكن، انتهى.

قال أبو البقاء: سكن بمعنى مسكون إليها، فلذلك لم يؤنثه، وهو مثل القبض بمعنى المقبوض.

الرابع - قيل: المأمور به في الآية الزكاة. و(من) تبعيضية، وكانوا أرادوا التصدق بجميع مالهم، فأمره الله أن يأخذ بعضها لتوبتهم، لأن الزكاة لم تقبل من بعض المنافقين، فترتبط الآية بما قبلها وقيل: ليست هذه الصدقة المفروضة، بل هم لما تابوا، بذلوا جميع مالهم كفارة للذنب الصادر منهم، فأمره الله تعالى بأخذ بعضها وهو الثلث، وهذا مروي عن الحسن، وهو المختار عندهم. ونقل الرازي أن

---

(١) أخرجه الامام أحمد في المسند ٥/ ٣٨٥ .

أكثر الفقهاء على أن هذه الآية كلام مبتدأ قصد به إيجاب أخذ الزكوات من الأغنياء، إذ هي حجتهم في إيجاب الزكاة، ثم نظر فيه بأن حملها على ما ذكروه يوجب الا تنتظم الآية مع سابقها ولاحقها.

وأقول: لا ريب في ارتباط الآية بما قبلها، كما أفصحت عنه الرواية السابقة. وخصوص سببها لا يمنع عموم لفظها، كما هو القاعدة في مثل ذلك. ولذا رد الصدّيق رضي اللّه عنه على من تأول من بعض العرب هذه الآية. أن دفع الزكاة لا يكون إلا للرسول صلوات اللّه عليه، لأنه المأمور بالأخذ، وبالصلاة على المتصدقين، فغيره لا يقوم مقامه – وأمر بقتالهم، فوافقته الصحابة، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يؤدونها إلى رسول اللّه ﷺ. فاستدل من ذلك على وجوب دفع الزكاة إلى الإمام، ومثله نائبه، وهؤلاء المتاولون المرتدون غاب عنهم أن الزكاة إنما أوجبها اللّه تعالى سدّاً لحاجة المعدم، وتفريجاً لكربة الغارم، وتحريراً لرقاب المستعبدين، وتيسيراً لأبناء السبيل، فاستلَّ بذلك ضغائن أهل الفاقة، على من فضلوا عليهم في الرزق، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء، وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك البائسين، فالإمام لاخصوصية لذاته فيها، بل لأنه يجمع ما يرد منها لديه، فينفقها في سبلها المذكورة.

الخامس – استدل بقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ على ندب الدعاء للمتصدق. قال الشافعي رحمه اللّه: السنة للإمام، إذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق، ويقول: آجرك اللّه فيما أعطيت وجعله طهوراً، وبارك لك فيما أبقيت، وقال آخرون: يقول: اللهم! صلِّ على فلان، ويدل عليه ما روي عن عبد اللّه بن أبي أوفى، وكان من أصحاب الشجرة قال: كان النبيّ ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال: اللهم! صلِّ عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: اللهم! صلِّ على آل أبي أوفى. أخرجاه في الصحيحين[1].

قال ابن كثير: وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت: يا رسول اللّه! صلِّ علي وعلى زوجي، فقال: صلى اللّه عليك وعلى زوجك.

أقول: وبهذين الحديثين يردّ على من زعم أن المراد بـ ﴿صَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ الصلاة على الموتى حكاه السيوطي في (الإكليل).

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الدعوات، ٣٢ – باب هل يصلّى على غير النبيّ ﷺ؟ حديث رقم ٨٠٠.
وأخرجه مسلم في: الزكاة، حديث رقم ١٧٦.

السادس - دلت الآية، كالحديثين، على جواز الصلاة على غير الأنبياء استقلالاً، قال الرازي: روى الكعبي في (تفسيره) أن علياً رضي الله عنه قال لعمر رضي الله عنه وهو مسجّى: عليك الصلاة والسلام. ومن الناس من أنكر ذلك

ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال: لا تنبغي الصلاة من أحد على أحد، إلا في حق النبيّ ﷺ. ثم قال الرازيّ: إن أصحابنا يمنعون من ذكر (صلوات الله عليه)، و (عليه الصلاة والسلام)، إلا في حق الرسول، والشيعة يذكرونه في عليّ وأولاده، واحتجوا بأن نص القرآن دل على جوازه فيمن يؤدي الزكاة، فكيف يمنع في حق عليّ والحسن والحسين عليهم رضوان الله؟ قال: ورأيت بعضهم قال: أليس أن الرجل إذا قال: سلام عليكم، يقال له: وعليكم السلام، فدل هذا على أن ذكر هذا اللفظ جائز في حق جمهور المسلمين، فأوْلى آل البيت - انتهى -.

وأقول: إن المنع من ذلك أدبي لا شرعي، لأنه صار، في العرف، دعاءً خاصاً به ﷺ، وشعاراً له، كالعلَم بالغلبة، فغيره لا يطلق عليه، إلا تبعية له، أدباً لفظياً.

السابع - قال الرازي: في سر كون صلاته عليه السلام سكناً لهم: أن روح محمد عليه السلام كانت روحاً قوية مشرقة صافية باهرة، فإذا دعا لهم وذكرهم بالخير، فاضت آثار من قوته الروحانية على أرواحهم، فاشرقت بهذا السبب أرواحهم، وصفت أسرارهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ ويَأْخُذُ الصدَقَاتِ وأنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحطّ الذنوب ويمحصها ويمحقها، وإخبار بأن كل من تاب إليه، تاب عليه. ومن تصدق، تقبل منه.

تنبيهات:

الأول - الضمير في **﴿يَعْلَمُوا﴾** للمتوب عليهم. فيكون ذكر قبول توبتهم، مع أنه تقدم ما يشير إليه، تحقيقاً لما سبق من قبول توبتهم، وتطهير الصدقة وتزكيتها لهم، وتقريراً لذلك، وتوطيناً لقلوبهم ببيان أن المتولي لقبول توبتهم، وأخذ صدقاتهم هو الله سبحانه، وإن أسند الأخذ والتطهير والتزكية إليه ﷺ.

قال أبو مسلم : المقصود من الاستفهام التقرير في النفس. ومن عادة العرب، في إيهام المخاطب وإزالة الشك عنه، أن يقولوا: أما علمت أن من علمك يجب عليك خدمته؟ أما علمت أن من أحسن إليك يجب عليك شكره؟ فبشّر تعالى هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم – انتهى –.

وجوز عود الضمير لغيرهم من المنافقين فالاستفهام توبيخ وتقريع لهم على عدم التوبة وترغيب فيها، وإزالة لما يظنون من عدم قبولها. وقرئ بالتاء. وهو، على الأول، التفات، وعلى الثاني بتقدير (قل)، ويجوز أن يكون الضمير للمنافقين والتائبين معاً، للتمكن والتخصيص.

الثاني – الضمير أعني (هو) إما للتأكيد، أو لهُ مع التخصيص، بمعنى أن الله يقبل التوبة لاغيره، بمعنى أنه يفعل ذلك البتة، لأن ضمير الفصل يفيد ذلك، والخبر المضارع من مواقعه. وقيل: معنى التخصيص في (هو) أن ذلك ليس إلى رسول الله ﷺ، إنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردها، فاقصدوه بها، ووجهوها إليه، لأن كثرة رجوعهم إليه، صلوات الله عليه، مظنة لتوهم ذلك.

الثالث – تعدية القبول بـ (عن) لتضمنه معنى التجاوز، والعفو عن ذنوبهم التي تابوا عنها: وقيل: (عن) هنا بمعنى (من) كما يقال: أخذت هذا منك وعنك.

الرابع – الأخذ هنا استعارة للقبول والإثابة، لأن الكريم والكبير إذا قبل شيئاً عوّض عنه، وقد يجعل الإسناد إلى الله مجازاً مرسلاً. وقيل: في نسبة الأخذ إلى الرسول ﷺ في قوله (خُذْ) ثم إلى ذاته تعالى – إشارة إلى أن أخذ الرسول ﷺ، قائم مقام أخذ الله، تعظيماً لشأن نبيه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

الخامس – جملة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ تأكيد لما عطف عليه، وزيادة تقرير لما يقرره، مع زيادة معنى ليس فيه، كما أفادته صيغة المبالغة التي تفيد تكرر ذلك منه أي ألم يعلموا أنه المختص بقبول التوبة، وأن ذلك سنة مستمرة له، وشأن دائم؟

لطيفة:

نقل ابن كثير عن الحافظ ابن عساكر عن حوشب قال: غزا الناس في زمن

معاوية، وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فغلّ رجل من المسلمين مائة دينار رومية، فلما قفل الجيش ندم، وأتى الأمير، فابى أن يقبلها منه، وقال: قد تفرق الناس، ولن أقبلها منك حتى تاتي الله بها يوم القيامة، فجعل الرجل يأتي الصحابة، فيقولون له مثل ذلك. فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه، فابى عليه، فخرج من عنده وهو يبكي ويسترجع، فمرَّ بعبد الله ابن الشاعر السَّكسكي، فقال له: مايبكيك؟ فذكر له أمره، فقال له: أو مطيعي أنت؟ فقال: نعم. فقال: اذهب إلى معاوية فقل له: اقبل مني خمسك، فادفع إليه عشرين ديناراً، وانظر إلى الثمانين الباقية، فتصدق بها عن ذلك الجيش، فإن الله يقبل التوبة عن عباده، وهو أعلم باسمائهم ومكانهم، ففعل الرجل . فقال معاوية: لان أكون افتيت بها، أحب إليّ من كل شيء أملكه. أحسن الرجل. انتهى.

في هذه الرواية إثبات ولد لخالد، وفي ظني أن صاحب (أسد الغابة) ذكر أنه لم يعقب، فليحقق.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿وَقُلِ﴾ أي لأهل التوبة والتزكية، والصلاة، لا تكتفوا بها بل ﴿اعْمَلُوا﴾ جميع ما تؤمرون به ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ أي فيزيدكم قرباً على قرب ﴿وَرَسُولُهُ﴾ فيزيدكم صلوات ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فيتبعونكم، فيحصل لكم أجرهم، من غير أن ينقص من أجورهم شيء - هكذا قاله المهايمي - وهو قوي في الارتباط.

وقال أبو مسلم: إن المؤمنين شهداء الله يوم القيامة، كما قال ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً...﴾ [البقرة:١٤٣] الآية - والشهادة لا تصح إلا بعد الرؤية، فذكر تعالى أن الرسول عليه السلام والمؤمنين يرون أعمالهم، والمقصود التنبيه على أنهم يشهدون يوم القيامة، عند حضور الأولين والآخرين، بأنهم أهل الصدق والسداد والعفاف والرشاد.

ونقل عن مجاهد أن الآية وعيد للمخالفين أوامره، بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول والمؤمنين.

قال ابن كثير: وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطلاق:٩]. وقال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات:١٠]. وقد يظهر اللّه تعالى ذلك للناس في الدنيا، كما روى الإمام أحمد[١] عن أبي سعيد مرفوعاً: لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء، ليس لها باب ولا كوّة، لأخرج اللّه عمله للناس كائناً من كان. وروي أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ - كما في مسند أحمد[٢] والطيالسي -.

﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي بالموت ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بالمجازاة عليه.

قال أبو السعود: في وضع الظاهر موضع المضمر (أي حيث لم يقل: إليه) من تهويل الأمر، وتربية المهابة - ما لا يخفى. ووجه تقديم (الغيب) في الذكر لسعة عالمه، وزيادة خطره على الشهادة - غني عن البيان.

وعن ابن عباس: الغيب ما يسرونه من الأعمال، والشهادة ما يظهرونه. كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة:٧٧] و [هود:٥] و [النحل:٢٣]، فالتقدم حينئذ لتحقق أن نسبة علمه المحيط بالسر والعلن واحدة، على أبلغ وجه وآكده. أو للإيذان بأن رتبة السر متقدمة على رتبة العلن، إذ ما من شيء يعلن إلا وهو، أو مبادئه القريبة، أو البعيدة، مضمر قبل ذلك في القلب. فتعلقُ علمه تعالى به في حالته الأولى، متقدم على تعلقه به في حالته الثانية.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ يعني من المتخلفين ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي مؤخرون أمرهم انتظاراً لحكمه تعالى فيهم، لتردّد حالهم بين أمرين ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ لتخلفهم عن غزوة تبوك ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ يتجاوز عنهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ أي فيما يحكم عليهم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣ / ٢٨ .

(٢) انظر الصفحة ٣ / ١٦٥ من المسند عن أنس.

تنبيهات:

الأول • قرئ في السبعة ﴿مُرْجَؤُونَ﴾ بهمزة مضمومة، بعدها واو ساكنة. وقرئ ﴿مُرْجَوْنَ﴾ بدون همزة. كما قرئ ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ﴾ بهما، وهما لغتان، يقال: أرجأته وأرجيته، وكأعطيته. ويحتمل أن تكون الياء بدلا من الهمزة، كقولهم: قرأت وقريت، وتوضأت وتوضيت، وهو في كلامهم كثير. وعلى كونه لغة أصلية فهو يائي. وقيل: إنه واوي كذا في (العناية) -.

الثاني - روي عن الحسن أنه عني بهذه الآية قوم من المنافقين. وكذا قال الأصم: إنهم منافقون أرجاهم الله، فلم يخبر عنهم ما علمه منهم، وحذرهم بهذه الآية، إن لم يتوبوا، أن ينزِّل فيهم قرآناً، فقال: ﴿إمَّا يُعَذِّبُهُمْ وإمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾.

وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغير واحد: إنهم الثلاثة الذي خلفوا، أي عن التوبة، وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية، قعدوا في غزوة تبوك في جملة من قعد، كسلاً وميلاً إلى الدعة وطيب الثمار والظلال، لا شكاً ونفاقاً، فكانت منهم طائفةً ربطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفةً لم يفعلوا ذلك، وهم هؤلاء الثلاثة. فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجئ هؤلاء عن التوبة، حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ...﴾[التوبة:١١٧] الآية، إلى قوله:﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا...﴾ -.

قال في (العناية): وإنما اشتد الغضب عليهم مع إخلاصهم، والجهادُ فرض كفاية، لما قيل إنه كان على الأنصار خاصة فرضَ عين، لأنهم بايعوا النبيّ ﷺ عليه. ألا ترى قول راجزهم في[1] الخندق:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّداً على الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

وهؤلاء من أجلّهم، فكان تخلفهم كبيرة.

الثالث - (إما) في الآية، إما للشك بالنسبة إلى المخاطب، أو للإبهام بالنسبة إليه أيضاً، بمعنى أنه تعالى أبهم على المخاطبين أمرهم. والمعنى: ليكن أمرهم عندكم بين الرجاء والخوف. والمراد تفويض ذلك إلى إرادته تعالى ومشيئته، أو للتنويع، أي أمرهم دائر بين هذين الأمرين.

---

(١) أخرجه البخاريّ في صحيحه في: الجهاد، ٣٣ - باب التحريض على القتال، حديث ١٣٥٨ عن أنس.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾

﴿ وَالَّذِينَ ﴾ أي ومن المنافقين الذين ﴿ اتَّخَذُوا ﴾ أي بَنَوْا ﴿ مَسْجِداً ضِرَاراً ﴾ أي مضارّة لأهل مسجد قباء ﴿ وَكُفْراً ﴾ أي تقوية للكفر الذي يضمرونه ﴿ وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي الذين كانوا يجتمعون بمسجد قباء اجتماعاً واحداً يؤدون أجلّ الاعمال، وهي الصلاة التي يقصد بها تقوية الإسلام بجمع قلوب أهله على الخيرات، ورفع الاختلاف من بينهم ﴿ وَإِرْصَاداً ﴾ أي إعداداً وترقباً، وانتظاراً ﴿ لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي كفر بالله ورسوله من قبل، وهو ابو عامر الراهب الذي سماه رسول الله ﷺ (فاسقاً). وكانوا أعدوه له ليصلي فيه، ويظهر على رسول الله ﷺ – كما سنفصله ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ ﴾ أي بعد ظهور نواياهم ومقاصدهم السيئة ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى ﴾ أي ما أردنا، ببناء المسجد، إلا الخصلة الحسنى، أو الإرادة الحسنى، وهي الصلاة، وذكر الله، والتوسعة على المصلين ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي في حلفهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿ لاَ تَقُمْ فِيهِ ﴾ أي لا تصلّ في مسجد الشقاق ﴿ أَبَداً ﴾ أي في وقت من الأوقات، لكونه موضع غضب الله، ولذلك أمر بهدمه وإحراقه كما يأتي. وإطلاق (القائم) على المصلّي والمتهجد معروف، كما في قولهم: فلان يقوم الليل. وفي الحديث[1] (من قام رمضان إيماناً واحتساباً). ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ أي

---

(١) اخرجه البخاري في: الإيمان، ٢٧ – باب تطوّع قيام رمضان من الإيمان، حدث رقم ٣٣، عن ابي هريرة.

بنيت قواعده على طاعة الله وذكره، وقصد التحفظ من معاصي الله، بفعل الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهو مسجد قباء ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أي من أيام وجوده ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ﴾ أي تصلي ﴿فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي المبالغين في الطهارة الظاهرة والباطنة. ثم أشار إلى فضل مسجد التقوى على مسجد الضرار بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ﴾ أي مخافة منه ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ أي طلب رضوان منه ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا﴾ أي طرف ﴿جُرُفٍ﴾ بضم الراء وسكونها أي مهواة ﴿هَارٍ﴾ أي مشرف على السقوط ﴿فَانْهَارَ بِهِ﴾ أي سقط معه ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم، لا يزول وَسْمُهُ عن قلوبهم، ولا يضمحلّ أثره ﴿إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي قطعاً، وتتفرق أجزاءً، فحينئذ يسلون عنه. وأما مادامت سالمة مجتمعة، فالريبة باقية فيها متمكنة، فيجوز أن يكون ذكر التقطيع تصويراً لحال زوال الريبة عنها، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وتمزيقها بالموت، أو بعذاب النار. وقيل: معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي بنياتهم ﴿حَكِيمٌ﴾ أي فيما أمر بهدم بنيانهم، حفظاً للمسلمين عن مقاصدهم الرديئة.

تنبيهات:

الأول – قال الزمخشري: في مصاحف أهل المدينة والشام ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ بغير (واو)، لأنها قصة على حيالها، وفي سائرها بالواو على عطف قصة مسجد

الضرار الذي أحدثه المنافقون على سائر قصصهم.

الثاني – سبب نزول هذه الآيات أنه كان بالمدينة، قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها، رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير. فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصار للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شرق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة يمالئهم على حرب النبيّ ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام (أُحُد)، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله عزّ وجلّ، وكانت العاقبة للمتقين. وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته. فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عيناً، يا فاسق، يا عدو الله! ونالوا منه وسبّوه. وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرّد.

فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً فنالته هذه الدعوة. وذلك أنه لما فرغ الناس من (أُحُد)، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على رسول الله، فوعده ومنّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار، من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنّيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه وكان أمَرَهم أن يتخذوا له معقلاً ومرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه، ورسول الله ﷺ يتجهز إلى تبوك. فأتوه فقالوا: يا رسول الله! إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية. وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه. فقال: إني على جناح سفر، وحال شغل، ولو قدمنا، إن شاء الله تعالى، أتيناكم، فصلينا لكم فيه. فلما نزل بذي أَوَانٍ – موضع على ساعة من المدينة – أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بنَ الدخشم ومعن بن عدي أو أخاه عامراً، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه. فخرجا سريعين، حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: انظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل أهله، فأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدّان، حتى دخلا المسجد، وفيه أهله، فحرقاه وهدماه، وتفرقوا عنه، ونزل فيهم ما نزل – ذكره ابن كثير، وأسند أطرافه إلى ابن إسحاق وابن مردويه –.

وروي أن بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن الخطاب في خلافته، فسألوه أن يأذن لمُجَمِّع بن جارية أن يؤمهم في مسجدهم فقال: لا، ونعمة عين! أليس هو إمام مسجد الضرار؟ قال مجمع: يا أمير المؤمنين! لا تعجل عليّ، فوالله! لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، وكنت غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون، فصليت بهم، ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله، ولم أعلم ما في نفوسهم. فعذره عمر، فصدقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء.

الثالث – ما قدمناه من أن المسجد في الآية هو مسجد قباء، لأن السياق في معرضه، وبيان أحقية الصلاة فيه من ذاك، لأنه أسس على طاعة الله وطاعة رسوله، وجمع كلمة المؤمنين. ولما في الآية من الإشعار بالحث على تعاهده بالصلاة فيه، كان رسول الله ﷺ يزوره راكباً وماشياً، ويصلي فيه ركعتين – كما في الصحيح[1] –.

وقد روي عن عويم بن ساعدة الأنصاري أن النبيّ ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟ فقالوا، يا رسول الله! ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه أو مقعدته بالماء، – رواه الإمام أحمد[2] وأبو داود والطبراني، واللفظ له –.

وقد روي أن النبيّ ﷺ سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال: هو مسجده – رواه الإمام أحمد[3] ومسلم.

قال ابن كثير: ولا منافاة. لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى – انتهى –.

ومرجعه إلى أن هذا الوصف، وإن كان يصدق عليهما – إلا أن الأحرى به بعد،

---

(١) أخرجه البخاري في: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، ٤ – باب إتيان مسجد قباء ماشياً وراكباً، حديث رقم ٦٤٧ عن ابن عمر.
وأخرجه مسلم في: الحج، حديث رقم ٥١٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣ / ٤٢٢ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣ / ٨ . عن أبي سعيد الخدري.
ورواه مسلم في: الحج، حديث رقم ٥١٤.

هو المسجد النبوي، أي فالحديث ليس في معرض تعيين ما في الآية، بل في بيان الأحق بهذا الوصف الآن.

وقال السهروردي: كل منهما مراد، لأن كلاً منهما أسس على التقوى من أول يوم تأسيسه.

والسر في إجابته ﷺ السؤال عن ذلك، دفع ما توهمه السائل من اختصاص ذلك بمسجد قباء، والتنويه بمزية هذا عن ذاك.

الرابع – قال السهيلي، نور الله مرقده: في الآية – يعني قوله تعالى: ﴿من أول يوم﴾ – من الفقه صحة ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين مع عمر رضي الله عنه حين شاورهم في التاريخ، فاتفق رأيهم على أن يكون من عام الهجرة، لأنه الوقت الذي عزّ فيه الإسلام والحين الذي أمِنَ فيه النبيّ ﷺ، وبنيت المساجد، وعُبد الله كما يحب، فوافق رأيُهم هذا ظاهر التنزيل، وفهمنا الآن بفعلهم أن قوله تعالى ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أن ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذي يؤرخ به الآن. فإن كان الصحابة أخذوه من هذه الآية، فهو الظن بهم، لأنهم أعلم الناس بتأويل كتاب الله وأفهمهم بما في القرآن من الإشارات. وإن كان ذلك على رأي واجتهاد، فقد علمه الله وأشار إلى صحته قبل أن يفعل، إذ لا يعقل قول القائل: فعلته أول يوم إلا بالإضافة إلى عام معلوم، أو شهر معلوم، أو تاريخ معلوم. وليس ها هنا إضافة في المعنى إلا إلى هذا التاريخ المعلوم، لعدم القرائن الدالة على غيره من قرينة لفظ أو حال، فتدبره، ففيه معتبرٌ لمن ادّكر، وعِلْمٌ لمن رأى بعين فؤاده واستبصر.

الخامس – (التأسيس) وضع الأساس، وهو أصل البناء، وأوله، وبه إحكامه، ففي الآية شبَّه التقوى والرضوان تشبيهاً مكنيّاً مضمراً في النفس، بما يعتمد عليه أصل البناء. و (أسس بنيانه) تخييل، فهو مستعمل في معناه الحقيقي، أو هو مجاز بناء على جوازه. فتأسيس البنيان بمعنى إحكام أمور دينه، أو تمثيل لحال من أخلص لله وعمل الأعمال الصالحة، بحال من بنى بناءً محكماً مؤسساً يستوطنه ويتحصن به. أو (البنيان) استعارة أصلية، و(التأسيس) ترشيح أو تبعية: و(الشفا): الحرف والشفير. و(جُرُف الوادي): جانبه الذي يتحفر أصله بالماء، وتجرفه السيول، فيبقى واهياً. و(الهار): الهائر، وهو المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط. قيل: هو مقلوب، وأصله (هاور) أو (هاير). وقيل: حذفت عينه اعتباطاً، فوزنه (فال). والإعراب على رائه كباب. وقيل: لا قلب فيه ولا حذف، ووزنه في الأصل (فعِل)

بكسر العين، ككتف، وهو هَورٌ أو هيرٌ، ومعناه ساقط أو مشرف على السقوط. وفاعل (انهار) إما ضمير البنيان، وضمير(به) للمؤسس، أي سقط بنيان الباني بما عليه. أو لـ(الشفا)، وضمير (به) للبنيان. والظاهر في التقابل أن يقال: أم من أسس بنيانه على ضلال وباطل وسخط من الله، ولذا قال في الكشاف: المعنى أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة قوية، وهي الحق، الذي هو تقوى الله ورضوانه، خير أم من أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها، وأقلها بقاء (وهو الباطل والنفاق) الذي مثله مثل شفا جرف هار في قلة الثبات والاستمساك. وضع (شفا الجرف) في مقابلة (التقوى)، لأنه جعل مجازاً عما ينافي التقوى. يعني أنه شبه الباطل بـ(شفا جرف هار) في قلة الثبات، فاستعير للباطل بقرينة مقابلته للتقوى، والتقوى حق، ومُنَافِي الحق هو الباطل. وقوله (فانهار) ترشيح، وباؤه للتعدية، أو للمصاحبة. فـ(شفا جرف هار) استعارة تصريحية تحقيقية، والتقابل باعتبار المعنى المجازيّ المراد منها.

فإن قلت: لماذا غاير بينهما حيث أتى بالأول على طريقة الكناية والتخييل، وبالثاني على طريق الاستعارة والتمثيل؟

قلت:التفنن في الطريق رعايةً لحق البلاغة، وعدولاً عن الظاهر، مبالغةٌ في الطرفين. إذ جعل أولئك مبنياً على تقوى ورضوان، هو أعظم من كل ثواب، وحال هؤلاء على فساد أشرف بهم على أشد نكال وعذاب. ولو أتى به على مقتضى الظاهر لم يفده، ما فيه من التهويل.

وقولنا: (فانهار ترشيح) أوضحه الكشاف بقوله: لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل، قيل: ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ على معنى فطاح به الباطل في نار جهنم، إلا أنه رشح المجاز فَجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف، وليصور أن المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم، فانهار به ذلك الجرف، فهوى في قعرها.

السادس – دلت الآية على أن كل مسجد بني على ما بني عليه مسجد الضرار، أنه لا حكم له ولا حرمة، ولا يصح الوقف عليه. وقد حرق الراضي بالله كثيراً من مساجد الباطنية والمشبهة والمجبرة وسبل بعضها. نقله بعض المفسرين.

قال الزمخشري: قيل: كل مسجد بني مباهاة أو رياءً وسمعة أو لغرضٍ سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب – فهو لاحق بمسجد الضرار. وعن شقيق أنه لم

يدرك الصلاة في مسجد بني عامر، فقيل له: مسجد بني فلان لم يصلوا فيه بعد، فقال: لا أحب أن أصلي فيه، فإنه بني على ضرار، وكل مسجد بني على ضرار، أو رياء وسمعة فإن أصله ينتهي إلى المسجد الذي بني ضراراً.

وعن عطاء: لما فتح الله تعالى الأمصار على يد عمر رضي الله عنه، أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وألا يتخذوا في مدينة مسجدين، يضارّ أحدهما صاحبه - انتهى.

وقال الإمام ابن القيّم في (زاد المعاد) في فوائد غزوة تبوك:

ومنها تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها وهدمها، كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضرار وأمر بهدمه. وهو مسجد يصلى فيه، ويذكر اسم الله فيه. لما كان بناؤه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين، ومأوى للمنافقين. وكل مكان هذا شانه، فواجب على الإمام تعطيله، إما بهدم أو تحريق، وإما بتغيير صورته، وإخراجه عما وضع له. وإذا كان هذا شان مسجد الضرار، فمشاهد الشرك التي تدعو سدنُتها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله، أحق بذلك وأوجب. وكذلك محال المعاصي والفسوق، كالحانات وبيوت الخمارين وأرباب المنكرات وقد حرق عمر رضي الله عنه قرية بكاملها يباع فيها الخمر، وحرق حانوت رويشد الثقفي وسماه (فويسقاً)، وأحرق قصر سعد عليه لما احتجب عن الرعية. وهمّ[١] رسول الله ﷺ بتحريق بيوت تاركي حضور الجماعة والجمعة، وإنما منعه من فيها من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم، كما أخبر هو عن ذلك - انتهى -.

ثم قال ابن القيّم: ومنها أن الوقف لا يصح على غير بر ولا قربة، كما لم يصح وقف هذا المسجد. وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بني على قبر، كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد - نص على ذلك الإمام أحمد وغيره - فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه، وكان الحكم للسابق، فلو وضعا معاً لم يجز. ولا يصح هذا الوقف، ولا يجوز، ولا تصحّ الصلاة في هذا المسجد، لنهي رسول الله ﷺ عن ذلك[٢]، ولعنه من اتخذ القبر مسجداً، أو أوقد عليه سراجاً.

---

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاريّ في صحيحه في: الاذان، ٢٩ - باب وجوب صلاة الجماعة حديث رقم ٤٠٨ عن أبي هريرة.

(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه في: الصلاة، ٥٥ - باب حدثنا أبو اليمان، حديث رقم ٢٨٥ و ٢٨٦ عن عائشة وعبد الله بن عباس.

قال ابن القيّم: فهذا دين الإسلام الذي بعث به رسوله ونبيه، وغربته بين الناس كما ترى. انتهى.

السابع – قال بعض المفسرين اليمانين: في الآية دلالة على فضل المسجد الموصوف بهذه الصفة، يعني التاسيس على التقوى. وفيها: أن نية القربة في عمارة المسجد شرط، لأن النية هي التي تميز الأفعال. وفيها: أنه لا يجوز تكثير سواد الكفار – ذكر ذلك الحاكم، لأنه قال تعالى ﴿لا تقم فيه أبداً﴾ وأراد بـ (القيام) الصلاة.

الثامن – قال ابن كثير: في الآية دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده، لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابسة القاذورات.

وقد روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ الروم فأوهم فلما انصرف قال: إنه يلبس علينا القرآن، إن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء. فدلّ هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة، ويعين على إتمامها وإكمالها، والقيام بمشروعاتها.

التاسع – ذهب أبو العالية والأعمش إلى أن المراد من الطهارة في الآية، الطهارة من الذنوب، والتوبة منها، والتطهر من الشرك.

قال الرازيّ: وهذا القول متعين، لأن التطهر من الذنوب والمعاصي هو المؤثر في القرب من الله تعالى، واستحقاق ثوابه ومدحه، ولأنه تعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارّة المسلمين، والكفر بالله، والتفريق بين المسلمين، فوجب كون هؤلاء بالضد من صفاتهم، وما ذاك إلا كونهم مبرئين عن الكفر والمعاصي انتهى.

أقول: لا تسلم دعوى التعيّن، فإن اللفظ يتناول الطهارتين الباطنة والظاهرة. بل الثانية ما رواه أصحاب السنن والإمام أحمد[1] وابن خزيمة في صحيحه أن النبيّ ﷺ قال لأهل قباء: قد أثنى الله عليكم في الطهور، فماذا تصنعون؟ فقالوا: نستنجي بالماء.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦ / ٦ ، عن محمد بن عبد الله بن سلام.

وروى البزّار عن ابن عباس قال: هذه الآية في أهل قباء، سألهم رسول الله ﷺ فقالوا: إنا نتبع الحجارة بالماء. فإن صح ذلك كان المرادَ من الآية. وتكون حثّاً على الطهارة المذكورة، ومدحاً لها. وكون ذويها على الضد من صفات أولئك، يستفاد من عموم هذا، ومن قوله تعالى ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى...﴾ الآية.

العاشر – قال القاشاني: لما كان عالم الملك تحت قهر عالم الملكوت، وتسخيره، لزم أن يكون لنيات النفوس وهيئاتها تأثير فيما يباشرها من الأعمال، فكل ما فعل بنية صادقة للّه تعالى عن هيئة نورانية، صحبته بركة ويمن وجمعية وصفاء، وكل ما فعل بنية فاسدة شيطانية عن هيئة مظلمة، صحبته تفرقة وكدورة ومحق وشؤم. الا ترى الكعبة كيف شرفت وعظمت وجعلت متبركة لكونها مبنية على يدي نبيّ من انبياء الله، بنية صادقة، ونفس شريفة صافية، عن كمال إخلاص للّه تعالى؟ ونحن نشاهد أثر ذلك في أعمال الناس، ونجد أثر الصفاء والجمعية في بعض المواضع والبقاع، والكدورة والتفرقة في بعضها. وما هو إلا لذلك، فلهذا قال ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى...﴾ الآية – لان الهيئات الجسمانية مؤثرة في النفوس، كما أن الهيئات النفسانية مؤثرة في الأجسام، فإذا كان موضع القيام مبنياً على التقوى وصفاء النفس، تأثرت النفس باجتماع الهمة، وصفاء الوقت، وطيب الحال، وذوق الوجدان. وإذا كان مبنياً على للرياء والضرار، تأثرت بالكدورة والتفرقة والقبض. وفيه إشعار بان زكاء نفس الباني، وصدق نيته، مؤثر في البناء. وأن تبرّك المكان، وكونه مبنيّاً على الخير، يقتضي أن يكون فيه أهل الخير والصلاح، ممن يناسب حاله حال بانيه، وأن محبة الله واجبة لأهل الطهارة لقوله ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لما هدى الله تعالى المؤمنين إلى الإيمان، والأنفس مفتونة بمحبة الأموال والأنفس، استنزلهم لفرط عنايته بهم، عن مقام محبة الأموال والأنفس، بالتجارة المربحة، والمعاملة المرغوبة، بأن جعل الجنة ثمن أموالهم وأنفسهم، فعرض لهم خيراً مما أخذ منهم. فالآية ترغيب في الجهاد ببيان فضيلته، إثر بيان حال المتخلفين عنه.

قال أبو السعود: ولقد بولغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه، حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله تعالى، وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة، بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية. ثم جعل المبيع، الذي هو العمدة والمقصد في العقد، أنفس المؤمنين وأموالهم. والثمن، الذي هو الوسيلة في الصفقة، الجنة. ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال: (إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم) ليدل على أن المقصد في العقد هو الجنة، وما بذله المؤمنون في مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها، إيذاناً بتعلق كمال العناية بهم وبأموالهم. ثم إنه لم يقل (بالجنة) بل (بأن لهم الجنة) مبالغة في تقرر وصول الثمن إليهم، واختصاصه بهم. وكأنه قيل: (بالجنة الثابتة لهم، المختصة بهم).

وفي (الكشاف) و (العناية) ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية، لأنه أبرزه في صورة عقد عاقده رب العزة، وثمنه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط، بل إذا كانوا قاتلين أيضاً لإعلاء كلمته، ونصر دينه، وجعله مسجلاً في الكتب السماوية، وناهيك به من صك. وجعل وعده حقاً، ولا أحد أوفى من وعده، فنسيئته أقوى من نقد غيره. وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم، وهو استعارة تمثيلية، صور جهاد المؤمنين، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه، وإثابة الله لهم على ذلك الجنة، بالبيع والشراء، وأتى بقوله ﴿يقاتلون...﴾ الخ بياناً لمكان التسليم وهو المعركة، وإليه الإشارة بقوله[1] ﷺ «الجنة تحت ظلال السيوف» ثم أمضاه بقوله: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. ولما في هذا من البلاغة واللطائف المناسبة للمقام، لم يلتفتوا إلى جعل (اشترى) وحده استعارة أو مجازاً عن الاستبدال، وإن ذكروه في غير هذا الموضع، لأن قوله ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ﴾ يقتضي أنه شراء وبيع، وهذا لا يكون إلا بالتمثيل. ومنهم من جوز أن يكون معنى ﴿اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ بصرفها في

---

(١) أخرجه البخاري في: الجهاد، ٢٢ - باب الجنة تحت بارقة السيوف، حديث رقم ١٣٤٦ عن عبد الله بن أبي أوفى.

العمل الصالح، ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ بالبذل فيها. وجعل قوله ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ مستأنفاً لذكر بعض ما شمله الكلام، اهتماماً به. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَعْداً عَلَيْهِ﴾ مصدر مؤكد لما يدل عليه كون الثمن مؤجلاً. وذكر كونه في التوراة وما عطف عليها، تأكيداً له، وإخبار بأنه منزل على الرسل في الكتب الكبار. وفيه أن مشروعية الجهاد ومثوبته ثابتة في شرع من قبلنا. وقد بقي في التوراة والإنجيل الموجودين، على تحريفهما، ما يشير إلى الجهاد والحث عليه، نقلها عنهما من ردّ على الكتابيّين الزاعمين أن الجهاد من خصائص الإسلام، فانظره في الكتب المتداولة في ذلك.

ثم وصف تعالى المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٢﴾

﴿التَّائِبُونَ﴾ أي عن المعاصي، ورفعه على المدح، أي هم التائبون، كما دل عليه قراءة (التائبين) بالياء إلى قوله، و(الحافظين) نصباً على المدح، أو جراً صفة للمؤمنين. وجوز أن يكون مبتدأ وخبره ما بعده، أي التائبون من المعاصي حقيقة، الجامعون لهذه الخصال ﴿الْعَابِدُونَ﴾ أي الذين عبدوا الله وحده، وأخلصوا له العبادة، وحرصوا عليها ﴿الْحَامِدُونَ﴾ لله على نعمائه، أو على ما نابهم من السراء والضراء ﴿السَّائِحُونَ﴾ أي الصائمون، أو الضاربون في الأرض تدبراً واعتباراً. وسننبه عليه، ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ أي المصلّون ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أي في تحليله وتحريمه ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموصوفين بالنعوت المذكورة. ووضع (المؤمنين) موضع ضميرهم، للتنبيه على أنّ ملاك الأمر هو الإيمان، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشر به للتعظيم، أو للعلم به، لقوله في آية الأحزاب: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٧].

تنبيهات:

الأول – ما قدمناه من تفسير (السائحين) بالصائمين. قال الزجاج: هو قول

أهل التفسير واللغة جميعاً. ورواه الحاكم مرفوعاً، وكذلك ابن جرير. قال ابن كثير: ووقفه أصح.

وعن ابن عباس: كل ما ذكر الله في القرآن من السياحة، فهو الصيام.

وعن الحسن: السائحون الصائمون شهر رمضان.

قال الشهاب: استعيرت السياحة للصوم لأنه يعوق عن الشهوات، كما أن السياحة تمنع عنها في الأكثر.

ونقل الرازي عن أبي مسلم أن السائحين: السائرون في الأرض، وهو مأخوذ من (السيح) سيح الماء الجاري، والمراد به من خرج مجاهداً مهاجراً. وتقريره أنه تعالى حث المؤمنين في الآية الأولى على الجهاد، ثم ذكر هذه الآية في بيان صفات المجاهدين، فينبغي أن يكونوا موصوفين بجميع هذه الصفات. وروى مثله ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن أنه قال: هم المهاجرون. وعن عكرمة أنهم المنتقلون لطلب العلم.

قال ابن كثير: جاء ما يدل على أن السياحة الجهاد، فقد روى[1] أبو داود من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله! ائذن لي في السياحة. فقال النبيّ ﷺ: سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله.

أقول: لو أخذ هذا الحديث تفسيراً للآية لالتقى مع كل ما روي عن السلف فيها، لأن الجهاد في سبيل الله، كما يطلق على قتال المشركين، يطلق على كل ما فيه مجاهدة للنفس في عبادته تعالى، ومنه الهجرة والصوم، والسفر للتفقه في الدين أو للاعتبار، بل ذلك هو الجهاد الأكبر. هذا على إرادة التوفيق بين المأثورات. أما لو أريد باللفظ أصل حقيقته اللغوية، أعني الضرب في الأرض خاصة، الذي عبر عنه عكرمة بالمنتقلين لطلب العلم، لكان بمفرده كافياً في المعنى، مشيراً إلى وصف عظيم، وهذا ما حدا بأبي مسلم أن يقتصر عليه، وهو الحق في تأويل الآية.

وقد رأيت لبعض المحققين مقالة في تأييده، يجدر بالمحقق أن يقف عليها، وهاك خلاصتها: قال: الكتاب الحكيم يأمر الإنسان كثيراً بأن يضحي قسماً من حياته في السياحة والتسيار، لأجل اكتشاف الآثار، والوقوف على أخبار الأمم البائدة،

---

(١) أخرجه أبو داود في: الجهاد، ٦ - باب النهي عن السياحة، حديث رقم ٢٤٨٦.

ليكون ذلك مثال عظة واعتبار، يضرب على أدمغة الجامدين بيد من حديد. ولا أريد أن أحشر للقارئ تلك الآيات، فإن ذلك يؤدي إلى التطويل، بل أريد أن أجتزئ منها بما يكفل ثبوت الدعوى، وذلك في قوله تعالى: ﴿السَّائِحُونَ...﴾ في هذه الآية، ولم يقع لفظ (سائحون) في القرآن الكريم إلا هذه المرة الفذة. ومع ذلك فقد تغلب عليها أهل التفسير، فمنهم من قال هم الصائمون، ومنهم من قال غيره. والصحيح أن (السائحون) معناه السائرون، مأخوذاً من السيح وهو الجري على وجه الأرض، والذهاب فيها، وهذه المادة تشعر بالانتشار. يقال: ساح الماء أي جرى وانتشر. والسيح أيضاً الماء الجاري الذاهب بالأرض. ويطلق السائح على معنى يضاد الجامد، وهو المائع المسفوح، لأنه بانمياعه ينتشر في وعائه. وقد عهدنا بألفاظ القرآن أنها يجب حملها على ظواهرها، وعلى معانيها الحقيقية، اللهم ما لم يمنع مانع عقليّ، ولا مانع هنا من إرادة الحقيقة وعليه فيجب حمل لفظ (السائحون) على معناه الظاهر الحقيقي، وهو السائرون الذاهبون في الديار، لأجل الوقوف على الآثار، توصلاً للعظة بها والاعتبار، ولغير ذلك من الفوائد التي عرفها التاريخ. وكذلك عهدنا بالمعنى المجازيّ أنه لا تجوز إرادته إلا عند قيام القرينة على منع المعنى الحقيقيّ، في حال أن الأمر هنا بالعكس، لكثرة القرائن التي تطالب بإرادة المعنى الحقيقي دون المجازي. وذلك مثل آية ﴿سِيرُوا﴾[الانعام:١١ والنمل:٦٩ والعنكبوت:٢٠ والروم:٤٢ وسبأ:١٨]، ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا﴾ [الروم:٩ وفاطر:٤٤ وغافر:٢١]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ [يوسف:١٠٩ والحج:٤٦ وغافر:٨٢ ومحمد:١٠]، ﴿فَسِيرُوا﴾ [آل عمران: ١٣٧] و [النحل:٣٦]، ﴿وآخَرُونَ يَضرِبُونَ فِي الأرضِ﴾ [المزمل:٢٠]، ﴿وَمَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ...﴾ [النساء:١٠٠] الآية – فهذه الآيات هي قرائن نيّرة تؤذن بأن السيْح معناه السير. فإنها وإن تكن من مادة أخرى، إلا أن معناها يلاقي معنى السيح. على أننا لا نعدم قرينة على ذلك من نفس المادة، وذلك كآية ﴿فَسِيحُوا فِي الأرْضِ﴾ [التوبة:٢]، فكلمة (سيحوا) هنا تفسر ﴿السَّائِحُونَ﴾ في الآية هذه، وهم يقولون: خير ما فسرته بالوارد. وبالجملة، فصرف هذا اللفظ عن ظاهره تكسيل للأمة، وتدبير على فتور همتها، وضعف نشاطها، وحيلولة بينها وبين سعادة الإحاطة بآثار الأمم البائدة، ورؤية عمران المسكونة، الأمر الذي هو الآن الضالة المنشودة عند الغربيين، وفيه ستر لنور الكتاب الذي هو أول مرشد للعالم الا يألوا جهداً في السير والسياحة، وأن ينقب في البلاد أي تنقيب وسياتي تتمة لهذا في تفسير آية ﴿سائِحَاتٍ﴾ [التحريم:٥] في سورة التحريم إن شاء الله تعالى.

قال الرازي: للسياحة أثر عظيم في تكميل النفس، لأنه يلقاه أنواع من الضرّ والبؤس، فلا بد له من الصبر عليها، وقد يلقى أفاضل مختلفين، فيستفيد من كلٍّ ما ليس عند الآخر. وقد يلقى الأكابر من الناس، فيحقر نفسه في مقابلتهم. وقد يصل إلى المرادات الكثيرة، فينتفع بها. وقد يشاهد اختلاف أحوال الدنيا بسبب ما خلق الله تعالى في كل طرف من الأحوال الخاصة بهم، فتقوى معرفته. وبالجملة فالسياحة لها آثار قوية في الدين. انتهى.

وقال بعضهم: لا يعزب عنك أيها اللبيب أنه تعالى حث بني الإنسان على السفر في محكم كتابه العزيز، وندد على من ارتدى منهم رداء الكسل، وأوقع نفسه في وهدة الخمول، وتلذذ بالتقاعد عن جَوْب البلاد، وقطع الوهاد، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، وقال ﷺ[1]: «سافروا تصحوا واغزوا تستغنوا».

وقد تكلم كثير من العلماء والحكماء والأدباء على مزايا السفر نظماً ونثراً. ومن أجل فوائده زيادة علمه، وانتفاع غيره بما يعلمه وما يكتسبه. ومنها، وهو أعظمها، رضا ربه، ومزيد ثوابه بنفعه لعباده، وأحب عباد الله إلى الله أنفعهم لعباده. وكذلك باتعاظه بأحوال الناس، واعتباره بأمورهم، واطلاعه في ساحته على الأسرار المكنونة، والحكم التي دبر الله بها أمر المخلوقات وأحكم بها صنع الكائنات. فمن وقف على سر الخالق زاد في تعظيمه وتقرب إليه بالطاعة والامتثال لأوامره ونواهيه، وليس بخاف ما وقع للأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، والأولياء والصالحين، من التنقلات والأسفار، في القرى والأمصار، للنظر والاعتبار.

الثاني– قال القاضي: إنما جعل ذكر الركوع والسجود، كناية عن الصلاة، لأن سائر أشكال المصلِّي موافق للعادة، وهو قيامه وقعوده، والذي يخرج عن العادة في ذلك هو الركوع والسجود، وبه يتبين الفضل بين المصلي وغيره. ويمكن أن يقال: القيام أول مراتب التواضع لله تعالى، والركوع وسطها، والسجود غايتها. فخص الركوع والسجود بالذكر، لدلالتهما على غاية التواضع والعبودية، تنبيهاً على أن المقصود من الصلاة نهاية الخضوع والتعظيم. ذكره الرازي.

الثالث– ذكروا في سر العطف في موضعين من هذه النعوت وجوهاً:

فأما الأول: أعني قوله تعالى: ﴿والنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فقالوا: سر العطف فيه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢/ ٣٨٠. عن أبي هريرة.

إما الدلالة على أنه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة، وصفة واحدة، لأن بينهما تلازماً في الذهن والخارج، لأن الأوامر تتضمن النواهي ومنافاةً بحسب الظاهر، لأن أحدهما طلب فعل، والآخر طلب ترك، فكانا بين كمال الاتصال والانقطاع المقتضي للعطف، بخلاف ما قبلهما. أو لأنه، لما عدد صفاتهم، عطف هذين ليدل على أنهما شيء واحد، وخصلة واحدة، والمعدود مجموعهما، كأنه قيل: الجامعون بين الوصفين. أو العطف لما بينهما من التقابل، أو لدفع الإيهام، وهذا معنى قول (المغني) الظاهر أن العطف في هذا الوصف إنما كان من جهة أن الأمر والنهي، من حيث هما أمر ونهي، متقابلان بخلاف بقية الصفات. أو لأن الآمر بالمعروف ناه عن المنكر، وهو ترك المعروف. والناهي عن المنكر آمر بالعروف. فأشير إلى الاعتداد بكل من الوصفين، وأنه لا يكفي فيه ما يحصل في ضمن الآخر.

وأما الثاني: أعني قوله تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ فقيل: سر العطف فيه الإيذان بأن التعداد قد تم بالسبع، من حيث إن السبعة هو العدد التامّ، والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه، ولذلك تسمى (واو الثمانية) ونظر فيه بأن الدال على التمام لفظ (سبعة) لاستعماله في التكثير، لا معدوده. والقول بواو الثمانية ذكروه في قوله تعالى: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] وضعفه في (المغني).

وقيل: سر العطف التنبيه على أن ما قبله مفصل الفضائل، وهذا مجملها، لأنه شامل لما قبله وغيره. ومثله يؤتى به معطوفاً، نحو زيد وعمرو وسائر قبيلتهما كرماء، فلمغايرته لما قبله، بالإجمال والتفصيل، والعموم، والخصوص، عطف عليه.

وقيل: بقوة الجامع بالتلازم، لأن من حصل الأوصاف السابقة، فقد حفظ حدود الله.

وقيل: المراد بحفظ الحدود ظاهره، وهي إقامة الحد، كالقصاص على من استحقه. والصفات الأولى إلى قوله ﴿الآمرون﴾ صفات محمودة للشخص في نفسه، وهذه له باعتبار غيره، فلذا تغاير تعبير الصنفين، فترك العاطف في القسم الأول، وعطف في الثاني. ولما كان لا بد من اجتماع الأول في شيء واحد، ترك فيها العطف لشدة الاتصال، بخلاف هذه، فإنه يجوز اختلاف فاعلها ومن تعلقت به. وهذا هو الداعي لإعراب (التائبون) مبتدأ موصوفاً بما بعده، و(الآمرون) خبره. فكأنه قيل: الكاملون في أنفسهم المكملون لغيرهم. وقدم الأول لأن المكمل لا يكون مكملاً حتى يكون كاملاً في نفسه، وبهذا اتسق النظم أحسن نسق من غير تكلف، والله أعلم بمراده. كذا في (العناية) و(حواشي المغني).

القول في تأويل قوله تعالى:

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

﴿ مَا كانَ للنَّبيِّ والَّذينَ آمنُوا أنْ يَستَغفِرُوا للمُشركينَ ولوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبيَّنَ لَهُمْ أنَّهُمْ أصْحابُ الْجحيم ﴾.

﴿ وَما كانَ اسْتغفارُ إبْراهيمَ لأبيهِ إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعدَها إيَّاهُ فَلَمَّا تَبيَّنَ لَهُ أنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبرَّأَ منهُ، إنَّ إبْراهيمَ لأوَّاهٌ حليمٌ ﴾ لما بين تعالى في أول السورة وما بعدها أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة، بيّن سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيداً. حيث نهى عن الاستغفار لهم بعد تبين شركهم وكفرهم، لأن ظهوره موجب لقطع الموالاة، حتى مع الأقرباء، لأن قرابتهم، وإن أفادتهم المناسبة بهم والرحمة بهم، فلا تفيدهم قبول نور الاستغفار ﴿ إنَّ اللّه لا يَغْفِرُ أنَّ يُشْرَكَ به ﴾ [النساء:٤٨] فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعد الله ووعيده. ثم ذكر تعالى أن السبب في استغفار إبراهيم لأبيه، أنه كان لأجل وعد تقدم منه له، بقوله: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ [مريم:٤٧]، وقوله: ﴿ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة:٤]، وأنه كان قبل أن يتحقق إصراره على الشرك ﴿ **فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ** ﴾ ذلك ﴿ **تبرأَ منْهُ** ﴾ أي من أبيه بالكلية، فضلاً عن الاستغفار له. وبيّن تعالى الحامل لإبراهيم على الاستغفار، بأنه فرط ترحّمه وصبره بقوله: ﴿ **إنَّ إبْراهِيمَ لأوَّاهٌ** ﴾ أي كثير التأوه من فرط الرحمة، ورقة القلب، ﴿ **حَلِيمٌ** ﴾ أي صبور على ما يعترضه من الإيذاء، ولذلك حلم عن أبيه، مع توعده له بقوله: ﴿ لئِنْ لَمْ تَنْتَه لأرْجُمَنَّكَ ﴾ [مريم:٤٦]، واستغفر له بقوله: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سأسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ [مريم:٤٧]، وذلك قبل التبين، فليس لغيره أن يأتسي به في ذلك.

وفي الآية تأكيد لوجوب الاجتناب بعد التبين، بأنه ﷺ تبرأ من أبيه بعد التبين، وهو في كمال رقة القلب والحلم، فلا بد أن يكون غيره أكثر منه اجتناباً وتبرؤاً.

تنبيهات:

الأول – ساق المفسرون ها هنا روايات عديدة في نزول الآية. ولما رآها بعضهم متنافية، حاول الجمع بينها بتعدد النزول، ولا تنافي، لما قدمناه من أن قولهم (نزلت

في كذا) قد يراد به أن حكم الآية يشمل ما وقع من كذا بمعنى أن نزولها يتناوله. وقد يراد به (أن كذا كان سبباً لنزولها) وما هنا من الأول. ونظائره كثيرة في التنزيل، وقد نبهنا عليه مراراً، لا سيما في المقدمة. فاحفظه.

الثاني- قال عطاء بن أبي الرباح: ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة، ولو كانت حبشية حبلى من الزنى، لأني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين، ثم قرأ الآية. وهذا فقه جيّد.

الثالث - قال بعض اليمانين: استدل بالآية على أن من تأوه في الصلاة لم تبطل. وهذا يحكى عن أبي جعفر: إذاقال (آه) لم تبطل صلاته، لأنه تعالى مدح إبراهيم عليه السلام بذلك، ومذهب الأئمة بطلانها، سواء قال (آه) أو (أوه)، لأن ذلك من كلام الناس، ولم يذكر تعالى أن تأوه إبراهيم كان في الصلاة. انتهى.

الرابع - قال في (العناية): (أوّاه) فعّال للمبالغة من (التأوّه) وقياس فعله أن يكون ثلاثياً، لأن أمثلة المبالغة إنما يطرد أخذها منه وحكى قطرب له فعلا ثلاثياً وهو (آهَ يَؤُوهُ) كقام يقوم، أوْهاً، وأنكر عليه غيره بأنه لا يقال إلا أوّه وتأوّه قال:

إذا ما قمتُ أرْحَلُها بليل تأوَّهُ آهَةَ الرَّجُلِ الْحَزِينِ

والتأوه قول (آه) ونحوه مما يقوله الحزين، فلذا كني به عن الحزن، ورقة القلب. انتهى.

و (أوّه) بفتح الواو المشدّدة ساكنة الهاء، وأواه، وأوه بسكون الواو والحركات الثلاث قال:

فأوْهِ على زيارةِ أمّ عمرو فكيف مع العدا، ومع الوُشاةِ؟

وربما قلبو الواو ألفاً، فقالوا: آهَ من كذا قال:

آهِ من تَيَّاكِ آهَا تَركَتْ قلبي مُتَاها

و (آهٍ) بكسر الهاء منونة وحكي أيضاً آها وواها. وفيها لغات أخرى أوصلها (التاج) إلى اثنتين وعشرين لغة، وكلها كلمات تقال عند الشكاية والتوجع والتحزن، مبنيّات على ما لزم آخرها إلا (آها) فانتصابها لإجرائها مجرى المصادر، كأنه قيل: أتأسف تأسفاً.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

﴿وما كانَ اللهُ ليُضِلَّ قوماً بَعْدَ إذْ هَداهُمْ حتى يُبيِّنَ لَهُمْ ما يتَّقُونَ﴾ هذا من تتمة ما تقدم من تأكد مباينة المشركين، والبراءة منهم، وترك الاستغفار لهم، وذلك لأنهم حقت عليهم الكلمة، حيث قامت عليهم الحجة بإبلاغ الرسول إليهم ما يتقون، ودلالته إياهم على الصراط السوي فضلّوا عنه، فأضلهم الله، واستحقوا عقابه.

وقوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ بكُلِّ شيْءٍ عَليمٌ﴾ تعليل لما سبق، أي أنه تعالى عليم بجميع الأشياء التي من جملتها حاجتهم إلى بيان قبح ما لا يستقل العقل بمعرفته، فبين لهم ذلك، كما فعل هنا.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

﴿إنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّموات والأرْضِ، يُحْيي ويُميتُ، وما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَليٍّ ولا نَصيرٍ﴾ تقوية لما تقدم من التبرؤ منهم، وإرشاد للمؤمنين بأن يتكلوا على ربهم، ولا يرهبوا من أولئك، فإنه إذا كان ناصرهم فلا يضرهم كيدهم، وتنبيه على لزوم امتثال أمره، والانقياد لحكمه، والتوجه إليه وحده، إذ لا يتأتى لهم ولاية ولا نصر إلا منه تعالى.

تنبيه:

وقف كثير من المفسرين بالآية هنا، أعني قوله تعالى: ﴿ومَا كانَ اللهُ ليُضِلَّ قَوْماً﴾ الآية ـ على ما روي في الآية قبلها، من نزولها في استغفار وقع من المؤمنين للمشركين، فربطوا هذه الآية بتلك، على الرواية المذكورة، ونزّلوها على المؤمنين، فقالوا: ﴿وَما كانَ اللهُ ليُضِلَ قَوْماً﴾ أي ليحكم عليهم باستغفارهم للمشركين بالضلال بعد إذ هداهم بالنبوة والإيمان، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه، فتتركوا، فأما إذا لم يبين فلا ضلال، إلى آخر ما قالوه...

وما أبعده من تفسير وتأويل والرازيّ ذكره وجهاً، وأشفعه بما اعتمدناه، وهو الحق.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

﴿لَقَدْ تابَ اللَّهُ على النَّبيِّ والْمُهاجِرِينَ والأنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ، إنَّهُ بِهِمْ رءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ اعلم أن الله تعالى لما بين فيما تقدم مراتب الناس في أيام غزوة تبوك، مؤمنهم ومنافقهم، والمنفق لها طوعاً أو كرهاً، والمرغّب فيها أو عنها، والمتخلف نفاقاً أو كسلاً، وأنبأ عما لحق كلاً من الوعد والوعيد، وميز الصادقين من غيرهم- ختم بفرقة منهم كانوا تخلفوا ميلاً للدعة. وهم صادقون في إيمانهم، ثم ندموا فتابوا وأنابوا، وعلم الله صدق توبتهم، فقبلها، ثم أنزل توبتهم في هذه الآية، وصدرها بتوبته على رسوله، وكبار صحبه جبراً لقلوبهم، وتنويهاً لشأنهم بضمهم مع المقطوع بالرضا عنهم وبعثاً للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبيّ والمهاجرين والأنصار، كل على حسبه، وإبانةً لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأنها صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء، كما وصفهم بالصالحين، ليظهر فضيلة الصلاح والوصف للمدح، كما يكون لمدح الموصوف، يكون لمدح الصفة، وهذا من لطائف البلاغة، وهو كما قال حسان رضي الله عنه:

ما إنْ مَدَحْتُ مُحَمّداً بِمقالَتِي ... لَكِنْ مَدَحْتُ مَقالَتِي بِمُحَمَّدِ

وفي الآية بيان فضل المهاجرين والأنصار.

قال الحاكم: ودلت على فضل عثمان، لأنه جهز جيش العسرة بمال لم يبلغ غيره مبلغه. وقد جمع تعالى بين ذكر نبيه وذكرهم، ووصفهم باتّباعه، فوجب القطع بموالاتهم.

وقوله تعالى: ﴿فِي ساعَةِ الْعُسْرةِ﴾ أي في وقتها والساعة تستعمل في معنى الزمان المطلق، كما تستعمل الغداة والعشية واليوم، والعسرة حالهم في غزوة تبوك. كانوا في عسرة من الظَّهْر، يعتقب العشرة على بعير واحد، وفي عسرة من الزاد، حتى

إن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتدالون التمرة بينهم، يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها الآخر، ثم يشرب عليها: وفي عسرة من شدة لَهَبان الحرّ ومن الجدب. وفي عسرة من الماء، حتى بلغ بأحدهم العطش أن نحر بعيره، فعصر فرثه فشربه، وجعل ما بقي على كبده.

وقد حكى القالي في (أماليه) أن العرب كانوا إذا أرادوا توغل الفلوات التي لا ماء فيها، سقوا الإبل على أتم أظمائها ثم قطعوا مشافرها، أو خزموها لئلا ترعى، فإذا احتاجوا إلى الماء، افتظوا كروشها، فشربوا ثميلها، وهو كثير في الأشعار. كذا في (العناية).

ونقل الرازي عن أبي مسلم أنه يجوز أن يكون المراد بـ (ساعة العسرة) جميع الأحوال والأوقات الشديدة على الرسول، وعلى المؤمنين، فيدخل فيه غزوة الخندق وغيرها. وقد ذكر تعالى بعضها في كتابه كقوله سبحانه: ﴿وإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِه حَتَى إذا فَشِلْتُمْ...﴾ [آل عمران:١٥٢] الآية - والمقصود منه وصف المهاجرين والأنصار بأنهم اتبعوا الرسول ﷺ في الأوقات الشديدة، والأحوال الصعبة، وذلك يفيد نهاية المدح والتعظيم. انتهى.

أقول: هذا الاحتمال، وإن كان مما يسعه اللفظ الكريم، إلا أنه يبعده عنه سياق الآية، وسباقها، القاصران على غزوة تبوك. ولم يتفق في غيرها عسر في الخروج، واتباعه عليه السلام، بل وقع أحياناً في مصاف القتال. وقد اتفق علماء الأثر والسير على تسميتها (غزوة العسرة)، ومن خرج فيها (جيش العسرة).

وقوله تعالى: **﴿مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾** أي عن الحق، أو الثبات على الاتباع للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم. وفي تكرير التوبة عليهم بقوله تعالى: **﴿ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ﴾** تأكيد ظاهر، واعتناء بشانها، هذا إذا كان الضمير راجعاً إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم، وإن كان الضمير إلى الفريق الثاني، فلا تكرار.

قال بعضهم: ذكر التوبة أولاً قبل ذكر الذنب، تفضلاً منه، وتطييباً لقلوبهم. ثم ذكر الذنب بعد ذلك، وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى، تعظيماً لشانهم، وليعلموا أنه تعالى قد قبل توبتهم، وعفا عنهم. ثم أتبعه بقوله: **﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾** تأكيداً لذلك.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

﴿وعَلى الثَلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ أي تركوا وأخروا عن قبول التوبة في الحال، كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم، والثلاثة هم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وكلهم من الأنصار، لم يقبل النبيّ ﷺ توبتهم حتى نزل القرآن بتوبتهم.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إذا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرضُ بما رَحُبَتْ﴾ أي مع سعتها، وهو مثل الحيرة في أمرهم، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرون فيه، قلقاً وجزعاً مما هم فيه، إذ لم يمكنهم الذهاب لأحد، لمنع النبي ﷺ من مجالستهم ومحادثتهم. و(إذا) يجوز كونها شرطية جوابها مقدر، وأن تكون ظرفية غاية لما قبلها ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أنفُسُهُمْ﴾ أي قلوبهم من فرط الوحشة والجفوة والغمّ، بحيث لا يسعها أنس ولا سرور، وذلك لأنهم لازموا بيوتهم، وهُجِروا نحواً من خمسين ليلة، وفيه ترقٍّ من ضيق الأرض إلى ضيقهم في أنفسهم، وهو في غاية البلاغة ﴿وَظَنُّوا﴾ أي علموا ﴿أنْ لا مَلْجأَ مِنَ اللهِ﴾ أي لا مفرّ من غضب الله ﴿إلاَّ إلَيْهِ﴾ أي إلى استغفاره ﴿ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبوا﴾ أي ليستقيموا على توبتهم، ويستمروا عليها، أو ليعدّوا من جملة التائبين، أو المعنى: قبل توبتهم ليتوبوا في المستقبل، إذا صدرت منهم هفوة، ولا يقنطوا من كرمه ﴿إنَّ اللهَ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

﴿يا أيّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي في إيمانهم ومعاهدتهم لله ولرسوله على الطاعة. من قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٢٣]، أو هم الثلاثة، أي كونوا مثلهم في صدقهم وخلوص نيتهم.

تنبيهات:

الأول - روى الإمام أحمد والشيخان حديث كعب وصاحبيه مبسوطاً بما يوضح هذه الآية: قال الزهريّ: أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه - وكان قائد كعب من بنيه، حين عمي- قال: سمعت كعباً يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها قط، إلا في غزاة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر، ولم يُعاتَب أحد تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، حين توافقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدرٌ أذكر في الناس منها وأشهر. وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك؛، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة. والله ما جمعت قبلها راحلتين قط، حتى جمعتهما في تلك الغزاة. وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها، إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز، واستقبل عدوّاً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم، ليتاهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب: فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه، ما لم ينزل فيه وحي من الله عزَّ وجلَّ. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة، حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصعر- أي أميل- فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً، والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، وقلت: أتجهز بعد يوم أو يومين، ثم ألحقه، فغدوت بعدُ لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فالحقهم - وليتني فعلت - ثم لم يقدّر ذلك لي. فكنت إذا خرجت في الناس، بعد خروج رسول الله ﷺ، يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذره الله عز وجل. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك. فقال (وهو جالس في القوم بتبوك): ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: حبسه يا رسول الله بُرداه، والنظر في عطفيه! فقال معاذ بن جبل: بئسما قلت. والله! يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً! فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك، حضرني بثّي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بم أخرج من سخطته غداً؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي. فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً، زاح عني الباطل، وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه. فأصبح رسول الله ﷺ - وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس - فلما فعل ذلك، جاءه المتخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: تعال! فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك؟ الم تكن قد اشتريت ظَهْراً؟ فقلت: يا رسول الله ! إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أن أخرج من سخطه بعذر. لقد أُعطيتُ جدلاً، ولكني ، والله لقد علمت، لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني، ليوشكنّ الله أن يسخطك عليّ. ولئن حدثتك بصدق تجد عليّ فيه، إني لأرجو عقبى ذلك من الله عزَّ وجلَّ. والله ما كان لي عذر، والله! ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال: فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقدصدق، فقم حتى يقضي الله فيك! فقمت، وقام إليّ ـجال من بني سلمة، واتبعوني،فقالوا لي: والله! ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك.

قال: فو الله! ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي.

قال: ثم قلت لهم: هل لقي معي هذا أحد؟ قالوا: نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت: فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامريّ، وهلال بن أمية الواقفيّ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً، لي فيهما أسوة.

قال : فمضيت حين ذكروهما لي.

فقال: ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، أيها الثلاثة، من بين من تخلف. فاجتنَبنا الناسُ، وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع

المسلمين، وأطوف بالأسواق، فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة،، فأسلم وأقول في نفسي: أحَرَّكَ شَفَتيه بردّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ، فإذا التفتُّ نحوه أعرض عني. حتى إذا طال عليّ ذلك من هجر المسلمين، مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إليّ، فسلمت عليه، فو الله! ما ردّ عليّ السلام. فقلت له: يا أبا قتادة! أنشدك الله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. قال: فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار. فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا أنا بنبطي من أنباط الشام، ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إليّ، حتى جاء فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً، فإذا فيه:

(أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، وإن الله لم يجعلك بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك).

قال: فقلت - حين قرأته -: وهذا أيضاً من البلاء. قال: فتيممت به التنور فسجرته به. حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني يقول: يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك. قال: فقلت: أطلّقها أم ماذا أفعل؟ فقال: بل اعتزلها ولا تقربها. قال: وأرسل إلى صاحبَيّ بمثل ذلك. قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء! قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! إن هلالاً شيخ ضعيف، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربك! قالت: وإنه، والله! ما به من حركة إلى شيء، وإنه والله! ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه. قال: فقلت: والله! لا أستاذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها إذا استأذنته، وأنا رجل شابّ. قال: فلبثنا عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا.

قال: ثم صليت صلاة الصبح، صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت

عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفي على جبل سلع، يقول بأعلى صوته: أبشر يا كعب بن مالك! قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عزّ وجلّ بالتوبة علينا، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَلَ صاحبيّ مبشرون، وركض إليّ رجلٌ فرساً، وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوته إياهما ببشراه.

والله! ما أملك يومئذ غيرهما- واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أؤُم رسول الله ﷺ وتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئونني بتوبة الله، يقولون: ليهنك توبة الله عليك! حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد، والناس حوله، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول، حتى صافحني وهناني- و الله! ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره – قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب. فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال (وهو يبرق وجهه من السرور): أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك! قال، قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا، بل من عند الله. قال، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، حتى يعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله! إن من توبتي أن انخلع من مالي، صدقةً إلى الله وإلى رسوله. قال: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك. قال، فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. وقلت: يا رسول الله ! إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي الا أحدث إلا صدقاً ما بقيت. قال، فو الله! ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث، منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، أحسن مما أبلاني الله تعالى. والله! ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله عزّ وجلّ فيما بقي.

قال، وأنزل الله ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ....﴾ إلى آخر الآيات.

قال كعب: فو الله! ما أنعم عليّ من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ يومئذ الا أكون كَذَبْتُهُ، فأهلك كما هلك الذينَ كَذَبُوه، فإن الله تعالى قال للذين كَذَبوه، حين أنزل الوحي، شرّ ما قال لأحد. فقال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦].

قال: وكنا أيها الثلاثة الذين خلّفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين خلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ وليس الذي ذكر مما خلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له، واعتذر إليه، فقبل منه.

وفي رواية: ونهى النبيّ ﷺ عن كلامي، وكلام صاحبيّ، ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا،فاجتنب الناس كلامنا، فلبثت كذلك حتى طال عليّ الأمر، فما من شيء أهمّ إليّ من أن أموت، فلا يصلّ عليّ النبيّ ﷺ . أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني أحد منهم، ولا يصلّي عليّ، ولا يسلّم عليّ.

قال: وأنزل الله عز وجل توبتنا على نبيه ﷺ حين بقي الثلث الأخير من الليل، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة، وكانت أم سلمة محسنة في شأني، معتنية بأمري. فقال رسول الله ﷺ: يا أم سلمة تِيب على كعب بن مالك. قالت: أفلا أرسل إليه فأبشره؟ قال: إذاً يحطمكم الناس فيمعنونكم النوم سائر الليل. حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر، آذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا - أخرجه البخاري ومسلم -.

قال ابن كثير: هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته، وقدتضمن تفسير الآية بأحسن الوجوه وأبسطها.

الثاني- قال بعض المفسرين: في الآية دليل على الشدة على من فعل الخطيئة، وعلى قطع ما يلهي عن الطاعة.

الثالث - في الآية دلالة على التحريض على الصدق.

قال القاشانيّ:في قوله تعالى هنا ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي في جميع الرذائل بالاجتناب عنها، خاصة رذيلة الكذب. وذلك معنى قوله ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فإن الكذب أسوأ الرذائل وأقبحها، لكونه ينافي المروءة. وقد قيل: (لا مروءة لكذوب) إذ المراد من الكلام الذي يتميز به الإنسان عن سائر الحيوان إخبار الغير عما لا يعلم، فإذا كان الخبر غير مطابق، لم تحصل فائدة النطق، وحصل منه اعتقاد غير مطابق، وذلك من خواص الشيطنة فالكاذب شيطان. وكما أن الكذب أقبح الرذائل، فالصدق أحسن الفضائل، وأصل كل حسنة، ومادة كل خصلة

محمودة، وملاك كل خير وسعادة، به يحصل كل كمال، وأصله الصدق في عهد الله تعالى الذي هو نتيجة الوفاء بميثاق الفطرة أو نفسه، كما قال: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٢٣] في عقد العزيمة، ووعد الخليقة. كما قال في إسماعيل: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم:٥٤]. وإذا روعي في المواطن كلها، حتى الخاطر والفكر والنية والقول والعمل، صدقت المنامات والواردات، والأحوال والمقامات والمواهب والمشاهدات، كأنه أصل شجرة الكمال، وبذر ثمرة الأحوال. انتهى.

ولما أوجب تعالى الكون مع الصادقين، أشار تعالى إلى أن النفر مع رسول الله ﷺ واجب كفاية، فلا يجوز تخلف الجميع، ولا يلزم النفْر للناس كافة، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾

﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أي المتيسر لهم ملازمة رسول الله ﷺ وصحابته **﴿وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾** أي عند توجهه إلى الغزو **﴿وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾** أي لا يضنوا بأنفسهم عما يصيب نفسه. أي لا يختاروا إبقاء أنفسهم على نفسه في الشدائد.

قال الزمخشري: أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، علماً بأنها أعز نفس عند الله وأكرمها عليه، فإذا تعرضت، مع كرامتها وعزتها، للخوض في شدة وهول، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له، ولا يكترث لها أصحابها، ولا يقيموا لها وزناً، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلاً عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه. وهذا نهي بليغ، مع تقبيح لأمرهم، وتوبيخ لهم عليه، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية. انتهى.

روي أن أبا ذر رضي الله عنه، أبطأ به بعيره، فحمل متاعه على ظهره، واتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً، فقال رسول الله ﷺ لما رأى سواده: كن أبا ذر! فقال الناس: هو ذاك! فقال: رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده.

وروي أن أبا خيثمة الأنصاري رضي الله عنه، بلغ بستانه، وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب، والماء البارد. فنظر فقال: ظل ظليل، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله ﷺ في الضح والريح، ما هذا بخير! فقام فَرَحَل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومرّ كالريح. فمدّ رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق، فإذا براكب يزهاه السراب، فقال: كن أبا خيثمة! فكانه،ففرح به رسول الله ﷺ، واستغفر له.

قال السهيليّ في (الروض): كن أبا ذر، كن أبا خيثمة، لفظه لفظ الأمر، ومعناه كما تقول:أسلم، أي سلمك الله – انتهى–.

وكذا قال غيره من المتقدمين كالفارسي وذكره المطرزي في قول الحريري: كن أبا زيد.

وفي شعر ابن هلال:

ومعذّر قال الإله لحسنه: كُنْ فَتنةً للعالمين فَكانَها

ولم يزيدوا في بيانه على هذا. وهو تركيب بديع غريب. ومعناه ساقه الله إلينا، وجعله إياه، ليكون هو القادم علينا. فاقيم فيه العلة مقام المعلول في الجملة الدعائية الإنشائية، على حد قوله في الحديث[1]: أبْلِ، وأخْلِقْ. أي عمرك الله، ومتعك الله بلباسك لتبلى وتخلق. وقولهم:أسلم. أي سلمك الله لتسلم. ثم لما أقيم مقامه أبقي مسنداً إلى فاعله، وإن كان المطلوب منه هو الله، وهو قريب من قولهم (لا أرينَّك ها هنا) أي لا تجلس حتى أراك. وهو تمثيل أو كناية. كذا في (العناية).

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما دل عليه قوله ﴿مَا كَانَ﴾ من النهي عن التخلف أو وجوب المشابهة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ أي شيء من العطش ﴿ولا نَصَبٌ﴾ أي تعب من السير لا سيما مع العطش ﴿ولاَ مَخْمَصَةٌ﴾ أي مجاعة

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الجهاد، ١٨٨ – باب من تكلم بالفارسية والرطانة، والحديث رقم ١٤٥٥.

تضعفهم عن السير ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ ولا يَطَئُونَ مَوْطِئاً﴾ اي لا يدوسون مكاناً ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ اي الذين هم أعداء الله. وإغضابُ العدوّ يفيد رضا عدوّه ﴿ولا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيلاً﴾ اي قتلاً او هزيمة او اسراً ﴿إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إنَّ اللَّهِ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي على إحسانهم. وهو تعليل لـ ﴿كُتِبَ﴾، وتنبيه على أن تحمل المشاق إحسان، لأن القصد به إعلاء كلمة الله تعالى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

﴿ولا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرةً﴾ اي لا يشق مثلها ﴿ولا كَبِيرَةً﴾ مثل ما أنفق عثمان رضي الله عنه في غزوة تبوك، وهو ألف دينار وثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ﴿ولا يَقْطَعُونَ وادِياً﴾ في مسيرهم، وهو كل منفرج ينفذ فيه السيل. اسم فاعل من (ودى) إذا سال، فهو السيل نفسه، ثم شاع في محله، ثم صار حقيقة في مطلق الأرض، وجمعه (أودية) كناد، بمجلس، جمعه (أندية)، وناج جمعه (أنجية) ولا رابع لها في كلام العرب ﴿إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ﴾ اي اثبت لهم به عمل صالح ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ليجزيهم على كل عمل لهم، كاملٍ أو قاصرٍ، جزاء أحسن أعمالهم. أي فإذا مالوا بأنفسهم فاتهم ذلك، وكانت المؤاخذة عليهم أشد.

ولما بين تعالى،فيما تقدم، خطر التخلف عن الرسول في الجهاد، وشدّد الوعيد على المتخلفين التاركين للنفير، دفع ما يتوهم من وجوب النفْر على الجميع، وفيه ما فيه من الحرج، والإخلال بأمر المعاش، بأن وجوبه كفائي، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

﴿وَما كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ اي ما صح لهم ذلك ولا استقام، بحيث تخلو بلدانهم عن الناس ﴿فَلَوْلا نفرَ﴾ اي فحين لم يمكن نفير الكافة، ولم يكن مصلحة، فهلا نفر ﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ﴾ أي من كل جماعة كثيرة، جماعة قليلة

منهم يكفونهم النفير ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي ليتعلموا أمر الدين من النبي ﷺ ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي يعلموهم ويخبروهم ما أمروا به، وما نهوا عنه ﴿إذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي من غزوتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي فيصلحون أعمالهم.

تنبيهات:

الأول - قال السيوطي في (الإكليل): في الآية أن الجهاد فرض كفاية، وأن التفقه في الدين، ونشر العلم، وتعليم الجاهلين كذلك. وفيها الرحلة في طلب العلم. واستدل بها قوم على قبول خبر الواحد، لأن الطائفة نفر يسير، بل قال مجاهد: إنها تطلق على الواحد. انتهى.

وقال الجصّاص في (الأحكام): في الآية دلالة على لزوم خبر الواحد في الديانات التي لا تلزم العامة، ولا تعمّ الحاجة إليها، وذلك لأن الطائفة لما كانت مأمورة بالإنذار انتظم فحوى الدلالة عليه من وجهين:

أحدهما- أن الإنذار يقتضي فعل المأمور به، وإلا لم يكن إنذاراً.

والثاني- أمره إيانا بالحذر عند إنذار الطائفة، لأن معنى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ليحذروا. وذلك يتضمن لزوم العمل بخبر الواحد، لأن الطائفة تقع على الواحد، فدلالتها ظاهرة. انتهى.

وفي القاموس: أن الطائفة من الشيء القطعة منه، أو الواحدة، فصاعداً، أو إلى الألف، أو أقلها رجلان، أو رجل. فيكون بمعنى (النفس الطائفة).

قال الراغب: إذا أريد بالطائفة الجمع، فجمع (طائف) وإذا أريد به الواحد، فيصح أن يكون جمعاً، وكني به عن الواحد، وأن يجعل كـ (راوية) و (علاّمة) ونحو ذلك.

الثاني- إن قيل: كان الظاهر في الآية (ليتفقهوا في الدين وليعلموا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يفقهون) فلِمَ وضع موضع (التعليم) الإنذار، وموضع (يفقهون) يحذرون؟ يجاب. بأن ذلك آذن بالغرض منه، وهو اكتساب خشية الله، والحذر من بأسه.

قال الغزالي رحمه الله: كان اسم الفقه في العصر الأول، اسماً لعلم الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدة الأعمال، والإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب. ويدل عليه هذه الآية. كذا في (العناية).

قال الزمخشري في الآية: وليجعلوا غرضهم ومرمى همتهم في التفقه، إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم. لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة، ويؤمونه من المقاصد الركيكة، من التصدر والترؤس والتبسط في البلاد، والتشبه بالظلمة في ملابسهم ومراكبهم، ومنافسة بعضهم بعضاً، وفشوّ داء الضرائر بينهم، وانقلاب حماليق أحدهم إذا لمح ببصره مدرسةً لآخر، أو شرذمة جثوا بين يديه. وتهالكه على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم. فما أبعد هؤلاء من قوله عز وجل: ﴿لا يَرِيدُونَ عُلوًا فِي الأرْضِ ولا فَساداً﴾ [القصص:٨٣] انتهى.

الثالث - قال القاشاني في الآية: يجب على كل مستعد من جماعة، سلوك طريق طلب العلم، إذا لا يمكن لجميعهم. أما ظاهراً فلفوات المصالح، وأما باطناً فلعدم الاستعداد. ثم قال: والتفقه في الدين هو من علوم القلب، لا من علوم الكسب، إذ ليس كل من يكتسب العلم يتفقه، كما قال: ﴿وجَعَلْنا عَى قُلُوبِهِمْ أكِنَّةً أنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام:٢٥] و[الإسراء:٤٦]، والأكنة هي الغشاوات الطبيعية، والحجب النفسانية فمن أراد التفقه فلينفر في سبيل الله، وليسلك طريق التزكية والتصفية، حتى يظهر العلم من قلبه على لسانه، فالمراد من التفقه علم راسخ في القلب، ضارب بعروقه في النفس، ظاهر أثره على الجوارح، بحيث لا يمكن صاحبه ارتكاب ما يخالف ذلك العلم، وإلا لم يكن عالماً. الا ترى كيف سلب الله الفقه عمن لم تكن رهبة الله أغلب عليه من رهبة الناس بقوله: ﴿لأنْتُمْ أشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّن اللّه ذَلكَ بأنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّيَفْقَهُونَ﴾ [الحشر:١٣]، لكون رهبة الله لازمة للعلم، كما قال: ﴿إنَّما يَخْشى الله مِنْ عِبادِه الْعُلَماءُ﴾ [فاطر:٢٨] وسلب العلم عمن لم يعمل به في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ والّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، وإذا تفقهوا، وظهر علمهم على جوارحهم، أثّر في غيرهم، وتأثروا منه، لارتوائهم به، وترشحهم منه، كما كان حال رسول الله ﷺ، فلزم الإنذار الذي هو غايته. انتهى.

ولما أمر تعالى، في صدر السورة، بالبراءة من مشركي العرب وقتالهم، ثم شرح أحوال المنافقين ومخازيهم، أشار إلى خاتمتها بما يطابق فاتحتها بذلك، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

﴿يا أيُها الّذِينَ آمَنوا قَاتِلُوا الّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ أي يقربون منكم، وهم مشركو جزيرة العرب، كما قلنا.

وقوله تعالى: ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ قالوا إنها كلمة جامعة للجراة والصبر على القتال، وشدة العداوة، والعنف في القتل والأسر. وظاهرها أمر الكفار بأن يجدوا في المؤمنين غلظة، والمقصود أمر المؤمنين بالاتصاف بصفات كالصبر وما معه، حتى يجدهم الكفار متصفين بها، فهي على حدّ قولهم :لا أرينك ههنا. والغلظة هي ضد الرقة، مثلثة الغين، وبها قرئ. لكن السبعة، على الكسر ﴿ واعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي بالنصرة والمعونة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾

﴿ وإذا ما أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ أي طائفة من القرآن المعجز المحيط بجملة من الحجج ورفع الشبه ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي من المنافقين ﴿ مَنْ يَقُولُ ﴾ بعضهم لبعض ﴿ أيُّكُمْ زادَتْهُ هَذِهِ ﴾ أي السورة ﴿ إيماناً ﴾ إنكاراً واستهزاءً بالمؤمنين، واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به ﴿ فأمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادَتْهُمْ إيماناً ﴾ لأنها أزيد لليقين والثبات، وأثلج للصدر، لكثرة الدلائل، ورفع الشبة ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي بنزولها وبما فيه من المنافع الدينية والدنيوية.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾

﴿ وأمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ ﴾ أي كفر وسوء عقيدة ﴿ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجسِهِمْ ﴾ أي كفراً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها ﴿ وماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ ﴾ أي واستحكم ذلك الكفر فيهم، بسبب الزيادة إلى موتهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

﴿ أوَ لا يرَوْنَ ﴾ يعني المنافقين ﴿ أنَّهُمْ يُفْتَنُونَ ﴾ أي يبتلون بإظهار مكرهم

وخيانتهم، أو بنقض عهدهم ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ﴾ أي من صنيعهم ونقض عَهْدِهم ﴿ولا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي يتعظون بأنها آيات قاطعة، وكون الابتلاء بسبب مخالفتها.

ثم بيّن أحوالهم عند نزولها وهم في محفل تبليغ الوحي، إثر بيان مقالتهم، وهمْ غائبون عنه بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

﴿وإذَا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْض هَلْ يَراكُم مِّن أحَدٍ﴾ قال الزمخشري: يعني تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي، وسخرية به، قائلين: هل يراكم من أحد من المسلمين لننصرف، فإنا لا نصبر على استماعه، ويغلبنا الضحك، فنخاف الافتضاح بينهم. أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لواذاً. يقولون: هل يراكم من أحد ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ أي عن محفل الوحي خوفاً من الافتضاح ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي عن الإيمان حسب انصرافهم عن حضرته عليه السلام. والجملة إخبارية أو دعائية ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يتدبرون أمر الله حتى يفقهوا.

تنبيهات:

الأول – دلت الآية المتقدمة على زيادة الإيمان بما ذكر، وسواء قلنا بدخول الأعمال في مسمى الإيمان، وهو الحق، أوْ لا، وانه مجرد التصديق القلبي، فالزيادة مما يقبلها قطعاً، والأول بديهي، والثاني مثله، إذ ليس إيمان الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والصحابة رضي الله عنهم، كإيمان غيرهم وهذا مما لا يُرتاب فيه.

الثاني– ذكر تعالى من مخازي المنافقين نوعين: عدم اعتبارهم بالابتلاء، وتمكن الكفر منهم، وازدياده في وقت يقتضي زيادة الإيمان، وهو تكرير التنزيل. ولما كان القصد بيان إصرارهم على كفرهم، وعدم نفع العظات فيهم، ختم مخازيهم بذلك، لانه نتيجتها. وقدم عليه ما يصيبهم من الابتلاء، لأن فيه ردعاً عظيماً لو تذكروا.

وقد تلطف القاشاني في إيضاح ذلك، وجود التقرير فيه، وعبارته:

البلاء قائد من الله تعالى يقود الناس إليه. وقد ورد في الحديث: (البلاء سوط

من سياط الله تعالى يسوق به عباده إليه)، فإن كل مرض وفقر وسوء حال يحل بأحد، يكسر سورة نفسه وقواها، ويقمع صفاتها وهواها، فيلين القلب، ويبرز من حجابها، وينزعج من الركون إلى الدنيا ولذاتها، وينقبض منها ويشمئز، فيتوجه إلى الله. وأقل درجاته أنه إذا اطّلع على أن لا مفر منه إلا إليه، ولم يجد مهرباً ومحيصاً من البلاء سواه، تضرع إليه وتذلل بين يديه، كما قال : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [لقمان:٣٢] ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً ﴾ [يونس:١٢] وبالجملة يوجب رقة الحجاب أو ارتفاعه، فليغتنم وقته وليتعوّذ، وليتخذ ملكة يعود إليها أبداً حتى يستقر التيقظ والتذكر، وتتسهل التوبة والحضور، فلا يتعوذ الغفلة عند الخلاص فتغلب، وتتقوى النفس عند الأمان، وينسبل الحجاب أغلظ مما كان، كما قال: ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥] ﴿ فَلَما كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ ﴾ [يونس:١٢] انتهى.

الثالث – قال السيوطي في (الإكليل) : أخذ ابن عباس من قوله ﴿ ثم انصرفوا ﴾ كراهية أن يقال : انصرفت من الصلاة – أخرجه ابن أبي حاتم – ومرجع هذا إلى أدب لفظي، باجتناب ما يوهم، أو ما نُعِيَ به على العصاة.

وقد عقد الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) فصلاً في هدي النبي ﷺ في حفظ المنطق، واختيار الألفاظ، فليراجع.

ثم بيّن تعالى ما امتن به على المؤمنين من بعثة خاتم النبيين بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي رسول عظيم من جنسكم، ومن نسبكم، عربيّ قرشيّ مثلكم، كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾ [البقرة:١٢٩] وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٦٤] .

وكلّم جعفرُ بن أبي طالب النجاشي، والمغيرةُ بن شعبة رسولَ كسرى، فقالا :

إن الله بعث فينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته... الحديث.

ثم ذكر تعالى ما يتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ﴾ أي شديد عليه شاق، لكونه بعضاً منكم، عنتُكم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة، والوقوع في العذاب ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي على هدايتكم، كي لا يخرج أحد منكم عن اتباعه، والاستسعاد بدين الحق الذي جاء به ﴿بِالمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ﴾ إذ يدعوهم لما ينجيهم من العقاب بالتحذير عن الذنوب والمعاصي، لفرط رأفته ﴿رَحِيمٌ﴾ إذ يفيض عليهم العلوم والمعارف والكمالات المقربة بالتعليم والترغيب فيها، برحمته.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

﴿فَإِنْ تَوَلَّوا﴾ أي أعرضوا عن الإيمان بك، وناصبوك ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي فاستعن به، وفوض إليه، فهو كافيك وناصرك عليهم.

وقال القاشاني: أي لا حاجة لي بكم، ولا باستعانتكم، كما لا حاجة للإنسان إلى العضو المألوم المتعفّن الذي يجب قطعه عقلاً. أي الله كافيني فلا مؤثر غيره، ولا ناصر إلا هو كما قال: ﴿لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي فوضت أمري إليه، وبه وثقت ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي المحيط بكل شيء، ياتي منه حكمه وأمره إلى الكل. وتخصيصه لكونه أعظم المخلوقات، فيدخل ما دونه، وقرئ (العظيم) بالرفع، على أنه صفة الرب جل وعزّ.

تم ما علقناه على سورة التوبة صباح الاثنين في ٢٤ رجب سنة ١٣٢٢هـ
في سدة جامع السنانية بدمشق الشام
اللهم يسر لنا بفضلك الإتمام. والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله أجمعين
إلى يوم الدين

ويليه الجزء السادس وفيه تفسير سور: يونس وهود ويوسف والرعد.

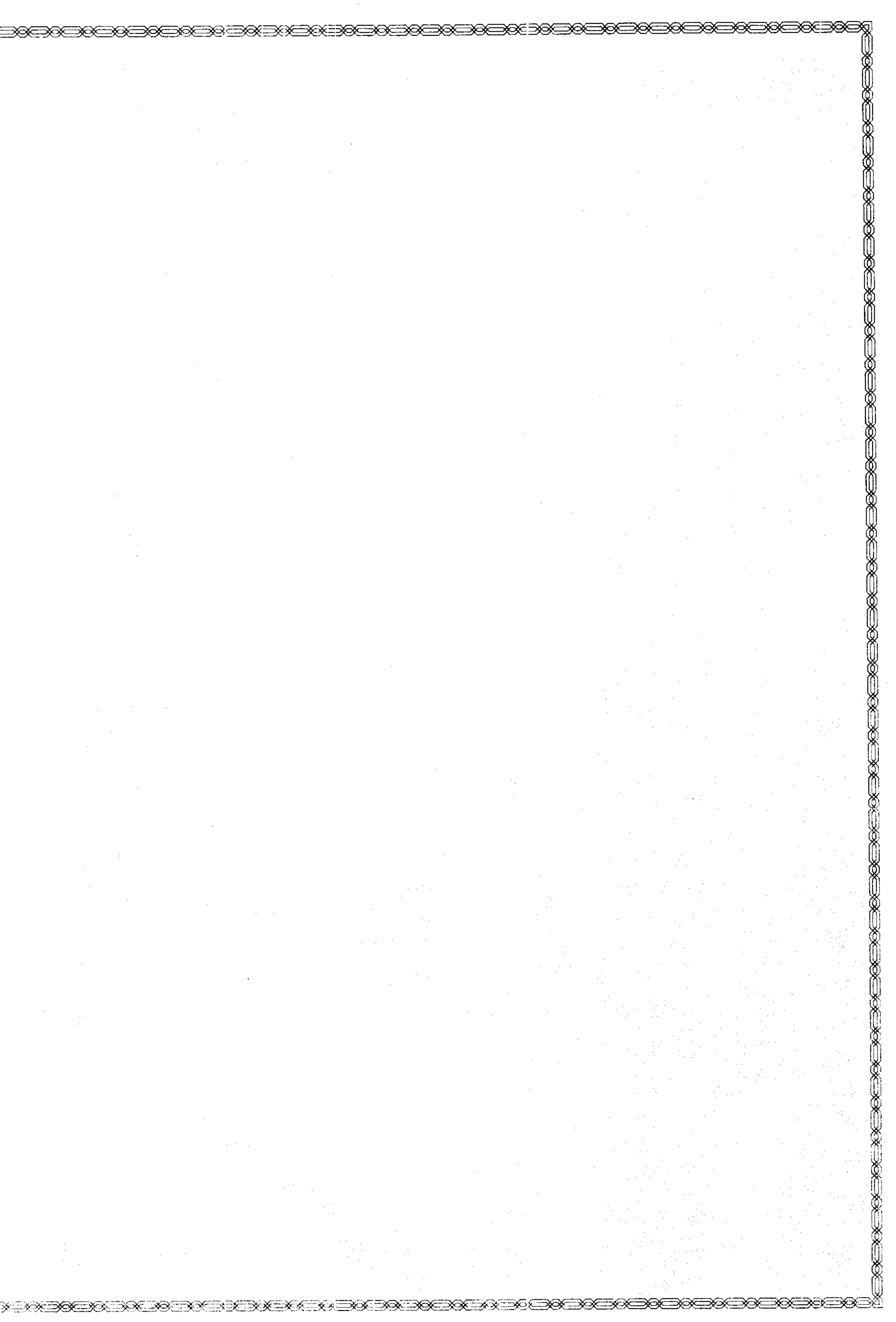
فهرس الجزء الخامس

من

كتاب تفسير القاسمي

المسمى

محاسن التأويل



فهرس الجزء الخامس

سورة الأعراف

سورة التوبة